





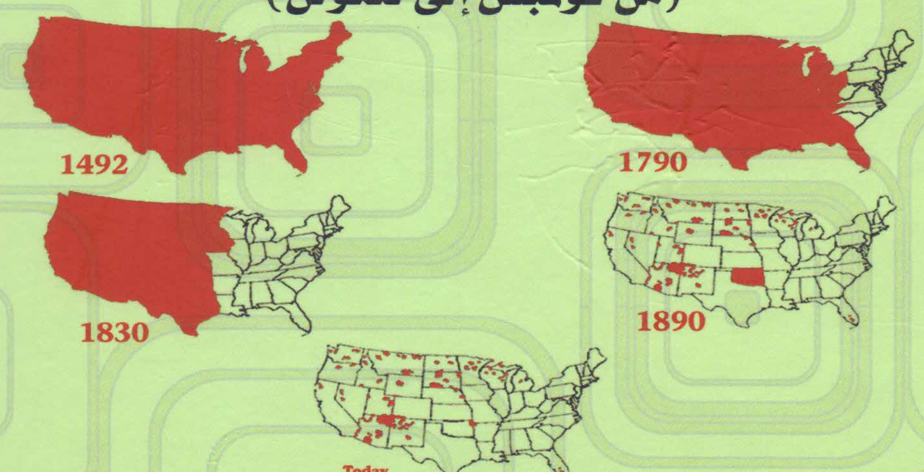
محمد شعبان صوان

أمريكا الإسرائيلية وفلسطين الهندية الحمراء

تاريخ السوابق الأمريكية للجرائم الإسرائيلية

دراسة مقارنة

(من كولمبس إلى لنكولن)



ابن النديم للنشر والتوزيع

دار الروافد الثقافية - ناشرون

محمد شعبان صوان

باحث وكاتب من فلسطين.

هذا الكتاب

في زمن يكتشف فيه الغرب العنصري الأصول الشرقية والإفريقية للحضارة الإغريقية والغربية ويتقدم للاعتراف "بأثينا السوداء"، نسمع كثيراً في أحاديث المصير الفلسطيني في المشرق، الذي تعلم المساواة من الإسلام قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة ، عبارة: لسنا هنوداً حمراً، وإذا تجاوزنا إيحاءات التفوق العنصرية التي تشي بها هذه العبارة التي تتقبل سلم الأجناس الذي وضعه الرجل الأبيض وتحاول إثبات جدارتها "البيضاء" والنأي عن الملونين، سنجد أن هذه المقولة تكشف عن الجهل المطبق بتاريخ القضيتين الهندية والفلسطينية في مواجهة الأوروبيين والأمريكيين والإسرائيليين حيث امتدت نقاط التشابه على صعيدي سياسات المستعمِر، وردود أفعال المستعمَر، إلى أدق التفاصيل التاريخية، والتي لا تقف عند حد وجود استعمار استيطاني ومقاومة ضده، وهو ما توضحه هذه الدراسة بالتفاصيل التي تنفذ إلى أعماق السياسات الاستيطانية وردود الأفعال المقاومة، ومن يريد أن يتجنب مصير الإبادة الذي عانى منه سكان أمريكا الأصليون فعليه التعلم من دروس الماضي التي قاسى منها الهنود الحمر من قبلنا رغم استبسالهم في ساحة المقاومة اليائسة أمام طوفان الهجرات، وعليه كذلك عدم الاستعلاء على شركاء في التجربة التاريخية في مواجهة عدو مشترك، وبكل أسف فإننا مازلنا بعيدين عن هذا الاعتبار ومازلنا نقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها من قبلنا ثم نكتفي بالتبجح بكل عنصرية بأننا لسنا هنوداً حمراً.

ISBN 1-85-369-9931-978

9 789931 369851 >

ابن النديم للنشر والتوزيع
الجزائر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1 المحمدية
تلفاكس: 21341359788+
خلوي: 213661207603+
email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية - ناشرون
هاتف: 204180 (96171)
ص.ب: 6058 - 113 الحمراء
بيروت - لبنان
email: rw.culture@yahoo.com

أمريكا الإسرائيلية
وفلسطين الهندية الحمراء



ابن النديم للنشر والتوزيع
دار الروافد الثقافية - ناشرون

أمريكا الإسرائيلية
وفلسطين الهندية الحمراء

تاريخ السوابق الأمريكية للجرائم الإسرائيلية
دراسة مقارنة
(من كولمبس إلى لنكولن)

محمد شعبان صوان





أمريكا الإسرائيلية وفلسطين الهندية الحمراء

تاريخ السوابق الأمريكية للجرائم الإسرائيلية

تأليف: محمد شعبان صوان

الطبعة الأولى، 2016

عدد الصفحات: 768

القياس: 17 × 24

الترقيم الدولي ISBN: 978-9931-369-85-1

الإيداع القانوني: 2015-2361

ابن النديم للنشر والتوزيع

الجـزائـر: حي 180 مسكن عمارة 3 محل رقم 1، المحمدية

خلـــوي: 03 76 20 661 213+

وهـــران: 51 شارع بلعيد قويدر

ص.ب. 357 السانيا زرباني محمد

تلفاكس: 88 97 35 41 213+

خلـــوي: 03 76 20 661 213+

Email: nadimedition@yahoo.fr

دار الروافد الثقافية ـ ناشرون

هاتف خلوي: 204180 (96171)

ص. ب.: 113/6058

الحمـراء، بيروت–لبنان

Email: Rw.culture@yahoo.com

الفهرس

القسم الثالث

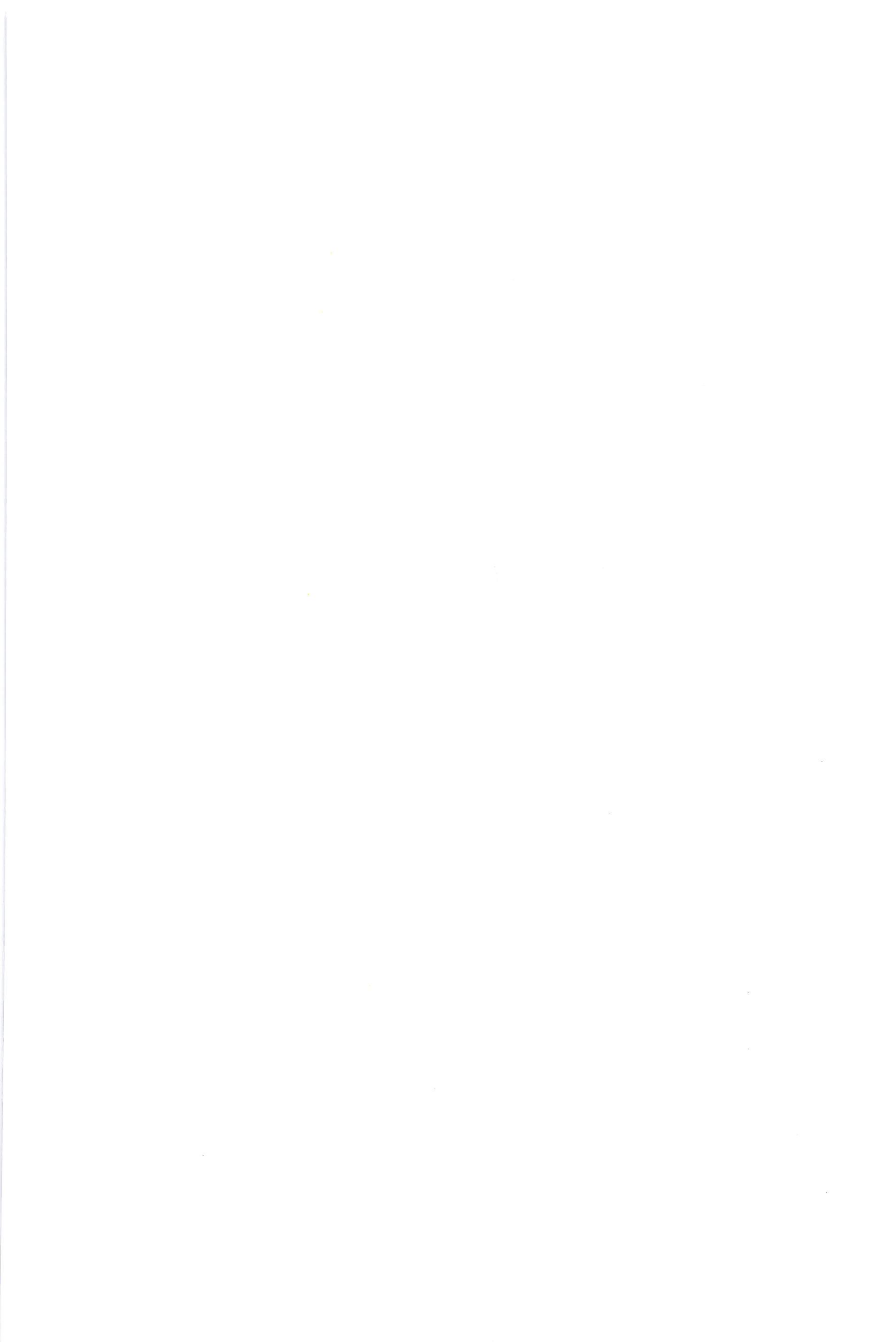
الخلاصات والعبر من قراءة التاريخ الأمريكي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[الأعراف: 176]

صدق الله العظيم



المقدمة

لم تعد الروابط الدينية والثقافية والحضارية التي تميز العلاقات الأمريكية الصهيونية من القضايا المخفية عن القارئ العربي، فمنذ ثمانينيات القرن العشرين ظهرت مجموعة من الكتب الهامة التي توثق جذور هذه الروابط وترجعها إلى أصولها العقائدية التي بدأت مع الإصلاح الديني البروتستانتي الذي جعل التوراة اليهودية في متناول المواطن الأوروبي العادي وأزاح عنها التفسيرات المجازية التي كانت الكنيسة الكاثوليكية تغلف بها النصوص المقدسة وتوائمها مع المعتقدات المسيحية التقليدية التي نسخت انتخاب الشعب الإسرائيلي المختار ووعده بأرض الميعاد، وذلك لصالح أتباع يسوع المسيح، كما اكتسح هذا الإصلاح العقيدة اليهودية التقليدية التي كانت قد أجلت كل وعود التوراة إلى قيام المسيح المنتظر، وساق في طريقه اليهود أنفسهم نحو تبني التدخل البشري في تحقيق الإرادة الإلهية والتسريع بظهور المسيح بعدما كان هذا التدخل في إرادة الله يعد نوعاً من الكفر والهرطقة.

هذه الجوانب شرحت بالتفاصيل في كتب كثيرة أماطت اللثام عن أسباب تميز العلاقات الأمريكية الصهيونية عن بقية العلاقات الأمريكية بعملائها في العالم، ولماذا يتسابق المسئولون الأمريكيون والمرشحون للمسئوليات لتأييد السياسات الصهيونية وعدم قدرتهم على مواجهتها علناً أو الضغط عليها ضغطاً مؤثراً، وما هو سر الشعبية الكاسحة لهذه التوجهات التي تهدد كل من يقف في وجهها بالعزل السياسي والنبذ الاجتماعي.

ما تحاول هذه الدراسة توضيحه هو نقاط التشابه بين النموذجين التاريخيين الأمريكي والصهيوني وذلك بواسطة إلقاء نظرة على تاريخ السابقة الأمريكية التي حلت بالسكان الأصليين فمارست ضدهم كثيراً من السياسات التي مارسها

الصهاينة ضد العرب فيما بعد كما أثارت لدى هؤلاء الهنود كثيراً من ردود الفعل التي تطابق ردود فعل أهالي بلادنا على التجربة الصهيونية.

وقد وجدت أن الجريمة الاستيطانية الصهيونية التي عانت بلادنا منها ليست سوى نموذج مصغر من جريمة استيطانية أكبر اتخذت من القارة الأمريكية مسرحاً لها على مدى أربعة قرون، وكان منطلق التشابه بين الجريمتين هو سعي القائمين عليهما في كل حالة منهما إلى امتلاك أرض يقطنها شعب آخر، ولهذا استمدت التجربتان مثلهما الأعلى من التوراة اليهودية المكرسة لسرد حكاية شعب احتل أرضاً غريبة وطرد أهاليها منها، وهذا هو سر العلاقة الحميمة بالتوراة في كلا الحدثين رغم الطابع العلماني الذي غلب على التجربتين، ولكن التشابه لم يقف مقتصراً على المنطلق أو المبرر النظري وعملية الطرد العملي، فقد امتد التطابق إلى الأفكار والسياسات التفصيلية اللازمة لإزاحة الشعوب الأصلية وإلى الطرق التي واجه بها هؤلاء الأهالي التحديات التي وجدوا أنفسهم أمامها.

إن النقطة المركزية في هذه الدراسة هي أن ما قام به الكيان الصهيوني في بلادنا سبق أن قامت به الولايات المتحدة ومن قبلها المستوطنون الأوروبيون في بلاد الهنود الحمر، وليس الأمر مجرد طرد وإحلال، إذ أن التشابه أعمق من ذلك ويمتد إلى السياسات التفصيلية التي لو كنا قد أحطنا بها وعلمنا آليات عمل الكيانات الاستعمارية الاستيطانية، لوفر ذلك علينا كثيراً من المعاناة والخسائر التي دفعناها ثمن تجارب سياسية فاشلة كان غيرنا قد سبق إليها فأحبطته أيضاً، ولا أدعي أننا كنا سننتصر ونعيد ما سلب منا، فهذا الأمر ليس متوقفاً على مجرد المعرفة التاريخية وحدها بل هو مرتبط كذلك بموازين القوى التي ليست لصالحنا في هذه المرحلة التاريخية.

كان هناك دروس كثيرة يمكن أن نتعلمها فتختصر طريقنا وتوفر خسائرنا، ولعل أهم هذه الدروس هي أن الكيانات الاستعمارية الاستيطانية التي يأتي مهاجروها دائماً من بلاد أكثر تقدماً من البلاد التي يهاجرون إليها، غالباً ما ترفع شعارات نشر الحضارة في البلاد التي تستعمرها فيُظن بأن المقصود هو تعليم وتمدين الأهالي، ولكن الحقيقة هي أن المستعمرين الاستيطانيين يقصدون نشر الحضارة لأنفسهم ويستثنون أصحاب الأرض عموماً من جنتهم لأن حاجتهم إلى

الأرض تجعلهم يستهدفون تدمير المجتمعات القائمة عليها فضلاً عن استثنائها من أسباب الحضارة والقوة التي يمكن أن تستعمل في الدفاع عن الوجود، ولهذا يعدل المستوطنون سياساتهم حتى على مستوى الشعار النظري لتلائم حاجاتهم فلا يتصورون مساواة مع "الأعراق الدنيا" أصحاب الأراضي المستهدفة حتى لو حققوا تقدماً كبيراً على مستوى التحضر والتنصر، وهذا ليس عجيباً لأن المراد هو سلب الأرض منهم لا نشر الحضارة بينهم، فالحضارة في نظر المستعمرين هي حكر على استمتاع من أقامها وليست حديقة عامة يدخلها من شاء، ولهذا نشر المستوطن الصهيوني الحضارة لنفسه على أرض الفلسطيني الممنوع من دخول الجنة الصهيونية، وهذا هو تفسير الهوة بين حياة الرفاهية في المستوطنات وحياة الفلسطيني المهددة دائماً بجوارها في الضفة الغربية، هذا إذا لم نذكر قيام حضارة الكيان المتقدم كله على نكبة وتهجير الشعب الفلسطيني سنة 1948.

لقد ظن كثير من الهنود أن علاج تناقضهم مع الرجل الأبيض يكون باندماجهم كلية في الحضارة الأمريكية وتبنيها تبنياً شاملاً ليفسح لهم مجال الحياة داخلها بعدما أقامت مجتمعها على أنقاض "البربرية" و"الهمجية" التي لا مكان لها في عالم المدنية، وقد ذهب بعض هؤلاء الهنود بعيداً في مضمار التشبه بالرجل الأبيض حتى وصفهم هو بالقبائل المتمدنة إقراراً منه بما حققوه في هذا المجال إذ عمل أفراد هذه القبائل الجنوبية بالزراعة وحرثوا أراضيهم بالثيران وبنوا بيوتاً خشبية للسكن ولبسوا الأنسجة القطنية والصوفية ورعوا المواشي وتعلموا الإنجليزية ودرس قادتهم القانون وابتكروا حروفاً لكتابة لغتهم الشفوية وأصدروا بها صحيفة لهم، وامتلك مزارعوهم العبيد واعتنق كثير منهم الديانة المسيحية، أي أنهم أصبحوا كالبيض في في حياتهم وتخلوا عن طريقتهم السابقة.

ولكن كل ذلك لم يشفع لهم عندما طمع الرجل الأبيض بأرضهم وثرواتها، وقام بطل الديمقراطية الأمريكية الرئيس أندرو جاكسون بتأييد من الكونجرس والشعب بترحيلهم إلى أراضي الغرب القاحلة والاستيلاء على بلادهم الخصبة لغرض استيطان البيض، فرحل الهنود في رحلة عذاب سموها درب الدموع (1838) بسبب موت الآلاف منهم فيها نتيجة البرد والأمراض والإنهاك والجوع، وما زالت ذكراها حية لديهم إلى اليوم.

والغريب أنهم واصلوا في الغرب ما بدءوه في الشرق رغم صعوبة الظروف، وأعادوا بناء حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحاولوا تأسيس ولاية خاصة بدستور مكتوب تنضم إلى الولايات المتحدة ولكن التجربة ضُربت مرة ثانية عندما طمع الرجل الأبيض بالأرض التي وعدهم بها لتكون ملكاً أبدياً لهم وتم الاستيلاء على أفضلها لتمنح إلى اللصوص وشذاذ الآفاق من المستوطنين وضم الباقي إلى ولاية أوكلاهوما البيضاء (1907) وتُرك الهنود فيها نهباً للفقر والبؤس والحرمان والإدمان والانتحار.

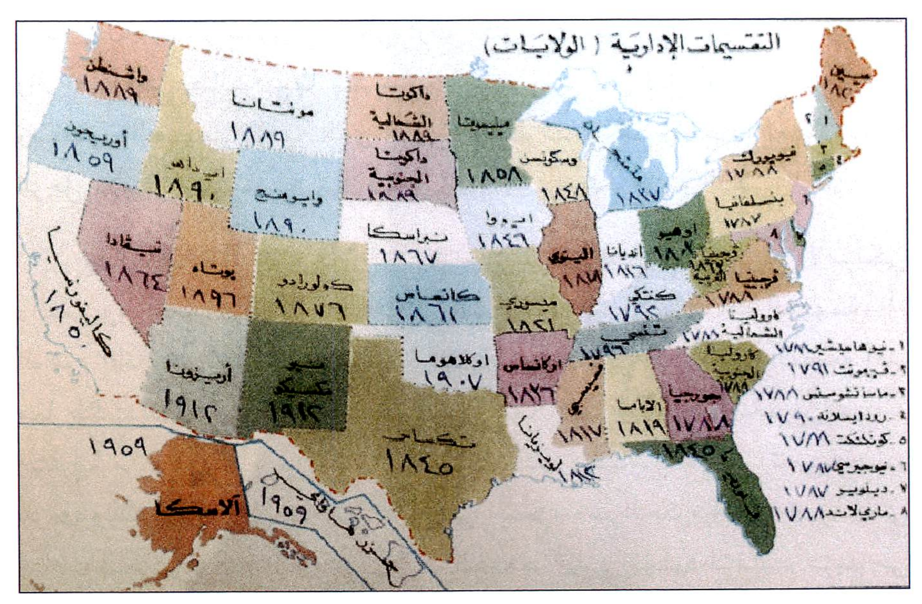
كل هذا يؤكد هامشية الهدف الحضاري في المشروع الاستيطاني، ولهذا لم يعبأ الصهاينة بتدمير المجتمع الفلسطيني رغم الخطوات التي كان قد قطعها في سبيل التطور والتقدم، ولهذا فمن غير المجدي أن نستمر في تقديم أوراق اعتمادنا حضارياً لدى الصهاينة، ومن الإسفاف أن نثبت لهم أن الفتاة الفلسطينية أصبحت تكشف عن ساقيها في المباريات الرياضية بصفة ذلك دليلاً على مدى تطورنا وكأن المشروع الصهيوني قام بغزو فلسطين ليزرع فيها غابة من السيقان (!)

لقد كان التناقض بين الشعبين الأمريكي والأصلي في القارة الأمريكية كما هو الآن بين الصهاينة والشعب الفلسطيني، ولم يكن مجرد تناقض بين نظام ظالم وشعب يعيش في بلده كبقية أنواع الاستعمار والاحتلال، ولهذا كان الحاكم الذي يريد أن يحظى بالشعبية بين شعب المستوطنين يقوم باضطهاد وقمع السكان الأصليين ويبني مجده على دمائهم وعظامهم، كما كانت الحركات الشعبية والاتجاهات الجماهيرية تطالب بهذا الاضطهاد والقمع وانتهاك الحقوق لتبني مجتمعها على أنقاضه، وربما سبق التطرف الشعبي حسابات السياسة الحاكمة ورؤيتها الدبلوماسية للطرق الأذكى لتحقيق الأهداف، بل إننا نقرأ أن محاولة بريطانيا كبح التمدد الاستيطاني في أرض الهنود (1763) كانت من أسباب الثورة الأمريكية "التحررية الديمقراطية الإنسانية ... إلخ"، ولهذا لن نعجب إذا وجدنا كثيراً من الرؤساء الأمريكيين كانت حملاتهم العسكرية على الهنود هي التي رفعتهم إلى سدة الرئاسة كما بنى القادة الصهاينة فيما بعد أمجادهم من انتصاراتهم على العرب، ولن نعجب أن نرى التناسب عكسياً بين تقدير الأمريكيين لرئيس وتقدير السكان الأصليين له، فكلما خدم شعبه الأمريكي،

انتهك حقوق الهندي، ولهذا فإن ثلاثة من الرؤساء ذوي الشعبية الجارفة (واشنطون وجيفرسون ولنكولن) والذين حفرت تماثيلهم على جبل راشمور في ولاية داكوتا تقديساً وتبجيلاً مكونة "مزار الديمقراطية" كانوا من الذين أسسوا نظرياً وعملياً لاضطهاد السكان الأصليين وسلبهم حقوقهم فضلاً عن مشاركتهم الشخصية في عملية القمع والاضطهاد، وقام رجال "محرر العبيد العظيم" أبراهام لنكولن بسلب حرية الهنود في نفس الوقت الذي كانوا يدّعون فيه تحرير العبيد الأفارقة في الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)، ومن الدلائل المهمة أن نصب راشمور أقيم على أرض هندية مقدسة عندهم ومسروقة منهم وما زال أصحابها يطالبون بها منذ سلبت منهم بغير حق قبل أكثر من قرن وربع ويرفضون التعويض الكبير الذي عرض عليهم مقابل التنازل عنها بعدما حولها الرجل الأبيض إلى مشروع سياحي ومنجم معدني يستخرج منه الذهب الوفير.

وإذا أردنا الحديث عن التطابق بين النموذجين التاريخيين الأمريكي والصهيوني فعم أتكلم وماذا أترك: هل أتكلم عن المعاهدات المبهمة، أم الوعود الكاذبة، أم ارتكاب المجازر التي طالت القبائل المسالمة والمطيعة أكثر مما طالت المقاومين لنفس السبب الذي نسمع عنها اليوم وهو تحميل المسالم مسئولية من يقاوم، أم عن استعمال أسلحة الدمار الشامل، أم عن تدمير مصادر الرزق والمعيشة لجعل أصحابها عالة على المساعدات الحكومية التي تصرف متى شاءت الحكومة وتقطع متى أرادت الضغط على الهنود لتقديم مزيد من التنازلات، أم عن طريقة التعامل مع الزعماء المنتخبين الذين يمثلون شعوبهم ويتمسكون بحقوقها ومحاولات الحط من شأنهم وتدمير مكانتهم وعزلهم أو قتلهم للإتيان بعملاء مطواعين يُشترى أحدهم بزجاجة خمر للتوقيع على التنازل عن حقوق شعبه وأرضه، كل هذا وغيره سنراه في ثنايا هذه الدراسة التي قضيت عمراً طويلاً في تحصيل تفاصيلها ولما حاولت ضمها في كتاب واحد وجدته يتضخم حتى تعذر صدوره في جزء واحد، ولهذا آثرت تقسيمه جزئين يختص الأول منهما بفترة ممتدة من وصول الأوروبيين إلى أمريكا (1492) فيما سمي "اكتشافاً" مع أن شعوباً عديدة كانت تعرف هذه القارة وتسكنها، أي أنها "اكتشفتها" قبل الأوروبيين بآلاف السنين، ولكن الأوروبيين لا يقيمون وزناً إلا لما يقومون هم به، وينتهي الجزء الأول بما بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية

عندما أجهز رجال "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن على أبرز زعماء السلام الهنود (1868)، أما الجزء الثاني فسيتركز بإذن الله على آخر أيام المقاومة الهندية المسلحة الممتدة منذ نهاية الحرب الأهلية الأمريكية (1865) وحتى هزيمة هذه المقاومة وإغلاق منطقة التخوم الهندية والقضاء على استقلال الهنود كلياً بمجزرة الركبة الجريحة (1890) مع بعض الإشارات للنضال السياسي فيما بعد ذلك مما سيعطينا درساً مهماً عن مآل المفاوضات على مقدساتنا.



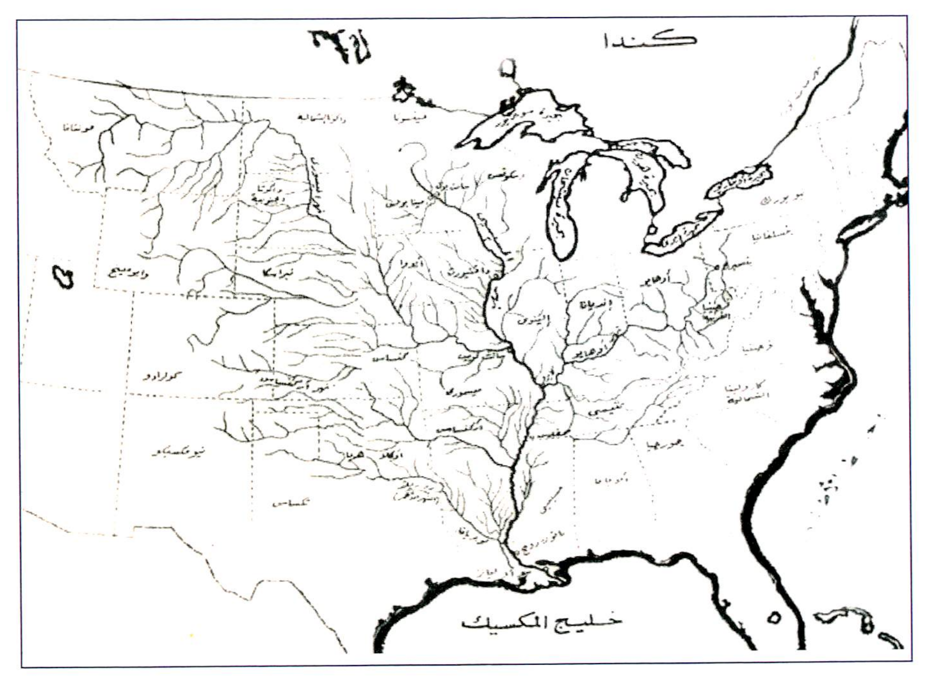
خريطة الولايات الأمريكية[1] وتواريخ انضمامها إلى الاتحاد ويلاحظ أن التوسع كان يتجه غرباً بمرور الزمن

(1) الأطلس المدرسي للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة، 2008، ص197.



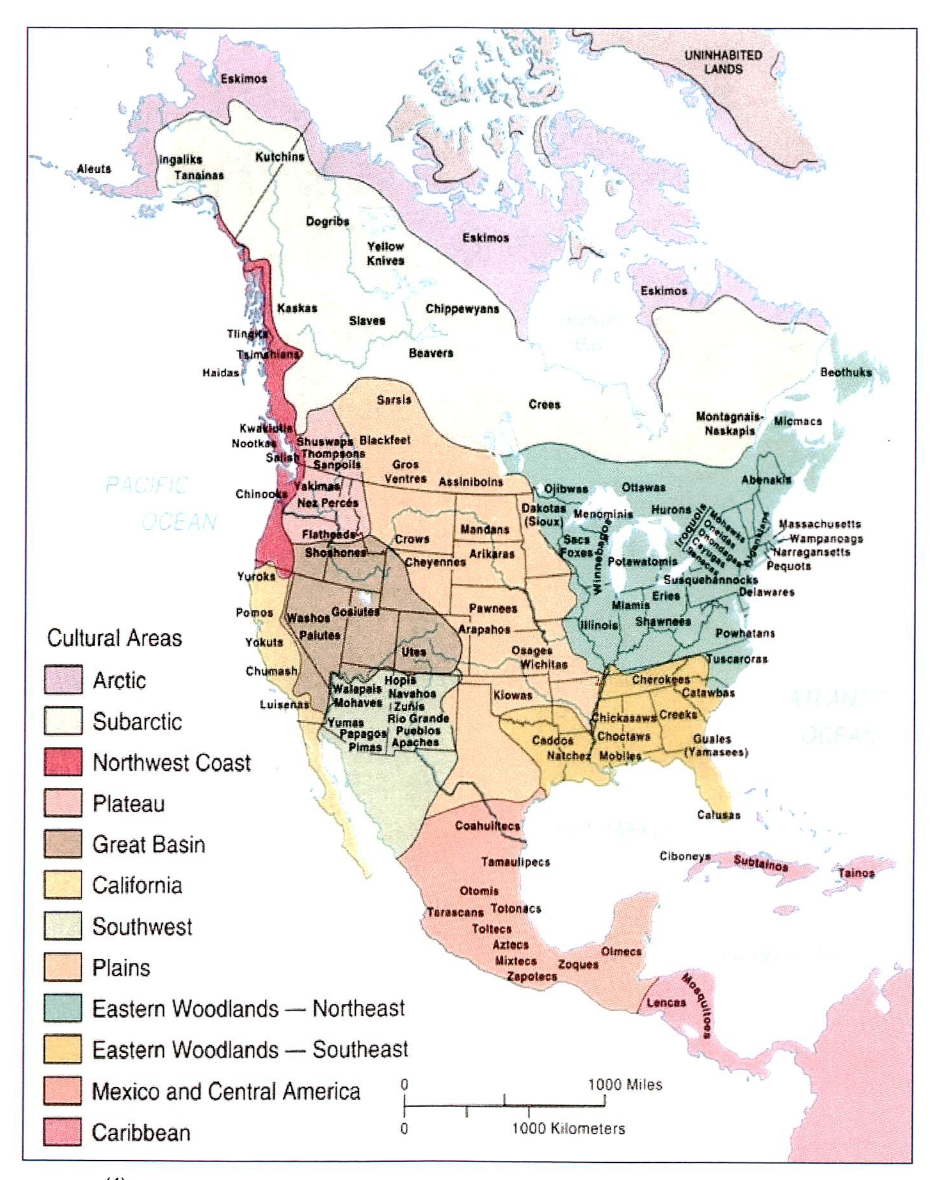
توزيع الولايات على الأقاليم المختلفة وتواريخ انضمامها للاتحاد[2]

(2) http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D8% AD%-D9%82:%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%85%D8%A9_%-D8%A7%D9%84%D9%88% D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%D8%AA_%D9%88%D8%A7%D9% 84% D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B7%D9%82_%-D8%A7%D9%84 %D8%A3%D9%85%D8%B1%D9%8A%D9%8A%D 9%83%D9%8A%D8%A9#mediaviewer/File:U.S._Territorial_Acquisitions.ar.png



نهر المسيسبي والأنهار الرئيسة في الولايات المتحدة (الميسوري وأوهايو) وسيرد ذكرها كثيراً في هذا الكتاب[3].

(3) لوبر، 1968.



خريطة تبين المواطن الأصلية للقبائل الهندية حسب المناطق الجغرافية[4]

(4) http://lochgarry.files.wordpress.com/2011/11/indian-cultures-map.jpg



خريطة تبين اختلاف طرق المعيشة للقبائل الهندية حسب المناطق الجغرافية[5] ويلاحظ انتشار الزراعة من تكرار صورة الذرة وهو أمر سيعمى عنه الرجل الأبيض فيما بعد

(5) Hunt، 1973، ص6.

ملخص تاريخي

سياسات التوسع القاري في التاريخ الأمريكي

بين الدوافع والتبريرات ونظائرها الإسرائيلية

بحث تاريخي يقرأ الحاضر في الماضي

تحاول هذه المقدمة التاريخية التعرف بإيجاز على السياسات التي اتبعتها الولايات المتحدة تجاه السكان الأصليين في أثناء مرحلة التوسع داخل القارة الأمريكية، وتحديد مدى اتفاق هذه السياسات مع التبريرات التي قدمت لما لحق بالهنود من اقتلاع وتشريد وإبادة، وتبيان أن هذه التبريرات حتى على المستوى النظري لم تكن لتنتج أو تخدم سوى عملية الاستيلاء على الأرض وما استلزمته من فظائع القتل والسلب وإن ظهرت لأول وهلة خلاف ذلك، لعل في هذه الذكرى ما يكون لنا عبرة، وسيجد المتابع كثيراً من المطابقات بين الماضي والحاضر في مفردات تاريخية عديدة سواء في تصرفات المعتدي أو دفاع الضحية، والتاريخ يعيد نفسه عندما لا نعي درسه.

إن قضية الهنود في أمريكا واحدة من أكثر القضايا مأساوية في التاريخ البشري، إذ أنها انتهت بإبادة شبه كاملة لهذا العنصر الذي ملأ هذه القارة بأشكال شديدة التنوع من الحياة البشرية في يوم ما، وهناك أكثر من تفسير لما حل بهؤلاء السكان الأصليين من كوارث، وتراوحت هذه التفسيرات بين القدرية المستسلمة والإدانة الكاملة للسلوك البشري سواء "الإرهاب" الهندي أو الامبريالية الأمريكية، وتنطلق هذه الدراسة من مسئولية الإنسان في صناعة مصيره، وأن القوي الذي يملك وسائل التغيير يتحمل قدراً أعلى من المسئولية من الضعيف الذي لا يملك سوى رد الفعل الذي قد لا يكون بمستوى ما يقع عليه من ظلم وافتئات.

فما هو السبب الذي قاد السكان الأصليين نحو هذه الخاتمة؟ أي ما الذي جعل الرجل الأبيض القوي يصل بالهندي الضعيف إلى هذه النهاية المأساوية؟ وبكلمات أخرى: لماذا ارتكب الأمريكي هذه الجريمة الكبرى في الوقت الذي كان يدعي فيه العمل على جلب الحضارة للضحايا؟ وما أعنيه هو هل كانت الحضارة حقاً هي الدافع للسياسات الأمريكية تجاه الهنود الحمر؟ وما هو الدور الذي أدته المصالح المادية كالاستيلاء على الأرض وثروات الطبيعة في عملية التوسع القاري التي سبقت التوسع الخارجي ورسمت خطوطه فيما بعد؟

لمعرفة الدوافع الحقيقية لغزو أمريكا ستتنقل الدراسة بين تجليات السياسة الأمريكية المتعلقة بمختلف التبريرات التي تحدث عنها الرجل الأبيض أثناء انهماكه في هذا الغزو الذي استمر أربعة قرون قاسى أثناءها السكان الأصليون من الأهوال ما لم نتحمل نحن منه قرناً واحداً بعد نهاية الحدود في أمريكا (1890) وخروجها للعدوان على بقية العالم حيث كنا نحن في مركز هذا العدوان المستمر إلى اليوم، ولهذا فمن المهم أن نطلع على هذه التجربة التاريخية التي تشبه حاضرنا في كثير من الزوايا.

من هم سكان أمريكا الأصليون؟

يطلق على معظم سكان الأمريكتين اسم الهنود الحمر بسبب الخطأ الذي وقع فيه كريستوفر كولمبس عند وصول حملته الاستكشافية إلى شواطئ جزر الهند الغربية في الكاريبي وظنه أنه وصل إلى الهند وكان بعض قبائل السكان الأصليين يصبغون أنفسهم بطلاء أحمر فأطلق عليهم التجار الأوروبيون هذه الصفة، أما في الحقيقة فإن سكان أمريكا لم يكونوا هنوداً ولا حمراً.

وبسبب الشبه العرقي بين الهنود الحمر والجنس المغولي لا سيما سكان التبت وأندونيسيا[1]، فإنه يعتقد بأن الهنود وصلوا إلى أمريكا من آسيا عبر مضيق بيرنج الذي يفصل بين القارتين حينما كانتا متصلتين وقبل اختراع القوارب، وتختلف التقديرات الزمنية عن هذه الهجرة ويصل بعضها إلى ما قبل 30 ألف سنة قبل الميلاد.

(1) المهندس، 1981، ص94.

وقد اختلفت البيئات الحضارية التي عاشت فيها القبائل الهندية في الأمريكتين اختلافاً كبيراً حسب التنوع الجغرافي في هذه الأرض الواسعة، فمن الغابات الاستوائية الكثيفة إلى الصحارى القاحلة والمناطق شبه المتجمدة، واختلفت كذلك تكويناتهم الحضارية فمنهم بناة مدنيات كبرى كالأزتك والمايا والإنكا التي ضاهت مدنيات الشرق القديم، ومنهم القبائل البدائية بسيطة التكوين، ومنهم أيضاً المجتمعات الزراعية والرعوية والمعتمدة على مختلف أشكال الصيد كصيد السمك أو الوعول أو الثيران، وقد انقسم هنود أمريكا الشمالية موضوع حديثنا إلى عدد كبير من القبائل اجتمعت كل مجموعة منها في بيئة جغرافية مناخية ميزتها عن بقية المجموعات من حيث طرق المعيشة، فهناك غابات الساحل الشرقي حيث الزراعة وأشكال من الصيد، وهناك السهول العظمى في الوسط حيث الاعتماد الكلي على صيد الجواميس وحياة التنقل خلف القطعان وهناك حياة الهضاب غرب السهول حيث صيد الأسماك وجمع الجذور وهناك منطقة الجنوب الغربي حيث القرى الطينية المستقرة المعتمدة على زراعة الحقول وصناعة الفخار وهناك المناطق شبه المتجمدة حيث الاعتماد على صيد الأسماك والتنقل بحثاً عن صيد الوعول، بالإضافة إلى كاليفورنيا حيث الاعتماد على صيد البر والأسماك بالإضافة إلى بذور البلوط، يعلوها الساحل الشمالي الغربي حيث حياة الوفرة الطبيعية من منح الأنهار والبحر والغابات.

وتكلم هنود أمريكا ما يقارب ستمائة لهجة-بعدد القبائل-صنفت داخل 200-300 لغة صنفت بدورها ضمن بضعة عشرات من الأسر أو المجموعات اللغوية، ولم يكن من الضروري أن تتحدث القبائل المتجاورة نفس اللغة وذلك لأن التنقل والانفصال اللذين طبعا حياة الهنود عبر العصور باعدا بين العشائر المتقاربة وجعلا من الانتقال بين وسائل المعيشة وطرق الحياة ظاهرة متكررة بين هذه القبائل، وقد جعل تعدد اللغات من المستحيل توحد القبائل الهندية ضد الخطر الأمريكي[2]، (هل نتعظ من ذلك ونفهم حقيقة دعاة الانصراف عن اللغة العربية الموحدة؟).

---

(2) White، 1979، ص49-51.

مراحل الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين

1 - منذ وصول كولومبس (1492) إلى بداية تأسيس المستعمرات (1607):

قاد كريستوفر كولومبس حملة استكشافية باسم ملكي إسبانيا فرديناند وإيزابيلا للبحث عن طريق آخر إلى الهند غير الذي يسيطر عليه المسلمون، وللحصول على موارد من الذهب لإنفاقها على فتح بيت المقدس[3]، وذلك في نفس العام الذي سقطت فيه غرناطة آخر معاقل المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبعد اكتشاف القارة الأمريكية التي لم تكن معروفة في العالم القديم آنذاك، أدركت أوروبا أن هذه الأرض ليست الهند وذلك على يد أمريكو فيسبوتشي (1505) فسميت أمريكا تيمناً به، وأرسل ملوك أوروبا عدة حملات استكشافية إلى تلك الأرض الجديدة لتحمل معها ادعاءات بملكيات واسعة لهم فيها، وقد واجه الإسبان منذ البداية المدنيات الهندية الكبرى في أمريكا الوسطى والجنوبية وقاموا بتدميرها بوحشية ودموية، إذ غزا هرناندو كورتيز امبراطورية الأزتك في المكسيك (1519) ثم غزا فرانسيسكو بيتزارو امبراطورية الإنكا في بيرو (1532).

إلا أن الصدام بين الأوروبيين وهنود أمريكا الشمالية تأجل قرناً كاملاً وذلك لأن الكنوز الذهبية والفضية التي دفعت المغامرين لقيادة الحملات ضد الأزتك والإنكا لم تكن موجودة في الشمال كما أثبتت ذلك عدة حملات قادها كثير من الباحثين عن مدن الذهب الخيالية، أما الكنز الوحيد الذي امتلكته القبائل الشمالية، وهو الأرض التي تزدحم بثروات الطبيعة، فلم تكن حملات المغامرين تصلح للإفادة منها، وكان الأمر بحاجة إلى نوع آخر من المغامرة والاحتلال هو الاستعمار الاستيطاني، ولم تكن دول أوروبا التي ادعت ملكيتها لشمال أمريكا متفرغة في ذلك الوقت لعمليات الكشوف كتفرغ إسبانيا والبرتغال، بل كانت مشغولة بشئون أوروبا الداخلية وصراعاتها إلى أن اعتلت الملكة إليزابيث الأولى عرش إنجلترا (1558) وبدأت توجه أنظارها وراء البحار فأعطت

(3) تودوروف، 1992، ص17.

في البداية أحد المقربين إليها وهو الرائد الاستعماري والتر رالي براءة استملاك لكل الأراضي التي يتمكن من استعمارها، فقام بمحاولتين لإرسال المستوطنين في 1585 و1587 إلا أنهما انتهتا بالفشل ولم تقم محاولات أخرى إلا بعد بداية القرن السابع عشر حين قام التاج بإصدار براءات للشركات والملاك لإقامة المستعمرات على الساحل الشرقي للقارة الجديدة ووصل عددها إلى ثلاث عشرة مستعمرة ألفت نواة الولايات المتحدة فيما بعد، وفي ذلك الوقت تواجد الهولنديون حول خليج هدسون (نيويورك فيما بعد) والفرنسيون في منطقة البحيرات الكبرى.

وقد سارت عملية فتح القارة واستيطانها وفقاً للترتيب الآتي: في البداية منطقة الشمال الشرقي حيث نيو إنجلاند وساحلها الأطلسي، وبعدها منطقة البحيرات الكبرى وهي ما سمي الشمال الغربي القديم، وبعدها منطقة الجنوب الشرقي وفلوريدا، وبعد ذلك كاليفورنيا، وبعدها الشمال الغربي، ثم منطقة الحوض الكبير، وكانت السهول العظمى في وسط أمريكا هي المنطقة الأخيرة[4] التي شهدت العدوان الأمريكي والمقاومة الهندية التي ردت عليه.

2 - منذ تأسيس المستعمرة الأولى (1607) إلى استقلال المستعمرات عن بريطانيا وقيام الولايات المتحدة الأمريكية (1776):

تأسست المستعمرة الإنجليزية الأولى على الساحل الأمريكي الشرقي في سنة 1607 وهي جيمس تاون في ولاية فرجينيا وقد استمد اسم المستعمرة من اسم الملك الإنجليزي جيمس الأول واستمد اسم الولاية من الملكة العذراء إليزابيث الأولى، وحكمها جون سميث الذي قاتل العثمانيين في هنجاريا، وتتابع تأسيس المستعمرات الاثنتي عشرة بعد ذلك حتى سنة 1733 حين تأسست المستعمرة الثالثة عشرة وهي جورجيا في الجنوب.

وقد اختلفت الدوافع التي جعلت المهاجرين الأوائل يذهبون إلى أمريكا، ومن ذلك البحث عن حرية الدين وهرباً من الاضطهاد البروتستانتي أو الكاثوليكي

(4) White، 1979، ص213.

في أوروبا، بالإضافة إلى الرغبة في الحراك الاجتماعي والبحث عن مستويات معيشية أفضل ومن ذلك العمل في التجارة لاسيما تجارة الفراء وزراعة المحاصيل التجارية التي وفرتها أراضي العالم الجديد لاسيما التبغ.

وفي جميع الأحوال رحب السكان الأصليون بالوافدين الجدد في بداية الأمر وقدموا لهم مساعدات مختلفة ليتمكنوا من التأقلم مع البيئة الجديدة، فعلموهم الزراعة والصيد وصناعة الطعام وأنقذوهم من الجوع وأعطوهم مساحات من الأرض ليعيشوا عليها، إلا أن استمرار تدفق المهاجرين وازدياد عدد المستعمرين الذين احتاجوا مزيداً من الأراضي والموارد وقاموا بدفع الهنود شيئاً فشيئاً عن أراضيهم إلى أراض رديئة في الغرب جعل الأهالي يتصدون لهذا الاستيلاء على أرضهم.

ففي مستعمرة فرجينيا رحب الهنود بالمستوطنين وقدموا لهم يد المساعدة ثم انقلبوا إلى مقاومتهم مما أدى إلى نشوب أولى الحروب الهندية الكبرى وهي حرب البوهاتان سنة 1622 والتي انتهت بهزيمة أصحاب الأرض بالطبع أمام السلاح الإنجليزي وذلك رغم الخسائر الكبيرة التي تكبدها الرجل الأبيض، ولم يبق من هنود فرجينيا في بداية القرن الثامن عشر سوى ألفين من أصل ما يزيد عن عشرين ألفاً[5]، ومن المفارقات الدالة أن انتصار المستعمرين في فرجينيا على الهنود جعلهم يتخلون عن فكرة ضمهم وهدايتهم إلى المسيحية[6]، وهو ما يشير إلى مركزية دور المصالح المادية بالاستيلاء على الأرض في تكوين نظرتهم إلى الهنود، ومما يؤكد كون الأرض هي محور الصراع وأن التناقض كان بين شعبين غاز وصاحب حق أن رفاهية القاعدة الشعبية بما فيها من فقراء ومعدمين في فرجينيا توقفت على قمع واضطهاد الهنود وسلب حقوقهم والاستيلاء على بلادهم كما اتضح من الثورة التي اندلعت في المستعمرة سنة 1661 بقيادة ناثانيال باكون ضد فساد حاكم المستعمرة وساندها الفقراء والخدم بل والعبيد، طالبت بإبادة الهنود أو تهجيرهم وإزاحتهم من طريق الاستيطان ووعدت أنصارها بالحرية وتوزيع أراضي الهنود عليهم، وبدأت بسلسلة من المجازر ضد السكان الأصليين

(5) Thornton، 1990، ص70.

(6) Marks، 1998، ص6.

ثم تحولت إلى الثورة على الحاكم مما ألجأ النخبة لتخفيف الضرائب عن سكانها والتحول عن استخدام الخدم البيض المتعاقدين وخفضت متطلبات حريتهم وانتقلت إلى استخدام العبودية الإفريقية، وتبنت سياسة أكثر عدوانية تجاه الهنود لفتح أراضيهم لصغار المزارعين، وبهذا اعتمدت حرية جمهور البيض واستقرارهم في المستعمرة بشكل واضح على الاستيلاء النهائي على أرض الهنود واستعباد الأفارقة[7]، (يستند اليمين الصهيوني المتطرف كذلك في فلسطين على جمهور من الطبقات الدنيا المكونة من اليهود الشرقيين الأكثر معاداة لبقية أهل الشرق من معاداة اليهود الغربيين الأشكناز).

وفي منطقة نيو إنجلاند الشمالية حيث أنشأ المتطهرون الكالفينيون المتعصبون "البيوريتانيون" المستعمرة الثانية وهي بلايموث سنة 1620 فيما سيصبح ولاية مساشوستس، أنقذ الهنود أيضاً المستوطنين من الموت جوعاً وشاركوهم في غذائهم وعلموهم صيد الأسماك وزراعة الذرة وتخلوا لهم عن مساحة واسعة من الأرض تقدر ب12 ألف فدان، إلا أن استمرار قدوم السفن المحملة بالمهاجرين المتعصبين الذين دفعوا الهنود بطريقة توراتية عن أراضيهم نحو أراض رديئة أدى إلى نشوب حرب البيكوت (1637) حين قام الإنجليز بمذبحة مروعة أحرقوا فيها مئات الهنود في بيوتهم حتى انقرض اسمهم كما مسح الله اسم أعداء بني إسرائيل تحت السماء وفقاً لما جاء في التوراة[8]، أو هكذا نظر شعب الله الإنجليزي إلى الحدث، ثم حمل الدفاع عن البقاء الزعيم الوحدوي ميتاكوميت على إعلان الحرب على مستعمرات البيوريتانيين في سنة 1675 فيما يعرف بحرب الملك فيليب كما سماه المستعمرون، فهاجم 52 مستوطنة وتمكن من تدمير 12 منها تدميراً كاملاً، ثم استطاع المستعمرون قتله في السنة المقبلة (1676) وعرضوا رأسه في حصن بلايموث لمدة 25 عاماً[9]، وكانت هذه الحرب أعنف صراع في المنطقة في القرن السابع عشر، ونتج عنها إخلاء نيوإنجلاند من سكانها الأصليين[10].

(7) Foner، 2004، ص94-95.
(8) Wherry، 1993، ص76.
(9) Hoxie، 1996، ص374.
(10) The New York Public Library، 1997، ص5.

هكذا كان النموذج في معظم الحالات: ترحيب هندي بمهاجرين مساكين لا يلبث عددهم أن يزيد مما يؤدي إلى نزاع على الأرض والموارد وسوء معاملة للأهالي كالغش التجاري والاسترقاق وفرض العمل بالسخرة والاستيلاء على الأراضي دون مقابل واغتصاب النساء والحرب الثقافية بالتبشير الذي يؤدي إلى انحلال التماسك الاجتماعي وإدخال الأمراض الفتاكة التي قضت على مجتمعات مزدهرة وإغراق هذه المجتمعات بالبضائع التي تفقدها استقلالها وتجعلها معتمدة على تجارة الرجل الأبيض والوقوع في فخ ديونه، وكل ذلك مما يقود إلى إشعال الحروب.

ولم تكن الحروب محصورة بين السكان الأصليين والمستعمرين الاستيطانيين، بل تنافست أيضاً دول أوروبا على الأراضي والموارد في العالم الجديد ونشبت حروب طاحنة لاسيما بين فرنسا وإنجلترا عرفت بالحروب الفرنسية الهندية لأن الهنود كانوا ينحازون فيها إلى الجانب الفرنسي الأقل خطراً على وجودهم في أراضيهم بسبب قلة الاستيطان الفرنسي واهتمامه بتجارة الفراء بالدرجة الأولى[(11)]، وفي الجولة الأخيرة من هذه الحروب والتي عرفت بحرب السنوات السبع (1756-1763) وكان لها امتداد في كل العالم بين بريطانيا وفرنسا، انتصر الجانب البريطاني الذي كان مستعمروه يحاولون التمدد على أراض فرنسية وتنازلت فرنسا عن أملاكها في كندا وتخلت عن حلفائها الهنود في معاهدة باريس 1763 "بجرة قلم"[(12)].

كانت هزيمة فرنسا بداية ثورة هندية جديدة حين وجد السكان الأصليون أنفسهم في مواجهة خطر الاستيطان البريطاني دون دعم من قوة عظمى، وشعر الهنود بحقيقة الخطر الذي يمثله المستوطنون الإنجليز، فقام بونتياك زعيم قبائل أوتاوا بتوحيد القبائل في منطقة البحيرات العظمى وتمكن من إحراز انتصارات أسقط أثناءها جميع قلاع المنطقة ولم يتبق سوى قلعتين كما أغار على المستعمرات والمزارع إلى أن تمكن الجيش البريطاني من إنهاء الثورة بعد تخلي حلفاء بونتياك عن مؤازرته.

(11) Carlisle، 1978، ج20، ص2649.

(12) Calloway، 2006.

وفي السابع من أكتوبر/ تشرين أول 1763 أصدر الملك جورج الثالث إعلاناً ملكياً استهدف إحكام سيطرته على المستعمرات[13] وتهدئة مخاوف السكان الأصليين، فحدد خطاً فاصلاً على طول جبال الأبالاش بين أراضي الهنود في الغرب وأراضي المستعمرات في الشرق، ومنع المستوطنين من عبور هذا الخط والاستيطان غربه، وكان ذلك من أسباب النقمة على الملك ومن محفزات الثورة عليه، إلا أن الاستيطان استمر واستمرت كذلك غارات الهنود لحماية أراضيهم حتى قامت الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني فغيرت مجرى الأحداث.

3 - منذ استقلال الولايات المتحدة (1776) إلى وصول الاستيطان نهر المسيسبي (1840):

ثارت المستعمرات في أمريكا على حكم التاج البريطاني في سنة 1776، ولكن الثورة لم تحظ بإجماع المستوطنين، فقد اشترك فيها ثلثهم، وعارضها ثلث آخر انضم إلى الجيش البريطاني، ووقف الثلث الأخير على الحياد، كما لم ينضم إليها المستوطنون في كندا وظلوا على ولائهم لبريطانيا، وقد وقف الهنود في هذا الصراع إلى جانب بريطانيا لأن طمع المستوطنين كان هو الخطر الأقوى على أرضهم واستقلالهم ووجودهم.

وقد أثبتت الثورة التناقض بين الشعبين نتيجة الصراع على الأرض، وأن ازدهار الجمهور الأمريكي متوقف على إزاحة الهنود من طريقه، وهو ما ثبت منذ بداية الاستيطان وأكدته حوادث التناقض بين القاعدة الشعبية العريضة في الجانب الأمريكي والقبائل الهندية، كثورة باكون 1661 التي جاءت الثورة الأمريكية لتنسج على منوالها، ولتؤكد أن الثوار عازمون على الانفصال عن الامبراطورية البريطانية في الشرق ليؤسسوا لأنفسهم امبراطوريتهم الخاصة في الغرب[14].

ولذلك كانت الثورة كارثة على السكان الأصليين، ولا عجب في ذلك لأن جوهرها كان الصراع على الأرض التي يمتلكها الهنود، وقد أدرك الثوار حقيقة

---

(13) Jennings، 2000، ص78.

(14) نفس المرجع، ص200.

تناقضهم مع أصحاب الأرض ولهذا لم يطمعوا بأكثر من وقوفهم على الحياد أثناء الثورة في مقابل وعود بإقامة ولاية هندية مستقلة، ولكن مجريات الصراع أوضحت المستقبل أمام السكان الأصليين الذين اعتدى الثوار على قراهم وقتلوا أبناءهم ودمروا محاصيلهم وسلبوا أرضهم بأوامر مباشرة من قائد الثورة "الأسطوري" جورج واشنطن الذي رفع إلى مقام الآلهة، ولم يسلم حتى حلفاء الأمريكيين من الهنود من هذا المصير المأساوي وكان ما أصابهم من العدوان والقتل لا يختلف عما أصاب بقية أبناء قومهم من الذين قاتلوا الأمريكيين، ورغم معاهدات السلام لمكافأة الحلفاء، فقد استمر الاستيطان في أراضيهم بوتيرة أسرع بعد ذلك (كالاستيطان الصهيوني بعد أوسلو)، وقتل الأمريكيون حلفاءهم الهنود واغتصبوا أراضيهم كما فعلوا مع أعدائهم تماماً، وإضافة إلى الضرر المباشر الذي تسببت فيه الثورة الأمريكية التحررية التي "ألهمت" ثوار العالم فيما بعد، فقد فتح انتصارها الباب لمزيد من القمع والاستيلاء على أرض الهنود بعدما أصبح المستوطنون هم الحكام[15].

وبعد هزيمة بريطانيا في حرب الاستقلال تخلت عن حلفائها الهنود بجرة قلم أيضاً كما فعلت فرنسا من قبل، وتفردت الحكومة الأمريكية بالسكان الأصليين وفرضت عليهم معاهدات الهزيمة (1784-1786) والتي سلبت منهم أراضيهم بلا مقابل وفرضت عليهم خطاً حدودياً جديداً ادعت أنها لن تسمح لمستوطنيها بمجاوزته ولكنها لم تلتزم بذلك ولم توف بتعهداتها كما أخلفت من قبل وعودها لمن سالمها أو تحالف معها من الهنود بإقامة ولاية هندية تدخل الاتحاد كبقية الولايات، واستمر تدفق المستعمرين إلى داخل الأراضي الهندية.

ورغم القوانين المتعاقبة التي أصدرها الكونجرس الأمريكي "لحماية" حقوق السكان الأصليين من جشع المستوطنين وطمع التجار وغشهم، فإن هذه القوانين لم تفد في كبح التوسع ومنع تصاعد الاستياء بين الهنود، ولما عبر المستوطنون نهر الأوهايو شمال غرب الجمهورية الوليدة رد الهنود بغارات

---

(15) Calloway، 1995، ص31 و58 و64 و82 و103 و177 و194 و209 و236 و244 و282 و285 و290-291.

- العسلي، 1980، ص70-71.

انتقامية دفاعاً عن أراضيهم، فأرسل الرئيس جورج واشنطون حملات عسكرية ضدهم دخلت في حرب استمرت بين 1790-1795 وتراوحت بين أكبر هزيمة تلقاها جيش أمريكي في الحروب الهندية قاطبة (1791) وانتصار على الهنود (1794) أدى إلى تخليهم عن مجمل إقليم أوهايو في معاهدة جرينفيل (1795).

وقام الكونجرس في السنة التالية (1796) برسم الحدود الهندية من جديد والتي لا يسمح بالاستيطان الأمريكي بعدها، ولكن المستوطنين واصلوا تقدمهم وتعديهم مما أدى إلى إشعال الحرب مرة أخرى وكانت هذه المرة بقيادة تكومسيه زعيم قبائل الشاوني والذي عمل على إقامة وحدة هندية أيضاً شاملة هذه المرة للوقوف في وجه التمدد الاستعماري الأمريكي ودفع خطره إلى الأبد، وانضم أخوه إلى دعوته مانحاً إياها جوهراً دينياً فدعى إلى التمسك بالثقافة الهندية والابتعاد عن تقليد الأمريكيين لاسيما في شرب الكحول الذي أفسد الهنود ودمر مجتمعاتهم، وأقام الأخوان مركزاً لدعوتهما عرف بمدينة النبي، وقام تيكومسيه بزيارات لمختلف القبائل بين البحيرات العظمى شمالاً وخليج المكسيك جنوباً، أي على طول الولايات المتحدة، فلاقت دعوته نجاحاً وبدأ يحضر للثورة مستفيداً من التناقض البريطاني-الأمريكي ولكن الأمريكيين عاجلوه بالهجوم قبل أن يتم تحضيراته وهزموا جيشه في سنة 1811 مما كان سبباً في إشعال حرب 1812 بين بريطانيا وأمريكا وفيها قُتل تكومسيه سنة 1813، وتمكنت الحكومة الأمريكية من إخلاء منطقة الشمال الغربي المحيطة بالبحيرات الكبرى من الهنود بمعاهدات عقدتها مع القبائل مقابل مساعدات سنوية تركت السكان الأصليين تحت رحمة أعدائهم.

وفي الجنوب الأمريكي رسمت الحكومة كذلك حدوداً هندية يمنع الاستيطان الأمريكي خلفها ولما لم يلتزم المستوطنون بذلك حدثت صراعات وقفت فيها الحكومة الأمريكية إلى جانب مواطنيها البيض وتحطمت المقاومة العسكرية الهندية على يد من سيصبح رئيساً فيما بعد وهو الجنرال أندرو جاكسون في سنة 1814.

وفي توجه نحو مزيد من تجريد السكان الأصليين من بقايا حقوقهم تبلورت في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر سياسة النقل (التي عرفت في السياق

الصهيوني بسياسة الترانسفير)، وفي اعتراف يؤلف عذراً أقبح من الذنب أقرت الإنسانية الأمريكية بالأثر المدمر لاحتكاك الهنود بالأمريكيين لأن الهندي سلبت أرضه وأمواله واختفت فضائله واكتسب الرذائل من الأمريكي، أما الجانب الرسمي فأقر ذلك ضمنياً بالقول إن الهندي يفتقر للصفات اللازمة للحياة في مجتمع متحضر كالذكاء والمثابرة والأخلاق والرغبة في التغيير وإن التمدد الأبيض دمر موارده وحرمه منها، ولذلك فمن الخير والأفضل له أن يعيش بعيداً كي يتجنب مصير الفناء[16]، وكل ما عدا الإقرار بالأثر السلبي للبيض كان مجرد ذرائع أو أكاذيب كما سيتبين لنا فيما بعد، ولم يغب عن ملاحظة أحد الباحثين أن التوفيق بين الادعاءات السابقة عن الآثار المحمودة للاحتكاك بالبيض وتبني الملكية الفردية والرغبة اللاحقة في إبعاد الهنود عن ذلك ظل مشكلة لأنصار الترحيل[17] وكان هو الحل المقترح، أي نقل جميع القبائل المتبقية قي شرق الولايات المتحدة إلى أراض في غرب نهر المسيسبي لتمارس حياتها كما يروق لها، أو لتكتسب الحضارة على مهلها، أي بعيداً عن ادعاءات التمدين والتحضير والتنصير الفارغة، وبالفعل أنشئت المقاطعة الهندية (في ولايات أوكلاهوما وكانساس ونبراسكا فيما بعد) ورسمت الحدود الهندية "الدائمة" مرة أخرى وأقر الكونجرس "سياسة النقل" سنة 1830 ومنح الرئيس صلاحية التفاوض مع القبائل لتستبدل بأراضيها الشرقية أراض في الغرب على أساس أن هذا هو "الحل الوحيد" للمشكلة الهندية ولتأمين "سلامة" السكان الأصليين، مع منح سيل من التعهدات بعدم اختراق الأراضي الهندية أو التعدي على الحدود "الدائمة"، وبالفعل حصلت الحكومة على الموافقة الهندية بوسائل الغش والخداع والتهديد والتحايل والرشوة وشراء الأصوات واصطناع الزعماء وتزييف الإرادة، وتم التوقيع بين 1830-1835 بعد مقاومة عنيفة وقمع دموي، وأُرسل الهنود إلى الغرب في رحلة مأساوية أطلق عليها درب الدموع لكثرة ضحاياها الذين قدرت نسبتهم بربع المرتحلين نتيجة البرد والمرض والجوع والإنهاك.

وكانت آخر ثورات المقاومة الهندية الوحدوية في شمال شرق المسيسبي

---

(16) Tucker، 1996، ص42.

(17) Svaldi، 1989، ص86.

هي الحرب التي أعلنها زعيم قبيلة سوك (Sauk) الصقر الأسود في سنة 1832 في منطقة الشمال الغربي القديم جنوب البحيرات الكبرى حيث قام بمحاولة توحيد القبائل كرة أخرى على خطى من سبقه من الزعماء الوحدويين وأعلن رفض سياسة الترحيل التي استندت إلى المعاهدة التي وقعها سنة 1804 أشخاص غير مخولين قبلياً وتنازلوا فيها عن أجزاء كبرى من ولايتين مقابل هدايا وخمور قدمها الأمريكيون لهم ولم يعطوا القبيلة مقابل كل هذه الأرض سوى ألفي دولار ووعد بمؤونة سنوية بألف دولار (بكم زجاجة خمر ينوي الصهاينة شراء فلسطين اليوم؟)، وفي مواجهة المطالب الأمريكية بانتقال قبيلته إلى غرب المسيسبي قاد الصقر الأسود محاربين من القبيلتين Sauk and Fox وشن عدة غارات ناجحة دفاعاً عن حق قومه في أرضهم التي أراد المستوطنون ومن خلفهم الحكومة الأمريكية الاستيلاء عليها واصطنعوا زعامة مزيفة تقبل بكل الإملاءات التي رفضها الزعيم الحقيقي، وقد اغتنت تلك الزعامة من بيع أراضي شعبها إلى عدوها، ورغم النجاح الذي حققته ثورة الصقر الأسود لم يكن لها فرصة للفوز على المد الكاسح الذي أنهى مقاومة الهنود في الشرق بمجزرة راح ضحيتها المئات من الرجال والنساء والأطفال وهم يحاولون البحث عن ملجأ آمن من سطوة الجيش الأمريكي، وقد شارك أبراهام لنكولن في هذه المعارك ضد الهنود ليستكمل زمن رئاسته عملية قمعهم، وتم أُسر الصقر الأسود وعُرض على الجمهور الأمريكي بصفته غنيمة تذكارية من الحرب، ولما توفي 1838 نهب اللصوص قبره وعرضوا رأسه للجمهور[18] ثم وضع هيكله العظمي في مكتب حاكم مقاطعة أيوا المؤسسة حديثاً آنذاك[19].

4 - الاستيطان غرب المسيسبي وحروب السهول ونهاية المقاومة الهندية المسلحة (1840-1890):

أصدر الكونجرس في سنة 1834 قانون تنظيم التجارة والعلاقات مع القبائل الهندية والحفاظ على السلام في التخوم، والذي رسم حدوداً فاصلة بين

(18) Waldman، 2000، ص140-142.

(19) براون، 1982، ص10.

أراضي الهنود والأراضي الأمريكية ومنع الاستيطان في الأراضي الهندية خلف الحدود وحذر من استخدام القوة إذا خالف المستوطنون الأمر، وكان سبب هذا الكرم الأمريكي هو الاعتقاد السائد أن الأراضي السهلية خلف الحدود ليست سوى صحراء قاحلة لا تصلح للمعيشة واستخراج الرزق منها، ومن ثم لا يرغب الرجل الأبيض في الاستيطان فيها[20]، إلا أن الانتهاكات استمرت، فقد جاء الانتصار الأمريكي في الحرب ضد المكسيك (1846-1848) ليضيف أراض واسعة إلى الولايات المتحدة ضمت أوريغون وكاليفورنيا وتكساس ونيو مكسيكو، ثم اكتشف الذهب في كاليفورنيا في نفس العام (1848) فاندفعت سيول المهاجرين والباحثين عن الذهب إلى هذه الأراضي الجديدة مخترقين الحدود الهندية مستولين على أراض ومفسدين أراض أخرى أثناء عبورها، فقامت ثورات في خمسينيات القرن التاسع عشر في كل من مقاطعات أوريغون وواشنطن وكانساس وكاليفورنيا وأرسلت الحملات العسكرية لإخضاعها.

وبعد إخضاع الساحل الغربي من القارة الأمريكية لم يبق سوى منطقة السهول العظمى في الوسط، وهي منطقة واسعة انضمت للولايات المتحدة في سنة 1803 عندما تجاوز الرئيس الأمريكي وملهم الديمقراطية وكاتب إعلان الاستقلال توماس جيفرسون صلاحياته الدستورية التي لا تسمح بحيازة أراض من دولة أجنبية وقام بشراء مقاطعة لويزيانا[21] من فرنسا نابليون بثمن قدره 15 مليون دولار (أي بأقل من ثلاثة سنتات للفدان الواحد)[22]، فضاعف حجم دولته بصفقة واحدة رغم أنه كان من أنصار تقييد الصلاحيات الرئاسية، وأرسل بعثة لويس وكلارك الاستكشافية لدراسة أحوال هذه البلاد وسكانها وجغرافيتها سنة 1804، وكان الاعتقاد السائد أن هذه المنطقة الواسعة والتي أصبحت من أكبر مصادر الحبوب في العالم فيما بعد، منطقة قاحلة أطلق عليها الصحراء الأمريكية الكبرى، ولهذا تأخر الاستيطان فيها وتُرك سكانها الأصليون إلى نهاية مطاف العدوان.

---

(20) Tucker، 1996، ص42.

(21) جوردون، 2008، ص95.

(22) New Standard Encyclopedia، 1999، ج10، صL-412.

وقد اتخذ العدوان على السهول العظمى شكلاً متكرراً منذ البداية: تغلغل استيطاني أو تنقيبي داخل أراضي القبيلة مما يشعل صراعاً مسلحاً يخسره الهنود فيوقعون على معاهدة للتنازل عن الأراضي التي يطمع بها البيض وتضمن لهم الحكومة محمية أو أرضاً في الغرب ولكن لا يلبث الاستيطان والتنقيب أن يمتد إلى الأرض المضمونة فيشتعل الصراع المسلح من جديد بأهواله ومجازره ويخسره الهنود رغم أنهم قد يربحون بشجاعتهم بعض المعارك ثم يُجبرون على التوقيع على تنازلات جديدة عن أراضيهم المرغوبة بشروط أقل ربحاً من المعاهدات السابقة[23]، وقد استمرت هذه الدائرة المفرغة حتى تم القضاء على المقاومة الهندية المسلحة والاستيلاء على كل ما رغب به المستوطن الأبيض وحصر الهنود في الأراضي الأقل جاذبية وخصوبة وكان من المتوقع أن يفنى جنس السكان الأصليين أمام تمدد "الحضارة والمدنية".

وعندما طبقت سياسة النقل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وضعت القبائل الشرقية في مساحات مخصصة لها في المقاطعة الهندية (في ولاية أوكلاهوما فيما بعد)، وكانت تلك أراض يعيش عليها قبائل أخرى مما أدى إلى توترات بين الهنود اللاجئين والأصليين (كما حدث في تاريخ اللجوء الفلسطيني أيضاً)، وكان هذا بداية للتوسع في سياسة المحميات التي اتبعت بعد اختراق الاستيطان حدود نهر المسيسبي، ومع أن تخصيص المحميات سياسة اتبعت منذ بداية الاستيطان في أمريكا (1637)، فإنها اختلفت هذه المرة عن الماضي حين كان الهدف منها نقل الهنود إلى المسيحية وتعليمهم سجايا التحضر الأمريكي مع الاستيلاء على أراضيهم، أما الآن بعد تراجع الاهتمامات الدينية وبقاء الاهتمامات المادية أصبح الهدف هو إزاحة الهندي من طريق الاستيطان بإبعاده غرباً حيث يعيش كما يحب أو يتعلم الحضارة على مهل، ويتم الاستيلاء على أرضه، وكان حصر القبائل في بداية هذه المرحلة، أي بعد وصول الاستيطان نهر المسيسبي، في قطعة من أرض المقاطعة الهندية ولا يجوز لها تجاوزها والاستقرار خارجها، وبعد تجاوز النهر لم يعد الهدف هو "إبعاد" الهندي إلى الغرب، إذ لم يعد هناك غرب خارج حدود الاستيطان، بل "حصر" الهندي في جزيرة يحيط بها

(23) Carlisle، 1978، ج20، ص2653.

الاستيطان من جميع الجهات، وقد صاحبت هذه المحاولات كثير من الحروب الهندية بعد الحرب الأهلية الأمريكية بل وأثناءها (1860-1890)، وذلك لأن الهنود كانوا يرفضون البقاء في قطعة محددة من الأرض لاسيما إذا كانت قاحلة ولا تصلح للاستقرار وحتى لو قبلوا بذلك فلن يلبث التمدد الاستيطاني أن يصلهم وسرعان ما تنقض الحكومة وعودها مما يتسبب في مزيد من الصراع وسفك الدماء، وقد انتهت هذه المرحلة باستيلاء الولايات المتحدة على الأراضي التي تقوم عليها حالياً وحصر الهنود في محميات ظلت تنكمش مع الزمن ووصل أصحاب البلاد إلى حافة الانقراض.

فما هي الأعذار التي قدمها الرجل الأبيض لجريمته؟ وما هي الأسباب الحقيقية لما حل بهنود أمريكا الأصليين؟

مبررات الرجل الأبيض في تدمير وإبادة سكان أمريكا الأصليين

لقد برر المهاجرون الأوروبيون ما حدث لسكان أمريكا الأصليين بتبريرات عديدة أثناء تاريخ الصراع الطويل بين الطرفين، وقد أعطتهم أعذارهم في زعمهم حقاً بالاستيلاء على الأرض من سكانها وطردهم منها، ورغم تنوع هذه التبريرات واختلاف صورها حسب الأفكار السائدة في كل مرحلة وتطورها بمرور الزمن حسب الموجات الفكرية التي تعاقبت على سكان المستعمرات وتنوعت تبعاً للزمان والمكان، فإن جميع هذه التبريرات المختلفة التقت في نقطة مركزية هي منح الحق في الأرض للوافدين وسلبه من أصحابها الأصليين، وكما يقول المثل تنوعت الأسباب والموت واحد.

1 - عصر الإيمان التطهري (البيوريتاني):

وهي الفترة التي تبدأ بوصول المهاجرين الأوائل من طائفة المتطهرين البروتستانتية الكالفينية وتأسيسهم مستعمرتهم الأولى (بلايموث) في سنة 1620، وتمتد إلى نهاية القرن السابع عشر تقريباً، وقد تميزت هذه الفترة بسيطرة المفاهيم الدينية في منطقة نيو إنجلاند وتمسكها الشديد بالتعاليم الحرفية للكتاب المقدس، ورفض أي خروج عليها، وقد كان هدف الآباء الحجاج، كما أطلق

عليهم تشبيهاً لرحلتهم برحلة الحج الديني ودلالاتها للنفس البشرية، "إقامة دولة دينية تحكم بأوامر الله وكانوا يعاقبون من يخرج على هذه الأوامر بالنفي أو الإعدام"[24].

وقد تفاعل تعمقهم في الكتاب المقدس، بعد تركيز اهتمامهم على "العهد القديم"، أي التوراة، مع هجرتهم والمصاعب التي واجهوها فصاروا يرون أنفسهم شعباً مختاراً كبني إسرائيل الذين ذكرت التوراة قصة نفيهم وغربتهم، بل هم إسرائيل الجديدة، فالإسرائيليون الأوائل فروا من بطش فرعون، والآباء الحجاج فروا من بطش جيمس الأول ملك إنجلترا، والإسرائيليون هاجروا إلى أرض الغربة التي وعدهم الرب بها، والمتطهرون هاجروا إلى أرض غريبة أصبحت في نظرهم "أرض الميعاد" كذلك أو "كنعان الجديدة" أو "صهيون الجديدة" أو "أورشليم الجديدة" وهم "بنو إسرائيل الجدد" في مواجهة "الكنعانيين الجدد"[25]، وكما حارب الإسرائيليون الفلسطينيين يقودهم الرب على شكل "عمود النار" من نصر إلى آخر، حارب البيوريتانيون الهنود الحمر، أعوان الشيطان، بدعوة من الله[26]، الذي طهر لهم هذه الأرض من الهنود قبل وصولهم[27]، أي أن النظرة إلى السكان الأصليين في هذا العصر تطابقت مع النظرة التوراتية إلى سكان فلسطين الذين وعد الرب بني إسرائيل بأرضهم وأمرهم باستعبادهم أو إفنائهم[28]، وقد ساد هذا التناقض الذي سببه الصراع على الأرض ودعمه التناقض بين ثقافة الهندي وطريقة تعامله مع أرضه وحياته عليها مع ثقافة البيوريتاني وحياته[29] وطغى على الطبيعة التبشيرية التقليدية للمسيحية

---

(24) فورستر وفوك، ج1، ص17-23.
(25) Slotkin، 2000، ص38 و58.
(26) فوستر وفوك، ص22.
- الشريف، 1985، ص183-184.
(27) Lamar، 1977، ص550.
(28) يفصل الدكتور جورجي كنعان في مؤلفاته النفيسة هذه الأفكار ومن أهم كتبه في هذا المجال:
- وثيقة الصهيونية في "العهد القديم"، 1977.
- أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين، دار الطليعة، بيروت، 1978.
(29) Ahlstrom، 1972، ص102.

ورغبتها في إنقاذ أرواح البشر وفق ما نصت عليه براءات التملك، وغطى على اعتقاد المتطهرين أن الهنود هم نسل القبائل الإسرائيلية العشرة المفقودة والذين يجب إعادتهم إلى حظيرة الرب[30]، ورغم إعلان المتطهرين عزمهم على نشر الإيمان المسيحي بين الهنود فإنهم لم يقوموا بأي جهد في بداية الاستيطان لتحقيق هذا الهدف، وعندما ضغطت كنيسة إنجلترا عليهم للعمل على هداية الهندي، هجموا عليه للاستيلاء على أرضه عوضاً عن هدايته، وانفصلوا عن تلك الكنيسة واستقلوا بكنيستهم، وأصبح الهندي عقبة يجب إزاحتها وليس روحاً يجب كسبها[31]، وتحور التبشير ليلائم الحاجات الجديدة وأصبح وسيلة للتوسع بالحصول على "همج مسالمين"[32] بدلاً من المقاومين، وباصطناع العملاء والمتعاونين بل والمقاتلين سواء ضد أهلهم أو ضد بقية الدول الأوروبية المنافسة لاسيما فرنسا أو بريطانيا[33]، وأدى فشل المهاجرين في احترام الحقوق الهندية إلى تنفير السكان الأصليين منهم وقيام الحروب مبكراً بين الطرفين[34] والتي كان سببها الصراع على ملكية الأرض صراعاً أسقط على الحاضر تناقضاً قديماً لم يكن أيضاً سوى خلاف على الأرض بين بني إسرائيل وأعدائهم وإن اتخذ مسحة شفافة من الخلاف بين الإيمان والكفر، ولهذا فقد أدى تطابق الظرفين الإسرائيلي القديم والبيوريتاني الجديد إلى استنساخ التجربة القديمة بصورة مذهلة في تطابق مفرداتها مع الماضي.

2 - العصر الكلاسيكي الجديد:

في القرن الثامن عشر تغيرت الأجواء الدينية التي كانت تهيمن على منطقة نيو إنجلاند، فمع استقرار المهاجرين وزيادة أعدادهم، وانغماسهم في تحقيق الفضائل الكالفينية المتعلقة بالعمل والكسب والاقتصاد، واكتشافهم الفرص

(30) نفس المرجع، ص156.
(31) Foner، 2005، ص72.
- Jennings، 2000، ص30.
(32) Robert A. Williams، 1992، ص198-199.
(33) Calloway، 1995، ص14 و86.
(34) Ahlstrom، 1972، ص156.

الكبيرة والمتعددة المتاحة أمامهم في الأرض الجديدة، تغيرت وجهة الإيمان وبدأ التوجه نحو العقل والقانون الطبيعي والقبول بفكرة الحرية الدينية[35] اللازمة لاستقرار مجتمع مكون من خليط متعدد من الأفكار، وإن ظل هناك من يحمل لواء الإيمان بحرارة، ومع ذلك فإن ذلك التحول الاجتماعي لم يكن قطيعة مع الماضي وتنكراً له وانسلاخاً عن المفاهيم الدينية في مجتمع ما زال يؤكد تدينه إلى يومنا هذا، بل إن هناك من يرى أن المفاهيم الدينية هي التي مهدت الطريق لهذا التحول[36]، وإن بطريقة غير مقصودة كما يرى بعض المؤرخين[37].

ما يهمنا هو أن تغير بعض هذه المفاهيم الدينية، كفكرة الدولة الدينية التي يحكمها الله، وفكرة عدم الخروج على الأوامر الدينية ومعاقبة من يخالفها، لم يؤد إلى تغير المفاهيم الأخرى ذات الصلة بالواقع الدنيوي والتي تساعد على استغلال الفرص وإخضاع الأرض وحيازتها، بل إن هذه المفاهيم ترسخت واتخذت أبعاداً جديدة، ولا يخفى أن سبب تبدل النوع الأول من الأفكار هو عدم ملاءمتها لمجتمع غص بالاختلافات الدينية في وقت يبحث فيه عن التقدم الاقتصادي الذي حضت عليه أيضاً تلك الأفكار الدينية الكالفينية ومتطلبات الحياة كذلك.

ورغم الممهدات المنطقية لمواقف أكثر إيجابية من الهنود بعد زوال التعصب الديني[38]، وبما أن انتزاع أرض الهنود هو من ذلك النوع الدنيوي من

---

(35) فورستر وفوك، ج1، ص44.

(36) ليرنر، 1967، ص1088-1090.

- Rogin، 1975، ص31.

- Robert A. Williams، 1990، ص196.

ومن أشهر من تحدث عن العلاقة بين البروتستانتية والرأسمالية والتي لم تكن علاقة السبب بالنتيجة كما يظن البعض بل علاقة تمهيد انتقائي لبعض المظاهر وتسهيل الانتشار في العالم بالإضافة إلى التأثير المتبادل بين الأسس المادية وأشكال التنظيم الاجتماعي والمضمون الروحي للإصلاح كما يقول عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر في كتابه الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ترجمة: محمد علي مقلد، ص58-59.

- لونجلي، 2003، ج1، ص34-35.

(37) كروندن، 1995، ص19 و31.

(38) Slotkin، 2000، ص190.

الدوافع الفكرية، فقد ازداد قوة وآثاراً وأصبح التركيز في عصر العقل على اختلاف الثقافة والحياة الهندية عن ثقافة البيض وحياتهم مما يبرر محاربة السكان الأصليين وانتزاع الأرض منهم، وكانت وجهة النظر الأمريكية تقول إن تأخر وهمجية الحياة الهندية التي تتطلب أراض واسعة لحياة الكفاف لا تتفق مع التحضر الذي يستغل الأرض استغلالاً اقتصادياً وينتج منها إنتاجاً غزيراً يكفي لحياة أعداد مضاعفة من البشر لا يمكنها الحياة وفقاً للنموذج الهندي الخامل والكسول، فالهنود لا يعيشون حياة الاستقرار ولا يمارسون الزراعة ولا مكان للملكية الفردية في تنظيمهم الاجتماعي على الرغم من أنها أساس كل تقدم وحافز على العمل الذي هو أساس شرعية حيازة الأرض، ومن لا يعمل عليها لا يمكنه امتلاكها، كما قالوا إن الهنود يسيئون معاملة نسائهم (كشعارات تحرير المرأة المسلمة المضطهدة اليوم) وهم متوحشون ويميلون لشرب الدماء وقتل الأبرياء من النساء والأطفال[39].

وفي المرحلة التي سبقت قيام الثورة الأمريكية (1776)، كان الهنود في نظر سكان المستعمرات مجرد أدوات بأيدي قوى خارجية معادية تتابعت على الاختلاف معهم والدخول في حروب ضدهم، فالفرنسيون هم الذين يدفعون الهنود للقتل والإغارة على المستوطنات[40]، وبعد انحسار الوجود الفرنسي بعد حرب السنوات السبع وجهت التهمة للتاج البريطاني بإثارتهم ضد سكان المستعمرات وفقاً لإعلان الاستقلال الأمريكي نفسه[41]، وبعد زوال جميع التهديدات الأوروبية ظل الاختلاف الثقافي هو المبرر للعدوان وقد ساعدت المفاهيم التوراتية على ترسيخ هذا الاختلاف[42].

ملاحظات على المبررات

عندما نستقصي مبررات الرجل الأبيض في تدمير وإبادة الوجود الهندي

(39) Rogin، 1975، ص116-124.

(40) كيتشام، ص6.

- لاسي، ص49.

(41) فورستر وفوك، ج1، ص114.

(42) Rogin، 1975، ص126-127.

الأصلي في أمريكا، يجب ألا نطالعها بشكل مجرد منفصل عن الواقع، فالهجرة إلى أمريكا كانت تستهدف الحصول على الأرض، وكان لابد من وجود مبررات لانتزاعها من أصحابها إذ لم تكن خالية من السكان تنتظر مالكاً لها، وكان يمكن تجاوز الخلافات الثقافية المجردة بطريقة تستوعب الجميع وفق وجهة نظر الوافدين إذا قبل أصحاب الأرض ترك طريقتهم "البدائية" في الحياة لصالح تبني طريقة المهاجرين "المتحضرة"، وحينئذ لن يعود لأي اختلاف وجود ولا لأي مبرر أهميته، ولكن هذا لم يحدث لأن الخلاف الذي اتخذ الصبغة الحضارية بين طريقتين في الحياة كان يخفي طمع الأقوى ورغبته في الاستئثار بكل ما يملكه الطرف الأصلي الضعيف، ولم تكن المشاركة على جدول الأعمال كما سيتبين فيما بعد، وقد حلت العنصرية التي سادت المجتمعات الغربية "مشكلة" قبول الهندي بإملاءات الرجل الأبيض وجعلت منه كياناً مرفوضاً مهما بالغ في التشبه بالسادة البيض وطاعتهم، ووضعت حاجزاً عالياً جداً بين الطرفين ظل قائماً حتى عندما سقطت الحواجز الثقافية والفكرية والدينية[43]، ولهذا فإنه عندما تبنى بعض الهنود الديانة المسيحية بكل إخلاص ثم بطريقة الحياة كما أملاها عليهم الأمريكيون لم يمنع كل ذلك من توجيه ضربات قاصمة لهم تراوحت بين القتل والسلب والتشريد والنفي والإبادة.

لقد كانت الأرض هي محور الخلاف بين الطرفين وهي التي تحدد السلوك تجاه الهنود بغض النظر عن بقية العوامل الأخرى، ولهذا رأينا أن المجتمعات التطهرية شديدة التدين لم تتبن "الدعوة إلى الإيمان" بين السكان الأصليين سياسة مستقلة عن حاجاتها المادية إليهم بل حاربتهم من أجل الأرض وساعدتها مفاهيم التوراة على ذلك لأنها دارت حول خلاف قديم على الأرض كذلك، ولهذا لم يكن إظهار الود من جانب الهنود حافزاً على رد المؤمنين بالمثل أو بمحاولة كسب أرواحهم لحظيرة الرب، بل كان هذا الود يؤول على أنه رضا من الرب على شعبه الإنجليزي المختار[44]، وبينما يستحق الهنود عندما يستخدمهم الرب لتأديب شعبه رداً عسكرياً من المؤمنين، فإنهم لا يستحقون رداً إيجابياً

(43) Jennings، 2000، ص13-14.

(44) Washburn، 1988، ص535.

عندما يستخدمهم الرب لإسباغ نعمته على أبنائه المختارين ومساعدتهم في حياة البرية الموحشة.

ومما يؤكد مركزية الدوافع المادية أنه في بقية المستعمرات الأمريكية حيث سادت طوائف أخرى تختلف عن المتطهرين، كالكاثوليك والكويكرز وبروتستانت متنوعين، كان بعضهم ولاسيما طائفة المهتزين (الكويكرز) في بنسلفانيا يحملون نوايا طيبة وسلمية تجاه الهنود وبدءوا معهم بدايات واعدة ومبشرة، إلا أن تدفق الهجرة وتزايد الأطماع أدى إلى تنحية ذوي النوايا الحسنة عن الحكم وتسلم غيرهم زمام الأمور في الولاية وانضمامها إلى مسيرة العدوان على الهنود كغيرها من الولايات، هذا ما حدث في أفضل الحالات، أما نيو إنجلاند فهي النموذج المسيطر الذي هيمن بآثاره الثقافية على الحياة الأمريكية في العصور التالية[45].

لقد أدت الأفكار العنصرية دوراً مهماً في المجتمعات الغربية، ومنها الولايات المتحدة، وقد تطورت مع مرور الزمن من احتقار الهنود وطريقة حياتهم مع المطالبة بجلب الحضارة إليهم وتمدينهم[46]، إلى قمة التطرف والصراحة مع سيل التوسع منذ أواسط القرن التاسع عشر عندما طالب أصحاب فكرة "المصير الجلي" باكتساح سهول ووديان وجبال الغرب دون اكتراث بأصحاب البلاد الذين قضى مصيرهم الواضح بفنائهم أمام العرق الأنجلو سكسوني "طليعة الحضارة"، فلم يعد هناك مطالبة بتمدين أو تحضير، فالموت هو المصير والهندي الصالح هو الهندي الميت[47]، وبعدما كان شعار المشروع الاستيطاني صورة الهندي يطلب المساعدة من المستوطن كما صور ذلك شعار شركة خليج مساشوستس في القرن السابع عشر، اختفى ذلك الوهم وأصبح الأمريكيون يرون تقدم المدنية الأمريكية بما فيها من أنوار وزراعة متقدمة في مزارع مسيجة وسكك حديدية وأعمدة الكهرباء والتعليم وحتى الإيمان المسيحي مقتصراً على السكان البيض الذين

---

(45) مارسدن، 2001، ص36.
- فورستر وفوك، ج1، ص17.
- لونجلي، 2003، ج1، ص34.
- New Standard Encyclopedia، ج12، ص175.

(46) كيتشام، ص315.

(47) براون، 1982، ص114 و145.

يتراجع الهنود وأراضي صيدهم وحيواناتهم البرية والظلام الذي يعيشون فيه أمام هذا التقدم ولا ينالهم منه شيء كما صور ذلك الفنان جون غاست في لوحته الشهيرة "التقدم الأمريكي" (1872) التي رسمها أثناء احتدام الحروب الهندية بعد الحرب الأهلية، وما كان لتلك الأفكار العنصرية أن تؤدي ذلك الدور الهام لولا اتفاقها مع متطلبات التوسع الرأسمالي وما تولده أفكار الرأسمالية من نزاع وصراع ومنافسة مما جعل استخدام العنصرية أداة فعالة للقضاء على منافسة الهنود المنتمين إلى جنس آخر في عملية الصراع على حيازة الأرض.



لوحة تصور تقدم الحضارة الأمريكية وتراجع الحياة البدائية أمامها
كما رسمها الفنان الأمريكي جون غاست (1872)

ولابد هنا من الإشارة إلى أن الرأسمالية لا تعرف سوى المنفعة، ولا يهمها عنصرية ولا مساواة، فإذا خدمت العنصرية أغراضها كما حدث في الحالة الهندية تم تبنيها، وإذا وقفت العنصرية في طريقها أزاحتها وتبنت المساواة، ولا مانع من تبني الفكرتين في نفس الوقت، فبينما كانت الولايات المتحدة تقاتل

القبائل الهندية التي تنتمي لعرق آخر للاستيلاء على أراضيها، كانت تقاتل أيضاً بيضاً آخرين وقفوا في وجه توسعها كالبريطانيين والمكسيكيين والجنوبيين، وبينما كانت الرأسمالية الشمالية تحارب الجنوب العبودي تحت شعار المساواة وإلغاء الرق وتحرر العبيد لسحب البساط من تحت أقدام ملاكهم، كانت في الوقت نفسه منهمكة في آخر فصول الحروب الهندية التي انتهت بالقضاء على مقاومة الهنود وسلب حريتهم ووصولهم إلى حافة الإبادة الشاملة بنفس الشعارات العنصرية التي كان الشماليون يحاربونها في الجنوب(!)

ويخطئ من يظن أن سياسة الولايات المتحدة تجاه الهنود تضمنت "عدة أهداف" هي حيازة الأرض وجلب الحضارة والقضاء على تخلفهم... إلخ[48]، لأن سياستها لم تتضمن سوى عامل واحد مستقل هو الاستيلاء على الأرض وثرواتها، أما بقية "الأهداف" فهي متغيرات تابعة لا تؤدي دوراً إلا بما يلائم الهدف الوحيد والمتغير المستقل وهو الأرض، أو حين لا تدخل الأرض ضمن المعادلة وتفسح المجال لعامل آخر في العلاقة مع إحدى جماعات الهنود، وهذا أمر قليل الحدوث، ولو حدث لبرهة فسرعان ما يداخله الطمع ويتغير الحال بدخول الأرض أو الثروة في المعادلة.

والملخص أن الأمريكي زاوج بين المبدأ والمصلحة بل أتبع المبدأ للمصلحة، فأصبحت مفاهيم الإيمان مسخرة للاستيلاء على الأرض بدلاً من هداية السكان الأصليين، وأصبحت مشاريع التمدين بإدخال مفهوم الملكية الفردية لقطعة محددة من الأرض، هي كذلك مشاريع مسخرة للاستيلاء على معظم الأرض للاستيطان، وبينما نجحت في هذا الاستيلاء فقد فشلت في تمدين الهندي[49] لأنها حصلت على "حق" الرجل الأبيض في المعادلة ومنحته الأرض بإخلاص ولكنها لم تعط الطرف الهندي حقه في التمدين بإخلاص مماثل، وهو ما يؤكد حصرية الأهداف التوسعية دون غيرها من الادعاءات الجوفاء.

وقد يكون من الصعب التعميم بهذه الصورة ما لم نلمس الوقائع من

---

(48) Strickland، 1981، ص36.

(49) David Svaldi، 1989، ص79-80.

استعراض مظاهر من السياسة الأمريكية تجاه السكان الأصليين بما يبين حقيقة الأهداف، وسيكون التركيز على القرن الأخير من المواجهات في الجنوب الأمريكي والغرب الأوسط.

صور من السياسات الأمريكية التوسعية تجاه القبائل الهندية

1 - تدمير وتهجير القبائل الزراعية والمتمدنة:

ملأ التوسعيون الأمريكيون الدنيا صراخاً عن "تخلف" الهنود الحمر، الرحل، الذين يعيشون على الصيد ولا يمارسون الزراعة، ونشبت كثير من الحروب بهذا المبرر وتحت عنوان إلزام القبائل بالاستقرار وتعلم الزراعة، ومن كان يسمع ذلك يظن أن جميع السكان الأصليين كانوا قبائل مرتحلة تعتمد على صيد الطرائد ولا يصدق أن قسماً كبيراً منهم كانوا من المزارعين المستقرين والمعتمدين على محاصيل لم يسمع بها الرجل الأبيض من قبل ولم يتعلم زراعتها واستهلاكها إلا منهم، ويكفي في هذا السياق ذكر الذرة التي كانت قبائل الساحل الشرقي تعتمد في معيشتها على زراعتها ومع ذلك أبيد كثير منها عن آخره، ولعل تجربة "القبائل الخمس المتمدنة" أوضح دحض لحجة التخلف والترحال الهندي.

وعندما نريد أن نتعرف على الدوافع الحقيقية لسياسة الولايات المتحدة تجاه السكان الأصليين، من المهم دراسة مواقفها من القبائل الهندية التي حاولت اتباع طريقة حياة الرجل الأبيض، والتي كانت وفق منظوره متحضرة كما اعترف بنفسه عندما أطلق عليها اسم القبائل الخمس المتمدنة The Five Civilized Tribes، وهو ما سيكشف حقيقة الدوافع، فهل قام الرجل البيض بتشجيع هذه القبائل على مزيد من التمدن واتخاذ مزيد من الخطوات في هذا السبيل ومن ثم يمكننا القول إن نشر الحضارة كان أحد أهداف السياسة الأمريكية تجاه الهنود لاسيما إذا تعارضت مع أهدافها المادية؟

قبل الاحتكاك بالوافدين البيض، كانت القبائل الخمس تعيش في منطقة الغابات جنوب شرق الولايات المتحدة حالياً حيث قام اتحاد الولايات الجنوبية أثناء الحرب الأهلية يوماً ما، وأشهر هذه القبائل هي قبيلة الشيروكي التي ستتحمل عبئاً مرهقاً من السياسات الأمريكية فيما بعد ثم يصبح اسمها علامة

تجارية متحفية لواحدة من أشهر السيارات في عالم اليوم، وكانت هذه القبائل تقطن في قرى ثابتة ومستقرة، وعندما احتك أبناؤها بالمهاجرين الأوروبيين كانوا أسرع من غيرهم في تبني حضارة البيض، وكانوا في عشرينيات القرن التاسع عشر قد قطعوا شوطاً كبيراً في التشبه بالحياة الأمريكية، ومن ذلك مثلاً اتخاذهم البيوت الخشبية للسكن، وارتداؤهم الملابس المنسوجة في المنازل، وحرث حقولهم بالثيران، ورعاية المواشي، وتعلم القوانين واللغة الإنجليزية، وبالإضافة إلى التزاوج مع البيض واعتناق كثير منهم المسيحية مما عزز الاقتباسات الثقافية والحضارية، وتمكن أحد عباقرة قبيلة الشيروكي واسمه سيكويا من اختراع حروف مقطعية لكتابة لغة قومه الشفوية في سنة 1821 مما جعلهم يصدرون صحيفة ناطقة باسمهم بداية من سنة 1828، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك بتقليد البيض في امتلاك العبيد لمزارعهم على غرار مزارع الجنوب الأمريكي الذي كانوا يعيشون فيه.

ولكن كل هذه الإصلاحات لم تمنع من دحض فكرة تقدم الهنود "علمياً" ووصفها بالوهم ونسبة ما حدث من تطورات إلى البيض الذين يعيشون بين الهنود أو أصحاب الدماء المختلطة، ومن ثم تبنت الحكومة الأمريكية هذه الأدلة "العلمية"[50] -التي ثبت زيفها فيما بعد- لتدمير هذه المجتمعات عندما طمع المستوطنون بأراضيها واكتشف الذهب فيها، ومنح الكونجرس الرئيس أندرو جاكسون سلطة للتفاوض مع القبائل للوصول إلى معاهدات تستبدل بأراضيهم أراض أخرى في الغرب البعيد ليتم انتقال جميع الهنود إليها، وهي سياسة تعود بجذورها إلى بداية تأسيس الجمهورية عندما تحدث الرئيس جورج واشنطن عن تخلي الهنود عن ديارهم بالقوة والرحيل إلى الغرب[51]، ولكن الرئيس الثاني جون آدمز لم يقدم على تنفيذ ذلك رغم كونه ليس محباً للهنود[52]، ثم كان الرئيس توماس جيفرسون هو مهندس هذا المشروع، ولكن التنفيذ تم في عهد الرئيس السابع جاكسون وخلفه مارتن فان بورين، وكل ذلك يثبت أن الهندي كان عقبة في نظر الأمريكيين منذ البداية وليس مشروعاً للتمدين، ووقف الرئيس

(50) نفس المرجع، ص73-75.

(51) Horsman، 1992، ص6-7.

(52) David Svaldi، 1989، ص86.

جاكسون المعروف بحزمه عاجزاً أمام تهديدات ولاية جورجيا غير القانونية ضد الهنود رغم أن سياسته لم تكن موالية لحقوق الولايات إلى درجة أنه حرك يوماً القوة المسلحة ضد ولاية كارولينا عندما ألغت قراراً اتحادياً، ولكنه وقف على عكس ذلك فيما يختص بالهنود رغم أن المعاهدات ضمنت لهم أراضيهم إلى الأبد، وتجاهل الرئيس الديمقراطي ذو الشعبية الجارفة مطالب الهنود الديمقراطية واعتراض أغلبيتهم على قرار نقلهم إلى الغرب، ولجأ إلى وسائل غير ديمقراطية للحصول على موافقة الهنود أهمها تجاهل المعترضين وقصر التعامل على الموافقين ثم إجبار الجميع على تطبيق رأي هذه الأقلية غير المخولة.

ولذلك لم تسر عملية النقل بسهولة، وقاومت بعض الجماعات بالقوة المسلحة، وتم نقل قبيلة الشيروكي بقوة الجيش الأمريكي في شتاء 1838 في ظروف بالغة الصعوبة فماتت نسبة الربع منهم (4000) في الطريق نتيجة البرد والجوع والإنهاك والأمراض كالحمى والسعال الديكي والزحار (دوسنطاريا) وغيرها حتى أطلق الهنود على هذه الرحلة اسم درب الدموع وهي مازالت تعيش في ذاكرتهم إلى اليوم رغم مرور السنين، كما فقدوا نصف عددهم في السنة الأولى من الاستقرار في موطنهم الجديد نتيجة الظروف القاسية، ولم تكن خسائر التهجير عند بقية القبائل أقل هولاً سواء أثناء الرحيل أو بعد الاستقرار في الأراضي القاحلة في الغرب، فهناك قبائل أخرى أيضاً فقدت نصف أعدادها من رحلة العذاب أو بعد الاستقرار أو نتيجة الحروب التي شنت عليها لإجبارها على الرحيل[53].

ورغم كل ما سبق واصلت القبائل الخمس المتمدنة لاسيما الشيروكي في وطنها الجديد في المقاطعة الهندية (أوكلاهوما فيما بعد) طريقها السابق فاعتمدت السير على طريق الرجل الأبيض من جديد فأعادت تأسيس نظام التعليم وبنت المدارس الابتدائية والعليا وواصلت إصدار صحيفتها باللغة الإنجليزية ولغتها القومية، كما أسست حكومة ذات ثلاث شعب تنفيذية وتشريعية وقضائية واتخذت عاصمة لها وواصلت تبني الديانة المسيحية وبناء الكنائس، ولخص أحد الباحثين

---

(53) Thornton، 1990، ص114 و118.

إنجازاتها بأنها حاولت "بناء مجتمع قائم على أفضل مواصفات حضارة البيض"[54].

ماذا كانت ردة الفعل الأمريكية على كل هذه الخطوات الواسعة التي اتخذتها القبائل المتحضرة في السير في طريق الرجل الأبيض؟ وهل أقنعها كل ذلك لقبول الهندي في المجتمع الأمريكي؟ وهل نجحت كل تلك الإصلاحات في تحويل الهندي إلى رجل أبيض؟

في سنة 1887 أقر الكونجرس قانون التملك الفردي الذي اقترحه السناتور هنري دوز لتقسيم أراضي الهنود إلى قطع صغيرة توزع على الأفراد وعائلاتهم لتكون ملكية خاصة لهم مع فتح بقية أراضي القبائل للاستيطان وتملك البيض، وقد سمي القانون كذلك قانون التحصيص أو توزيع الحصص، وقد غلف بادعاءات إنسانية تحرص على تمدين الهنود ونشر الحضارة بينهم بإدخال مفهوم الملكية الفردية بينهم وكان مقترح القانون ممن يوصفون بأصدقاء الهنود، إلا أن النتيجة التي أسفرت عن تطبيق هذا القانون لمدة 47 سنة صورت كيف أن التوجهات الإنسانية يمكن أن تخدم أحط دوافع الطمع المادي، إذ انتقلت نسبة الثلثين من أفضل أراضي الهنود إلى ملكية البيض وكان ما تبقى للسكان الأصليين هو الثلث الأكثر رداءة وقحلاً، وتصور لقطات عاصرت الحدث كيف وقف عشرات الآلاف من المستوطنين الطامعين على حدود الأراضي الهندية بانتظار لحظة فتحها رسمياً للانقضاض عليها والسبق إليها وكيف تم الاندفاع داخلها واحتلالها وشغلها في وقت قياسي في قصره، وعلى سبيل المثال قام 100 ألف مستوطن في 16 سبتمبر 1893 بوضع أيديهم على ستة ملايين فدان في غضون ساعات قليلة فقط[55].

في البداية لم يطبق قانون التحصيص على القبائل الخمس المتمدنة بسبب الضمانات التي منحها الرئيس جاكسون لها في المعاهدات التي عقدها معهم في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ومنحها فيها أراض في الغرب إلى الأبد مقابل

---

(54) Capps، 1981، ص164.

(55) Ward، 1996، ص391-392.

أوطانها الأصلية في الشرق، ولكن في سنة 1901 بدأ الكونجرس بالتحضير لوضع محميات هذه القبائل ضمن قانون التحصيص وذلك بمنح المواطنة للهنود في المقاطعة الهندية التي تحوي هذه المحميات وذلك لجعلهم تحت سلطة القانون الأمريكي، وبالفعل امتد قانون التحصيص إلى هناك في سنة 1903[56]، ومع ذلك قامت القبائل الخمس بالتعاون مع بقية قبائل المقاطعة الهندية بإرسال مندوبيها إلى مؤتمر عام (1905) أطلق عليه اسم مؤتمر سيكويا تيمناً بمخترع أبجدية الشيروكي، وقام المؤتمرون بتحضير مسودة دستور لعرضه على الكونجرس بصفته القانون الأساس لولاية هندية مستقلة تدخل الاتحاد الأمريكي باسم ولاية سيكويا.

رفض الكونجرس المشروع برمته وأنهى وجود المقاطعة الهندية في السنة التالية (1906) وألحقها بمقاطعة أوكلاهوما التي دخلت الاتحاد بصفتها ولاية أمريكية جديدة في سنة 1907.

لقد برر الرئيس جاكسون عملية نقل الهنود المتمدنين إلى الغرب بالقول إن هذا هو الحل الوحيد للمشكلة الهندية لأن الأراضي غرب المسيسبي غير مطلوبة أمريكياً ومن ثم يمكن تأمين سلامة الهنود حيث لا احتكاك مع البيض، وهو عذر أثبت فشله أمام شره الأطماع إذ لا يمكن المراهنة لمدة طويلة على عزوف اللص عن غنيمة بعيدة، وبُرر قانون التحصيص الذي سلب أراضي الهنود بأنه ضروري لتمدين الهنود عن طريق تعليمهم الملكية الفردية التي لا يمكن التحضر دونها[57]، وأن الملكية القبلية الجماعية تحجز مساحات واسعة أكثر من حاجة القبيلة، ولهذا على الهنود تعلم الطريقة المتحضرة في التملك، ولكن ما حدث بعد إلغاء الملكية الجماعية التي وصفت بأنها تدعم وحدة القبيلة التي هي عائق في وجه تمدين الهمج[58]، (هل ستقبل أمريكا التي تخشى وحدة قبيلة بوحدة عربية أو إسلامية؟)، يؤكد أن تلك التبريرات لم تكن سوى أكاذيب وذرائع لسرقة أراضي الهنود، فقد انتقلت الأراضي الجيدة إلى أيدي البيض ولم يبق مع الهنود

---

(56) Lamar، 1977، ص379.
(57) Strickland، 1981، ص32.
(58) Brandon، 1985، ص388.

إلا الأراضي الفقيرة، وأصبح هنود أوكلاهوما من أفقر الجماعات الهندية في أمريكا الشمالية[59] وذلك بعدما هيئوا أنفسهم ووصل مستواهم إلى إعلان ولاية خاصة بهم، ولهذا فإن قانون التملك الفردي لم يكن كما وصفته الدعاية بأنه كإعلان تحرير العبيد للأفارقة وكإعلان الاستقلال للأمريكيين وكوثيقة الحقوق (الماجنا كارتا) دمجت جميعاً في وثيقة واحدة (!)

وإضافة لمثال القبائل الخمس المتمدنة هناك أمثلة عديدة تشهد بأن التوسع الأمريكي هدم كثيراً من الأنظمة الزراعية الهندية وكذلك الأنظمة التي حاولت السير في طريق الرجل الأبيض، وذلك عندما يحتاج أراضي هذه القبائل، ومن هذه الأمثلة قبيلة البونكا التي كانت تزرع الذرة وتمتلك بساتين الخضار في موطنها الأصلي في نبراسكا ثم نفيت إلى المقاطعة الهندية حيث عانت من "أحزان لا توصف"[60] ومات ربعها من قسوة الظروف وأنكرت الحكومة الأمريكية كونهم بشراً يتمتعون بحماية القانون حتى بعد تأييد المحكمة موقفهم (1879)[61]، وهناك تجربة النافاجو الذين أحرق الجيش الأمريكي محاصيلهم لإجبارهم على ترك بلادهم كما سيأتي.

2 - المحميات الهندية والوكالات الحكومية المسيطرة عليها وسياسة التمدين الفاشلة فيها:

المحميات هي أراض خاصة كانت تُقتطع للهنود بموجب معاهدات مع الحكومة الأمريكية ومن قبلها المستعمرات، وقد دعمت هذه السياسة عملية التوسع لأنها كانت تحصر أصحاب البلاد في أماكن محددة وتفتح بقية القارة الواسعة للمستوطنين والمنقبين والتجار، وقد توسعت الحكومة الأمريكية في اتباع سياسة تخصيص المحميات للقبائل الهندية بعد اعتمادها سياسة نقل هذه القبائل من الشرق إلى الغرب حيث أنشأت المقاطعة الهندية لإيواء كثير من قبائل أمريكا.

وقد ادعى الرجل الأبيض أن الهدف من المحميات هو نشر الحضارة بين

(59) Strickland، 1981، ص36.

(60) Wishart، 1994.

(61) براون، 1982، ص261-272.

الهنود، أي تعليمهم طريقة حياة الأمريكيين، ولهذا السبب كانت المحميات تزود بمعلمي المدارس والمبشرين من مختلف الطوائف المسيحية، والحدادين، والطحانين، وخبراء الزراعة، وتجار مرخصين، وكان جميع هؤلاء يخضعون لسلطة وكيل رسمي تعينه الحكومة، وكان هذا الوكيل يتلقى تعليماته من قسم الشئون الهندية في العاصمة واشنطن، وكان من المفترض أن يقوم بمجموعة من المهمات الرئيسة مثل توزيع المؤن التي تعهدت الحكومة بإرسالها إلى الهنود مقابل التنازل عن أراضيهم والقبول بالعيش في المحمية، وحماية الهنود من جشع التجار وطمع المستوطنين، والحفاظ على الأمن في المحمية بواسطة الشرطة الهندية التي أنشئت للسيطرة على تصرفات أبناء قومها، والأهم من كل ما سبق في وظائف الوكيل هو نقل الهنود من حياة الهمجية إلى الحضارة عن طريق تعليمهم الزراعة والسكن في بيوت خشبية عوضاً عن الخيام بالإضافة إلى التخلي عن العادات الوثنية[62].

هذه هي المحمية نظرياً، أما في الحقيقة فإن الحال كان مختلفاً عن ذلك، ففي كثير من الأحيان كانت أراضي المحميات مما لا يرغب فيها أحد ولا تصلح للزراعة ومما زهد فيها الرجل الأبيض نتيجة لذلك، وما حدث في محمية بوسك ريدوندو ليس سوى نموذج متكرر في كثير من المحميات، فبعدما طمع الرجل الأبيض بأراضي قبيلة النافاجو وما فيها من ثروات معدنية ساق جيش "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن الآلاف من أفراد القبيلة قسراً بعد حرق محاصيلهم وتدمير بساتينهم وقتل أو مصادرة مواشيهم إلى أرض بعيدة (300 ميل) وقاحلة حيث احتفظ بهم أسرى لمدة أربع سنين فشلت فيها الزراعة نتيجة الجفاف والفيضان والحشرات، بالإضافة إلى رداءة التربة وقلوية المياه وفقاً لتقرير رسمي آنذاك، فمات ربع القبيلة قبل أن تعترف الحكومة الأمريكية بفشل برنامج التمدين (1868)، ورغم الكوارث التي أصابت القبيلة فقد عُدت من النماذج الأسعد حظاً في تاريخ العلاقات الأمريكية بالسكان الأصليين إذ تمكن أفرادها من العودة

---

(62) Capps، 1981، ص163 و169.
- Wissler، 1966، ص285-286.

إلى موطنهم على عكس كثير جداً من بقية القبائل الهندية[63] وذلك بسبب عدم رغبة البيض فيما تُرك لهذه القبيلة من أراض صحراوية.

وحتى عندما كانت التربة تلائم الزراعة، لم تكن الحكومة معنية باستخدام الوسائل المناسبة لها، فقد حاولت تعليم الزراعة لهنود السهول الكبرى بوسائل كانت تلائم منطقة الساحل الشرقي رغم الاختلافات الواسعة بين المنطقتين الشرقية والوسطى[64].

أما المؤن والمساعدات الدورية التي تصرف للهنود مقابل تنازلهم عن أراضيهم فعادة ما تكون غير كافية لاسيما إذا قام التاجر المتعهد بغش التغليف والوزن مما يعني تسليم كميات أقل من المتفق عليه للوكالة، كما كان كثير من هذه المؤن (كاللحوم والطحين) رديء النوع ولا يقبل الرجل الأبيض باستعمالها لنفسه (وقد علق أحد الزعماء الهنود الذين زاروا العاصمة واشنطن لمقابلة الرئيس الأمريكي بعد تذوقه الطعام في البيت الأبيض بالقول : لاشك أن لدى الرجال البيض أشياء كثيرة للأكل أفضل من تلك التي يرسلونها إلينا)، وقد كانت وفيات قبيلة النافاجو آنفة الذكر بسبب رداءة المؤن التي كانت الحكومة ترسلها إليهم، وبالإضافة إلى ذلك فإن المؤن كثيراً ما كانت تتأخر عن مواعيدها المقررة مما يتسبب في التهديد بالمجاعة بعد تنازل الهنود عن طريقة حياتهم التقليدية التي تؤمن لهم العيش باستقلالية وقبولهم العيش في المحميات، وهو ما يجبرهم بعد ذلك على الرد بعنف على هذا الإهمال ونقض العهود ومن ثم يقود إلى اندلاع الثورة.

أما الأموال التي كانت ترسلها الحكومة الأمريكية جزءاً من المساعدات فإنها تكون عرضة لاستغلال التجار الغشاشين الذين يقرضون الهنود أموالاً ثم يطالبون الموظفين الحكوميين في الوكالة بسدادها عند وصول دفعات الأموال السنوية لهنود المحميات، وكثيراً ما كانوا يطالبون بأكثر مما أقرضوا، وكان الهنود أصحاب الشأن يدركون مثل هذه الألاعيب لاسيما إذا كانوا يعرفون

---

(63) براون، 1982، ص18-32.

- .Hoxie، 1996، ص423.

(64) Capps، 1981، ص163.

الحساب، ولكن لم يكن هناك من يسمعهم أو يصدقهم فتكون النتيجة ضياع مخصصاتهم، وقد كانت هذه الإساءة في المعاملة سبباً في ثورة قبيلة داكوتا (الفرع الشرقي لقبيلة "سو" أو"Sioux" أقوى قبائل السهول وأشدها مقاومة للتوسع الأمريكي) في ولاية مينيسوتا سنة 1862، في عهد "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن.

وقصة هذه القبيلة من الأمثلة الشهيرة على معاناة الهنود في المحميات، فقد تخلت هذه العشيرة عن معظم أراضيها في معاهدتين وقعتا في سنتي 1851 و1859 وقبلت بحصر نفسها في محمية رغبة في السلام وعدم الاصطدام مع الأمريكيين، ورغم السعر الضئيل الذي بيعت به أراض واسعة تقدر ب 30 مليون فدان بسعر أقل من خمسة سنتات للفدان الواحد، فإن القبيلة لم تحصل منه على شيء نتيجة الديون التي دفعت للتجار[65]، وبُذلت محاولات لتعليمها طريقة حياة الرجل الأبيض ولكنها أصبحت أيضاً هدفاً للتجار الجشعين الذين كانوا يقرضون أفرادها مبالغ ثم يستردون أكثر منها من المخصصات السنوية، مما تسبب في التوتر في المنطقة، وفي صيف 1862 تأخرت المساعدات السنوية وانتشرت الإشاعات بأن الحكومة ستوقف دفعها لتوفر نفقات الحرب الأهلية، ورفض الوكيل والتجار توزيع الطعام على الهنود قبل وصول الأموال، فأصبحوا بذلك مهددين بالمجاعة، واستدعي مائة جندي من الجيش لحراسة مخازن الوكالة، ولكن الهنود حاصروها وأخذوا ما بها من الطعام سلمياً ولم يغادروها حتى تعهد لهم الوكيل بتوزيع مزيد من الطعام ليكفيهم، إلا أنه أبلغهم فيما بعد أنه لا طعام قبل وصول المال، وعلق أحد التجار بوقاحة قائلاً : "إذا كانوا جوعى فليأكلوا العشب أو برازهم".

بلغ التوتر حد الاشتعال حين قام أربعة من المحاربين الهنود بالاستيلاء على بعض البيض من مزرعة أمريكية مجاورة ثم قتل من فيها من المستوطنين، ولم يكن أمام زعيم القبيلة واسمه "الغراب الصغير" مجال لأي حديث عن السلام أمام سجل المعاهدات المنقوضة والوعود الكاذبة، ولهذا قاد قومه في

---

(65) Andrist، 2001، ص29-30.

اليوم التالي لإعلان ثورة كبيرة فهاجموا الوكالة وأخذوا ما بها من طعام وأحرقوا مبانيها وهاجموا الجنود والمستوطنين وتمكنوا من قتل ما بين 400-800 (من بينهم التاجر الذي سخر منهم إذ قتلوه ووضعوا العشب في فمه رداً على عبارته المسيئة) وذلك قبل أن يتمكن الجيش الأمريكي من هزيمتهم فقرر بعضهم الاستسلام والبعض الآخر الهروب.

أما الذين استسلموا فكانوا ألفين وحوكم المشكوك في اشتراكهم في الثورة وحكم على 303 منهم بالإعدام ومع ذلك لم يطلق الجيش سراح البقية من الذين لم يشتركوا في أعمال العنف بالإضافة إلى النساء والأطفال وأصبحوا عرضة لأعمال الانتقام الوحشي ونقلوا إلى أحد الحصون حيث احتجِزوا في انتظار مصيرهم، وأما المحكوم عليهم فقد تدخل بعض العقلاء من رجال الدين والسياسة لدى الرئيس لنكولن لتخفيف الأحكام عنهم، وأجريت مراجعة للمحاكمات فأذهلت القائمين عليها من تسرعها وافتقاد الأدلة فيها واعتمادها على الإشاعات وغير ذلك من الثغرات القانونية، فصادق الرئيس المحاصر بهستيريا الرأي العام على إعدام 39 وتم التنفيذ بإعدام 38 منهم فكان ذلك أكبر عملية إعدام جماعي في التاريخ الأمريكي، ثم اكتشف وقوع الخطأ في إعدام بعضهم.

أما الذين لم يستسلموا فهرب بعضهم إلى كندا لطلب المساعدة من السلطات البريطانية التي لم تمنحهم سوى بعض الطعام، فظل بعضهم وعاد آخرون ومنهم زعيم القبيلة "الغراب الصغير" إلى الولايات المتحدة وشنوا بعض الغارات على المستوطنين للحصول على جيادهم مقابل الأرض التي تمت سرقتها، وقد قُتل "الغراب الصغير" مع ابنه في سنة 1863 وهو يجمع الفراولة من أحد الحقول، ودبرت مؤامرة للقبض على زعيمين آخرين ظلا في كندا وأعيدا للولايات المتحدة وحكم عليهما بالإعدام وقبل شنق أحدهما سمع صوت قطار مقبل فقال: "عندما يأتي الرجل الأبيض، يذهب الهندي الأحمر".

وقد اتخذت ثورة قبيلة داكوتا مبرراً للاستيلاء على ما تبقى من أراضيها، وخصصت لها محمية بعيدة عن موطنها في ولاية داكوتا، ولم ينفع الاستسلام في الحفاظ على الأرض لمن استسلم، ولم يفد عدم الاشتراك في الثورة في الحفاظ

على الوطن لمن لم يشارك، فقد خضع "المحرر العظيم" لنكولن للمستوطنين ورحّل كل القبيلة بداية من مايو 1863 إلى حيث انتظرتهم الأرض القاحلة والأمطار القليلة والموت الذي أتى على ربع القبيلة (أكثر من 300 من أصل 1300) في العام الأول من الاستقرار البعيد[66]، ومن النتائج المهمة لسياسة المحميات كما طبقتها الحكومة الأمريكية أن ضحاياها من السكان الأصليين فاق عددهم عدد الضحايا الهنود في الحروب مع الجيش الأمريكي[67]، في نفس الوقت الذي كانت فيه نفقات هذه المحميات أقل من نفقات الحروب، أي أنها أدت نتائج أكثر فاعلية من القتل المباشر الذي قد يتطلب مليون دولار في ذلك الزمن البعيد لقتل هندي واحد[68]، ولهذا سرى القول الشائع آنذاك بأن إطعام الهندي أرخص من قتاله، كما أنه كان أكثر فاعلية من القتل نفسه، (واليوم تقدم الدول الغربية المساعدات لإطعام الفلسطيني عوضاً عن نشوب حروب غير مأمونة لربيبتها الصهيونية المدللة)، ومازال نفس المنطق النفعي سائداً إلى اليوم في التعامل مع الهندي إذ أن إطعامه من المساعدات أرخص من دعم المحميات ببرامج التمدين والتنمية والتشغيل، ولهذا مازال الهنود أفقر الأقليات في المجتمعين الأمريكي والكندي[69]، وهو ما يؤكد هامشية نشر الحضارة للآخرين في المشروع الاستيطاني الأمريكي واقتصارها على صاحب المشروع وحده.

وبالعودة إلى مساوئ المحميات يمكن القول إن أسوأ ما لقيه الهنود فيها هو الوكلاء الحكوميون الفاسدون الذين كانوا يملكون سلطات واسعة بحكم المنصب الذي يفترض استعماله لتعليمهم "التمدن" ونشر "الحضارة" بينهم، ولكن هؤلاء الوكلاء كانوا عادة من شرق الولايات المتحدة ولا يعرفون شيئاً عن هنود الغرب[70]، كما كانت رواتبهم أقل من رواتب نظار محطات المسافرين مما

(66) قصة القبيلة مفصلة في:
- براون، 1982، ص34-55.
- Capps.، 1981، ص170-179.

(67) Wissler, p. 284، 1966، ص284.

(68) Carlisle، 1978، ج20، ص2653.

(69) نفس المرجع، ج20، ص2654.

(70) Wissler، 1966، ص285.

يوضح عدم أهمية برامج التمدين لدى الحكومة الأمريكية[71]، وهو ما يدفع الوكيل لمحاولة "تعويض" نفسه على حساب حقوق الهنود، فكان الوكلاء يستغلون وظيفتهم في جمع الثروات بواسطة بيع مخصصات الهنود وعدم توزيعها عليهم والاستيلاء على ما تدره من أموال، وكان الوكلاء يكسبون آلاف الدولارات من هذه الانحرافات، فيروى مثلاً أن وكيلاً لم يوزع المخصصات على الهنود لمدة أربع سنوات، ولما وصل خليفته إلى الموقع (1869) لم يجد أي مال كما وجد ديوناً على الوكالة بمبلغ 14 ألف دولار، وفي وكالة أخرى كان الوكيل يدفع راتباً لشخص يفترض أنه معلم في مدرسة، فلما غادر الوكالة بعد ارتكابه جريمة قتل اكتشف خليفته أنه لا مدرسة في الوكالة أصلاً وأن المعلم المزعوم كان كاتباً خاصاً عند الوكيل السابق الفاسد، وقد صارحه هذا الكاتب بالقول إن منصب الوكيل في محميته يساوي أربعة آلاف دولار سنوياً، وذلك رغم أن راتب الوكيل كان يساوي ألفاً وخمسمائة دولار فقط، ويروى أن وكيلاً آخر آخر جاء بابنه إلى الوكالة فكوّن ثروة من 25 ألف دولار في مدة قصيرة[72].

ويلحق بالحديث عن المحميات حديث عن سياسات التمدين الاستفزازي فيها التي تصنع نسخة هندية مشوهة من الرجل الأبيض، وفي هذا السياق نلاحظ أن الرجل الأبيض لم يقم بعملية إرشاد وتعليم للهندي وفقاً لمفهوم التمدين ليصل إلى ممارسة الحياة كما يعيشها البيض، إذ أن نشر الحضارة لم تكن من أولويات الأمريكي وذلك نتيجة طمعه في الأرض، ومن ثم كانت عملية التمدين غير مخلصة كما تدل على ذلك حوادثها وتطوراتها ونتائجها، فقد اهتمت بإلقاء الأوامر الصارمة والإملاءات القاسية على الهندي دون مراعاة ظروفه مما ينتج عنه الضرر المادي والمعنوي، ويؤكد أن الهدف كان هو إهانة الهندي والحط من شأنه لا تعليمه وإرشاده للأفضل الذي يفترض الرجل الأبيض أنه يعرفه أكثر من الهندي.

ومن ذلك الهجوم على أسلوب معيشته واحتقاره ووصفه بالبدائية والهمجية دون إحلال البديل "الحضاري" مكانه، فكان فشل محاولته ممارسة الزراعة قبل

(71) Capps، 1981، ص169.
(72) نفس المرجع، ص169.

دمجه في المجتمع يؤدي إلى إحباطه أكثر من المزارع الأبيض الذي يملك مفاهيم مختلفة عن أسباب النجاح والفشل[73]، على فرض تساوي ظروفهما، ومن ذلك أيضاً أمره مثلاً بترك خيمته والسكنى في بيت خشبي ثم يتبين أن هذا البيت تسبب في إصابته بالسل فيؤمر مرة أخرى بالعودة إلى الخيمة[74]، ثم يؤمر بقص شعره وإلا فلن ينال وظيفة حكومية في المحمية رغم اهتمامه بشعره وعده من مظاهر كبريائه ورغم أن كثيراً من البيض كانوا يطيلون شعورهم بلا ضابط وكان الجنرال جورج كاستر أشهر الذين قاتلوا الهنود من أصحاب الشعر الطويل رغم كونه عسكرياً ويفترض فيه انضباط الجيش، ولا ننسى في هذا المقام مآسي المدارس الداخلية التي أجبر الهنود على إدخال أطفالهم فيها بعد خطفهم عنوة من أهاليهم وكيف عوملوا بقسوة مادية، كالضرب والتعذيب والاغتصاب والإجبار على العمل القاسي والعقوبات الشديدة كتناول القيء، ومعنوية كتوجيه الإهانات المستمرة وقص الشعر والحرمان من الحديث باللغة الأم تحت التهديد بالعقاب الشديد (يذكر الأستاذ أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية ظاهرة مشابهة في المدارس الداخلية الأجنبية زمن الانتداب البريطاني في فلسطين[75]) حتى أفنت هذه المدارس عدداً كبيراً منهم نسبته أكثر مما أفنته الحروب[76] وتركت الناجين مشوهي الشخصية[77].

(لا بد من الإشارة هنا إلى التفكير الصهيوني بحصر الفلسطينيين في محميات ومعازل على غرار التجربة الأمريكية وهو تفكير تؤكده وقائع الاستيطان في الضفة وتقطيعه أوصالها، فهل يا ترى تقبل أمتنا بأن تصبح أرضها المقدسة تحت رحمة وكلاء التمدين الصهاينة؟).

---

(73) Wissler، 1966، ص291.

(74) نفس المرجع، ص288.

(75) الشقيري، 2006، ج1 (المذكرات/ 1)، ص190 (أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية).

(76) العكش، 2009، ص111، وفي هذا المرجع تفاصيل كثيرة عن الواقع الوحشي للتعليم الهندي.

(77) Macdonald، 1993، ص57.

3 - نقض المعاهدات:

وهذا هو السمة الرئيسة لسياسة الولايات المتحدة تجاه أكثر من 370 معاهدة مع السكان الأصليين تم التصديق رسمياً عليها من جانب الكونجرس الأمريكي ولم تلتزم الحكومة الأمريكية بأي منها، وقد كان العامل الرئيس المسبب لنقض هذه المعاهدات هو أن سياسة التوسع كانت تتقدم خطوة خطوة دون نية التراجع مهما كان السبب، وإن المناقشة العقيمة عن توفر سبق الإصرار على ضم القارة كلها أو عدمه ليس هو النقطة الحاسمة في إثبات الجرم، لأن عدم هدم بناية كاملة دفعة واحدة على رءوس ساكنيها لا يعفي المجرم بعد ثبوت تفرده بهدم شققها واحدة تلو الأخرى كلما دعته ضرورة الطمع إلى ذلك، وليس من الضروري أن يكون المجرم كلي التخطيط لإثبات الجرم عليه، إذ أن ارتكابه مجموع هذه الجرائم ولو بنوايا جزئية لا يعفيه من المسئولية.

لقد كانت الحكومة الأمريكية تعالج التوسع في كل مرحلة لتأمينه بأقل الخسائر، ورغم كون السلام هدفاً لعقد المعاهدات، فإن الهدف الأكثر أهمية في السياسة الهندية للحكومة الأمريكية كان صيانة الحدود بشكل ملائم للبيض[78] (هل يشبه ذلك نظرية الحدود الآمنة الصهيونية؟)، وذلك دون النظر إلى ما يمكن أن يستجد من أحوال فيما بعد وترتب عقد المعاهدة مع هذه القبيلة أو تلك وكأن التوسع قد اتخذ شكله النهائي رغم أن تجدد الأطماع لم يكن بعيداً عن نظر المستبصرين في ذلك الزمن[79]، ولهذا قال أحد المؤرخين إن المعاهدات كانت مجرد وسيلة للحصول على الأرض بأدنى درجات النزاع والنفقات، ولتحويل أنظار المقاومة الهندية إلى حين تجدد الصراع مرة أخرى[80]، ومن هنا كانت الحكومة ترسم "الحدود الهندية الدائمة" التي لم تكن دائمة قط وظلت تتراجع إلى الغرب حتى اختفت نهائيا سنة 1890، وكانت الحكومة تسلك كما لو أنه لن يستجد ما يجعلها تعيد النظر فيما توقع عليه الآن، وهناك من يتحدث عن أدلة

---

(78) Svaldi.، 1989، ص334.

(79) نفس المرجع، ص89.

(80) Horsman، 1992، صx.

على أن رسم الحدود لم يكن بنية استمرارها منذ البداية[81]، وكان الذي يحدث أن التوسع يستمر والأطماع تزداد فتخرق المعاهدة عند اكتشاف المنقبين الذهب أو تجدد أطماع المستوطنين بالأرض وتستولي على ما وعدت بإبقائه في أيدي السكان الأصليين إلى الأبد.

وكما قلت فإنه ليس من المهم إثبات أن نقض المعاهدات كان مدبراً منذ البداية، ومن ثم فإن رد بعض المؤرخين عن كون "الظروف هي التي قادت إلى ذلك"[82]، لا محل له في التبرئة، لاسيما مع الاعتراف (ولكن بقصد تبرئة القائمين على هذه السياسة وليس إدانتهم) بأن الوضع في المحميات بعد عقد المعاهدات حتى على المستوى النظري وبفرض تحقق أفضل الظروف كان سيؤدي إلى خسائر جسيمة[83]، ولهذا فليس هناك ذنب على أحد ولم يكن من الممكن تلافي الكوارث مهما كان التطبيق مخلصاً وماهراً، أي ليس بالإمكان أبدع مما كان وما لنا إلا الرضا بقضاء الرجل الأبيض (!)، ولكن هذه الحجة القدرية تنقلب على صاحبها عندما نناقشه فيمن وضع أصل هذه السياسة التي تصور قضاء وقدراً مع أن من يحاول تبرئتهم هم الذين صاغوها أساساً ثم طبقوها، (كما تحاول في أيامنا الحجج القدرية أن تصور قيام الدولة الصهيونية قضاء وقدراً ليس أمام ضحاياه سوى التسليم بنتائجه والتخلي عن بلادهم للغزاة، ولكن هذه الحجج تغفل أن الصهاينة لم يستسلموا لقدر "الشتات" رغم استمراره ألفي سنة كما يزعمون وأننا أيضاً يمكن أن نجادل في أصل ما عدوه قضاء، وهو ليس كذلك لأنه صناعة بشرية وليس من قوانين الطبيعة، فنرفضه ونرفض نتائجه)، وذلك القبول بالظلم يفتح باب القدرية والاستسلام لأي عدوان أمام حكم القوة الذي هو حكم الدول الكبرى، وعدم كونه مؤامرة كبيرة مدبرة منذ البداية لاكتساح القارة كلها والاستيلاء على جميع أراضي الهنود لا يعطي البراءة للسياسة الإجرامية التي اتبعت وللقائمين عليها، وعدم كون المعاهدات مجرد "مسكنات" أو "مخدرات" للهنود ريثما يحين وقت الحاجة لنقضها والاستيلاء

(81) نفس المرجع، ص9.
(82) Wissler، 1966، ص283.
(83) نفس المرجع، ص284.

على بقية أراضيهم، وأنها كانت تعقد "بنوايا خالصة" لا تتصور إمكان نقضها لا يعني نظافة القائمين بها بعدما تسارعت الأحداث "رغماً عنهم" فنقضوها، وأن الجن هم الذين صبغوا تاريخ أمريكا بالدماء، لأنه كان يمكن بشيء من الحزم والإرادة تجنب نقض كثير من المعاهدات لاسيما بعد أن تم حصر الهنود في محميات محددة وأخليت بقية المساحات الواسعة للتوسع الأمريكي وأبدى الهندي استعداده لسلوك سبيل الرجل الأبيض وطالب بشيء من العدل وإتاحة الفرصة له لفعل ذلك ولكن العجيب أن شدة الطمع لم تترك له فسحة للحياة كبقية البيض كما تقتضي وجهة نظرهم، وكان الحزم يستعمل لإجبار الهندي على القبول بالاستسلام المطلق بدلاً من الحد من أطماع الجمهور الاستيطاني الأمريكي، وهو ما يؤكد عدم افتقاد الجانب الرسمي للإرادة ولكنها كانت إرادة مطابقة لإرادة جمهوره نتيجة لوحدة الانتماء الحضاري.

ويشير أحد المؤرخين إلى أن كون المعاهدات عقدت بمبادرة وصياغة الجانب الأمريكي بصفته مقابلاً للهنود منحه ميزة تعريف الحرب والسلام لصالحه وجعل مطالب الهنود بلا معنى[84] كما جعل الطرف الآخر (الهندي) هو العدو، وحتى عندما كانت القيود "متبادلة" فإنها لم تضع المستوطن وصاحب الأرض على نفس المستوى من المسئولية إذ توقعت أن يغير الهندي سلوكه وأن يكون نصيب المستوطن معاملة إنسانية[85]، والخلاصة أن تاريخ نقض المعاهدات يوضح قوة المصالح المادية بصفتها دوافع لسياسات التوسع الأمريكي في أراضي السكان الأصليين.

ولعل قصة قبيلة لاكوتا (وهي الفرع الغربي من قبيلة "سو" القوية آنفة الذكر) مثال واضح على الآلية الإجرامية لنقض المعاهدات وكيف أنه كان سلسلة من الجرائم المتعاقبة إن لم يكن جريمة واحدة كبيرة.

بعد انتصار الولايات المتحدة في الحرب مع المكسيك وانضمام الساحل الغربي (أوريغون وكاليفورنيا) إلى الأراضي الأمريكية (1848)، اكتشف الذهب

---

(84) Svaldi، 1989، ص333.

(85) نفس المرجع، ص89.

هناك واندفعت سيول المستوطنين والمنقبين مخترقة أراضي الهنود في السهول الوسطى ومحدثة فيها أضراراً بالغة أغضبت أصحابها فوقعت الحكومة مع وفود القبائل المتعددة معاهدة شاملة في حصن لارامي سنة 1851 لتعويضها عما أصابها ولتسمح ببناء مراكز عسكرية لحراسة الطرق ولتقبل بعبور المهاجرين أراضيها، ولكن الحكومة نقضت المعاهدة لسبب تافه في سنة 1854 يتعلق بالإصرار على تسليم هندي ذبح عجلاً ضالاً طالب صاحبه بالتعويض وذلك رغم أن المعاهدة تقضي بحق كل طرف بمعاقبة متجاوزيه وليس تسليمهم للطرف الآخر، فاقتحم الجيش بقيادة المقدم جون جراتان أرض الهنود وطالب بتسليم الهندي وأطلق النار عليهم فردوا بإبادة السرية كلها المكونة من ثلاثين جندياً ورغم هذا الاعتداء من قبل الجيش سميت الواقعة مذبحة جراتان في التاريخ الأمريكي.

ثم نقضت المعاهدة مرة ثانية في سنة 1865 حين بدأ الجنود يقتحمون أراضي الهنود لبناء سلسلة حصون على طريق بوزمان المؤدي إلى مدينة فرجينيا التي اكتشف الذهب فيها في مونتانا وكان هذا الطريق يخترق أفضل أراضي الصيد الهندية والمعاهدة تمنع ذلك إلا بموافقة الهنود، فشن الزعيم "الغيمة الحمراء" عدة غارات على الجنود فأرسلت الحكومة وفداً لإقناع الهنود ببناء الحصون ولكن قبل أن يقول هؤلاء الهنود كلمتهم لأعضاء اللجنة في نفس المكان الذي عقدت فيه معاهدة 1851 وهو حصن لارامي، وصل عدد كبير من الجنود لحراسة طريق بوزمان وبناء الحصون بغض النظر عن موقف أصحاب الأرض مما جعل زعيم الهنود الأكبر آنف الذكر يسخر من هذا الاستخفاف وينسحب من الاجتماع يتبعه بقية الزعماء، واستمر تقدم الجنود بانين ثلاثة حصون في مناطق الصيد الهندي فأعلن "الغيمة الحمراء" حرباً استمرت عامين لإنقاذ نهر البارود (1866-1868) وجه فيها ضربات قاسية لحصون الجيش الأمريكي وقوافل المسافرين خلال طريق بوزمان ودمر سكة الحديد، ولعل أشهرها إبادة سرية المقدم وليام فترمان المكونة من ثمانين جندياً كان يعتقد أنه يمكنه بهذا العدد أن يخترق قبيلة لاكوتا الكبيرة كلها، ولكنه وقع ضحية غروره وتجاوز أمر رئيسه فوقع في الفخ الهندي، ورغم كونه المعتدي على الهنود في أرضهم فقد سمى التاريخ الأمريكي هذه الواقعة بمجزرة فترمان وهو وصف لم يمنح لاعتداءات أكثر هولاً أصابت السكان الأصليين.

ورفض زعيم الهنود "الغيمة الحمراء" مفاوضة اللجان التي حاولت التحدث إليه إلى أن يتم إخلاء المنطقة من الحصون والجنود (أي لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات قبل الانسحاب الشامل)، فرضخت الحكومة لمطالبه وانسحب الجنود ودمر الهنود الحصون الثلاثة وأغلق طريق بوزمان وتم توقيع معاهدة جديدة في حصن لارامي أيضاً سنة 1868 مع "الغيمة الحمراء"، وخصص بموجبها محمية واسعة في مقاطعة داكوتا وكفل لهم حق الصيد في المنطقة التي تنازع الطرفان عليها وأقسمت الحكومة بشرفها (!) على الحفاظ على السلام وإنهاء الحروب "إلى الأبد"، فكان هذا الانتصار الهندي هو الانتصار السياسي الوحيد في تاريخ مقاومتهم إذ تمكنوا لفترة من إجبار الحكومة الأمريكية على الرضوخ لمطالبهم والانسحاب من أرضهم بالمقاومة المسلحة، وكان "الغيمة الحمراء" هو الهندي الوحيد الذي ربح الحرب ضد الولايات المتحدة[86].

ولكن سرعان ما انتهكت الحكومة المعاهدة التي تم الاتفاق عليها حين اكتشف "الغيمة الحمراء" سنة 1870 أن ما اتفق بشأنه مع اللجنة لم يكن هو نفسه ما دوّن في المعاهدة، فذهب لزيارة العاصمة واشنطن ووعدته الحكومة والرئيس نفسه بتعديل الأمر ولكن لم يوف بهذه الوعود، وعادت الحكومة إلى انتهاك المعاهدة ثانية حين قررت أن تمد خطاً حديدياً جديداً داخل أراضي الهنود سنة 1872 دون إخبارهم ولم يمنعها من إكمال المشروع سوى أزمة سنة 1873 الاقتصادية، وفي سنة 1874 قررت الحكومة بناء حصن في صلب الأراضي الهندية المقدسة (التلال السوداء) وأرسلت حملة عسكرية لتحديد موقع الحصن، فأطلق الهنود على الطريق الذي سلكه الجيش اسم "درب اللصوص"، وقد اكتشف أفراد الحملة وجود الذهب في المنطقة فأرسل قائد الحملة الجنرال جورج كاستر تقريراً يعلن فيه توفر الذهب بين جذور الأعشاب، فاشتعلت حمى الطمع وهاجت الصحف وبشرت الجمهور بقرب انتهاء الأزمة الاقتصادية وسداد الدين القومي، واندفع المنقبون كالمجانين إلى أرض الهنود فقامت الحكومة ببعض الجهود الهزيلة والشكلية لإخراج الدخلاء ولكنها ما لبثت أن طالبت

(86) White، 1979، ص233.

أصحاب الأرض (1875) بالتخلي عن موطنهم المقدس ومركز معيشتهم، ويشخص أحد المؤرخين مصدر الخلل هنا بأنه كان نابعاً من بنية الدولة الديمقراطية الخاضعة لضغوط الرأي العام ومن ثم تفتقد الإرادة والانضباط الذاتي لكبح مواطنيها[87]، (وبالفعل هذا ما وجدناه في جميع القرارات الاستعمارية الديمقراطية منذ تلك البدايات وانتهاء بالديمقراطية الصهيونية)، ويؤكد مؤرخ آخر هذا الوصف بالقول إن الحكومة الأمريكية افتقرت إلى الموارد والإرادة والدافع لحماية حقوق الهنود وأراضيهم في مواجهة التعديات من مواطنيها، وقد كان هذا العجز عن تنفيذ الوعود المقطوعة هو السبب الدائم في نشوب الصراع بين الجانبين[88]، والذي كان الجانب الأمريكي يجد له بسهولة الموارد والإرادة والتشجيع لقمع الهنود وإجبارهم على القبول بانتهاك حقوقهم، أي أن الإرادة تستعمل الحزم ضد الهنود الذين يرفضون انتهاك المعاهدة وليس ضد البيض الذين ينتهكونها.

ولم يكن هناك نقطة التقاء بين الطرفين إذ رفض الهنود بيع مقدساتهم بأي ثمن، وحتى الموافقون على البيع وجدوا الثمن الذي عرضته الحكومة ضئيلاً جداً، فعلى سبيل المثال طالب الزعيم الأكبر الذي وقع معاهدة 1868 التي ضمنت هذه الأرض للهنود، وهو "الغيمة الحمراء"، بمبلغ 600 مليون دولار، وهو مبلغ أكبر من مجمل النفقات الأمريكية لعام كامل بمرتين، (فلعل باعة الحقوق العرب يتعلمون من نظرائهم المعتدلين الهنود)، في حين أن اللجنة الحكومية لم تعرض سوى 6 ملايين دولار ثمناً للتلال السوداء.

حاولت الحكومة بعد ذلك السيطرة على الأرض بالقوة مما أدى إلى انتصار هندي أولي على الجيش الأمريكي عند نهر البرعم (17 يونيو 1876) ثم أدى إلى معركة كبرى عند الفرع الصغير لنهر القرن الكبير في مونتانا (25 يونيو 1876) حيث أحرزت القبائل الهندية في أكبر تجمع لها تحت زعامة "الثور الجالس" الذي أخذ مكان الزعيم الأكبر "الغيمة الحمراء" الذي تنحى عن المقاومة العسكرية، واحداً من أكبر انتصاراتها على الجيش الأمريكي وأبادت أكثر من

---

(87) Lazarus، 1999، ص79.

(88) Svaldi، 1989، ص3 و334.

250 جندياً تحت إمرة قائد الفرقة السابعة الأكثر شهرة في الغرب ومرتكب مجزرة "واشيتا" سنة 1868 كما سيأتي ومقتحم "درب اللصوص" الذي اكتشف الذهب في أرض الهنود سنة 1874 والطامح إلى مجد عسكري يوصله البيت الأبيض، جورج كاستر، وهو أصغر جنرالات الحرب الأهلية سناً وقد قضى عليه تهوره واستعجاله المعركة وسرعته في مهاجمة الهنود الذين ظنهم يهربون منه فتصدوا له بكل بطولة وقضوا عليه وعلى جيشه، ودخلت هذه المعركة التاريخ الأمريكي وأصبحت من معالمه البارزة.

ولكن الانتصار الكبير في معركة لا يعني كسب الحرب ضد عدو يفوق الهنود عدداً وعدة، فقد تعبأت الأمة الأمريكية ضدهم بالحقد والضغينة بعدما وصلتها أخبار الهزيمة المدوية وهي تحتفل بالذكرى المئوية الأولى للاستقلال (4 يوليو 1876)، وانطلق جنود الجيش الأمريكي كالذئاب يبحثون عن مخيمات الهنود ويدمرونها ويضيقون عليها السبل دون تمييز بين من اشترك في المعركة ومن لم يشترك، واستسلم كثير منهم وأُجبروا تحت التهديد بالتجويع بل القتل بالإضافة إلى الرشاوى بالمال والخمور[89] على التوقيع على التنازل عن المنطقة المقدسة الغنية بالذهب (1877)، وهرب الباقون إلى كندا بقيادة زعيم المعركة "الثور الجالس" حيث أقاموا مدة لم تكن في صالحهم وتخلت عنهم الحكومة الكندية مما اضطر آخرهم للعودة بعد أربع سنوات (1881)، وتم سجن الزعيم ثم أطلق سراحه فتحول إلى مقاومة مشاريع الحكومة للاستيلاء على مزيد من أرض الهنود وتخفيض مساحة المحمية الكبرى وتمكن من قيادة قومه للوقوف بصلابة ضد الموافقة على بيع أرضهم إذ كانت المعاهدة تقتضي موافقة ثلاثة أرباع الهنود على أي صفقة بيع في المستقبل، ولهذا بذلت الحكومة الأمريكية جهوداً لتحطيم زعامته واصطناع زعامات من "المعتدلين" و"المتعاونين" (هل لاحظنا جهوداً مشابهة في بلادنا أيضاً؟) بدلاً منه، وفي النهاية (1889) تمكنت بالتضييق والتهديد من جمع التوقيعات اللازمة لبيع 9 ملايين فدان وتجزئة المحمية الكبرى إلى ستة محميات صغرى (تجزئة سبقت تجزئة سايكس بيكو).

وبعدما باع الهنود أرضهم قطعت الحكومة نصف مؤن اللحوم عنهم،

---

(89) Lazarus، 1999، ص92.

وتأخرت المساعدات عنهم بما فيها الملابس والمؤن، "إذ لم يعودوا أعداء يخشى جانبهم، وأصبحوا مجرد مستهلكين مكلفين للتبرعات" (دائماً كان هذا هو مصير المستسلم في نظر المنتصر)، فمات أطفالهم من الجوع والحمى والإنفلونزا والسعال الديكي، وهاجمت الأمراض كبارهم، وتجمدت مواشيهم وفشلت محاصيلهم، فتعلقوا بأمل غيبي ظهر على يد رجل دين في الغرب البعيد أمرهم برقصة الأرواح لتحدث معجزة وتقضي على الرجل الأبيض ويعود أموات الهنود إلى الحياة وتمتلئ أراضيهم بالصيد الوفير، فتحفزت الحكومة الأمريكية ضد الدين الجديد وأرسلت الجيش لقمع الهنود فقتل زعيمهم الأكبر "الثور الجالس" بأيدي الشرطة الهندية العميلة، وارتكب مذبحة قتل فيها أكثر من مئتين من الرجال والنساء والأطفال عند نهير الركبة الجريحة (1890) حيث أسدل الستار على المقاومة الهندية المسلحة وأغلقت منطقة الحدود ولم يعد هناك أرض هندية حرة ولم يتبق للهنود سوى المحميات التي تسيطر عليها حكومة الولايات المتحدة[90].

وقبل مغادرة الرئيس يوليسيس غرانت منصبه اعترف بأن جشع الرجل الأبيض هو الذي تسبب في عدم الالتزام بمعاهدة 1868 وأن أي مجهود لإبعاد المنقبين عن التلال السوداء بعد اكتشاف الذهب فيها كان سيؤدي إلى فرار الجنود الذاهبين لإخلائهم[91]، وهذا هو أثر ما وصفته سابقاً بوحدة الانتماء الحضاري الذي يجعل الجندي يرفض الوقوف إلى جانب الأعداء في إطلاق النار على شعبه، ولكنها صفة مذمومة عندما يمارسها القوي ضد الضعفاء وينتهك بها وعوده لهم، لاسيما إذا علمنا كما سيأتي الحديث أن هذا الرئيس نفسه كان في حملته

---

(90) قصة قبيلة لاكوتا مفصلة في المراجع التالية:
- براون، 1982، ص81-113 و206-234 و304-326.
- Capps، 1981، ص210-233.
- Capps، 1982، ص194-233.
- Nevin، 1981، ص199-231.
- Tanner، 1976، ص165-181.
- Tillett، 1976.

(91) Lazarus، 1999، ص94-95.

الانتخابية (1869) من أنصار الحل الإبادي ضد الهنود، وظاهرة صحوة الضمير عند الرؤساء الأمريكيين وتغير أقوالهم بعد ترك مناصبهم، لا تقتصر على الرئيس غرانت وحده.

وما زالت قضية الاستيلاء عنوة على أرض الهنود المقدسة الغنية بالذهب في التلال السوداء تراوح في محاكم العدالة الأمريكية منذ أكثر من قرن من الزمان (فهل ستعود القدس إلينا بجهود العدالة الأمريكية وهي الأكثر أهمية عند الغرب كله من التلال السوداء؟)، ورغم حكم المحكمة بأن التلال سلبت بطريقة غير قانونية، فإنها لم تأمر بردها وحكمت سنة 1980 بتعويض الهنود بمبلغ 106 ملايين دولار، وما زال الهنود يرفضون تسلم المبلغ حتى بعدما وصل إلى مليار دولار نتيجة تراكم الفوائد مع مرور السنين، ورغم ارتفاع بعض الأصوات الهندية الموافقة على قبول التعويض (كما تنازل العرب عن ثلاثة أرباع فلسطين)، فإن هذه الأصوات ما زالت ترفض الإفصاح عن هويتها (يبدو أن نسبة الاعتدال العربي أكبر منها عند نظيره الهندي)، وما زالت القيادات القبلية ترفض الموافقة على بيع أرض تمثل رمز الهوية الهندية وثقافتها وهناك من ينادي بنزع الهوية الهندية عمن يقبل التعويض وإخراجه من محميات الهنود[92] (لعل بعض المعتدلين العرب يأخذون دروساً خصوصية في الصلابة من أمة أضعف منا بكثير).

ومن الطريف أن الرئيس الأمريكي أوباما قدم في سنة 2009 وعوداً خلابة للهنود (تناظر وعوده المهدوية للمسلمين)، وأكد لهم بأنهم لن يكونوا منسيين مادام هو في البيت الأبيض، ولكن شيئاً ملموساً لم تسفر عنه تلك الوعود، وقد طلب المقرر الخاص للأمم المتحدة بشأن حقوق السكان الأصليين من الحكومة الأمريكية إنصاف مظالم الهنود الحمر ورد بعض الأراضي على قبائلهم، ومن ضمنها التلال السوداء، وكان ذلك في سبتمبر 2012 [93]، ومن المؤكد أن المسيح المزيف الذي عجز عن مجرد إغلاق سجن مشبوه وسيء السمعة كغوانتنامو تابع لبلاده ولكنه يقع في بلاد أخرى (جزيرة كوبا) لهو أعجز عن إعادة

---

(92) http://en.wikipedia.org/wiki/Black_Hills_Land_Claim

(93) نفس المرجع: موسوعة ويكيبيديا الإنجليزية.

هذه الحقوق الأكبر لأصحابها، فما بالنا بالحقوق الأكثر ضخامة لأمتنا؟

وبهذا نرى أن سياسة نقض العهود لم تكن مجرد عدم التزام بوعود واضحة قطعت، إذ كانت الحكومة تستعمل التضليل فتتفق مع الهنود على شيء وتسجل على الورق شيئاً آخر، كما أنها تلجأ في سبيل تمرير سياستها إلى إهمال الزعماء الحقيقيين الممثلين لإرادة قومهم وصناعة زعامات عميلة تنفذ مآرب المحتل، وأنه لم يكن هناك سبب مقنع لكل تلك الانتهاكات لاسيما بعد حصر الهنود في أراض محددة وفتح بقية القارة للتوسع الأمريكي واختفاء مقومات الحياة الهندية المستقلة بإبادة مصادر العيش مثل جواميس البيسون كما سيأتي.

4 - ارتكاب المجازر ضد الإنسان والحيوان:

ينتشر استخدام المجازر ضد القبائل الهندية على طول تاريخ الاستيطان الأمريكي منذ بدايته في القرن السابع عشر حين وقعت مجزرة فرجينيا (1610)[94] إلى إغلاق الحدود الهندية ونهاية المقاومة المسلحة بمجزرة الركبة الجريحة (1890)، وبين هذين الحدثين وقعت مجازر كثيرة حلل أحد الباحثين أسبابها بدراسة إحدى حالاتها، فقال بداية إن أهمية الأرض في المشروع الاستيطاني في أمريكا غيّرت "عبء الرجل الأبيض" من العمل على هداية الناس والتجارة معهم إلى استخدام قانون العنف المسلح، وإن استهداف الأرض لم يكن معلناً بصراحة إذ لا يمكن للبيض أن يعترفوا بكونهم يستهدفون فقط حيازة أراضي الآخرين ولهذا لجئوا إلى الأسطورة التي صورت متتالية مما أسميه الاستئصال الفكري (نظير الاستشراق في بلادنا) والذي صور الهندي يحيك مؤامرة ضد الأبيض "الطيب" ويهدد وجوده (كما يهدد الفلسطيني الوجود الصهيوني الذي يحتل بيته) ويصمه استناداً إلى الحجج العنصرية الرائجة بمختلف صفات التخلف والهمجية والدموية وغض النظر عن كل سلوكه الودي[95]، ويتخذ من دفاعه عن أرضه ووجوده دليلاً على "الإرهاب" مع إغفال تعديات البيض (الاستيلاء على الأرض ونقض المعاهدات وسرقة المخصصات والغش

---

(94) Foner، 2005، ص52.

(95) Svaldi، 1989، ص2 و4 و89 و333.

التجاري والخداع السياسي) التي أثارت الدفاع الهندي عن النفس[96]، ويعمل على تعميق هوة التناقض بالتركيز على الاختلافات بين الطرفين سواء الطبيعية كلون البشرة أو الثقافية مما يزيد التوتر ومن ثم ترتفع دعوات العنف والقمع وإبادة هؤلاء الهنود الأشرار في حرب "عادلة"[97]، وإن سياسة الإبادة كانت ذات شعبية في مناطق الاحتكاك وعلى الحدود بين الهنود والبيض، وإن قتل الهنود كان عملا وطنياً[98] يشرعه السلوك الحكومي الرسمي الذي يكون مواطنوه أكثر استعداداً للاستسلام لسلطته عند إحساسهم بالتهديد والعجز[99].

ومن مفارقات المجازر التي وقعت ضد المجتمعات الهندية أنها غالباً ما أصابت المسالمين وليس المحاربين ضد الرجل الأبيض، فلم تكن عداوة الهندي هي السبب فيما أصابه بل إصرار الرجل الأبيض على تحميل الزعيم المسالم جريرة غيره من المعادين[100] وسعي السياسيين أو العسكريين إلى دعم طموحاتهم السياسية التي قد تصل إلى المنصب الرئاسي نفسه[101]، بمآثر وبطولات عسكرية ضد أعداء الأمة من الهنود الحمر، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قصة زعيم قبيلة الشايان "الإبريق الأسود" الذي وصفه أحد المؤرخين بأنه "بحث عن السلام فوجد الحرب"، وروى "قصته المأساوية"[102].

وملخص القصة أن هذه القبيلة وقعت معاهدة لارامي سنة 1851 ولكن الذهب اكتشف في أراضيها سنة 1858 مما جعل المنقبين والمستوطنين يتوافدون بالآلاف داخل أراضيها دون وجه حق وبنوا مدينة دنفر وسايرتهم الحكومة بإنشاء مقاطعة كولورادو وعينت لها حاكماً رغم أنها مازالت ضمن الأراضي الهندية وفقاً للمعاهدة، ولإسباغ الشرعية على هذا الوضع وقعت الحكومة معاهدة جديدة في سنة 1861 لحصر الهنود في محمية وفتح بقية الأرض للاستيطان، فقبل "الإبريق

---

(96) نفس المرجع، ص331.
(97) نفس المرجع، ص344-345.
(98) نفس المرجع، ص294-295.
(99) نفس المرجع، ص305-307.
(100) Hoig، 1990، ص9.
(101) نفس المرجع، ص65 و87.
(102) Hatch، 2004.

الأسود" ضمن مجموعة قليلة من الزعماء بذلك وتعهد بتهدئة أتباعه والحفاظ على السلام واتباع أوامر الحكومة ولم يرد على تحرشات الجيش الأمريكي ووضع نفسه تحت الحماية الرسمية وزار مدينة دنفر لإثبات نواياه السلمية، ولكن مع كل ذلك هاجم الجيش، بقيادة العقيد الطامح إلى منصب سياسي رفيع ومجد عسكري جون تشيفنغتون، قريته عند نهير الرمل، أو ساند كريك، في نوفمبر 1864 في زمن "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن وارتكب واحدة من أبشع مجازر التاريخ الأمريكي لما جرى فيها من قتل وحشي بلا تمييز، وتمثيل بشع بالضحايا رغم أن الزعيم رفع علم الاستسلام الأبيض والعلم الأمريكي أيضاً.

ثارت القبائل الهندية في المنطقة وأغارت على المحطات والقوافل والمراكز العسكرية وأحرقت إحدى المدن وفعلت بأهلها كما فُعل بأهل نهير الرمل، أما "المحرر العظيم" فلم يقل شيئاً ضد المجزرة وعين لجنة تحقيق اكتشفت أن الجناة قد انتهت فترة تطوعهم في الجيش ولهذا فهم خارج مسئوليته، وانتهى الأمر (!)

ورغم كل ما حدث واصل "الإبريق الأسود" الذي نجا من المجزرة سياسته السلمية رغم غضب قومه، ووقع على معاهدة التخلي عن الأرض في مقاطعة كولورادو والتي وقعت المجزرة للاستيلاء عليها، وكان ذلك بعد أقل من سنة من وقوعها (1865)، وفي صيف 1867 أرسلت الحكومة لجنة لإقناع القبائل بالعيش في محميات وتعلم الزراعة والحصول على المواشي من الحكومة، فبذل "الإبريق الأسود" مجهوداً كبيراً لإقناع بقية الزعماء بالموافقة، وتم التوقيع على المعاهدة الجديدة التي سميت بالكوخ السحري في أكتوبر من نفس العام، ولكن توقيع الهنود لم ينقذهم من الكوارث إذ لم يكد الشتاء ينتهي حتى انتهت مؤونة الهنود وهاجمهم شبح المجاعة بعد تخليهم عن أراضي الصيد في الوقت الذي ما زال الكونجرس فيه يناقش المصادقة على المعاهدة، وبدلاً من إرسال المساعدات أرسل لهم الجيش لتأديبهم.

حاول "الإبريق الأسود" النجاة بقومه والحصول مرة أخرى على الحماية الرسمية بالإقامة إلى جانب حصن الجيش الأمريكي ولكن الجنرال رفض بقاءه وأكد له أنه لو عاد إلى مخيمه والتزم الهدوء فسيكون في أمان، ولم يكن الأمان

هذه المرة بأفضل من الأمان في السابق سنة 1864، إذ هاجم الجيش قريته عند نهر "واشيتا" في نوفمبر أيضا سنة 1868 بقيادة الجنرال جورج كاستر وارتكب مجزرة جديدة لم ينج منها الزعيم هذه المرة وسقط مع زوجته تحت سنابك الخيل الأمريكي ولم تنفعه إشارات السلام كما لم ينفعه العلم الأبيض والعلم الأمريكي في نهير الرمل قبل أربع سنوات، وادعى قائد الجيش كاذباً أن "الإبريق الأسود" "رفض" الدخول في حماية الجيش وقُتل في "المعركة"(103)، ومازالت كتب التاريخ الأمريكي المصابة بالنرجسية وعبادة الذات تطلق على هذه المجزرة اسم "معركة واشيتا" رغم أن ضحاياها من الهنود فاقوا المائة، في الوقت الذي تطلق فيه على اعتداءات الجيش على الهنود في أرضهم عندما تنتهي بهزيمة المعتدي صفة المجزرة (مجزرة جراتان 1854 ومجزرة فترمان 1868 ومجزرة كاستر 1876)، كما تطلق على عملية شغب ضد الجيش البريطاني صفة المجزرة (وتسميها مجزرة بوسطن 1770) رغم أن من قُتل فيها خمسة أشخاص فقط، وتعطيها بعداً رمزياً ثورياً ضد الحكم البريطاني في أمريكا.

لم يكن "الإبريق الأسود" هو الزعيم المسالم الوحيد من قبيلة الشايان الذي قتله الأمريكيون، فقد كتب أحد المؤرخين كتاباً كاملاً عن "زعماء السلام" من هذه القبيلة الكبيرة والذين قتل البيض كثيراً منهم بعد أن حملوهم مسئولية المقاتلين من قومهم رغم أن بعضهم زار العاصمة الأمريكية وقابل "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن وحصل على وثيقة أو ميدالية سلام منه، ولكن كل ذلك لم يشفع لأنصار العملية السلمية(104) (ولم ولن يشفع لأمثالهم من أمتنا اليوم مثل هذه الإنجازات).

وكما يحاول الصهاينة تخفيف وقع جرائمهم بخلطها بمشاكل بلادنا والقول إن ضحايا الصراع بين العرب والمسلمين والصهيونية أقل من ضحايا الصراعات الداخلية في المنطقة، حاول بعض المؤرخين الأمريكيين التخفيف من وطأة

(103) مزيد من التفاصيل في:
- براون، 1982، ص56-80 و114-134.
- Capps، 1981، ص182-187.
(104) Hoig، 1990.

جريمة الرجل الأبيض بالقول إنها لا تنحدر إلى مستوى الإبادة الجماعية وإن ضحايا الجيش الأمريكي في الحروب الهندية كلها لا يتعدون بضعة آلاف لا تؤلف سوى نسبة ضئيلة من مجمل عدد الهنود سواء عند وصول الأوروبيين (1492) أو عند نهاية الصراع المسلح (1890)[105]، والحقيقة أن هذا الحسابات المقبرية تتجاوز عن الحقيقة الرئيسة المشاهدة بالعين المجردة وهي تدمير الحياة الهندية في طول القارة وعرضها بكل الوسائل المتاحة أمام الرجل الأبيض كالقتل والتهجير والتجويع والحصار والأمراض وتدمير مصادر العيش كالمزارع والبساتين وقتل الطرائد التي يعيش الهنود على صيدها وممارسة العنف التمديني ضد الهنود وأطفالهم كما مر، ويجب ألا ننسى حقيقة مهمة جداً وهو أن إطعام الهندي كان أرخص وأجدى من قتاله، وأن قتل الثقافة أرخص من قتل البشر[106]، وكانت هذه الحقيقة من المسلمات في عصور المواجهة بين الطرفين، فلماذا يحمل الرجل الأبيض سلاحه منفقاً الملايين إذا كان إخضاع الهندي ممكناً بوسائل أرخص وأكثر فاعلية كالمحميات والمدارس التي أفنت من الهنود فضلاً عن ثقافتهم ما لم تستطعه الحروب؟؟ ولماذا يتكلف الرجل الأبيض عناء الإبادة الشاملة بالسلاح في الوقت الذي يمكنه فيه الوصول إلى نفس الهدف مع "احترام القوانين الإنسانية" كما قال الكاتب الشهير ألكسيس دي توكفيل في ملاحظته المباشرة: "لقد عجز الإسبانيون عن إبادة جنس الهنود الحمر بتلك الفظائع التي ارتكبوها معهم، وهي فظائع لا نظير لها، وسمتهم بميسم العار، بل إنهم لم يستطيعوا حتى أن يجردوهم كل التجريد من حقوقهم التي لهم، أما أمريكيو الولايات المتحدة فقد حققوا هذا الغرض المزدوج (الحرمان من الحقوق والإبادة) بلباقة مدهشة حقاً، وفي هدوء، وعلى صورة قانونية بشكل عمل خيري، ومن غير إراقة دماء، أو انتهاك لمبدأ واحد عظيم من مبادئ الإنسانية في نظر العالم، فمن المستحيل أن يُقضى على قوم مع احترام للقوانين الإنسانية بأكثر مما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر"[107].

---

(105) Prucha، 1995، ص549.

(106) Lazarus، 1999، ص43.

(107) توكفيل، 1962، ج1، ص431.

كل ذلك يجعل الاقتصار على حصاد الرصاص والقنابل اختزالاً للموقف وتجميلاً للبشاعة، وكأن الإجرام يقتصر على لون واحد وما عداه تجاوزات بريئة، وهذا ليس واقع الحال لأن المجرم يستخدم ألواناً شتى من الجرائم حسب حاجته وعليه أن يهتم بفعاليته وليس بشكل الجريمة، فالقتل المباشر بالأسلحة لم يكن سوى وسيلة من وسائل إبادة الحياة الهندية وهو حل لم يتردد البيض في اللجوء إليه عند اللزوم دائماً ولم يكبحوا عدوانهم أمام أي إغراء لاسيما ضد المسالمين الضعفاء أوالمسيحيين المتدينين أوالعملاء المتعاونين، وقد أدت هذه الوسيلة ما طلب منها وكانت فعالة في قهر الهنود وهزيمتهم، وكان "إنقاذ" الهنود من الإفناء بجهود أصدقائهم لا يتم إلا بخيارات تكرس الاستيلاء على أراضيهم عن طريق تهجيرهم[108] أو سلبهم أفضل هذه الأراضي[109] أي تركهم بوضع لا يحسدهم ظالمهم عليه ومن ثم يتركهم بعد قضاء مأربه منهم (!) وهذا هو المهم والهدف المبتغى، وليس هناك من يرتكب الجريمة لذاتها إلا المرضى من البشر، أما "الطبيعيون" فيرتكبون الجرائم لأجل المصالح، وقد تبنت هذا الحل الإبادي وروجت له القيادات العليا في الدولة من رئاسة الجمهورية (الرئيس يوليسيس غرانت في حملته الانتخابية التي فاز فيها سنة 1869) وقيادة الجيش (الجنرال وليام شيرمان 1869-1883)، التي اعترفت بدور المستوطنين في خرق المعاهدات وإثارة المتاعب، ونزولاً إلى الساسة من النواب والشيوخ[110]، وكانت الإبادة تحظى بشعبية جارفة في أوساط الاستيطان الحدودي منذ زمن المهاجرين الأوائل إلى زمن إغلاق الحدود، وكان الزعيم النازي أدولف هتلر يشبه حربه على روسيا بصراع الأوروبيين ضد الهنود الحمر في أمريكا[111].

ونظراً لمجموع الخسائر الهندية من عملية الاحتكاك بالبيض، يمكن الاستنتاج أن محاولة نفي الإبادة بحصر الأضرار في إصابات الحروب التي ربما لم تتجاوز مقتل 6 آلاف من الهنود-وفقاً لبعض المؤرخين-على أيدي الأمريكيين

---

(108) Tucker، 1996، ص42.

(109) Lazarus.، 1999، ص90.

(110) نفس المرجع، ص39 و41 و55 و89.

(111) Rose، 2004، ص140.

وهو رقم ضئيل مقارنة بأقل عدد لمجموع الهنود العام في أي وقت، ليست سوى محاولة لتبرئة الذات الأوروبية من الجريمة الكبرى التي يمكن رصدها بمجرد النظر وهي تدمير المجتمعات الأصلية ومحوها من الوجود نتيجة عوامل عديدة لم تكن الحرب سوى واحدة منها حتى لو سلمنا بالرقم الضئيل المذكور وهو ليس واقعياً، وكل تلك العوامل كانت نتيجة التدخل البشري وهي: الأمراض وما يتبعها كالإدمان على الكحول، والترحيل، وتدمير وسائل المعيشة، والحرب والمجازر، وقد وجدنا أن بعض هذه الأسباب القاتلة كانت أكثر تدميراً من الحروب كالحياة في المحميات والمدارس والإدمان على الكحول، بالإضافة إلى الأوبئة التي ساهمت العوامل البشرية مساهمات حاسمة في نشرها، ومن هنا يبدو من السذاجة حصر الخسائر الهندية بمجرد إصابات الحروب للوصول في النهاية إلى نتيجة مضحكة وهي أن الإبادة لم تقع(112).

وإذا كان عدد ضحايا الحروب الهندية ليس ضخماً جداً، فإن نسبة هذا العدد كانت كبيرة جداً بحساب المؤرخين، فقد قدر المؤرخ المعروف فرانسيس جينينغز إن نسبة ضحايا حرب الملك فيليب (1675) إلى عدد السكان فاقت بأضعاف نسبة ضحايا كل من حرب الاستقلال الأمريكي والحرب الأهلية الأمريكية والحرب العالمية الثانية(113)، كما كانت نسبة ضحايا حرب السهول (1876-1877) إلى عدد المشاركين فيها أكبر من نسبة ضحايا الحرب العثمانية الروسية والحرب الأهلية الأمريكية المعاصرتين لها على ما فيهما من أهوال أسطورية، ولهذا أطلق على الحروب الهندية لقب حروب طروادة الأمريكية(114).

ومن الوسائل التي اتبعت لقهر السكان الأصليين وتدمير حياتهم الإبادة المتعمدة لمصدر عيشهم في السهول الوسطى وهو ثور البيسون حيث انطلقت حملة صيد كبرى بتشجيع رسمي للقضاء على هذا الحيوان الذي يعتمد عليه الهندي في معيشته اعتماداً شبه كامل في المأكل والملبس والمسكن، وكان

---

(112) Prucha، 1995، ص549.
- Thornton، 1990، ص48-49.
(113) Tougias، 1999، ص5.
(114) McDermott، 1998، ص28.

القضاء عليه مقدمة لابد منها لتدمير حياة الهندي المستقلة وهزيمته وتركه بلا أساس ومن ثم دفعه للجوع والخضوع لقرارات عدوه والسقوط تحت رحمته وفسح الطريق أمام تقدم "الحضارة"، وقبل تدخل الرجل الأبيض في صيد ثور البيسون كانت قطعانه الهائلة تغطي منطقة السهول ويقدر عدده بما يزيد عن 60 مليوناً، وربما غطى القطيع الواحد عشرات الكيلومترات المربعة، وبعد حملات صيد مكثف بدأت في منتصف القرن التاسع عشر ووصل حصادها أحيانا (1872-1874) إلى قتل أكثر من ثلاثة ملايين ثور، اختفت القطعان في جنوب السهول في سنة 1875 وبعد ذلك بعقد من الزمن (1885) اختفت قطعان الشمال ولم يبق سوى 20 ألف ثور، وبحلول سنة 1895 لم يتبق سوى أقل من ألف في القارة كلها ليصبح بعد ذلك من الآثار المتحفية التي تحميها قوانين الحفاظ على البيئة والطبيعة، وفي سنة 1983 قدر عدد الثيران بخمسين ألف ثور[115].

وعن هذه الإبادة يقول الجنرال فيليب شيريدان في سنة 1874 في أثناء الحملة التي قضت على أكثر من ثلاثة ملايين ونصف المليون ثور في غضون ثلاث سنوات، وهو الذي تولى قيادة الجيش في منطقة السهول وقاد الحروب ضد الهنود: "لقد أنجز صيادو الثيران في السنتين الأخيرتين، وسينجزون أكثر في السنة القادمة، لتسوية المسألة الهندية المثيرة للجدل ما يزيد عما أنجزه الجيش في الثلاثين سنة الأخيرة، زودوهم بالبارود والرصاص لأجل سلام دائم ودعوهم يقتلون ويسلخون ويبيعون إلى أن تتم إبادة الثيران"(وهي عبارة مثيرة تبين معاني كلمات التسوية والسلام الدائم والشامل في مفهوم الأمريكيين الذين يشرفون على عملية السلام).

وفي هذا يقول أحد المؤرخين: " لقد كان القضاء على الجاموس عملاً قذراً ... إذ كان كل هذا القتل عملاً مبيتاً من جانب الحكومة للتحكم في الهندي بالتخلص من مصدر طعامه"، ولهذا قال أحد زعماء الهنود: "لقد انتهى

(115) Capps، 1981، ص166-167.
- Thornton، 1990، ص52.
- The New York Public Library، 1997، ص8.

الجاموس، وعلى الهندي الأحمر أن يموت جوعاً"[116]، ومن الطريف أن الجنرال شيريدان نفسه بعدما تورط هو (1875) ورئاسة الجمهورية (1874) في خطوات رسمية للحث على القضاء على الحياة المعتمدة على البيسون[117]، قاد حملة للحفاظ على بقاياه عندما شارفت أعداده على الانقراض[118]، وهو ما ينبئ عن نوع التعددية التي ينادي بها الغرب وأنها ليست سوى تعددية فلوكلورية بعد القضاء على تعددية طرق الحياة الحضارية، ولهذا يهتم بالتعددية المتحفية نفس الشخص الذي يقضي على التعددية الحقيقية.

الاستنتاج والخاتمة

كانت الأرض هي محور الصراع بين الطرف الهندي والطرف الأبيض منذ البداية، وقد أدى ذلك إلى تكوين صور للهندي في ذهن المستوطن تبرر نزع ملكيته والاستيلاء على أرضه، فهو كالكنعاني القديم وبقية أعداء بني إسرائيل شعب الله المختار الذين منحهم أرض الميعاد ملكاً أبدياً خالصاً لهم من دون الناس، هذا في العصر البيوريتاني الإيماني، أما في عصر العقل الذي تلاه فهو الهمجي الذي لا يستخدم أرضه بكفاءة ولابد أن يتعلم طريقة الرجل الأبيض في الحياة ثم أصبحت إزاحته من الطريق وفناؤه هو الحل الوحيد لتقدم الحضارة، حتى على المستوى النظري الذي يفترض أن ينحو نحو التجمل، وقد كانت الأرض هي العامل الذي شكل النظرية والممارسة السياسية تجاه الهنود وليس الرغبة في التبشير الديني في عصر الإيمان، ولا شعارات التنوير التي لم تكن تعني المستوطنين في عصر العقل[119].

لقد دمرت الحكومة الأمريكية تجربة القبائل المتمدنة والزراعية عندما طمع الرجل الأبيض في أراضيها، وإن وجود هذا الطمع كان كافياً لاتباع سياسة

---

(116) Tucker، 1996، ص52.

(117) http://en.wikipedia.org/wiki/Bison_hunting

(118) http://en.wikipedia.org/wiki/Philip_Sheridan

- Ward، 1996، ص406.

(119) Horsman، 1992، ص vii-x.

العنف ضدها، ولهذا لا يمكن القول إن تمدين الهنود كان من الأهداف الأمريكية، وأنه حتى تبني هذه السياسة نظرياً لم يكن يعني بالضرورة ضمان تحقيق المساواة القانونية[120]، وقد أثبتت الحوادث أن كل التبريرات التي قيلت لهذا الدمار كانت مجرد أكاذيب، وقد أشار أليكسيس دي توكفيل في كتابه الديمقراطية في أمريكا (1835-1840) في ذروة سياسة النقل والتهجير إلى معضلة الهندي مع الحضارة: إذا رفضها سيظل الرجل الأبيض يلاحقه ويقتلعه من أرضه، وإذا رضي بها لن يتمكن من الدخول في حلبة المنافسة وسيظل في أدنى السلم الاجتماعي مما يجبره على العودة لحياته الأولى[121]، وهذا من طبيعة الرأسمالية التنافسية التي تسعى دائما خلف الاستئثار بالمنفعة وعدم توسيع رقعة التنافس ولهذا لم تكن سياسة الدول الرأسمالية الكبرى معنية بصناعة نماذج مستقلة على شاكلتها لتنافسها على النفوذ والموارد.

كما أن سياسة المحميات الفعلية لم تدعم سوى المصالح المادية للرجل الأبيض لاسيما أن نفقاتها كانت أقل من نفقات الحروب وفاعليتها أقوى من السلاح، ولكن هذا لم يمنع العنصرية الأمريكية من اللجوء إلى الحل الإبادي عند اللزوم سواء ضد الإنسان أو وسائل معيشته من الكائنات لتسهيل الاستيلاء على الأرض وتقدم الحضارة المقصورة على البيض وحدهم، وكان نقض المعاهدات من السمات الرئيسة لسياسة الولايات المتحدة التوسعية وهو ما أدى إلى تسهيل استمرار الاستيلاء على أراض للاستيطان أو التنقيب بعدما تم التعهد ببقائها في أيدي أصحابها، ولكل ما سبق يمكننا القول إن السياسة الأمريكية تجاه السكان الأصليين كان دافعها هو المصالح المادية كالحصول على الأرض أو ثرواتها كالذهب والفضة والفراء والعبيد، وإن التوسع هو السمة الأهم لهذه السياسة والتي استمرت بعد إخضاع القارة في البلاد الخارجية.

ورغم ندرة الاعترافات المتعلقة بالأهداف التوسعية، يلاحظ أن الاستيلاء على الأرض كان يعقب كل انتصار أمريكي على الهنود ومن ثم يوثق بمعاهدة "سلام" جديدة ما تلبث أن تنقض لصالح مكاسب تالية تتلو الصراعات

(120) Svaldi، 1989، ص335.

(121) توكفيل، 1962، ج1، ص406-431.

المتجددة، كما كانت حمى الحصول على الأرض بادية في كل الوسائل التي اتبعت في سبيل الوصول إلى موافقة الهنود على التخلي عن أراضيهم سواء بالرشوة بالمال أو الخمور أو بتدمير مصادر المعيشة لكي يفقد الهندي استقلاله ويصبح عالة على المساعدات ومن ثم التهديد بقطعها ومواجهة المجاعة إذا تصلب في مواقفه، أو بصناعة الزعامات المزيفة المطواعة بعد تنحية الزعامات المنتخبة، أو بتمرير بنود لم يوافق الهنود عليها أثناء المناقشات ثم يكتشفون أنهم "وقعوا" عليها، أو بتزوير الأصوات، أو بالحصول على موافقات من زعماء غير مخولين أو حتى من قبائل أخرى غير أصحاب الأرض المعنية (كما سلمت زعامات عربية غير فلسطينية أراضي فلسطين للصهاينة)، أو بتعمد مراكمة الديون التجارية على أفراد القبيلة لتضطر إلى التنازل عن أراضيها سداداً لهذه الديون الناتجة عن استهلاك البضائع الأوروبية والأمريكية لاسيما الكماليات (كما احتلت بلادنا في القرن التاسع عشر نتيجة الديون التي شجع المستعمرون على تراكمها أيضاً)، أو الحصول على الموافقة من زعماء سكارى تحت تأثير الخمور، ورغم كل هذه الجهود لعقد المعاهدات لا تلبث السلطة الأمريكية أن تنقضها وتلجأ للحروب إذا لزم الأمر لإرغام الهنود على القبول بتنازلات جديدة.

وقد اعترف الرئيس الأمريكي التاسع عشر رذرفورد هايز في غمرة الحروب الهندية سنة 1877 أن "كثيراً إن لم يكن معظم حروبنا الهندية سببها نقض الوعود، والأعمال الظالمة"(122)، وكانت الحقيقة بادية قبل ذلك لكاتب إعلان الاستقلال الأمريكي الرئيس الثالث توماس جيفرسون عندما رأى الظلم في مبررات الرجل الأبيض لحيازة الأراضي التي يعيش الهنود عليها وقال عنها: "من سيحاول أن يعزو مطالب الأمم الأوروبية في أمريكا إلى مبادئ العدل، أو يحاول التوفيق بين الغزو الذي شن على السكان الأصليين والقوانين الطبيعية للجنس البشري، سيجد نفسه يبحث عن الوهم الذي لا يوجد إلا في خياله ضد الدليل المستقى من الحقائق المؤكدة"(123).

وهذا يؤكد أن الظلم في الماضي لم يكن عدلاً بمقاييس زمانه كما تحاول

---

(122) The Kingfisher History Encyclopedia، 1999، ص371.

(123) Svaldi، 1989، ص88.

بعض الكتابات التبريرية أن تدعي، وأن اكتشاف هذا الظلم ليس سببه تطور القيم في القرن العشرين عنها في القرون السابقة، ولهذا يلاحظ أحد المؤرخين أن الدين القومي والدين العنصري في القرن العشرين ليسا أقل أثراً من دين الفرسان الصليبيين في العصور الوسطى، ويؤكد آخر أن العلاج ليس في المطالبة بكبح النفس أو بمزيد من النصوص القانونية التي أثبتت عدم جدواها بالإضافة إلى إمكان الالتفاف عليها، وأن هذا العلاج يتطلب أن يتوقف الرجل الأبيض عن إسقاط مخاوفه على الآخرين وعن الاعتقاد أن التاريخ تحركه المؤامرات ضد وجوده[124].

وليس غريباً أن يصف التفكير الأمريكي الرأسمالي ضحيته الهندية بالإرهاب والتوحش والعدوان في لحظة الحدث، وأن يلقي اللوم على الهنود الذين "تنكروا" للمعاهدات "لتغذية حقدهم" لأنهم "يزعمون" أن الرجل الأبيض خدعهم وأن التجار غشوهم[125]، ثم يأتي بعد زوال الخطر وفوات الأوان في نفس الوقت فيبدي ندمه على ما حدث وأن يوثق بالأدلة والوثائق مظالم الهنود السابقة (وليس الحالية بالطبع)، أما الاعترافات بالذنب في لحظة الخطأ كما دوّنها كثير من المسئولين الأمريكيين فليس لها أي أثر عملي، بل لقد وجدنا أشد الظالمين ظلماً للسكان الأصليين يعترفون بظلمهم ولا يبالون، ومنهم من سار شوطاً أبعد من ذلك كقائد الجيش الأمريكي في زمن الحروب الهندية الأخيرة وليام شيرمان الذي طبّع الخطيئة التي ارتكبتها السياسة الأمريكية تجاه الهنود وجعلها من طبيعة الأشياء وليس رغبة منظمة في فعل الخطأ[126] (وهناك من يعيب على المسلمين التفكير القدري وتبرير الظلم بالإرادة الإلهية رغم أن ذلك تم في "عصور الظلام" وليس في "عصر الأنوار" !)، وكل هذا هو مستقبل علاقة الأمريكيين بضحاياهم اليوم لو تمكنوا لا سمح الله من الانتصار عليهم ليأتوا بعد زمن ويبكوا عليهم أيضاً أثناء انهماكهم في جرائم مستقبلية أخرى.

---

(124) نفس المرجع، ص15 و18 و343 و347.

(125) مايرز، ص254.

(126) Lazarus، 1999، ص95.

الحل: عدالة القيم الإنسانية وفاعليتها تتطلب نظاماً يغير الظروف البشرية ومظالمها

ومع كل الاحترام للمتمردين على مظالم الغرب الرأسمالي فإنه كما أن الحل ليس بمجرد المطالبة بضبط النفس وكبحها وليس بوضع ضوابط وتشريعات أثبتت عقمها، فإن تغير هواجس الرجل الأبيض وتغير أطماعه تبعاً لذلك لن يحدث قبل تغير الظروف المحيطة به والتي يهيئها النظام الاجتماعي المهيمن، فمن غير المجدي أن يحدث الآتي: أن لا تلبى حاجات الإنسان الأساسية ويُترك ليشبعها من أي مورد حيث توضع الشعوب في مواجهة بعضها البعض في ظل إطلاق الغرائز والأطماع وسيادة المفاهيم المادية التي تجعل كل شيء مادة استعمالية يسخرها القوي دون الالتفات إلى أية خسائر مادية أو معنوية تنجم عن ذلك، ثم يطالَب هذا الإنسان بعد تزيين وتسهيل كل سبل الاعتداء بالإحجام عن العدوان الذي مهد له منذ البداية أو بالتخلي عن الاستيلاء على ملك غيره بعدما غُرس فيه حتمية الصراع، وألا بقاء إلا للأقوى، ودونية الآخرين المعتدى عليهم، وأصبح الجميع يتحرك وفقاً لهذه القيم التي تسحق من يتعامل بغيرها من قيم سامية تتحدث عن العدل والمساواة والأخوة والقناعة والكرم والإيثار والتضحية وغير ذلك من القيم التي لا تزدهر في الداخل الرأسمالي إلا بممارسة عكسها ضد الشعوب الأخرى.



الباب الأول

حروب المستعمرين قبل الاستقلال

1774-1492



الفصل الأول

كريستوفر كولمبس

تميز الزمن الذي عاش فيه كريستوفر كولمبس بشيوع الاعتقاد في عالم أوروبا المسيحية بقرب عودة المسيح، وقبل عودته، كان يجب نشر الإنجيل في العالم كي يتقبله الناس كلهم، وهذا يعني إما تحولهم إلى المسيحية أو فناءهم بالإضافة إلى تحرير بيت المقدس رمز الأرض المقدسة[1].

كانت إسبانيا في ذلك الزمن مشغولة بآخر حروب الاسترداد ضد مسلمي مملكة غرناطة، ولهذا عزف البلاط الإسباني عن دعم مشروع كولمبس سنة 1486 للإبحار غرباً بحثاً عن طريق جديد إلى الشرق، يتفادى الطريق الذي يسيطر عليه العثمانيون منذ فتحهم القسطنطينية سنة 1453[2]، ولكن بعد خمس سنوات من الرفض، أي في سنة 1491، وافق الملكان فرديناند وإيزابيلا على تمويل المشروع بسبب التعطش لتحقيق نصر على المسلمين والاتصال بالأمم الشرقية التي افتُرض أنها ستدعم الحرب ضد الأتراك، ويمكن كذلك الوصول إلى القدس من طريق خلفي ومهاجمة الدولة العثمانية من الخلف، وفي ظل الانتصارات على غرناطة ثار الحماس لإرسال بعثة مسيحية كبرى إلى الشرق الأقصى مما جعل أغرب المشاريع تبدو معقولة، وقد استنبط الإسبان من سقوط آخر الممالك الإسلامية في الأندلس إشارة إلهية برضا الرب عنهم إذ منحهم هذا الانتصار الأول الحاسم على "الكفار" منذ زمن طويل مما جعلهم يقدمون على دعم كريستوفر، الذي يعني اسمه رسول المسيح[3].

---

(1) Stannard، 1992، ص191-192.

(2) Jastrow، 2010، ص11 و27-28 و74-75 و121.

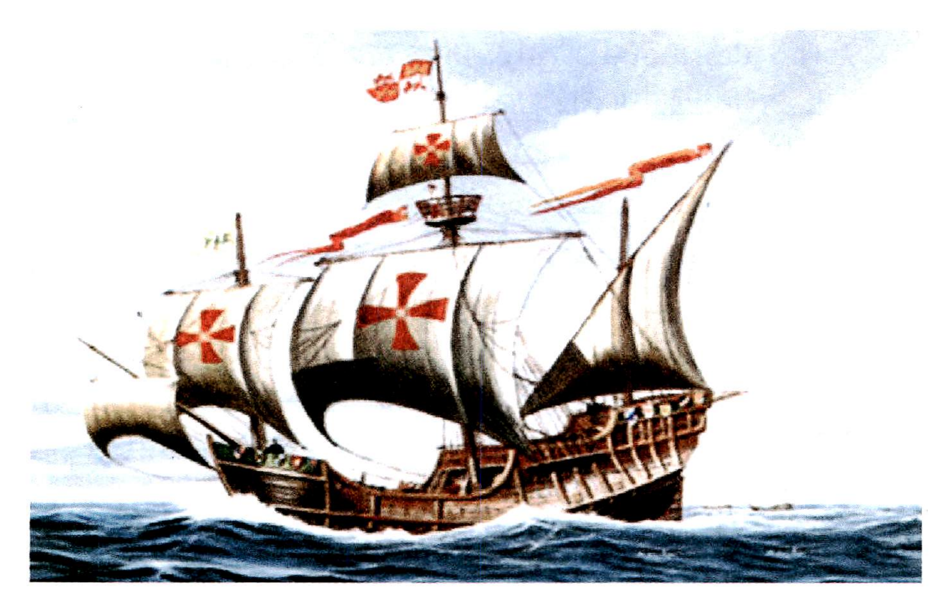
(3) نفس المرجع، ص192.

وبعد رحلة كريستوفر كولمبس التي كشفت أمريكا للعالم القديم سنة 1492، والتي قادها باسم ملكي إسبانيا، أرسل ملوك أوروبا عدة حملات استكشافية إلى العالم الجديد لتحمل معها ادعاءات بحيازات واسعة لهم فيها.



كريستوفر كولمبس

ومع أن الإسبان قاموا منذ البداية بمهاجمة وتدمير الحضارات الهندية الكبرى في أمريكا الوسطى والجنوبية، فإن عملية الصدام بين الأوروبيين وهنود أمريكا الشمالية تأجلت قرناً كاملاً وذلك لأن الكنوز الذهبية والفضية التي دفعت



سفينة كولمبس

المغامرين لقيادة الحملات ضد الأزتك والإنكا في الجنوب، لم تكون موجودة في الشمال كما اتضح لحملات استكشافية عديدة كانت تبحث عن مدن الذهب الأسطورية، والكنز الوحيد الذي امتلكته قبائل الشمال هو الأرض وما فيها من ثروات ستكتشف فيما بعد، ولم تكن حملات المغامرين تصلح للإفادة من هذا الكنز، وكان الأمر بحاجة إلى نوع آخر من المغامرة والاحتلال، وهو الاستعمار الاستيطاني، فقد كان على من يريد سلب ثروة أمريكا الشمالية أن يهاجر إليها ويستقر فيها.



رسو سفن كولمبس واللقاء الأول بسكان أمريكا الأصليين ورغم حمل الرموز الدينية سرعان ما سيتبين أولوية المصالح المادية

رست سفن كولمبس على إحدى جزر البهاما في البحر الكاريبي، فأطلق عليها اسم اسبانيولا، ولأنه ظن أنه رسا على شواطئ الهند فقد أطلق على السكان اسم الهنود، وكان لقاؤه بهم نموذجاً بدئياً رسم معالم ما سيحدث بعد ذلك بين الطرفين الأوروبي والأصلي في كل القارة الشمالية، فقد رحب "الهنود" بالقادمين الجدد وظنوا أنهم آتون من السماء، وقد ظهر عدم التكافؤ بين الطرفين من أول عملية تبادل تجري بينهما، إذ قدم الهنود ذهباً وقدم الإسبان خرزاً، ورغم أن الأمر يمكن فهمه من وجهة نظر السكان الأصليين الذين كان

الخرز عندهم نفيساً وله دلالات مهمة، فإن إقدام الطرف الأوروبي الأقوى على قبول هذا الميزان دليل على نواياه الاستغلالية منذ البداية والتي تحتج برضا الهندي عندما يتفق مع أطماعها، كما ساعد الهنود كذلك في إنقاذ حمولة سفينة إسبانية تحطمت، أما كولمبس فكان له تفكير آخر، ففي مبادرة سلبية أخرى عمل على إرهاب السكان الأصليين بإظهار تفوقه وقوته بإطلاق بعض المدافع ليوقع الرعب في نفوس الهنود.

أما عن تقويمه لهؤلاء الهنود، فلم يقتصر الخطأ فيه على ظنه أنهم من سكان الهند، وهو على كل حال خطأ فني لا حرج عليه، ولكن نظرته إلى سلوكهم تميزت بأنها ذات شقين قد يبدو عليهما التناقض لأول وهلة، فمن جهة "هؤلاء الناس طيبون جداً ومسالمون جداً، إذ أني أقسم لجلالتيكما (يخاطب ملكي إسبانيا) أنه لا توجد في العالم أمة أفضل منهم، إنهم ليحبون جيرانهم أكثر مما يحبون أنفسهم، كما أن حديثهم دائم الحلاوة واللطف، ويرافق دائماً بابتسامة، ورغم أنهم عراة، فإن سلوكهم محتشم وجدير بالإطراء"[4].

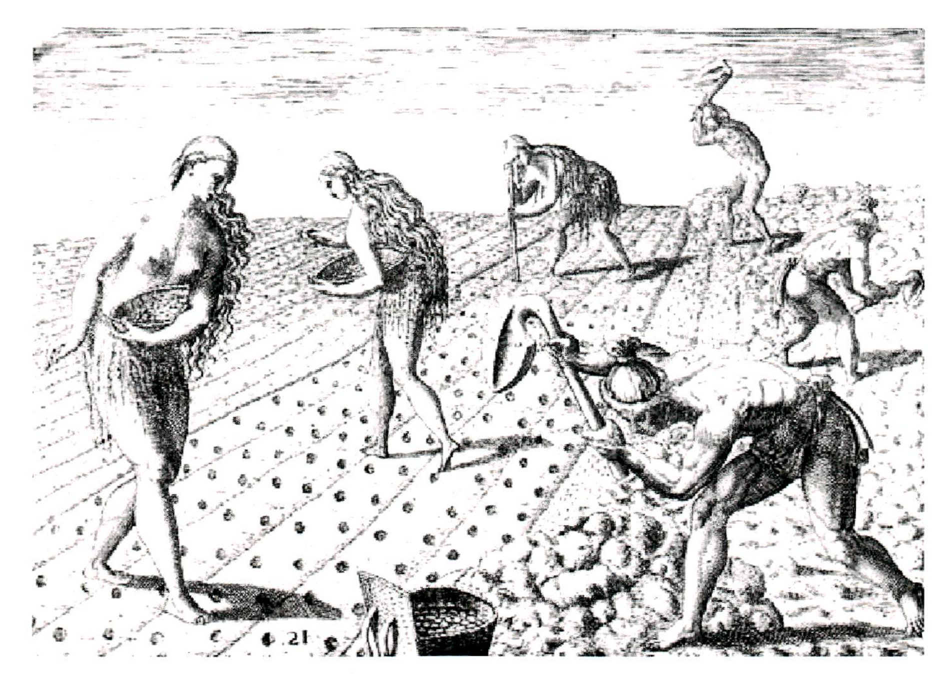
وقال أيضاً: "ولو سألتهم عن أي شيء يملكونه، لا يقولون لا، قط، ولكنهم يدعون المرء لمشاركتهم به، ويبدون من الحب كما لو أنهم يعطون قلوبهم، سواء كان الشيء ذا قيمة كبيرة أو صغيرة، فإنهم على الفور يقنعون بما يعطى لهم مهما كان قليلاً، ومن أي نوع كان"[5].

وفي إشارة دالة على مستقبل العلاقات بين الطرفين، لم يكتف الفاتح الإسباني بما أبداه السكان الأصليون من حسن نوايا وسلوك، وبحث عن نقيصة ستبرر له عملية الإخضاع التي جاء بهدف تحقيقها، ولهذا قال من الجهة الأخرى إن هذا الشعب يجب أن "يُجبَر على العمل والزراعة والقيام بما هو ضروري وأن يتبنى أساليبنا"[6]، وهي عبارة ستطبع السياسة الأوروبية والأمريكية فيما بعد تجاه السكان الأصليين لمدة قرون.

(4) براون، 1982، ص7.

(5) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص9.

(6) براون، 1982، ص7.



الزراعة الهندية في فلوريدا حيث يعمل الرجال والنساء وفقاً لوصف فرنسي من نهاية القرن السادس عشر وهو مظهر لم تره الأعين الأوروبية آنذاك وفيما بعد وأصرت على كسل الهندي وترحله في الوقت الذي كان المزارعون الهنود فيه هم أول ضحايا الغزو الأوروبي

وسرعان ما سيتبين أيضاً أن خطابه هذا ليس موجهاً نحو إصلاح معيشة هؤلاء الهنود وتعليمهم أساليب أنفع لحياتهم، وأن المقصود هو سلبهم ونهب خيراتهم، وقد طغت هذه الازدواجية في الطرح على خطاب الفاتح الأوروبي منذ البداية إلى النهاية، وأوضحت أنه ذهب للإخضاع بغرض الاستغلال وليس لمجرد الاستكشاف والتجارة والحوار الحضاري، فهو من جهة يقر بتهذيب سلوكهم مما ينفي عنهم صفة "التوحش" و"البربرية" التي طالما ألصقت بهم فيما بعد عندما رفضوا منطق الإخضاع، ولكنه كي يبرر هذا المنطق الذي يعلم هو أنه أسلوبه كان لا بد له من العثور على عيب يجيز له استعمال القوة مع هؤلاء الناس لتقويمه، وهذه النظرة لم تكن صادرة عن مجرد التمركز حول الذات الموجود في كل نفس بشرية ويجعلها تحكم بصواب ما هي عليه وتخطّئ ما عليه الآخرون، فاللقاء لم يكن لقاء عابراً بل هو بتصريحه يحتوي على مصالح ممثلة في إجبار هؤلاء الهنود على "تبني أساليبنا"، وهو ما ستؤكده الحوادث القادمة، وكان

ذلك ما دفعه للقيام برحلته منذ البداية حينما صرح بأن هدف الحملة هو الحصول على الذهب "وبكميات كبيرة حتى يتسنى للملكين (الإسبانيين فرديناند وإيزابيلا) خلال ثلاث سنوات الاستعداد والاتجاه إلى فتح الديار المقدسة" ولهذا "فقد أعلنت لسموكما أن كل مغانم مشروعي هذا سوف تنفق على فتح القدس"[7].



أبو عبد الله الصغير يسلم مفاتيح غرناطة للملكين فرديناند وإيزابيلا (1492)، وهو الحدث الذي فتح شهية الإسبان للعمل على فتح القدس والبحث عن طريق جديد إلى الشرق الأقصى لا يخضع لسيطرة المسلمين بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية (1453)، ومن ثم اكتشف العالم الجديد[8].

ولهذا لم تصلح كل المظاهر الحضارية التي وجدها كولمبس ومن بعده من الأوروبيين في أمريكا في إيقاف مشروع الإخضاع العسكري، فرغم سلوك الهنود الراقي مع كولمبس والذي أطراه بنفسه، ورغم مساعدتهم له في إنقاذ حمولة

(7) تودوروف، 1992، ص17.

(8) Jastrow، 2010، ص10-11 و27-28.

سفينته المحطمة ونجاحهم في ذلك بما لم يضيع معه حتى إبرة بشكل أثبت كما يقول أحد المؤرخين "إن سكان الجزر يملكون موارد أنسب لمتطلبات بيئتهم"[9]، ورغم الصورة المُرضية التي رسمها بحارته للقرى الهندية بما "يفضلها على قرى أوروبا في ذلك الزمان"[10]، ورغم نجاح كثير من القبائل الهندية فيما بعد في "تبني أساليبنا" حتى في الصغائر فضلاً عن كبريات الأمور مما أسقطت معه كل حجج الوثنية والبدائية والتوحش، وعدم العمل، والكسل، مما جعلهم باختصار "متحضرين" باعتراف الأمريكان أنفسهم، فإن كل ذلك لم يشفع لأحد منهم ولم يدرأ عنهم العدوان، فمورست عليهم أبشع أساليب القهر والاضطهاد والإخضاع وثبت أن الأرض وثرواتها هي الهدف الوحيد للمستعمر الأوروبي ثم الأمريكي وأن الحصول عليها هو المبرر الوحيد لما جرى على السكان الأصليين، وقد اختصر كولمبس هذا الطريق بشطب شامل عمّى به على كل الوجود الأصلي في الأرض التي رسى عليها وكتب إلى راعييه الملكين أثناء عودته إلى إسبانيا بعد عمليات استكشافية بحثاً عن ملوك وثروات ومدن عظيمة أن رجاله اخترقوا دواخل الجزر لمدة ثلاثة أيام وجدوا أثناءها عدداً لا يحصى من القرى الصغيرة وبشراً لا يمكن عدهم "ولكن لا شيء مهماً"[11]، وسيطبع هذا التعامي والتجاهل طبيعة الرؤية الأوروبية لكل ما سيواجهه المهاجرون من إنجازات الثقافات الهندية فيما بعد، ولن يكون بنظرهم أي شيء مهماً، وهذا أمر طبيعي لدى قوم عيونهم مسمرة على الأرض للاستيلاء عليها ويبحثون عن كل الحجج الانتقاصية التي تشيطن أهلها وتبرر سلبهم وجودهم.

وهذا النموذج سيتكرر في فلسطين حيث وصف أحد المؤرخين المشهد بالقول إن مؤسس الصهيونية السياسية الأول، تيودور هرتزل، كان "يرى في الدولة اليهودية المستقبلية رأس جسر للغرب المتقدم والمتنور بالغ التطور، في الشرق الرجعي والمتخلف، بحيث ستؤلف الدولة اليهودية جسراً لعبور الأدمغة متقدمة التفكير، وعناصر التطوير إلى المنطقة المحيطة، بيد أن الرواد الصهاينة

(9) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص7.

(10) نفس المرجع، ص8.

(11) Stannard، 1992، ص258.

الأوائل، كانوا أكثر اهتماماً بمسألة "استرداد الأرض" بوسائلهم الخاصة، وبالعمل، ورأس المال اليهودي، فقد آثروا أن يبقوا منفصلين بمنهجهم، ومختلفين بأسلوبهم لكونهم يتكلمون اللغة العبرية التقليدية، ومن ناحية أخرى، فعلى الرغم من أن الرجال الذين أدركوا أهمية الحلم الصهيوني المنعش من أمثال حاييم وايزمان، ويتبنون نهج وأفكار معلمهم "هرتزل" الجدلية في أن الدولة اليهودية في فلسطين سوف تجلب المنافع العظيمة إلى المنطقة، فإن اهتماماتهم الخاصة قد انصبت أساساً في تطوير دولتهم بشكل خاص، بحيث كان هدفهم الجوهري هو ضرورة أن تتمتع دولتهم بثقافة عالية ومستويات معيشية ممتازة"[12].

ولهذا فإنه من المستحيل أن يقوم صاحب هذا البرنامج وهذه المصلحة بتحسين حياة من يسعى لسلبهم، وما سيقوم به هو اختلاق الأساطير التي ستبرر له أفعاله، إذ أن الأسطورة كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله[13] هي نموذج معرفي ذو علاقة واهية بالواقع، وظيفتها تبرير الطرد والاستعباد والإبادة، ودونها لا يمكن لأي بشر أن يقوم بهذه الأفعال مهما بلغ من وحشية.

وفي هذا الإطار يمكن لنا تفسير قول كولمبس عن وجوب إجبار الهنود على "تبني أساليبنا" بأنه خدعة نفسية يمارسها القوي ضد الضعيف فتصور له عيوباً في الضحية تبرر له اضطهادها فيما بعد، وهو نفس ما جرى علينا في الشرق العربي الإسلامي عندما رآنا الغربيون بعيون من يسعى لاحتلالنا فظهر علم سمي بالاستشراق وهو الفكر الذي برر للغربي إخضاع الشرق واستعماره والهيمنة عليه[14]، وذلك بوصمه بعيوب تحتاج تدخلاً منقذاً من جهة الغربي العالم العاقل الذكي، ولهذا أقترح أن يعمم اسم يحتوي على التجارب الشرقية بالإضافة إلى تجارب بقية السكان الأصليين في العالم غير الأوروبي الذين أصابهم "استشراق" خاص بهم أينما كانوا، وبهذا فنحن نتكلم عن لفظ "الاستئصال"

---

(12) مانسفيلد، 2011، ص426-427.

(13) المسيري، 1999، ج7، ص59.

(14) سعيد، 1984، ص39.

الذي يؤدي معنيين في ذات الوقت: دراسة "الأصلي" كما يدرس الاستشراق "الشرقي"، ولهذا فاللفظ مشتق من كلمة "أصل" على نفس الوزن الذي اشتق الاستشراق من الشرق، والمعنى الثاني هو المعنى المعروف لكلمة استئصال وهو الذي يعني في الدراسات التاريخية الاجتياح والنهب والاقتلاع من الجذور، وقد أنتجت النظرة إلى الهندي بالفعل صوراً كثيرة مشوهة كان هدفها جميعاً تبرير إخضاعه وانتزاع أرضه[15] وهو ما يسوغ اللفظ الذي أقترحه وهو الاستئصال.

وفي هذا الإطار شرح أحد الأمريكيين المشهورين بقربهم من السكان الأصليين حقيقة المعضلة الاستشراقية-الاستئصالية في كل زمان ومكان، وهذا هو الفنان جورج كاتلين الذي ساح بين القبائل الهندية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ورسم لوحات خلدته عنهم، وقال بعد الاختلاط بهم: "لقد وجدت السبب الرئيس وراء احتقارنا وعدم تقديرنا للهمجي وهو عدم فهمنا إياه"، وإن هذا الفهم متيسر إذا اتخذت الوسيلة الصحيحة للاقتراب من شخصيته التي لا يوجد أي غرابة فيها، وإذا كان هناك من يقول إن سبب عدم الفهم هذا هو أن معظم البيض في ذلك الزمن لم يقابلوا هنوداً في حياتهم وأنهم كانوا يقيسون الهندي بأفكار الرجل الأبيض واعتقاداته[16]، فإن هناك سبباً أهم وراء هذه الممارسات وهو وجود مصالح لا تستقر إلا بتشويه صورة السكان الأصليين وتبرير الاعتداء عليهم، ولهذا نجد أنه مهما كانت صورة البشر البعيدين عنا سلبية، لا يتبعها مظالم ما لم تكن لنا حاجات في ذلك.

الفنان الأمريكي جورج كاتلين (1796–1872)
جعله احترامه للهنود رجلاً فريداً بين البيض[17]

(15) William W. Savage، 1977، ص6.
(16) Boddington، 1977، ص12–14.
(17) Drinnon، 1997، ص497.

وقد امتدت عملية تبرير العدوان على سكان أمريكا الأصليين إلى التشريع القانوني الذي مر بمراحل عديدة تعود بجذورها إلى المسيحية وأفكار العصور الوسطى الدينية التي تطورت ودخلت العصور الحديثة بنفس المضامين التي بررت الحروب الصليبية وكان من المفترض أن تلغى عصبيات الماضي الدموية مع حلول عصر العقل والأنوار، ولكن هذا لم يحدث واتخذ العدوان في النهاية شكله العلماني العقلاني من الجذر الديني[18].

وعن دور العقل تحدث الدكتور زكي نجيب محمود في المحاضرة الافتتاحية لندوة أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي التي انعقدت في الكويت سنة 1974، وكانت المحاضرة بعنوان الحضارة والتقدم والتخلف، قائلاً أثناء الحديث عن العقل بصفته فيصلاً بين التقدم والتخلف: "فما هو الذي نسميه عقلاً؟ هو ببساطة شديدة ذلك النمط من أنماط السلوك الذي يتبدى عندما نحاول رسم الطريق المؤدية إلى هدف أردنا بلوغه، فليس الهدف المختار في ذاته "عقلاً" لأنه وليد الرغبة وحدها، وليست النقطة التي أبدأ منها السير على الطريق "عقلا" لأنها مبدأ مفروض، أما العقل بمعناه الدقيق فهو -ببساطة شديدة كما قلت- رسم الخطوات الواصلة بين هذا المبدأ المفروض من جهة وذلك الهدف المطلوب من جهة أخرى"[19].

ومما يؤكد استبعاد العقل من عملية تحديد الأهداف أن الأمم الغربية "العقلانية" كثيراً ما دخلت في حروب طاحنة فيما بينها للصراع على غايات من المؤكد عدم عقلانيتها وإلا لما حصل التضارب بينها، وهذا كلام موجه لمن يحلو له إسباغ الصفة العقلانية على كل ما هو غربي حتى لو كان مما لا يُعقل، أما أن يصل الإنسان إلى درجة تحديد الهدف بالعقل فهذا ما لم تحققه الحضارة الغربية إلا في خيالها[20]، وحتى هذا الخيال سيتبين أنه لم يكن عقلانياً بل كان إسقاطاً لرغبات زمنه على المثل العليا.

---

(18) Robert A. Williams، 1990، ص15.

(19) مصطفى، 1975، ص21.

(20) مور، 1987، ص175.

لقد اشتركت المراحل الدينية والعلمانية من التطور الأوروبي في هذه السمة، وهي تحديد الأهداف وفقاً للرغبات، وهو ما أدى إلى استمرارية في تبرير الحاجات مع اختلاف الديباجات، ولكن الجوهر فيما يتعلق بالهندي كان إبراز اختلافه عما يراه الأوروبي الغربي صالحاً لنفسه ومن ثم للإنسانية كلها[21]، وهي نفس الرؤية التي صدر عنها كلام كولمبس في وجوب إجبار الهنود على تبني الأساليب الأوروبية وذلك لأن هذه الأساليب كانت في الرؤية الأوروبية هي الوضع الأصح للإنسان الطبيعي، ولكن ما سيتكشف بسرعة أن المطلوب ما هو صالح للأوروبي وحده ولو على حساب وجود غيره، وهذا ما سيظهر أن الأهداف كانت نتاجاً للرغبات وليس للعقل.

وكان مدخل هذا الحق الذي أعطاه الأوروبي لنفسه هو حق الكنيسة ورأسها البابا، خليفة المسيح، في فرض "الحقيقة" على الشعوب الأخرى، وهي فكرة ترجع زمنياً إلى حقبة حروب الفرنجة الصليبية ثم خبت بانتهائها ثم عادت إلى الحياة زمن الكشوف الجغرافية[22]، التي كان البابا هو الذي يمنح براءات التملك فيها ويقسم أراضي العالم بين الدول، وكانت رحلة كولمبس قد اتجهت في الأصل إلى الغرب لتجنب الاحتكار الذي منحه البابا للبرتغال في إفريقيا[23]، وقد منح البابا الكسندر السادس (1492-1503) براءة امتلاك الأراضي الأمريكية لإسبانيا في مايو/ أيار/ ماي 1493، وذلك بعد أن عزز انتصارها على المسلمين في مملكة غرناطة دور الكنيسة[24]، وكانت البراءة تتضمن ملكية الأراضي وحق الملك المسيحي في وضع السكان الأصليين تحت إدارته المستمدة أصلاً من وصاية البابا على الشعوب غير المسيحية، وإن كان هؤلاء السكان لا ينتهكون القانون الطبيعي، وذلك لأجل ألا يقاوموا التبشير المسيحي، وهو الأمر الذي كان حتى ذلك الوقت هو مبرر الإخضاع العسكري.

وبعد اعتراض البرتغال على هذه القسمة أصدر البابا مرسوماً آخر بتقسيم

---

(21) Robert A. Williams، 1990، ص59.

(22) نفس المرجع، ص14-15 و59.

(23) نفس المرجع، ص75.

(24) نفس المرجع، ص80.

العالم الجديد بين الدولتين، وهو مرسوم لا يستطيع أي حاكم مسيحي أن يتحداه، وهذا ما حصل بالفعل إلى أن ثار الإصلاح الديني البروتستانتي.

وقد أوضح التاريخ فيما بعد أن هدف الأوروبي لم يكن مجرد فرض الحقيقة المسيحية على سكان أمريكا، ولهذا لم يكتف المشرع الإسباني بالوصاية البابوية بصفتها حاكماً مباشراً على الهنود، كما لم يكتف بحجة مقاومة المسيحية بصفتها مبرراً للإخضاع العسكري، لاسيما أن الهنود لم يقاوموا التعميد، فعمد المشرع إلى الطلب من البابا نقل صلاحيات الوصاية بإعطاء حق الإدارة والإرشاد إلى الملك الإسباني صاحب الحق في الاكتشاف، الأمر الذي سهل على الملك الدنيوي عمليات الاستغلال اللاحقة.

ومسلحاً برؤيته المركزية وبغطرسة قوته التي أظهرها للهنود قام كولمبس بقراءة إعلان باسم الملكين الإسبانيين، وباللغة الإسبانية أمام الهنود الذين لا يفهمونها، يعلن فيه ملكيتهما لهذه الأراضي، وأكد أنه "لم يعترض أحد"[25]، وقد كان القانون الغربي يعطي الأمة المسيحية التي تكتشف أرضاً للوثنيين، الحق الأعلى في ملكيتها، ملغياً بذلك حق السكان الأصليين، وهو تشريع يرجع إلى فترة العصور الوسطى[26].

فسر كولمبس غرق إحدى سفنه بأنه أمر إلهي بالاستقرار في الأرض الجديدة، وهذه الإشارات الإلهية ستتكرر في التاريخ الأمريكي بداية من ذلك الوقت مروراً بالمستوطنين المتطهرين (البيوريتانيين) وصولاً إلى جورج بوش الإبن الذي تلقى أمر غزو العراق من السماء، وبعد التقاط كولمبس إشارة الرب هذه، قرر أن يعود إلى أمريكا بمستوطنين من إسبانيا، وفهم الهنود طبيعة هؤلاء القادمين[27] الذين استولوا على ثرواتهم وباعوهم في أسواق الرقيق، فاندلعت المقاومة ضدهم "ومات الآلاف من الهنود في المقاومة وفي المناجم"[28].

وفرض الإسبان أنظمة اقتصادية محكمة ومختلفة للاستغلال ونهب ثروات

---

(25) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص10.

(26) Robert A. Williams، 1990، ص99 و213.

(27) فرّو، 2007، ص53.

(28) Robert A. Williams، 1990، ص82.

"إسبانيا الجديدة"، وهي الذهب والفضة والقطن والرقيق، وقامت هذه الأنظمة على أساس استغلال عمل الرقيق الهنود في استخراج المعادن الثمينة أو زراعة المحاصيل التجارية أو من مجرد بيعهم في أسواق الرقيق، فدمر أساس النظام الاجتماعي الذي كان السكان الأصليون يعيشونه ويكتفون به، وسبب الدمار هو تحويل جهدهم بالقوة نحو العمل الإجباري[29]، ومات عشرات الآلاف من الهنود من الأمراض التي جلبها الإسبان معهم كالجدري والحصبة والإنفلونزا ولم يكونوا يعالجونهم منها ولهذا "لا يمكن تبرئة الإسبان من هذه الموجات الوبائية"[30]، وأيضاً ساهمت المجاعة في هذه الخسائر بعدما تحول جهد الهندي من زراعة القوت إلى زراعة المحاصيل التجارية للإسبان (تماماً كما ستتحول بلادنا فيما بعد)، كما تسبب العمل الشاق في مناجم الذهب والفضة في تكبير حجم الخسارة البشرية، ولم يمر جيل على رسو سفن كولمبس في البحر الكاريبي، إلا وقد أبيد الهنود من أجزاء واسعة من هذه المنطقة، وانخفض عددهم في الجزيرة الأولى (إسبانيولا) من مائة ألف في أقل تقدير، وهناك من يقدرهم بمائتين وخمسين ألفاً، إلى ألف أو آلاف قليلة فقط[31]، ثم اندثروا تماماً من منطقة الكاريبي كلها بحلول القرن الثامن عشر[32] بعدما أكمل الفرنسيون والإنجليز طردهم واضطهادهم عقب الإسبان[33]، وأما الزعيم الذي استقبل كولمبس وقدم له الهدايا وظل على ولائه له عقداً من الزمن وحارب إلى جانبه ضد أبناء جلدته فلم يفده كل صنيعه هذا إذ انقلب أسياده الإسبان عليه ومات هرباً منهم[34].

ورغم القسوة التي تميزت بها أنظمة الاستغلال المتتالية، والاعتراضات التي واجهتها من ذوي الضمائر من رجال الدين[35]، بل حتى ممن تزعم اضطهاد

---

(29) فرّو، 2007، ص55.

(30) نفس المرجع، ص54.

(31) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص13.

- Robert A. Williams، 1990، ص85.

(32) فرّو، 2007، ص59.

(33) نفس المرجع، ص61.

(34) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص12.

(35) نفس المرجع، ص12.

- كازاس، 1991.

المسلمين الأندلسيين[36]، ووصلت حد تدخل الملكة إيزابيلا بنفسها للاعتراض على إجراءات كولمبس الوحشية ضد الهنود[37]، فقد استمر الاضطهاد والاستغلال نتيجة الأطماع المادية وشُرّع الحصول على الربح باستعباد الهنود بمرسوم ملكي ألغى الإجراءات الإنسانية وبرر الاسترقاق بأنه ضرورة لخلاص الهندي وتحوله إلى الحضارة تحت عنوان العمل[38]، وسنرى على طول التاريخ الأمريكي أن وسيلة الاستغلال وجني الأرباح للبيض (مثل فكرة الملكية الفردية في الولايات المتحدة) كانت تبرر دائماً بكونها طريق الهندي للحضارة ثم تكون النتيجة هي مزيداً من البؤس له والاضطهاد الذي يقع عليه.



الأسقف بارتولومي دي لاس كازاس (1474-1666) يعده بعض المؤرخين أشهر شخصية في القارة الأمريكية بعد كولمبس لدفاعه القوي عن حقوق الهنود (كازاس، 1991، ص7)، فلقب بحامي الهنود، ولكنه دعا أيضاً لإحلال العبودية الإفريقية محل استعباد السكان الأصليين في أمريكا.

---

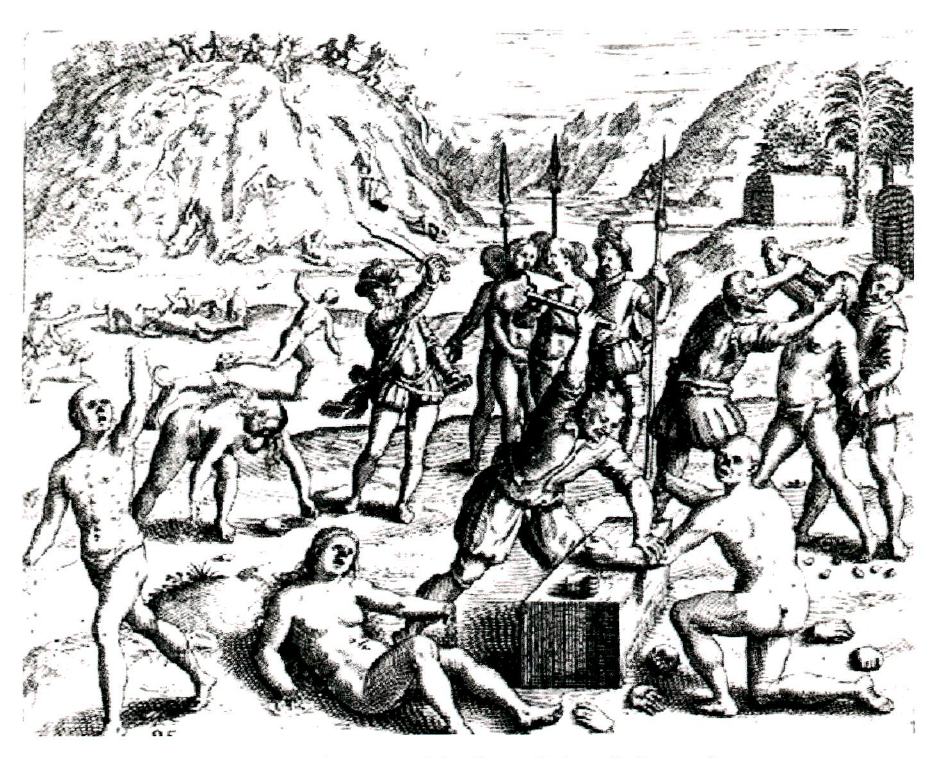
(36) Encyclopedia Britannica، 1987، ج7، ص168.

(37) Robert A. Willimas، 1990، ص83.

(38) نفس المرجع، ص83.



الكاردينال فرانسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس (1436–1517) كبير محاكم التفتيش التي اضطهدت الأندلسيين ومع ذلك ساند قضية الأسقف لاس كازاس للدفاع عن حقوق السكان الأصليين في أمريكا.



من صور الوحشية الإسبانية في التعامل مع سكان الكاريبي الأصليين التي نقلها الأسقف لاس كازاس في القرن السادس عشر.



وبهذا أسفر الغازي عن حقيقة أهدافه التي تكلم عنها منذ البداية وظهر أنها ليست مجرد نشر حضارة متفوقة أو غرس مبادئ جديدة، بل هي الحصول على الربح المادي من هؤلاء السكان الأصليين المساكين، وحتى المسيحية التي حصلوا عليها مقابل كل ما أعطوه كانت في صالح المحتل القوي لأن عملية التعميد كانت تسهل التدجين وغرس الولاء له فيصبح امتصاص الأرباح واستنزاف الجهد أكثر سهولة[39]، ولم تؤد إبادة الهنود إلى أي تراجع عن برنامج الكسب المتوحش بل إلى تفكير المحتل بوجوب البحث عمن يحل محلهم في أداء العمل الشاق، فاتجه التفكير إلى شراء العبيد الأفارقة بدلاً من أولئك الهنود الأصليين.

وهكذا سنجد أن التدخل الإنساني في مجمل التاريخ الأمريكي فيما بعد اللحظة التأسيسية سيتحول إلى عبث لا طائل جذرياً منه في أحسن الأحوال، وإلى أداة في يد

(39) نفس المرجع، ص198-199.

المحتل تقوم بتسهيل مهمة الاستغلال والنهب والإبادة دون القيام بتعهداته نحو الضحايا لأنه عندما يتدخل بين الطرفين يتمكن من الحصول على تنازلات من الضعيف بحجة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المد القدري الكاسح ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع تغيير إرادة القوي فتكون النتيجة لصالح هذا الأخير دائماً.

هذا هو نموذج العلاقات الأوروبية والأمريكية-الهندية الذي سيحكم التاريخ التالي بعد ذلك بما يحتوي عليه من: لقاء أولي سلمي يحمل في طياته سوء الفهم والغطرسة وإرادة الاستغلال، ثم وضوح النوايا الاستغلالية بعد ذلك بالعدوان الاستيطاني الذي يستدعي المقاومة التي يتم قمعها بالعنف العسكري الذي يستغل الخلافات الداخلية ويقوم بتجنيد العملاء والمتعاونين الذين لا يستفيدون غالباً من عمالتهم وينتهي الأمر بهزيمة الهنود جميعاً سواء المقاوم أو المسالم أو حتى المتعاون، ويقوم في هذه الأثناء أصحاب الضمائر في الجانب القوي المحتل باستنكار ما يحدث محاولين تجنبه قدر المستطاع ولكن الأمر ينتهي بهم إلى إجراءات عديمة الجدوى أو مساندة للظالم مع عدم القدرة على الوفاء بالالتزامات تجاه الضحية الضعيفة وذلك لأن القوة ليست في يد هؤلاء الإنسانيين، ولا فائدة منهم للنظام الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع الاستعماري الاستيطاني إلا إذا قاموا بتبني برنامجه التوسعي بحجة فوائده للهنود، وكثيراً ما تطابقت البرامج الإنسانية مع البرامج الاستغلالية، وكثيراً ما كانت النوايا الحسنة تجمّل بشاعة الإجراءات الظالمة ولكنها تترك أساسها المستغِل سليماً[40]، ويعلق أحد المؤرخين على اللقاء الأول بين أوروبا والهنود قائلاً: "وفي هذا اللقاء المبكر بين الأوروبيين والأمريكيين الأصليين (أي الهنود)، تماماً كما في المواجهات القادمة، تحولت عروض الصداقة إلى الإجبار، ولم يكن مهماً من أين أتى الدخلاء أو ما الذي كانوا يبحثون عنه، فسواء كانوا جنوداً أو مبشرين إسبان يبحثون عن المعادن الثمينة والمهتدين من الكاريبي إلى كاليفورنيا، أو كانوا مستوطنين إنجليزاً أنشئوا مزارع في فرجينيا وماساشوستس، أو فرنسيين يبحثون عن تجارة الفراء في الداخل الكندي، أو تجاراً روساً يذرعون شواطئ ألاسكا بحثاً عن الجلود، فإنه في النهاية اصطدمت طموحاتهم بمطالب (الهنود)

---

(40) The Editors of Time-Life Books، 1992، ص12.

المتجذرة، وفسدت العلاقات التي بدأت دائماً بمنح الهدايا ورموز الاحترام متحولة إلى المرارة والخيانة"[41].

لم تكن الدول الأوروبية الأخرى التي ادعت ملكيات في شمال أمريكا متفرغة في ذلك الوقت لعمليات الكشوف والاستيطان كتفرغ إسبانيا والبرتغال، وكانت مشغولة في شئون أوروبا وصراعاتها، وكانت إنجلترا التي أدت فيما بعد الدور الأبرز في تطور الأحداث في أمريكا الشمالية، مشغولة بشئونها الداخلية التي هيأت لها القاعدة المادية للانطلاق في عملية الاستعمار في الخارج، وقد ورثت في البداية وقبل نشوء الإصلاح الديني البروتستانتي الخطاب الكاثوليكي الذي دفع الإسبان والبرتغاليين نحو الاستعمار، إلا أنه بقيام الإصلاح وتبني الملك هنري الثامن مبادئه تطور الخطاب الإنجليزي نحو تبني الرموز التوراتية التي أسقطت على الأمة الإنجليزية فجعلتها الشعب المختار وصاحب الرسالة التي سيؤديها في العالم الجديد[42].

هذا العالم الجديد واجه عالماً جديداً آخر نشأ في العالم القديم وذلك نتيجة التحولات التي نتجت عن قيام ثورة الإصلاح الديني البروتستانتي التي جعلت من السعي وراء المصلحة الذاتية المادية خلقاً دينياً، ومن الوفرة المادية دليلاً على الخلاص النهائي للإنسان[43]، وقد رأى ماكس فيبر أن هذه الأخلاق البروتستانتية مهدت لظهور الرأسمالية وساعدت على انتشارها ولم ينف أثر عوامل اقتصادية أخرى في نشوئها وما نفاه هو أن تكون الأفكار الدينية مستخرجة ببساطة من الظروف الاقتصادية[44]، أما الماركسية فقد جعلت البروتستانتية نتاجاً فوقياً بُني على تلك الظروف الاقتصادية للرأسمالية، وإن كانت لا تلغي أثر هذا البناء الفوقي على الأساس التحتي[45]، والخلاصة أن الارتباط بين الجانبين الديني البروتستانتي والاقتصادي الرأسمالي متحقق في النظريتين.

---

(41) نفس المرجع، ص9.

(42) Robert A. Williams، 1990، ص122.

(43) برينتون، 1984، ص84.

(44) فيبر، ص165.

(45) لابيكا، 2003، ص291-293.

- فيبر، ص58.

سلمت إسبانيا بأن شمال أمريكا "أرض لا تخص أحداً"[46]، وهذا الشعار الذي اتفقت عليه دول أوروبا فيما يخص أمريكا يذكرنا بالشعار الصهيوني الذي نحت فيما بعد ليصف فلسطين بأنها "أرض بلا شعب" وهو شعار صاغه الروائي البريطاني إسرائيل زانجويل (1864-1926)، وتبنته الحركة الصهيونية لتبرر غزوها فلسطين، وهو حدث سبقته أحداث مشابهة في أمريكا حيث جعلها الشعار الإسباني السابق مكاناً لا يسري عليه قوانين العالم القديم، وقد لاحظ البروفيسور الراحل إدوارد سعيد أن الحقوق اليهودية في فلسطين "صيغت بلغة قانونية أو حتى غيبية على غرار ما كانت تفعله الدول الإمبريالية في مستعمراتها المختلفة في أميركا وآسيا وإفريقيا"[47]، وهو ما جعل القوة هي التي تصنع الحقوق[48]، وأصبح المجال مفتوحاً أمام أمم أوروبا للتسابق في هذا الميدان بحثاً عن مصالحها التي لا يوقفها إلا تصدي هذه الأمم المسيحية لبعضها البعض بالقوة[49]، أما السكان الأصليون فسيصبحون الضحايا الذين سيتفق الجميع على سلب أراضيهم وتهجيرهم منها أو إبادتهم عليها لاستعمارها.

---

(46) Robert A. Williams، 1990، ص133.

(47) كيالي، 1979، ص134.

(48) Robert A. Williams، 1990، ص133.

(49) نفس المرجع، ص134.

الفصل الثاني

وصول الإنجليز

قبل الدخول في مغامرات الإنجليز في أمريكا، يحسن الاطلاع على مشاركة الحركة الإنسانية الإنجليزية في دفع عملية الاستعمار بواسطة المثل الأعلى للمدينة الفاضلة الذي طرحه السير توماس مور في كتابه الشهير "يوتوبيا" الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1516، أي بعد أقل من ربع قرن من اكتشاف العالم الجديد وفي الوقت الذي كانت فيه أمم أوروبا تتطلع إلى أمريكا للتنافس عليها ولكن قبل موجات الاستيطان الاستعماري المكثفة.

وكما يتضح من العنوان فقد كرس مور كتابه لوصف "السياسة المثلى للدولة"، ومن استعراض معالم هذا المجتمع الذي وصفه نرى تغلغل مفاهيم الاستيطان والطرد والاستعلاء الحضاري، حتى في المثل الأعلى في ذلك الزمن، وهي نفس المفاهيم التي قادت الأحداث بعد ذلك بقرن في أمريكا الشمالية، ومن ضمن عباراته في الكتاب الذي يعد "وثيقة من وثائق الحركة الإنسانية"[1]، قوله: في يوتوبيا "كل شيء مشترك"[2]، فلا يرقد الدجاج على البيض بل يحفظ الزراع عدداً كبيراً منه في درجة حرارة معينة ثابتة[3]، وأبواب البيوت "تفتح تلقائياً، بمجرد أن تلمسها اليد تسمح لأي شخص بالدخول"[4]، وتنتقل الذبائح "بعد أن يقوم العبيد بذبحها وتنظيفها، فهم لا يسمحون للمواطنين بالتعود على

(1) مور، 1987، ص38.

(2) نفس المرجع، ص131.

(3) نفس المرجع، ص145.

(4) نفس المرجع، ص148.

ذبح الحيوان، إذ يظنون أن ممارسة ذلك تقلل تدريجياً من الشعور بالرحمة وهي أروع مشاعر الطبيعة الإنسانية"[5]، "ليس هناك مشارب أو حانات"[6]، وسكان يوتوبيا "يعجبون من أن رجلاً تبلغ به الحماقة حداً يجعله يظن نفسه أكثر نبلاً من غيره"[7]، أو "أن إنساناً يجد لذة من اللمعان الخافت لجوهرة صغيرة أو حجر كريم بينما يمكنه أن ينظر إلى النجوم"، "أما التنبؤ بالأمطار والرياح وجميع التغيرات الجوية الأخرى فذلك أمر يتقنونه"[8]، ويرون "أن السعادة لا توجد في جميع أنواع اللذة بل في اللذة الخيرة الشريفة فقط"[9]، "إذا أدين رجل أو امرأة بالمعاشرة سراً قبل الزواج عوقب الإثنان أشد العقاب"[10]، "أما أولئك الذين يخونون الرباط الزوجي فيعاقبون بأشد أنواع العبودية صرامة"[11]، "لا يرسلون مواطنيهم إلى صفوف القتال إلا القليل أو لا يرسلون منهم أحداً مطلقاً"[12]، "فمن المقرر في نهاية هذه الحياة أن تنال الرذائل عقابها والفضائل جزاءها"[13]، وهم "مصممون على أن يكونوا مستحقين للسعادة المستقبلية بعد الموت"[14].

هؤلاء القوم المثاليون الذين صحت نبوءات مور عن تقدمهم العلمي بعد مئات السنين، قال عنهم تحت عنوان "العلاقات الاجتماعية":

"أما إذا زاد عدد السكان في الجزيرة على الحد المعين، فإنهم يختارون عدداً من المواطنين من كل مدينة ويقيمون لهم مستعمرة تخضع لقوانينهم على جزء من أرض القارة المجاورة لهم في مكان تكثر فيه لدى السكان الأصليين الأرض غير المأهولة وغير المزروعة، وإن أراد السكان الأصليون أن يسكنوا

---

(5) نفس المرجع، ص160.
(6) نفس المرجع، ص165.
(7) نفس المرجع، ص171.
(8) نفس المرجع، ص174.
(9) نفس المرجع، ص175.
(10) نفس المرجع، ص192.
(11) نفس المرجع، ص194.
(12) نفس المرجع، ص204.
(13) نفس المرجع، ص215.
(14) نفس المرجع، ص218.

معهم سمحوا لهم بالانضمام إليهم، وعندما يتم هذا الاتحاد يندمج الفريقان معاً تدريجياً وبسهولة ويتبعان نفس طرق الحياة ونفس العادات بما فيه فائدة الشعبين، وباستخدام الأساليب التي يستخدمونها في بلادهم يجعلون الأرض تدر ما يكفيهما معاً، تلك الأرض التي بدت من قبل لسكانها الأصليين فقيرة جدباء، أما إذا رفض هؤلاء السكان طاعة قوانين اليوتوبيين فإنهم يطردونهم من الأرض التي اختاروها لأنفسهم، فإذا قاوموا، شنوا عليهم الحرب، فهم يعدون أن أعدل مبرر للحرب أن يتمسك قوم بقطعة من الأرض لا يستغلونها بل يتركونها بوراً ويمنعون غيرهم من استخدامها وتملكها بالرغم من قانون الطبيعة"[15].

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن سلب أراضي الهنود في أمريكا تم دائماً بحجة أنهم لا يحتاجونها، وأنهم كانوا "يحاولون بأنانية الاحتفاظ بها لأنفسهم"[16]، ولكن البيض سلبوهم مما لا يحتاجونه ومما يحتاجونه أيضاً حتى وصلوا حافة الانقراض فلم يعد هناك على الأرض غير الرجل الأبيض، أما من بقي منهم فقد حصروا في أراض لا يطمع فيها أحد بسبب بوارها، ولما ظهر في باطنها أو التُفت إلى ما على ظهرها مما يثير جشع هذا الرجل وما لم يسلبه حتى الآن، عاد مرة أخرى لينازعهم عليها[17].

ولهذا لا نستطيع أن نبرئ توماس مور وإنسانيته وإنسانية غيره من الغربيين مما حل بسكان أمريكا الأصليين، كما لا نستطيع تبرئة بلفور مما حل بشعب فلسطين نتيجة وعده المشئوم رغم ما تضمنه من "ضمانات" شكلية صغرت من شأن ذلك الشعب ثم وعدته بالحفاظ على حقوقه وعدم الإضرار به، وهو ما سهل تجاوزه على الأرض كما تجاوز المهاجرون الأوروبيون كل الحقوق التي منحتها "يوتوبيا" وبراءات التملك وقوانين الشركات والقرارات السياسية للسكان الأصليين، ذلك أنه من الجور فصل المقدمات عن نتائجها المنطقية بمجرد إعلانات لفظية عن حسن النوايا بطريقة بلهاء لا تدرك البديهيات ومنها أن إحلال شعب في أرض شعب آخر سيضر بصاحب الأرض في نهاية المطاف.

---

(15) نفس المرجع، ص158.

(16) ليفن، 2008، ص452.

(17) Fixico، 1998.



السير الإنجليزي توماس مور (1478-1535) مستشار الملك هنري الثامن ووزير عدله، رسم معالم المدينة المثالية، ورغم كاثوليكيته فإنه سبق منطق الاستعمار الاستيطاني البروتستانتي المتمسك بالتوراة، رفض الموافقة على طلاق ملكه من زوجته وتنصيبه رأساً للكنيسة فحكم عليه بالخيانة وأعدم فرسمته الكنيسة الكاثوليكية قديساً

ولما اعتلت الملكة إليزابيث الأولى عرش إنجلترا سنة 1558 بدأت توجه أنظارها وراء البحار، حاملة رؤية قانونية تسهل لها مهمتها، ومحتواها هو أنه لجميع الأمم الأوروبية الحق في استعمار العالم الجديد بلا توسط البابوية الذي جعله الإصلاح الديني باطلاً، وأن هذا الاستعمار يجب أن يدعم بالاحتلال الفعلي ليؤسس حقاً في مواجهة بقية الأمم[18]، أما أصحاب البلاد الأصليين فلا حق لهم ضمن هذا "القانون"، ولم يكن هذا من العجيب لأن الاعتراف بحقهم يلغي "حق" من جاء من وراء البحار يسلبهم أرضهم، وحينئذ يكون عليه أن يظل في بلده ولا يبحث عن أراض يملكها الآخرون ليستعمرها، وهو ما كان من المحال تحقيقه آنذاك، وبهذا استقر "حق" الإسبان والبرتغاليين في أرض الهنود على المنح البابوي والفتح الذي تلاه، واستقرت بقية "حقوق" الأمم الأخرى كالفرنسيين والهولنديين والإنجليز على الفتح و"فراغ" الأرض وعدم استعمالها كما سيأتي[19].

(18) Robert A. Williams، 1990، ص158.
(19) Foner، 2005، ص29.

وقد جهدت كتابات تلك المرحلة في تصوير عيوب السكان الأصليين وحاجتهم إلى الحضارة الأوروبية، وتركزت هذه الكتابات على ثلاث قضايا: دياناتهم الوثنية، وعلاقاتهم الاجتماعية، وسوء استخدامهم لأراضيهم.

فعن النقطة الأولى كُتب عن اختلاف عبادات الهنود عن المسيحية ووصمت بالزيف والسحر، ولم يكن هذا عجيباً في عصر ساد فيه التمسك بالإيمان الديني في أوروبا، ولكن العجيب أن يقوم المستوطن الأوروبي ثم الأمريكي باضطهاد الهنود المتنصرين وارتكاب مختلف الجرائم ضدهم، أما النقطة الثانية فهي استياء الأوروبيين من "الحرية المطلقة" التي يعيشها السكان الأصليون بعدم احتشام ملابسهم وسوء توزيع الأعمال بين الرجال والنساء بعيداً عن المفهوم الأوروبي الذي يرى ضرورة التزام المرأة بعمل داخل البيت واختصاص الرجل بالسلطة داخل بيته والعمل خارجه، ولو كان هذا هو سبب الاختلاف بين الأمتين لفضّل الأوروبيون النأي بأنفسهم عن "فسق" الهنود مثلاً وعدم الاختلاط بهم، أو على الأقل العمل على "تحريرهم" من هذا الضلال ورعاية من تبنى الحضارة منهم لتشجيع الآخرين على السير في هذا السبيل وليس تدمير الجميع كما حدث بالفعل، فحقيقة أن الخلاف كان محوره الاستيلاء على الأرض وليس أي تباين بين المستويات الحضارية، هي التي حولت "عبء الرجل الأبيض" من هداية الناس والتجارة معهم إلى استخدام العنف المسلح لتحقيق هدف الاستيلاء على الأرض الذي لم يكن معلناً بصراحة إذ لا يمكن للبيض أن يعترفوا بكونهم يستهدفون فقط حيازة أراضي الآخرين ولهذا لجئوا إلى الأسطورة التي شيطنت السكان الأصليين(20)، ولو لم يوجد في "كسل" الهندي ما يضر عملية الاستيلاء على أرضه لما أولاه الأوروبيون هذا الاهتمام، وقد كشف أحد المؤرخين هذه الحيلة التي طبقت على العبيد السابقين في غويانا الفرنسية بأمريكا الجنوبية في منتصف القرن التاسع عشر حين وصفوا بالكسل والبطالة فقال: "لم يكن السود متمردين على العمل، لكنهم كانوا يزرعون، قبل كل شيء، زراعات معاشية، كانت لهم فيها مصلحة مباشرة، أما الزراعات الاستعمارية كالسكر والبن أو الروكو فلم تكن تعود عليهم بشيء، بل تبعث فيهم ذكرى ظروف العبودية

---

(20) Svaldi، 1989، ص2 و4 و89 و333.

المؤلمة، ولأسباب مادية ونفسية في آن، كانوا ينبذون هذه الزراعات بقوة، وهو ما ألصق بهم وصف "كسالى" أو"بطالين" من قبل أنصار العبودية"[21]، وهكذا لو لم يكن نفع من اتهام أسلوب الهندي الذي أملته ظروف حياته أيضاً[22]، لما وجهت التهمة أصلاً، ذلك أن أوروبا لم تمانع من الإفادة حتى من الرذائل الحقيقية في حياة الهندي فشجعتها ونشرتها على نطاق واسع مثل عادات سلخ فروة الرأس والاسترقاق والتدخين.

وعموماً فقد نزع الرجل الأبيض إلى تمرير أهدافه الحقيقية بربطها بمثل عليا عامة لا تتحقق إلا إذا تحققت تلك المصالح، فحصول رضا الرب مرتبط باستخدام الأرض كما يقرر الرجل الأبيض ومن ثم عليه الاستيلاء عليها لتحقيق الرضا الإلهي، والقضاء على كسل الهندي لا يمكن إلا بنزع ملكيته لأرضه، ثم أصبح تحضر الهندي وتمدينه مرتبط بغرس مفهوم الملكية الفردية الذي يؤدي إلى الاستيلاء على أراضي الملكية القبلية المشاعية، ولو قفزنا إلى الزمن المعاصر لوجدنا أن الحضارة الغربية العلمانية سعت للتعجيل بعودة المسيح، بإقامة الكيان الصهيوني في أرض فلسطين، وهي مصلحة مادية مباشرة للغرب، ولهذا تم تحوير المبدأ الذي ينتظر القرار الإلهي لهذه العودة وتوجب تدخل البشر للتعجيل بذلك وهذا كفر من وجهة النظر الدينية الرافضة لتعديل قضاء الرب والتدخل فيه، وادعى الغرب كذلك أن تدخلاته العسكرية تنشر الحضارة والحرية والمدنية والديمقراطية في العالم، وأطلق على تطفله على الآخرين عبارات جوفاء كعبء الرجل الأبيض والرسالة الحضارية، كما اعتقدت المركزية الغربية الذاتية أن مصلحة الرجل الأبيض هي مصلحة العالم كله[23]، ومنذ البداية صور المشروع الغربي نفسه في العالم الجديد مدينة على تل تنير العالم كله[24]، وبررت التدخلات الغربية الفجة في العالم بشعارات تحرير المضطهدين وتمدين المتخلفين وهداية الضالين ومحاربة الرق والقرصنة، كما ربطت الولايات

(21) فرّو، 2007، ص806.
(22) Foner، 2005، ص28.
(23) ليفن، 2008، ص78.
(24) متري، 2005، ص13.

المتحدة بعد ذلك هدف نزع السلاح العراقي بإسقاط نظامه الذي أصبح مجرد وجوده شغباً على مصالح الغرب خاصة، وإسقاطه هدفاً غربياً استراتيجياً خاصاً ومصلحة أمريكية عليا بغض النظر عن أية خطوات عملية يتخذها لإثبات خلوه من الأسلحة الممنوعة(25)، ولكنه صور خطراً على العالم كله، أي على سكان سيبيريا وأوغندا والأرجنتين أيضاً، وليس على مصالح الغرب وحده، والغريب أن يتم شن العدوان عليه مع التأكيد على الالتزام بسيادة العراق وسلامته الإقليمية(26)، وهي صورة هزلية مكررة في التاريخ الأمريكي من عملية إنقاذ الغريم بقتله(27) في سبيل تحقيق المصالح المادية التي لا تخجل من هذا النفاق البيّن، وهذه الارتباطات الجدلية بين المبادئ والمصالح، وتصوير المصالح الغربية الخاصة بصفتها مصالح عامة للبشرية، وارتكاب الظلم على سبيل الإنعام، ستقابلنا كثيراً في مسيرة التاريخ الأمريكي ومعاملته للهنود الحمر.

أما النقطة الثالثة التي عابها البيض على السكان الأصليين وأرى أنها المحور الحقيقي للخلاف فهي أن الأوروبيون كانوا يرون في وجود الهنود عائقاً أمام استملاك أرضهم ولهذا عابوا عليهم طريقة استغلالهم لها "رغم زراعتهم المتطورة جداً، ومدنهم المؤسسة جيداً"(28)، وسيدعي الأوروبي في القرون التالية أنه يعمل على تعليم الهندي مفهوم الملكية الخاصة للأرض ليصبح إنساناً متحضراً، ولكن الإجراءات التي اتخذها في تنفيذ عملية التعليم تنفي كل ادعاءاته وتؤكد أنه أراد الاستيلاء على كل الأرض والقضاء على أصحابها، فاستخدم قوته في سلبهم لا في الإفادة من ومضات التحضر عندهم نحو مزيد من التقدم لهم، وذلك رغم اعترافاته الكثيرة منذ البداية بوجود هذه النواحي الحضارية لديهم، بل إننا نجد أنه استغل أمراً آخر كان يعده من عيوب الهنود وهو مفهوم الملكية المشاع للأرض والذي وصفه بكونه من أسباب تخلفهم ومع ذلك استخدمه في الاستيلاء على أراضيهم وذلك بالحصول على موافقة أي أفراد من القبيلة على

(25) مركز دراسات الوحدة العربية، 2007، ص757 و761.
(26) نفس المرجع، ص988 و993 و1075 و1077.
(27) Alvin M. Josephy، 1989، ص166.
- Slotkin، 2000، ص563.
(28) Foner، 2005، ص29.

البيع حتى لو كانوا غير مخولين، وكثيراً ما أدى استخدام الرجل الأبيض لهذا الأسلوب المخادع والملتوي في نشوب الصراعات بين الطرفين الأوروبي والأصلي، وبين الهنود أنفسهم، ويؤكد هذا الاستغلال لما يراه الرجل الأبيض المتحضر سجايا همجية ومتخلفة أنه لم يأت إلى العالم الجديد لينشر الحضارة بين سكانه ويمدنهم، بل جاء من أجل هدف محدد خاص به وحده وهو الحصول على هذه الأرض لنفسه، ولا مانع لديه من استغلال "التخلف" لتحقيق أهدافه ما دام هذا يعود عليه بالمنفعة، بل إنه حينئذ يمكن أن يمتدح هذا التخلف ويطريه، أما إذا وقف نفس هذا التخلف حائلاً دون الأهداف التي يسعى الرجل الأبيض خلفها فإنه حينئذ يشن الحروب الباردة والساخنة عليه.

ولا يلام الأوروبي بالطبع على شراء الأرض من السكان الأصليين ابتداء، ولكن ما يلام عليه هو ازدواج معاييره فيصبح ما كان جيداً مرة غير جيد حين يقف في وجه مصالحه فيستخدم كل قوته لتدميره تدميراً ساحقاً لا ليحل نموذجاً أفضل مكانه، وعلى كل حال طالما استخدم الأوروبي والأمريكي أسلوب "استغلال الأوضاع القائمة" لأجل تحقيق المصالح الذاتية ووصل الأمر كما سبق ذكره حد استغلال الرذائل أو محالفة القبائل عند الحاجة إليها ثم الانقلاب عليها متى اقتضت المصالح، وهي ممارسات شائنة وشائعة وكثيراً ما كررها الغربيون في مختلف أنحاء العالم[29].

وهكذا فرغم اعتراف بعض الإنجليز ممن كانوا من أوائل المحتكين بالسكان الأصليين بأن هؤلاء "مهذبون ومتحضرون كأي أوروبي"[30]، ورغم النوايا الحسنة التي صرحوا بها تجاه الهنود[31] وحرصهم على عدم تكرار الظلم الإسباني الذي استنكروه[32]، فإن الخلاف على الأرض، وهي هدف الاستيطان الذي جاءوا لأجله، سرعان ما تفاقم بين الطرفين وبرر للإنجليز فكرة الحرب على الهنود بحجة أنهم لا يستعملون أراضيهم "المبددة"[33].

(29) مصطفى، 1975، ص157 و162.

(30) Robert A. Williams، 1990، ص177.

(31) نفس المرجع، ص181.

(32) نفس المرجع، ص184.

(33) نفس المرجع، ص183.

وسنرى في قابل الأيام والسنين والقرون التي مرت بعد بداية احتلال أمريكا، أن الغربيين عامة والأمريكيين خاصة، كثيراً ما اصطنعوا ذرائع وحججاً كاذبة لتحقيق المصالح، ولقد كان التركيز على التفاوت الحضاري يخفي وراءه إرادة السيطرة، والاختلاف في حد ذاته لا يستدعي التركيز عليه والاهتمام الشديد به ما لم يكن هناك رغبة في الصراع مع صاحبه على قضية ما، وهو ما يذكرنا بما حشد على العراق من قبل الإعلام الأمريكي من اتهامات قبل غزوه سنة 2003، حين وصمه الإعلام بالاستبداد والدموية والتسلح، وهي صفات وجدت في نفس الزمن في مجتمعات أخرى دون المساس بها، فما الذي دفع الأمريكيين لاستهداف العراق دون غيره من بين تلك المجتمعات غير المصالح المتصورة في حينها؟ وعن قضية الشيطنة وتشويه السمعة يقول أحد المؤرخين إن الكلمات المستخدمة في التعبير عن الفكر هي التي تشكله وتوجهه وتمنحه المحتوى، وإن الكلمات التي تطورت في قرون الهيمنة وجِدت لأجل السيطرة وليس المعرفة، فوصف إنسان بالهمجية يعني تبرير قتله والجهل بحقيقته وعدم التأسف عليه[34]، وهذا ما فعله الاستشراق في زمن السيطرة الاستعمارية على بلادنا ثم ما فعلته الدعاية الصهيونية المشتقة منه في فلسطين.

والملاحظ أن الأفكار الغربية تغيرت كثيراً منذ حشد سلسلة "عيوب" الهنود التي تبرر تدميرهم، فالمجتمع الأوروبي الذي غزا باسم "الحرية" كثيراً من المجتمعات البشرية، كان يأخذ على المجتمع الأصلي في أمريكا "حريته المطلقة" و"عدم احتشامه"، وهي صفات أصبحت فيما بعد ألصق بالأوروبي نفسه وباسم هذا الوضع الجديد أصبح يعيب على مجتمعات أنها "متشددة" و"متزمتة" بعدما كان هو المتشدد والمتزمت الذي يغزو المجتمعات الحرة وغير المحتشمة في نظره، والأمر الذي لم يتغير في حالتي التزمت والتحرر هو الهجوم على الآخرين لنهبهم واستغلالهم والقضاء عليهم في سبيل إقامة المجتمع الغربي ورفاهيته.

أرسلت الملكة إليزابيث الأولى رحلة قرصنة بحرية إلى العالم الجديد في

---

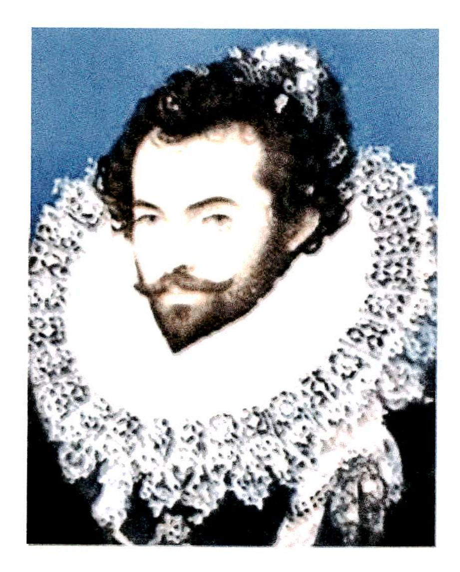
(34) Jennings، 1976، ص12.

سنة 1578 بقيادة السير همفري جلبرت[35]، ثم أعطت أحد المقربين إليها وهو السير والتر رالي براءة تملك لكل الأراضي التي يتمكن من استعمارها بين فلوريدا جنوباً وخليج سانت لورانس شمالاً، فقام بمحاولتين لإرسال المستوطنين في سنة 1585 وسنة 1587 وكانت المستوطنة التي أنشأها مركزاً للقرصنة ضد جزر الهند الغربية حيث تهيمن إسبانيا[36]، إلا أن المحاولتين الاستيطانيتين باءتا بالفشل[37].



الملكة إليزابيث الأولى بدأت التطلع الإنجليزي لما وراء البحار ومنح انتصار الأسطول الإنجليزي على الأرمادا الإسبانية (1588) دفعة قوية لذلك.

(35) Robert A. Williams، 1990، ص157.
(36) نفس المرجع، ص183.
(37) نعنعي، 1983، ص36.



السير والتر رالي (1552–1618) مساهم رئيس في التطورات الإنجليزية التي وصلت إلى الديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية والتسامح الديني، ولكنه أيضاً أحد وجوه الاستعمار، نشر استعمال التبغ من العالم الجديد، أُعدم في النهاية لاسترضاء الإسبان بعد هجوم شنه عليهم في أمريكا الجنوبية

وفي هذه المرحلة تصور الإنجليز أن السكان الأصليين سيرحبون بهم لأنهم في حاجة لحضارة الرجل الأبيض الذي سيمنحهم المسيحية و"يحررهم" من الطغيان الإسباني كذلك، وسيكسب الإنجليزي في المقابل أراض جديدة تحل أزمة الانفجار السكاني في بلاده، بالإضافة إلى ربح منافع تجارية، ومواد أولية، ولكن سيظل الهندي هو الرابح في هذه المقايضة من وجهة النظر الإنجليزية[38]، وذلك كما كان رابحاً بمقايضة ذهبه بمسيحية الإسبان، وتصور "الحق" الإنجليزي تجذره في أمريكا وحاول البعض اصطناع أسلاف فيها منذ قرون ماضية[39]، وهذه هي نفس فكرة الحقوق التاريخية التي يحلو للمغامرات الاستيطانية أن تستعملها أينما حلت ومهما بلغ بُعدها عن الأراضي التي تحاول اختراع روابط بها، وسيحاول الأمريكيون فيما بعد أن يربطوا أنفسهم بأسلاف على القارة الأمريكية، وبهذا يغرس الغريب نفسه حتى في أكثر البلاد بعداً عنه مما يجعلنا لا نعجب من محاولة الصهاينة ربط أنفسهم بأرض فلسطين، وعن نقاط التلاقي بين الاستعمار الاستيطاني الأوروبي ونظيره الصهيوني يقول المفكر

(38) Robert A. Williams، 1990، ص171 و174.

(39) نفس المرجع، ص170.

الراحل إدوارد سعيد في بحثه عن الجذور الفكرية للإمبريالية والصهيونية: "ولقد صيغ المشروع الصهيوني بشأن فلسطين على غرار الأساليب ذاتها التي انتهجها البريطانيون والفرنسيون والألمان والأميركيون والروس في مشاريعهم الرامية إلى التوسع الإقليمي. وتوجهت الدفعة الأولى من الصهيونيين إلى فلسطين بالروح نفسها التي كان الأوروبيون يتوجهون بها إلى الأقطار والمناطق التي اعتبروها خالية من السكان والحضارة، أما السكان العرب الأصليون في فلسطين فقد كان الصهيونيون يعتبرونهم متخلفين أو غير موجودين على الإطلاق"[40].

وقد عاصر الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون (1569-1626) الأحداث الأولية للاستيطان الإنجليزي في أمريكا، وهو المفكر الموصوف بأنه "من رواد حركة التنوير في القرن الثامن عشر، وفي الدعوة إلى الفصل بين اللاهوت والعلم"[41]، و"ربما كان أعظم شخصية مثقفة في العصر الإليزابيثي"[42]، كما "أطلق الإنكليز فيما بعد على اللورد بايكون لقب القائد القومي للنهضة العلمية والصناعية، ولقبوه أيضاً بأب العلم الاستقرائي"[43]، وقد وصف هذا الفيلسوف حال الإنجليز مع سكان أمريكا الأصليين قائلاً: "إذا أردنا التحدث بدقة، فإنه لا يمكن تأكيد أن نشر الإيمان المسيحي كان هو (الدافع)... لاكتشاف ودخول، واستعمار العالم الجديد، وليس الذهب والفضة والربح والمجد الدنيويين"[44]، وقد علق المؤرخ روبرت وليامز على هذا الكلام بقوله إن الخطاب الاستعماري في زمن الملكة إليزابيث الأولى نجح في الربط بين الإيمان الديني والربح الدنيوي، وتمكن بهذه الوسيلة من مخاطبة الناس في ذلك العصر.

---

(40) كيالي، 1979، ص134.

(41) بدوي، 2006، ج1، ص398.

(42) New Standard Encyclopedia، 1999، ج2، ص14-B.

(43) سترومبرج، 1994، ص68.

(44) Robert A. Williams، 1990، ص185.



الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون الذي شرح حقيقة الدوافع خلف استعمار العالم الجديد

بعد فشل المحاولات الاستيطانية الإنجليزية الأولى في أمريكا لم تقم محاولات جديدة إلا بعد بداية القرن السابع عشر هذا حين قام التاج الإنجليزي بإصدار براءات للملاك الأفراد والشركات لإنشاء المستعمرات، وفي هذا الوقت كان الفرنسيون متواجدين في منطقة البحيرات العظمى والهولنديون في منطقة خليج هدسون (نيويورك فيما بعد)، والإسبان في فلوريدا والجنوب، وبناء على البراءات الإنجليزية تأسست على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ثلاث عشرة مستعمرة تباعاً ألفت نواة الولايات المتحدة، وهذه المستعمرات حسب تواريخ تأسيسها هي:

1 - فرجينيا 1607.

2 - ماساشوستس 1620.

3 - نيو هامشير 1623.

4 - نيويورك 1624 (بدأت مستعمرة هولندية باسم نيو أمستردام ثم استولى عليها الإنجليز سنة 1664).

5 - ماريلاند 1632.

6 - نيو جيرسي 1633 (بدأت مستعمرة هولندية ثم استولى عليها الإنجليز سنة 1664).

7 - كونكتكت 1635.

8 - رود آيلاند 1636.

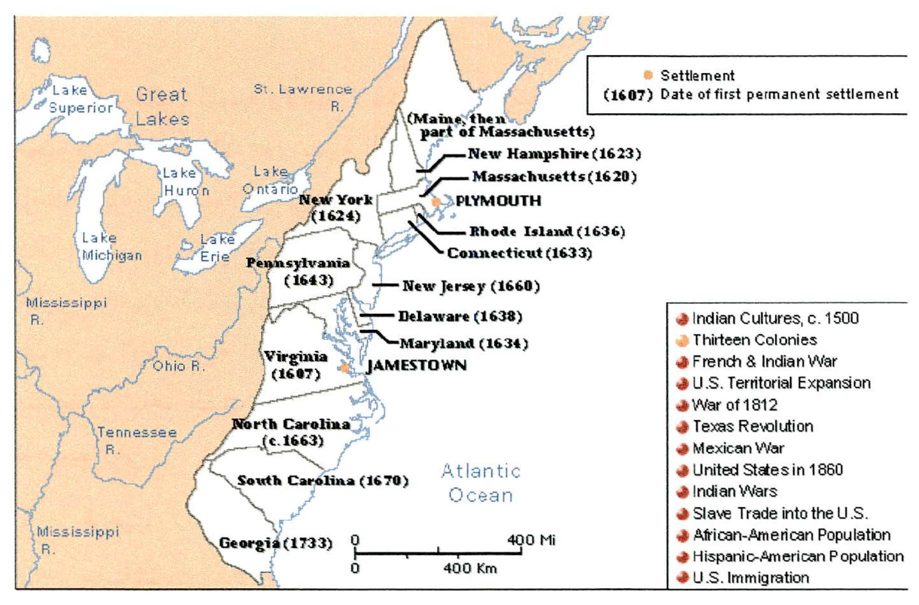
9 - ديلاوير 1638 (بدأت سويدية ثم تحولت إلى هولندية ثم إنجليزية)

10 - كارولينا الشمالية 1653.

11 - كارولينا الجنوبية 1670.

12 - بنسلفانيا 1680.

13 - جورجيا 1732.



المستعمرات الإنجليزية الثلاثة عشر مع تواريخ استيطانها التي يثور الخلاف عليها[45]

(45) http://www.ithaca.edu/looksharp/?action=revolutionarywar

ويوجد تباين في المراجع في تحديد سنوات التأسيس، وقد اخترت تاريخ أول استيطان أوروبي مع الإشارة للتحولات اللاحقة[46].

وكانت هذه المستعمرات تنقسم إلى ثلاثة أنواع: مستعمرات مملوكة لشركات أو أفراد، ومستعمرات ذات حكم ذاتي، ومستعمرات ملكية تحت الإشراف غير المباشر للتاج الإنجليزي، كما انقسمت هذه المستعمرات جغرافياً إلى مستعمرات شمالية (نيو إنجلاند) ساد فيها التعصب الكالفيني البيوريتاني، ومستعمرات وسطى (نيويورك وديلاوير وبنسلفانيا) تميزت بقدر أوسع من التنوع والحرية، ومستعمرات جنوبية (ميريلاند وجورجيا وكارولينا وفرجينيا) تميزت بغلبة الطابع الزراعي خلافاً للمستعمرات الواقعة إلى الشمال منها حيث غلبت الصناعة فيما بعد[47].

أما عن الدوافع التي دفعت الإنجليز لاستيطان العالم الجديد والبحث عن أراض جديدة لحيازتها فتنقسم إلى دوافع اقتصادية: مثل استثمار الفوائض المالية الذي وجد فرصة في مشاريع المغامرين الاستيطانية، والرغبة في المعادن الثمينة التي تصوروا توافرها في أمريكا بعد نجاح الإسبان في الحصول على كميات كبيرة من الذهب والفضة من مغامراتهم العسكرية في أمريكا الوسطى والجنوبية، وحاجة إنجلترا إلى المواد الأولية كالسكر والتبغ والأخشاب، والحاجة إلى أسواق لتصريف الصناعات، والرغبة لدى الأفراد بحيازة ملكيات خاصة من الأرض، وهناك دوافع دينية تتلخص في الرغبة بممارسة حرة للعبادات بعيدة عن تسلط الكنيسة الأنجليكانية في إنجلترا، كما ادعى كثيرون رغبتهم في نشر رسالة الإنجيل ولكن سيتبين زيف هذه الادعاءات أمام الطمع في الاستيلاء على الأرض، ووجدت كذلك دوافع اجتماعية نتيجة زيادة أعداد السكان والحاجة لتخفيف الضغط السكاني في البلد الأم بالإضافة إلى الرغبة في حصول الأبناء الذين لا يرثون الإقطاعات على أراض لأنفسهم، ووجد لدى البعض حب

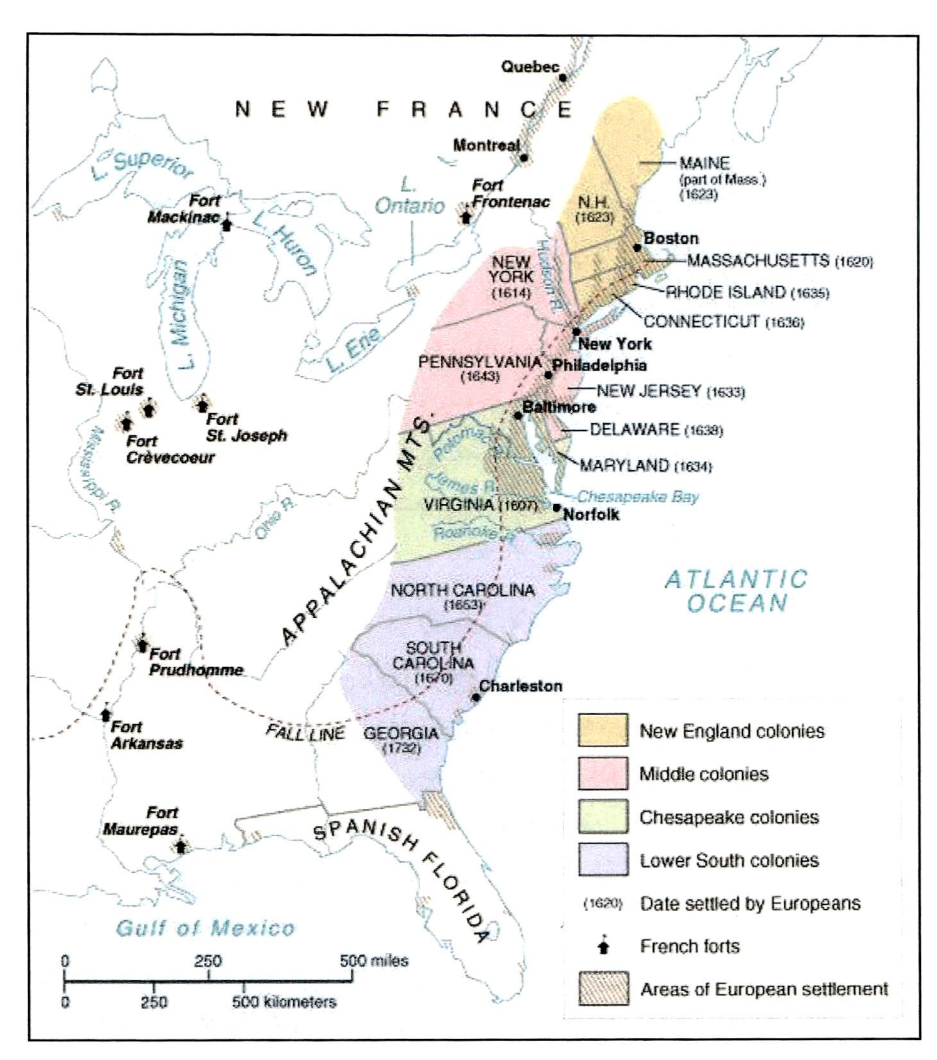
---

(46) الشيخ، 1979، ص21.

- النيرب، 1997، ص35-42.

- The New York Public Library، 1997، ص43.

(47) النيرب، 1997، ص46.



تقسيم المستعمرات الإنجليزية في أمريكا إلى شمالية (نيو إنجلاند)، ووسطى، وجنوبية (خليج تشيسابيك والجنوب الأسفل)[48]

المغامرة في حياة جديدة، وهناك دوافع سياسية لدى الإنجليز في مقاومة التمدد الإسباني بإنشاء مراكز عسكرية خارجية، بالإضافة إلى رغبة لدى بعض الجماعات في الحصول على الحرية السياسية[49]، وفي النهاية تميز الإنجليز بالسعي لامتلاك

(48) http://www.ithaca.edu/looksharp/?action=revolutionarywar-

(49) نفس المرجع، ص32-33.

الأرض أما الفرنسيون فاهتموا بالفراء وأما الإسبان فانصب اهتمامهم على الذهب والفضة[50].

وقد اشتركت المستعمرات ببعض المميزات فيما يتعلق بعلاقاتها مع السكان الأصليين منها ممارسة التجارة معهم، إذ مارس المهاجرون التجارة مع الهنود حتى في المستعمرات التي لم تنشئها شركات لأهداف تجارية، أو المستعمرات التي أصبحت زراعية ومختصة بإنتاج مواد أولية فيما بعد، فدخل سكانها منذ البداية في عمليات تبادلية مع من يحيط بهم من الهنود للحصول منهم على ضرورات الحياة أو لاستغلال سلعة عندهم يعدها الأوروبيون سلعة نفيسة، ومع أن أمريكا الشمالية لم تكن بمثل غنى أمريكا الوسطى والجنوبية في الذهب والفضة، وأن اكتشاف المعادن الثمينة فيها جاء في مراحل متأخرة من الاستعمار الاستيطاني، فإن الفراء أثبت أنه سلعة يمكنها أن تثير نهم الأوروبيين لاسيما أنها كانت استمراراً لتجارة عالمية مزدهرة أصلاً، وتوغل تجار المستعمرات بين القبائل الهندية للحصول على فراء القندس وغيره من الحيوانات التي كان الهنود مختصين بصيدها، وفي المقابل حصل السكان الأصليون على البضائع الأوروبية المصنعة كالبطانيات والبلطات والمرايا والخرز وأدوات الصيد، والأهم من كل ذلك البندقية والخمر.

وقد أصبحت جميع تلك البضائع من ضروريات حياتهم وعملت على إحداث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في حياة القبائل، إذ لم تكن هذه التجارة مقتصرة على التبادل البريء كما يبدو للوهلة الأولى، وأدت إلى ظهور سلبيات أضرت بل دمرت حياة الهنود، مثل الغش وشرب الخمر بالإضافة إلى التنافس بين القبائل على مواطن الصيد لاسيما مع تزايد الصيد وتراجع أعداد الحيوانات، والتنافس أيضاً على اقتناء البضائع الأوروبية التي أصبحت محور الحياة الهندية الجديدة التي فقدت قيمها ومهاراتها التقليدية وتماسكها الاجتماعي واستقلالها واكتفاءها الذاتي فربطها ذلك بالاعتماد على الأوروبيين وورطها في حروب الدول الكبرى وتكونت تحالفات في السلم والحرب بين الطرفين وأصبح

---

(50) Slotkin، 2000، ص42.

لمن يتعامل مع الأوروبي مزية اقتناء تقنيته العلمية المتقدمة التي تعطي من يمتلكها قوة لا يمتلكها منافسه فاختلت موازين القوى بين القبائل، وتراكمت الديون على أفرادها وكثيراً ما تم سدادها باحتلال الأراضي، وقد أدى ذلك التنافس بين القبائل إلى إشعال الحروب فيما بينها وزيادة حدتها وتقطيع أوصال الكتل السكانية وترحيل جماعات فقدت موارد الرزق بعد نضوب أعداد الحيوانات في مواطنها[51].

بل إننا نجد أن عملية استعمار القارة الأمريكية مولت على حساب سكانها الأصليين وذلك بأرباح التجارة التي دفعوها للتجار البيض وبالأرض التي قدموها للمستوطنين[52] لاسيما بعدما اضطروا لدفعها سداداً لديونهم التي شجعهم البيض وزعماؤهم المتنورون الأحرار العقلاء كتوماس جيفرسون على تراكمها من حصولهم على البضائع الاستهلاكية الأوروبية التي عجزوا في النهاية عن دفع أثمانها[53]، وهذا يذكرنا باستعمار بلادنا نتيجة غرقها في الديون التي شجع الغرب حكامنا على الحصول عليها والذي أدى إلى احتلال مولته ثرواتنا سواء بالإكراه أيام الانتداب والحماية، مثلما ساهمت مصر مثلاً في تمويل مجهود بريطانيا الحربي في الحربين الكبريين، أو برضا أنظمتنا وتبرعها بتمويل الاحتلال الأجنبي لبلادنا كما حدث في أزمات الخليج منذ 1990.

وإننا نجد هذه النتائج السلبية للاتجار بالسلع الأوروبية ظاهرة شملت شعوباً أخرى غير السكان الأصليين في أمريكا، ويمكننا تتبع هذه النتائج في تجارة الشرق العربي الإسلامي مع الدول الغربية منذ العهد العثماني لاسيما في أواخره[54]، وكما صبت أرباح التجارة الهندية في سلعة الفراء النفيسة في سلة الجانب الأوروبي[55]، فكذلك تجارة العرب في سلعتهم الثمينة وهي النفط ما زالت أرباحها تصب في جيوب الغربيين، ولكن بدلاً من الخرز والمرايا التي

---

(51) وولف، 2004، ص231-237.
- Foner، 2005، ص50.
(52) Jennings، 2000، ص21 و38.
(53) نفس المرجع، ص252.
(54) صوان، 2013، ص42-54.
(55) Foner، 2005، ص50.

حصل الهنود عليها مقابل ثرواتهم، أصبح العرب يحصلون على بهارج الحياة المعاصرة من السلع الاستهلاكية التي تقابل في بريقها وتفاهتها ما حصل عليه الهنود من قبلهم[56].




حيوان القندس القارض: يعيش في أمريكا وآسيا وأوروبا وقد يبلغ طوله 120 سم ووزنه 15 كيلو جراماً وقد أحدث صيده تغيرات جذرية في حياة سكان أمريكا الأصليين.

كان غش الهندي وخداعه ونهبه هي صفات "التاجر النموذجي" في مناطق الحدود والاتصال بين المستوطنين الأوروبيين ثم الأمريكيين والسكان الأصليين[57]، وكانت هذه التجاوزات تحدث بوسائل مختلفة تستهدف الحصول على أكبر قدر من الفراء والجلود من الهندي وإعطائه في مقابلها أقل ما يمكن من البضائع، وذلك بوسائل تنقص موازين ما يقدمه الهنود وترفع أسعار ما يقدمه التجار البيض[58]، ولم تكن هذه الممارسات غريبة في عالم سادته قيم تجارية ترى في الربح هدفاً أسمى، وقيم دينية تستحل دم الهندي وماله، وقد أدت مساوئ التجار إلى توتر العلاقات مع الهنود ووصل الأمر إلى نشوب أعمال عنف للانتقام مما كان يحل بهم من مظالم كانت من أسباب ثورة الزعيم بونتياك الشهيرة سنة 1763[59] وهو ما حمل بريطانيا على القيام بمحاولة إصلاحية في

(56) صوان، 2013، ص89-94 و280-295.

(57) Robert A. Williams، 1990، ص281.

(58) Jacobs، 1985، ص36.

(59) نفس المرجع، ص37-38.

السنة التالية تقوم على فرض ضوابط للتجارة مع الهنود ولكنها لم تنجح كما لم تنجح بعدها محاولات حكومية أمريكية للجم استفحال الغش التجاري الذي تطور وتبلور فيما بعد على شكل حلقات من المستفيدين من الأموال المخصصة للهنود بعد هزيمتهم وإرغامهم على التنازل عن أراضيهم وإجبارهم على القبول بالعيش على المساعدات، فتألفت زمر من القائمين على عمليات غشهم والذين حققوا أرباحاً طائلة وأثروا على حساب الضحية الهندية[60].

أما الخمر فقد كانت من البضائع التي حملها الأوروبيون وروجوها بتوسع بين الهنود، وكان لها تأثير عليهم يفوق تأثيرها على الأوروبيين، مما جعلها من الأسباب الرئيسة في إبادة أعداد هائلة منهم[61]، وقد ظهرت مشكلة الإدمان بوضوح في القرن السابع عشر[62]، ليس بعيداً من بداية الاستيطان الأوروبي، وفي رواية لأعضاء بعثة استكشافية أمريكية في كولورادو سنة 1835 وجد أعضاؤها أن قرية هندية كاملة بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال قد غرقت في السكْر، فعلق الصحفي الرسمي المرافق للبعثة على ذلك بالقول إن الهنود مغرمون جداً بالخمر ومستعدون لبيع خيولهم وبطانياتهم وكل شيء يملكونه للحصول على شربة منه، وعند تصنيف اهتماماتهم الدنيوية تحتل الخمر المكانة الأولى يليها التبغ فالبندقية فالخيول ثم النساء[63]، وهذا يدل على هيمنة بضائع الرجل الأبيض على حياتهم ويفسر عمق الآثار التي خلفتها التجارة على مجتمعاتهم، وقد استخدمت الخمور وسيلة للغش التجاري بالإضافة إلى الغش الذي كان يمارس في بيعها ويتسبب في إحداث الأضرار البالغة في صحة السكان الأصليين ولكن بتحقيق أرباح "طائلة" للتجار[64]، فكان تزويد الهنود بها وحملهم على السكْر يسهل الاستيلاء على بضائعهم وعدم دفع أثمانها، كما كانت الخمور وسيلة فعالة للغش السياسي، إذ كان الزعيم الهندي السكران أكثر انقياداً

(60) McDermott، 1998، ص4-7.
(61) Thornton، 1990، صxvi و66.
- Jacobs، 1985، ص40.
(62) Thornton، 1990، ص65.
(63) Hoig، 1990، ص25.
(64) Thornton، 1990، ص65.

لتوقيع تنازل في معاهدة مجحفة من الزعيم اليقظ[65]، وقد فشلت جميع محاولات منع بيع الخمور للهنود كما فشلت محاولات تقنين التجارة ومنع الغش فيها[66]، وهذا دليل على أن محاولات الاستقامة مع الآخرين كانت تسير ضد منطق الحضارة الغربية الاستئثاري الذي يؤمن بحصر المنافع في أصحابها الأقوياء.

وبالإضافة إلى التجارة المشوهة مع السكان الأصليين اشتركت المستعمرات الإنجليزية في أمريكا بصفة جامعة أخرى فيما يتعلق بعلاقتها مع هؤلاء الهنود وهي نظرتها إلى حقوقهم في الأرض وتعاملها مع مشكلة نقل ملكيتها من الهنود إلى المستوطنين، إذ لم يعترف أولئك المستوطنون عامة بحقوق الهنود في أراضيهم[67] بحجة ادعوها وهي عدم قيام الهندي بحرث وزراعة أرضه[68]، وذلك رغم ما كانوا يلمسوه عكس هذا الادعاء الذي ترسخ مع الزمن[69]، ولكن لضرورة حفظ السلام واستقرار المستعمرات التي كانت ما تزال ضعيفة التكوين في المراحل المبكرة من الاستيطان، اعترف المستوطنون بحق الهنود القائم على الأمر الواقع واتخذوا من الإجراءات ما يكفل تقنين عمليات انتقال الملكية من السكان الأصليين بغية عدم تكدير صفو الاستقرار[70]، ومن تلك الإجراءات التأكيد على وجوب شراء الأراضي من أصحابها ومنع عمليات الشراء الفردية والفصل بين المستوطنات وأراضي الهنود، ولكن هذه الإجراءات قليلاً ما احترمها وتقيد بها المستوطنون[71]، لاسيما مع اشتداد عود الاستيطان وإحساس المستعمرات بالقوة وهو أمر لازم التاريخ الأمريكي فيما بعد إذ لم تثبت أية تجربة فعالية الحكومة في لجم الاستيطان والتعدي على أراضي الهنود إلى نهاية الحروب الهندية وإغلاق منطقة الحدود نهائياً سنة 1890.

---

(65) نفس المرجع، ص65-66.
(66) Jacobs، 1985، ص40.
(67) Pearce، 1988، ص9.
(68) Foner، 2005، ص49.
(69) Pearce، 1988، ص66-70.
(70) Banner، 2005، ص39-43.
(71) Foner، 2005، ص49.

وبين تأسيس المستعمرة الأولى والمستعمرة الثالثة عشرة وقعت كثير من الصدامات بين المستوطنين وأصحاب البلاد الأصليين، وكان تسلسل الأحداث المؤدية إلى العنف متشابهاً إلى حد بعيد في معظم الحالات: تمدد استيطاني يقوم به البيض داخل أراضي الهنود مما يحرم أصحاب الأرض من مساحات واسعة يحتاجونها لمعيشتهم، بالإضافة إلى ممارسات التجار الذين يحصلون على الفراء والجلود من الهنود مقابل بضائع مصنعة ولكنهم يقومون بغشهم، وهناك أيضاً التفكك التدريجي لثقافة الهنود واستقلالهم نتيجة الأوبئة وامتداد السيادة الأوروبية داخل أراضيهم والنشاط التبشيري والانقسامات الحزبية وزيادة الاعتماد على البضائع الأوروبية لاسيما الأسلحة والخمور، وقد دعم هذه الممارسات افتراضات المستوطنين عن عدم الثقة بالهنود ووجوب إبهارهم بالقوة البيضاء لجعلهم مطواعين وأن "الحقوق" الاستيطانية مقدمة على حقوق الهنود المشكوك فيها في الأرض وأن حضارة البيض ستسود في نهاية المطاف على "الهمجية"[72]، ومن الواضح أن هذه الافتراضات هي التي قام عليها تعامل الغرب مع بقية مستعمراته فيما بعد لاسيما مع الشرق العربي الإسلامي وخاصة في فلسطين.

وفيما يلي سنطلع على أهم هذه الصدامات التي كان سببها الوحيد هو الصراع على الأرض، وليس الخلاف على الدين، ولا اختلاف المستوى الحضاري، فقد كان الطرف الأوروبي في المعادلة يطمع دائماً في مزيد من أراضي الهنود ولا يقف عند حد في مطالباته المستمرة مما يدفع صاحب الأرض للمقاومة عندما يصل حد الرفض للتنازل عن مزيد من أراضيه لاسيما بعدما يكون قد تنازل عن كل الأراضي "الفائضة" ولم يبق لديه إلا الضروري لمعيشة قومه، وهو ما يلفت الأنظار إلى فساد الحجة القائلة إن الهندي أراد الاحتفاظ بكل أراضي القارة بأنانية، فالحقيقة أن الأوروبي هو الذي أنكر عليه حقه في الحد الأدنى من اللازم لمعيشته بعدما تنازل السكان الأصليون برحابة صدر عن أراض للوافدين الأوروبيين الذين لم يقبلوا إلا بكل الغنيمة، وبهذا كان الصراع ينفجر وتفسد العلاقة التي ظلت سلمية لبعض الوقت نتيجة الأوهام بإمكان التفاهم بين

(72) Washburn، 1988، ص129.

الطرفين والناتج عن جنوح الأوروبي في بداية أمره للسلم نتيجة ضعفه أو عن تدرج الأمريكي في الزحف على الأرض مما يسهل عليه في كل مرة تكريس إمكاناته للحصول على التنازلات المطلوبة في كل مرحلة بدلاً من فتح الجبهة للصراع على كل شيء ابتداء، وكون الرجل الأبيض لم يخطط منذ البداية للنتيجة المأساوية التي وصل الهنود إليها لا يعفيه ذلك من مسئولية الجريمة الكبرى لأنه ارتكب في كل مرحلة ما يكفيه من المظالم ضدهم للحصول على مآربه منهم، فالنتيجة النهائية هي محصلة النتائج المرحلية التي كانت الجرائم بادية فيها جميعاً، وفي النهاية حوّل هذا الطرف الأوروبي أو الأمريكي عندما اشتد عوده العلاقة إلى صراع وجود وليس صراع حدود وهذا هو سبب الخلاف بين الطرفين وليس أنانية الهنود، إذ سنرى في قابل الأيام أن الأوروبي ثم الأمريكي أنكر عليهم حتى ما اعترف لهم به من محميات كانت تتقلص مع مرور الزمن كلما استجد طمع فيها فضلاً عن كونها منذ البداية غير صالحة لمعيشة الآدمي ومن ثم لم يكن للرجل الأبيض في البداية من حاجة فيها إلا أنه لم يطب نفساً فيما بعد بتركها كلها للهندي فبدا له أن يستولي عليها لاسيما إذا اكتشف فيها ثروة كالذهب أو الفضة.



الفصل الثالث

مستعمرة فرجينيا

بعد فشل التجربتين الاستيطانيتين اللتين رعاهما السير والتر رالي في مستعمرة فرجينيا، قامت شركة فرجينيا بمحاولة ثالثة حين أرسلت ثلاث سفن رست على شواطئ فرجينيا إلى الشمال من الموقعين السابقين، وكان ذلك في سنة 1607، وأسس الركاب مستوطنة جيمس تاون التي سميت كذلك باسم الملك الإنجليزي آنذاك، وقد اتضح من طبيعة الحملة ومن الظروف التي أحاطت بها أن روادها باحثون عن أراض جديدة يودون الاستيلاء عليها، وإن كان هذا الهدف قليلاً ما صرح به الإنجليز[1]، فالأرض التي قذفتهم تعاني من الانفجار السكاني[2]، وكانت تقذف أبناءها إلى حيث يمكنها تصدير مشاكلها، كإيرلندا وجزر الهند الغربية وشمال أمريكا[3]، وقد كان هؤلاء المهاجرون من الباحثين عن حياة استقرار جديدة وعن الحرية التي تتأسس على امتلاك الأرض[4]، كما أن النظام الذي اتبع في العالم الجديد وزع الأراضي على موظفي ومسئولي الشركة[5]، وعلى كل مستوطن يعبر المحيط على نفقته منذ 1618[6].

ولهذا طبع الحذر من الهنود منذ البداية موقف الشركة الراعية للحملة،

(1) Debo، 1983، ص69.

(2) Robert A. Williams، 1990، ص175.

(3) Foner، 2005، ص47.

(4) نفس المرجع، ص48.

(5) Brandon، 1985، ص162.

(6) Robert A. Williams، 1990، ص211.

- Rountree، 1996، ص56.

لاسيما أن التجربتين الاستيطانيتين السابقتين بما تحويان من احتكاك سلبي مع الهنود لم يبعد العهد بهما، فالهنود "سيصبحون غير راضين عن سكناكم"[7]، وذلك كما نصت التعليمات للمستوطنين، ويجب عليهم أن يحصلوا على تموينهم قبل أن يدرك الهنود "أنكم آتون للبقاء بينهم"[8]، كما يجب ألا ينتقل السلاح الإنجليزي إلى الهنود، وألا يروا ميتاً إنجليزياً حتى لا يعلموا أن الإنجليز بشر عاديون، وذلك في خطوة تناظر الغطرسة التي استعرضها كولمبس أمام سكان إسبانيولا حال وصوله لبث الرعب في نفوسهم وإبراز تفوقه عليهم.

وكما حدث مع كولمبس وكما سيحدث بعد ذلك في كل اللقاءات الأولية بين القبائل الهندية والمستوطنين الأوروبيين ثم الأمريكيين، رحب هنود الساحل بالقادمين الجدد الذين اعتمدوا عليهم في توفير مؤنهم[9]، لاسيما أنهم كانوا في البداية يظنون أنهم سيجدون الذهب كما حصل مع الإسبان من قبل، ولهذا فإنهم لم يتجهوا إلى الزراعة لإطعام أنفسهم، وكانوا "يفضلون الجوع على العمل" كما وصفهم جون سميث وهو من قادة المستعمرة الأوائل[10].



جون سميث (1580–1631) قائد مستعمرة فرجينيا، قبل وصوله أمريكا قاتل العثمانيين وعمل بالتجارة والقرصنة.

(7) Robert A. Williams، 1990، ص205.

(8) نفس المرجع، ص206.

(9) Foner، 2005، ص52.

(10) نفس المرجع، ص51.



شعار النبالة الخاص بجون سميث والذي حصل عليه بمناسبة قتل ثلاثة من القادة العثمانيين كما يتضح من صورة رءوسهم (موسوعة ويكيبيديا)

ورغم المساعدة الأساسية التي حصل عليها المستعمرون الاستيطانيون من الهنود، ورغم مظاهر التحضر التي وجدوها في حياة السكان الأصليين، كالقرى المستقرة، والزراعة المنتظمة، والحكومة التي "تفوق كثيراً من الأماكن التي تعد متحضرة جداً"[11]، فإن هدف الحصول على الأرض الذي يسعى هؤلاء المستوطنون وراءه، قد أثر في رؤيتهم للهندي، فرفضوه قبل أن يرفضهم، وشيطنوه قبل أن يدرك حقيقة أهدافهم فيقاومهم دفاعاً عن أرضه ووجوده، ذلك أنهم مارسوا "الاستئصال" الاستشراقي منذ البداية، فعدوا أرضه خالية لا صاحب لها ولم يروه قائماً فيها، وحتى عندما اضطروا للاعتراف بوجوده قلصوا حجمه، ولم يعترفوا بحقه في الأرض إلا حق الوجود عليها والذي يعلوه حق سيادة الملك الإنجليزي الذي خول الشركة المستعمرة[12]، وأصروا على أنه لا يفلحها رغم مظاهر الزراعة الواضحة أمامهم، كما رأوا في ديانته ممارسات شيطانية يجب "تحريره" من طغيانها و"طغيان" زعمائه الذين يغرسونها فيه،

(11) Pearce، 1988، ص15.
- Robert A. Williams، 1990، ص6 و8 و211.
(12) Rountree، 1996، ص72.
- Foner، 2005، ص49.
- Robert A. Williams، 1990، ص211-215.

وهذا التحرير يكون بغرس مبادئ المسيحية والحضارة[13]، وكان هذا التنصر في الحقيقة ضماناً لخضوع الهندي[14] وقبوله إجراءات الرجل الأبيض التي أهمها الاستيلاء على الأرض دون اعتراض، بالإضافة إلى استخدام الهنود بصفتهم عملاء أو وقود لحروب الأوروبيين، وقد كانت نظرة المستوطن إلى معتقدات الهنود هي تكرار لخطاب العصور الوسطى الذي كان يرى في ديانات الشعوب الأخرى وثنية تنتهك قانون الرب وقانون الطبيعة كما حدده الأوروبي، وقد تكرر في ذلك الزمن تشبيه الهنود بالوحوش التي يجب هدايتها[15].

كان الهدف من تحويل حياة الهندي هو ما أطلق عليه كولمبس قبل الإنجليز جعل الهنود يتبنون "أساليبنا"، وهي في ذلك الوقت قطع الأخشاب من الغابات والعمل والتجارة[16]، وسيتضح في مدة قصيرة أن المستعمرين الاستيطانيين لم يكونوا يهدفون إلى "تعليم" الهنود وسائل حياة أفضل، وأن الاستيلاء على أرضهم هو الهدف الحقيقي من الحساب الذي قرروا فيه أن الهندي يحوز عشرة أضعاف ما يحتاجه من الأرض[17]، وأن الادعاء بأنه من الأفضل له أن يعيش على مساحة العشر لم يكن سوى تبرير ذاتي لعملية تجريده من كل شيء حتى من هذا العُشر المفترض بل ومن الحياة نفسها عندما لا تتحقق أطماع الاستيطان الإنجليزي الذي لا يشبع، وسيثبت أن التحول الديني عند الهنود لم يكن سوى أداة لتحقيق تلك الأهداف وعندما تتعارض الأهداف المادية مع المسيحية الهندية لم يكن المستوطن يرتدع عن تنفيذ أبشع الجرائم ضد إخوانه في المسيحية من السكان الأصليين.

لقد تخيل الإنجليز في بداية الاستيطان برؤاهم "الاستئصالية" (التي تناظر الرؤى الاستشراقية في بلادنا) أنه من الممكن أن يعيشوا بسلام مع الهنود لأن هؤلاء السكان الأصليين بحاجة إلى حضارة الرجل الأبيض[18]، وأنهم سيكونون

(13) Pearce، 1988، ص6-7.
(14) Robert A. Williams، 1990، ص198-199.
(15) نفس المرجع، ص210-211.
(16) نفس المرجع، ص209.
(17) نفس المرجع، ص171.
(18) Pearce، 1988، ص108.

الرابحين من مبادلة الحضارة بالأرض، وقد طبع هذا التفاؤل أحادي الجانب أوائل المستوطنين ولكن بطريقة نظرية لم تصمد أمام توسع الأطماع كما لم يصمد استنكار الإنجليز لمظالم الإسبان في تجربة فرجينيا الأولى أمام أطماعهم الخاصة[19].



قرية هندية في كارولينا كما شاهدتها بعثة استكشافية إنجليزية أرسلها السير والتر رالي سنة 1585 وتبدو فيها حقول الذرة واضحة ومع ذلك أنكرت الرؤى الاستئصالية الأوروبية والأمريكية فيما بعد الزراعة الهندية وأصرت على ذلك إصراراً عجيباً رغم وضوح العكس منذ بداية الاحتكاك

فنتيجة التمدد الاستيطاني من جهة، وعدوان مواشي المستوطنين على بساتين الهنود (الذين وصفوا في الأدبيات الاستئصالية بالترحل وعدم حراثة الأرض !)، وما تبع ذلك من عمليات انتقام متصاعدة، قام الهنود بالهجوم على

(19) Robert A. Williams، 1990، ص183.

مستعمرة جيمس تاون في سنة 1610، أي بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيسها، وانتقم الإنجليز بالقتل العشوائي وتدمير المحاصيل الهندية[20]، واستخدموا "الاستئصال" في تبرير أفعالهم ليلقوا باللائمة على الإسبان ومبعوثيهم الذين حرضوا السكان الأصليين وكأن الهندي ليس لديه ما يشكو منه من تعديات الإنجليز[21]، ودعم ذلك رؤية استئصالية أخرى رأت في مفهوم ملكية الأرض المشاع ما يجعل الهنود لا يشتكون حتى لو سلبت كل أرضهم منهم إذ أنهم لا يعرفون مفهوم الملكية الخاصة[22].

ويلاحظ هنا أن الإنجليزي يلجأ إلى الاحتكام إلى وجهة نظر الهندي بطريقة تبرر فعل الاستيلاء على الأرض، مع أنه حكم منذ البداية على هذه الرؤية لدى غريمه بأنها مخالفة لقانون الرب والطبيعة، وبالهمجية والبربرية، ولكنه مع ذلك قبِل بها مما جعل التحضر في نظره هو ما يفيد الجشع والطمع بالأرض، أما ما يقف في وجهه فهو التوحش والتخلف مهما كان مضمون الرؤية والفعل، وقد رأينا في تاريخ القضية الفلسطينية رؤية استشراقية مشابهة تحكم بأن أهل فلسطين غير متمسكين بأرضهم "لأن العادات البدوية ما زالت ذات تأثير قوي حتى في صفوف العناصر الحضرية"، وكان صاحب هذه الرؤية، وهو المليونير اليهودي الأمريكي إدوارد نورمان، يخطط لترحيل الفلسطينيين إلى العراق لأن "التمسك الشديد بالمكان ليس من تقاليد العرب"[23]، وذلك في سنة 1934، وقد جاءت الأحداث بعد ذلك لتكشف عوار هذه النظرة وأن اللاجئين متمسكون بأرضهم حتى بعد عشرات السنين من طردهم وأنهم يرفضون كل المشاريع البديلة، بل إن المشروع الصهيوني برمته قام على فرضية سهولة زحزحة أهل فلسطين عن أرضهم إلى الأراضي العربية المحيطة الواسعة.

وقد استمرت الحرب المتقطعة بين هنود البوهاتان Powhatan والإنجليز إلى سنة 1614 حين عمد المستوطنون إلى إجراء مصالحة مع الزعيم الذي سبق لهم أن توجوه ملكاً ومنحوه لقب ملك بوهاتان، فقاموا في تلك السنة (1614)

---

(20) Foner، 2005، ص52.
(21) Brandon، 1985، ص159.
(22) Robert A. Williams، 1990، ص211.
(23) مصالحه، 1992، ص111.

بتزويج ابنته بوكاهونتاس (صاحبة الأسطورة الشهيرة) من الإنجليزي جون رولف وهو الأمر الذي جعل الملك يمنح ولاءه للإنجليز[24]، وقد وصف أحد المؤرخين سياسة مستعمرة فرجينيا تجاه السكان الأصليين بأنها لم تكن سياسة ذاتية بل سياسة رسمية ذات ميول لا ترحم وقائمة على اهتمامات اقتصادية تسترضي الهنود إذا كانوا ذوي نفع وتضغط عليهم بلا شفقة وبطريقة آلية تشبه العجلة الدائرة وذلك عندما يصبحون أقل نفعاً من أرضهم[25].

بعد موت الملك بوهاتان وتمدد المستوطنات في أرض الهنود، وذلك نتيجة لزيادة أعداد المهاجرين بعد صدور قرار بمنح الأرض مجاناً لكل من يعبر المحيط على نفقته سنة 1618، لم يسَع أخاه وخليفته إلا إعلان ثورة عامة سنة 1622 افتتحت أولى الحروب الهندية الكبرى التي استمرت بعد ذلك لأكثر من ثلاثة قرون ونصف.



بوكاهونتاس Pocahontas ابنة زعيم البوهاتان التي أنقذت رئيس مستعمرة فرجينيا جون سميث من القتل على يد أبيها الزعيم وتزوجت المزارع جون رولف واعتنقت المسيحية ورحلت إلى إنجلترا وفضلت الحياة مع الإنجليز، كما صورها أحد الفنانين في سنة 1616، وقد خضعت أسطورتها لكثير من التحوير لتناسب الرؤية "الاستئصالية" الأوروبية للهندي في أمريكا، فأصبحت رمزاً لنوايا التبشير ونشر المسيحية بين السكان الأصليين، مع كون هذه النوايا لم تحظ باهتمام جدي في أية مرحلة منذ البداية، ومنحت الفتاة ملامح أوروبية دلالة على الاستيعاب الذي لم يكن كذلك من اهتمامات المستوطنين الذين يبدو أنهم اكتفوا بهذه العملية الفردية الرمزية عوضاً عن دمج السكان الأصليين كلهم عملياً.

(24) براون، 1982، ص8.

(25) Brandon، 1985، ص162-163.



اختزلت أسطورة بوكاهونتاس العلاقات بين السكان الأصليين والمستوطنين الإنجليز في علاقة غرامية وألقت تبعات العنف على "الأشرار" الذين لا يمثلون الطرفين

وقبل الحديث عن هذه الثورة لا بد من الإشارة إلى أن صلة الزعيم بوهاتان الاجتماعية بالمهاجرين الإنجليز جعلته في موقع مذبذب بينهم وبين قومه، ولهذا لم تكن مواقفه بعد زواج ابنته من جون رولف معبرة عن مصالح قومه الذين كانوا يرون التجاوزات المستمرة على حقوقهم وأراضيهم، ثم تمكنوا من التحرر من موقف زعيمهم بعد وفاته وتولي أخيه السلطة فلجئوا إلى المقاومة كما سنرى.

هذا المثل يوضح أن صلات النخبة مع القوى المحتلة تحقق مصالح الغزاة بتحجيم المعارضة ضدهم ولجم الميول الثورية، وستتنوع هذه الصلات في مستقبل التاريخ الأمريكي بين صلات اجتماعية تنتج عنها فئة من أبناء الزيجات المختلطة ترتبط بمصالح الرجل الأبيض، وصلات ثقافية ودينية تنشأ عن التعليم في المدارس التبشيرية والعلمانية، وصلات اقتصادية ناشئة عن منح فئة منتخبة مميزات مالية تتيح لها التحرك وبسط النفوذ بين أقوامها، وستكون هذه الصلات أدوات للمحتل الأوروبي والأمريكي في تحقيق مصالحه المختلفة بواسطة استخدام هذه الفئات التي ستساهم في هزيمة الهندي وتراجعه أمام الزحف الاستعماري الأبيض.

وقد كان لمثل هذه الصلات نظائر في تاريخ القضية الفلسطينية، إذ عمدت بريطانيا في زمن انتدابها على فلسطين إلى ربط زعمائها بروابط مختلفة بالإدارة البريطانية للجم حالة الغضب والثورة ضد إجراءاتها المتعلقة بإيجاد الوطن القومي اليهودي، وهو ما يفسر حالة التردد التي سادت فترة من الزمن بين الزعامات الفلسطينية التي كانت تقبض رواتبها من تعيينها في مراكز رسمية ومن ثم كانت ترجح اللجوء إلى الوسائل السياسية ولا توجه عداءها نحو سلطة الانتداب وتقصر

هذه العداوة على المهاجرين الصهاينة وحدهم، وقد امتد ظهور هذه الفئة إلى زمن الاحتلال الصهيوني الذي حاول اختلاق زعامات مرتبطة به (روابط القرى مثلاً) للتحكم في الجماهير الفلسطينية، وما زالت المحاولات مستمرة إلى يومنا هذا إذ تعمقت صلات الفئات المستفيدة بالمحتل الصهيوني وراعيه الأمريكي اللذين يتحكمان بالأموال التي تضخ داخل الساحة الفلسطينية ومن ثم يستطيعان تحريك الأحداث وفق مصالحهما.

ازداد نهم المستوطنين الإنجليز إلى الأرض بعد وفاة الملك بوهاتان بسبب الرغبة في زراعة محصول التبغ التجاري، ونشأت في سنة 1619 وحدها أكثر من 12 مزرعة جديدة[26]، وكان السكان الأصليون يتراجعون نحو الداخل بزراعتهم وصيدهم أمام هذا التمدد، إلى أن وصل الغضب حد إعلان ثورة في مارس 1622 "كادت تأتي على مستعمرة جيمس تاون"[27]، وتمكن الهنود أثناءها من قتل ما يقارب ثلث سكانها والذين وصل عددهم إلى 1200 نسمة[28]، وفي تقدير آخر وصل عدد القتلى إلى 500 يؤلفون ربع السكان، ودمروا مستوطنات كاملة، وقد أفشى هندي متنصر خطة قومه إلى الإنجليز في جيمستاون فقاموا بهجوم مضاد على الهنود وصدرت التعليمات للمستوطنين "باجتثاث البوهاتان لكي لا يبقوا على وجه الأرض"، ومن الأساليب الغادرة التي استعملوها في سنة 1623، أي بعد سنة من اندلاع الثورة الهندية، أنهم فاوضوا بعض القبائل على السلام، فلما استجاب لهم أحد الزعماء وشرب مع أتباعه نخب الصداقة الأبدية مع الإنجليز، سقط الهنود صرعى الخمر المسموم وأجهز الإنجليز على بقيتهم وكان الضحايا جميعاً يعدون بالمئات[29]، (فهل سيستمر العرب بملاحقة السلام الصهيوني إلى أن يسقطوا صرعى نخبه المسموم؟)، واستمر الهجوم الإنجليزي المضاد 14 سنة بواقع ثلاث حملات سنوياً، ولم يتركوا للسكان الأصليين فرصة للزراعة أو إعادة بناء ما دمر من مدنهم، ومارسوا ضدهم القتل بلا تمييز ولا رحمة، وأوقعوا خسائر جسيمة بأولئك الهنود بخداعهم بوعود السلام ثم

---

(26) Rountree، 1996، ص66.

(27) The New York Public Library، 1997، ص4.

(28) Debo، 1983، ص46.

(29) Thornton، 1990، ص69.

الانقضاض عليهم، وقد أقسم القادة الإنجليز على عدم إحلال السلام تحت أية شروط[30].

جدد الزعيم أوباشانكانو Opechancanough خليفة الملك بوهاتان ثورته سنة 1644 عندما كان له من العمر مائة سنة، وتمكن الهنود أثناءها من القضاء على 500 مستوطن، ولكن الأمر كان متأخراً لأن عدد المستوطنين صار الآن ثمانية آلاف تقريباً، ودالت دولة البوهاتان بعدما دمر الإنجليز قراهم ومحاصيلهم[31] وقتلوا زعيمهم وأجبروا خليفته على التنازل عما بقي من الأراضي بأيدي الهنود واستبقي لهم قطعة ظلت تتقلص مع الزمن في انتهاك للتعهد بعدم التدخل في حياتهم[32]، وبعدما كان هنود فرجينيا يعدون بين 20-25 ألفاً لم يتبق منهم في مطلع القرن الثامن عشر إلا ألفان، وذلك نتيجة الحروب والأوبئة التي جلبها المستوطنون الإنجليز[33].



الزعيم أوباشانكانو خليفة الملك بوهاتان وأخوه والذي أعلن الثورة في فرجينيا ابتداء من سنة 1622 وظل يقاتل إلى سن المائة عام.

(30) Brandon، 1997، ص163.

(31) Debo، 1983، ص40.

(32) Robert A. Williams، 1990، ص219.

(33) Thornton، 1990، ص70.



ثورة هنود البوهاتان سنة 1622 ضد مستعمرة جيمس تاون
كما رسمها فنان عاصر الحدث

ونلاحظ في تاريخ القضية الفلسطينية شبيهاً لذلك الهندي المتحول الذي وقف ضد مقاومة شعبه للغزاة وأفشى سرها إلى الأعداء، وذلك كما حدث عند المجندين العرب في الجيش الصهيوني، بالإضافة لما كان من فئة "المثقفين" المتغربين من شن حرب على مقاومة الاحتلال والدعوة إلى الطرق السياسية والمناهج "الواقعية"، في وقت ظهر فيه بوضوح عقم هذه الأساليب، ولم يخجل بعضهم من إعلان تأييده المطلق للاحتلال الأجنبي كما حدث بوضوح في غزو العراق سنة 2003 وقد سبق أن ظهر في أمريكا الإسبانية نخبة أثرت فيها عملية "الأسبنة" وجعلتها تتميز عن شعبها ووضعت نفسها تبعاً لذلك في خدمة المحتلين الإسبان(34).

لقد كانت ثورة هنود البوهاتان وما تبعها من انتقام المستوطنين صراعاً بين

(34) فرو، 2007، ص201.

إرادتين على حق السيادة والحياة على الأرض، وليس خلافاً دينياً أو حضارياً- فتمسك الهنود بأرضهم يعني كبح حق شركة فرجينيا في التمدد وبيع الأراضي للمستوطنين، ولهذا تمسكت بسيادة الملك الإنجليزي الذي خولها هذا الحق مما يعني إلغاء أية سيادة منافسة له، وهو ما يفسر العنف الشديد الذي حارب به المستوطنون ثورة الهنود دفاعاً عن حقهم وأرضهم[35].

وتدخلت عملية "الاستئصال" الاستشراقي لتشوه صورة السكان الأصليين وثورتهم ودوافعهم فيها، ودخلت العقيدة الكالفينية لمحامي شركة فرجينيا في رواية الأحداث التي خرج مؤلفها بأن مخاوف الهنود من سلبهم أرضهم لا مبرر لها وأن ما دفعهم للثورة هو الشيطان، وهو معادل ديني قديم للغة العلمانية الحديثة التي تبنت نفس التحيزات مع إضفاء مسحة عصرية عليها وذلك بتصوير مقاومة المشروع الصهيوني بأنها إرهاب غير مفهوم ولا علاقة له بأي مظالم يرتكبها الصهاينة وحلفاؤهم بل هي حلقة في سلسلة العداء الأزلي الأبدي للسامية وأنها قضية نفسية تتعلق بكراهية عربية لليهود بغض النظر عن كل ما حل بفلسطين وأهلها وما حولها من أذى[36] لا حق لهم في مقاومته وفقاً لهذه الرؤى الاستشراقية، وهي نظرة تنطبق عموماً على مجمل ما يسميه الغرب إرهاباً ويجعله ناشئاً من ميول عدوانية وغير متصل برد الفعل على جرائم الغرب في بلاد الشرق[37].

كما أكدت الرواية الإنجليزية والتبرير القانوني لأفعال شركة فرجينيا أنها في حل من واجب التبشير لأن الله وحده هو المسئول عن هداية السكان الأصليين في الوقت وبالوسيلة المناسبين[38]، وهي إشارة دالة على أولوية الاستيلاء على الأرض على هداية الوثنيين والتي جعلت الرجل الأبيض هنا يتنازل منذ بداية مشروعه عن قناع التبشير الذي ادعاه ويلقي مسئوليته على الرب وحده دون التزام من البشر إلا بتحقيق مصالحهم الحقيقية التي قدموا إلى العالم الجديد لتحقيقها.

(35) Robert A. Williams، 1990، ص216.

(36) المسيري، 2003، ص194 و248.

(37) لوكمان، 2007، ص361-362.

- ليتل، 2009، ص546 وما بعدها.

(38) Robert A. Williams، 1990، ص217.

كما أصبح شن الحرب على الهنود وتدميرهم مبرراً وسيكافأ الحماس والتقوى الإنجليزيان بثروات فرجينيا، "هذا ما قرره الله"[39]، فتعظيم الله يقتضي استخدام الأرض بطريقة مناسبة، والهندي المتوحش أكثر من الوحوش التي يصيدها (وهي صورة متكررة في نظرة الأبيض المعتدي) لا يستعمل الأرض كما يجب[40]، وبهذا ربطت الرؤية الاستئصالية بين رضا الرب واستعمال الأرض كما يجب وفق رؤية الرجل الأبيض وتخلت عن الربط بين الرضا الإلهي وهداية الأرواح وتخليصها وفقاً للنظرة المسيحية التقليدية، وهو انعطاف أملته ظروف الصراع على المصالح المادية التي نحّت المصالح الروحية جانباً، وهذا مثل آخر لعملية الربط بين الأهداف العليا والمصالح المادية التي سبق الحديث عنها.

وفي مقابل استخدام الأفكار "الاستئصالية" في تبرير اضطهاد السكان الأصليين، جرت محاولة لغزوهم فكرياً بممارسة الحرب النفسية لغرس هيبة الرجل الأبيض في أذهانهم عن طريق نشر الأوهام المتعلقة بعدم إمكان هزيمة البيض، فبعدما بدأ المستوطنون بحمل السلاح ضد الهنود "المتوحشين"، كانت "أول التوجيهات الصادرة إلى العاملين في شركة فرجينيا كانت تجيز لهم استخدام القوة وتحذرهم من تمكين أي متوحش من رؤية جثة بيضاء" وذلك بهدف غرس استحالة هزيمة البيض عسكرياً وعدم تعريض هذا الوهم للاهتزاز أو المساءلة[41] (وتؤكد أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يُقهر والتي حاول الصهاينة نشرها استناداً إلى توالي الهزائم العربية زمناً طويلاً استمرار السابقة الأمريكية التي تكشف بعدها أن هؤلاء "الأبطال الخارقين" يرتدون حفاضات الأطفال أثناء المواجهات الحقيقية لمنع ظهور "أعراض" جبنهم، ولعل ممارسة شركة فرجينيا بإخفاء الخسائر هي السابقة للرقابة العسكرية التي يمارسها جيش الاحتلال الصهيوني أثناء المواجهات العسكرية مع المقاومين ويمنع بموجبها نشر أخبار الخسائر التي تصيب الكيان الصهيوني حرصاً على تماسك جبهته وتثبيطاً لجهد المقاومة).

---

(39) Pearce، 1988، ص8 و11.

(40) نفس المرجع، ص7-8.

(41) ديفيز، 2006، ص240.

ويلاحظ دائماً في نقد الرجل الأبيض لحياة الهندي أن الكلام يكون باستمرار عن الأرض واستعمالها، وأن الحديث عن الخلاف الديني والتفاوت الحضاري يؤدي دائماً إلى النقطة ذاتها وهي تبرير الاستيلاء على أرض الوثنيين المتخلفين، ولهذا لم يكن التنصر أو التحضر مانعاً من اضطهاد الهندي وإبادته للحصول على أرضه، وكان المفهوم الشائع هو أن السكان الأصليين يحوزون أكثر من عشرة أضعاف ما يحتاجونه، ولهذا فإنه من الواجب أن تصادر منهم هذه الأراضي ويعطيها الرب إلى جنوده الأتقياء المتحمسين وبهذا تصبح البلاد لهم ويخسرها الهنود "بجرائمهم" الخارجة عن قانون الإنسانية، ضد الإنجليز، كما يخسر الهنود حقهم الطبيعي في تلك الأرض[42].

وكانت هذه هي دورة العدوان والمقاومة دائماً : عدوان مبرر لدى صاحبه تتبعه مقاومة يرد عليها بعدوان جديد يصور المقاومة الأولى بصورة العدوان على استقراره مما يستتبع مقاومة جديدة إلى أن يهزم أحد الطرفين الآخر، وكانت المقاومة الهندية هي الخاسرة على المدى الطويل رغم الانتصارات التي حققتها، وتكشف الهزيمة النهائية لمقاومة السكان الأصليين عن النوايا الحقيقية للمعتدي الذي يصبح الآن في مركز القوة والتصرف فلا ينفذ الوعود الخلابة التي قطعها منذ رسوه على الشاطئ الأمريكي ولا يترك للهندي حتى عُشر الأرض الذي اعترف بنفسه بإمكان الحياة عليه لو توفرت الظروف الملائمة، وبدلاً من جلب الهداية والحضارة للوثنيين المتخلفين يتم تدميرهم جميعاً بمن فيهم من المهتدين والمتمدنين.

ويلاحظ أن هذه الدورة من العدوان والمقاومة هي نفسها التي جرت على الأرض الفلسطينية التي سُلب أصحابها حق السيادة عليها وجيء بأغراب ليتملكوها ويسكنوها وفق "القانون" الذي فرضه المحتل فأصبحت مقاومة القانون والنظام جريمة تقتضي المزيد من العدوان الذي يدعي كونه "رداً" على عنف المقاومة وينسى الخطيئة الأصلية التي استدعت هذه المقاومة التي هي الحق الشرعي للكائن الحي فضلاً عن الكائن البشري.

---

(42) Robert A. Williams، 1990، ص218.

وعندما رفض السكان الأصليون الخضوع لمنطق الاستيلاء على أرضهم وسلبهم حقوقهم، بهت الاهتمام "بفهمهم" و"تعليمهم"[43]، وساد بعد ذلك منطق جديد يقول إن عقاب الهندي أسهل من تمدينه وتعليمه[44]، ويلاحظ هنا أن هدف الاستيلاء على الأرض متوار بين كلمات هذا الشعار: فلماذا رفض الهندي هذه الحضارة لو كانت مجرد تزويده بآلات ووسائل حديثة تحسن أداءه في الحياة؟ فهل كان رفضه إياها بسبب أنها تلازمت مع تجريده من وسائل العيش التي يفترض أنها جاءت لتحسينها، بل وربما تجريده من الحياة ذاتها كما حدث في أمثلة كثيرة جداً؟ ولما يصر الشعار على عقاب الهندي لو كان كل مطالبه هو أن يحيا وشأنه؟ وهل في حوزته ما يستوجب العقاب للحصول عليه وتجريده منه؟

وسيجد الرجل الأبيض في قابل الأيام وسيلة أسهل من العقاب والحرب لتحقيق هدفه وهو الاستيلاء على أرض الهنود، وهذه الوسيلة هي حشرهم في معازل قاحلة وضيقة وإغراؤهم بالمساعدات الحكومية التي تمنح لهم مع الادعاء بأخذ أيديهم نحو الاعتماد على النفس ولكن التجارب تثبت كذب هذه الادعاءات ويتحول الهندي إلى يومنا هذا إلى أفقر الأقليات في المجتمع الأمريكي الذي يستقبل عشرات الآلاف من المهاجرين سنوياً ويقوم باستيعابهم ومع ذلك يضيق بسكانه الأصليين وهم أقلية ضئيلة فيه، وستتلخص تجربة الهندي مع حضارة الرجل الأبيض بشعار يشمل كل سنوات التمدد الاستيطاني وهو: حرب الهندي أسهل من تمدينه وإطعامه أرخص من حربه، وهي تجربة تؤكد هامشية نشر الحضارة بين الأهداف الأمريكية والأوروبية قبلها ومركزية الاستيلاء على الأرض فيها.

---

(43) Pearce، 1988، ص12.

(44) Debo، 1983، ص42.

- Robert A. Williams، 1990، ص218.



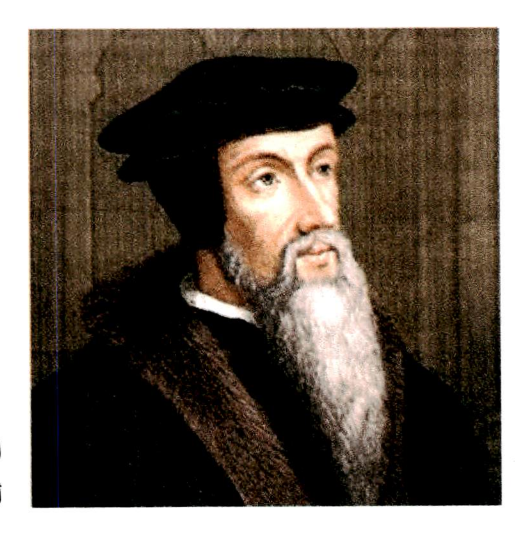
الفصل الرابع

مستعمرة مساشوستس

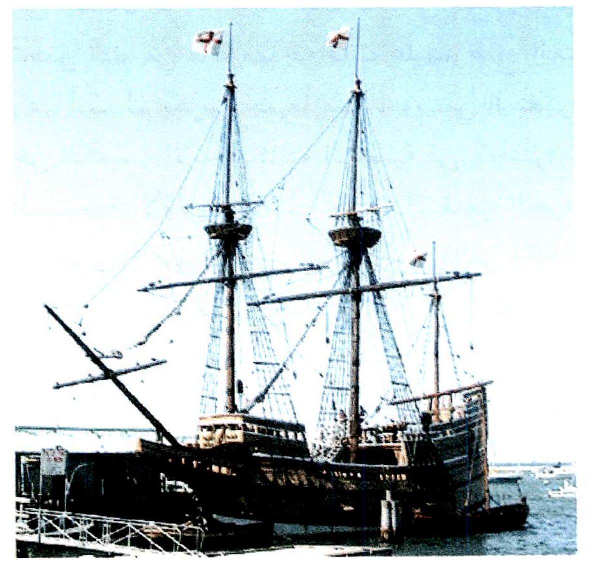
في سنة 1620 رست سفينة زهرة نوار Mayflower على شاطئ مساشوستس إلى الشمال من فرجينيا حيث كان من المقررالرسو فيها ابتداء، وكانت السفينة تحمل أكثر من مائة مهاجر غلب عليهم طابع المتطهرين Puritans الكالفينيين، رغم أنهم لم يكونوا جميعاً منهم، وينتمي المتطهرون إلى فرقة بروتستانتية منشقة عن الكنيسة الأنجليكانية الرسمية في إنجلترا، ويؤمنون بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وتعاليم الكتاب المقدس الحرفية، ويتبعون تعاليم اللاهوتي سويسري الأصل فرنسي المولد جون كالفن (1509-1564) الذي قال بالمصير المقدر مسبقاً للبشر وإن الخلاص لا علاقة له بأعمال الإنسان بل بإرادة الله وحدها ولكن يمكن التعرف عليها من علامات في الإنسان منها الحياة السوية والنجاح الاقتصادي، وبهذا يكون عمل الإنسان دليلاً وليس سبباً للخلاص، ومهما عمل فلن يستطيع تغيير مصيره أبداً، وقد علق ول ديورانت على تاريخ المؤمنين بالكالفينية بالتساؤل هل اكتسب هؤلاء من الاعتقاد بأنهم الصفوة القليلة قوة تفوق ما فقدوه منها بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب في تحديد مصيرهم؟[1] وقد لقب المتطهرون بالقديسين، والمستقلين Congregationalists نسبة إلى استقلال مجالسهم في انتخاب رجال الدين.

---

(1) ديورانت، 1971، ص216.



المصلح البروتستانتي جون كالفن كان أكثر تطرفاً من مارتن لوثر.



نسخة طبق الأصل من سفينة زهرة نوار التي حملت مهاجري مستعمرة بلايموث إلى الشاطئ الأمريكي، وقد تم بناء هذه النسخة سنة 1956



رسو "الآباء الحجاج" على شاطئ مساشوستس.

وقد رعى رحلة المهاجرين مجموعة من التجار الإنجليز الذين أرادوا تأسيس مركز للتجارة في أمريكا، وأطلق على ركاب زهرة نوار فيما بعد لقب الآباء الحجاج Pilgrim Fathers لأنهم كانوا أصل سكان الولايات المتحدة فيما بعد ولأن هجرتهم كانت رحلة دينية نحو عالم جديد تشبه رحلات الحج الخلاصية إلى المواقع الدينية المقدسة، وكان أصل التسمية تشبيهاً لهم بالعبرانيين القدامى(2)، وأسس هؤلاء المهاجرون مستوطنة بلايموث تيمناً بالمرفأ الإنجليزي الذي أقلعوا منه، وكان موقع المستوطنة الجديدة يقوم على موقع قرية هندية اجتاحها الوباء الذي عم المنطقة بعد زيارة قام بها أحد تجار العبيد الإنجليز قبل وصول المهاجرين بزمن قصير (1616-1619)، وقد أتى الوباء على السكان الأصليين هناك فأبادهم إلا قليلاً منهم ولم يتبق على قيد الحياة إلا ألف نسمة من أصل عشرة آلاف(3).

وقد طبع هدف الحجاج، وهو الاستيلاء على الأرض والاستيطان فيها والحلول محل أصحابها الهنود، رؤيتهم لحدث الوباء والتي أثبتت أنهم ما جاءوا يبحثون عن أرواح لتخليصها ولا لنشر كلمة الرب ولا لجلب الحضارة بل جاءوا لتحقيق منافع مادية خاصة تقتضي التنافس مع أصحاب البلاد وليس مساعدتهم، ولهذا عدوا الوباء تأييداً من الرب لهم وتمهيداً لمهمتهم لأنه "أفسح لنا مكاناً"(4)، ولو كانوا قد جاءوا لمساعدة الهنود كما ادعوا لما سروا بإبادتهم ولما رأوا الخلاص منهم نعمة ربانية ولا إشارة إلهية تذكرنا بالإشارة الإلهية التي تلقاها كولمبس وفسرها بأمر إلهي بالاستقرار في أمريكا أيضاً.

وقد حصل الحجاج على ملكية الأرض التي نزلوا بها وأقاموا عليها من مجلس نيو إنجلاند في إنجلترا، وفي سنة 1629 تأسست في إنجلترا شركة خليج مساشوستس من مجموعة من التجار الذين أيدوا قضية المتطهرين وأرادوا جني الأرباح في نفس الوقت من التجارة مع الهنود، وحصلوا على براءة من الملك تشارلز الأول بامتلاك الأرض "من البحر إلي البحر"، أي من المحيط الأطلسي

(2) http://wiki.answers.com/Q/Why_are_the_Pilgrims_called_Pilgrims#slide4

(3) Brandon، 1985، ص170.

(4) Thornton، 1990، ص71.

إلى المحيط الهادي، وهو ما وصفه أحد المؤرخين بأنه "واحدة من أكثر الضربات إدهاشاً في تاريخ الاستعمار"(5)، وتوالى إرسال دفعات المهاجرين والتي كانت جزءاً مما عرف بالهجرة الكبرى، فوصل عدد المهاجرين فيها إلى 21 ألفاً بحلول سنة 1642(6).

وتذكر المؤرخة ريجينا الشريف أنه بسبب اعتماد اللاهوت التطهري على النص الحرفي للتوراة، أصبح المتطهرون يماثلون بين تجاربهم في أمريكا وتجارب العبرانيين في التوراة، وصارت أمريكا في نظرهم "كنعان الجديدة"، وصوروا فرارهم من اضطهاد ملك إنجلترا جيمس الأول كخروج العبرانيين من أرض مصر فراراً من اضطهاد فرعون وبحثاً عن ملجأ في أرض الميعاد، وباتت التوراة مصدراً لأسمائهم وتشريعاتهم، كما أصبحت مستوطناتهم تحمل أسماء مستقاة من الأرض المقدسة في فلسطين كبيت لحم والخليل ويهودا وصهيون والقدس "وتغلغل التماثل البيوريتاني مع الشخصيات العبرية التوراتية في الحياة القومية الحديثة في أمريكا المستعمرة، وأصبح هذا الإرث جزءاً لازباً لما يسمى بالتقاليد الأمريكية"(7)، ولكني أعتقد أن مجرد التركيز الاعتقادي على المعاني الحرفية للعهد القديم "التوراة" لم يكن لينتج هذا التطابق بين التجربتين لو لم تكن كلتاهما تدوران حول الرغبة في الاستيلاء على أراضي الآخرين.



شعار شركة خليج مساشوستس، التي تأسست في إنجلترا سنة 1629، يصور هندياً يستغيث بالإنجليز: تعالوا وساعدونا.

---

(5) Ahlstrom، 1972، ص106.
(6) Foner، 2005، ص65.
(7) الشريف، ديسمبر 1985، ص183-184.

ادعى المتطهرون أنهم جاءوا لمساعدة الهنود وهدايتهم ونشر الحضارة بينهم، فكان شعار شركة خليج مساشوستس يصور هندياً يخاطب الإنجليز قائلاً: "تعالوا وساعدونا"، كما تضمنت براءة الشركة تعهداً واضحاً بالعمل على "كسب وحث سكان البلاد الأصليين على معرفة وطاعة الرب الحقيقي الوحيد ومخلص البشرية، والإيمان المسيحي"(8)، وتضمنت كذلك تصريحاً لا لبس فيه بأن هذه الهداية هي "الهدف الرئيس من إقامة المستعمرة"(9)، كما ادعى جون ونثروب سنة 1629 قبل سنة من توليه حكم المستعمرة أن هدف الاستيطان الرئيس هو "نشر الكتاب المقدس بين الهنود، وبذلك توسيع رقعة مملكة المسيح وإنقاذ الهنود من قبضة الشيطان"(10)، ولكنه قام أيضاً في نفس العام بالحديث عن شرعية انتزاع الأرض "المهملة دون أي تطوير"(11)، وقد شاع وصف أرض الهنود في الزمن الاستعماري بكلمة waste وهي تعني القفر القاحل أو الخالي أو البور غير المحروث وغير العامر أو المهمل غير المستعمل، وهي صفات لجأ إليها المستعمرون الاستيطانيون بعدما اصطدموا بوجود سكان في أمريكا التي تصوروها أرضاً خالية بلا شعب، فادعو أنها أرض غير مستعملة ومن ثم يحق لمن يفلحها الاستيلاء عليها، وهو وضع حلا للصهيونية إسقاطه على أرض فلسطين إذ نقرأ لزعيم معسكر السلام الصهيوني شمعون بيريز مرتكب مجزرة قانا الذي يراهن عرب الاستسلام عليه، قوله في سنة 1986عن فلسطين التي هاجر الصهاينة إليها بلغة يلاحظ إدوارد سعيد تجاهلها للتاريخ وللواقع الذي سجل في تلك اللحظة وجود خمسة ملايين فلسطيني، وعموماً فإن هذا التجاهل هو سمة الاستشراق وتعميمه، أي الاستئصال، يقول بيريز في النيويورك تايمز عدد 5 أكتوبر 1986: "إن الأرض التي قدموا إليها، رغم أنها حقاً أرض مقدسة، كانت مهجورة وغير مغرية، أرض قد لحق بها الخراب وظمأ المياه، مليئة بالمستنقعات والملاريا وتفتقر إلى الموارد الطبيعية، وعلى الأرض ذاتها كان يعيش شعب آخر، شعب أهمل الأرض (كما "أهملها" الهنود في أمريكا !) ولكنه كان يعيش

---

(8) Ahlstrom، 1972، ص156.
(9) Debo، 1983، ص47.
(10) شعبان، 2003، ص77.
(11) Pearce، 1988، ص21.

عليها (فهي إذن ليست أرضاً بلا شعب !)" ثم يستدرك القول بأن هؤلاء السكان كانوا "قليلين"[12]، وهي نفس الحيلة التي لجأ إليها المهاجرون في أمريكا لا لتوزيع الأرض على الجميع بالتساوي بل لإبادة هؤلاء "القليلين".

كما قام جون ونثروب في العام الذي تلاه (1630) بصياغة موعظة منقولة عن قول النبي موسى لبني إسرائيل: "إنكم مقبلون على الأرض التي حلف الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها" وإن مصير أمريكا ومن فيها يسير على غرار تاريخ الأرض المقدسة[13]، ويلزم هنا ملاحظة أن بني إسرائيل دخلوا الأرض المقدسة وفق رواية التوراة غزاة مستعمرين ومحاربين ومبيدين أهلها لا مجرد دعاة وهداة، ولهذا لم يفعل المتطهرون شيئاً في العقدين الأولين من استيطانهم في سبيل هداية السكان الأصليين[14]، وغلب على طابع التبشير الصفة الفردية والمبعثرة "بلا نتائج عملية" ولديها "قليل من العاملين في هذا المجال الموحش الواسع"[15]، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين إن الوجود البريطاني في العالم الجديد تبنى الخطاب العنصري للغزاة الإسبان منذ السنوات الأولى للاستعمار في بداية القرن السابع عشر، وإن البريطانيين "لم يحاولوا قط بصفة جدية تنصير الهنود الحمر، فعلى الرغم من بعض النوايا التبشيرية، كان هدفهم الأول السيطرة على الأراضي، ولم تكن التحالفات المعقودة مع بعض الزعماء الهنود إلا وقتية، نظراً لميزان قوى غير مناسب (للإنجليز) عندئذ، ولا يهم من أجل هذا (الهدف: أي السيطرة على الأراضي) القضاء على السكان المحليين إذا لزم الأمر"[16]، وكل ما سبق يؤكد أن تشديد المتطهرين على التطابق بين حالهم والتاريخ التوراتي لفلسطين نبع من التشابه بين التجربتين في الصراع على الأرض مع سكانها الأصليين وليس من اهتمام بنشر الهداية وكلمة الرب، وذلك كما سبقت الإشارة.

---

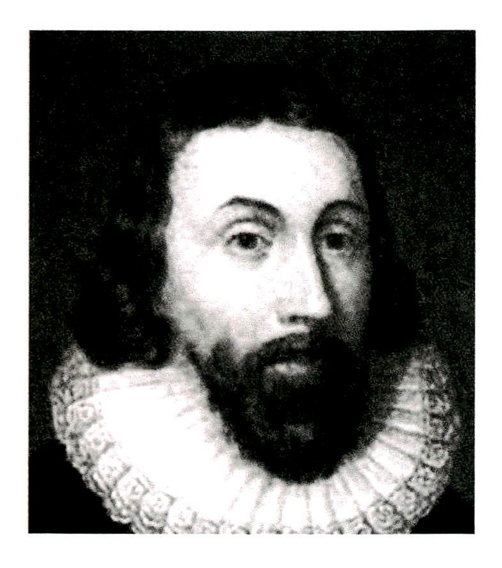
(12) سعيد، 1991، ص7.

(13) هلال، 2001، ص78.

(14) Foner، 2005، ص72.

(15) Pearce، 1988، ص28.

(16) فرّو، 2007، ص66.



جون ونثروب (1587–1649) أول حاكم لمستعمرة خليج ماساشوستس التي تلت مستعمرة بلايموث في البناء، أصبح حاكماً 12 مدة سنوية بين 1630–1649

ثم تطابقت التجربة الصهيونية الحديثة التي اتخذت من التوراة مستنداً لشرعيتها مع تجربة الاستيطان التطهري في أمريكا، فقد تكلم الصهاينة في البداية كثيراً عن جلب الحضارة إلى الشرق، وعن إفادة سكانه من التقدم الذي حققه اليهود، وهي لغة معادلة لنشر الهداية الدينية في السابق، فقد جاء في رسالة مؤسس الصهيونية السياسية اليهودية تيودور هرتزل إلى الوجيه الفلسطيني والنائب في البرلمان العثماني يوسف ضياء الدين الخالدي في معرض إقناعه بجدوى الهجرة اليهودية إلى فلسطين: " فهذه الحركة (الصهيونية) مهتمة في إيجاد موارد جديدة للإمبراطورية العثمانية عن طريق السماح لعدد محدود من اليهود بالهجرة، محضرين معهم ذكاءهم وقدراتهم المالية ومشاريعهم الإنمائية للبلد، ولا يشك أحد بأن الصالح العام للبلد سيكون ذا نتائج إيجابية... لا يوجد خلف اليهود قوة مقاتلة، ولا حتى هم بطبعهم شعب محب للحرب، وهم عامل سلام دائم ... وجنابكم ترون صعوبة أخرى تتمثل في مصير السكان غير اليهود في فلسطين، ولكن من يفكر في طردهم بعيداً عن فلسطين؟ وجودهم وثرواتهم سنضاعفها بوجودنا وثرواتنا... هذا ما يجب أن يعترف به سكان فلسطين، لأنهم سيكسبون أخوة أذكياء كما سيكسب السلطان مخلصين سينعشون الولاية التي هي أرضهم التاريخية... "[17].

(17) حلاق، 1999، ص375-376.

ويتضح من كلام هرتزل للخالدي أنه كان يتحدث بلسان مشقوق، كما يصف الهنود الحمر كل من يكذب وينافق في حديثه، ذلك أن مشروع هرتزل الذي سطره في كتاب "دولة اليهود" الذي صدر في سنة 1896 هو "نقل جماهير اليهود"[18] وزرعهم تدريجياً في وطن خاص بهم[19]، وليس مجرد هجرة "عدد محدود" منهم كما أوهم الخالدي في رسالته سنة 1899، كما أن إنكاره الواضح لنية تهجير "السكان غير اليهود"، يتناقض صراحة مع ما سطره في يومياته (12 يونيو/حزيران/جوان 1895) حين قال في معرض تفصيل مصير السكان الأصليين في مشروعه الصهيوني: "سنسعى لتهجير السكان المعدمين عبر الحدود بتدبير الوظائف لهم في بلاد الانتقال، لكننا سنمنعهم من القيام بأي عمل في بلدنا" ويؤكد على الطابع السري لهذه العملية بالقول إن الملاك سيوافقون عليها "وعمليتا الاستيلاء على الملكية وترحيل الفقراء ينبغي أن تجريا معاً بصورة متكتمة وحذرة"[20].

وقد قام الصهاينة بمحاولة خداع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني نفسه بهذه الادعاءات الجوفاء عن التطوير والتنمية، ولكن السلطان أدرك منذ البداية أبعاد المشروع الصهيوني، فكتب في مذكرات السياسية (1895) قائلاً: "لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين، بل يريدون أموراً اخرى مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم"، ثم ينتقل إلى التمييز بوضوح بين تقدير خدماتهم والاستجابة لأطماعهم، وهي مسألة غابت عن حملة الحضارة في أمريكا حين ظنوا أن نشر الحضارة يخولهم اضطهاد غيرهم: "وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين"[21].

وفي محاولة لخداع زعماء فلسطين رتب الإنجليز لقاء لهم في القدس مع

---

(18) هرتزل، 1997، ص83.

(19) نفس المرجع، ص47-48.

(20) مصالحه، 1992، ص11.

(21) السلطان عبد الحميد الثاني، 1979، ص34-35.

زعماء الصهيونية في نهاية الحرب الكبرى الأولى (1918)، وفي المأدبة التي أقيمت بالمناسبة كرر الزعيم الصهيوني حاييم وايزمان ورفاقه على مسامع الزعماء الفلسطينيين معزوفة تحويل رمال الصحراء إلى قرى مزهرة (فهل ذكر من سيسكن هذه القرى؟) وأن الهجرة اليهودية ستؤدي إلى تدفق أموال وخبرة اليهود وستنعم فلسطين برخاء اقتصادي لم تشهد له مثيلاً من قبل، وعلقت جريدة المقطم الموالية للاحتلال البريطاني في مصر بالقول إن المفتي الأكبر قال إن شرح الصهاينة أزال كثيراً من الأوهام التي كانت عالقة بالأذهان والمخاوف التي كانت تساور النفوس[22].

وقد خُدع الأمير فيصل بن الحسين بهذه الدعاية وأذعن للضغوط البريطانية وقام باتصالات مع الصهاينة أسفرت عن تصريحه بأن العرب "لا يحملون ضغينة ضد الصهيونيين اليهود... أما التحاسد بين سكان المستعمرات اليهودية والمزارعين المحليين فقد أثارته الفتن التركية... وإن الصهيونيين هم حملة حضارة أوروبا إلى الشرق"[23]، وعلى غرار كثير من الزعماء المسالمين من السكان الأصليين في أمريكا وقع بعد ذلك اتفاقية فيصل-وايزمان التي أقرت بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين مقابل المساعدة الصهيونية في تقديم تقرير عن أحسن الوسائل للنهوض بالبلاد العربية بعد دراسة إمكاناتها الاقتصادية "وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانات الاقتصادية في البلاد"[24].

واستمرت محاولة خداع زعماء فلسطين فقام بن غوريون بترديد نفس النغمة على مسامع موسى العلمي في سنة 1936 قائلاً إن المستنقعات ستجفف والصحارى ستزدهر والرخاء سيعم، فرفض العلمي هذه الدعاية ورد عليها بالقول إنه يفضل بقاء الأرض جرداء لمدة مائة أو ألف عام إلى أن يقوم صاحبها باستصلاحها، فما كان من الزعيم الصهيوني سوى الاعتراف بأن العربي يقول الحقيقة وأن كلمات الصهاينة بدت مضحكة وجوفاء أكثر من أي وقت مضى[25].

---

(22) الخولي، 1973، ج1، ص265-266.
(23) نفس المرجع، ج1، ص298.
(24) نفس المرجع، ج1، ص304.
(25) المسيري، 1996، ص64.

واستمرت آلة الكذب المتحضر تدور حتى بعد حلول النكبة بشعب فلسطين حين ادعت مناهج التعليم الصهيونية أن حياة العرب لم تكن شيئاً قبل قيام الكيان الصهيوني في فلسطين وأنهم ذاقوا طعم الحياة بعد قيامه وفقاً لوصف الأستاذ ماجد الكيلاني في دراسته[26]، ومازال الكذب الصهيوني يكرر على مسامع العرب نفس الأسطورة التي خدعت الأمير فيصل بن الحسين ومازال الصهاينة يتكلمون عن تطوير الشرق وتنميته بإمكاناتهم التي رأينا بأعيننا كيف استخدمها هؤلاء في تهجير شعب فلسطين واضطهاده وقمعه وقتله ونال من حوله من الشعوب العربية مما ناله من الصهاينة أيضاً، ثم يأتي شمعون بيريز ليسوق عليهم أسطورة قديمة هي "الشرق الأوسط الجديد" حيث "لم نكن يوماً بالشعب الذي يرغب في التحكم بالآخرين"[27] و"لم نزمع قط أن نغدو حكام شعب آخر"[28] وحيث كلام كثير عن الانتقال من اقتصاد الحروب إلى اقتصاد السلام وعن مصادر الاستثمار والتمويل وعن المياه والبنية التحتية للنقل والمواصلات والسكك الحديدة والطرق والموانئ ومناطق التجارة الحرة وقناة البحرين وتطوير السياحة[29]، ويذهب في الكذب بعيداً حين يقول إنه "مع السلام القادم والخطط المستقبلية فإن غزة ستزدهر من جديد وسيعيش شعبها في ازدهار وشرف ووفرة" ويمكنها أن تكون مركزاً هاماً للسياحة " وبناء حوض لرسو وإصلاح السفن حول الميناء الجديد الذي سوف يجتذب المزيد من الزوار" و"عندما تصبح غزة ميناء مزدهراً، فبإمكانها أن تصبح أيضاً المحطة النهائية لشبكات الطرق والسكك الحديدية، ومركزاً إقليمياً لصيد الأسماك، ومركز جذب للاستثمارات الأجنبية"[30]، ولأن الكلام مجاني فإن بيريز لا يخبرنا لماذا لم تصب غزة شيئاً من هذه الوعود عندما كانت تحت سلطة الاحتلال لمدة أكثر من عشرين عاماً ولماذا كانت تعيش في اكتظاظ و"ظروف صحية غير مقبولة" ودون مصدر للدخل وأهلها "رهائن لعداوات وأسرى لحياة من الفقر والحرمان والإذلال"، فهل من

---

(26) الكيلاني، 1972، ص129 وما بعدها.

(27) بيريس، 1994، ص17.

(28) نفس المرجع، ص52.

(29) نفس المرجع، ص111 و141 و149-158 و167.

(30) نفس المرجع، ص156.

العجيب أن يكونوا رهينة لعداوة محتلهم وأن يتنكروا لكل "الإنجازات" التنموية التي صنعها كالفقر والذل والحرمان، وأن تصبح غزة بعد العشرين عاماً من "الرغد" الصهيوني هي التي قررت نفضه من واقعها وفجرت الثورة عليه في سنة 1987 فلم ينلها من التنمية سوى تكسير عظام أبنائها أو قتلهم.

ولو عدنا إلى مستعمرة مساشوستس بعد هذه المقارنة نجد سؤالاً قد يتبادر عن طريقة المواءمة بين هدف الاستيلاء على أرض السكان الأصليين وما يتبع ذلك من ضرورة إبادتهم، مع هدف التجارة الذي كان السبب في إرسال المستوطنين إلى أمريكا عند تجار إنجلترا، فكيف نقول إن المستوطنين حملوا الاستيطان والإبادة من جهة في الوقت الذي كان فيه هدف إرسالهم هو تحقيق الربح من التجارة مع الهنود؟

والواقع أنه لا تناقض بين الهدفين، فالمستعمرون الاستيطانيون كانوا يطلبون الأرض التي تكفيهم في مرحلة معينة ويزيحون أو يبيدون من عليها من سكانها الأصليين، ولم يكن في مقدورهم أو حتى يدور في خلدهم في البداية أنهم سيملئون القارة كلها في يوم من الأيام وسيؤدي هذا إلى إبادة كل من عليها من سكانها، لقد تمت العملية بالتدرج: إقامة وإبادة أو تهجير في موقع يصحبها تجارة مع مواقع أخرى سيتم التمدد عليها فيما بعد مع تكاثر الهجرة والوافدين، وستتلاشى التجارة شيئاً فشيئاً بعد أن تكون قد أدت دورها، لاسيما بعد أن تحل زراعة المحاصيل الاقتصادية كالتبغ والقطن وغيرهما محلها بصفتها مصدر الدخل الرئيس في بعض المستعمرات[31]، وسيظل الأوروبي ثم الأمريكي من بعده يتمدد تدريجياً ويزيح أصحاب البلاد إلى أن تمت له السيطرة على القارة كلها دون أن يحسب حساباً في يوم لمراعاة حقوق سكانها الأصليين بلجم شرهه وجشعه للاستيلاء على كل ما وصلت إليه يداه، وتقول واحدة من مؤرخي تلك الفترة إنه منذ سنة 1633 حلت الأرض محل الفراء بصفتها سلعة التبادل الرئيسة في مساشوستس[32].

---

(31) Brandon، 1985، ص164.

(32) Marks، 1998، ص13.

إن التبادل والحوار الحضاري ليسا من مناقضات الصراعات والحروب، ولعل من الطريف رؤية ما حدث في بعض معارك حروب الفرنجة الصليبية بين المسلمين والأوروبيين إذ "كان ثمة صداقات حميمة تنشأ في خضم المذابح. لقد حاربت جيوش ريتشارد وصلاح الدين لأشهر كثيرة دون تقدم، وكانت معسكراتهم متجاورة، فنشأت صداقات بين الفرسان والعوام من كل طرف أثناء الفترات الطويلة من الهدنة. وقد جاء في بعض الروايات، أن المتقاتلين كانوا يتوقفون عن القتال في منتصف المعركة إذا أدركوا أن ليس لأحدهم اليد العليا فيها، فكانت الأسلحة توضع جانباً وتبدأ المحادثات ورواية القصص، حتى إن أحد الطرفين كان يدعو الآخر إلى تناول العشاء. وفي أوقات أخرى كانوا يقيمون المبارزات لرؤية من لديه براعة أكثر في فنون الحرب، ثم يحتفلون بالفائزين. هذه المشاهد كانت بالكاد تتناسب مع صورة المحاربين الأشداء المؤمنين بالله، الذين يواجهون بعضهم البعض بالحماسة المتقدة للمؤمنين الصادقين"[33]، ولعل هذه الصورة توضح كيف يتعايش الصراع مع الحوار.

استمد المتطهرون "حقهم" في أراضي العالم الجديد كما رأينا في قول جون ونثروب آنف الذكر من القانون الإلهي أكثر من القانون الطبيعي[34] الذي عرضه توماس مور ومن بعده، ولكننا رأينا القانونين يسيران في نفس الاتجاه ويبرران نفس السلوك وهو الاستيلاء على أرض السكان الأصليين، وهذا يؤكد أن الهدف الوحيد من التجربة الاستعمارية الاستيطانية كان واحداً وهو الذي يصنع الأحداث مهما تنوع اللاعبون، وهذا الهدف هو الأرض.

ومع ذلك كان الإنجليز يشترونها من الهنود، لا لإيمانهم بحقهم فيها، بل بصفة الشراء وسيلة لحفظ السلام[35]، وهو تصرف مشابه لما سلكه المستعمرون الصهاينة في فلسطين حين كانوا-وما زالوا-يعرضون أموالاً ضخمة لشراء الحقوق هناك رغم تملكهم إياها بالقوة وذلك لإسباغ الشرعية على وجودهم وإسكات

(33) كارابل، 2010، ص157.
(34) Pearce، 1988، ص21.
(35) نفس المرجع، ص20.
- Foner، 2005، ص72.

صوت المقاومة ضدهم، ولو كان الأمر قد استتب لهم لما ظلوا يواصلون محاولاتهم هذه.

ومثل كل الشعوب التي ابتليت بالاستعمار الاستيطاني، لم يفهم السكان الأصليون في نيو إنجلاند أبعاد الموقف منذ البداية، وكما رحب الهنود بكولمبس ومستعمري فرجينيا، رحب هنود ساحل مساشوستس بالقادمين الجدد، وزودوهم بالطعام وعلموهم صيد السمك وزراعة الذرة وصناعة القوارب للتنقل، ولولا هذه المساعدة لما نجح الآباء الحجاج في أمريكا ولا احتفلوا بأول عيد شكر في أول خريف يمر عليهم بعد وصولهم، وهو الاحتفال الذي ما يزال الأمريكيون يحيون ذكراه إلى هذا اليوم(36).



احتفال المتطهرين في بلايموث بأول عيد شكر سنة 1621 بعد وصولهم إلى أمريكا بسنة واحدة.

إن هذا المشهد من الترحيب قد تكرر في تاريخ القضية الفلسطينية، وكما كان مستعمرو فرجينيا "معتمدين على القبائل المجاورة للحصول على تموين ثابت"(37)، كذلك كان أوائل المستعمرين الصهاينة في فلسطين "على اتصال يومي بالمحيط العربي المجاور، لأنهم اعتمدوا على القرى المجاورة للحصول

(36) Debo، 1983، ص45.
(37) Robert A. Williams، 1990، ص208.

على الغذاء والسماد، والعمال الموسميين والحراس، وللانتقال وتسويق منتجاتهم"[38]، وكما درب سكوانتو الهندي مستعمري بلايموث على الزراعة وتحضير الطعام والتلاؤم مع البيئة الجديدة[39]، كذلك "تلقى مستعمرو هاديرا، مشمار هايردن، والمطلة، بعض التمرين الزراعي من الجيران والعمال العرب، واعتمدت بعض المستعمرات على القرى المجاورة للحصول على الماء... "[40]، ويمكننا تتبع الترحيب بالمهاجرين اليهود بين المسلمين في سنوات بعيدة عن بداية الاستيطان الصهيوني وهي نهاية القرن الخامس عشر عندما طُرد اليهود بعد سقوط الحكم الإسلامي في إسبانيا فاتجه معظمهم إلى أراضي الدولة العثمانية.

إن صورتي الموجتين الأمريكية والإسرائيلية كانتا متشابهتين، وكما جاء المتطهرون وغيرهم من مستعمري أمريكا بدوافع دينية وهرباً من الاضطهاد، كذلك نظر سكان فلسطين إلى أوائل المهاجرين الصهاينة بأنهم "قدموا إلى البلاد حجاجاً جاءوا لدوافع دينية أو لاجئين هربوا من الاضطهاد في أوروبا الشرقية"[41]، ثم يشير المؤلف نفسه إلى أن قلة أعداد المهاجرين اليهود في البداية وتسترهم على دوافعهم السياسية للهجرة جعل أهل فلسطين يظهرون نحوهم "شعوراً يمكن وصفه بأنه غير عدائي" وذلك تماماً كما كان جهل الهنود بحقيقة الهجرة الأوروبية دافعاً لهم لاستقبالها بشعور غير عدائي في البداية.

وقد تكرر السلوك المرحب عند الهنود في معظم مناطق القارة الأمريكية بعد مستعمرة بلايموث، وإن كان تحول بعد تثبيت الأوروبيين أقدامهم إلى الشكل التجاري أكثر من الإنقاذ الحيوي، فكان الاحتكاك في كل منطقة يصل الاستيطان إليها يبدأ مع قلة من التجار والمغامرين والمستوطنين الذين يحملون بضائع إلى الهنود فيرحبون بهم ويظنون أن ما يحمله هؤلاء من أدوات ستجلب التطور معها ويحسبون أن العلاقات ستستمر على هذا المنهج، ولكن عندما تتزايد أعداد

---

(38) Morris، 2001، ص46.
(39) Nolan، 1975، ص30-31.
(40) Morris، 2005، ص46.
(41) عوض، 1983، ص39.

المستوطنين ويأتي الجيش لحمايتهم تتغير الأمور نحو الأسوأ شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الانفجار.

وهذا تقريباً ما حدث بعد استقرار المتطهرين في نيو إنجلاند، إذ استمر السلام أعواماً إلى أن اندلعت حرب البيكوت Pequot سنة 1637، وأعتقد أن الدخول في السبب المباشر لاندلاعها غير مجد، لأنه يغفل الخطيئة الأصلية ويقبل بمنطق العدوان الذي فرضه حضور المستوطن في حياة صاحب الأرض، فربما كان السبب المباشر للحرب ما رآه كاتب في اغتيال زعيم هندي، أو ما رآه غيره في قتل تجار إنجليز، وربما كان القاتل ليس من قبيلة البيكوت، وهناك من يشير إلى طمع الإنجليز بتجارة الأحزمة الصدفية الثمينة التي كان الهنود يستخدمونها نقوداً للتبادل[42]، وكانت قبيلة البيكوت تسيطر على إنتاجها وتجارتها، هذه التفاصيل تدخل في متاهة الرد والرد المقابل، وربما أعطت الحق لمن اعتدى أولاً بأن يفعل ما فعله على قاعدة أن الحروب تختلط فيها الأمور وقد يعاقَب غير الجاني، وتصبح وجهة نظر المعتدي جديرة بالاهتمام، أما عندما نرجع إلى أسس الخطيئة وهي وفود طارئ على هذه الأرض يحلم بتأسيس وجوده على أنقاض أصحابها وعدم ترك أي فسحة لهم للعيش المكافئ كما اتضح من التجارب الأولى، فإننا لا نتيه حينئذ فيمن بدأ شرارة الحرب لأن وضع العدوان يبرر دفاع صاحب الحق عن نفسه ووجوده ضد من سلب حتى الحقوق القديمة التي لم يعد الجاني يذكرها لتقادم العهد ولكن الضحية التي قُذفت في حياة التشرد والبؤس تظل ذاكرتها حية للحظة التي أسس الظلم عليها.

وربط الحوادث بأصولها يجعل من العبث قبول الأحكام الجزئية التي ترى في أية عملية مقاومة إرهاباً لأن المجتمعين المتصارعين ليسا جواراً طبيعياً يحدث فيه من الخلافات ما يحدث بين أي احتكاكات بشرية يمكن أن تتقبل كثيراً من الشرارات التي يُدعى أنها أسباب الحرب هنا دون أن ينشأ عنها حروب في الأحوال الطبيعية، أما عندما يكون الخلاف بين مجتمع ما يزال يتمدد على حساب مجتمع آخر فحينئذ لا يمكن الغرق في أحداث لحظية وجزئية لأن هذه

---

(42) Alvin M. Josephy، 1989، ص48.

الأحداث كثيراً ما تقع بين المجتمعات المتجاورة دون أن تسبب حروباً طاحنة ويتم حلها سلمياً لعدم وجود الرغبة في الشطب والإلغاء، أما عندما تتوافر النوايا العدوانية الجذرية فيمكن لمستصغر الشرر أن يسبب حريقاً هائلاً، وربما شاهدنا في أمريكا نفسها كثيراً من حوادث العنف الفردي أو الجماعي التي يتم وأدها فوراً دون التسبب في مضاعفات كبرى وذلك لعدم وجود الأرضية الملائمة للانفجار خلافاً لما يحدث عند وقوع حوادث أقل أهمية ولكن في بيئة سريعة الاشتعال نتيجة نوايا الإبادة والعدوان على الأرض والثروات والوجود.



أحزمة الوامبوم المكونة من خرز الأصداف الثمينة كان السكان الأصليون في الغابات الشرقية في أمريكا الشمالية يقدسونها ويستخدمونها للاحتفال بالمعاهدات وإحياء المناسبات وتقديم الهدايا كما استخدمها المستعمرون للتبادل التجاري مع الهنود.

ويروى في هذه القصة أنه في سنة 1634 قام تجار هولنديون بقتل زعيم من زعماء قبيلة البيكوت رغم الفدية التي دفعت له، مما دفع الهنود لمهاجمة مركز تجاري هولندي، وبعد هذه الحادثة قُتل تاجر إنجليزي من فيرجينيا بأيدي قبيلة تابعة للبيكوت الذين حاول زعيمهم إصلاح الأمر بالموافقة على تسليم القتلة للمتطهرين الإنجليز، والموافقة أيضاً على بيع أراض لهم في وادي كونكتيكت للاستعمار الاستيطاني فيها، والموافقة على دفع دية من الفراء وغيره، ولما أرسل المتطهرون تاجراً للعمل بين الهنود، وُجد مقتولاً فانصب غضب الإنجليز على البيكوت رغم الشواهد التي ترجح مقتله بأيدي قبائل أخرى، ودخلت الحرب في دوامة العنف والانتقام، حتى أعلنت ماساشوستس وكونكتيكت حرب الإبادة ضد

(43) Wherry، 1993، ص71-72.

(44) نفس المرجع، ص73.

قبيلة البيكوت وانضم للإنجليز في هذه الحرب هنود منافسون للبيكوت منهم قبيلة الناراجانستس وقبيلة أخرى ربما كان لها يد في الأحداث المباشرة التي أشعلت فتيل الحرب بقتل التاجر الإنجليزي الذي أرسله المتطهرون للبيكوت كما سبق ذكره(43).

وفي 26 مايو/ أيار/ ماي 1627 ارتكب الإنجليز مجزرة راح ضحيتها ما بين 300-700 من نساء وأطفال البيكوت وكبار السن فيهم، في الوقت الذي كان فيه معظم الرجال خارج الحضن المهاجَم، ويروي قائد الحملة كيف أشعل رجاله النار في الأكواخ وأحرقوا من فيها، وقاموا بقتل من حاول الخروج من بين النيران، وكيف تكومت الجثث بطريقة يصعب المرور بينها(44)، وقد أقر القائد البيوريتاني وحاكم بلايموث وليام برادفورد بفظاعة الموقف حين قال إنه لمنظر مخيف أن تراهم يقلون في النار(45)، "وفظيعة كانت النتانة والرائحة الكريهة المنبعثة منهم"(46)، ولكن رغم كل هذا "فإن النصر يبدو تضحية حلوة المذاق، ولقد مجدوا (المنتصرون) الرب بها"، وهذا ما برر به قائد الحملة أيضاً فعلته إذ رجع إلى حروب داود حين أذنب الناس بحق الرب، فلم يحترم الأشخاص ووضع السيف فيهم... و"أحياناً يعلن الكتاب المقدس أن النساء والأطفال يجب موتهم مع والديهم، وأحياناً تتبدل الحال، ولكننا لن نتجادل فيها الآن، إننا نملك ضوءاً كافياً من كلمة الله لما فعلنا"(47).



رسم تخيلي لقرية البيكوت التي حاصرها المتطهرون وأحرقوها

(45) Foner، 2005، ص73.

(46) Brandon، 1985، ص173.

(47) Wherry، 1993، ص76.

- Pearce، 1988، ص23، وذلك نقلاً عن كتاب بشارة من نيو إنجلاند الذي صدر سنة 1638 للقائد المذكور.



هجوم المتطهرين على قرية البيكوت 1637 وإحراقها وقتل من حاول النجاة منها.

وقد قال القائد الأعلى في روايته: "لقد كان الرب كما لو كان راضياً ليقول لنا: سأعطيكم أرض كنعان رغم أنكم قلة وغرباء فيها"[48]، ولا يخفى الإيحاء التوراتي في هذه العبارة.

وقعت أحداث هذه المجزرة على نهر اسمه Mystic River وتبعها حادث آخر وقع فيها مجموعة من البيكوت في فخ أحد المستنقعات، وبعد استسلامهم قُتل رجالهم وبيع أولادهم في جزر الهند الغربية عبيداً، ووزعت البنات والنساء إماء على المستعمرات[49]، ووقعت في سبتمبر/ أيلول 1638 معاهدة هارتفورد التي أنهت الحرب رسمياً وعُدت فيها قبيلة البيكوت منتهية ومُنع استعمال اسمها بعد ذلك في المستعمرات[50]، ورغم دور الدين في تبرير الحرب ونتائجها، حتى قيل إنها محت اسم البيكوت تحت السماء كما محي اسم عماليق أعداء بني إسرائيل القدماء[51]، فإنها انعكست سلباً حتى على الإعلان الأجوف الذي أطلق في السابق لهداية الهنود كما بهت الاهتمام بتحضير الهندي بعد ثورة البوهاتان في فرجينيا من قبل، إذ أقنع المتطهرون أنفسهم، ودون شك هناك نص ديني يدعم قولهم، إن هداية الوثنيين لن تتم قبل هداية اليهود وقتل المسيح الدجال[52]،

(48) Drinnon، 1997، ص42.

(49) Brandon، 1985، ص173.

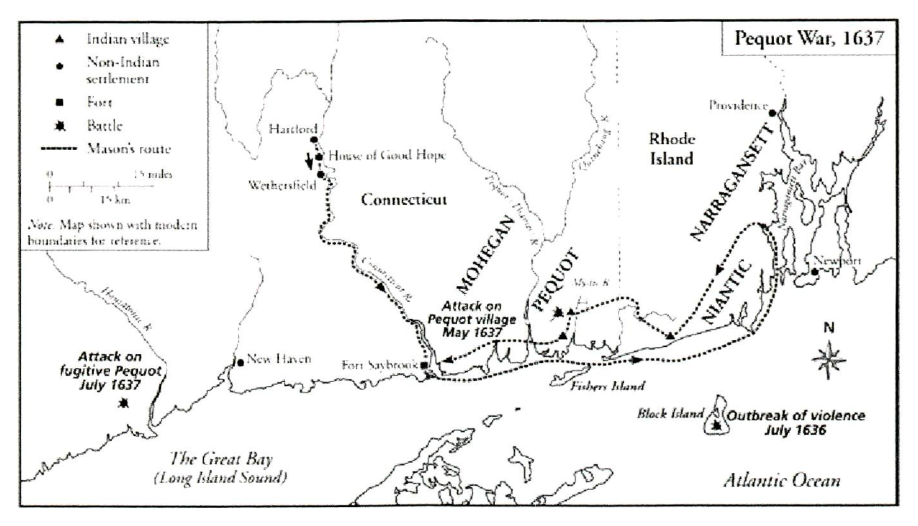
(50) Foner، 2005، ص73.

- Wherry، 1993، ص76.

(51) Wherry، 1993، ص76.

(52) Pearce، 1988، ص28.

وهي أحداث مرتبطة بالمجيء الثاني للمسيح ونهاية العالم، وكان هذا كشفاً لحقيقة الاستعمار الاستيطاني وارتباطه بمصالح ذاتية لا علاقة لها بهداية دينية أو حضارية، فالأرض هي الثابت الوحيد في هذه العلاقة وكل الإمكانات مسخرة لتسهيل الحصول عليها، وكان من نتائج حرب البيكوت كذلك أن المستعمرات أدركت أهمية اتحادها فدخلت في سنة 1639 في مفاوضات انتهت سنة 1643 بتكوين اتحاد مستعمرات نيو إنجلاند، وهو الاتحاد الإنجليزي الأول في أمريكا[53]، وهكذا كان المستعمِرون يتحدون وفي نفس الوقت يعملون على التفرقة بين المستعمَرين، وهي صورة سنجدها تتكرر في تاريخ الشرق العربي الإسلامي بوضوح.



المواقع الرئيسة في حرب البيكوت في نيو إنجلاند[54]

ويمكننا عند الحديث عن حرب البيكوت والذرائع التي قدمت لشنها أن نتساءل بعيداً عن محاولات التبرئة التي قدمها كثير من الكتاب للهنود بأنهم لم يهاجموا المستعمرات الاستيطانية أو أن هنوداً غير البيكوت هم الذين قتلوا التجار محل النزاع أو بالقول إن الخلاف حول القتلى انتهى قبل شن الحرب، أو

(53) Brandon، 1985، ص173.

(54) http://mavery.edublogs.org/october-newsletter/

إثبات أن التاجرين المقتولين كانا من الباحثين عن المتاعب والمشاغبين ومن ثم يستحقان ما جرى عليهما، أو غير ذلك من الدفاعات التي لا جدوى منها وتدخل في دوامة التحقيقات والاتهامات المتبادلة التي تجعل من العدوان في النهاية وجهة نظر قد لا تكون صحيحة ولكنها مقبولة، إن سؤالي هو: هل كان قتل تاجر أو تاجرين سيؤدي إلى هذه الحرب الشاملة لو لم يكن هناك توجه إنجليزي من البداية نحو الاستيلاء على أرض الهنود؟ إن حقائق التاريخ وحوادث الأيام تخبرنا بأن الطرف الأوروبي كثيراً ما تغاضى، منذ أيام كولمبس، عن حوادث مشابهة وأكبر مما سبق عندما لا يكون مستعداً لشن الحرب، أما عند الاستعداد فإن شرارة واحدة يمكنها تفجير الموقف تماماً كما حدث في عصرنا الحاضر عندما اتخذ اجتياح الكويت مبرراً لشن حرب تدمير شامل على العراق حتى بعد خروج الجيش العراقي من الكويت وذلك لأن توجه الولايات المتحدة كان نحو تدمير التجربة العراقية المستقلة الموازنة للقوة الصهيونية في المنطقة، ولهذا لم تكن كل المبادرات السلمية كافية لكبح الجماح الأمريكي ولم يكن إخراج العراق من الكويت كافياً لوقف العدوان قبل تحطيم التجربة بالكامل في عملية الاحتلال سنة 2003، كما اتخذ بعد ذلك من أسر جنديين صهيونيين ذريعة لشن عدوان شامل على لبنان سنة 2006، وهو حادث لم يبرر هذا الرد الضخم لو لم يكن هناك توجه صهيوني عام لاتخاذ أية ذريعة لشن حرب شاملة ضد المقاومة في لبنان.

وبالعودة إلى الوراء قليلاً نرى الحجة الواهية في غزو لبنان سنة 1982، حين تعرض السفير الصهيوني في بريطانيا لمحاولة اغتيال لم تكن لتؤدي إلى هذا الدمار الشامل لو لم يكن هناك توجه عند القيادة الصهيونية للغزو ولم يعد من المفيد أن لا تكون منظمة التحرير الفلسطينية هي المسئولة عن محاولة الاغتيال وأن يكون أحد أعدائها هو المنفذ الحقيقي بشهادة رئيسة الوزراء البريطانية نفسها أمام مجلس العموم[55]، إذ أن غزو لبنان كان وراءه مخطط قديم تتعلق بضعف الحلقة اللبنانية في التحالف العربي ووجوب دعم قيام دولة مسيحية تكون حدودها على نهر الليطاني، وقد تحدث قادة الصهاينة منذ الخمسينيات عن نفس تسلسل

(55) جارودي، 1986، ص535.

الأحداث الذي حدثت بإيجاد جيش لبنان الجنوبي بعد ثلاثين عاماً[56]، كما انضمت أهداف حديثة لهذه المخططات القديمة ودعمت التوجه نحو غزو لبنان الذي كان الكيان الصهيوني يخطط للهجوم عليه "منذ زمن طويل"، وهذه الأهداف هي التخلص من تهديد منظمة التحرير وإبعاد شبح منافستها الدولة الصهيونية على السيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة[57]، وإطلاق يد الكيان الصهيوني في السيطرة على الأراضي المحتلة عام 1967[58]، "فالهدف الرئيس لإسرائيل في لبنان قد كشف عنه من خلال بياناتها. فعلى سبيل المثال، فقد أشار رئيس وزرائها بأن إسرائيل تواجه أو كانت تواجه خطراً حقيقياً في لبنان قبل عام 1982. ومن ثم مضى يفسر ذلك على أنه لم يكن خطراً عسكرياً ولكنه خطر سياسي، ذلك أن منظمة التحرير كانت تلتزم تماماً بوقف إطلاق النار، وكانت تزيد من محاولاتها لوضع الأسس من أجل إيجاد تسوية سياسية للمشكلة الفلسطينية، وكان ذلك يشكل خطراً، لأنه إذا ما كان هنالك حل أو تسوية سياسية، وأن يعترف بالفلسطينيين كشركاء في القضية، فإن إسرائيل عندئذ لن تكون قادرة على الإبقاء على سيطرتها على الأراضي المحتلة، وأن عليها أن تنخرط في تسوية سياسية سلمية، وهو الأمر الذي لا تريده... فالهجوم على الفلسطينيين، الذي قصد منه تدمير المجتمع الفلسطيني المنظم، كان هذا هو الهدف من حرب لبنان أو عملية "سلامة الجليل"، وقد نجح، فقد دمر المجتمع الفلسطيني المنظم، وهمشت منظمة التحرير الفلسطينية، وقلص خطر التسوية السياسية" كما يقول المفكر نعوم شومسكي[59].

ويمكننا أن نرجع بالزمن لأكثر من هذا ليتبين لنا أن الحجج الواهية كانت حاضرة أيضاً في احتلال الجزائر (1830) التي اتخذت فرنسا من الادعاء بقيام حاكمها الداي حسين باشا بضرب السفير الفرنسي بمروحته سبباً للهجوم عليها واحتلالها لمدة زادت عن 130 عاماً ظل الشعب الجزائري فيها يعاني من شتى

---

(56) نفس المرجع، ص537 و547.

(57) أورين، 2008، ص537.

(58) روجان، 2011، ص573.

(59) تشومسكي، 1997، ص47.

صنوف الإبادة والاضطهاد، ونتساءل أمام هذا الحدث الكبير: هل كان يمكن لحادث عرضي كوكز حاكم لسفير أساء الأدب أن يجر لحرب شاملة واحتلال طويل أفضى في النهاية لقتل مليون ونصف المليون شهيد لو لم يكن خلف هذا الحدث نية مبيتة وتوجه عام نحو العدوان واستعداد كبير له وتمسك شديد به حتى النفس الأخير لأسباب تتعلق بمصالح عليا ولا علاقة لها بالكرامة الفرنسية المهدورة على حواف ريش المذبة؟

ويمكننا أن نبحث عن الأسباب الحقيقية لتلك الحروب في النتائج التي صنعها الطرف القوي المعتدي بعد انتصاره فيها، وسنجد في حرب البيكوت ما روته موسوعة الغرب الأمريكي الجديدة قائلة: "نتج (عن الحرب) فتح كثير من جنوب نيو إنجلاند للاستيطان الأبيض"[60]، وعن السبب الذي أدى إلى ثورة البوهاتان في فرجينيا من قبل (1622)، تقول الموسوعة ذاتها: "ما إن أدرك الإنجليز بتوجيه من رولف (الذي أدخل زراعة التبغ من جزر الهند الغربية[61] إلى جيمس تاون) الفائدة التي يمكن تحقيقها من زراعة التبغ في أرض الهنود، لم يعودوا بحاجة إلى دعم هؤلاء واتبعوا سياسة الإقصاء والإبادة، إذ لم يعد الإنجليز يرغبون في حضور الهنود، سواء كانوا ودودين أو غير ذلك"[62]، وهذا ما يفسر التوسع في زراعة التبغ بعد هزيمة الهنود، وفورة الأرباح التي تحققت بالملايين من هذا المحصول[63]، وكان إدراك الهنود أن هؤلاء المهاجرين ليسوا مجرد تجار بل مزاحمين على الأرض هو الذي دفعهم للثورة[64]، لاسيما بعدما خُدعوا للتخلي عن أجزاء واسعة منها لصالح الطامعين بزراعة التبغ مما أدى إلى تدمير الحياة الاقتصادية للسكان الأصليين[65]، وكل ذلك يؤكد ضرورة العودة دائماً إلى جذور المشاكل وليس الاقتصار على لحظة مبتورة من الحدث وتركز على غضب المظلوم وحده فتعطي انطباعاً بكونه إرهاباً دون سبب مبرر له، وأن

(60) Lamar، 1998، ص852.

(61) Foner، 2005، ص53.

(62) Lamar، 1998، ص908.

(63) Foner، 2005، ص54.

(64) نفس المرجع، ص52.

(65) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص272.

موقف الضحية، سواء المسالمة أو المقاومة، ليس هو الذي يحدد عدوان المستعمر بل رغباته وأطماعه، فإذا كان له برنامج للاستيلاء على أرض لا تردعه المسالمة ولا تحفزه المقاومة لأنه يسعى لتحقيق الربح بعيداً عن ردود أفعال أصحاب الحقوق، وهذا ما يؤكد عبثية الندم على رفض الفلسطينيين مشروع تقسيم بلادهم سنة 1947 بحجة الظن أن القبول به كان سيبقي شيئاً لأصحاب الأرض في الوقت الذي يصرح فيه قادة العدوان الصهيوني أن قبولهم بقرار التقسيم كان له هدف محدد هو منحهم شرعية الوجود دون نيتهم الالتزام بحدوده.

وبالعودة إلى حرب البيكوت نجد أن الإنجليز قاموا باللعب على وتر الخلافات القبلية بين السكان الأصليين، كما فعل كولمبس من قبلهم، فاصطنعوا العملاء كما اصطنعهم كولمبس وكما فعل مستعمرو فرجينيا، أما عن هذه الخلافات فقد رأينا قبيلة الناراجانست تؤيد الإنجليز وتقف إلى جانبهم ضد البيكوت، وسنرى مصيرها فيما بعد في حرب الملك فيليب سنة 1675، بل إننا لسنا في حاجة إلى انتظار هذه الحرب بعد أربعين عاماً لنرى جزاء تلك القبيلة، إذ بعد انتهاء حرب البيكوت انبرى الإنجليز لممارسة السياسة الاستعمارية التقليدية وهي فرق تسد، وذلك ببذر الخلافات بين السكان الأصليين إبعاداً لشبح اتحادهم ضد المستعمرات الاستيطانية[66]، وفي ذلك دليل على حقيقة النوايا الإنجليزية تجاه الهنود وعدهم أعداء حتى الحلفاء منهم، وذلك لأن نظرة الإنجليز إلى علاقاتهم بالهنود لا تقوم على أساس تكافؤ وتبادل بين طرفين متساويين بل على أساس الطمع فيما عند الطرف الآخر من أراض وثروات ما يجعله محلاً للاستغلال المناسب وفق الحالة أو للطرد والإبادة، وهذا الطمع ظل مستمراً مما جعل الهندي دائماً وبصورة لم تتوقف إما عدواً قائماً وإما عدواً محتملاً ولا مجال للاطمئنان إليه حتى أثناء التحالف معه مؤقتاً ضد هندي آخر أكثر قوة وخطراً حاضراً.

وقد تنبهت قبيلة الناراجانست إلى هذه الحقيقة وحاول زعيمها توحيد جهوده مع غيره من القبائل في سنة 1642 بعدما لمس عداء الإنجليز وتطاولهم

---

(66) Crompton، 1999، ص66.

على حقوق قومه باستمرار، ولكنه قُتل على يد زعيم آخر عميل أمره سادته الإنجليز بذلك، وكانوا قد أعاروا زعيم الناراجانست درعاً ثقيلاً، في الظاهر لحمايته، ولكنه أصبح عبئاً عليه ومنعه من الحركة مما أدى إلى أسره وقتله بأمرهم كما مر، ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي يؤدي فيها الاعتماد على أسلحة الأوروبيين ذات السمعة المتطورة إلى الهزيمة، وقد أدت الأحداث السابقة إلى تضاؤل قوة الناراجانست بعد الخدمات الكبرى التي قدموها للإنجليز مما جعل الهنود يغيرون دفة سياستهم في حرب الملك فيليب كما سيأتي[67].



أسر زعيم الناراجانست على يد أنكاس زعيم الموهيكان الذي قتله بأمر الإنجليز (1643) بعدما حاكمه هؤلاء وأصدروا ضده حكماً بالإعدام وسلموه لعدوه العميل الذي قتله ثم مثّل بجثته وأكل من لحم كتفه[68]، وهي حوادث تذكر بسلوك الأمريكيين عندما اجتاحوا العراق سنة 2003، وهو ما يؤكد استعداد "المتحضرين" للإفادة من همجية المتخلفين حين تصب في صالحهم

وهذا الغدر بحلفاء الأمس الذين استُخدموا لتفريق جبهة المقاومة ضد الوجود الاستعماري، سمة مميزة للسياسات الأمريكية سواء فيما بعد ذلك في

(67) نفس المرجع، ص67.

(68) Alvin M. Josephy، 1989، ص70.

تاريخ أمريكا أو في بلادنا الشرقية وبقية بلاد العالم التي طالما تخلى فيها الأمريكيون عن الحلفاء والعملاء الذين روجوا ودعموا السياسات الغربية في بلادهم، وإذا كان البعض لا يلوم الولايات المتحدة على اتباع سياسة الحفاظ على مصالحها أينما وجدت بغض النظر عن أية قيمة أخرى، ويرون في ذلك سياسة ناجحة تستفرد بالأعداء واحداً تلو الآخر، فإن من حقنا أن نلوم الجانب الضعيف وهي دولنا التي سمحت للأجنبي بعد كل التجارب المريرة بالنفاذ فيما بينها وعدم سعيها للاستقواء ببعضها البعض وصناعة تكتل يجمعها ويحافظ على حضورها الدولي ومصالح سكانها وعدم استجابتها إلا لكلام الأجنبي الذي يغذي الخلافات فيما بينها متى شاء اتباعاً للسياسة الاستعمارية التي يتعلمها الصغار في مدارسهم وهي فرق تسد.

أما عملاء الإنجليز من الهنود فقد تلخص دورهم في شخص الزعيم أنكاس Uncas زعيم الموهيكان الذي قاتل إلى جانب سادته ضد خصمه زعيم البيكوت وكافأه هؤلاء الأسياد بوضع بقايا قبيلة البيكوت تحت سلطته ولكن شدة الانتقام جعلت الإنجليز يرأفون بهم ويستعيدونهم من تحت سلطته[69]، وكان يتبرع أيضاً بنشر الإشاعات عن جيرانه الهنود حتى طالبه الإنجليز بالكف عن ذلك أيضاً[70]، ولكنه استمر في تزويدهم بالمعلومات حتى نال رضاهم، وربما كان أكثر زعماء الهنود بيعاً للأراضي الهندية التي لا تخصه للإنجليز في زمنه، فكان يبيع أو حتى يهب أراضي قومه لسادته وهو سكران، ويعلن باستمرار حبه للإنجليز، وذلك كما يتبرع الساسة في عصرنا بأرض فلسطين للصهاينة ويتنازلون عن حق اللاجئين بالعودة إلى ديارهم، وسيكون لأنكاس دور في حرب الملك فيليب الآتية، وقد توفي (1683) سكيراً بديناً موصوماً بالخيانة عند القبائل التي ساهم في تدميرها بل ومكروهاً عند كثير من أفراد قبيلته، ولكنه في نفس الوقت "مبجل عند البيض بصفته صديقهم وحليفهم الكبير"[71]، ومن أبرز مظاهر تبجيله في تاريخ الرجل الأبيض بأمريكا أن أطلق الأديب الأمريكي جيمس فينيمور كوبر اسمه على بطل

---

(69) Brandon، 1985، ص173.

(70) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص401.

(71) Alvin M. Josephy، 1989، ص72.

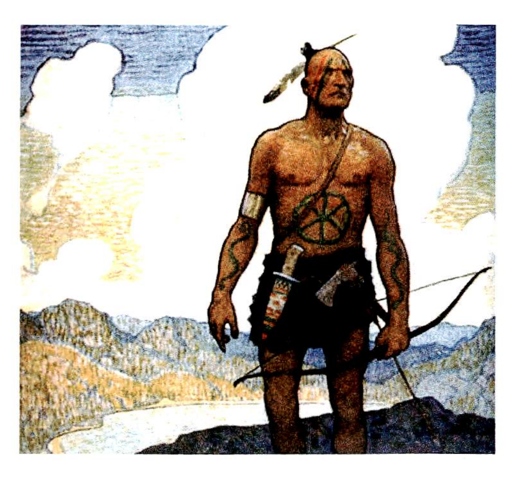
روايته آخر الموهيكان (1826)، مع تناقض أسطورته مع الحقيقة[72]، وهذا السكير الخائن يوضح لنا النموذج التغريبي الذي يفضله المحتلون والمستعمِرون دائماً في تعاملهم مع السكان الأصليين حيث يحلون، وكيف أنه نموذج بعيد عن التحضر الذي يدعي المستعمِر أنه جاء لنشره بين المتخلفين، كما يؤكد أن الاستسلام المطلق لأطماعه في ثروات السكان الأصليين هو المطلوب وليس القيام بأي جهد تمديني بينهم، وهو ما يؤكد التعارض الموضوعي بين الشعبين وأن المشكلة ليست بين البيض وزعماء هنود محرضين كما حلا لأنصار الاستعمار أن يصوروا القضية حيث حلوا إلى يومنا هذا، بل بين عموم الشعبين اللذين تتضارب مصالحهما وتجعل من الصراع بينهما صراع وجود على نفس الأرض وليس صراعاً على الحدود بينهما عليها.

كما أن هذا النموذج يذكرنا بنماذج المتعاونين مع المحتلين في عصرنا ممن يزايدون على العدوان الاستعماري على أمتنا فيقدمون خدمات أكثر مما يطلبه المستعمر أو حتى يتوقعه فتجدهم يحرضونه على تحقيق مصالحه باندفاع أكثر من اندفاعه، كما حدث في التحريض العربي لأمريكا والصهيونية للهجوم على العراق ولبنان وسوريا وفلسطين، مما يجعل المستعمر يطلب أحياناً إلى هؤلاء العملاء المتحمسين التريث قليلاً من أجل الشكليات البروتوكولية لعمليات العدوان، أو لحسابات خاصة بتوازن مصالحه، أو حتى أن يكونوا أكثر تمسكاً بحقوقهم بدلاً من التنازلات المستمرة التي يقدمون عليها: "ومن المفارقة أن مسئولين أمريكيين داخل الإدارة وخارجها طالبوا السلطة الفلسطينية وبعض المسئولين العرب بالتشدد في مواقفهم تجاه إسرائيل لمساعدة (الرئيس الأمريكي) أوباما في الضغط عليها"[73].

(72) نفس المرجع، ص72.

- Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص401.

(73) صحيفة القدس العربي الصادرة يوم 12/ 7/ 2010.



شخصية أنكاس التي خلدها الأديب الأمريكي كوبر في روايته آخر الموهيكان التي تجري أحداثها في أثناء حرب السنوات السبع (1756-1763) بين بريطانيا وفرنسا والتي سمي فصلها الذي جرى في الساحة الأمريكية الحرب الفرنسية والهندية، وقد صورت الرواية الزعيم أنكاس بصورة عاطفية بعيدة عن الواقع

وقد اتضح في حرب البيكوت حقيقة محاها "الاستئصال" في القرون التالية حين صور الهندي متعطشاً للدماء مزهقاً للأرواح، فقد استنكر حلفاء الإنجليز من الهنود في تلك الحرب مدى الدمار الذي أحدثه أولئك المتطهرون وصدموا به وصاحوا : "إنه دمار، إنه دمار"، وذلك بسبب كثرة الضحايا كما وصف الحال أحد قادة المجزرة عند نهر الميستيك، وصرح هذا القائد واسمه جون أندرهيل باحتقاره أسلوب الهنود في المعارك وأنه أشبه بعرض التسلية وليس حرباً لهزيمة الأعداء وإخضاعهم، وأن الهنود ربما قاتلوا لسبع سنين دون قتل سبعة رجال، وقال قائد المجزرة الأعلى جون ماسون إن أسلوب القتال الهندي ضعيف ولا يستحق اسم القتال[74]، وقد غطى "الاستئصال" الاستشراقي على هذه الحقيقة التي تشمل معظم هنود أمريكا الشمالية الذين كان قتالهم يوصف بالاستعراضية أكثر من الدموية، فصور الاستئصال الهندي بصورة مغايرة، لتبرير إبادته واستئصاله وذلك كعادة الغرب دائماً أمام أي عدو محتمل فيعمد إلى شيطنته بكل الوسائل لتبرير ما سيفعله "المتحضرون" لإزالة "خطره"، وبعد انقشاع غبار المعركة وزوال خطر المقاومة تبدأ حملة التدقيق والتمحيص والدراسة العلمية لتكشف الحقيقة وكذب كل الادعاءات التي قام الكيان الاستعماري الاستيطاني على أساسها وأنه لا أساس لكل التهم التي ألصقت

---

(74) Drinnon، 1997، ص43.
- Foner، 2005، 73.

بالعدو-الضحية، ويبرع المحللون والأكاديميون في توثيق ذلك، ولكن بعد فوات الأوان، وهذا ما حدث مع تهمة التوحش والدموية التي ألصقت بالسكان الأصليين، إذ تذخر المراجع الحديثة بتفصيل حقيقة موقفهم من الحروب وكيف أن معاركهم لم تكن دموية كدموية الرجل الأبيض وأنه هو الذي نقل للهندي دمويته، ويشير مؤرخ معاصر إلى أن حرب البيكوت كانت لحظة حاسمة في التاريخ الأمريكي لأنها جعلت الحرب تشمل غير المحاربين من النساء والأطفال بعدما كانت الحروب القبلية قبلها تقتصر على المقاتلين من الرجال، وكان الإنجليز هم المسئولين عن هذه النقلة ومع ذلك ألقوا باللوم على السكان الأصليين[75]، وكان إسقاط العيوب الذاتية على الضحايا من أهم سمات "الاستئصال" الأوروبي والأمريكي كما سيأتي في الباب الثالث عن الحديث عن العبر والخلاصات.

وقد كان للإنسانية الليبرالية دور في هذه الحرب تمثل فيما قام به رجل يوضع في صف الرئيسين توماس جيفرسون وأبراهام لنكولن في التاريخ الأمريكي[76]، ويوصف بأنه بطل الحرية[77]، الذي أسس واحدة من المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية ودافع عن الحرية الدينية وفصل السلطات[78]، واسمه روجر وليامز وكان أيضاً من المدافعين عن حق السكان الأصليين في أرضهم ومن المنادين بضرورة شراء الأرض من أصحابها إذا أريد للتملك أن يكون شرعياً[79]، وتوصف آراؤه بأنها كانت سابقة لعصرها[80] لاسيما وأنه تعرض للطرد في سبيلها من مساشوستس على أيدي المتطهرين المتعصبين، فلجأ إلى هنود الناراجانست وقام بتأسيس مستعمرة بروفيدانس نواة ولاية رود آيلاند في سنة 1638[81]، وذلك على أرض حصل عليها من هؤلاء

---

(75) Alvin M. Josephy، 1989، ص60.

(76) Sternstein، 1995، ص1230.

(77) http://www.iangoddard.com/roger.htm

(78) http://kids.britannica.com/elementary/art-174092/Roger-Williams

(79) Foner، 2005، ص72.

(80) Ahlstrom، 1972، ص157.

(81) النيرب، 1997، ج1، ص38.

الهنود، ولكن عندما قامت حرب البيكوت وقف إلى جانب قومه "ضد البرابرة"[82]، بل إنه أقنع الناراجانست بمساندة الإنجليز[83]، وقام بإفشال محاولة هندية لتكوين تحالف بين الناراجانست والبيكوت الذين حاولوا إقناع منافسيهم وأعدائهم القدامى أن الإنجليز عندما يهزمون البيكوت ويقضون عليهم سيشنون الحرب على الناراجانست أنفسهم[84] وفق القاعدة الاستعمارية المشهورة فرق تسد، وبالفعل أصغى هنود النارجانست إلى نصيحة وليامز[85] ولم يأبهوا بنداء الوحدة الهندية، وقدموا للإنجليز مساعدة وصفت بالحاسمة في تلك الحرب[86] إذ وصل عدد محاربيهم إلى ألف مقابل 240 مقاتل من المستوطنين وسبعين محارب فقط من قبيلة الموهيكان[87]، ولكن رسول المحبة الإنجليزية لم يستطع فعل شيء لوقف نهم المستعمرين الاستيطانيين وتمددهم في أرض الهنود مما أشعل حرباً جديدة اشتهرت في التاريخ الأمريكي بحرب الملك فيليب 1675-1676.

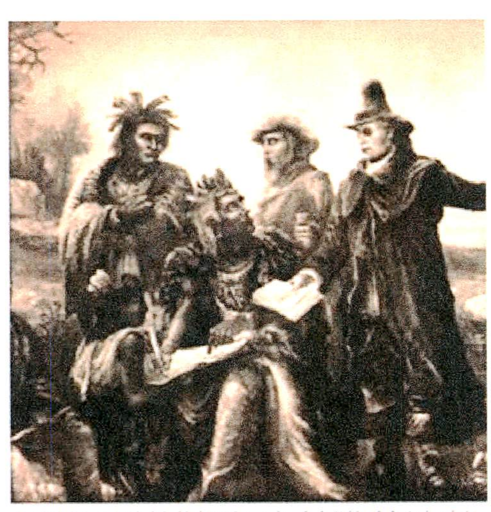


روجر وليامز (1603-1683) من أعلام التاريخ الأمريكي وقد صبت إنسانيته في صالح الاستعمار الاستيطاني

(82) Drinnon، 1997، ص53.
(83) Brandon، 1985، ص172.
(84) Alvin M. Josephy، 1989، ص59-60.
(85) Drinnon، 1997، ص41.
(86) Brandon، 1985، ص172.
(87) نفس المرجع، ص172.



هنود الناراجانست يستقبلون اللاجئ روجر وليامز ثم سيندمون فيما بعد على هذه اللحظة حين يقف وليامز إلى جانب عدوان قومه عليهم



روجر وليامز يتلقى أرض رود آيلاند من هنود الناراجانست

وتذكرنا "النصائح" الإنجليزية للناراجانست بنصائح كثيرة قدمها الإنجليز والأمريكيون في بلادنا لدق الأسافين بين أبناء الأمة الواحدة وحملهم على شن الحروب ضد بعضهم البعض مستخدمين في ذلك نفس الأدوات وهم الأشخاص والمنظمات الإنسانية التي تقف ضد أعمال العنف التي يمارسها الضعفاء ولا تملك من أمرها شيئاً إزاء العنف المنظم الذي يمارسه المستعمرون الأقوياء فتكون نتيجة جهودها غالباً هي تسوية الطريق أمام المصالح الاستعمارية الكبرى بعد نجاحها في القضاء على مقاومة الضعفاء مستخدمة الدعاية الإعلامية السلبية والعرجاء التي يقوم بها الإنسانيون.

وكما في بقية حروب المقاومة الهندية، من العبث أن نبحث عن مسبب لها من بين الأحداث المباشرة السابقة لها، لأن الظلم عندما يتراكم يصبح بحاجة إلى إشعال فتيل صغير فقط لينفجر مع أن هذا الفتيل لا يؤدي بحد ذاته في الأحوال العادية إلى إشعال حروب كبرى، ولكن تراكم الظلم هو الذي يفجر الطاقات الكامنة لرفعه، ويتضح هذا الأمر في حرب الملك فيليب في قائمة المظالم التي عرضها الزعيم الهندي ميتاكوم، الذي قاد هذه الحرب ولقبه المستعمرون بالملك فيليب، على الحاكم السابق لرود آيلاند جون إيستون المنتمي إلى طائفة الكويكرز والذي حاول التوسط بين الهنود والإنجليز، فقد عرض عليه ميتاكوم سلسلة طويلة من الإساءات الإنجليزية التي قابلت الإحسان الذي منحه قومه للإنجليز منذ أيام والده، فذكر له إن ذلك الزعيم منع قومه من الإساءة إلى الإنجليز وأعطاهم الذرة وعلمهم كيف يزرعون، كما منحهم من الأرض أكثر مما يملكه قومه الآن مائة مرة، وذكر له إن إساءة الهندي للإنجليزي تُقبل بشهادة واحد من العملاء ضد الزعيم نفسه في حين لا تُقبل شهادة عشرين هندياً ضد إساءة إنجليزي، وكان الإنجليز يغشون زعماء الهنود في عملية شراء الأراضي، ويتركون مواشيهم تفسد مزارع الهنود[88].

---

(88) Tougias، 1999، ص29.



ميتاكوم (1639–1676) زعيم قبائل الوامبانواج، لقب بالملك فيليب، وشن على المستوطنين الإنجليز واحدة من أعنف الحروب الهندية وسميت بالحرب الهندية العظمى[89] أو حرب الملك فيليب، وهذه صورة كاريكاتيرية لهذا الزعيم كما رسمها فنان أمريكي سنة 1722

لقد كان انتهاك الحقوق والتمدد على الأرض هو السبب الحقيقي وراء كل حروب الهنود، وهذا الانتهاك والتمدد كان جارياً على قدم وساق باستمرار دون توقف، وكان من الطبيعي أن يثير المقاومة ضده عند أصحاب البلاد الأصليين، بل إن العجيب أن يستمر هذا الوضع دون معارضة، ولهذا فمن العبث أن تُتهم المقاومة بإشعال حرب لأنها تدافع عن أصحابها، وذلك حتى لو كان التمدد على حساب حقوقهم يتم تدريجياً وسلمياً، إذ أنه سيؤدي في النهاية إلى اقتلاع وجود أصحاب الحق ولهذا فإنهم لابد واصلون إلى نقطة ينفجر عندها سخطهم فيقاومون ذلك القهر دفاعاً عن أنفسهم وحياتهم ووجودهم ومستقبل أبنائهم الذين سيُستأصلون إذا استمر الانتهاك في مجراه، وسيتم هذا الاستئصال وإن بصورة تدريجية فلا يكون من خيار أمام صاحب الحق في هذه الحالة إلا رفض هذا الواقع واللجوء إلى تغيير هذه المعادلة السائدة بالمقاومة التي يرى فيها حماية من الاقتلاع الجاري على قدم وساق، لاسيما عندما يكون المعتدي هو الطرف الأقوى الذي يملك السلاح الذي يتمكن بسيطرته من فرض قانونه ومن ثم فرض وجوده على الأرض مما يتسبب في الإزاحة التدريجية لصاحب الحق فلا يكون

(89) http://en.wikipedia.org/wiki/File:KingPhilip_1827_BenjaminChurch_SamuelDrake04264001.jpg

هناك داع عند المعتدي لاستخدام القوة مادامت السيطرة بيده ويستخدم أدواتها "القانونية" في تغيير الوقائع على الأرض.

وقد شاهدنا مثلاً واضحاً لذلك في عصرنا فيما يتعلق بملف الاستيطان في القضية الفلسطينية حيث يعمد الاحتلال الصهيوني إلى فرض وقائعه، وتحت نظر قوانينه وتشريعاته، على أراضي الضفة الغربية دونما حاجة إلى اللجوء إلى الحروب، ولكن هذا الزحف المستمر لو ظل قائماً فإنه يهدد وجود أصحاب الأرض ومستقبل أبنائهم، ولما كان قانون المحتل ليس في صفهم لا يتبقى لهم من ملجأ إلا المقاومة بأشكالها، وهو ما يحاول الاحتلال التشنيع به عليهم بأنهم يلجئون إلى العنف ويخفي عن الإعلام حقيقة زحفه وتمدده على حقوقهم في إجراءات أحادية تتم "سلمياً" بدعم من سلاحه المهيمن مما يهدد وجود السكان الأصليين الذين تُرفض جميع الإجراءات الأحادية التي قد يتخذونها لحماية حقوقهم كإعلان دولتهم المستقلة مما يجعل ميزان الإجراءات الأحادية مائلاً لصالح الجانب الصهيوني المسيطر فيُحدث ما شاء له من تغييرات على الأرض ويكرس وجوده في ظلها ويمنع صاحب الحق من مجرد الدفاع عن النفس ويشهر في وجهه سلاحاً "قانونيا" وآخر إعلامياً لا يملك الضحية مثلهما فتكون النتيجة إزاحته في ظل "القانون".

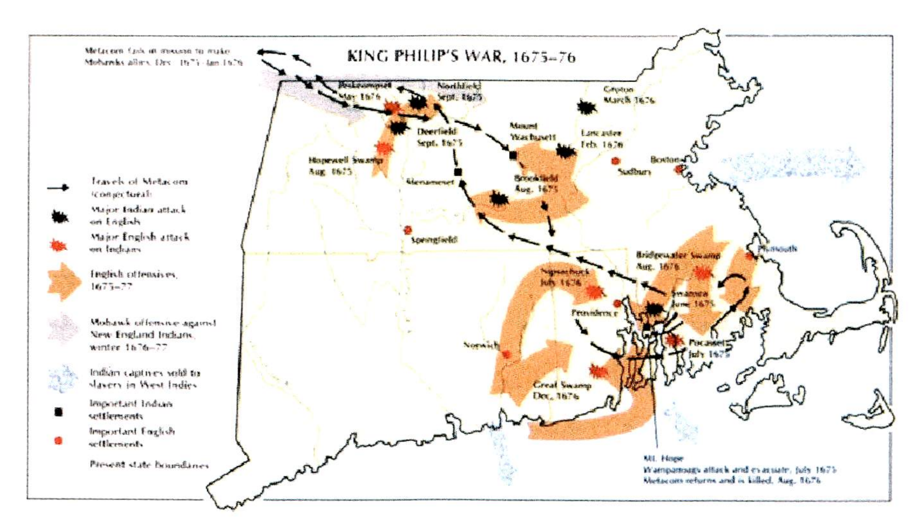
ولو عدنا إلى تاريخ القضية أبعد من زمن الاحتلال الصهيوني لوجدنا أن الثورات الفلسطينية المتتابعة ضد إجراءات الانتداب البريطاني كانت تحدث في ظروف مشابهة حين يقوم المحتل بفرض وقائع وعد بلفور على الأرض تحت غطاء سيطرته "القانونية" المدعومة بالقوة المسلحة مما يهدد أصحاب البلاد الأصليين الذين يرون في استمرار هذه الإجراءات تهديداً لمستقبلهم ولا يكون أمامهم من حل إلا اللجوء إلى القوة لوقف هذا النزيف من حقوقهم، وهذا ما عبر عنه الملك عبد الله بن الحسين في رسالته عن ثورة 1936 للجنرال آرثر واكهوب وهو المندوب السامي البريطاني في شرق الأردن: "إني على اتفاق مطلق معكم بأن أعمال القتل والعنف ممقوتة... ولولا أنهم تحت تأثير الخطر اليهودي الذي يتفاقم كل يوم بتدفق الهجرة اليهودية وخطب اليهود النارية وتصريحاتهم المثيرة، من غير أن تقابل من أي جانب آخر ولو بتطمين بسيط، لكانوا أهدأ بالاً

وأقرب منالاً. ولذلك فالعرب يعتقدون أنهم يدافعون عن كيانهم المهدد بالزوال يوماً بعد يوم، فوق أنهم يريدون أن يعلنوا بما فعلوا -وإن كانوا ربما قد أخطئوا الطريق (!!)-بأنه لم يبق في أيديهم من وسيلة غير ما هم مكبون عليه... "[90].

لقد أحاطت المستعمرات الإنجليزية الاستيطانية بأراضي الهنود في نيو إنجلاند من جميع الجهات، فلم يتبق لهم من الأرض إلا مقدار مازال ينكمش مع مرور الزمن حتى قال الزعيم ميتاكوم إنه لم يبق من أرض أسلافه إلا القليل وإنه مصمم ألا يرى اليوم الذي لا يبقى فيه أي أرض[91]، وكان ضياع الأرض والطرق المخادعة التي ضاعت بها، من حوافز السكان الأصليين على مقاومة هذا العدوان الكاسح، المسلح برؤية ترضي أصحابه عن "أحقيتهم" في هذه الأرض في كل الأحوال لأن الرب إله آبائهم قد منحهم إياها[92]، ولم تكن الأساليب المخادعة عائقاً في نظرهم أمام تملكهم، فكيف يكون الحال وقد "دفعوا ثمنها"؟

اشتعلت ثورة الهنود على المستعمرين الإنجليز في نيو إنجلاند والذين وصل عددهم إلى أكثر من خمسين ألف مستعمر في ما يقارب تسعين مستعمرة استيطانية، وذلك في مقابل عشرين ألف هندي فقط، وأعلن الزعيم ميتاكوم الحرب على الإنجليز في سنة 1675 وهاجم 52 مستعمرة واستطاع تدمير 12 منها تدميراً شاملاً، وقتل أثناء هذه الثورة ما يقارب ألف مستعمر إنجليزي وثلاثة آلاف من السكان الأصليين، وتمكن الثوار في أثناء ذلك من إعادة خط الاستعمار الاستيطاني نحو الشرق حتى وصل إلى الساحل، ولكن في وسط عام 1676 انقلب الميزان وتمكن الإنجليز بمساعدة عملائهم الهنود من تحطيم الثورة وقتل زعيمها وبيع المئات من الناجين، بمن فيهم زوجته وابنه، عبيداً في جزر الهند الغربية وقدر عدد من شحن من مستعمرة بلايموث وحدها ب 500 شخص[93]، كما علق رأس الزعيم ميتاكوم في مكان عام في بلايموث لمدة عشرين عاماً[94].

(90) الحسين، 1973، ص346.
(91) Debo، 1983، ص48.
(92) Tougias، 1999، ص20.
(93) Brandon، 1985، ص177.
(94) براون، 1982، ص9.



المواقع والتحركات الرئيسة في حرب الملك فيليب
في مستعمرات نيو إنجلاند بشمال الولايات المتحدة حالياً[95]

وقد عدت هذه الحرب أكثر حروب أمريكا دماراً إذا قيست خسائرها مقارنة بعدد السكان، إذ فاق العدد النسبي لقتلاها خسائر الثورة الأمريكية والحرب الكبرى (العالمية) الثانية بل والحرب الأهلية الأمريكية التي عدت خسائرها الأشد فتكاً في التاريخ الأمريكي قاطبة[96]، وكان من ضمن "معاركها"، ما وصفه بعض المؤرخين بأقسى معركة وقعت في أراضي نيو إنجلاند، دون استثناء حتى المعارك الضارية أثناء الثورة الأمريكية، وقد راح ضحيتها 2000 من هنود الناراجانست قُتلوا أو أُحرقوا حتى الموت[97]، ولهذا لم يتردد بعض المؤرخين في وصفها بالمجزرة التي أعادت إلى الأذهان مجزرة البيكوت قبل أربعين عاماً، مما أدى إلى القضاء على قوة القبيلة وتحطيمها بمساعدة هندية قدمها الزعيم الخائن أنكاس لسادته الإنجليز في قتال إخوته في هذا الموقف الحاسم أيضاً، تجاوباً مع خطة فرق تسد التي اتبعها أولئك الإنجليز منذ حطت رحالهم في نيو

(95) http://warfarehistorian.blogspot.com/2012/08/this-day-in-history-metacomets.html

(96) Tougias، 1999، ص5.

(97) Thornton، 1990، ص72.

إنجلاند منذ خمسين عاماً[98]، وقد حسب أحد المؤرخين نسبة الخسائر الهندية نتيجة الحروب مع الأوروبيين في نيو إنجلاند فوجد أنه في القرن الممتد بين 1620-1720 خسر السكان الأصليون في تلك المنطقة ربع عددهم من هذه الحروب[99] دون حساب بقية الخسائر نتيجة العوامل الأخرى، كالأمراض التي جلبها الرجل الأبيض وكانت قد قضت على ما بين 50-70% من هنود المنطقة الساحلية في نيو إنجلاند قبل وصول الآباء الحجاج بقليل، وهناك تقديرات بأن سكان المنطقة الأصليين انخفض عددهم في القرن السابق على وصول الإنجليز (1520-1620) نتيجة الأوبئة إلى 7% من العدد الأصلي فقط[100]، ثم نقص عدد الهنود المتبقين في القرن السابع عشر إلى الخمس نتيجة الأمراض المختلفة التي جاء بها البيض[101]، وفي تلك الحقيقة عن مدى الدمار الذي أحدثته الحرب في منطقة مدمرة أصلاً رد على من يهون من شأن خسائر الحروب الهندية وأثرها على مجتمعات السكان الأصليين.

كان الهنود الثوار في هذه الحرب ينتمي معظمهم إلى قبيلتي وامبانواج وناراجانست، وقد لاحظنا فيما سبق ان القبيلة الأخيرة وقفت إلى جانب الإنجليز في حرب البيكوت سنة 1637 وأنقذتهم من كارثة[102]، ولكنها في هذه المرة علمت من هو عدوها ومن هو حليفها ولم تقبل بتسليم لاجئي الوامبانواج إلى الإنجليز ولا حتى بتسليم "قلامة ظفر" واحد منهم[103]، ولم يعد أفراد القبيلة يثقون بالإنجليز ولا حتى بمن يظهرون لهم الود منهم كروجر وليامز، وحاول بعض الهنود انتزاع الملجأ الذي كان قد ذهب إليه وليامز لما طردته ماساشوستس، ولا عجب في ذلك فقد لمست القبيلة حقيقة الخطر الإنجليزي منذ نهاية حرب البيكوت كما رأينا، أما قبيلة الوامبانواج فقد كان زعيمهم ماساسويت هو الذي أسعف المتطهرين لما حطوا على شواطئ ماساشوستس وها هو ابنه

(98) Alvin M. Josephy، 1989، ص71.
(99) Thornton، 1990، ص72.
(100) Alvin M. Josephy، 1989، ص42.
(101) Thornton، 1990، ص72.
(102) Brandon، 1985، ص175.
(103) Tougias، 1999، ص52.

الآن يخشى أن لا يبقى له شيء من أرض أسلافه بعد الإحسان الذي قدمه قومه إلى الإنجليز.

أما مستعمرو نيو إنجلاند فقد تعاملوا مع الثورة وفقاً لمفاهيم "الاستئصال" الدينية التطهرية التي شبهوا بها أنفسهم ببني إسرائيل القدماء، وشبهوا أعداءهم الهنود بسكان فلسطين، فأصبح الواجب المقدس للمسيحيين الإنجليز هو استئصال "الكنعانيين" الوثنيين من الوجود، ووضعت مخططات الإبادة التي مازال النقاش دائراً حولها منذ حرب البيكوت موضع التطبيق العملي[(104)]، وكتب أحد المتطهرين آنذاك: "يبدو واضحاً أن الله يدعو المستعمرات للحرب، فالناروهايجانستس (الناراجانست) وحلفاؤهم يعتمدون على أعدادهم وعددهم والفرص المتاحة لإلحاق الأذى بغيرهم، كما تحالف الآشوريون والعمالقة والفلسطينيون مع الآخرين ضد إسرائيل"[(105)].

وإذا كانت موازين القوى قد أدت إلى هزيمة القبيلتين فإن استمرار الوضع السابق على الثورة لم يكن سيؤدي إلى نتيجة أفضل لهما بدليل ما عاناه الهنود العملاء الذين أيدوا الجانب الإنجليزي أثناء الحرب، ورغم دورهم الحاسم الذي وصف بأنه "قلب الميزان لصالح الجانب الإنجليزي"[(106)] وبأنه مساعدة "لا تقدر بثمن"[(107)]، وقد كان هؤلاء العملاء من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية ومن أتباع زعيم الموهيكان الذي شارك الإنجليز في حرب البيكوت أيضاً، أنكاس، ورغم أهمية الهنود المسيحيين في حرب الملك فيليب للجانب الإنجليزي، فإن الفاصل العنصري الذي وضعه الإنجليز، بسبب طمعهم في الأرض، بينهم وبين أصحابها، لم يسمح لهم بإدماج حتى من اعتنق دينهم في مجتمعهم، وهذا دليل إضافي على أن التبشير لم يكن هدفاً في أمريكا بقدر ما كان الاستيلاء على الأرض هو الهدف الأعلى، وعلى أن المستعمرين الاستيطانيين لا يأبهون بمن تبعهم من العملاء إلا بالنخبة التي تقودهم وهو ما يؤكده اختلاف مصير الزعيم

---

(104) Brandon، 1985، ص177.

(105) الشريف، ديسمبر 1985، ص183-184.

- جارودي، 1986، ص227.

(106) Debo، 1983، ص49.

(107) Tougias، 1999، ص17.

العميل أنكاس، الذي بجله الإنجليز ثم الأمريكيون كما سبق الحديث، عن مصائر العملاء الصغار.

وقد وصل عدد هؤلاء المهتدين من السكان الأصليين قبل الحرب مباشرة (1674) إلى 1100 هندي يقطنون في 14 بلدة بنيت فيهما كنيستان تحت إشراف الإنجليز[108]، وهناك مراجع ترفع الرقم إلى 2000 هندي مسيحي[109]، وتصل في مراجع أخرى إلى 4000 هندي[110]، وبسبب الفاصل العنصري الذي وضعه الإنجليز بين الأجناس لتسهيل استيلائهم على الأرض، حمّلوا الهنود المسيحيين جريرة ما فعله الثوار ضد المستعمرات الاستيطانية، وقد قُتل وبيع في أسواق الرقيق الكثير منهم[111]، ويقول أحد المؤرخين في ذلك: "اضطهد الجيران الإنجليز والحكومة الاستعمارية الغالبية العظمى (من الهنود المسيحيين) بلا رحمة، وبحلول مارس 1676، وأثناء الذعر الذي أحدثته الخسائر الضخمة للمستعمرات، نُقل 400 من الهنود المسيحيين الأبرياء بالقوة إلى جزيرة دير في بوسطن، حيث كانت الظروف بائسة جداً إلى درجة موت الكثير منهم من الجوع والتعرض للأنواء"[112].

ونعود الآن للحديث عن روجر وليامز الليبرالي الإنساني الديمقراطي الذي وقف مع حقوق الهنود وأقنعهم بتأييد الإنجليز في حرب البيكوت (1637)، ولكنه لم يستطع في حرب الملك فيليب (1675) أن يمنعهم من الغضب لحقوقهم المنتهكة ولم يقف إلى جانب مقاومتهم وحاول كبقية الوسطاء الإنسانيين في كل العصور وقف المقاومة المسلحة في الوقت الذي يعجز فيه عن وقف الانتهاكات الاستعمارية الاستيطانية في الحياة اليومية فتستمر معاناة صاحب الحق ولا يجد من يوقف نزيفه إلا جهود بعض ذوي النوايا الطيبة الذين يقومون بإعلام الناس عن حقيقة الأوضاع المأساوية.

---

(108) Debo، 1983، ص47.

(109) Brandon، 1985، ص175.

- Foner، 2005، ص97.

(110) Ahlsrom، 1972، ص157.

(111) Alvin M. Josephy، 1989، ص82.

(112) Tougias، 1999، ص17.

حاول روجر وليامز وقف الحرب وذلك بالمشاركة بوفود لحث الهنود على الإخلاد إلى السكينة[113]، وتعرض منزله في رود آيلاند إلى التدمير في حملة انتقام الهنود ثأراً من هجوم انجليزي دموي عليهم[114]، وقد حاول وليامز أن يخيف الهنود من انتقام الإنجليز لو استمروا في مقاومتهم وتوسل في حججه عليهم بالملك الإنجليزي نفسه ولكنهم لم يقبلوا منه هذا المنطق وسمحوا له بالنجاة حياً فذهب إلى مساشوستس التي كانت قد طردته واستقر في مين قبل تحولها إلى ولاية مستقلة إلى أن توفي سنة 1683[115].

ويمكننا بتحليل إنجازات وليامز القول إن أعماله قد صبت في النهاية في صالح الاستعمار الاستيطاني، فدفاعه عن حقوق السكان الأصليين في الأرض لم يؤد إلى أكثر من الحث على شرائها وعدم اغتصابها، وهو ما كان متفقاً مع الأسلوب الاستعماري السائد حتى عند من يؤيدون أحقية الإنجليزي في أرض الهنود، وذلك لأن الشراء يضمن لهم عدم إثارة الهنود ضدهم ولهذا فإنهم كانوا يعترفون بفائدة هذا الإجراء لهم، كما أن وليامز وقف ضد الهنود عملياً في حرب البيكوت (1637) بإقناعه قبيلة الناراجانست بمساندة الإنجليز فقدمت مساعدات "حاسمة" ولما جاء الدور عليها حاول ثنيها عن المقاومة ووقف ضد الهنود مرة ثانية ولم يتصد عملياً لانتهاك حقوقهم المستمر رغم اعترافه بوقوع الانتهاكات ضدهم كما سنرى، ولهذا يمكننا القول إن محصلة جهوده الإنسانية الليبرالية كانت في صالح تكريس الاستعمار الاستيطاني الإنجليزي في أمريكا، ولهذا فلن نعجب حين نراه ينحاز موضوعياً لفكرة التخلي عن العمل على هداية الهنود بالتبشير بينهم، لأن هدايتهم لن تتم إلا بعد إعادة بناء القدس وهداية اليهود وهي من أحداث آخر الزمان وعودة المسيح، وهي أفكار شاعت بعد حرب البيكوت ومثلت رمزاً لهجران أية محاولة للالتقاء معهم أو تعهد أية مسئولية تجاههم وبذلك تسهيل العدوان عليهم[116].

(113) نفس المرجع، ص41.
(114) نفس المرجع، ص57.
(115) نفس المرجع، ص282-283.
(116) Pearce، 1988، ص28.
- Sternstein، 1995، ص1230.

هذه الصورة مازالت حية إلى يومنا هذا، إذ يقوم أصحاب التوجهات الإنسانية بالوقوف إلى جانب حقوق الضعفاء نظرياً ويرصدون كل الانتهاكات ضدهم فلا يطبَق من دعواتهم إلا ما يسمح به الأقوياء الظالمون وإذا انفجرت مقاومة الضحية حاولوا جهدهم وأدها باسم السلام والهدوء والحلول السلمية، ولو تم لهم ما يريدون سرعان ما تبدأ الدورة نفسها من جديد باستمرار عدوان القوي الذي تغريه قوته لمزيد من العدوان وعدم كبح أطماعه، ووقوفهم إلى جانب الضعفاء ورصد الانتهاكات والدعوة إلى الإغاثة والنجدة فلا ينفذ من ذلك إلا ما يرضي الظالم ويجمّل وجهه أمام العالم.

ومثل كل عمليات المقاومة في التاريخ، والتي يستدل منها دائماً على "توحش" المقاوم و"إرهابه"، في مقابل "تحضر" الظالم و"تمدن" المحتل الذي لا يعترف بوحشيته رغم أنها تفوق كثيراً يأس المقاوم، ولأن الإعلام ووسائله تكون بيد القوي فإنه يفرض رؤيته على الآخرين، وهكذا رغم أن "الطرفين ارتكبا أعمالاً وحشية في هذا الصراع عديم الرحمة، فإنه في أعقابه تدعمت صورة الهنود بصفتهم بدائيين متعطشين للدماء، وأصبح ذلك راسخاً في نيو إنجلاند"[117]، وكان هذا ما ناله السكان الأصليون من التشويه "الاستئصالي" في تلك الحرب مع أن هذه الصفات الدموية لم تُلصق بالعميل أنكاس الذي أكل اللحم البشري فيها أمام المتطهرين المتحضرين المتدينين الذين أصبح الباب أمامهم مفتوحاً الآن لاجتياح نيو إنجلاند بشتى الوسائل غير الأخلاقية وغير المتحضرة كالرشوة والخديعة والقسر والقتل أيضاً[118].

لقد أثبتت حرب الملك فيليب أن نهم الأرض طبع مستعمري نيو إنجلاند، وأن ذلك حدث منذ البداية وأدانه مراقبون محايدون ومعاصرون للأحداث مثل روجر وليامز الذي شجب "النهم الفاسد وراء التفاهات الكبرى والأحلام وظلال هذه الحياة الفانية، ومساحات الأرض الواسعة، أرض في هذه البرية، وكأن الناس في حاجة كبرى إلى هذه المساحات الواسعة، كما يحدث لرجال البحر العطاشى والجائعين والمساكين بعد رحلة جوع ومرض طويلة وعاصفة، إن ذلك

(117) Foner، 2005، ص97.

(118) Alvin M. Josephy، 1989، ص71- 72.

أحد أرباب نيو إنجلاند الذي سيدمره ويجوعه الرب العالي الحي الأبدي"[119]، وقد كتب وليامز ذلك في سنة 1670 قبل ثورة الهنود بخمس سنوات، وكان القائمون والمخططون للحرب من الجانب الإنجليزي من أصحاب المصالح المباشرة في الحصول على الأراضي، وقد ذكر أحد المؤرخين أسماءهم بالتفصيل[120]، ووازن بين دوافع المتطهرين ووصل إلى نتيجة قائلاً: "رغم أن المنشقين والمتطهرين معاً كانوا يملكون دوافع دينية قوية تدفعهم إلى الهجرة إلى نيو إنجلاند، فإن من يقلل من شأن الأرض بصفتها دافعاً مساوياً فإنه سيفشل في فهم نظام القيم في تلك المجتمعات الإنجليزية في القرن السابع عشر"[121]، ويقول مؤرخ آخر إن حروب نيو إنجلاند في القرن الأول من الاستيطان كانت هي مسرح التجربة الأولى التي سار على منوالها تاريخ الأمة الأمريكية فيما بعد[122].

---

(119) Jennings، 1976، ص181.

(120) Tougias، 1999، ص19.

(121) نفس المرجع، ص19.

(122) Slotkin، 2000، ص229.



الفصل الخامس

مستعمرة نيويورك

1624

استكشف هنري هدسون منطقة النهر الذي ما يزال يحمل اسمه إلى يومنا هذا في سنة 1609 باسم شركة الهند الشرقية الهولندية بحثاً عن طريق إلى آسيا، وجاء على إثره التجار ليتاجروا مع الهنود هناك، ثم أعقبهم المستعمرون الاستيطانيون الذين جلبتهم شركة الهند الغربية الهولندية في سنة 1624، وبعدها بسنتين اشتروا جزيرة مانهاتن بما يساوي 24 دولاراً فقط (بأسعار القرن 19) من الخرز وأدوات الصيد من السكان الأصليين، وقد قومت موسوعة ويكيبيديا هذا السعر بما يعادل ألف دولار[1] على الأكثر في زمننا، وهناك من يقدره بثلثي هذا المبلغ فقط[2]، ولو قسمنا هذا التعديل وفقاً للألف دولار على مساحة الجزيرة (59 كيلومتراً مربعاً) فإن سعر الفدان يكون ستة سنتات تقريباً أي أن الدونم بسنت ونصف، بما يذكرنا بالمبادلات غير المتكافئة التي أجراها كولمبس ورجاله مع هنود إسبانيولا، وبمنح الأراضي المجانية التي كان المستعمرون الإنجليز يحصلون عليها من هنود الساحل الشرقي بعد ذلك في فرجينيا ونيو إنجلاند، وهو منهج سيستمر طوال التاريخ الأمريكي إذ كانت الحكومة الأمريكية تستولي على الأرض من القبائل الهندية بأسعار مضحكة قد تصل إلى أقل من سنت واحد مقابل ستة فدادين (24 دونماً)[3]، كما يذكرنا هذا بالتبادل غير المتكافئ الذي

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Manhattan

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Peter Minuit

(3) Marks، 1998، ص66.

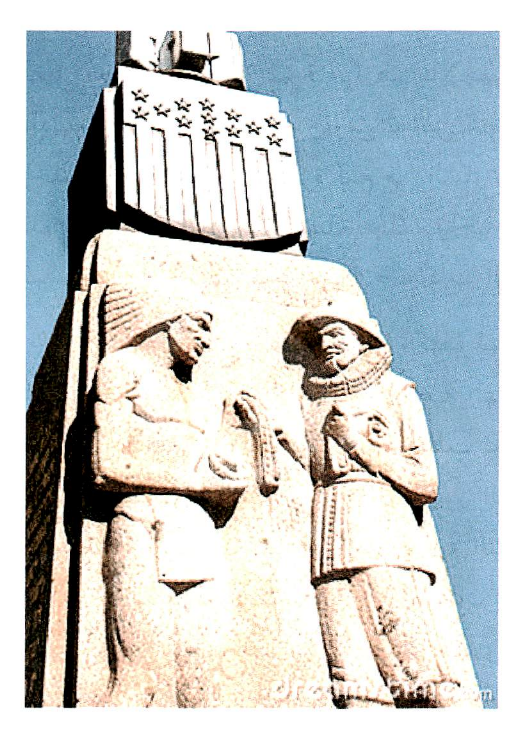
أقدمت عليه الدول الاستعمارية مع مستعمراتها حين كانت تستولي على المواد الخام بأبخس الأثمان وتعيد تصديرها، بعد تصنيعها والاستفادة منها، بأعلى الأسعار.



بيتر مينويت حاكم مستعمرة أمستردام الجديدة الهولندية (1626-1633) والذي اشترى مانهاتن من الهنود بسعر مضحك



شراء مانهاتن ببضاعة رخيصة كما تصوره فنان أمريكي من القرن العشرين



النصب التذكاري الذي احتفى بالذكرى الأربعمائة لشراء مانهاتن في نيويورك

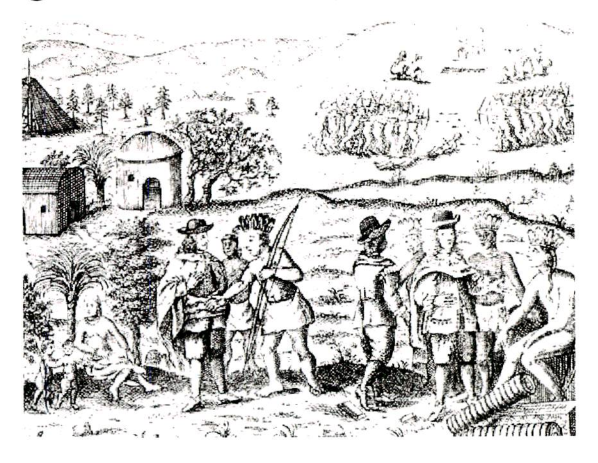
لم يكن السكان الأصليون في منطقة نيويورك يدركون أبعاد الموقف الذي أصبحوا فيه باستقبالهم هؤلاء الهولنديين، ومن ثم لا يعرفون ما يخبئه الغيب لهم، يدل على هذا كلمات الزعيم الهندي الذي خاطب الهولنديين في حفل مبادلة الخرز بالأرض قائلاً: "لقد تشاورنا وقررنا أن نقبل هداياكم وندعكم تقطنون في جزيرة المانهاتا، وسنتجول في الجزيرة كما نشاء ونقيم، على أننا سنستمر في تجوالنا ذهاباً وجيئة، وفي إقامة أكواخنا، وفي ممارسة الصيد كما اعتدنا أن نفعل دائماً"[4]، وبالفعل حدث ما كان يحدث دائماً، فقد دعم الهنود المهاجرين الأوائل بالمساعدات الغذائية، ولكن عندما قضى الهولنديون مصالحهم منهم صاروا يضيقون بهم إلى أن انفجر الوضع سنة 1643.

فقد لجأ بعض الهنود ممن كانت قبيلتهم ممثلة في حفل شراء مانهاتن إلى المستعمرين من بطش قبيلة أخرى، فما كان من الهولنديين إلا السماح للمغيرين

(4) ماكنير، 1970، ص14.

بقتل بعض اللاجئين ثم قاموا هم بالإجهاز على البقية ممن كان معظمهم من النساء والأطفال، ونقلت رءوس ثمانين منهم إلى حصن أمستردام حيث لعبت بها إحدى النساء البارزات كرة قدم في الشارع، كما قام المستعمرون بتعذيب أحد الهنود علانية أمام الملأ بسلخ جلده وإجباره على أكل نفسه وسحله في الشوارع ثم سحق رأسه على حجر وسط ضحكات الحاكم الهولندي العميقة.

وقد تلا ذلك بالطبع حرب مكلفة لم تأت بنتائج مهمة للجانب الهولندي فطلب الحاكم من شركة الهند الغربية الهولندية السماح بشن حرب إبادة على السكان الأصليين ولكن هذا كان يتطلب نفقات غير محتملة من جانب أصحاب العقلية النفعية التجارية، وما زال السور الذي بني في هذه الاضطرابات لحماية المستعمرة الهولندية حياً في اسم شارع السور Wall Street أشهر شوارع المدينة اليوم(5)، ويقدر عدد الضحايا من السكان الأصليين في ذروة حربهم التي امتدت خمس سنوات مع الهولنديين بألف هندي ما بين 1643-1644(6)، ومع ذلك يرى أحد المؤرخين أن علاقة السكان الأصليين بالهولنديين والسويديين الذين مالوا إلى شراء الأرض منهم أكثر سلمية من علاقتهم بالإنجليز الذين كانوا يستولون على الأراضي الهندية استيلاء غير مشروع(7).



العلاقات التجارية السلمية بين السويديين والهنود في أمريكا في خضم الحياة اليومية للهنود بما فيها من صراعات في بدايات القرن السابع عشر كما صورها فنان سويدي في منتصف القرن

(5) Brandon، 1985، ص168-169.
- Crompton، 1999، ص71.
(6) Thornton، 1990، ص72.
(7) Brandon، 1985، ص155.

وقد قامت هذه المستعمرة الهولندية التي أطلق عليها اسم الأراضي الواطئة الجديدة، أي هولندا الجديدة، بالاستيلاء على مستعمرة السويد الجديدة، التي أصبحت فيما بعد ولاية ديلاوير، سنة 1655، والتي كانت تتمتع بعلاقات جيدة مع سكانها الأصليين، ثم قام الإنجليز بدورهم بالاستيلاء على المستعمرة الهولندية سنة 1664 فأصبحت نيويورك بدلاً من نيو أمستردام، وبهذا زال النفوذ السويدي والهولندي من أمريكا الشمالية وبقي نفوذ الإنجليز والفرنسيين يحيط بهم نفوذ الإسبان في الأطراف[8].

ويلاحظ بعض المؤرخين اختلاف معاملة الإنجليز للهولنديين، الذين يعدونهم مكافئين عرقياً لهم بالإضافة إلى اشتراكهم في الإيمان البروتستانتي، عن معاملتهم للسكان الأصليين أو الأفارقة، فلم يطردوهم من المستعمرة بعد انتصارهم عليهم ولم يغلقوا أبواب ازدهارهم الاقتصادي وحافظوا على وجود الشخصية الهولندية ضمن التعددية التي صبغت طبيعة المستعمرة فيما بعد بلجوء الفرنسيين البروتستانت بالإضافة إلى اليهود، وقد أنجب المجتمع الهولندي في نيويورك رئيسين من رؤساء الولايات المتحدة البارزين هما تيودور وفرانكلين روزفلت[9]، ويشير أحد المؤرخين البارزين إلى أن أملاك الهولنديين حُفظت تحت السلطة الإنجليزية الجديدة، في تناقض واضح مع ما أصاب أملاك السكان الأصليين الذين تم إخضاعهم والاستيلاء على أراضيهم[10]،وهو ما يشي باستعمال العنصرية اللونية حين تكون مفيدة أو على الأقل غير ضارة، ولذلك تم التخلي عنها عندما أصبحت ضارة بمصالح الطبقة الصناعية المسيطرة في شمال الولايات المتحدة في صراعها مع الملاك الجنوبيين البيض بعد ذلك الزمن بقرنين.

---

(8) Crompton، 1999، ص71.

(9) Reynolds، 2009، ص32.

(10) Jennings، 2000، ص36.



الفصل السادس

مستعمرة ماريلاند

1632

ومن تجارب الاستعمار الاستيطاني في أمريكا التي تستحق الوقوف عندها لما حملته من نوايا حسنة في البداية دون نتائج تناسب هذه النوايا في النهاية، تجربة مستعمرة ماريلاند الاستيطانية التي أسسها السير جورج كالفرت (1580-1632)، الذي لُقب بلورد بالتيمور الأول، ثم تولتها أسرته من بعده، وذلك لتكون ملجأ للكاثوليك الذين تعرضوا للاضطهاد في إنجلترا، ومشروعاً يحقق الربح لأسرته في نفس الوقت، أما إنجلترا فاستهدفت من منح البراءة قطع الطريق على التمدد الهولندي في العالم الجديد[1]،



لورد بالتيمور الأول ومؤسس مستعمرة ماريلاند الكاثوليكية، توفي قبل أن يصادق الملك تشارلز الأول على منحه براءة التملك، فمنحها الملك إلى ابنه الأكبر لورد بالتيمور الثاني

(1) Lamar، 1998، ص680-681.

وذلك الاقتران بين المبادئ والمصالح كثيراً ما شاهدناه في التاريخ الأمريكي، ولكنه إن كان في صالح القوى المستعمِرة وحقق لها ما تهدف إليه فإنه كثيراً ما جنى على أصحاب الحق في البلاد من السكان الأصليين لأن تشخيص المصالح لم يكن يأخذ مصالحهم في الحسبان، وهذا ما رأيناه على سبيل المثال في سياسة هذه المستعمرة الاستيطانية، فقد حاول حكامها اتباع سياسة التسامح مع الطوائف المسيحية الأخرى[2]، كما نووا معاملة الهنود بالحسنى خلافاً لما كان يحدث جنوباً في فرجينيا، فكانوا يشترون الأراضي من السكان الأصليين وفق معاهدات وخصصوا لهم محميات خاصة ليعيشوا فيها وبدأت هذه السياسة بمحمية ذات عشرة آلاف فدان أسسها الحاكم نفسه في خمسينيات القرن السابع عشر[3]، وهنا نجد الاختلاف الواسع بين السياسة المتبعة نحو البيض والسياسة المتبعة نحو الهنود، فرغم الاضطرابات المذهبية التي حدثت بين الطوائف المسيحية المختلفة في المستعمرة بداية، فقد شهد التاريخ الأمريكي فيما بعد تصالحاً بينها وعيشاً مشتركاً خلافاً لما حدث مع السكان الأصليين حين ذهبت الصراعات السياسية، ربما بين الكاثوليك أنفسهم، بمشاريع النوايا الحسنة كالمحميات والتبشير بين القبائل، وتطور الصراع إلى العنف في عدة جهات من المستعمرة وذلك رغم الإمكانات الواسعة للقبول المتبادل والتي وثقتها شهادات المبشرين عن حسن سلوك الهنود وفضائلهم الطبيعية وميولهم السلمية وانشغالهم بالزراعة التي هي علامة التحضر عند المستعمرين الأوروبيين[4].

ومع ذلك فقد أُزيح هؤلاء الهنود تدريجياً عن أراضيهم حتى لم يتبق منهم أحد في نهاية القرن الثامن عشر، ولم يستقر الأمر، خلافاً لما حدث بين الطوائف المسيحية البيضاء، إلا بالاستيلاء على أراضي الهنود ونفيهم من الولاية[5]، أما الطوائف

(2) نفس المرجع، ص681.
(3) Pearce، 1988، ص16.
(4) نفس المرجع، ص16-18.
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج11، ص181-188.
(5) New Standard Encyclopedia، 1999، ج11، ص181-188.
- Johnson، 2007، ص32-33.

المسيحية غير الكاثوليكية في مستعمرة ماريلاند الاستيطانية فلم تأبه بالهنود، تماماً كما حدث في مستعمرات نيو إنجلاند، وتميزت مشاريع التبشير التابعة لها بأنها فردية وقليلة مما يؤكد أن سلب الأرض لإقامة المعيشة عليها كان هو المشروع الرئيس الذي جلب أولئك المستعمرين، وأنه حكم أوضاعهم هنا كما حكمها في المستعمرات الاستيطانية الأخرى[6]، وأن المتطلبات الدينية الأخروية عند المستوطنين تعارضت مع المتطلبات المعيشية الدنيوية لهم وأن الأخيرة هي التي انتصرت كما يثبت هذا ازدهار الاستيطان الأبيض وإبادة الوجود الهندي في النهاية.

(6) Pearce، 1988، ص17.

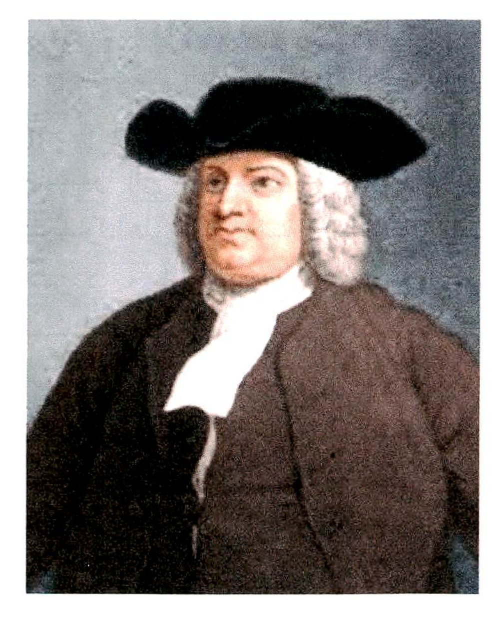


الفصل السابع

مستعمرة بنسلفانيا

1680

ومن التجارب التي بدأت بالنوايا السلمية كذلك تجربة مستعمرة بنسلفانيا، التي كان مكانها هو المكان الأخير الخالي من الاستعمار الاستيطاني الأوروبي على الساحل الشرقي الأمريكي، فمنحه الملك الإنجليزي تشارلز الثاني لوليم بن المنتمي لطائفة المهتزين (الكويكرز) في سنة 1681 وذلك لسداد ديْن كان في رقبة الملك لوالد وليم، ثم أتبعه بأرض أخرى أخذها من دوق يورك الذي أسس نيويورك مكان نيو أمستردام الهولندية التي أسست مكان السويد الجديدة بدورها كما سبق ذكره.



وليم بن (1644–1718) مؤسس مستعمرة بنسلفانيا ذات التوجهات السلمية والتي "استقلت" عن توجهات مؤسسها–حسب تعبير ويكيبيديا– قبل أن تستقل المستعمرات الأمريكية عن بريطانيا، نهايته المأساوية تشبه نهاية مشروعه المسالم

ونتيجة لقناعاته الدينية عزم وليم بن على تأسيس "تجربة مقدسة" بتوفير ملاذ آمن لكل المضطهدين وبالتعامل المنصف مع السكان الأصليين في نفس الوقت، وقد لاقى المستعمرون الأوائل ترحيب الهنود على غرار تجارب المستعمرات السابقة،



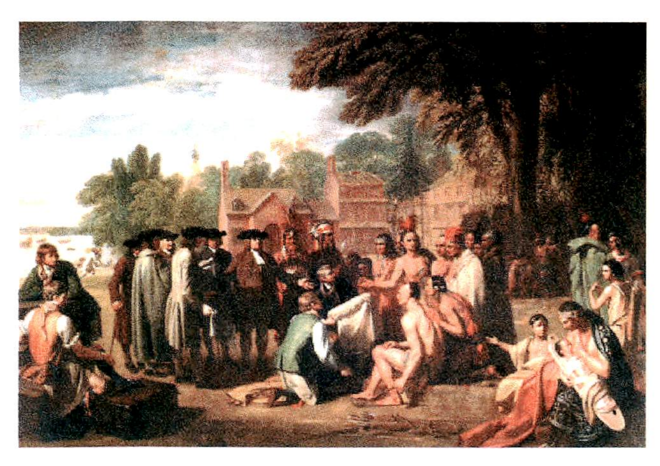
لوحة أمريكية للفنانة جين ليون جيروم فيريس تصور وصول وليم بن إلى بنسلفانيا (1682) وترحيب السكان الأصليين به

نجحت النوايا السلمية لوليم بن في تجنب العنف مدة تقارب ثلاثة أرباع القرن، ولكن تراكم مسببات الصراع، لاسيما أن ورثته تركوا إيمانه الكويكري وانضموا إلى الكنيسة الأنجليكانية وتحللوا من الميول السلمية وخدعوا الهنود في الحصول على أراض سنة 1737 كان وليم بن قد أعطاها لهم، وتدفق المهاجرون ممن لا يحملون معتقدات المهتزين السلمية واعتدوا على أراضي الهنود، ورغم تمسك المهتزين بمعتقداتهم وعدم استجابتهم لدواعي العنف من المستعمرين، فإن السياسة السلمية أصبحت غير مقنعة لسكان المستعمرة الاستيطانية مما جعل أفراد الطائفة يحجمون عن تولي المناصب العامة بعد سنة 1756 عندما أعلنت الحرب على قبيلة ديلاوير الهندية ومنحت جوائز سخية لقتل الهنود وهي 130 دولاراً لقتل رجل فوق سن 12 عاماً و50 دولاراً لقتل الأنثى، وبدأت العناصر الأخرى تحتل المناصب في المستعمرة مما زاد من أعمال العنف ضد السكان الأصليين،

وفي سنة 1764 منح مجلس المستعمرة جوائز لقتل الهنود أيضاً ولكن فوق سن العاشرة هذه المرة وهو ما يراه أحد المؤرخين "نهاية عهد من علاقات الصداقة بين الهنود والبيض في بنسلفانيا"[1]، ويرى آخرون بأن الهوية القومية في أمريكا ارتبطت بالاستيطان وإخضاع البراري، وفي الوقت الذي تميزت فيه تجربة نيو إنجلاند بالجانب العسكري الذي قاتل الهندي في أرضه في عملية الفتح، فإن تجربة بنسلفانيا أظهرت التطور الطبيعي الذي جعل من الفتح عملية حتمية[2].



لوحة للفنان إدوارد هيكس في منتصف القرن التاسع عشر بعنوان: معاهدة بن مع الهنود



لوحة أخرى عن نفس المناسبة للفنان بنيامين وست (1771) رسمها بطلب من ابن وليم بن، توماس

(1) Jacobs، 1985، ص119.

(2) Slotkin، 2000، ص230.

اندمجت المستعمرة مع بقية المستعمرات باندلاع الثورة الأمريكية التي أحجمت الطوائف السلمية كالمهتزين والمورافيين وغيرهم عن تولي المناصب العامة في أثنائها، وانتهت السياسة السلمية تماماً تجاه السكان الأصليين بآخر عمليات شراء الأراضي في سنة 1792[3].

ومن الأحداث التي يجدر الوقوف عندها والإشارة إليها مجزرة جرت وقائعها في أثناء ثورة الزعيم بونتياك سنة 1763 وإن كان هذا ليس مكانها ولكن يحسن ذكرها هنا لأنها تتصل مباشرة بمآل النوايا السلمية التي بدأت بها مستعمرة بنسلفانيا تجاه السكان الأصليين.

فقد غضب المستوطنون من هجمات الهنود التابعين للزعيم بونتياك على مستعمراتهم في حدود بنسلفانيا وأحبطهم موقف مجلس المستعمرة المؤلف من الكويكرز في عدم الرد على الهنود فسعت مجموعة مكونة من 75 رجلاً من الطائفة المشيخية للانتقام من أي هندي واتخذوا ذريعة من سرقة وصهر ملعقة (!) للهجوم في ديسمبر 1763 على تجمع من الهنود المسيحيين التابعين لإرسالية الطائفة المورافية فقتلوا ستة من الرجال والنساء والأطفال واقتلعوا فروات رءوسهم، ولما قام بعض المتعاطفين مع هؤلاء الأبرياء بتوفير مأوى للبقية الناجية في أحد السجون قامت العصابة نفسها بالهجوم عليهم بعد أسبوعين من الحدث الأول وقتلت 14 فرداً من الرجال والنساء والأطفال الذين نجوا من المجزرة الأولى، ولما أدان حاكم المستعمرة جون بن ابن مؤسسها وليم بن هذه المجزرة زحفت العصابة في فبراير 1764 على العاصمة فيلادلفيا وهددت بقتل جميع الهنود فيها ولم يردعها إلا تدخل بنيامين فرانكلين الذي وصفها بالهمج البيض المسيحيين وكان أكثر ما استطاعه لوقفها هو أنه عقد معها اتفاقاً ينص على ترك الهنود المسالمين مقابل منح مكافآت لمن يأتي بفروات رءوس الثوار مع بونتياك[4]، وهذا الحدث يؤكد أن الإرهاب الأبيض لم يكن يواجه بنفس العنف الذي يواجه به "الإرهاب" الهندي بل كان يُسترضى عند محاولة كف شره أما

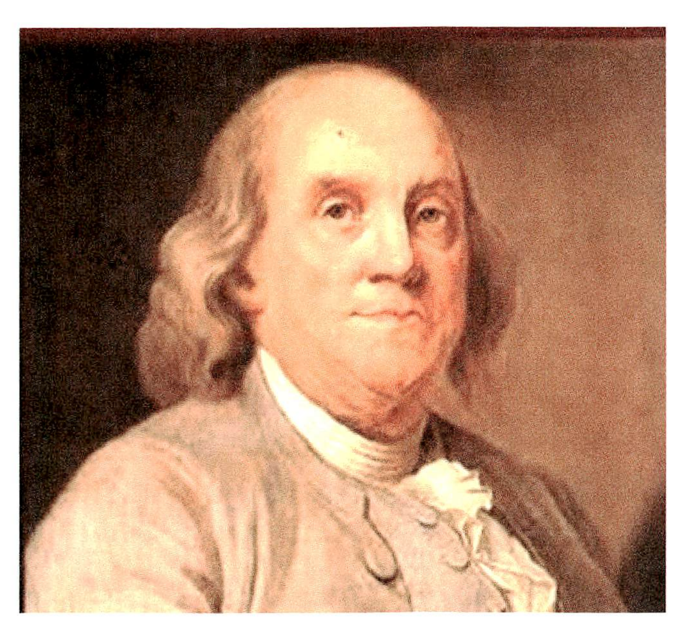
---

(3) Lamar، 1998، ص850.

(4) Waldman، 2006، ص286-287.

- Waldman، 2000، ص130.

الهنود فكان الجيش والمجتمع والدولة يتحدون ضدهم حتى لو كانوا يدافعون عن وجودهم وحقوقهم المكفولة لهم بالمعاهدات الرسمية، وهذا ما نراه اليوم في المجتمع الاستيطاني الصهيوني الذي تدعم دولته الإرهاب الذي ترتكبه عصابات المستوطنين، فضلاً عن إرهاب الدولة الذي نشأ بوجود الكيان نفسه، وتتصدى بكل قوة لدفاع الضحايا الفلسطينيين عن أنفسهم وتصفه بالإرهاب.



بنيامين فرانكلين (1706–1790) من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، ومع ذلك له اعترافات صريحة عن مظالم الهنود

هذا الحدث الذي رأينا ما يوازيه تجاه الهنود المسيحيين في حرب الملك فيليب، حدث في مستعمرة تأسست على قاعدة من حسن النوايا أكثر من غيرها، وعلى ضرورة التبشير بين الهنود وإنقاذ أرواحهم أكثر من سواها، ومع ذلك رأينا أن المجتمع الأوروبي لم يدمج هؤلاء المتنصرين فيه وظل الفاصل العنصري قائماً بوضوح بين الطرفين، ولهذا فعندما يثور هندي على الظلم الإنجليزي، يوضع الهندي المتنصر والموالي للإنجليز بطبيعته في سلة واحدة مع الثائر والمقاوم، مما ينفي أي أثر للنوايا الحسنة التي ادعيت في البداية وقامت التجربة الاستعمارية الاستيطانية على أساسها، وسنرى هذا الحاجز أكثر وضوحاً في تجربة القبائل الخمس المتمدنة في عهد الرئيس الأمريكي أندرو جاكسون في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وهو ما سيؤكد لنا مرة أخرى أن نشر الحضارة أو

الهداية لم يكونا من أهداف التجربة الاستعمارية الاستيطانية، بقدر ما كان الاستيلاء على الأرض وما يتبعه من تفريغها من أصحابها هو الهدف بحكم طبيعة الأشياء التي تم اختيارها ابتداء فألغت أثر الخيارات الفردية والنوايا الشخصية المعاكسة، ويُتبع في سبيل تحقيق هذا الهدف الرئيس أية وسيلة حتى لو كانت سحق أهداف أخرى ادعيت في مراحل تالية.

الفصل الثامن

مستعمرة كارولينا

1670

كانت الدوافع السياسية والاقتصادية هي الموجهة لإنشاء مستعمرة كارولينا، فقد رغب التاج الإنجليزي بتأسيسها لتكون حاجزاً بين الوجود الإسباني في فلوريدا والاستيطان الإنجليزي على الساحل الأمريكي، ومانعاً لتمدد الإسبان، ولهذا منح في سنة 1663 براءة ملكية لثمانية من الملاك، ولكن الاستيطان لم يبدأ إلا سنة 1670، كما كان الملاك في مستعمرة باربادوس في الكاريبي يبحثون عن أراض جديدة لأبنائهم بعدما استنفدت أراضي المستعمرة فاتجهوا إلى كارولينا، ولهذا أطلق عليها اسم مستعمرة المستعمرة توصيفاً لوضعها في البداية.

ومثل غيرها من المستعمرات حمل تأسيس كارولينا نوايا طيبة تجاه الهنود الأصليين، فحصرت عملية نقل ملكية الأراضي بملاك المستعمرة تجنباً لخداع المستوطنين، كما انتهجت سياسة التسامح تجاه معتقدات الهنود، ولكن لم يكن تطور الواقع مماثلاً للمثال الذي رسم في البداية[1].

وعلى عكس كثير من المستعمرات الأمريكية في بداياتها، لم يكن هناك ما يجمع مستوطني كارولينا أكثر من البحث عن الربح، وقبل أن تُكتشف إمكاناتها الزراعية التي عُرفت فيما بعد، اتجه سكانها إلى تجارة الرقيق التي ألفت مصدر الربح الأول فيها منذ قيامها إلى العقد الثاني من القرن الثامن عشر، وكانت التجارة في البداية تتخذ من السكان الأصليين بضاعتها، وقد قُدر أن ما شحن

---

(1) Gallay، 2002، ص45.

منهم إلى الخارج (الكاريبي) يفوق ما استورد من عبيد أفارقة حتى سنة 1715، وكان سبب عدم استخدامهم في أرضهم هو "قرب الهنود من جماعاتهم الأصلية مما كان يشجعهم على التمرد والهرب المتكرر، (و)كان المستعمرون الإنجليز يخشون من أن يؤدي استعباد الهنود إلى استعداء الحلفاء الأميركيين الأصليين في حروبهم ضد الإسبان والفرنسيين، كان ممكناً، أخيراً، تجنيد الجماعات الأميركية الأصلية في عمليات إعادة العبيد الأفارقة الهاربين إلى أسيادهم"[(2)]، وقد "ظل استرقاق (الهنود الحمر) هامشياً، فقد كانوا غالباً ما يرفضون الأعمال الزراعية التي توكل لهم، ويستغلون معرفتهم بالمنطقة للفرار، إذ من الصعوبة بمكان دائماً استرقاق رجال في أوطانهم... وعلى كل حال، لم يتوافر على الفور ما يكفي من (الهنود الحمر) الأحياء للاستجابة للحاجات الضخمة إلى المزارع الاستعمارية"[(3)]، وإذا كان استرقاق الهندي في بلاده محفوفاً بالمخاطر، فإن نقله إلى جزر الهند الغربية أو الأماكن البعيدة في أنحاء أمريكا أكثر أمناً للمستعبِد، حيث تكون الخيارات أمام الهندي معدومة كوضع الإفريقي تماماً[(4)].

أما عن طرق الحصول على العبيد من السكان الأصليين فكان ذلك عن طريق تنافس الجماعات الهندية التي كان يدفعها الرغبة في الحصول على البضائع الأوروبية المغرية كالفؤوس والبنادق والملابس والأواني والأصباغ للإغارة بحثاً عن الأسرى، ومع أن الأسر للاستعباد كان موجوداً قبل الاستيطان الأوروبي، فإنه زاد وتوسع معه بشكل "مفاجئ ومثير"[(5)]، ولا يفيد الاختباء خلف حجة ممارسة السكان الأصليين هذه العادة في تبرير ممارسة "المتحضرين" لها، فالغرب الأوروبي وضع نفسه بالقوة في موضع المعلم الذي ينشر الحضارة والتمدن والعقل والعلم بين متخلفي البشرية، وأولى به أن يحد من الممارسات المتخلفة بدلاً من إشاعتها، وقد رأيناه يشيع أكثر من ممارسة متخلفة زاد انتشارها بعد وصول الأوروبيين، كما لا يفيد الغرب اعتذاره بأنه حارب هذه الممارسات

---

(2) وولف، 2004، ص294.

(3) فرّو، 2007، ص65.

(4) Gallay، 2002، ص309-311.

(5) نفس المرجع، ص8.

فيما بعد لأنه فعل ذلك بعدما أصبحت عائقاً في وجه أطماع جديدة أكبر مورس فيها أشكال حديثة من العدوان على الآخرين، وأهمية الامتناع تأتي في خضم المكاسب المتوقعة لتكف أذى الجريمة التي تأتي بهذه المكاسب وليس من زوال أهميتها بعد حلول أشكال جديدة ووسائل أكثر فاعلية في العدوان.

لقد سادت المصالح في كارولينا وسيرت سياساتها ودبلوماسيتها وحروبها، خلافاً للمستعمرات حيث سادت المصالح الإمبريالية التي يظل لها الأولوية على المصالح الشخصية للمسئولين رغم أنهم قد يستفيدون من أوضاعهم، ويصف أحد الباحثين هذه المصالح التي سيرت شئون كارولينا بأنها مصالح فردية وليست مصلحة المستعمرة أو ملاكها أو حتى مصلحة التاج[6]، وفي هذه الأجواء من السهل أن تزدهر ممارسات عدوانية إذا كانت تحقق المصالح.

وكما حدث في بقية المستعمرات السابقة، كان السكان الأصليون هم الطرف الأقوى في بداية الاستعمار الاستيطاني، وساعدوا المستعمرين على البقاء، وكان بإمكانهم القضاء عليهم في مهدهم ولكن تشخيصهم لمصالحهم لم يكن يؤيد ذلك حين رأوا أن التجارة مع أولئك الوافدين أربح من القضاء عليهم، وكانوا من القوة التي يصفها أحد الباحثين بالقول إنه لم يكن بمقدور الأوروبيين في جوارهم التغلب عليهم: لا الإسبان في فلوريدا ولا الفرنسيين في لويزيانا ولا الإنجليز في كارولينا[7]، وإنه لولا مساعدة الهنود لما تمكن الأوروبيون من النجاة فضلاً عن الازدهار[8].

كانت النتيجة أن دخل الأوروبيون في مبادلات تجارية غير متكافئة أعطت السكان الأصليين الفتات وسلبت حرياتهم بطريقة تذكرنا بمبادلات كولمبس ومن جاء بعده، ودخلت المنطقة في سلسلة من الحروب التي أنهكتها إلى جانب الأمراض والاسترقاق مما أدى إلى وفاة الآلاف ونزوح غيرهم وبيع آلاف آخرين.

ولا ينفع الغرب الأوروبي تبرير ذلك بالقول إنه تم برضا الهنود وتعاونهم،

---

(6) نفس المرجع، ص18.
(7) نفس المرجع، ص4.
(8) نفس المرجع، ص5.

لأن تصوير صفة التخلف حسب الطلب وجعلها "راشدة" أحياناً لتبرير التعامل معها، ثم وصمها أحياناً أخرى لتبرير المطالبة "بالوصاية" عليها إذا تطلبت الأرباح اتجاهاً مغايراً، لا يعني كل ذلك إلا انتهازية فكرية ووصولية أخلاقية لا تتفقان مع صورة المتحضر الذي وضع نفسه في مكانة معلم للبشرية، وإذا كان قد تمكن من التصرف وفق هذه التجاوزات بقوته فإن للضعيف بكل بساطة أن يرفض هذه الأستاذية المزيفة.

أي أن التأرجح في نعت ومعاملة الآخرين بين التخلف والرشد حسب مصلحة القائم بالأمر غير مقبول ولا هو من صفات التحضر المدعى، وقد درج الغرب على استغلال نقاط الضعف في ضحاياه لصالحه مهما كانت صفة هذا الوضع المستغَل، فإذا نشب صراع بين طرفين تدخل لنصرة الطرف الذي يحقق له مصالحه، وإذا خرج خارج عن قومه نصره ليحقق به مصالحه، وإذا طالب أمير بعرش هدد به الجالس على هذا العرش وهو في كل هذه الصراعات لا يميز بين الحق والباطل بل يبحث فقط عما يحقق المصالح حتى لو كان تخلفاً ورجعية، وسند هذا السلوك النفعي رؤية استشراقية-استئصالية ترى جميع الأطراف متخلفة تخلفاً لصيقاً بها منذ الأزل وإلى الأبد، أي لا يمكن تغييره، ولهذا فمن الأفضل معاملتها جميعاً وفق ما تتطلبه هذه الطبيعة السلبية الثابتة والإفادة منها.

ورغم أن الأرض لم تكن في مستعمرة كارولينا موضع الصراع الرئيس كبقية المستعمرات الأمريكية إلى الشمال، فقد أدت تجارة الرقيق وما صحبها من خسائر من الأمراض والحروب إلى انهيار مجتمعات هندية جنوبية كما فعل الصراع على الأرض شمالاً، وقد كانت هذه التجارة بالبشر هي العامل الأهم الذي أثر على الجنوب الأمريكي في الفترة الواقعة بين 1670-1715، وكان الاهتمام بالأرض ومواردها قليل الأهمية[9]، ثم حلت مرحلة الصراع على الأرض في الجنوب فيما بعد ووصلت أوجها في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

وقد سرت في كارولينا حركة إصلاحية بعد اتحاد اسكتلندا وإنجلترا في الاتحاد البريطاني سنة 1707، طالبت هذه الحركة بدمج الهنود وتغيير معاملتهم

(9) نفس المرجع، ص7.

إلى الأفضل، أي ضمهم في كيان يتساوى أعضاؤه على غرار الاتحاد البريطاني، وإذا كان صدور مثل هذه الآراء الإنسانية طبيعياً في المجتمعات الغربية نتيجة لروح النقد العقلانية التي تتبناها هذه المجتمعات، فإنها سرعان ما تخمد أمام المصالح التي تتقمص الرؤية الدينية أحياناً، فقد استخدم أصحاب هذه الرؤية الرأي البروتستانتي بحصرية الخلاص[10]، للدفاع عن المصالح المتأتية من استعباد الهنود وحصر التعامل معهم على مجال الاستعباد[11]، وساعد على ذلك كالعادة ضبابية الرؤية الإصلاحية في الحضارة الغربية وعدم طرحها برنامجاً محدداً للدمج[12]، وبهذا انتصرت الأفكار الإقصائية التي تستند إلى مركزية المنفعة في الحضارة الغربية، كالعادة التي تتكرر مع الرؤى العدوانية التي تنتصر دائماً رغم وجود الأفكار النقدية التي تظل معلقة في الهواء في الوقت الذي تفرض فيه بنية حضارة الغرب حقائقها على الأرض مستندة إلى مركزية المنفعة التي تؤدي دائماً إلى سلوكيات الإقصاء المعادية "للآخر"، أما أصحاب النوايا الحسنة فلا يملكون غير كلام جميل ولكنه غير مدعوم ولا مصلحة في تطبيقه فيكون من الطبيعي أن يتراجع أمام حكم القوة[13]، وليست القوة المشار إليها هي قوة الدولة بالضرورة، إذ كثيراً ما تدعي الحكومات أنها تفرض النظام على الجميع، ولكنها تتراجع عن ذلك إذا كان مناقضاً "للمنفعة"، فالقوة المقصودة هي قوة "المصالح" في المجتمعات الأوروبية أو الأمريكية البيضاء في مواجهة الضحايا الأصليين.

لقد أدى سوء المعاملة التي تعرض لها السكان الأصليون إلى اندلاع حرب التوسكارورا، القبيلة التي سالمت الإنجليز وزودتهم في البداية بالطعام والمعلومات عن طريقة الحياة في بيئة كارولينا، ووقفت إلى جانبهم ضد غيرها من القبائل الهندية، ولكن كما كان جزاء من قبلها كان جزاؤها: سلبت أراضيها وبيع أفرادها عبيداً وتعرضت لغش التجار، مما دفع زعيمها لمهاجمة

---

(10) نفس المرجع، ص356.

(11) نفس المرجع، ص232.

(12) نفس المرجع، ص232.

(13) نفس المرجع، ص329.

المستعمرات الإنجليزية في سنة 1711 وقتل 200 مستوطن، ولكن المستعمرين الإنجليز ردوا الكرة عليهم بمساعدة هنود آخرين، لاسيما من قبيلة الياماسي، وهكذا تدور الدائرة، ورغم عقد السلام فإن الإنجليز لم يحترموه وواصلوا أسر أفراد التوسكارورا لاسترقاقهم ودخلت المنطقة في دوامة العدوان والمقاومة مرة أخرى إلى أن هجم الإنجليز على قرية في سنة 1713 وقتلوا وأسروا ما يقارب ألفاً من الهنود واضطروا الناجين إلى الهجرة شمالاً حيث انضموا إلى تحالف الإيروكوي[14].

ولم يمض وقت طويل حتى عانت قبيلة الياماسي حليفة الإنجليز من سوء معاملتهم ودارت الدائرة عليها في موطنها الجديد الذي هاجرت إليه هرباً من سوء المعاملة الإسبانية ومحاولة الإسبان ترحيلها إلى جزر الهند الغربية ليصبح أفرادها رقيقاً رغم أنهم حضروا في البداية إلى بلاد الهنود بصفتهم مبشرين، فلما ظهرت حقيقتهم هاجم الهنود بعثاتهم التبشيرية ودمروها وانسحبوا شمالاً من المنطقة نحو مستعمرة كارولينا الإنجليزية[15]، وفي هذا دليل على أن نشر الدين كان يتراجع أمام مصالح المستعمرين الأوروبيين الدنيوية.

وتنوعت إساءة المعاملة الجديدة من سلب أراضي الهنود دون مقابل وفرض العمل بالسخرة عليهم إلى اغتصاب نسائهم واسترقاق أبنائهم وزوجاتهم بعد استدراجهم في فخ المديونية من الخمور والبضائع الأوروبية الأخرى[16]، (وقد وقعت بلادنا فيما بعد في كوارث الاحتلال والاستعباد نتيجة نفس فخ المديونية الذي نصب للسكان الأصليين في أمريكا)،وطالما اشتكى الهنود إلى حكام المستعمرة من ممارسات التجار الجائرة، وكثيراً ما عادوا بالكلام المعسول فقط أو بوعود بالعمل على وقف هذه المظالم ولكن دون جدوى[17]، ويلاحظ قارئ التاريخ الأمريكي تكرر هذه الظاهرة، وهي إحجام السلطات عن كبح جماح

---

(14) Waldman، 2006، ص304.
(15) Lamar، 1998، ص1243.
(16) Waldman، 2006، ص323.
- Marks، 1998، ص25.
(17) Gallay، 2002، ص322-335.

مواطنيها وكف أيديهم عن ظلم الهنود رغم اعترافها بخطايا تجاوزاتهم وإقرارها النظري بضرورة إيقافها، ويتساءل الضحية هل كان هذا الإحجام ناتجاً عن "عدم قدرة أو إهمال"؟[18]

وإضافة إلى الأسباب آنفة الذكر شعرت قبائل هندية أخرى من قبائل الجنوب الرئيسة كالكريك والشيروكي والشيكاسو بالظلم من عدم التساوي في المستويات الاقتصادية بينها وبين مستعمرة كارولينا، فالسكان الأصليون كانوا يرون الثراء الذي يرفل فيه الإنجليز هناك ويقارنونه بالفقر الذي يعيش الهنود فيه رغم أن التجارة القائمة بين الجانبين تستند إلى جهد الهنود في صيد الحيوانات وتحضير جلودها إضافة إلى الحصول على العبيد من القبائل المعادية (وهذا يذكرنا بالتجارة غير المتكافئة القائمة بين بلادنا والغرب إلى هذا اليوم)، كما أن الاوروبيين كانوا يستفيدون من بضائع الهنود (كالمواد الخام في بلادنا لاسيما النفط) ومعلوماتهم في الطب وهندسة الحصون والمواصلات، وكانوا يعتمدون على قوات هندية إذا قرروا الهجوم على قبيلة ما، ولم يتوان التجار الإنجليز عن إثارة حلفائهم الهنود ضد بعضهم البعض للحصول على الرقيق من هذه العداوات القبلية التي ينتج عنها الحروب والغارات (وكم استفاد الاستعمار في بلادنا من العداوات القبلية وأثار بها حروباً طاحنة بيننا) ولم يستفد منها غير المستعمر الأجنبي ولم يتضرر غير أصحاب البلاد بمجموعهم غالبين ومغلوبين والذين اخترق التجار نسيجهم الاجتماعي، وكانوا يخطفون أعضاء من القبيلة، أصليين أو متبنين، لسداد ديون تورطت فيها القبيلة وأعضاؤها، وكان خطر هذا الاستنزاف مضاعفاً بعدما قضت الأوبئة على أعداد ضخمة من السكان الأصليين، فأدى كل ذلك بالإضافة إلى ذكريات تلك القبائل عن ماضيها المزدهر إلى جعلها تنظر بعدم رضا إلى ثراء الإنجليز، مما منعها من الرضا بالإساءة من جانبهم، وجعل حرب الياماسي القادمة حتمية بعدما توصل الهنود إلى استنتاج أهمية المقاومة لبقائهم وحفاظهم على وجودهم من هذا الاستنزاف[19].

لم يكتف التجار بإساءاتهم التي عاملوا بها القبائل الهندية، والتي سكتت

---

(18) نفس المرجع، ص322.

(19) نفس المرجع، ص223 و333.

عنها السلطات المسئولة في المستعمرة، بل إنهم لما وجدوا التجارة في حالة تراجع ولم يعد لها من الأهمية ما كان لها سابقاً عملوا على إشعال الحرب بين المستعمرة والسكان الأصليين للحصول على أراضيهم[20] وطردهم منها، وهو ما جعل من اندلاع الحرب أمراً لا مفر منه وفرض القتال على الهنود، وقد رأينا تكرار هذا النموذج في بلادنا، فكم من حرب أشعلها الغرب لحفز تجارة السلاح والنفط ؟

وفي يوم الجمعة الحزينة 15/ 4/ 1715 هاجم المقاتلون الهنود المستوطنات التابعة لكارولينا وقتلوا أكثر من مائة من المستوطنين ثم وصلت حصيلة قتلى المستوطنات إلى 300 بالإضافة إلى التجار المتواجدين بين الهنود[21]، وقد دفع ذلك الكثيرين للهروب إلى ميناء شارلستون على البحر[22]، ورد الحاكم الاستعماري بتنظيم ميليشيا قامت بملاحقة الهنود في الشهور التالية ومهاجمة القرى حتى تشتتت قبيلة الياماسي، الرئيسة في هذه الحرب، بين القبائل الأخرى وأبيد كيانها ولم يعد لها وجود قائم، وظل الإنجليز يلاحقون أفرادها حتى أنهم وصلوا فلوريدا وقاموا بتدمير قرية في سنة 1727.

لم تكن نتيجة الحرب مدمرة على بقية القبائل الهندية كما كانت على قبيلة الياماسي[23]، لأن مشاركتها في القتال لم تكن بنفس القوة، فبينما هاجم الياماسي المستعمرات ركز غيرهم على التجار المسيئين[24]، إلا أن المصير القاتم كان بانتظارهم فيما بعد، أما على المدى القصير فقد أعادت هذه القبائل ترتيب علاقاتها بالمستعمرين على أسس جديدة ولم تعد تتحالف مع قوة واحدة من الأوروبيين بل تستخدمهم ضد بعضهم البعض أثناء تنافسهم[25]، وتنامت قوة الهنود إلى حين[26].

---

(20) نفس المرجع، ص331.

(21) Lamar، 1998، ص1243،

(22) Waldman، 2006، ص323.

(23) Lamar، 1998، ص1243.

(24) Gallay، 2002، ص338.

(25) نفس المرجع، ص340.

(26) نفس المرجع، ص339.

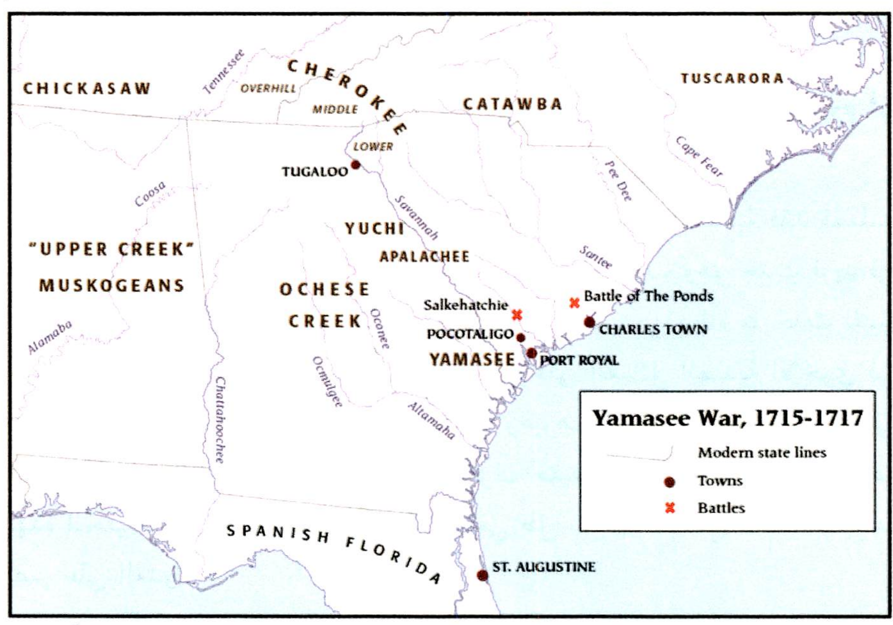
أما على الجانب الاستعماري فقد دمرت الحرب مستعمرة كارولينا التي احتاجت عشرين سنة لإعادة البناء[27]، وتم لها ذلك بسبب امتلاكها قوة عمل العبيد[28]، الذين عملوا بمزارع الرز التي استقر وضعها إلى نهاية الحرب الأهلية (1865)[29]، وانحسرت تجارة العبيد الهنود ولم يعد بالإمكان استخدام السكان الأصليين في أسر بعضهم بعضاً[30]، كما لم يعد من الممكن استخدامهم في حراسة الحدود فاستخدم بدلاً منهم فقراء البيض[31].

ولحاجة المستعمرة إلى السكان الأصليين في مرحلة تالية فقد فضلت النسيان على الانتقام، واعترفت بمسئوليتها عن قيام الحرب وهو حدث فريد في الحروب الهندية[32]، وإن كان ذلك لا يغطي ولا يخفف من وطأة ما حدث لقبيلة الياماسي من استئصال وحشي يشبه ما جرى على القبائل الهندية الأخرى في السابق كالبوهاتان والبيكوت والناراجانست وغيرهم، فإن هذا التنازل يدل على طبيعة السياسة الاستعمارية التي كانت تعرف حقيقة نفسها ومستعدة للاعتراف بهذه الحقيقة لو تطلبت المصالح ولكنها في ظل تفوقها المادي كانت غالباً ما تصر على العدوان.

وبغض النظر عن الحروب التي جرتها تجارة الرقيق الهندي في جنوب شرق أمريكا وما نجم عنها من ضحايا، فإنه من الصعب أن نتوصل إلى عدد ضحايا الرق المباشرين الذين تاجر الأوروبيون بهم، ولكن أحد الباحثين قدر عدد الهنود الذين استُرقوا بين 1670-1717 على أيدي الإنجليز وحدهم في هذه المنطقة فقط بما بين 30-50 ألفاً[33]، فإذا علمنا أن السكان الأصليين في منطقة الجنوب الشرقي قدر عددهم سنة 1715 بما يقارب 40 ألفاً[34]، وأن عدد

(27) نفس المرجع، ص353.
(28) نفس المرجع، ص340.
(29) نفس المرجع، ص338 و341.
(30) نفس المرجع، ص338.
(31) نفس المرجع، ص343.
(32) نفس المرجع، ص342.
(33) نفس المرجع، ص299.
(34) نفس المرجع، ص206 و208.

المسترقين المذكور هو عدد من استرقهم الإنجليز وحدهم، علمنا حجم الكارثة التي أنزلتها تجارة الرقيق بالمجتمعات الهندية في ذلك الزمن.



المواقع الرئيسة في حرب الياماسي في كارولينا بجنوب الولايات المتحدة حالياً كما نشرتها موسوعة ويكيبيديا

وهناك باحث يعزو الدمار الذي نتج عن انتشار الأوبئة في الجنوب الشرقي والتي يراها أكثر من مجرد نتيجة غير مقصودة لوصول الأوروبيين والأفارقة إلى أمريكا، يعزوها إلى الممارسات الاستعمارية التي قام بها الأوروبيون في الأرض الجديدة، وكان أشدها وقعاً تجارة الرقيق الهندية، ويقارن بين الحضور الإسباني المبكر مع الحضور الإنجليزي فيما بعد، ورغم أنه سبق الحضور الإنجليزي كثيراً فإنه لم ينتج عنه دمار كالذي أوقعه وباء الجدري العظيم في الفترة 1696-1700 وتبعاته فيما بعد، وذلك لأن الاستعمار الإسباني على بشاعة ودموية وسائله في الإخضاع، لم يهيئ الظروف المناسبة لانتشار الأوبئة في المناطق البعيدة عن الاحتكاك المباشر به، وهي الظروف التي هيأتها تجارة الرقيق بانتقال جموع بشرية كثيفة مسافات شاسعة بالإضافة إلى العنف المصاحب لعملية القسر والذي هيأ الظروف البيئية اللازمة لتصاعد حجم الخسائر البشرية تصاعداً مخيفاً.

واستنتج هذا الباحث نفسه "أن التبدل الجذري في المشهد الاجتماعي لم يكن نتيجة لا يمكن تجنبها بعد إدخال جراثيم جديدة، بل هو نتيجة للظروف التي أوجدها الاستعمار الإنجليزي ومكن بها هذه الجراثيم الجديدة من الوصول إلى أقصى درجات إمكاناتها القاتلة"[35]، ويؤكد المؤلف دور تجارة الرقيق في إبادة السكان الأصليين بقوله إنه بعدما أنهت حرب الياماسي هذه التجارة لم يحدث وباء بعد سنة 1715 ما أحدثته الأوبئة التي تفشت عندما كانت تجارة البشر في أوجها[36].

(35) Kelton، 2007، ص223.

(36) نفس المرجع، ص224.



الفصل التاسع

الحروب بين الدول الاستعمارية

(1)

الحروب الفرنسية والهندية

قبل نشوء الولايات المتحدة الأمريكية (1776)، تنافست خمس أمم أوروبية على استعمار أمريكا الشمالية وهي إنجلترا وفرنسا وإسبانيا وهولندا والسويد، وقد خرج السويديون (1645) والهولنديون (1674) من المنافسة مبكراً، أما الإسبان فلم يكن لهم اهتمام بالاستعمار شمال فلوريدا، ولم يتبق من الدول التي تملك الرغبة والموارد للمنافسة على القارة ومواردها إلا فرنسا وإنجلترا (أو بريطانيا منذ 1707)[1]، ولم يقتصر العنف الأوروبي في أمريكا على اضطهاد السكان الأصليين ومحاولة إخضاعهم وسلبهم، إذ نشبت بين هذه الدول الأوروبية حروب طاحنة للتنافس على أراضي وثروات أمريكا، وسميت هذه الحروب بالحروب الاستعمارية وكانت امتداداً لحروب وقعت خارج الأراضي الأمريكية تنافست فيها القوى الأوروبية في بقية العالم، ومن أشهر الحروب الاستعمارية الحروب الفرنسية والهندية (1689-1763)، ويمكن أن نضم إليها كذلك الثورة الأمريكية على الحكم البريطاني (1775-1783) ثم الحرب الأمريكية البريطانية (1812-1814)، واللافت للنظر في كل هذه الحروب أن السكان الأصليين كانوا ينضمون فيها إلى الطرف الأقل خطراً عليهم والذي يحقق التحالف معه أكبر قدر من مصالحهم، وشهدت جميع هذه الحروب وجهاً هندياً

---

(1) Lamar، 1998، ص237-238.

قاتل فيه السكان الأصليون دفاعاً عن وجودهم وكانوا يواصلون القتال حتى بعد هزيمة حلفائهم الأوروبيين وتسوية خلافاتهم مع خصومهم مما يؤكد استقلالية القرار الهندي وكون التحالف مع أي طرف أوروبي إنما تم لتحقيق مصالح السكان الأصليين وأنهم لم يكونوا مجرد أدوات كما صورتهم دعاية ذلك الزمن تبريراً للعدوان عليهم وقمعهم إذ كان المستعمِر في كل زمن يصور ثورة المستعمَر بأنها مؤامرة خارجية تستعمل المحليين أدوات لها.

الحروب الفرنسية والهندية:

هي أربعة حروب اندلعت بين الإنجليز والفرنسيين في أمريكا الشمالية وذلك بعدما بدأ التنافس الفعلي بين الأمتين منذ استيلاء الإنجليز على مستعمرة نيو أمستردام الهولندية سنة 1664 وأصبحوا بذلك على اتصال مباشر عبر المجاري المائية في نيويورك -كما أصبح اسمها- بمنطقة البحيرات العظمى حيث القبائل الهندية التي تزود الفرنسيين بالفراء الثمين، ومن ثم أصبح الإنجليز قادرين على منافسة الفرنسيين[2]، وكانت الحروب الفرنسية والهندية امتداداً لحروب أوروبية، وهي حرب الملك وليم (1689-1697) التي كانت جزءاً من حرب الحلف الكبير، وحرب الملكة آن (1702-1713) التي كانت امتداداً لحرب الوراثة الإسبانية في أوروبا، وحرب الملك جورج (1744-1748) التي كانت امتداداً أمريكياً لحرب الوراثة النمساوية، والحرب الفرنسية والهندية (1754-1763) التي كانت جبهة أمريكية ضمن حرب السنوات السبع التي شملت بالإضافة إلى الجبهة الأمريكية أوروبا وآسيا وغرب إفريقيا[3]، وكانت الحرب الفرنسية والهندية هي الأكثر امتداداً وحسماً من بين الحروب السابقة، ولهذا أطلق اسمها على ما سبقها كما اطلق عليها اسم الحرب العظمى من أجل الامبراطورية، وهناك من المؤرخين من يرون الحروب الأربع حرباً واحدة ممتدة بين 1698-1763 فصلت بينها فترات من الهدنة[4]، ومنهم من يرى أن هذه

(2) نفس المرجع، ص238.

(3) Foner، 2005، ص151.

(4) Waldman، 2000، ص121 و124.

الحرب لم تنته بين امبراطوريتي بريطانيا وفرنسا إلا بهزيمة نابليون سنة 1815[5].

وما يتصل بموضوعنا في هذه الحروب أن معظم القبائل الهندية التي اتصلت بميادينها حاربت إلى جانب الفرنسيين ضد الإنجليز، وليس من الصعب أن نتبين السبب في ذلك، ولكن من المهم قبل التطرق إلى سبب الاصطفاف الهندي إلى جانب فرنسا أن نطلع على النوايا الحسنة التي بدأ بها الفرنسيون حضورهم في أمريكا كما بدأ الإنجليز في كثير من مستعمراتهم أيضاً بنوايا طيبة ولكن تطلعهم إلى احتلال أرض الهنود نتيجة كثرة أعدادهم دمر العلاقة بين الطرفين كما دمر الإسبان أيضاً علاقتهم بالهنود باسترقاقهم، ومما دعم وضع الفرنسيين عند السكان الأصليين في البداية سير مستوطنيهم قدماً لمدة زمنية أطول في تطبيق سياسة الاندماج بينهم وبين الهنود بسبب قلة عدد المهاجرين الفرنسيين وهو ما جعلهم يعوضون هذا النقص السكاني بجلب الهنود المسيحيين إلى مقرهم في كويبك، ولكن هذه السياسة الودية التي استهدفت الاندماج الكامل ما لبثت أن اصطدمت بمتطلبات الاستعمار في نهاية القرن السابع عشر وربح الفرنسيون موقعهم في لويزيانا إلى الغرب من مستعمرات الساحل الشرقي الإنجليزية وبذلك انضمت فرنسا إلى حلبة المتنافسين الأوروبيين على الهيمنة على الأراضي والموارد الأمريكية[6].



الهيمنة الأوروبية على أمريكا الشمالية في سنة 1700[7]

(5) Debo، 1983، ص70.

(6) Debo، 1983، ص68-69.

(7) http://homes.chass.utoronto.ca/~reak/hist/naclaim.htm

أما عن سبب انضمام الهنود إلى هذا الطرف أو ذاك من الأوروبيين فكان هو قدرة الطرف الأوروبي على تلبية مطالب السكان الأصليين التي تركزت على حماية أراضيهم أو الحصول على البضائع الأوروبية بالتجارة أو بالإهداء[8]، ومع أن هناك من المؤرخين من يرون أن وضع السكان الأصليين في الحروب الاستعمارية كوضع الأدوات[9]، فإن هناك من يصحح هذه الرؤية بتقديم الأدلة على استقلالية القرار الهندي النابع من حاجات السكان الأصليين الذاتية المختلفة عن الأهداف الأوروبية[10]، وما يؤكد ذلك أن الهنود كثيراً ما واصلوا حروبهم بعد استسلام حلفائهم الأوروبيين ولم يكونوا معنيين بتوصيفهم أتباعاً لملوك أوروبا، وهو أمر حرصت السياسات الأوروبية على تأكيده رغم عدم تقديم السكان الأصليين هذا التنازل لها[11].

وقد حرصت القوتان الأوروبيتان المتنافستان والمتصارعتان على التحالف مع القبائل الهندية لأن هذا التحالف كان عاملاً حاسماً في الانتصار في الحرب[12]، وقد أدرك الإنجليز والفرنسيون ذلك كما أدركوا أهمية التجارة في تأمين هذا التحالف[13]، وكان الطرف الفرنسي في الحروب الإنجليزية الفرنسية هو الأكثر ملاءمة للسكان الأصليين وحاجاتهم المتصلة بحماية وجودهم على أراضيهم من الاستيطان الإنجليزي الذي أرسل مهاجريه إلى أمريكا بأعداد تفوق أعداد الفرنسيين مما جعل المستوطنين الإنجليز أشد خطراً على الهنود من الفرنسيين الذين تركز اهتمامهم بممارسة التجارة أكثر من الاستيطان[14] وكانوا يواجهون العدو الإنجليزي نفسه[15]، ويقول أحد المؤرخين إن الفرنسيين لم

---

(8) Waldman، 2000، ص121.
(9) Debo، 1983، ص68 و70.
(10) Marks، 1998، ص30.
- Waldman، 2000، ص121.
- Lamar، 1998، ص238.
(11) Gallay، 2002، ص176.
(12) Waldman، 2000، ص121.
(13) Jennings، 2000، ص21.
(14) Reynolds، 2009، ص40.
(15) Debo، 1983، ص79؛ - Wissler، 1989، ص81.

يفدوا لأمريكا للاستيطان فيها بل للاكتشاف والحصول على الفراء والتبشير بالمسيحية[16]، ويقول آخر إن الفرنسيين كانوا أقل القوى الاستعمارية وطأة على الهنود[17]، وقد فهم السكان الأصليون الفروق بين الفرنسيين والإنجليز[18]، ويعترف جورج واشنطن، الذي سيصبح مؤسس الجمهورية الأمريكية وأول رئيس لها فيما بعد، بأهمية دور السكان الأصليين في انتصار بريطانيا في آخر هذه الحروب، وهي الحرب الفرنسية والهندية (1754-1763) فيقول إن الهندي هو وحده المكافئ لنظيره الهندي، ولولا المساعدة التي قدمها حلفاء بريطانيا من الهنود لتساوت الكفتان البريطانية والفرنسية[19].

وبينما كان الإنجليز يحرصون على التفريق بين القبائل الهندية ليتحكموا بها، كان الفرنسيون يعملون على توحيدها لمواجهة الخطر المشترك[20]، وفي تحليل كتبه تاجر بريطاني في كارولينا في منتصف القرن الثامن عشر وقبل اندلاع الحرب الفرنسية والهندية، قال إدموند آتكين إن صداقة الفرنسيين مع الهنود لم تتحقق بواسطة بناء الحصون الفرنسية في أراضي السكان الأصليين، فتلك الحصون كان من الممكن أن يجتاحها الهنود بسهولة ويزيلونها من الوجود، وقد تمكن الفرنسيون من كسب ود الهنود بالصداقة وليس بالخوف، والهنود ينظرون إليهم بصفتهم محسنين يقدمون الخدمات والهدايا كالأسلحة والذخائر وغيرها، ويرسلون الحدادين والحرفيين للعمل بين السكان الأصليين على إصلاح أدواتهم تحت رقابة إدارة مركزية لا تقبل إلحاق الظلم بهم، أما الإنجليز فإنهم لا يبنون حصوناً لحماية الهنود ولا يصلحون لهم أدواتهم، مع أن الهندي يثمن إصلاح سلاحه أكثر من منحه سلاحاً جديداً، ولا يأبه الإنجليز كذلك بالسكان الأصليين إلا بصفتهم صيادي جلود يقوم التجار بغشهم وخداعهم أيضاً.

وقد أدى تقديم هذا النقد إلى تعيين آتكين في وظيفة المراقب العام للشئون

---

(16) العسلي، 1980، ص30.

(17) White، 1979، ص221.

(18) Jennings، 2000، ص18.

(19) Robert A. Williams، 1990، ص280، هامش رقم 8.

(20) Wissler، 1989، ص81.

الهندية في المستعمرات الجنوبية، ولكن التعارض الموضوعي بين مصالح المستوطنين الإنجليز والسكان الأصليين لم يدع مجالاً لحسن النوايا أن يقوم بإصلاح العلاقات بين الطرفين، إذ سرعان ما غضب المستوطنون من قرار الملك البريطاني سنة 1763 تحديد مجال الاستيطان وعدم اجتيازه وقامت الثورة الأمريكية لتجهض خطة آتكين، ويخلفه في منصب الإشراف على العلاقة مع السكان الأصليين رجال سلبوا ممتلكات الهنود وسمحوا أحياناً بإبادتهم فعلياً من على وجه الأرض[21].

ورغم دور الهنود الرئيس في تحقيق انتصار بريطانيا في الحرب الفرنسية والهندية[22] فقد أثبتت الحوادث أن الهندي كان هو الخاسر دائماً مهما كانت النتائج النهائية لتلك الصراعات[23]، ذلك أن الطرف القوي المنتصر صاحب الموارد المادية والبشرية الأكثر حضوراً في القارة الأمريكية والتي انتصر بسببها على منافسه الأوروبي، أظهر قوته أيضاً على السكان الأصليين واستعملها في المزيد من سلبهم واضطهادهم كما استعملها من قبل في إزاحة منافسيه الامبراطوريين، في الوقت الذي كان فيه حلفاء الهنود على الدوام غير مهتمين بمصير السكان الأصليين بعد هزيمة دولهم الأوروبية في الصراع على أمريكا، وكانت معاهدات السلام التي تعقب نهاية الحروب لا تذكر شيئاً عن حقوق الهنود الذين كانوا أكثر المتضررين ومع ذلك لا يهتم بهم حليفهم المهزوم ولا عدوهم المنتصر، ويُتركون لمواجهة مصيرهم أمام مد المنتصر الكاسح والذي لا يراعي حتى حلفائه من السكان الأصليين، ويجملهم ضمن من يجب عليه دفع فاتورة الهزيمة والاستسلام وينسى كل بلائهم إلى جانبه مما أوضح أنه لم يكن ينظر إلى تأييدهم إلا بصفته أداة يستعملها ثم يتخلص منها.

وقد أفصح عن هذه الرؤية إلى جانب المصير الذي تعرض له المتعاونون مع المنتصر الأمريكي في نهاية المطاف، الاحتقار والحقد اللذان كشف عنهما ما قاله مسئول فرنسي عن حلفاء فرنسا من الهنود ضد هنود آخرين متحالفين مع

---

(21) Jacobs، 1985، ص62-67.

(22) Reynolds، 2009، ص40.

(23) Waldman، 2000، ص121.

الإنجليز كانوا يزعجون تجارة الفرنسيين في نهر المسيسبي في الجنوب، فلما سلطوا عليهم إخوانهم الذين دمروا قراهم وقتلوا وأسروا المئات منهم، قال ذلك الفرنسي إن أهم نتيجة لهذه الحرب (1716) هي تدمير هؤلاء الهنود المعادين وحجم خسائرهم الضخم، والأهم من ذلك أنها لم تكلف قطرة دم فرنسي، وذلك بسبب الاهتمام الموجه لضرب هؤلاء المتوحشين بعضهم ببعض، وإن هذا التدمير الذاتي من داخل المجتمعات البربرية لأنفسها هو الوسيلة الأكثر فاعلية لضمان الهدوء في مستعمرة الفرنسيين[24].

لقد عامل المستوطنون السكان الأصليين منذ البداية وفقاً لدرجة انتفاعهم منهم، وذلك كما رأيناهم في بداية الاستيطان عندما احتاجوا مساعدة الهنود ثم انقلبوا عليهم، وهذا ما حدث أيضاً زمن الحروب الاستعمارية، إذ لم تراع خواطر الهنود إلا عند الحاجة إلى مساعدتهم وبالقدر الذي يحقق المصالح منهم، ومن ذلك ما أوصت به لجنة بريطانية رسمية في مستعمرة كارولينا سنة 1713 بوجوب عدم السماح للتجار بغش الهنود ومعاملتهم بغطرسة تهينهم وتتناقض مع صداقتهم، وكررت ما هو معلوم آنذاك من أن الهنود "هم حصن هذه المستوطنة"[25].

وكما سبق ذكره كانت هذه المراعاة نابعة من الحاجة وليست من سمو الأخلاق، وكان الأوروبيون يبررون لأنفسهم انتهاك حقوق الهنود برؤاهم الاستئصالية عندما يحتاجون لذلك بتشويه صورتهم أو استغلال نقاط ضعفهم، ومن ذلك استغلال بعض مظاهر الحرب وطقوسها عند السكان الأصليين لوصمهم بصفات التوحش والدموية والعنف في مقابل "نبل" الرجل الأبيض في حروبه "المتحضرة"[26]، في الوقت الذي تسلب فيه الإيجابيات منهم وتطرى بسبب انطباقها على إيجابيات الأوروبيين[27]، ثم يأتي دور الدقة العلمية والمشاعر

(24) Debo، 1983، ص74-75.

(25) Gallay، 2002، ص318.

(26) نفس المرجع، ص172.

- Jennings، 2000، ص119.

- Sword، 1993، ص8- 9.

(27) Gallay، 2002، ص173.

الإنسانية المتفهمة بعد فوات الأوان "ليكتشف" المؤرخون المعاصرون أن توحش الهندي كان يظهر للأوروبيين بعد ارتكابهم هم ممارسات وحشية كالمذابح وأعمال العنف المتوحشة[28]، وأن المجتمعات الهندية لم تكن مجتمعات حربية رغم أهمية الحرب في حياتها ولكنها مع ذلك لم تكن هذه الحرب هي المتحكمة في مسارها وأن القدرات السياسية كانت لها الأولوية في مكانة الزعامات الهندية مثلها في ذلك مثل كثير من المجتمعات البشرية التي عاصرتها[29]، وأن الحروب "الهمجية" تتضاءل إلى جانب الحروب "المتحضرة" الأكثر استمراراً والأوسع انتشاراً[30]، وأن الحروب بين القبائل الهندية كانت أشبه بعمليات تسلية واستعراض مهارات المحارب وشجاعته أكثر منها عمليات عنيفة ودموية، وقد تستمر مدداً طويلة مع سقوط أقل عدد ممكن من الضحايا، وأن الهنود هم الذين ذُهلوا من وحشية الرجل الأبيض كما سبق الحديث عن حرب البيكوت (1637)، وأن "الحضارة" الأوروبية استفادت من الممارسات الهمجية كسلخ الرءوس ونشرتها على أوسع نطاق بعرض المكافآت المجزية عليها، وأصبح القتل في النهاية مجرد "رياضة" يمارسها الرجل الأبيض ضد السكان الأصليين كما سيأتي الحديث، فلا عجب إذن إن لم تؤد الحروب "الهمجية" الهندية، بل الهزلية في الحقيقة، إلى الإبادة التي أنجزتها حروب "النبل" و"الشجاعة" و"القداسة" و"الحضارة" البيضاء، كل هذه الحقائق اكتشفها الرجل الأبيض ولكن بعد فوات الأوان كعادته في العطف على ضحاياه وتفهم مواقفهم ولكن بعد فنائهم.

اندلعت الحروب الفرنسية والهندية بسبب تنافس الإنجليز والفرنسيين على التجارة مع الهنود والتمدد في أراضيهم، وقد قاوم السكان الأصليون الأوروبيين في أثناء هذه الحروب ونشبت حروب هندية إلى جانبها ضد كل من الإنجليز والفرنسيين، مثل حرب التوسكارورا (1711) وحرب الياماسي (1715) اللتين سبق الحديث عنهما في مستعمرة كارولينا البريطانية، وحرب الشيروكي (1760) ضد نفس المستعمرة، وكثورات قبائل الناتشيز (1729) والشيكاسو (ابتداء من

(28) Sword، 1993، ص9.

(29) Gallay، 2002، ص173-174.

(30) Jennings، 2000، ص119.

الثلاثينيات) والثعلب "Fox" (ابتداء من العشرينيات) ضد الفرنسيين ولمقاومتهم[31].



مشهد يصور قتال الهنود إلى جانب الفرنسيين ضد الإنجليز في الحرب الفرنسية والهندية

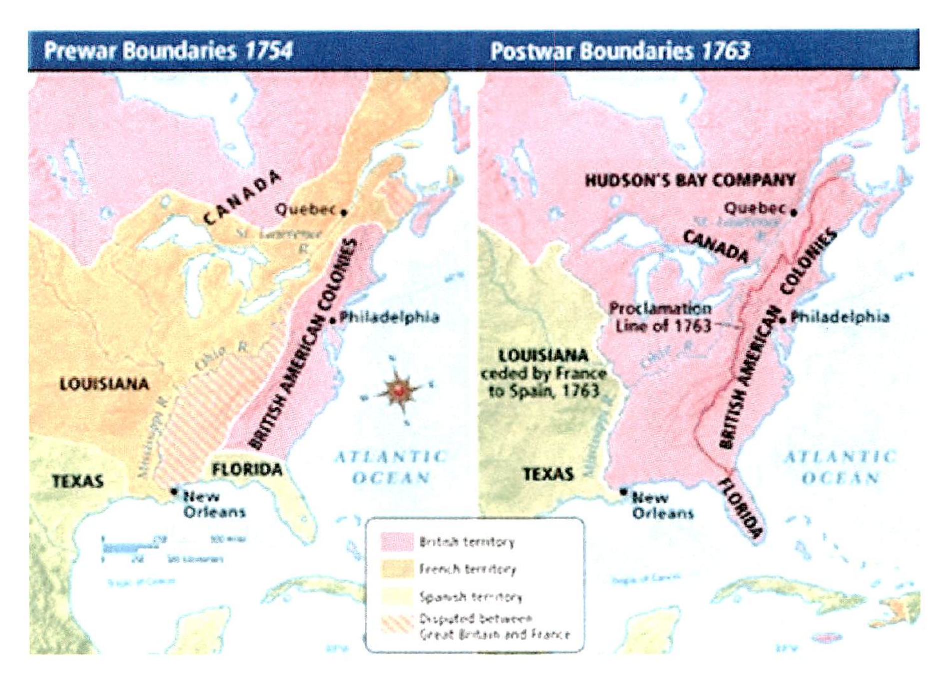
وكان السبب المباشر لاندلاع الحرب الفرنسية والهندية الأخيرة (1754- 1963) والتي سبقت اندلاع حرب السنوات السبع (1756- 1763) بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية بعامين، هو سياسة بريطانيا في محاولة طرد الفرنسيين من وادي نهر الأوهايو جنوب البحيرات العظمى، وكان اهتمام الفرنسيين بهذه المنطقة نابعاً من رغبتهم في وصل أملاكهم في كندا مع أملاكهم في لويزيانا بسلسلة من الحصون، وهو ما كان عائقاً في وجه التمدد البريطاني غرباً مما أدى إلى اندلاع الصراع[32] الذي وقف فيه الهنود إلى جانب الطرف الأقل خطراً استيطانياً على أراضيهم وهو الطرف الفرنسي، ورغم الدور الهندي في هذه الحرب فإن دور السكان الأصليين تميز بعد انتهائها وتوقيع فرنسا صلح باريس (1763) دون ذكر حلفائها الهنود أو ضمان حقوقهم وتم نقل ملكية أراض واسعة يعيشون عليها بين ملوك أوروبا "بجرة قلم" دون استشارتهم وفي انتهاك واضح لمعاهدات سابقة عقدت معهم مما تسبب في إحباط عميق لهم شبهه بعض المؤرخين بالصعقة[33] فأعلنوا الثورة على بريطانيا المنتصرة منذ شعورهم بهزيمة فرنسا.

---

(31) Waldman، 2000، ص126-128.

(32) New Standard Encyclopedea، 1999، ج7، صF-345

(33) Calloway، 2006، ص169.



التغيرات التي طرأت على الجغرافيا السياسية بعد الحرب الفرنسية والهندية التي هُزمت فيها فرنسا وانسحبت من أمريكا الشمالية لصالح بريطانيا وإسبانيا(34)

(34) http://missasmith.wikispaces.com/French+and+Indian+War

الفصل العاشر

ثورة الزعيم بونتياك
(1763)

بعد هزيمة الفرنسيين في مونتريال وسقوطها بيد الإنجليز (1760) أثناء الحرب الفرنسية والهندية، تتابع استسلام الحصون الفرنسية في منطقة البحيرات العظمى وانتقلت السيادة على المنطقة الواقعة شمال غرب المستعمرات، إلى بريطانيا، وكان ظن السكان الأصليين أن الإنجليز سيتابعون العلاقات معهم بنفس طريقة الفرنسيين السابقة، أي أنهم سيقومون بتزويد الهنود بالمساعدات (الأسلحة ومستلزماتها وأدوات المعيشة والملابس والبطانيات) والتي أصبحوا يعتمدون عليها في حياتهم، وسيفتحون مراكزهم التجارية لهم، مقابل الصداقة واستعمال أراضيهم في بناء الحصون والمواصلات والاستيطان، ولكن القائد البريطاني العام في أمريكا اللورد جيفري أمهرست قرر أن الطريقة المثلى للسيطرة على السكان الأصليين هي الصرامة والعقوبات وليس منحهم "رشوة" من المؤن لاسترضائهم، فقام بتقليص المساعدات بنسبة 40%، وهو ما وضع الهنود في حالة حرجة أدت إلى استيائهم الذي زاده سلوك المستوطنين المتغطرس وإقلاعهم عن الاختلاط بالهنود كما كان يفعل الفرنسيون من قبل[1]، وفي حربه على القبائل المتذمرة أمر أمهرست بنشر مرض الجدري بينها بواسطة البطانيات الملوثة التي أهديت إلى الزعماء بصفتها تعبيراً عن حقيقة التقدير البريطاني لهم، وقد

---

(1) Waldman، 2000، ص128.
- Lamar، 1998، ص897.
- New Standard Encyclopedea، 1999، ج13، ص476.

أدت هذه الجريمة إلى انتشار الوباء في وادي نهر الأوهايو بين عدة قبائل[2]، وكانت هذه الحرب من أولى الحروب التي استعملت فيها أسلحة الدمار الشامل البيولوجية رغم بدائية الوسائل التي طورها الغرب فيما بعد ثم ألقى التهم على الآخرين يمنة ويسرة باستعمال هذه الأسلحة التي كان له "شرف" اختراعها.

وقد رفض زعيم قبائل أوتاوا، بونتياك Pontiac، الذي كان قد أدى دوراً مهماً في الحرب إلى جانب الفرنسيين، فكرة أن استسلامهم يعني استسلام القبائل الهندية، وبنى تحالفاً من القبائل الهندية استهدف استعادة الأراضي الهندية التي تخلى عنها الفرنسيون لبريطانيا[3] وصد الهجرة والاستيطان الأوروبي في منطقة الشمال الغربي القديم (البحيرات العظمى ووادي الأوهايو)، وأدى سلوك التجار الذين كانوا يغشون الهنود بالخمور المغشوشة فيفسدون صحتهم ويستدرجونهم إلى بيع مساحات شاسعة من أراضيهم إلى تصاعد الغضب الهندي[4].

أدى استياء الهنود وتذمرهم إلى محاولات مقاومة ظلت في مهدها إلى أن ظهر بونتياك، الذي أهلته مواهبه الخطابية والقتالية إلى كسب احترام مختلف القبائل في منطقة الشمال الغربي فعمل على توحيدها تحت راية واحدة وفقاً للنموذج الذي اتبعه ميتاكوم (الملك فيليب 1675) من قبله والذي سيتبعه عدد من الزعماء الموهوبين فيما بعد، وطاف بين القبائل وأخبر زعماءها أنه إذا لم يتحد السكان الأصليون لمقاومة الاستيطان، سيغمرهم الإنجليز كطوفان أمواج البحر اللانهائي[5]، وانضم إلى قيادته السياسية والعسكرية دعوة دينية ثقافية بطلها شخص اسمه نيولين (أي المستنير) أطلق عليه لقب نبي قبيلة الديلاوير، والذي دعا إلى العودة إلى العادات والتقاليد الهندية ونبذ ما جاء به الرجل الأبيض حتى البندقية التي أصبحت هامة في حياة السكان الأصليين، وقد قبل بونتياك بهذه

---

(2) Thornton، 1990، ص78-79.
(3) The New York Public Library، 1997، ص6 و28 و149.
(4) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص296.
- Jacobs، 1985، ص37.
(5) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص296.

الدعوة الموحدة إلا أنه أدخل عليها بعض التعديلات التي وافق بها على استعمال البنادق وصداقة الفرنسيين الذين منحوه دعمهم الضمني في حربه على بريطانيا[6].

بدأت ثورة الزعيم بونتياك في ربيع سنة 1763، موحداً القبائل في منطقة البحيرات العظمى، وأعلن حرباً شاملة على جميع المستوطنات، وكان من المفترض أن يقوم كل من القبائل الهندية المتحالفة بمهاجمة الحصون البريطانية المجاورة لها[7]، وتمكن الهنود من إحراز انتصارات عديدة، فأسقطوا ثلثي القلاع الإثنتي عشرة ولم يتبق سوى أربع قلاع[8] منها ديترويت التي قاد حصارها بونتياك بنفسه، وقد عبر أحد المؤرخين عن هذه النتيجة بالقول إن بريطانيا خسرت الغرب في هذه الحرب[9]، وأغار الهنود على المستوطنات ودمروا المباني وهاجموا المزارع، وتم تدمير التخوم من نيويورك شمالاً إلى فرجينيا جنوباً[10]، وقد استمر حصار ديترويت شهوراً عديدة جعله من أطول عمليات الحصار في التاريخ العسكري الأمريكي[11] ولكن دون استسلام الحصن مما جعل حلفاء بونتياك يتخلون عن الحرب شيئاً فشيئاً، ولم تؤد نداءات طلب المساعدة من الفرنسيين إلى أية نتيجة بعدما ألمت الهزيمة بهم[12] وهو ما قاد إلى رفع الحصار عن ديترويت وإصابة الهنود بالإحباط[13]، وقد أدى تدخل الجيش البريطاني العنيف في وادي أوهايو حيث أحرقت جميع القرى التي لم تستسلم[14] إلى إجبار القبائل على القبول بالسلام وتسليم الأسرى[15].

---

(6) Waldman، 2000، ص128.

(7) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص297.

(8) New Standard Encyclopedea، 1999، ج13، ص476.

(9) Lamar، 1998، ص897.

(10) Debo، 1983، ص81.

(11) Brandon، 1985، ص205.

(12) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص297.

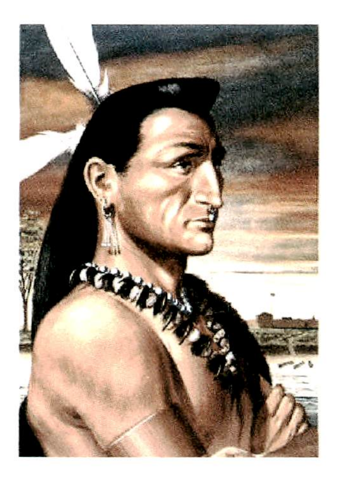
(13) Washburn، 1988، ص142.

- New Standard Encyclopedea، 1999، ج13، ص476.
- Waldman، 2000، ص130.

(14) Lamar، 1998، ص897.

(15) Washburn، 1988، ص142؛ - Wissler، 1989، ص92.

استمرت ثورة الزعيم بونتياك ثلاث سنوات[16]، ونتج عنها مقتل ألفي مستوطن[17]، وقد أثار قتاله ضد قوة الامبراطورية البريطانية لمنعها من احتلال بلاده إعجاب بعض المؤرخين[18]، وقال آخرون إنه تمكن من صد الإنجليز عن منطقة البحيرات العظمى لمدة ثلاث سنوات، وهي منطقة كانت مفتوحة قبل ذلك ومركزاً للاستيطان لمدة ستين عاماً سابقة[19]، وبعد انتهاء الثورة وعقد السلام غمر المستوطنون وادي نهر الأوهايو[20]، وهو ما أفقد الزعيم شعبيته بين الهنود بعدما ركن إلى الوعود البريطانية بلجم الاستيطان بعد اليأس من مساعدة فرنسا المستسلمة، وهي وعود توجت بالإعلان الذي أصدره ملك بريطانيا (أكتوبر/ تشرين الأول 1763)[21] بعد معاهدة باريس وقصد منه إحكام قبضته على المستعمرات الأمريكية واسترضاء القبائل الهندية، ولكنه كان من الدوافع الرئيسة لسخط المستعمرات على بريطانيا وثورتها على الحكم البريطاني بعد ذلك بسنوات قليلة وذلك نتيجة الجهود التي بذلت لكبح التمدد الاستيطاني داخل الأراضي الهندية[22].



الزعيم بونتياك (1720–1769) كما تخيله الفن المعاصر، والذي أصبح اسمه علماً على سيارة شهيرة من سيارات شركة جنرال موتورز مثل كثير من الأسماء الهندية التي اتخذها الأمريكيون علامات متحفية احتفوا بها بعد زوال خطر أصحابها، فهل سيصبح اسم فلسطين مثلاً أو اسم أي قائد فلسطيني علامة تجارية لمنتج إسرائيلي أو أمريكي أو غربي في المستقبل لو انتصر المشروع الصهيوني لا سمح الله؟

(16) The New York Public Library، 1997، ص45.
(17) Waldman، 2000، ص129.
(18) Wissler، 1989، ص92.
(19) Brandon، 1985، ص205.
(20) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص297.
(21) Waldman، 2000، ص130.
(22) Brandon، 1985، ص205.

ولكن بونتياك لم يركن إلى السلام إلا في سنة 1765 حين وقع معاهدة مع الإنجليز[23]، وحاول أن ينتقل من حلف فرنسا إلى حلف بريطانيا[24] مستخدماً الوضع الجديد هدنة يلتقط فيها أنفاسه لأجل توحيد السكان الأصليين ثانية ولكنه وجدهم أكثر اهتماماً بممارسة التجارة منهم بشن الحرب على عدوهم (هل يذكرنا هذا بما يناظره في الشرق العربي أيضاً والذي فضل التجارة مع الغرب وبيع ثرواته الثمينة للغربيين على استخدامها في المعركة ضدهم لاسترداد الحقوق ؟)، أما المقاتلون المتحمسون فقدْ فَقَدَ الزعيم مكانته بينهم من جراء تعامله مع الإنجليز ومسالمته إياهم[25]، (وهو أيضاً ما نجد نظيراً له في تاريخنا المعاصر الحافل بالقادة الثوريين الذين كانوا يفقدون شعبيتهم عندما يركنون إلى مسالمة الأعداء فتندلع الثورات ضدهم)، وقد أجبر ذلك بونتياك على مغادرة موطنه والنزوح بعيداً حيث اغتاله أحد الهنود الذي قيل إنه رشي ببرميل خمر من أحد التجار الإنجليز بدوافع مازالت غامضة وتتراوح بين الغيرة الشخصية والانتقام السياسي البريطاني[26]، وكان ذلك في سنة 1769، ورغم فشل بونتياك في إحداث ثورة أخرى فقد بذر بذور هذه الثورة التي سيشعلها مَن بعده[27]، وكان في تقويم أحد المؤرخين رجلاً من الفولاذ سُحق بين المطرقة البريطانية والسندان الفرنسي[28].



الملك جورج الثالث ملك بريطانيا وإيرلندا (1760–1801) وبعد اتحادهما (1801) أصبح ملك المملكة المتحدة حتى وفاته سنة 1820

(23) Lamar، 1998، ص897.
(24) Hoxie، 1996، ص497.
(25) Lamar، 1998، ص897.
(26) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص297.
- Waldman، 2000، ص130.
(27) Waldman، 2000، ص130.
(28) Bruce E. Johansen and Donald Grinde، 1998، ص296.

الإعلان الملكي: كانت النتيجة الأهم لثورة بونتياك هي إصدار ملك بريطانيا جورج الثالث إعلاناً ملكياً في 7 أكتوبر/ تشرين الأول 1763 تضمن وضع خط حدودي للاستيطان على طول جبال الأبالاش من البحيرات العظمى شمالاً إلى فلوريدا جنوباً لا يجوز للمستوطنين تجاوزه والتعدي على أراضي السكان الأصليين مع إصدار الأمر لمن استوطن في أرض الهنود بمغادرتها[29]، وكان الهدف المعلن من صدور هذا القانون هو تجنب الحروب مع الهنود، ليس رحمة بهم أو تطبيقاً للعدالة بل لتجنيب بريطانيا التورط في نزاعات حدودية لا قبل لها بها وكذلك تجنيب الخزينة البريطانية النفقات الباهظة للحروب الهندية كثورة الزعيم بونتياك، واستهدف الإعلان في نفس الوقت إحكام السيطرة على المستعمرات بمنع تمددها غرباً حتى لا تظهر فيها منشآت اقتصادية بعيدة ومن ثم مستقلة عن الموانيء التي تربطها ببريطانيا[30]، فكان هذا الإعلان هو التبرير القانوني للسيطرة على الأراضي الواسعة التي انتقلت إلى بريطانيا نتيجة الحرب الفرنسية والهندية، ولتنفيذ ذلك سينتشر عشرة آلاف جندي على طول الحدود بنفقة سنوية مقدارها 500 ألف جنيه، وكان على سكان المستعمرات توفير هذا المبلغ لتمويل الحد من حريتهم في التمدد الاستيطاني[31]، ولذلك صدرت قوانين لزيادة موارد الخزينة البريطانية بإحكام السيطرة الاقتصادية على المستعمرات وجباية الضرائب منها مثل قانون الدمغة (1765) الذي يفرض رسوماً على المطبوعات والمعاملات الورقية لتمويل حراس الحدود، وكانت كل هذه القيود مما أثار استياء المستوطنين الذين كانوا ينظرون إلى أمريكا بصفتها منبعاً للوفرة والغنى وأن أية محاولة لكبح وصولهم إلى مواردها ليست سوى تعد على حقوقهم الطبيعية التي استقوا نظريات جون لوك في تنظيرها، وزاد قانون الدمغة من ذلك الاستياء ومنحهم فرصة للاعتراض وفقاً لقاعدة "لا ضرائب بلا تمثيل"، وذلك لأن المستعمرات لم تكن ممثلة في البرلمان البريطاني ومن ثم فلا

---

(29) Hakim، 2003، ج3، ص36.

(30) Rosenbaum، 2003، ص299.

– Foner، 2005، ص155.

(31) Robert A. Williams، 1990، ص242.

يحق للسلطة أن تفرض ضرائب عليها[32].

استاء سكان المستعمرات من محاولة كبح تمددهم في أراضي الهنود التي جلا عنها الفرنسيون قريباً وكان المستوطنون، لاسيما الفقراء غير القادرين على شراء الأراضي من المضاربين[33]، يتوقون للحصول عليها[34]، واستاءت أيضاً حكومات هذه المستعمرات من إلغاء براءات تملكها الأراضي الواسعة، الممنوحة لها من الساحل الشرقي إلى الساحل الغربي[35] حين لم تكن الكشوف قد أدركت بعد حدود القارة الأمريكية[36]، ومن منعها من تنفيذ تعهداتها بمنح الأراضي لمن خدموا في الحرب الفرنسية والهندية[37]، وتجمع المراجع التي أرخت للثورة الأمريكية[38] -استناداً إلى إعلان الاستقلال نفسه الذي جعل من موقف الملك البريطاني الذي "أقام الحواجز والعقبات دون تملك أراض جديدة"[39]- على أن الإعلان الملكي كان من أسباب تذمر الأمريكيين من الحكم البريطاني لأنه كان "يحظر على الأمريكيين-التواقين لامتلاك الأراضي-الاستيطان في الغرب"[40]، وهذا ما جعله في نظرهم "إغفالاً استبدادياً لحقهم الأول في احتلال الأراضي الغربية واستثمارها كلما دعت الضرورة والحاجة"، وذلك رغم أن هذا الإعلان "لم ينفذ بصورة جدية مطلقاً"[41]، (ولعل هذا الاستياء الأمريكي يشبه في

---

(32) نفس المرجع، ص227-242.

(33) Brandon، 1985، ص207-208.

(34) Foner، 2005، ص155 و170.

(35) Washburn، 1988، ص10.

- Robert A. Williams، 1990، ص246.

(36) Robert A. Williams، 1990، ص290-291.

(37) Jennings، 2000، ص92.

(38) من هذه المراجع:

- New Standard Encyclopedia، 1999، ج14، صR-197 .

- Brandon، 1985، ص205.

- Foner، 2005، ص218.

- فاضل، 2007، ج3، ص114.

(39) العسلي، 1980، ص19.

(40) لاسي، ص69.

(41) وكالة الإعلام الأمريكية، ص25.

تاريخنا الاستياء الصهيوني من سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين نتيجة محاولتها كبح الهجرة اليهودية في "الكتاب الأبيض 1939" مما أدى إلى إعلان حرب الاستقلال الصهيوني عنها قبل أن تنشب حرب الاستقلال ضد أهل فلسطين والدول العربية، وذلك كما أعلن الأمريكيون حرب استقلالهم عن بريطانيا نفسها لنفس الأسباب).

ومن الطرائف فيما يتعلق بالاعتراض على الإعلان الملكي أن أكثر رأسماليي سوق الأراضي تطرفاً وتشدداً لبسوا مسوح الملائكة وانتحلوا فكرة الدفاع عن الحقوق الطبيعية للسكان الأصليين، ولكن في بيع أراضيهم[42] وليس في الحفاظ عليها والحياة فيها، وقد ظهرت حقيقة هذه المواقف جلية في أولى بوادر الاعتراض العملي على كبح الاستيطان غرب الأبالاش من ممثل السلطة البريطانية وحاكم فرجينيا اللورد دنمور الذي تجاوز الأمر الملكي ومنح أراض لمقاتلي الحرب الفرنسية والهندية في المنطقة المحظورة مما أثار استياء الهنود وأدى إلى نشوب حرب أطلق عليها حرب دنمور وكانت أكثر معاركها احتداماً المعركة التي نشبت في أكتوبر/ تشرين الأول 1774 عند نهر الأوهايو وأصيب فيها المئات من الطرفين بين قتيل وجريح، وقد أثبتت هذه الحرب أن الاستيطان سيستمر في التعدي على أرض الهنود رغم الإجراءات التي حاولت السلطات البريطانية اتخاذها لمصالحها بالدرجة الأولى[43].

ويفصل أحد المؤرخين دوافع عدم الالتزام بالحد من الاستيطان وفقاً للإعلان الملكي فيقول إنها لم تكن تقتصر على العنصرية والجشع بل تعدت إلى صعوبات وعقبات عملية تمثلت في وجود ديون هندية كان لابد من سدادها بالأراضي وتعذر ذلك لو تم الالتزام بالحد الملكي، كما أنه عندما رسم هذا الحد كان الاستيطان الأبيض قد تعداه بالفعل ومن ثم أصبح على من هم غربه مغادرة مستوطناتهم إلى الشرق، والأمر اللافت للنظر أن هيمنة البضائع الأجنبية على حياة السكان الأصليين جعلت من إغلاق الباب في وجه بيع أراضيهم مقابل

(42) Robert A. Williams، 1990، ص272-273.
(43) Waldman، 2000، ص130-131.

تلك البضائع أمراً بغيضاً لهم كما هو للمستوطنين(44)، وهي قضية ستتكرر في التاريخ العربي ولكن مع الثروة العربية التي تغيرت من الأرض إلى النفط الذي أصبح أصحابه يرفضون توقف بيعه إلى أعدائهم حتى ولو على سبيل المقاطعة الاقتصادية لإعادة الحقوق العربية كما يرفض الغرب نفسه هذا المبدأ، مما أفشل في النهاية كل محاولات استخدام "سلاح النفط" في حروب العرب مع الصهيونية وكل ذلك في سبيل السلع الترفية التي يسوقها الغرب في بلادنا كما حدث في التاريخ الهندي تماماً.

وتتبدى أهمية عنصر الأرض في تمرد الكيانات الاستيطانية على الدول التي رعتها بحقيقة أن إعلان الاستقلال الأمريكي خلا من تحديد حدود الجمهورية الوليدة، وهو ما يؤكد نوايا التمدد الاستعماري، وعلى هذا المنوال سار الصهاينة فيما بعد، ولهذا رفضوا تحديد حدودهم في إعلان استقلالهم، تماماً كما فعل الأمريكيون من قبلهم وفقاً لما اعترف به ديفيد بن غوريون في يومياته، فضلاً عن هرتزل الذي كان يتطلع نحو مزيد من الأرض كلما زاد عدد المهاجرين كما تطلع الأمريكيون لذلك "كلما دعت الحاجة".



By the KING,
A PROCLAMATION.

GOD save the KING.

صورة الإعلان الملكي الذي أصدره الملك جورج الثالث سنة 1763 وكان مع تبعاته من أسباب استياء المستعمرات وثورتها ضد الحكم البريطاني

(44) Banner، 2005، ص99-100.

الباب الثاني

حروب الديمقراطية الأمريكية

1868-1775



الفصل الحادي عشر

هنود أمريكا في ظل تغير المفاهيم الحقوقية

بين عالمي بريطانيا الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية

لقد كانت السيطرة على الأرض هي القضية الأهم التي واجهت المستعمرات الأمريكية في مرحلة إعلان استقلالها عن بريطانيا، فكان التاج البريطاني يعطي نفسه الحق الأعلى في السيطرة على الأرض وإجازة شرائها من الهنود، وكانت المستعمرات تطالب بالاعتراف بحقوق الهنود فيها ولكن ليس لأجل حمايتها لهم بل لأجل إقرار شرعية بيعهم إياها لمن اشتراها من المستوطنين، وقد نشأ الخلاف على حق الشراء من الهنود والهيمنة على الأرض بين التاج البريطاني والمستعمرات أولاً، وثانياً بين المستعمرات المحصورة داخل حدود مستعمرات أخرى، مثل بنسلفانيا وماريلاند ونيو جيرسي ورود آيلاند وديلاوير، وبين المستعمرات ذات الحدود المفتوحة على الغرب، مثل فرجينيا وبقية المستعمرات، فطالب المضاربون في المستعمرات المغلقة بحقهم في شراء الأراضي مباشرة من الهنود "أصحاب الحق الأصلي" دون إذن أحد، سواء التاج البريطاني أو المستعمرات المفتوحة على الغرب، ولكن المستعمرات المفتوحة طالبت بوراثة سلطة التاج البريطاني وإعلان حقها في الهيمنة على صفقات الأراضي الحدودية الغربية إلى المحيط الهادئ، استناداً لبراءات الملكية التي لم تكن تعلم مساحة القارة الأمريكية فعلاً، وذلك لتكبر مساحاتها وتزداد ثرواتها، وبهذا نرى أن المصالح الذاتية هي التي هيمنت على المشهد وصيغت القوانين فيه لتبريرها، ولهذا أجمعت كل النظريات عشية الثورة الأمريكية، بما فيها تلك التي تمنح الهنود الحق في بيع أراضيهم "لمن يشاءون"، على منع الهنود من الحق في بيع أراضيهم لمن يختارونه هم من أمم أوروبية أخرى كفرنسا أو إسبانيا، أو

بريطانيا بعد استقلال أمريكا، فقد كان "مبدأ الاكتشاف" يعطي الأمة الأوروبية التي "تكتشف" أرضاً وثنية حقاً حصرياً دون بقية الأمم الأوروبية في الحصول على هذه الأرض من سكانها[1]، أي على وجوب أن "يختار" الهندي بيع أرضه لمن يختاره السيد البريطاني مثلاً ثم الأمريكي الأبيض فقط (مثل ديمقراطية الولايات المتحدة في زمننا المعاصر حين تجبرنا على "اختيار" من تريده هي لحكم بلادنا وإلا فإن أية ديمقراطية بديلة تكون مرفوضة)، وكانت التسوية التي أقرتها المستعمرات فيما بعد هي إيجاد سلطة اتحادية تهيمن على عملية انتقال ملكية الأرض من السكان الأصليين الذين اعتُرف "بحقوقهم" ولكن لتسهيل سلبهم وليس للحفاظ عليهم، وذلك بإقرار "حقهم" في التنازل عن حقهم، ثم أجمعت الآراء على سلب الهندي حقه في البيع لمن يشاء واختفت بسرعة نظرية منحه هذا "الحق" الذي كان نظرياً ومشروطاً على كل حال، ولما أحس الهندي بضرورة وقف عملية التنازل عن أرضه سلبه القانون الأمريكي حرية الرفض أيضاً، وتم إقرار اللجوء إلى القوة العسكرية لإزاحته قسراً عن أراضيه، بحجج "قانونية" كالعادة.

لقد كانت المصالح البيضاء هي التي سنت قواعد التعامل مع الهنود وليس القانون ولا آراء القضاة المتمرسين، وبناء على "الصالح العام"، تم إنكار حق الهنود الطبيعي في أرضهم وخلع هذا الحق على الأوروبيين المكتشفين وفقاً لنظرية الاكتشاف التي ظهرت في بداية عصر الكشوف الجغرافية ومنحت الأوروبيين حقوقاً عليا في ملكية ما يكتشفونه من أراضي الوثنيين، كما منحت قوانين الماجنا كارتا (1215م) وغيرها للمستوطنين حقوقهم الطبيعية في خلع نير بريطانيا عنهم والتي أنكروا مثلها على الهنود الأصليين وسلبوهم حق رفع نير المستوطنين عنهم، ورغم المصادر القديمة لهذه النظريات، والطبيعة الانتقائية التي طبقت بها، لم يرتفع صوت مستنكراً هذه "الرجعية" المؤاتية أو "السلفية" المفيدة لما تسببه من انتهاك للحقوق ربما كان مقبولاً في زمن غابر ولكنه أصبح مرذولاً في عصر العقل والإنسانية والحرية... إلخ الذي سهلت فيه الديمقراطية العدوان على الآخرين ولهذا قال أحد المؤرخين إن مؤسسي الجمهورية الأمريكية

---

(1) Banner، 2005، ص182.

ضحوا بحقوق الهنود في أراضيهم لأجل "المصلحة العامة"، وهذا مؤشر واضح على دور الديمقراطية، المنفصلة عن القيم، في العدوان على الشعوب، والجدير بالذكر أن التضحية شملت أيضاً مصالح المستوطنين في الولايات المغلقة التي كانت تطالب بمنح الهنود الحق في البيع لتقطع الطريق على هيمنة الولايات الكبيرة، وهو ما يؤكد أن المجتمع الاستعماري الاستيطاني يقمع حتى مصالح أفراده المتفقة مع مصالح السكان الأصليين والتي تتعارض مع استمرار العدوان وسلب الحقوق.

وتطالعنا المصادر بمظاهر فاضحة من المصالح الشخصية التي انهمكت في سلب أراضي السكان الأصليين وصاغت الرؤية السياسية والقانونية بل والعسكرية في التعامل معهم، وكانت المسيّرة لتسلسل الأحداث التي وقعت أثناء الصراع للاستقلال عن بريطانيا، ويقول أحد المؤرخين إن قليلاً من الهيئات التشريعية في التاريخ الأمريكي لوثت أنفسها بالمصالح الذاتية التي ألبست أقنعة المبادئ كما حدث في المؤتمر القاري عشية الثورة الأمريكية، وإن الرئيس الأمريكي الأول جورج واشنطن(2) الذي حفز عملية الوصول إلى أراضي الهنود غرب خط الإعلان الملكي(3)، ونخبة المؤسسين كتوماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين(4) بالإضافة إلى العائلات الثرية في فرجينيا حيث تجمعت أكبر المصالح في الاستيلاء على الأراضي الغربية، كانوا جميعاً على رأس المستفيدين من المضاربة في أراضي الغرب، ولهذا كانت لهم مصالح ذاتية مباشرة في الخروج من الهيمنة البريطانية التي أرادت كبح التمدد الاستيطاني لمصالحها هي أيضاً(5)، ولم يكن من الغريب أن تقود مستعمرة فرجينيا الثورة الأمريكية ضد التحكم البريطاني.

وقد كان التطور الأبرز الذي حدث بعد الثورة الأمريكية على صعيد

---

(2) Jennings، 2000، ص238.

(3) Banner، 2005، ص100.

(4) نفس المرجع، ص101.

- Foner، 2005، ص218.

- Hakim، 2003، ج3، ص36-37.

(5) اعتمدت فقرات هذا الفصل منذ بدايتها على المرجع التالي ما لم ينص على إضافة إليه: Robert A. Williams، 1990، ص227-323.

المفاهيم الخاصة بحقوق السكان الأصليين في أراضيهم هو انتقالها من الاعتراف بملكيتهم إياها عملياً مما كان يستوجب شراءها منهم، إلى مفهوم جديد أصبحت بموجبه أراضي الهنود تابعة لحكومات الولايات التي يعيشون فيها أو للحكومة الأمريكية الاتحادية والتي كانت في الفترة الممتدة تمنح مواطنيها مساحات من أراض لم يتم شراؤها من الهنود بعد، حتى أقرت المحكمة العليا هذا الوضع الجديد قانونياً ونظرياً بإسباغ الشرعية على هذا الواقع بالقول إن الهندي لا يملك الأرض التي يعيش عليها بل يشغلها وينتفع بها فقط ولكنه لا يستطيع التصرف بها أو نقل ملكيتها إلى من يشاء، وكان التغير الذي نشأ عن تبدل المفاهيم هو أن الأرض في السابق عندما كان الهندي يملكها كان لا بد من شرائها منه لتصبح في حوزة المستوطن الأبيض، ولهذا كانت المساحات التي حصل الإنجليز عليها بالشراء، والذي تم كثيراً بوسائل غير قانونية أيضاً، أكبر من المساحات التي حصلوا عليها بالحرب، ولكن مع ظهور المفهوم الجديد صار من الممكن التصرف في الأرض دون مراعاة وضع الهندي فيها بل أصبح من الممكن الاستيلاء عليها وإجلاؤه منها ضد رغبته، وشن الحروب عليه عند رفضه بواسطة الدولة التي تملك رقبة الأرض نظرياً وفعلياً، نعم لقد حدث هذا بالتدرج من "احترام" حق الحيازة والشغل إلى إهماله تماماً، ولكن غرس فكرة نزع الملكية عن الهندي كان كافياً للوصول إلى النهايات المأساوية فيما بعد، ولم يؤد "الاحترام" الأولي سوى دور شكلي لتهدئة ضمير القاضي الذي نزع ملكية الهندي قانونياً، وكانت هذه الفكرة الجديدة حاسمة في الاستيلاء على معظم أراضي أمريكا، ولهذا وجدنا أن قرناً من الهيمنة الأمريكية بعد الاستقلال تمكن من اجتياح مساحة أكبر بمرات من مساحة الشريط الساحلي الضيق الذي هيمنت عليه بريطانيا في أكثر من قرن ونصف منذ بداية الاستيطان، مع ما صاحب الاجتياح الأمريكي من عنف واضطهاد ودمار غير مسبوق في القارة[6].

ويلاحظ على قرار المحكمة العليا الذي أقر نزع ملكية السكان الأصليين لأراضيهم والموافقة على مجرد حقهم في شغلها والانتفاع دون التصرف بها هو أن القاضي الشهير جون مارشال الذي أصدر القرار في قضية سنة 1823 كان له

(6) Banner، 2005، ص150-190.

مصالح شخصية فيه لأنه كان أحد المضاربين في الأراضي الهندية كما كان لقادة الثورة الأمريكية مصالح ذاتية في الانفصال عن بريطانيا والتمدد في الأراضي الهندية، كما أن مبرراته التي استند إليها في تقرير هذا المبدأ الجديد كانت غير صحيحة وتعتمد على تصوير محرف للماضي البريطاني في أمريكا والذي صُور لاتخاذه سلفاً وتبريراً قانونياً لسيادة حق الحيازة دون الملكية وهو ما أثبت أحد المؤرخين عدم دقته وكونه خطأ فاضحاً[7].

ويشير أحد الخبراء من السكان الأصليين إلى أن قرار المحكمة العليا سنة 1823 أقر رسمياً فكرة "حقوق الاكتشاف" التي تعطي الأمم الأوروبية "المتحضرة وصاحبة الدين الصحيح" حقوقاً تعلو على حقوق السكان الأصليين في أية قطعة أرض "يكتشفها" الرجل الأبيض، وتستند هذه الفكرة إلى الحملة الصليبية الأولى على الشرق العربي الإسلامي سنة 1095 والتي منح فيها البابا أوربان الثاني الجيوش المسيحية حق الاستيلاء على الأراضي المقدسة من الكفار والوثنيين واستبدال المسيحيين الأوروبيين بهم، وهو ما سار البابوات على نهجه فيما بعد لتبرير الصليبيات ضد الشرق العربي والحملات ضد الغرب الهندي الأحمر زمن اكتشاف الأمريكتين، ويمكن أن تعود هذه الفكرة إلى أقدم من ذلك في كتابات أرسطو في "السياسة" في القرن الرابع قبل الميلاد حين فرق بين البشر المتحضرين والبشر المتوحشين، بين من يَحكمون ومن يُحكمون، بين الإغريق والبرابرة، وفي الوقت الذي أعطى المتحضرين امتياز الحكم، وضع البرابرة في الخارج والعبيد في الداخل، في سلة واحدة تضم كل من يجب أن يكون ضمن المحكومين[8].

---

(7) نفس المرجع.

(8) Utter، 2001، ص12-16.





الفيلسوف أرسطو من القرن الرابع قبل الميلاد والبابا أوربان الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد: مصدران موغلان في القدم لقوانين الغرب العدوانية الحديثة ومع ذلك لم يتهمها أحد بالرجعية والسلفية والانكفاء إلى الماضي

ورغم هذه العودة إلى الماضي التي لم يصمها أحد من المعجبين بالغرب بالرجعية، فقد كان لفكرة حق الاكتشاف آثار مدمرة جداً، فقد كانت المسئولة عن الاستيلاء على 97% من أراضي أمريكا من أصحابها الأصليين، كما كانت الخلفية التي استندت إليها معظم السياسات الأمريكية تجاه الهنود كالاستيعاب والنقل والتحصيص والتعليم الإجباري والمحميات والإنهاء (1953) وإعادة التوطين، وأصبحت أيضاً أساساً للقوانين الأمريكية الخاصة بالهنود، وهي مصدر لتبرير سلطة الكونجرس على الشئون الهندية وللقضايا المرفوعة ضد السكان الأصليين وتهدد بمزيد من التقليص والتراجع في أوضاعهم الحالية[9]، ورغم كل ما نتج عن ذلك من أوضاع أفنت معظم السكان الأصليين وألقت بالبقية منهم بين أمواج الاضطهاد والحرمان، فلم نر ممن يلقون دروس احترام الآخر على غيرهم من استنكر الرجعية البنيوية في قوانين أمريكا الهندية.

(9) نفس المرجع، ص16-19.

الفصل الثاني عشر

الحروب بين الدول الاستعمارية

(2)

الثورة الأمريكية (1775-1783)

إعلان الاستقلال الأمريكي يلخص مكانة السكان الأصليين ويؤصل عملية اضطهادهم مستقبلاً: بعد تصاعد الخلافات بين المستعمرات الأمريكية والتاج البريطاني نتيجة بذور الدمار التي ظلت مزروعة في إعلان 1763 الملكي[1]، قررت هذه المستعمرات إعلان استقلالها في سنة 1776، ووضع بيان الاستقلال الذي دونه رسول الحرية توماس جيفرسون "التماساً أمام منبر قضاء العالم" لينصفه من ملك بريطانيا الذي عدد البيان له خطاياه التي أوجبت الانفصال عنه، وكان من ضمن المظالم التي ارتكبها "أنه أثار الفتن والقلاقل في صفوفنا وحرض القاطنين على حدود ولاياتنا، الهنود الحمر المتوحشين، الذين لا يعرفون للرحمة معنى، والذين لا تميز سنن الحروب المعروفة عندهم بين رجل وامرأة، وبين طفل وشيخ، على مهاجمتنا والتعرض لنا"[2]، وإذا كان "الأحرار في كل العالم" قد التمسوا الدعم من عبارات إعلان الاستقلال فيما بعد، حتى أنصار إلغاء الرق الذي لم يتعرض البيان له وآثر إرضاء ولايات العبودية[3]، فإن أنصار حقوق الهنود لم يجدوا ما يدعم موقفهم في هذا الإنجيل، وقد استمرت

(1) لاسي، ص69.
(2) رافيتش، 1998، ص65.
(3) نفس المرجع، ص61.

أمة هذا الإعلان المقدس بمعاملة الهنود وفقاً لما سطره عن السكان الأصليين، إذ حصر مكانة الهندي بالتوحش الدموي الذي تستخدمه الأيدي الخارجية لإثارة القلاقل بين شعب الله البريء الذي لم يرتكب أي ذنب يستوجب العنف من الهندي الهمجي، وعندما انسحبت كل الأيادي الخارجية من القارة الأمريكية وفقاً لمبدأ مونرو، لم يكف الأمريكيون عن التشدق بوحشية السكان الأصليين إلى أن تمكنوا من القضاء تماماً على مقاومتهم وإغلاق منطقة الحدود بين الحضارة والهمجية سنة 1890 لينمو منذئذ الشعور الزائف بالذنب بعد فوات الأوان في الوقت الذي كانت الأمة فيه منهمكة في عمليات اضطهاد جديدة، تخفف الدموع على الهندي الآفل من وخز الضمير تجاهها، وذلك الفرق بين السكان الأصليين والعبيد في الكيان الاستيطاني هو الذي يجب أن نضعه نحن في الحسبان وألا نأمل بتطور في فلسطين يوازي التطور الذي حصل عليه العبيد داخل الكيان الأمريكي لحاجات ومنافع تخصه وحده، لأن مكانة العرب والمسلمين محددة بواقع أنهم سكان أصليون لا يتأسس الصهيوني في وطنهم إلا على حساب وجودهم، وهذا أمر بنيوي لا علاقة له بالنوايا الطيبة.

IN CONGRESS, JULY 4, 1776.

The unanimous Declaration of the thirteen united States of America.

صورة لإعلان الاستقلال الأمريكي الموقع في الرابع من يوليو 1776



التوقيع على إعلان الاستقلال الأمريكي مهد لنشوء أمة جديدة على أنقاض عدة أمم أخرى

الثورة ضد الهنود أكثر منها ضد بريطانيا: رغم أن الثورة الأمريكية كانت ضد الحكم البريطاني في الظاهر، فإن هناك من المؤرخين من يرى أنها كانت حرباً ضد السكان الأصليين أكثر منها حرباً ضد بريطانيا، ذلك أن السبب الرئيس للقتال كان هو الصراع على أراضي الهنود[4] الذين أدركوا ذلك جيداً وذكّر البريطانيون من نسي ذلك منهم[5]، ويصف أحد المؤرخين دوافع الثورة بأنها كانت تتركز في الحرص على الاستيلاء على أرض الهنود أكثر من الاهتمام بعدم فرض بريطانيا الضرائب على المستعمرات إلا مقابل تمثيلها في البرلمان البريطاني[6]، وهو الدافع الذي يسود ذكره في تواريخ الثورة الأمريكية بترديد شعار "لا ضرائب بلا تمثيل" دون إعطاء الطمع في الأرض الهندية وزنه الحقيقي وإن كان يذكر من ضمن أسباب الاستياء من قيود الحكم البريطاني كما مر، وقد وجد الهنود أنفسهم بين الحكومة البريطانية العاجزة عن حمايتهم، والمستوطنين الطامعين في أراضيهم، فاختار معظمهم أهون الشرين وهو الجانب البريطاني[7]،

(4) Banner، 2005، ص121.
(5) Calloway، 1995، ص23.
(6) Banner، 2005، ص121-122.
(7) نفس المرجع، ص121.

وقد نظر كثير من الأمريكيين إلى الثورة بصفتها حرب إخضاع تمكنهم من الاستيلاء على أراضي الهنود الذين تحالفوا مع الإنجليز المهزومين[8]، ورأوا أن هذه الحرب استمرار لحروبهم الماضية على الهنود والتي "لم تكن حروب إخضاع هدفها الاستيلاء على الأرض"، ولكن حكومات المستعمرات كانت تستولي على أرض الهنود بعد هزيمتهم في كل الأحوال بصفتها تعويضاً من المهزوم لا أكثر[9] (!)، ولما انتصرت الثورة لم يعد هناك حكومة من مصلحتها لجم الاستيطان بل تغير الأمر وصارت الحكومة ممثلة للمستوطنين، ولهذا دعمهم الكونجرس الأمريكي منذ البداية[10]، فكانوا يمتدون على الأراضي الهندية ويقنعون أنفسهم في نفس الوقت أن مقاومة السكان الأصليين لهذا التعدي هي التي تتحمل مسئولية العنف بين الطرفين[11]، (وهو التحيز الذي ما زال قائماً إلى اليوم عندما يغض الغرب الطرف عن جرائمه ويحمل مقاومة الضحية مسئولية العنف)، وكان الأمر في مناطق التخوم بيد المستوطنين في غياب الحكومة الاتحادية التي أثبتت عجزها بل عدم رغبتها في لجم ناخبيها ومن ثم تقود دوامة العنف إلى مزيد من التعدي الاستيطاني الذي يحفز المقاومة من جديد وهكذا (كما أدت المظالم التي ارتكبها الغرب إلى أحداث سبتمبر 2001 والتي رد الأمريكيون عليها بعنف مجنون أثار مزيداً من المقاومة في العالم الإسلامي)، ولا يبدو حتى الآن أن الغرب مستعد للتعلم من أخطائه في هذا المجال خلافاً لآلية "التصحيح الذاتي" التي يشيعها عن نفسه ويرددها المبهورون من أتباعه.

مواقف الطرفين المتنازعين من السكان الأصليين وموقفهم منهما:

انقسم مجتمعات المستعمرات في موقفها من الثورة إلى ثلاثة أقسام وفقاً لوصف جون آدامز الرئيس الثاني للجمهورية: ثلث أيدها وثلث عارضها وظل على ولائه للتاج البريطاني والثلث الأخير فضّل الحياد[12]، وكان تحديد موقف

---

(8) نفس المرجع، ص189.

(9) نفس المرجع، ص121.

(10) Jennings، 2000، ص125.

(11) Banner، 2005، ص145.

(12) Calloway، 1995، ص31.

السكان الأصليين في هذا الصراع مهماً للطرفين المتصارعين كما كان مهماً قبل ذلك في الحرب الفرنسية والهندية، ولم يجرؤ طرف منهما على استعداء قبيلة قبل أن تحدد موقفها[13]، ويبدو أن الثوار أدركوا السبب الموضوعي الذي جعل السكان الأصليين يقفون ضدهم، إذ "كان المستعمرون ينظرون إلى سكان البلاد الأصليين كأعداء ألداء يجب استئصالهم دونما تأخير أو إبطاء"[14]، وقد كان طلبهم إلى الهنود ابتداء هو الوقوف على الأقل على الحياد بعدم القتال إلى جانب أي طرف[15]، وذلك خلافاً للإنجليز الذين وجدوا أرضاً خصبة عند الهنود لتأييد موقفهم فتوددوا إليهم[16] وحثوهم على مهاجمة المستوطنات[17]، ولكن التعارض الموضوعي بين الثوار الذين يطمعون بشره في الأرض والهنود الذين يدافعون عن وجودهم هو الذي أدى إلى أن يشن الأمريكيون الحرب على المجتمعات الهندية أثناء قتالهم ضد بريطانيا، وقد نالت هذه الحرب حتى من وقف على الحياد من تلك المجتمعات[18].

أسباب موقف الهنود ومدى قوتهم في هذه الحرب:

وكما سبقت الإشارة فقد وقف السكان الأصليون إلى جانب بريطانيا في هذا الصراع، والمهم في ذلك أن أسبابهم كانت متعلقة بقضاياهم[19] ولم يكونوا مجرد أدوات للغير كما حلا لرسل الحرية الأمريكية تصوير الأمر وفقاً لإعلان الاستقلال الأمريكي نفسه والذي كتبه رسول العقل توماس جيفرسون، وقد اتخذ

- العسلي، 1980، ص71.
- باحثين، 2001، ص131.
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج14، ص196-R.

(13) Banner، 2005، ص115.
(14) العسلي، 1980، ص70.
(15) Jennings، 2000، ص230 و243.
- Banner، 2005، ص115.
(16) Marks، 1998، ص39.
(17) Debo، 1983، ص84.
(18) Calloway، 1995، ص34.
(19) نفس المرجع، ص31.

الهنود هذا الموقف بسبب خيانة الأمريكيين لهم وخطر المستوطنين الأمريكيين على أرضهم ووجودهم، وبسبب الموارد التي كانت تحت تصرف بريطانيا ويمكنها بها استمالة الهنود وزعمائهم[20]، هذا بالإضافة إلى مغريات التجارة ووعود لم تنفذ بدعم حقوق الهنود في أراضيهم[21]، وقد وصف أحد المؤرخين الوضع بأن حضور الإنجليز تمثل في الموظفين الرسميين والتجار، أما الأمريكيون فكانوا مزارعين ومضاربين في الأراضي[22]، ولهذا تجسد الخطر من الحضور الاستيطاني الأمريكي أكثر من حضور بريطانيا، ولا يمكن توجيه اللوم للسكان الأصليين بسبب موقفهم المؤيد لها في الوقت الذي تبدي فيه حسن نواياها تجاههم ويؤلف المستوطنون مصدر متاعبهم[23] (كما لا يمكن ولا يصح توجيه اللوم للعرب بسبب موقفهم المؤيد لدول المحور المعادية لمن يحتل بلادهم في الحرب الكبرى الثانية 1939-1945)، ولكن بريطانيا مع ذلك لم تحسن استغلال تحالفها مع هؤلاء الهنود الأقوياء والذين يملكون الكثير من المحاربين، ويشير أحد المؤرخين إلى أنها لو أحسنت تنظيمهم وتجهيزهم ودعم زعمائهم لكان من المحتمل أن ينتصروا في هذه الحرب[24]، ويشير مؤرخ آخر إلى أن ثورة موحدة على التخوم في زمن الثورة الأمريكية كانت ستؤلف خطراً حقيقياً إن لم يكن قاتلاً على المشروع الاستيطاني الأمريكي[25]، كما أن الهنود كانوا قادرين في بدايات عهد الجمهورية على القضاء على الأمة الوليدة لو أنهم قاوموها مقاومة مستمرة في منطقة التخوم، ولهذا كان التوصل إلى تفاهمات معهم أمراً حيوياً[26].

(20) نفس المرجع، ص31.
- Waldman، 2000، ص131.
(21) Prucha، 1995، ص42.
(22) Horsman، 1992، ص3.
(23) Banner، 2005، ص115.
(24) Waldman، 2000، ص131.
- العسلي، 1980، ص70.
(25) Prucha، 1995، ص40.
(26) نفس المرجع، ص42.

العداء الأمريكي والصراع على التأييد الهندي:

ورغم أن الطرفين البريطاني والأمريكي أهملا المشاركة الهندية في بداية الصراع وحثا السكان الأصليين على التزام الحياد، فإنهما سرعان ما حاولا اجتذابهم وتنافسا على الحصول على دعمهم، وقد عبرت المستعمرات في البداية عن رغبتها في وقوف السكان الأصليين على الحياد، ولعل ذلك بسبب شعور الثوار بالتعارض الموضوعي بين مصالحهم الاستيطانية في أرض الهنود ومصالح هؤلاء الهنود في الدفاع عن وجودهم وبقائهم، وكانت قدرة الإنجليز على تجنيد السكان الأصليين أكبر من قدرة الأمريكيين[27]، وربما كان سبب ذلك هو نفس ذلك التعارض الموضوعي بين المصالح الأمريكية الاستيطانية ومصالح أصحاب الأرض الأصليين، ومن المستبعد أن تكون هذه الحقيقة غائبة في ذلك الزمن لأنها ترجمت سريعاً إلى عداء مستحكم بين الثوار والهنود ليس بسبب التحالف الهندي البريطاني فقط بل بسبب ذلك التعارض الموضوعي الذي جعل الثوار يعتدون حتى على أصدقائهم فيظهر سكان التخوم "ميولهم المميزة لقتل أصدقاء محوريين في أوقات مفصلية"[28]، هذا فضلاً عن الاعتداء على الهنود المسالمين والمحايدين بل والمتنصّرين أيضاً ويفشلون في نهاية الأمر في مكافأة حلفائهم الذين قُدمت إليهم وعود سخية بقيام ولاية هندية تنضم إلى الاتحاد الأمريكي، فضلاً عن فشلهم في احترام حقوق الهنود بعد تلك المساندة للثورة الأمريكية وتأييدهم إياها، فقد عاملوا من ساندهم كمن حاربهم، ولم يؤد انشغال الأمة الجديدة بالحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية إلى تعميم هذه المبادئ على معاملة السكان الأصليين، ولم يكن تغير الأحداث منذ البداية ووقوف الهنود إلى جانب المستعمرات سيغير من موقفها الظالم تجاههم[29]، ذلك أن الذين ساندوا الثورة من الهنود على قلة عددهم لم يفوزوا بالعدل والإنصاف، وهو أيسر من إنصاف القبائل الهندية كلها، فضلاً عن الحظوة، ولهذا يخطئ من يظن من المؤرخين أن تأييد عامة الهنود للثورة كان سيعدل مسار الأحداث لصالحهم

---

(27) نفس المرجع، ص40.

(28) Calloway، 1995، ص39.

(29) Waldman، 2000، ص136.

لاسيما مع الإقرار بأن الطمع في أراضيهم كان مستقلاً عن موقفهم من الثورة[30] (هل أدى وقوف العرب إلى جانب الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى إلى تحقيق مطالبهم ليتخذ الصهاينة من مجرد أماني العرب بانتصار المحور في الحرب الثانية مبرراً لسلب حقوقهم؟)، وقد اعترف توماس جيفرسون بأن انصراف الهنود عن تأييد الأمريكيين سببه الأسى والآلام المتراكمة (كما كان موقف العرب ضد الغربيين في كل مواجهة بسبب أساهم وآلامهم المتراكمة)، ومع ذلك اتخذ هو نفسه مواقف عدائية منهم[31]، بل إن فكرة الترحيل إلى الغرب البعيد نشأت عنده مبكراً في زمن الثورة[32]، ذلك أن الأمريكيين كانوا مهتمين بالاستيلاء على الأرض وليس بالإصلاح[33]، ولم يكن قادتهم إلا تجسيداً لهذا التوجه أكثر من عامة الناس.

التبشير والاستعمار:

استخدم الإنجليز التبشير بين السكان الأصليين ليكون الدين المسيحي البروتستانتي أداة للحصول على ولاء الهنود ضد الفرنسيين الكاثوليك[34]، ولما قامت الثورة الأمريكية كان كثير من الهنود الذين قاتلوا في صفها من الذين استجابوا للمبشرين واعتنقوا المسيحية، وسواء أكان الهنود المسيحيون مقاتلين في صفوف أعدائهم أم محايدين مسالمين فقد خدموا المشروع الاستيطاني، (كما أن البعض من الخونة في فلسطين لاسيما مجندو الأقليات الذين تعرضوا للتأثير الثقافي الإسرائيلي "الأسرلة" المقابل للتبشير في التاريخ الاستعماري قاتلوا إلى جانب الجيش الصهيوني وخدموا المشروع الاستيطاني)، وهكذا نجد أن ما اصطلح على تسميته في تاريخنا بالغزو الفكري وتبني أفكار الأعداء كان وسيلة استعمارية فعالة في شل قدرة المجتمع الضحية على مواجهة العدوان، وتيسير الهيمنة عليه لاستغلاله في النهاية وليس لإعادة تكوينه تكويناً حديثاً يطابق تكوين

---

(30) Prucha، 1995، ص42.
(31) Calloway، 1995، ص204.
(32) نفس المرجع، ص197.
(33) نفس المرجع، ص205.
(34) نفس المرجع، ص86.

المجتمع الاستعماري الوافد، وفي المقابل استخدم مقاومو الاستعمار ثقافاتهم الأصلية في عملية المقاومة وقاموا بحركات إحياء قادها زعماؤهم الروحيون لمواجهة الاستعمار، كما كان هناك فئات تبنت الموقف التوفيقي باعتناق المسيحية برؤية هندية[35].

أخلاقيات الحرب عند السكان الأصليين:

لقد أبدى السكان الأصليون في هذا الصراع كثيراً من مظاهر الود والإنسانية تجاه الطرفين المتنافسيْن بغض النظر عن مصالحهم الآنية، فقد دخل مؤيدو الثوار الأمريكيين في حرب أهلية مع قومهم من الهنود وفكوا أواصر ارتباطاتهم في سبيل ارتباطهم بهؤلاء الثوار[36]، ولقد شن كل من الطرفين المتصارعين البريطاني والأمريكي حرباً اقتصادية على حلفاء الطرف الآخر من الهنود، فكانت معاناة السكان الأصليين على جانبي خط النزاع شديدة[37]، أما المقاتلون إلى جانب بريطانيا في سبيل حريتهم وممتلكاتهم فقد أبدى زعيمهم وزعيم قبائل إيروكوي، جوزيف برانت، وجوهاً من السلوك الإنساني تجاه أعدائه الأمريكيين، ويصفه أحد المؤرخين بأنه كان رءوفاً على الهنود وغيرهم ويصر على عدم الهجوم على المستوطنين أنفسهم إلا إذا رفعوا السلاح للقتال، ولهذا نجا كثير منهم رغم دمار بيوتهم ومخازنهم أثناء الهجوم على المستوطنات في نيويورك في سنة 1778، وأثناء الهجوم على بعض الحصون في بنسلفانيا في نفس العام سمح للمستوطنين بمغادرة مناطقها إذا استسلموا دون قتال، وحاول برانت جهده منع قتل المستوطنين في إحدى مستوطنات مساشوستس التي تم الهجوم عليها في خريف ذلك العام[38].

---

(35) نفس المرجع، ص14.

(36) Waldman، 2000، ص131.

(37) Calloway، 1995، ص58.

(38) Waldman، 2000، ص132-133.

مكانة الزعيم جوزيف برانت:

ويصنف الزعيم جوزيف برانت ضمن الموالين لبريطانيا من زعماء السكان الأصليين، فقد شارك في الحرب الفرنسية والهندية وسافر إلى بريطانيا حيث حظي بالاهتمام وأصبح من الشخصيات الشهيرة فاستقبله الملك جورج الثالث وتم قبوله في الماسونية ورسم الفنان جورج رومني صورة له، وكان يتقن ثلاث لغات هندية إلى جانب اللغة الإنجليزية، ولما عاد من بريطانيا سنة 1776 وقامت الثورة الأمريكية قام بجولة على قرى قبيلته الإيروكوي لحضها على مناصرة الإنجليز[39].



الزعيم جوزيف برانت كما رسمه سنة 1786 الفنان جلبرت ستيوارت أحد أشهر الرسامين الأمريكيين والذي رسم ستة من رؤساء الولايات المتحدة إلى جانب ألف شخصية تقريباً وفقاً لموسوعة ويكيبيديا

الحرب التي شنتها قيادة الثورة الأمريكية على القبائل الهندية:

كانت حرب المستعمرات على السكان الأصليين عنيفة وشديدة، وقد أرسل قائد الثورة جورج واشنطن عدة حملات ضدهم اتبعت سياسة تسوية القرى بالأرض وكان أبرزها حملة كلينتون في سنة 1779 التي دمرت بيوت الهنود وأحرقت محاصيلهم وقتلت أطفالهم بطرق همجية في مدن هندية وصفت بأنها

---

(39) نفس المرجع، ص131.

أجمل ما رآه مهاجموها[40]، وحملة سوليفان في نفس العام على أربعين بلدة هندية تم إحراقها مع محاصيلها بعدما أدهشت جنود الحضارة الأمريكية ببنائها ومحاصيلها وبساتينها التي دمروها تدميراً تاماً وزادوا على ذلك بنبش القبور لنهبها أو لسلخ جلود الأموات واستخدامها في الأحذية[41]، وقال أحد الزعماء إن هؤلاء الثوار قاموا بمهاجمة قريته وقتل كل النساء والأطفال ماعدا الفتيات اللواتي تم اقتيادهن لأجل الجنود ثم قُتلن بطريقة مهينة فيما بعد[42]، ويصف بسام العسلي مشهد الحملة ودور واشنطن فيها بالقول: "وفي سنة 1779، أعطى جورج واشنطن تعليماته إلى الجنرال "سوليفان" باجتياح مناطق استيطان الهنود الحمر، واقتياد من بقي منهم على قيد الحياة للاحتفاظ بهم كرهن "رهائن". وانطلق سوليفان لتنفيذ مهمته، وبضربة واحدة أحرق بقسوة وحشية المحاصيل الزراعية لإحدى وأربعين منطقة كانت مستقراً للهنود الحمر، وقضى عدد كبير من الهنود نحبهم في الشتاء، بعد أن أفلتوا من أسر القوات الاتحادية"[43]، ورغم ذلك يصف المؤلف واشنطن بأنه قائد من أعظم قادة الدنيا عبر العصور[44]، ولاشك أن هذا الوصف من آثار الاستلاب لهذه الحضارة التي لا نعدو نحن فيها مكانة السكان الأصليين من هنود أمريكا.



طابع بريدي أمريكي من سنة 1929 يحمل صورة الجنرال جون سوليفان الذي قهر الهنود أثناء الثورة الأمريكية، ومازال الاحتفاء "ببطولاته" إلى اليوم

(40) Calloway، 1995، ص124.

(41) نفس المرجع، ص51.

(42) نفس المرجع، ص53.

(43) العسلي، 1980، ص70.

(44) نفس المرجع، ص46.

ومن معارك الثورة الأمريكية كذلك ما قام به الثوار تلبية لرغبة رسول الحرية والديمقراطية وكاتب إعلان الاستقلال الأمريكي وحاكم فيرجينيا والرئيس المقبل توماس جيفرسون في أن يرى إجلاء قبيلة الشاوني أو إبادتها[45]، فقامت الميليشيا الثورية بهجوم على بعض القرى ذات البيوت الجميلة والمحاطة بمحاصيل الذرة على ضفاف النهر، ابتداء من سنة 1779 أيضاً ثم في السنة التالية، وفتحت نيران المدفعية على ملجأ السكان وقضت يومين في إحراق محاصيلهم ونبشت قبورهم للنهب والحصول على فروات الرءوس، وفي سنة 1782 واصلت الميليشيا الثورية، التي وُصفت بالهمجية لما ارتكبته من أعمال وحشية، هجومها على القبيلة التي كانت في حالة انضباط نتيجة تفكير الإنجليز بعقد سلام مع الثوار، ولكن ذلك لم ينفع الهنود إذ ساح المهاجمون في أرضهم وأحرقوا خمس قرى "مدمرين محاصيل الذرة وثمار أخرى بشكل كامل وناشرين الخراب في الإقليم"، ووصف زعيم الإيروكوي آنف الذكر ما ارتكبه ثوار الحرية في قبيلة الشاوني بقوله إن هؤلاء المتوحشين قدموا كالذئاب في الليل عندما كان المحاربون غائبين في أراضي الصيد، وأحاطوا بقراهم وقتلوا كل النساء والأطفال، وذلك كما فعلوا في قبيلته من قبل[46].

همجية المتحضرين:

كان العنف الذي أدخله الأوروبيون في القارة الأمريكية استثنائياً في حياة سكانها الأصليين، ولا يخفف من وقع هذا العنف وآثاره المدمرة أن الهنود كانوا يتقاتلون فيما بينهم، فالعنف الأبيض كان أكثر خطورة بكثير من أي عداوة وجدت فيما سبق بين القبائل الهندية[47]، وقد لفت بعض المؤرخين الانتباه إلى أن حرب المستعمرات على السكان الأصليين لم تلتزم قواعد القتال التقليدية، وأن القادة الذين أظهروا الإنسانية في مواطن أخرى لم يكونوا كذلك عندما تعلق الأمر بالهنود[48]، وقد كانت الثورة الأمريكية من صنف الحروب التي صنفها

(45) Jennings، 2000، ص247.
(46) Calloway، 1995، ص53-54 و172.
(47) Washburn، 1988، ص128.
(48) Foner، 2005، ص219.

"المتحضرون" تحت وصف الهمجية، كما أن تراجع الثوار عن هذه الهمجية لم يتأت إلا حين رد الهندي على العدوان وشن الحرب على المستوطنات، هنا فقط سمعت أصوات الحرب الإنسانية[49]، أما نحن فلا يمكننا أن نضع المعتدي وصاحب الدار تحت مجهر واحد، لأن هناك تفاوتاً بين عنف المعتدي الذي يسعى إلى السرقة وعنف الضحية الذي يدافع عن نفسه ووجوده في مواجهة آلة الحرب العملاقة، ومن الفروق الهامة بين العدوان ومقاومة الضحية أن المعتدي يضطهد حتى حلفاءه أو المسالمين والمحايدين بل والمتنصرين التابعين للكنائس المسيحية.

الوعود الأمريكية بالولاية الهندية المستقلة وتقديم المجازر بدلاً من الاستقلال:

ومن أبرز الخيانات الأمريكية للهنود المسالمين والمحايدين والمسيحيين الذين سبق الهجوم عليهم في أثناء ثورة الزعيم بونتياك في بنسلفانيا كما مر ذكره، تعرض بقاياهم وأشقاؤهم من نفس قبيلة ديلاوير في أثناء الثورة الأمريكية (1782) إلى مجزرة أكثر ترويعاً بقيادة عقيد من بنسلفانيا أيضاً، وكانت هذه المجزرة هي المكافأة التي قدمتها الثورة لقبيلة ديلاوير التي سبق تقديم الوعد إليها في معاهدة حصن بيت (1778) بقيام ولاية هندية ترسل مندوبيها إلى الكونجرس مقابل تقديمها الدعم للثوار[50]، ولكن سرعان ما قامت الميليشيا بقتل 96 هندياً مسيحياً مسالماً من الطائفة المورافية آنفة الذكر وسلخ فروات رءوسهم رغم إصرارهم على الحفاظ على السلوك الديني السلمي وعدم الانجرار إلى تأييد بريطانيا وحلفائها واستقبالهم بالترحاب الميليشيا الأمريكية التي قامت بذبحهم بسبب أوهام لا أساس لها عن نوايا عدوانية مخفية لدى الهنود[51]، وقد باشر العقيد البنسلفاني قائد الميليشيا القتل بنفسه بالمطرقة إلى أن استنفدت قواه بعد قتل 13 هندياً فيما وُصف بأنه أسوأ عمل وحشي ارتكب في القتال في

---

(49) Jennings، 2000، ص231.

(50) Debo، 1983، ص86-87.

(51) Jennings، 2000، ص248.

الغرب أثناء الثورة الأمريكية، وأدت المجزرة إلى تحول قبيلة ديلاوير ضد الثورة وقيامها بدور قيادي فيها، وقد وقع قائد المجزرة في سنة 1789 في يد هنود قبيلة الشاوني الذين تعرفوا عليه وقاموا بقتله بعد تعذيبه بشدة جزاء لما ارتكبته يداه الآثمتان[52]، ولم يكن ذلك الهجوم هو الوحيد الذي شنه الثوار الأمريكيون على الهنود المسالمين في الحرب الاستقلالية[53]، وهذا المصير الذي لقية الهنود المسيحيون يلقي ضوءاً على مصير محاولات الاندماج بالحضارة الغربية التي لا تنفك عن وضع البشر في مراتب وتصنيفات محددة مهما حاولوا الخروج من جلودهم والالتحاق بالغرب الأبيض، كما أن ذلك المصير المظلم يلقي ضوءاً على مآل الوعود بالدول المستقلة والتي تقدم اليوم للسكان الأصليين في فلسطين حيث الكيان الصهيوني الاستيطاني الإحلالي وهو مآل ستؤكده مصائر المحاولات والوعود اللاحقة بتأسيس الولاية الهندية في التاريخ الأمريكي، وهي وعود لم يطلقها الجانب الأمريكي وحده بل وجدنا أن بريطانيا تقوم بعد انتصار الثورة الأمريكية بمحاولة إنشاء كيان هندي عازل في وادي الأوهايو بينها وبين الولايات المتحدة، وتقوم إسبانيا في الجنوب (فلوريدا) بمحاولة مماثلة لإنشاء دولة هندية بينها وبين الأمريكيين، ويلاحظ أن الهدف كان وظيفياً وليس نابعاً من احترام حقوق القبائل الهندية، ودخلت الولايات المتحدة على خط المنافسة في تقديم الوعود فوعدت قبيلة الشيروكي الجنوبية (1784) بأنها ستقبل وفدها داخل الكونجرس الأمريكي وهو ما كان يعني، قبل كتابة الدستور الأمريكي، إنشاء ولاية خاصة[54]، ولكن كل هذه الوعود نكثت لأن الأطراف الأوروبية لم تكن تستطيع وقف الزحف الأمريكي ولم تكن في وضع الحرب نيابة عن السكان الأصليين أو دعمهم دعماً ظاهراً، كما أن التمدد الاستيطاني الأمريكي المستمر جعل من الوعد بالدولة الهندية مجرد كتابة على الماء لا تلبث أن تمحى، وكل ما سبق يزيد التأكيد على سوء المصير السياسي للسكان الأصليين في جداول المستوطنين.

---

(52) Sword، 1993، ص76.

(53) نفس المرجع، ص38.

(54) Debo، 1983، ص87-89.

معاهدة باريس 1783 وتخلي بريطانيا المهزومة عن حلفائها الهنود: انتهت الثورة الأمريكية بهزيمة بريطانيا وتوقيعها معاهدة باريس (1783) التي اعترفت فيها باستقلال المستعمرات الأمريكية وتنازلت عن جميع الأراضي شرق المسيسبي لها، كما حصلت إسبانيا على فلوريدا التي كانت بحوزة الإنجليز، فوقع الخبر على السكان الأصليين وقع الصاعقة وأحسوا بالغضب ولم يصدقوا أن حلفاءهم الإنجليز سلموهم إلى أعدائهم الأمريكيين والإسبان وظنوا في البداية أن الخبر لا يعدو كذبة من فرجينيا، وقد أبلغ الأمريكيون الهنود أنهم سألوا الملك البريطاني عن موقفه من حلفائه الذين عليه رعايتهم فقال: "ماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شيء، لقد هزمتموني ولهذا يمكنكم أن تفعلوا بهم ما شئتم"[55]، ويصف أحد المؤرخين الموقف بأنه بعد زوال الحكم الفرنسي (1763) بعشرين عاماً (1783) تُرِك الهنود دون دعم من أية قوة أوروبية بعدما تخلت بريطانيا عن حلفائها الهنود ووافقت على التنازل عن سيادتها على جميع الأراضي شرق المسيسبي إلى الولايات المتحدة مع إهمال حضور الهنود كلياً[56]، ولما تأكد الأمر وعلموا بالخيانة البريطانية (التي لن تكون الأخيرة في التاريخ البريطاني) عجبوا من قيام ملك بريطانيا بمنح ما لا يملك لمن لا يستحق (سيواجه العرب نفس الموقف زمن وعد بلفور) وقالوا إنهم لم يفعلوا ما يوجب تسليمهم لأعدائهم غير التطوع وسفك دماء أبنائهم في سبيل خدمة بريطانيا (سيقول العرب نفس العبارة بعد قيامهم بسفك دمائهم في سبيل بريطانيا في الثورة العربية الكبرى 1916 أثناء الحرب الكبرى الأولى وخيانة الإنجليز لهم بتسليمهم إلى أعدائهم الفرنسيين والصهاينة)، وعندما سمع الهنود بتداول الإشاعات عن المعاهدة بين الإنجليز والأمريكيين رجا بعضهم أن تذكر بريطانيا "أبناءها" الهنود في تلك المعاهدة، ولكن هذه الأم المزيفة لم تأت على ذكر أبنائها ولم تشعر بوجوب تضمين المفاوضات موضوعهم ولم تحاول ضمان حقوقهم رغم قتالهم إلى جانبها سنوات طويلة واقتصرت على تقسيم تركتها بين أعدائهم[57] (كما اقتسمت فيما

---

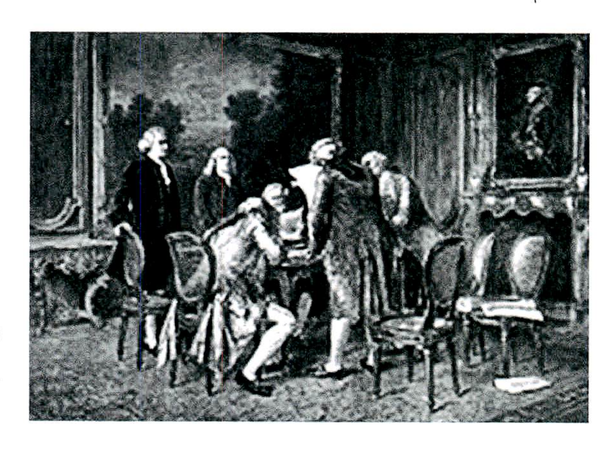
(55) Banner، 2005، ص113.

(56) Foner، 2005، ص219.

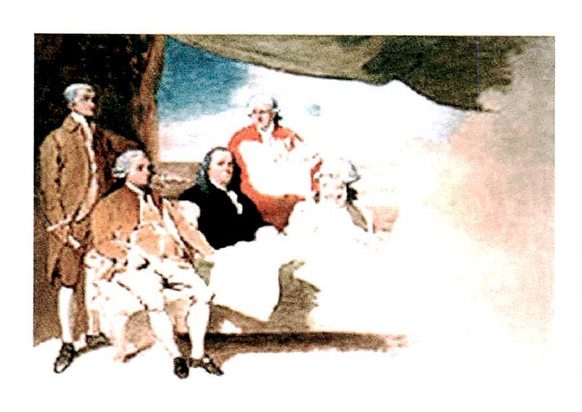
(57) Calloway، 1995، ص293-296.

- Horsman، 1992، ص3.

بعد أراضي حلفائها العرب، دون ذكرهم، مع الفرنسيين والروس في اتفاقية سايكس بيكو 1916)، وقد صدم الهنود من هذه الأعمال وصرحوا بأن هذا الظلم وهذه الوحشية أفعال خليقة بأن تصدر عن المسيحيين وحدهم(58).



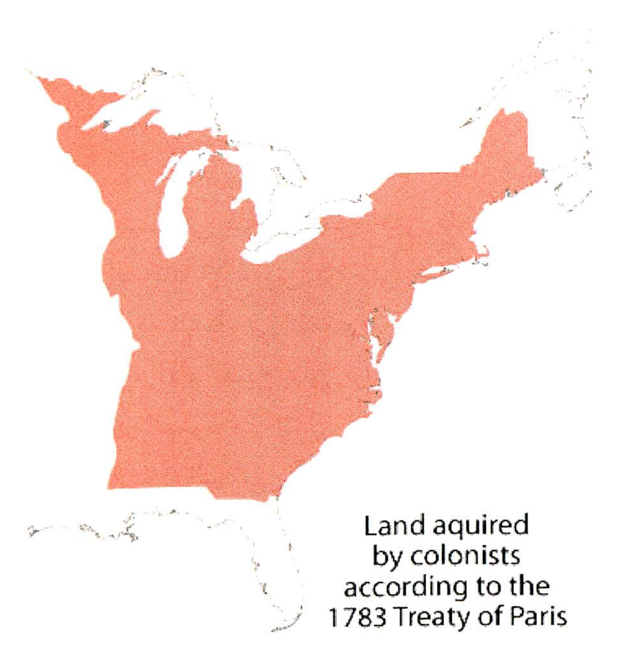
التوقيع التمهيدي على معاهدة باريس في 30 نوفمبر/ تشرين الثاني 1782



الوفد الأمريكي لمفاوضات باريس كما رسمه الفنان وست، وقد رفض الوفد البريطاني الظهور فلم تتم اللوحة

- Prucha، 1995، ص42.
- Banner، 2005، ص123.

(58) Banner، 2005، ص123.



الأرض التي حصل عليها الأمريكيون من بريطانيا في معاهدة باريس بعد انتصار الثورة [59]

أثر الثورة الأمريكية على القبائل الهندية:

يقول أحد المؤرخين إن وصول الأمريكيين إلى أرض الهنود كان من ثمرات الانتصار الأمريكي في حرب الثورة، وإن حرية البيض كانت تعني خسارة حرية الهنود، وإن الاستقلال الأمريكي أعطى فرصة لإكمال عملية تجريد الهنود من أراضيهم في نيويورك ووادي الأوهايو والجنوب، وهو ما ولد في الأذهان حل المشكلة الهندية بترحيل الهنود إلى الغرب البعيد عن الاستيطان الأمريكي، وبالفعل لم يحل "السلام" بعد معارك الثورة إلا بترحيل قبائل كثيرة من مواطنها في وادي الأوهايو ونيو إنجلاند، وفي عبارة مهمة الدلالة على مكان السكان الأصليين في عالم الرجل الأبيض يقول رسول العقل توماس جيفرسون إن إزاحة الهنود من وادي نهر الأوهايو سيضيف إقليماً واسعاً وخصباً "لإمبراطورية الحرية"[60]، وهكذا كانت الحرية دائماً تعني للرجل الأبيض سلب الحرية من الآخرين.

---

(59) http://aventalearning.com/content168staging/2008AmHistA/unit1/html/sectio 6 page_15.html

(60) Foner، 2005، ص219.

ومن الآثار المهمة لحرب الاستقلال الأمريكية على الهنود كذلك أنها جعلت الهندي يقاتل أخاه الهندي من نفس القبيلة لأول مرة في حرب الرجل الأبيض[61] (ولعل ذلك مشابه لما أحدثه التدخل الغربي في العالم الإسلامي عندما تسبب في قتال الإخوة حتى داخل القطر الواحد)، وقد شاركت فئات مجتمع السكان الأصليين كافة في حرب الثورة بصورة استثنائية، ورغم اعتيادها على مشاركة النساء في المعارك، فإن المجتمعات الهندية شاركت أحياناً برمتها لصد هجوم الأمريكيين على قراها، وقد خاطب أحد الزعماء حلفاءه البريطانيين بالقول إن الهنود هم الذين يتعرضون وحدهم للمعاناة في هذه الحرب التي يفقدون فيها أهاليهم في الوقت الذي ينعم فيه الإنجليز بالهدوء في حصونهم[62]، ومن النماذج البارزة لأثر الثورة الأمريكية على المجتمعات الهندية مصير قبيلة الشيروكي التي فقدت ثلاثة أرباع أراضيها وتم تدمير أكثر من نصف قراها بالإضافة إلى التوتر الاجتماعي الذي نجم عن انقسام المواقف من الثورة[63]، وفي عملية تقويم مختصر لأثر الثورة الأمريكية على السكان الأصليين يقول أحد المؤرخين إنه بنهاية هذه الثورة اكتسى إقليم الهنود بالقرى المدمرة من البحيرات العظمى إلى الجنوب الأمريكي، وإن الذين نجوا من أهوال الحرب واجهوا مستقبلاً غامضاً محملاً بأعباء إعادة البناء ولأم جراح عميقة خلفتها الحرب بين الأشقاء الهنود وأيضاً بين الهنود والأمريكيين[64]، وهو ما لم يحدث نتيجة الأطماع التي ترصدت لممتلكات السكان الأصليين، ورغم ما قدمه الهنود لهذه الثورة فقد أدت إلى معاناتهم الشديدة نتيجة الإصابات البشرية التي تعرضوا لها وتدمير قراهم ومحاصيلهم وخسارة أراضيهم ونهاية وحدتهم الاجتماعية التي استمرت في الماضي زمناً طويلاً، كما أدت الثورة إلى غربتهم عن المجتمع الأمريكي المحيط بهم[65] والذي كان يطمع بشره في أرضهم الخصبة التي جعلت

---

(61) نفس المرجع، ص218.

(62) Calloway، 1995، ص55-56.

(63) نفس المرجع، ص211.

(64) نفس المرجع، ص64.

(65) Waldman، 2000، ص136.

من مجتمعاتهم غنية في المحاصيل الزراعية[66] على العكس من الرؤية الاستئصالية التي أنكرت الزراعة الهندية وربطت بين الهندي وحياة التنقل لتبرر جريمة اقتلاعه من أرضه وإبادته بحجة تخلفه، مع أن الهندي كان هو المستقر الذي عاب على أوائل المهاجرين بداوتهم وتنقلهم، وهي رؤية شارك فيها الإسبان في فلوريدا حين عابوا على الأمريكيين شبههم بأعدائهم العرب البدو[67]، وبعد انتصار الثورة حدث طوفان من الهجرة والاستيطان في أرض الهنود، وقد صرح بعض زعمائهم بأن هذه الثورة كانت ضربة قاصمة وُجهت إليهم، وقد صدقت توقعاتهم إذ أنها أوجدت مجتمعاً أبيض جديداً وقدمت تبريراً لاستبعاد الهنود منه[68]، وبهذا يكون الاستقلال الأمريكي قد أدى إلى خسارة استقلال السكان الأصليين[69].

وقد أدت الثورة كذلك إلى انتقال مفرداتها الفكرية، لاسيما "الحرية"، إلى السكان الأصليين الذين تبنوها في عملية دفاعهم عن حقوقهم داخل الجمهورية الجديدة، وانتقلت إلى قواميسهم أيضاً مفردات "الاستقلال" و"الحقوق الطبيعية" التي طوعوها لأهدافهم كما طوعها الأمريكيون لأهدافهم في مواجهة بريطانيا، وكانت الحرية كما فسرها الهنود هي الاحتفاظ باستقلالهم وملكيتهم لأراضيهم، ولكن كما أن تبني لغة الخطاب الحقوقي الغربي في المحاكم الغربية والمحافل الدولية لم تجد أهل فلسطين في محاولتهم درء الخطر الصهيوني الذي رعته بريطانيا ثم الولايات المتحدة ولم يساعدهم ذلك على استرجاع أي حق من حقوقهم المسلوبة رغم الإثباتات والتوثيقات والدراسات التي قدمها رجال متعلمون على درجة عالية من الثقافة كالأستاذ أحمد الشقيري أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي اشتهر بحججه المنطقية الموثقة وبإحراجه مندوبي الغرب والصهيونية في أروقة الأمم المتحدة، فكذلك لم تجد هذه اللغة هنود أمريكا ولم تؤد إلى استرجاعهم أي حق من حقوقهم في مواجهة القوة الطامعة التي صممت

---

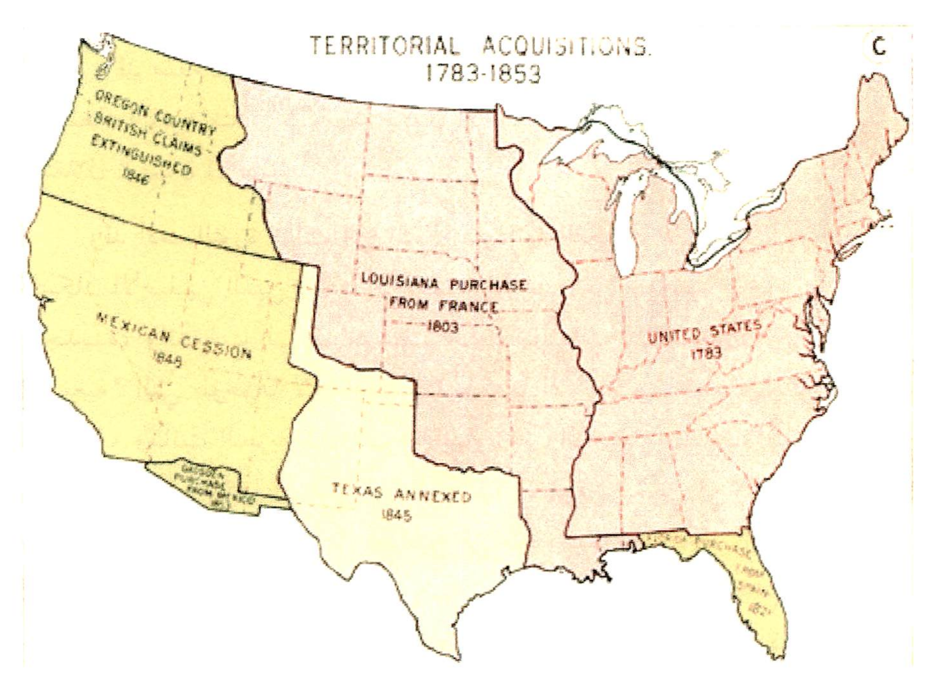
(66) Calloway، 1995، ص55.

(67) نفس المرجع، ص22.

(68) نفس المرجع، صxv-xiv.

(69) نفس المرجع، ص213.

على عدم منحهم مكاناً في الجمهورية الأمريكية[70]، ويشهد حالهم اليوم بصفتهم أكثر قطاعات المجتمع الأمريكي فقراً وبؤساً ومرضاً وبطالة وانتحاراً وإدماناً على مدى عجز لغة الأخلاق عن حماية الضعفاء، ويمكننا أن نعمم الظاهرة ونرى أن الاستعمار القديم لم يضطر إلى الخروج من مستعمراته نتيجة الإثباتات الحقوقية بل نتيجة المقاومة المسلحة التي جعلت من بقائه قضية مكلفة وباهظة النفقة إلى أن قرر إعفاء نفسه من هذا العبء الثقيل، ولولا ذلك لما غادر مستعمراته.



الأثر الأهم للثورة الأمريكية في المدى البعيد أنها مهدت للسيطرة البيضاء على القارة في غضون مدة أقل بكثير من المدة الطويلة التي استغرقها الزحف الماضي البطيء، فبعد أقل من ثلاثة أرباع قرن هيمنت الولايات المتحدة على القارة بعدما كانت هيمنة المستعمرات محشورة في الساحل الشرقي لمدة أكثر من قرن ونصف، ولم يعد أمام الرجل الأبيض سوى القضاء على أصحاب البلاد الأصليين، وهذه الخريطة الحكومية التي ربما رسمت في منتصف القرن العشرين توضح ذلك وتلخص تاريخ التوسع القاري الأمريكي[71]

(70) Foner، 2005، ص219-220.

(71) http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_territorial_acquisitions

استمرار الحقيقة الإمبراطورية الاستعمارية بثوب جمهوري ثوري: وبعد انتصار الثورة استخدمت حكومة الجمهورية الأمريكية نفس أدوات الإمبراطورية البريطانية في الاستيلاء على أرض الهنود، فقد انتحلت سلطات التاج البريطاني في الهيمنة على هذه الأراضي واحتكرت حق التعامل مع أصحابها الأصليين[72]، كما تبنت فكرة الحدود الهندية الفاصلة بين الاستيطان الأبيض والقبائل الهندية[73]، ومع أن هذا الحد سمي دائماً بالحد "الدائم" فإنه لم يكن في أي زمن دائماً بالفعل لأنه كان دائم التراجع نحو الغرب كلما تقدم الاستيطان، كما أنه كان مبرراً لنقل القبائل الهندية من مواطنها إلى الأراضي البعيدة التي زعم أنها مخصصة لهم وأطلق عليه اسم المقاطعة الهندية، ومادامت هندية فهي أولى بالهنود (كما أن البلاد العربية أولى بعرب فلسطين من أرضهم في عرف الصهيونية)، وحتى التاج البريطاني الذي نوى أن يكون خط الإعلان الملكي 1763 هو الحد الفاصل الدائم عاد مرة أخرى لرسمه إلى الغرب في سنة 1768[74]، وهذه الممارسات الامبراطورية التي قامت بها الجمهورية، ويا للمفارقة، هي التي دفعت مؤرخين موثقين إلى القول إن صراع المستعمرات الأمريكية مع التاج البريطاني لم يكن موجهاً ضد الممارسة الإمبراطورية بل إن المستعمرات كانت تريد إنشاء إمبراطوريتها الخاصة في الغرب الأمريكي[75] وهو أرض السكان الأصليين.

نماذج من معاملة الجمهورية لحلفائها من الهنود:

تقول واحدة من المؤرخين إن الجمهورية الأمريكية الوليدة كان اهتمامها ضئيلاً بالاعتراف بفضل حلفائها الهنود ولم تأبه بمنحهم مكاناً لائقاً فيها، وإن كراهية المستوطنين للسكان الأصليين هي التي تحكمت في السياسة الأمريكية بعد

(72) Banner، 2005، ص135.
(73) Washburn، 1988، ص11.
(74) Hakim، 2003، ج3، ص37.
- Marks، 1998، ص37.
(75) Calloway، 1995، صxv.
- Jennings، 2000، ص200.

انتصار الثورة، وإن حرب كثير من الهنود استمرت بعد نهاية الثورة التي لم تكن تعني لهم نهاية المتاعب[76]، ومن ذلك ما وقع لبعض قرى قبيلة الشاوني والتي بذلت جهداً كبيراً لمنع رجال القبيلة من الالتحاق بالإنجليز، فكان جزاؤها هو هجوم الميليشيا الأمريكية عليها وتدميرها أو إحراقها رغم جهود بعض الزعماء لتوضيح صداقتهم وارتباطهم بمعاهدة سلام مع الأمريكيين ورفع العلم الأمريكي طلباً للنجاة، ولكن كل ذلك لم يجد وتم قتل الزعيم المسالم بالفأس بالإضافة إلى مجموعة من الزعماء وبقية الرجال، وأحرقت المحاصيل والبيوت ونهبت الممتلكات[77]، وكانت حرب الجمهورية على قبيلة الشاوني استمراراً لحرب الثورة عليها والتي حفزها رسول الديمقراطية توماس جيفرسون الذي كان يتمنى طرد القبيلة أو حتى إبادتها كما مر ذكره، ومن ذلك طرد بعض العشائر التي ساندت الثورة من أراضيها بعد تحقيق النصر على بريطانيا[78]، والتمدد في أراضي البعض الآخر[79]، وما أصاب عشيرة قاتل رجالها إلى جانب الثوار الأمريكيين ولكن نساءهم اضطررن لبيع الأراضي لتسديد ديون المقاتلين لأجل أمريكا وبعد انتصار الثورة استمر التعدي على أراضي العشيرة حتى اضطرت للجوء إلى قبيلة أخرى منحتها المأوى، ورغم الوعد الأمريكي بالحفاظ على أراضي الهنود الحلفاء خلافاً للأعداء فإنه لم يطبق وتسابق المستوطنون والمضاربون وأصحاب الشركات للاستحواذ على أراضي الهنود، ولما حاول مجموعة من زعماء هؤلاء الهنود التظلم وزاروا الكونجرس طلباً لإنصاف مطالبهم وحقوقهم في الأرض، صُرفوا بهدايا تافهة وأكفان لمن قُتلوا دفاعاً عن قضية أمريكا، يقدر ثمنها بمائة دولار فقط[80].

(76) Marks، 1998، ص40-43.

(77) Calloway، 1995، ص177

(78) نفس المرجع، ص82.

(79) نفس المرجع، ص236.

(80) نفس المرجع، ص104.

دوافع الإجراءات الرسمية الأولى لحكومة الجمهورية (معاهدات الانتقام 1784-1786، مرسوم الشمال الغربي 1787، معاهدات الاسترضاء 1789) ودور أفكار الاستئصال الاستشراقي في تسهيل عملية السلب:

بعد هزيمة بريطانيا وحلفائها رأى الأمريكيون أن جميع الأراضي الهندية خاضعة لهم بحق الانتصار والفتح والإخضاع وأنهم يستطيعون تجريد الهنود من كل حقوق الملكية التي فقدوها بهزيمتهم[81] (كما ادعى الصهاينة فقدان الفلسطينيين أيضاً حقهم في بلادهم بعد هزيمتهم في حرب النكبة سنة 1948)، ورأوا أن الهنود هم المعتدون دون أي سبب أو إثارة [82] (عدا اقتحام الغرباء بيتهم واستقرارهم فيه "بسلام" !، تماماً كما كانت دورة العنف في التخوم الأمريكية تبدأ بتعد استيطاني "سلمي" على أراضي الهنود الذين يهبون للدفاع عن وجودهم وبقائهم مما يدعو المستوطنين لمزيد من التعدي متهمين الهنود بافتعال العنف والابتداء بالقتل[83]، وهذا التأكيد على "البراءة" سيتكرر في التاريخ الصهيوني حيث سيرهب الفلسطينيون "الدمويون" المستوطنين المستقرين مع أطفالهم "الأبرياء" في البيت الفلسطيني "بسلام" أيضاً !)، وقد سبقت الإشارة إلى أن الجمهورية الجديدة صنفت مؤيديها ومعارضيها من الهنود في خانة واحدة، وقد مارست الرؤى الاستئصالية مفعولها في الرأي العام الذي تبنى الوهم القائل إن جميع الهنود قاتلوا إلى جانب بريطانيا مما برر عملية الاستيلاء على أراضيهم فيما بعد[84]، وفرضت الحكومة الأمريكية على الهنود ببعض المعاهدات ضريبة الهزيمة بالتخلي عن أراضيهم[85]، وكان من ربح من القبائل استثناء ملحوظاً[86]، وهناك من منحتهم معاهدة ستانويكس 1784 ضماناً ببقاء

---

(81) Banner، 2005، ص122-123.

(82) نفس المرجع، ص122.

(83) نفس المرجع، ص145.

(84) Calloway، 1995، ص285.

(85) نفس المرجع، ص282.

(86) نفس المرجع، ص285.

أراضيهم في نيويورك بأيديهم مكافأة لوقوفهم إلى جانب الثوار الأمريكيين، ثم نقضت الولاية عهد الحكومة الاتحادية معهم فاستولت على أراضيهم وطردتهم منها[87].

وحدث تغير جذري في التعامل الرسمي مع السكان الأصليين، فبينما كانت المعاهدات في السابق تبين الأراضي التي تم بيعها وانتقال ملكيتها إلى الرجل الأبيض، أصبحت المعاهدات الآن تبين ما تبقى للهندي وماعداه فهو من أملاك الحكومة الأمريكية[88] التي عدت نفسها "كريمة" إذ لم تستول على جميع الأراضي التي تخلى عنها ملك بريطانيا بعد هزيمته[89]، ولم تكن كل تلك الإجراءات مستغربة لأن حكومة الجمهورية الوليدة كانت مفلسة ولا تملك موارد لإنعاش خزينتها سوى الأراضي الهندية التي يمكن بيعها[90]، وكان ربحها من بيع هذه الأراضي طائلاً لأنها كانت تشتري الفدان منها بسِنْتين أو أقل ثم تبيعه للمستوطنين بدولار وربع[91] أو حتى دولارين[92]، كما ضغطت فئات عديدة في الجمهورية الاستيطانية الجديدة للحصول على أراضي الهنود، كالتجار الذين طلبوا من الحكومة الاتحادية دفع ديون الهنود من أراضيهم، والجنود الذين قاتلوا في الثورة مقابل وعود بالحصول على أراض بدلاً من المال الذي لم يكن متوفراً، وحكومات الولايات التي أرهقت بالديون وتحتاج أراض الهنود لبيعها وتأمين مورد مالي لسداد الديون القديمة والحصول على أخرى جديدة[93]، وكل ما سبق يؤكد التعارض الموضوعي بين الكيان الاستيطاني، وصاحب الأرض بغض النظر عن مواقفه من العدوان، فالمسالم كالمحارب عقبة في وجه التمدد الاستعماري، وهو ما يفسر الإجراءات العنيفة التي عومل بها الهنود في تلك الفترة، مثل العقوبات الجماعية التي يمكن أن تحرق بلدة بسبب فعل شخصين أو

(87) Hoxie، 1996، ص442.
(88) Banner، 2005، ص128.
(89) نفس المرجع، ص127.
(90) Calloway، 1995، ص208 و281.
(91) Banner، 2005، ص145.
(92) Horsman، 1992، ص131.
(93) Banner، 2005، ص126-127.

ثلاثة منها ودون انتظار تسليمهم رغم إبداء القيادات استعدادها لذلك (هل يذكرنا هذا بالعقوبات الجماعية التي نفذها الانتداب البريطاني في فلسطين؟)، أو مثل عدم الالتزام بمضمون معاهدات السلام التي اشتكى الهنود من زيادة الاستيطان في أرضهم بعد التوقيع عليها[94] (هل كان التوسع الاستيطاني بعد اتفاقية أوسلو سنة 1993 تكراراً لأحداث جرت سابقاً؟).

ولكن تلك الغطرسة الثورية "الكريمة" لم تعجب أصحاب الحقوق فبدءوا يتململون ويفكرون بالثورة[95] وهو ما دعى الحكومة إلى تغيير هذه السياسة التي سادت بين 1783-1786 والتي استندت إلى فكرة حق الاستيلاء على الأرض بالفتح والإخضاع[96] إذ كان السكان الأصليون مايزالون في موقع قوي بعد انتصار الثورة وفي بداية عهد الجمهورية، وكان التوصل إلى اتفاقات معهم وتهدئتهم أمراً حيوياً للكيان الجديد[97]، وإذا كان بغض الهنود قد ظهر في بعض الأفعال الدالة، فإن الحكومة الجديدة قامت ببعض الإجراءات الرسمية التي استهدفت مسالمة القبائل وعدم استثارة عداوتها ومن ثم الدخول في حروب معها في تلك الفترة الحرجة بالقدر الذي يناسب مصالح الاستيطان الذي لم يمنع الاهتمام به والاستيلاء على أرض الهنود من استخدام الوسائل الدبلوماسية والوعود السياسية لوأد أي تحرك قد يضر بوجود الأمة الوليدة، وكان تحقيق "السلام" هاجساً للحكومة الجديدة[98] (وهذا نموذج لدواعي جنوح الكيانات الاستيطانية نحو "السلام" مع السكان الأصليين) والتي كانت حربها ضد الهنود المستائين ستتطلب مليوني دولار أما شراء ما استولت عليه من أراضيهم فلن يكلفها سوى عشرين ألف دولار، أي 1% من نفقات الحرب[99]، ولهذا لم تتردد في الاختيار[100]، وفي سبيل تحقيق ذلك تم إصدار مرسوم الشمال الشرقي

(94) Calloway، 1995، ص209.
(95) Banner، 2005، ص130.
(96) نفس المرجع، ص133.
- Horsman، 1992، ص23.
(97) Prucha، 1995، ص46.
(98) نفس المرجع، ص48-49.
(99) Banner، 2005، ص130-131.
(100) Horsman، 1992، ص8.

1787 الذي أكد أنه "سيتبع أقصى درجات حسن النية تجاه الهنود، ولن تؤخذ أراضيهم دون موافقتهم، وأن أملاكهم وحقوقهم وحريتهم لن تتعرض للهجوم أو الإزعاج إلا بحرب عادلة يقرها الكونجرس، وستشرع قوانين قائمة على العدل والإنسانية بين فترة وأخرى لمنع ارتكاب الأخطاء بحقهم وللحفاظ على السلام والصداقة معهم"[101]، وتخلى الكونجرس في سنتي 1788 و1789 عن فكرة الفتح وتنازل عن فكرة خسارة الهنود حقوقهم في أرضهم نتيجة هزيمتهم في حرب الثورة مع بريطانيا وأقر بامتلاكهم حق إشغال أرضهم، ولكن ذلك لا يرقى إلى الملكية الكاملة[102]، وعقدت مجموعة من المعاهدات على أسس جديدة ابتداء من سنة 1789 مع السكان الأصليين والتي يشير المؤرخون إلى كونها أنهت سياسة وضع اليد على تلك الأراضي بل ودفعت ثمناً للأراضي المصادرة في معاهدات الانتقام التي عقدت بعد انتصار الثورة وهزيمة الهنود[103]، ويمكننا القول إنها بينت أن هدف السلام كان هو تمكين وضعها على الأرض في ظرفها الحرج لتتمكن فيما بعد من الانطلاق في العدوان (ولعل هذه هي أيضاً النظرة النفعية للسلام عند الكيان الصهيوني فيما بعد)، وبهذا فإنها أنهت بها سياسة الاستيلاء على أراضي الهنود بالقوة والمصادرة[104]، واتجهت إلى عملية الشراء التي كانت أرخص كثيراً من شن الحروب والدخول في معارك مكلفة مع أصحابها[105]، فشن حرب على قبيلة قد يتطلب مليوناً ونصف المليون دولار، أما الدخول في معاهدة سلام فلا يتطلب إلا ثمن المساعدات السنوية التي ستدفع للقبيلة وتتراوح قيمتها بين ألف وألف وخمسمائة دولار، وقد يحتاج الأمر بعض الرشاوى للزعماء المتنفذين وتصل إلى مائة دولار سنوياً أو دفعة من ألف أو ألفي دولار[106] (وذلك كالرشاوى التي دُفعت وتُدفع لزعمائنا مقابل تمرير المصالح الغربية أو منح الامتيازات الاقتصادية).

(101) Prucha، 1995، ص47.

(102) نفس المرجع، ص60.

(103) نفس المرجع، ص49-50.

(104) نفس المرجع، ص50.

(105) Banner، 2005، ص130-131.

(106) Horsman، 1992، ص51 و67 و72-73 و135-137.

ولكن الحكومة الجديدة لم تتخل عن الهدف الاستيطاني التوسعي، فقد كانت أولوياتها هي التوصل إلى السلام مع الهنود والاستيلاء على أراضيهم في نفس الوقت[107] (وهذا هو شأن السلام الاستيطاني دائماً كما تظهر تجربتنا مع الصهاينة)، ومما يلفت الانتباه استعداد الحكومة الأمريكية لدفع أموال للهنود تساوي أرباحهم من عملهم في أرضهم مقابل تنازلهم عنها[108]، وهو ما سيعطي الصفقة لأول وهلة صفة "العدالة" ولكنها في النهاية ستفقدهم مصدر معيشتهم مقابل مال لن يستمر إلى الأبد وحينئذ سيشعر البائع بفدح الخسارة الأمر الذي يؤكد أن التعارض بين الشعبين لم يكن بسبب نزاع على مصالح مادية عابرة لأن الرجل الأبيض استعد أن يدفع المال وهو ما رفضه الهندي وسنجد أنه سيقترح عليه دفع المال نفسه للمستوطنين ليرحلوا عن أرض الهنود ويستأنفوا حياتهم بعيداً عنهم[109]، وهو ما يعزز الاستنتاج أن الصراع كان صراع وجود على موارد المعيشة وأهمها الأرض التي اتضح منذ البداية أن ملكيتها هي العامل الحاسم للبقاء المكتفي والمستقل[110]، ولهذا استعد الأمريكي للتضحية في سبيلها واستعد صاحبها لتضحية أكبر للدفاع عنها (وهو ما يشبه اليوم استعداد الصهيوني ومن خلفه لدفع مبالغ طائلة لشراء فلسطين مقابل تنازل أصحابها عنها والذين يبذلون تضحيات أكبر للاحتفاظ فيها).

وإن التطبيق العملي لطرق الحصول على أراضي الهنود والبعيد عن النظريات المثالية في المعاهدات والقوانين[111] يبين أن تلك الوثائق الرسمية لم تكن سوى وسائل تهدئة للاستيلاء على تلك الأراضي بالوسائل الملتوية غير المكلفة وهو شأن "السلام" في الكيانات الاستيطانية الجائعة باستمرار لبلع أراضي السكان الأصليين بهدوء لو أمكن، كما يتبين أن المُثل في ذلك العهد أقرت بحقوق الهنود ولكن الممارسة ابتعدت عن ذلك تماماً وهو ما يلقي بظلال من عدم المصداقية على الدفاع عن ذلك العصر بالقول إنه مختلف عن الزمن

(107) نفس المرجع، ص15 و43.

(108) نفس المرجع، ص134.

(109) نفس المرجع، ص98.

(110) Marks، 1998، ص13.

(111) Banner، 2005، ص140.

المعاصر ومُثله، لاسيما أن هذه الممارسات مازالت سارية إلى اليوم.

دلائل الاهتمام بالاستيلاء على الأرض على حساب أصحابها:

ومما يؤكد أن قضية الهنود لم تكن متعلقة بمعاملتهم بالعدل أن واضعي الدستور لم يأبهوا بالشئون الهندية عندما اجتمعوا في سنة 1787[112] أي في نفس العام الذي صدر فيه مرسوم الشمال الغربي الذي وعد بعدم الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين دون موافقتهم، كما أن الرؤى الاستئصالية ظلت ماثلة في الرأي العام والمخيال الشعبي الذي أصر بعد زمن الثورة على استعادة ذكريات العداوة بين الهندي والأمريكي وأهمل كل الحقائق التي لا تدعم هذه الرؤية، وذلك بسبب الطمع في الأرض الذي جعل من تلك الأفكار الاستئصالية "قوية ومستمرة ومفيدة"، ولم تعد الحقائق المتعلقة بالجهود السلمية التي بذلتها الزعامات الهندية، أو الإنجازات الحضارية التي قامت بها مجتمعات الهنود قادرة على محو تلك الذكريات المرتبطة بمحاولات الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين[113].

وسائل الجمهورية الوليدة في عقد المعاهدات وتطبيقها في سبيل الحصول على أرض الهنود:

يمكننا أن نلخص الوسائل التي استخدمها الأمريكيون في عقد معاهدات الاستيلاء على أرض الهنود بأنها الخداع والرشوة والإكراه والخمر، وكانت هذه الوسائل الملتوية من الإثباتات التي أكدت أن الاستيلاء على الأرض هو الغاية التي تبرر كل وسيلة في سبيل الوصول إليها دون مراعاة أي قيم أو أهداف أخرى مزعومة كنشر الحضارة والمسيحية وتطبيق العدالة، ولهذا أصبح اسم الرجل الأبيض مرادفاً للكذاب عند السكان الأصليين، ونظرة سريعة على هذه الوسائل كما سطرها المؤرخون تؤكد ما سبق: فمن الخداع عدم الوفاء بتنفيذ التعهدات والبنود المسطورة في المعاهدات، ومنها استغلال نقاط الضعف الهندي كضبابية

---

(112) Prucha، 1995، ص50.

(113) Calloway، 1995، ص212.

الحدود بين القبائل للحصول على مكاسب إجبارية أو استغلال عدم معرفة الهنود باللغة الإنجليزية لتمرير بنود غير متفق عليها، أما الرشوة فهي تقديم الرشاوى للزعماء المتنفذين للقبول بشروط الرجل الأبيض، ثم صناعة زعماء دمى إذا تطلب الأمر ليكون هؤلاء العملاء رهن إشارة أسيادهم البيض ويقوموا بتنفيذ ما يملى عليهم ويقبلوا ما يرفض زعماء القبيلة الحقيقيون التوقيع عليه (ألم تصبح سياسة تغيير الزعماء متبعة في الساحة العربية والإسلامية بواسطة التدخلات العسكرية أو الانقلابات أو المؤامرات للمجيء بزعماء مطواعين يقبلون بما يملى عليهم لاسيما على الساحة الفلسطينية التي شهدت تطبيق هذه السياسة أيضاً)، ومن وسائل الإكراه إرهاق القبائل بالديون من التجارة ببضائع الرجل الأبيض حتى يعجزوا عن سداد ديونهم إلا بالتنازل عن أراضيهم، ومن الإكراه كذلك إجبارهم على الامتثال لرغبات الحكومة الأمريكية تحت ضغط التهديد باستخدام القوة أو بمنع المساعدات والمؤن، وشاركت الخمر في تطبيق جميع الوسائل الملتوية ومنها في الخداع الحصول على توقيع الزعماء وهم في حالة سكْر وثمل من شرب خمور تقدم إليهم قبل المفاوضات، ومنها في الإكراه تحميل الهنود ديوناً من إقبالهم الشديد على الخمور حتى يضطروا إلى بيع بلادهم للتجار أو الحكومة، ومنها في الرشوة تقديم الهدايا من الخمور للهنود وزعمائهم للحصول على موافقتهم على بيع أراضيهم(114).

تقويم آثار الثورة الأمريكية "التحررية الديمقراطية" على السكان الأصليين:

يقول أحد المؤرخين البارزين إن حرق القرى والمحاصيل، واغتيال

---

(114) Banner، 2005، ص140-143.
- Debo، 1983، ص89 و106.
- Horsman، 1992، ص132.
- Brandon، 1985، ص230 و233.
- Thornton، 1990، ص66.
- Calloway، 1995، ص13.
- Marks، 1998، ص65.

الزعماء، وانقسام القيادات، والحروب الأهلية، والهجرات، وازدحام الحصون والبلدات باللاجئين، وتفسخ التقاليد، والخسائر في المعارك والأمراض والمجاعات، والتخلي عن السكان الأصليين لأعدائهم، والتمزق والعطل الاقتصادي، كل ذلك جعل من الثورة الأمريكية واحدة من أكثر الفترات ظلاماً في تاريخ السكان الأصليين، وإنها كانت كارثة على معظمهم وتختلف عن غيرها من الكوارث التي مرت بهم وأمكنهم تجاوزها بإعادة البناء لأن هذه المرة لم يعد هناك مكان في أمريكا لعالم الهنود[115]، وقال مؤرخ آخر إن الثورة الأمريكية أكملت ما بدأته الحرب الفرنسية والهندية التي أنقصت أعداد الهنود بالإصابات الضخمة التي أحدثتها، فزادت الثورة بإحداث مزيد من الإصابات[116]، وهو ما يدعو لمراجعة التقويمات التي رأت أن الثورة الأمريكية ومثيلتها الفرنسية وغيرهما من الإنجازات الغربية الثورية انحرفت في النهاية عن مسارها وأهدافها حين اتجهت إلى الاستعمار والإمبريالية[117]، فهذه التوجهات لم تكن انحرافات كما يظن البعض بل هي من صلب هذه الثورات ومن المكونات الرئيسة لها وشروط أساسية لإنجازاتها كما يتضح مما رافق الثورة الأمريكية من دمار حل بالسكان الأصليين في زمنها وليس فيما بعد، وهو ما ستؤكده سياسات "الآباء المؤسسين" بعد تسلمهم قيادة الأمة الجديدة.

(115) Calloway، 1995، ص290-291.

(116) Thornton، 1990، ص86.

(117) العسلي، 1980، ص8.

الفصل الثالث عشر

حروب أشباه الآلهة الأمريكيين

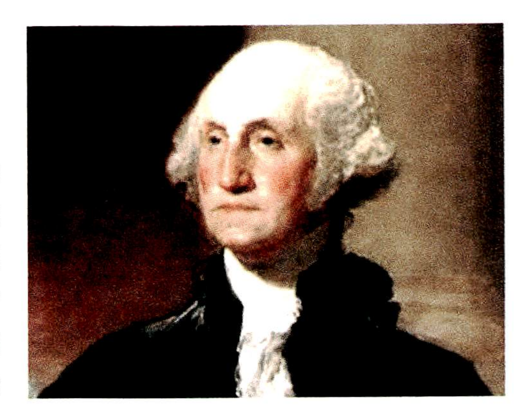
(1)

جورج واشنطن (1789-1797)

وضعت الأمة الأمريكية "الآباء المؤسسين" الذين وقعوا على إعلان الاستقلال وشاركوا في الثورة ووضعوا الدستور في منزلة أشباه الآلهة الوثنية أو الأنبياء الذين أتوا بالكتب المقدسة التي لا يجوز نقاشها، وقد صرح الرئيس توماس جيفرسون بذلك عندما وصف واضعي الدستور بأنهم أشباه آلهة وهي صفة التصقت بهم فيما بعد في التاريخ الأمريكي، وكان أشهر هؤلاء هو جورج واشنطن الذي اكتسبت أفعاله حتى الهامشية صفة التقديس، ولكن إذا كان الآباء المؤسسون على هذه الدرجة من الأهمية عند المجتمع الأمريكي فإن منزلتهم كانت على عكس ذلك عند السكان الأصليين الذين وقعت الإنجازات الثورية على حسابهم، ومن ذلك أن اسم جورج واشنطن مثلاً أصبح مصدراً للرعب لديهم[1]، وهذا ما تظهر سببه حروب رئاسته على الهنود بعد حروب الثورة التي قادها ضدهم.

---

(1) العكش، 2002، ص44.



قائد الثورة الأمريكية ومؤسس الجمهورية وأول رئيس للولايات المتحدة جورج واشنطن (1789-1797) كان شبه إله عند قومه المستوطنين وشيطاناً مرعباً عند أصحاب الأرض الأصليين

ولفهم الأحداث لابد من ربطها بما سبقها، فقد شهدت مرحلة الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني تناسي القبائل الهندية خلافاتها الجانبية واتحدت لمواجهة الخطر المشترك، إذ حاربت قبائل الديلاوير والإيروكوي في خندق واحد ضد غاصبي أراضيهم رغم العداوات التقليدية التي كانت تفرق بين أولئك الهنود، ومع أن كونجرس المستعمرات حاول إبقاء السكان الأصليين بعيداً عن الصراع الأمريكي البريطاني، فإنه يبدو أنهم كانوا يدركون حقيقة الخطر الماثل ضدهم في هذه المستعمرات وأنه أكبر من العبارات المنمقة التي صاغها الكونجرس.

وبعد هزيمة بريطانيا في حرب استقلال المستعمرات قامت سياسة الحكومة الأمريكية الجديدة على إشراك الهنود في الهزيمة التي وقعت على الإنجليز، فأملت على القبائل الهندية خطاً حدودياً جديداً سلب منهم كثيراً من أراضيهم بلا مقابل إلا الوعد بعدم السماح للمستوطنين باختراق هذا الخط، وقد استعملت الحكومة الأراضي التي استولت عليها في مكافأة الجنود الذين شاركوا في الثورة، وتم التوقيع على تسليم هذه الأراضي للحكومة في ثلاث معاهدات أملتها على القبائل في حصن ستانويكس سنة 1784 وفي حصن ماكينتوش سنة 1785 وفي حصن فيني في سنة 1786، ولكن هذه المعاملة التحكمية الجائرة لم تعجب الهنود، وزاد من غضبهم عدم وفاء الحكومة بالتزامها بمنع المستوطنين من اختراق الأراضي الهندية، فلاح شبح الحرب من جديد مما اضطر الحكومة لعقد معاهدات جديدة دفعت للهنود بموجبها تعويضات عن الأراضي التي أجبرتهم على التخلي عنها في معاهدات 1784-1786.

وبالرغم من القوانين المتعاقبة التي أصدرها الكونجرس "لحماية" حقوق الهنود في مواجهة جشع التجار وطمع المستوطنين وذلك في سنوات 1786 و1787 و1790، فإن التوسع الاستيطاني استمر داخل أراضي الهنود الذين أغضبهم انتشار البيض بعد نهر الأهايو فقاموا بغارات انتقامية عليهم مما جعل الرئيس الأمريكي الأول والمنتخب حديثاً يرسل الحملات لتأديبهم.

وتذكر المراجع أن هذه الحرب التي اندلعت بعد نهاية الثورة، في سبيل الاستيلاء على المنطقة الواقعة شمال غرب المستعمرات، شجع تجار الفراء البريطانيون السكان الأصليين على خوضها تشجيعاً سرياً[2]، والسبب في ذلك معروف وهو العداوة البريطانية الأمريكية في ذلك الوقت وتنافس الطرفين لاسيما أن الوجود السياسي البريطاني لم يغادر القارة كما غادرها الوجود السياسي الفرنسي عقب الحرب الهندية والفرنسية (1763)، وظل الإنجليز موجودين في كندا، وإذا كانت الحرب قد انتهت بالنسبة للأمريكيين بانتصار ثورتهم، فإن حرب السكان الأصليين لم تنته رغم هزيمة حليفتهم بريطانيا[3]، وهذا يؤكد أن الهنود لم يكونوا مجرد أدوات يتلاعب بها الأطراف الأوروبية المتنافسة، بل كانت لهم مصالح خاصة سعوا للحفاظ عليها بالانضمام للأطراف الأقرب لتحقيقها.

بذور سياسة التهجير:

قامت الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني وسياساته في المستعمرات، وطالب المستوطنون "بحقوقهم" التي حاول التاج الاستيلاء عليها أو مصادرتها، وكان من ضمن ذلك كما مر "حقهم" في التمدد الاستيطاني داخل الأراضي الهندية، ورغم أن الملك رسم خطاً يحظر الاستيطان خلفه في محاولة لإرضاء القبائل الهندية المتمردة، فإن حكومة الثورة استفادت من هذا المفهوم واستخدمته لخدمة عملة الاستيطان بصفته مبرراً لإبعاد السكان الأصليين إلى الغرب خلف الخط المرسوم[4]، والذي سيظل يتراجع رغم أنه في كل مرة كان يسمى "حداً

(2) Brandon، 1985، ص209.

(3) Marks، 1998، ص43.

- Waldman، 2000، ص136.

(4) Washburn، 1988، ص11.

دائماً" بين الاستيطان الأبيض حيث "الحضارة" والأراضي الهندية حيث "الهمجية"، وكان جورج واشنطن هو أول من أثار فكرة الاستفادة من مفهوم الخط الفاصل بعدما وضعت الحرب أوزارها حين قام أولاً وهو قائد الثورة بما يمليه عليه منصبه بصفته قائداً لأمة استعمارية استيطانية، وفكر بمستقبل مشروعها القائم على إزاحة السكان الأصليين من طريقها، وبإعطاء رجال الجيش المسرحين أراض على التخوم الهندية ليحمي وجودهم المستوطنين "الأبرياء" الذين يتعرضون "لوحشية البرابرة" الهنود، وتخيل أن وجود مستوطنات ضخمة على الحدود الهندية سيكون الوسيلة الأفضل لحث السكان الأصليين على التنازل عن "أراضينا" والرحيل إلى حيث الفضاء غير المحدود، ويعتقد المؤرخون أنه كان يشير إلى الأراضي الواسعة غرب المسيسبي، ولكنه تراجع مؤقتاً عن محاولة التهجير بالقوة وفكر ثانياً في خطة أكثر عملية وهي إخبار الهنود أن من واجبهم التراجع نحو أراضي حلفائهم الإنجليز وأن الولايات المتحدة لن تطبق هذا الإجراء عليهم من باب "الكرم" وأنها سترسم حداً فاصلاً بين أراضيها والأراضي الهندية و"ستحاول" منع الاستيطان خلف هذا الحد مع إرضاء الهنود ببعض التعويضات والوعود إذا أصروا على المقاومة، وبهذا يتم الحفاظ على صلابة الاستيطان ونمو الحكومة حتى يشتد عودها وسيتراجع الهنود كلما امتد استيطان الأمريكيين وسيبدون رغبة في البيع كرغبة الحكومة في الشراء، وهذه هي الطريقة الأرخص للتعامل معهم بدلاً من الدخول في الحروب ذات النفقات العالية ضدهم[5].

أي أن قائد الثورة ومؤسس الجمهورية كان يتحدث عن الحدود الدائمة وينوي تحريكها باستمرار لتتقدم نحو الغرب ويتراجع أصحاب الأرض الذين شبههم بالذئاب التي تتراجع أمام البناء، وكان مؤسس الجمهورية في ذلك منسجماً مع الطبيعة الاستيطانية التوسعية للكيان الجديد والتي فرضت على من كتبوا إعلان الاستقلال عدم وضع حدود لجمهوريتهم الوليدة (وهو ما سار على نهجه مؤسسو الكيان الصهيوني فيما بعد عندما رفض كبيرهم ديفيد بن غوريون

(5) Horsman، 1992، ص5-8.
- Washburn، 1988، ص11.

تحديد حدود كيانه الوليد مستشهداً بالسابقة الأمريكية[6] وسائراً على خطى مؤسس الصهيونية هرتزل الذي أكد على الحاجة المستمرة لمزيد من الأرض كلما زاد المهاجرون[7] كما فعل مؤسس الجمهورية واشنطن قبله)، وليس هناك ما يُبتغى من الحرب مع الهنود غير الأرض التي يمكن شراؤها بثمن أرخص من نفقات الدخول في الحروب المكلفة[8]، فلا تمدين ولا تحضير ولا تبشير، الأرض وحدها هي سبب الصراع وكل ما عداها فهو مجرد ذريعة، وقد أخطأ المؤسس في افتراضين: رغبة الهنود في التنازل عن أراض واسعة وإمكان تجنب الحروب بعد تلك التنازلات لو تمت[9].

وقد كانت هذه هي بذور سياسة التهجير التي بلورها الرئيس الإنساني توماس جيفرسون ملهم أحرار العالم، وهي السياسة التي قضت بتهجير هنود الشرق إلى غرب نهر المسيسبي ليصفو الجو للمستوطنين البيض بذريعة أن الهندي سيكون أسعد في بريته وسيتبنى التحضر على مهله، ثم سيأتي الرئيس الديمقراطي أندرو جاكسون ليضع هذه النظرية موضع التطبيق ويسجل صفحة فخار للديمقراطية الأمريكية باضطهاد وإفناء آلاف السكان الأصليين، وبهذا نلاحظ أنه كلما ارتفعت مكانة سياسي في مجتمع الاستيطان كان ذلك دليلاً على بؤس نهجه تجاه أصحاب الأرض الشرعيين.

وبهذا تبنى الرئيس واشنطن في البداية سياسة تجاه السكان الأصليين وصفت بالإنسانية[10]، إذ لم تكن نفقات هزيمة الهنود محتملة لدى الجمهورية الوليدة[11]، وكان رأيه منذ ما بعد انتصار الثورة وجوب تجنب الحرب في وادي الأوهايو[12]، فلم يستهدف حكمه إفناءهم، وأعلن نيته تطبيق العدالة في التعامل معهم وشراء الأراضي منهم بطرق منظمة، وتشجيع التجارة بقوانين مؤاتية، وأراد

(6) الخالدي، 2002، ص91.
(7) جارودي، 1986، ص499.
(8) Horsman، 1992، ص9.
(9) نفس المرجع، ص9.
(10) Debo، 1983، ص90.
(11) Prucha، 1995، ص61.
(12) نفس المرجع، ص45.

نشر التحضر بينهم بتزويدهم بعدة الزراعة وحيواناتها وتعيين وكلاء حكوميين لتعليمهم طرق استخدامها، مع التحذير من التعدي على حقوقهم وأراضيهم، وهي السياسة النظرية التي ستسير عليها الولايات المتحدة فيما بعد إلى نهاية الحروب الهندية، ولكن الهدف من سياسة واشنطن كان هو استمرار التمدد الاستيطاني وحمايته أثناء تمدده، وهو أمر تقدمت أهميته على تحقيق السلام[13]، ولهذا كان المخطط النظري أن تزدهر حياة الهنود في مساحات أقل من الأرض لترك معظمها مفتوحة لاستيطان البيض[14]، وهو ما يعيدنا كرة أخرى إلى نظرة المجتمع الاستيطاني للسلام وأنه ليس سوى وسيلة لتسهيل التمدد الاستيطاني وتوفير الأجواء الآمنة له وحمايته من توترات مقاومة السكان الأصليين له.

ولكن الخلل تبدى عندما بدأ التطبيق العملي لهذه السياسة التي حملت أهدافاً متناقضة (التمدد الاستيطاني وازدهار الهنود)[15]، وغير محددة في أحسن الأحوال أيضاً (من الذي سيحدد المساحة اللازمة لازدهار السكان الأصليين في غمرة المد الاستيطاني الكاسح؟)، وقد بدأ واشنطن عملية التطبيق بإرسال الحملات العسكرية ضد الهنود الذين يدافعون عن أراضيهم خلف نهر الأوهايو والتي يرفضون الاعتراف بسلطة الزعماء المزيفين الذين عينتهم الحكومة الأمريكية وساقتهم للتوقيع على التنازل عنها[16] منذ معاهدات ما بعد انتصار الثورة[17] وما ترتب عليها (معاهدة 1789)[18]، وأكدت القبائل مدعومة من بريطانيا عدوة الأمريكيين أنها ترفض الفكرة التي بنيت عليها معاهدات التنازل وهي أنها طرف مهزوم في حرب الثورة عليه تحمل النتيجة إلى جانب بريطانيا الخاسرة، كما أكدت أن نهر الأوهايو هو الحد المقبول بين السكان الأصليين والاستيطان الأمريكي[19]، وكانت ترفض عروض السلام ما لم يوافق الأمريكيون على ذلك

---

(13) Sword، 1993، ص131.

(14) Debo، 1983، ص90-91.

(15) نفس المرجع، ص90.

(16) Marks، 1998، ص44.

(17) Prucha، 1995، ص62.

(18) Debo، 1983، ص90.

(19) Prucha، 1995، ص62.

وترى أن السلام المعروض ليس سوى وسيلة للاستيلاء على أراضيها بالتدريج[20] (وهو درس كان علينا نحن استيعابه منذ نشأة المفاوضات مع الصهيونية).



مقاطعة الشمال الغربي القديم[21] التي كان النزاع عليها هو الحرب الأولى في ظل الدستور الأمريكي الوليد

انتصارات هندية أولية:

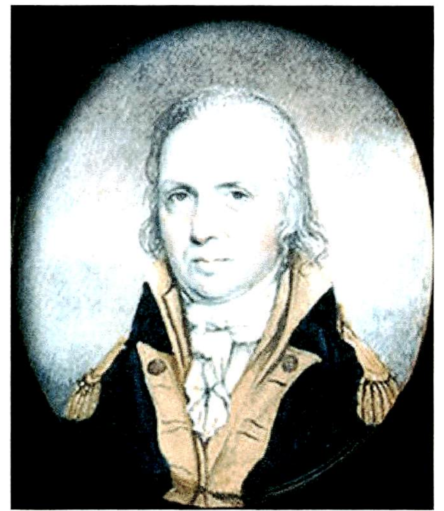
بدأ الرئيس واشنطن حربه من أجل منطقة الشمال الغربي التي تضم اليوم ولايات أوهايو وإنديانا وإلينويز وميتشيغان وويسكونسين والتي كانت قد بدأت قبله منذ الحرب الفرنسية والهندية (1754-1763) واستمرت أثناء ثورة الزعيم بونتياك (1763-1766) ثم أثناء الثورة الأمريكية (1775-1783)، وستستمر بعد واشنطن إلى ثورة الزعيم تكومسيه (1809-1811) والحرب مع بريطانيا (1812) ومقاومة بعض قبائل المنطقة عملية التهجير في العشرينيات ثم حرب الزعيم الصقر الأسود سنة 1832 وستشهد أثناء كل ذلك فصولاً دموية كثيرة، وكان

---

(20) Sword، 1993، ص85.

(21) http://www.ohiohistorycentral.org/w/Northwest_Territory?rec=772&nm=Northwest-Territory

الفصل الجديد بداية من سنة 1790 بعد تولي الرئيس الجديد بمدة قصيرة حين أرسل قائده الجنرال جوسيا هارمر على رأس قوة كبيرة لتأديب قبائل منطقة الشمال الغربي، فقضى وقت الحملة بتدمير وإحراق كل ما يمكنه من ممتلكات السكان الأصليين وطعامهم[22]، ولكن القوة وقعت في كمائن نصبها الهنود بقيادة زعيم قبيلة ميامي "السلحفاة الصغيرة" الذي قاد تحالفاً ضخماً من قبائل عديدة وتمكن من تحقيق انتصاره الأول على الجيش الأمريكي مكبداً إياه خسارة أكثر من 180 قتيلاً وأكثر من 30 جريحاً[23].



الجنرال جوسيا هارمر (1753–1813) أرسله الرئيس واشنطن لتأديب القبائل الهندية الرافضة لعملية الاستيلاء على أراضيها

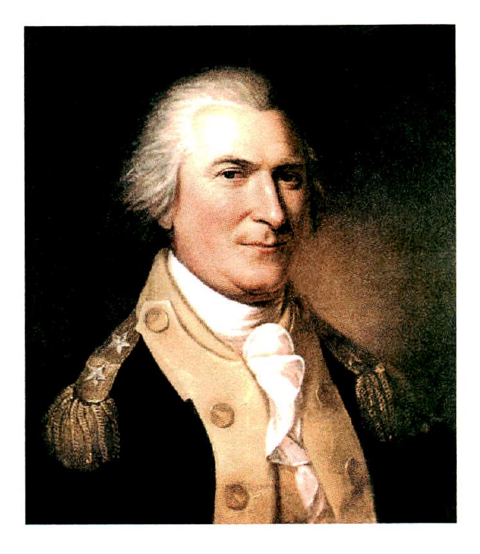


زعيم قبائل ميامي "السلحفاة الصغيرة" قاد تحالفاً ضخماً من قبائل الشمال الغربي القديم لهزيمة الجيش الأمريكي أكثر من مرة وكان واحداً من انتصاراته (1791) أكبر انتصار هندي على الأمريكيين في كل الحروب الهندية

(22) Calloway، 1995، ص178.

(23) Waldman، 2000، ص136.

وفي السنة التالية (1791) أرسل الرئيس حاكم مقاطعة أوهايو الجنرال آرثر سانت كلير في حملة أخرى، ولكنه تلقى في الرابع من نوفمبر/ تشرين الثاني ما وُصف بأنه أكبر هزيمة على الإطلاق في تاريخ الحروب الهندية[24]، فمن بين جنوده الذين بلغ عددهم 1400 قُتل ما بين 600-900 وجرح 280 وبلغت الخسائر في العدة 33 ألف دولار[25]، وهو مبلغ ضخم في ذلك الزمن الذي كانت المساعدة السنوية للقبيلة كلها تبلغ 1500 دولار فقط، مما يؤكد المثل الذي ساد ويقول إن إطعام الهندي أرخص من قتاله، أما خسائر الهنود في المعركة فكانت 21 قتيلاً وأربعين جريحاً فقط[26].



الجنرال آرثر سانت كلير (1737-1818) رئيس الكونجرس القاري قبل إقرار الدستور الأمريكي ثم حاكم مقاطعة الشمال الغربي وقائد الجيش الذي قاتل الهنود هناك في سنة 1791

وقد قاد هذه المعركة مرة أخرى زعيم قبيلة الميامي "السلحفاة الصغيرة" واشترك فيها قبائل الجونكين إلى جانب الإيروكوي على الرغم من الخلافات القديمة بين الطرفين إلا أن الخطر المشترك وحد جهودهم، ورغم كبر هذا

(24) Sword، 1993، صxiii.
(25) نفس المرجع، ص195.
- Debo، 1983، ص91.
(26) نفس المرجع، ص191.

الانتصار المتحقق في هذه المعركة فإنها لم تذكر كثيراً في التاريخ وطغى عليها كثيراً انتصار الهنود في معركة ليتل بيغ هورن في سنة 1876 أثناء آخر الحروب الهندية في القرن التاسع عشر.

أحس السكان الأصليون بالثقة بعد تحقيق انتصاراتهم وحاولوا فرض شروطهم على مبعوثي الرئيس واشنطن للمفاوضات وطالبوا بأن يكون نهر الأوهايو هو الحد الفاصل بين الاستيطان الأمريكي والأراضي الهندية[27]، واقترحوا أن تقدَّم الأموال التي يحاول البيض شراء أراضيهم بها، إلى المستوطنين الذي تعدوا على هذه الأراضي ليرحلوا عنها ويبدءوا حياة جديدة في أماكن أخرى[28]، ولكن واشنطن لم يقبل بهذا الاقتراح (الذي سيقترحه الفلسطينيون فيما بعد على الاستيطان الصهيوني) وانهارت المفاوضات[29].



الجنرال أنتوني واين "الأحمق" قائد المعركة التي هزمت الهنود في سنة 1794 فتنازلوا على إثرها عن وادي الأوهايو

الانتصار الأمريكي وحسم الصراع على الشمال الغربي:

وكان واشنطن قد اختار الجنرال أنتوني واين الملقب بالأحمق وهو من أبطال الثورة الأمريكية ليخلف سانت كلير على قيادة الجيش الأمريكي والحملة

(27) Debo، 1983، ص91.

(28) Horsman، 1992، ص98.

(29) Waldman، 2000، ص136.

ضد الهنود، واستطاع النفاذ في أراضيهم وجمع قوة من الجنود بلغت ثلاثة آلاف مقاتل وقام ببناء حصنين في المنطقة، وقد أحس الزعيم الهندي "السلحفاة الصغيرة" بطغيان المد الأمريكي الذي سيلحق الهزيمة بقومه ونصحهم بالسلام، ولكن المحاربين الهنود المتحمسين رفضوا ذلك واختاروا قيادة جديدة ودخلوا معركة "فولن تيمبرز" (الأشجار الساقطة) مع الجيش الأمريكي في أغسطس من سنة 1794 فحاقت الهزيمة الشديدة بهم وقُتل المئات منهم مقابل مقتل 38 جندياً أمريكياً فقط، أما بريطانيا فلم تقدم لهم من المساعدات المرجوة إلا عدداً صغيراً من رجال الميليشيا ولما وقع الهجوم الأمريكي رفضت استقبال الهنود في الحصن الذي لجئوا إليه كي لا تستثير عداوة الأمريكيين مما جعل الهزيمة الهندية أكثر فدحاً والخسائر أكثر هولاً[30].



لوحة للفنان تشارلز مكبارون تصور الجيش الأمريكي في الطريق إلى معركة فولن تيمبرز التي حسمت الصراع على منطقة الشمال الغربي القديم

وقد تبع الهزيمة الهندية فرض معاهدة "غرينفيل" Greenville على السكان الأصليين بعد سنة كاملة من هزيمتهم، وكان ذلك في أغسطس/ آب/ أوت 1795، وفي المفاوضات التي تلت المعركة منحت الصلاحية للمفاوض الأمريكي بتقديم 25 ألف دولار هدايا للهنود عند موافقتهم على التوقيع وعشرة آلاف دولار مساعدات سنوية، واستقر الاتفاق على دفع عشرين ألفاً هدايا وتسعة

---

(30) نفس المرجع، ص136-137.
- Debo، 1983، ص92-93.

آلاف ونصف مساعدات سنوية[31]، وهو ما يضعنا مرة أخرى أمام تكاليف السلام الزهيدة التي تنفق على المدى الطويل ويمكن إنفاق أضعافها في مدة قصيرة من الحروب، وقد نصت هذه المعاهدة كذلك على تنازل الهنود عن أراضيهم التي أصبحت فيما بعد ولاية أوهايو وقسماً كبيراً من ولاية إنديانا[32]، ومع أنها رسمت حداً فاصلاً تفترض فيه الديمومة بين الاستيطان الأمريكي والأراضي الهندية، فإن المسئولين الأمريكيين وعلى رأسهم الرئيس نفسه ووزراء حربه لم يكونوا يعتقدون بهذه الديمومة وكانوا يرون أن استمرار التمدد الاستيطاني سيجعل الهنود راغبين بالتخلي عن أراضيهم وبيعها باستمرار وهي نبوءة ثبت زيفها فيما بعد، وبناء على هذا الاعتقاد المزيف نصت المعاهدة على حق الهنود في الاحتفاظ بأراضيهم ما شاءوا ذلك ولكن عندما يرغبون في بيعها فللولايات المتحدة وحدها الحق في الشراء[33]، وهذا النص يتضمن بشكل غير معلن الاعتقاد بأن إقامة السكان الأصليين في أرضهم لن تكون دائمة.

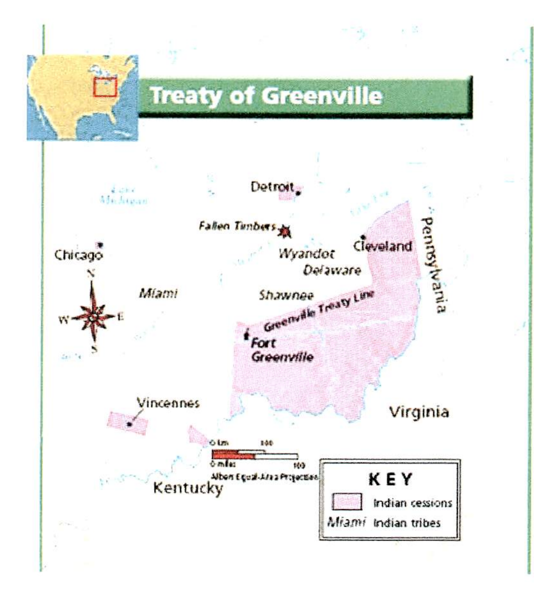


مفاوضات غرينفيل بين القبائل الهندية والحكومة الأمريكية كما رسمها على ما يعتقد أحد الحاضرين في الوفد الأمريكي

(31) Horsman، 1992، ص99-102.
(32) Waldman، 2000، ص137.
(33) Horsman، 1992، ص100-103

نتائج الصراع على منطقة الشمال الغربي القديم:

يقول مؤرخ درس أحداث هذا النزاع بالتفصيل، إن ذلك النزاع على منطقة الشمال الغربي كان له نتائج حاسمة في التاريخ الأمريكي، ومع ذلك لم ينل حظه من الدراسة والتحليل، ومن النتائج الحاسمة التي ترتبت عليه أن الحضارة الهندية أُجبرت فيه على تسليم السيطرة على منطقة وسط القارة الحيوية وهو ما أدى إلى تقرير مصير بقية القبائل القاطنة غرب المسيسبي رغم كونها بعيدة عن ساحة هذا الصراع آنذاك، وبينما أدى الانتصار الأمريكي إلى منح الدولة الوليدة قاعدة وموارد لمزيد من التوسع، فقد حرمت الهزيمة الهنود من أي أمل بالوجود المستقبلي المستقل، كما أدى تغير الظروف المحيطة بالهنود وتعرضهم لضغوط محطمة من قبل الأعداد الهائلة للمهاجرين البيض، إلى تحويلهم إلى وضع كئيب أصبح فيه تلاشيهم أمراً حتمياً، أي أنه نجم عن هذا الصراع تحفيز تطور الوجود الأمريكي وتدمير الوجود الهندي(34).



المنطقة التي تنازل الهنود عنها في معاهدة غرينفيل والحد الذي رسم للفصل بين الاستيطان والسكان الأصليين(35)

---

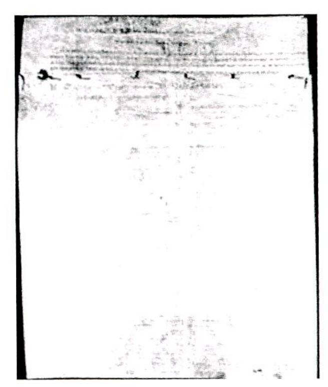
(34) Sword، 1993، صxiii-xiv.

(35) http://historydilemmas.weebly.com/struggle-over-western-lands.html

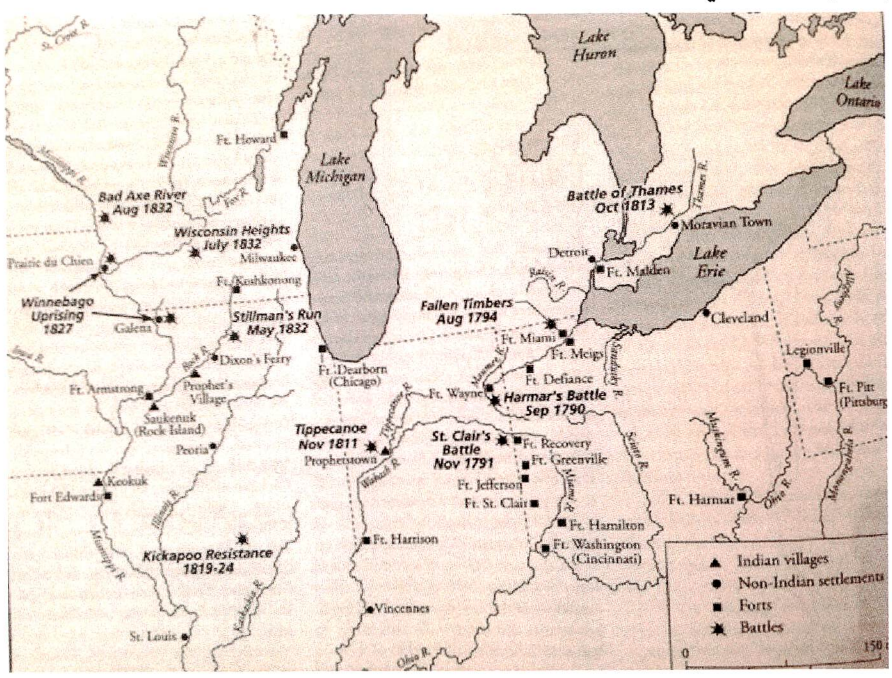
التوقيع على معاهدة غرينفيل



الصفحة الأولى
من معاهدة غرينفيل



مواقع حروب الهنود في سبيل منطقة الشمال الغربي القديم: معارك واشنطن (1790–1794) كما سبق، وتكومسيه (1811–1813) والصقر الأسود (1832) كما سيأتي[36]



(36) Waldman، 2000، ص138.

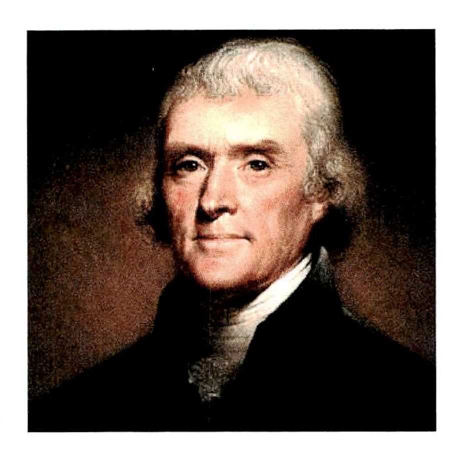
الفصل الرابع عشر

حروب أشباه الآلهة الأمريكيين

(2)

توماس جيفرسون (1801-1809)

اتخذت شخصية الرئيس الأمريكي الثالث توماس جيفرسون أبعاداً مثالية في المجالات الفكرية والسياسية والحقوقية أكثر منها في المجالات العسكرية الثورية، وقد ذهب تبجيله حداً بعيداً، فهو رسول الحرية ونبي الديمقراطية ومبشر العقلانية والمبعوث لرحمة الإنسانية الذي كتب إعلان الاستقلال الأمريكي وأصدر قانون الحرية الدينية وكان الجديد الذي أتى به ليس مجرد الأفكار المثالية بل تطبيقها العملي، احتفظت الأمة الأمريكية بمكانته المقدسة إلى اليوم وتمثاله الضخم واحد من أربعة نحتت على "مزار الديمقراطية" في جبل راشمور بولاية داكوتا، ولكن المعنى المتضمن في تقديسه على أرض اغتصبت من السكان الأصليين عنوة يختزل كل ما يمكن قوله عن الوجود على حساب الآخرين، ويمكننا القول إن الخدمات التي أداها جيفرسون لقومه المستوطنين فرفعت من شأنه عندهم، هي نفسها الإجراءات التعسفية التي اضطهد بها السكان الأصليين أو التي مهد بها وأسس لاضطهادهم وسلبهم وإبادتهم ما جعل كل ما حدث بعده من ذلك معلقاً في رقبته.



الرئيس توماس جيفرسون

عندما تسلم توماس جيفرسون منصب رئيس الجمهورية في سنة 1801 كان يملك ميراثاً من إنجازات الحرية والديمقراطية التي قدمها للأمريكيين، كما كان يملك عداوة مع السكان الأصليين سطرها في إعلان الاستقلال، بالإضافة إلى ذلك كان مهتماً بدراسة الهنود ولغاتهم وجمع آثارهم وتحليل المعلومات عنهم بشكل صوّر لبعض المؤرخين ميولاً ودية تجاههم بل معجبة بهم توضع إلى جانب ميراثه التنويري بما يناقض سياسته تجاههم[1]، فقد اعتقد أن الهندي مساو للرجل الأبيض في إمكاناته الجسدية والعقلية[2]، وذلك خلافاً للرأي السائد في زمنه، ولكنه لم يعترف له بدرجة متقدمة من الحضارة رغم الإنجازات الكبرى التي اطلع عليها في بعض المواقع الهندية وأصر على كونها من آثار سلالات بيضاء حاول اختلاق وجودها في القارة الأمريكية قبل كولمبس[3] لغايات استعمارية كما سيأتي، وأن بالإمكان تمدين هذا الهندي إذا توفرت الظروف الملائمة واستيعابه في المجتمع الأمريكي[4]، ولكن ما طبقه عندما تولى الرئاسة وأصبح عليه آنذاك المواءمة بين أفكاره ومتطلبات منصبه بصفته على قمة مجتمع استيطاني توسعي، يوضح أن التطبيق العملي لهذه الأفكار لم يكن ممكناً بصيغتها المثالية لاسيما

(1) Wallace، 1999، صvii.
(2) نفس المرجع، ص77.
- Horsman، 1992، ص105-106.
(3) Wallace، 1999، ص137.
(4) نفس المرجع، ص95 و159.

عندما يكون القائم عليها مسئولاً عن مجتمع كذلك المجتمع وهو ما جعله يطوّع كل الأهداف المثالية التي أبداها نحو السكان الأصليين لمتطلبات الاستيطان والتوسع[5] كما استوجبها الزمن الذي عاش فيه وجعله يرى منذ البداية أن العرق الهندي عرق متلاش[6]، وهو ما جعل ميراثه أيضاً يُستعمل لمزيد من الاضطهاد والتنكيل بالهنود بطرق لم يستعملها هو في سياسة التمدين أو التهجير أو حماية مستوطني التخوم، ولكننا لا نستطيع القول إنه لم يقصدها كما قال بعض المؤرخين[7]، لاسيما أنه لم يقم بكبح أي من رغبات زمنه فلماذا نطالب ورثته بكبح اندفاع التوسع والاستيطان عندما تغيرت ظروفه وتطلبت مزيداً من الاندفاع؟ وإذا كانت هذه الممارسات مستنكرة من وجهة نظر مفاهيم القرن العشرين فلماذا لم يفلح ميراث التنوير الجيفرسوني في القرن العشرين في إنتاج أي إصلاح إيجابي في أوضاع السكان الأصليين كما أنتج الاضطهاد والتهجير والتطهير العرقي فيما سبق[8]؟

لقد وقع جيفرسون في معضلة الحضارة الغربية الكبرى وهي الهوة الواسعة بين القول والفعل، بين الشعارات النظرية المثالية والتطبيقات العملية الإجرامية، ولم يكن الأمر خاصاً بجيفرسون إلا بكونه ممثلاً نموذجياً لفكر العقل والإنسانية والتنوير أكثر من غيره من الشخصيات الغربية، فقد واجه نفس المعضلات القديمة التي واجهت الديمقراطية الغربية فيما يتعلق بالتنوع الثقافي والعرقي، ولم تبد هذه المعضلات أكثر وضوحاً في حياة جيفرسون من تعامله مع المشكلة الهندية[9] التي كانت دائماً ميزان الاختبار لكثير من الشعارات في التاريخ الأمريكي، وإذا كان قد حزن لأوضاع الهنود فإنه بكى مصيرهم بصفته مصيراً حتمياً لا يمكن الحؤول دونه لاسيما أنه قد وضع أسس ما يجرؤ أحد المؤرخين على وصفه

---

(5) نفس المرجع، ص20.

- Horsman، 1992، ص110.

(6) Wallace، 1999، صix و20.

(7) نفس المرجع، صviii.

(8) نفس المرجع، صviii و337.

(9) نفس المرجع، صviii.

بالتطهير العرقي الذي واجهته أقليات أخرى داخل الحضارة الغربية[10] ولم يكن القادة الذين تبنوه ذوي سمعة حسنة، ولهذا يمكننا أن نضع اهتماماته الثقافية بالشئون الهندية في موضع الاهتمام العلمي المتحفي الذي يدرس ظاهرة متلاشية لا لإنقاذها بل لإنقاذ عينة منها أو بقاياها بما يحفظها فرجة "للبشرية" اللاحقة، أي للإنسان الأبيض الآتي، والذي سيحل محل هذا الهندي باستحقاق[11]، أما دموع التماسيح والنفاق والازدواجية التي تسم الهوة بين الشعارات والممارسات فهي سمات مستمرة إلى اليوم ولم تؤد تطورات القرن العشرين إلى إصلاحها رغم أن بقايا الضحايا أصبح عددهم ضئيلاً جداً بما لا يصعب معه استيعابهم ولكن ميراث الاضطهاد الماضي يستمر إلى اليوم ويفضل الرجل الأبيض استقبال ملايين المهاجرين الغرباء على استيعاب بضعة آلاف من السكان الأصليين البائسين، ثم يتم تبرير الماضي بما لا يمكن الهروب منه وما هو في نفس الوقت اعتراف وإدانة وليس تبريراً لطبيعة الحضارة الغربية التي قامت على حساب الآخرين: لقد كانت المراوغة والعنف السياسي أيضاً أسلحة استعملها جيفرسون في سبيل تأمين بقاء المجتمع الأمريكي مجتمعاً يحكمه الأنجلوساكسون[12]، وإذا كان قد بكى مصير الهنود فلقد ساهم مساهمة كبرى في هذه المأساة التي تعد واحدة من المآسي الكبرى في التاريخ البشري الحديث وهي سلبهم وإبادتهم[13].

ويتضح عدم التوازن السياسي في موقف الرئاسة الأمريكية من أن هدف جيفرسون الرئيس كان الحصول على أراضي الطرف الهندي لصالح الطرف الأمريكي، وكان "مكسب" الطرف الهندي وهو التحضر خاضعاً لحصول البيض على أرضه، فلم تكن مراعاة تطبيق التمدين كمراعاة الحصول على الأرض بل كان التمدين خاضعاً وملحقاً ومجرد ذريعة ومبرر لنقل ملكية الأرض المقدمة على الهندي[14]، ولم يكن له أهمية في حد ذاته، وكان جيفرسون في الحقيقة مستعداً لانتهاك مبادئه الحقوقية والفلسفية وسفك الدماء وعدم المسامحة وذلك في سبيل

---

(10) نفس المرجع، ص20 و338.
(11) نفس المرجع، صix.
(12) نفس المرجع، ص20.
(13) نفس المرجع، صviii.
(14) Horsman، 1992، ص108- 111.

القضاء على أولئك الذين لا يشاركونه آراءه عن "الحرية" وقد وصف أحد المؤرخين ميوله الراسخة للتضحية بالمبادئ الأخلاقية في سبيل هذه المصالح وقيامه بالإعلاء من شأن المصالح الذاتية إلى درجة الحقوق المقدسة، ولهذا كان يبرر سياساته الهندية بمراسيم تعلن عن نوايا الخير والفضيلة بل ويجعل من رؤاه الخاصة رؤى عامة ويسقط إرادته على إرادة "الشعب"[15]، وهذه كلها سمات عامة في الحضارة الغربية لم يكن لأحد ممثليها النموذجيين إلا تجسيدها بمهارة، ولهذا لم يكن من العجيب أن كانت الولايات المتحدة تتخذ من سياستها الهندية وسيلة للدعاية الخارجية والإثبات لأوروبا تحضر الأمة الأمريكية التي تنصف مواطنيها الذين يعيشون دون حروب[16] وتنصف أيضاً عرقاً آيلاً للزوال[17]، ولعل النتيجة النهائية لهذه المعادلة حيث انتقلت الأرض كلها للأمريكيين ولم ينل الهندي غير التهميش والإبادة، تؤكد ما كان مرسوماً منذ البداية وأن الهندي لم يكن له أهمية في البرنامج الأمريكي.

ويؤكد أحد المؤرخين ما سبقت الإشارة إليه من ازدواجية واضحة بين النظريات والتطبيقات في سياسة جيفرسون الهندية، فنظرياً اعترف جيفرسون بشرعية الحقوق الهندية في أراضي أمريكا وأسبقيتها على حقوق المهاجرين الأوروبيين، وتمنى، نظرياً أيضاً، أن يتمازج الشعبان الهندي الأصلي والأوروبي الوافد، ولكنه أقر بالعوائق الضخمة التي تحول دون تحقيق ذلك، واعتقد أن مآل الهنود إلى الزوال، ورغم شعوره النظري بالرثاء تجاه هذا المصير، فإنه لم يقدم عملياً على تحمل أية مسئولية أخلاقية عن ذلك، ولم يظهر أي شعور بالذنب تجاهه واقتصر على الأماني الطوباوية بالتمازج معهم دون الإقدام على أية خطوة عملية لتحقيق ذلك[18]، بل وجدنا أنه رغم إيمانه بالمساواة بين الطبيعة الهندية وطبيعة الرجل الأبيض فإن ذلك لم يمنعه من اضطهاد السكان الأصليين[19]، وقد وضع كل استنتاجاته الفكرية في خدمة المشروع الاستيطاني ولواها لتتناسب معه

---

(15) Wallace، 1999، ص15.

(16) Horsman، 1992، ص107-108

(17) Wallace، 1999، ص20.

(18) Onuf، 2000، ص52.

(19) نفس المرجع، ص18 و19 و21 و25 و28 و29.

واستبعد منها كل ما لم يخدم هذا المشروع، إذ وضع الهنود بين خيارين إما الاندماج في مجتمع الحضارة الأمريكية وإما مواجهة التهجير أو الفناء [20]، وجعل فضائل الهنود وعيوبهم على حد سواء في خدمة اضطهادهم وزوالهم، وفضائل البيض وعيوبهم في خدمة تمددهم وتوسعهم، فالهنود يقاومون العدوان كالبيض تماماً[21]، ولكن فضائل الحرية والاستقلال عندهم تؤلف عوائق أمام الحضارة الحتمية وليست مساعدة على انتشارها[22]، ورغم أنه آمن بقدرة الهندي على التحضر، فإنه لم يقم بأي جهد في سبيل نشر الحضارة بين القبائل[23]، ولم يعترف من جهة أخرى بحقوقها الجماعية في بلادها[24]، أي لم يكن لها خيار الحضارة ولا خيار الهمجية وتم استخدام حجة القابلية للتمدن في سبيل منع الاعتراف بحقوق الهنود في الاحتفاظ بثقافتهم ولكن دون تقديم البديل العملي لذلك، وحتى عندما وجدت بعض الفضائل الأخرى التي تتعلق بالحياة السياسية والتنظيم السياسي، جعل جيفرسون من هذه النواحي اقتباسات من الرجل الأبيض ولكن بدل أن يؤدي ذلك إلى التقريب بين الطرفين أدخل الهنود في دوامة الخلافات داخل معسكر الرجل البيض وجعل من اقتباس الهنود من بريطانيا أمراً سلبياً ربطهم بالملك البريطاني وجعل منهم تهديداً للمستوطنين في أمريكا[25].

وتحدث جيفرسون عن سلبيات الهندي أيضاً بصفتها عقبة أمام تحضره وأهم هذه السلبيات هي اضطهاد المرأة[26] (عقدة الغرب في كل زمان ومكان وكأنه قام بإنصاف هذه المرأة الهندية أو المرأة الفلسطينية في نموذج الاحتلال الصهيوني الذي حملت المرأة عبئاً كبيراً من المعاناة منه)، وهذا الاضطهاد السلبي هو كصفات الهندي الإيجابية مبرر لتقدم الحضارة على حسابه.

لقد كان حرمان الهنود من الحقوق أساسي لسياسة الجمهورية الأمريكية

---

(20) نفس المرجع، ص16 و20.

(21) نفس المرجع، ص21.

(22) نفس المرجع، ص31.

(23) نفس المرجع، ص28.

(24) نفس المرجع، ص26.

(25) نفس المرجع، ص26 و37.

(26) نفس المرجع، ص29-30.

الداخلية والخارجية، فبعد الاستقلال عن بريطانيا كان عدم وجود سلطة مركزية قوية بديلة تتخذ من الهنود أداة لها ضد المستعمرات يعني أنه لم يعد لهم مكان في البناء السياسي الجديد[27]، هذا مع العلم أنهم سيعانون من تسلط السلطة الجديدة التي أزاحت السلطة البريطانية ومع ذلك اتخذ الكونجرس فيها سلطات أكبر على الهنود من سلطة الملك البريطاني عليهم[28]، كما كانت المعاهدات الهندية التي تعترف للقبائل بحقوق لا تقرها سلطات الولايات مما كان سيوقع أنصار الفيدرالية في نفس الانتهاكات التي أُخذت فيما سبق على الملك البريطاني وكانت من أسباب الثورة الأمريكية[29]، وبعد تخلي بريطانيا عن حلفائها الهنود في معاهدة باريس 1782-1783 لم يُذكر الهنود في المشاورات التي جرت في الكونجرس واختلفت فيها الولايات بين ولايات ممتدة وولايات محدودة، وكان إهمال المسألة الهندية هو شرط نجاح تلك المشاورات والاتفاق على حل وسط بينها[30]، وفي عملية التوسع لم يكن مصير السكان الأصليين يؤرق الأمريكيين بعد انتصار ثورتهم والذين كانوا مشغولين في الخلاف بين أنصار المبادئ الجمهورية والمبادئ الأرستقراطية[31]، وفي الحالتين كان استبعاد الهندي ضرورياً حتى وفق مبادئ المساواة التي هي الفضيلة الكبرى للجمهورية، ولتطبيقها وتأسيس "امبراطورية الحرية" الخالية من السلطة المركزة القاهرة[32] يجب توزيع أراضي الهنود على مستوطنيها البيض ويجب ألا يعوق ذلك ملاكها الهنود المحسوبون على ملك بريطانيا[33] عدو الجمهورية الأول الذي نُظر إلى الحروب الهندية بصفتها تدخلاً أجنبياً[34] منه ومن غيره دون الالتفات إلى شكاوى ومظالم الهنود أنفسهم وما يدفعهم لحمل السلاح[35] في معارك يائسة،

(27) نفس المرجع، ص39.
(28) نفس المرجع، ص40.
(29) نفس المرجع، ص43.
(30) نفس المرجع، ص40-41.
(31) نفس المرجع، ص34.
(32) نفس المرجع، ص56.
(33) نفس المرجع، ص38.
(34) نفس المرجع، ص47.
(35) نفس المرجع، ص41.

وهذا ما يؤكد أن مبادئ الغرب السامية كالحرية والمساواة والديمقراطية لم يمكن تطبيقها إلا بوفرة الموارد التي قدمها اضطهاد الآخرين وجعلت من الممكن إرساء سلام اجتماعي داخلي اختلف في البداية على التوسع نتيجة خشية البعض من عواقبه على مسئوليات الجمهورية وقدرتها على الاضطلاع به[36] وليس نتيجة رفض المظالم التي يسببها للهنود، وما يؤكد ذلك أن الجميع اتفقوا على هذا التوسع لما أثبت جدواه وخلوه من المخاطر وصولاً إلى فكرة القدر الجلي ابتداء من 1845[37].

لقد أدرك جيفرسون حقيقة التناقض الجذري العملي مع الوجود الهندي منذ البداية وأعلن عليهم منذ بدء الثورة سنة 1776 حرباً لن تنتهي إلا غرب المسيسبي[38] (هل انتهت هناك فعلاً؟)، وكما سبق القول كانت رؤيته الجمهورية تستند عملياً على الاستيلاء على أرض الهنود، ورغم الوعود المنمقة التي قدمتها الخطب البلاغية الجوفاء فإن الرئاسة لم تقدم للهنود الحماية المطلوبة ضد التوسع والاستيطان كما لم تقدم المساعدة اللازمة للتمدن والتحضر الهندي، وأصبح تقدم "الحضارة" مبرراً ذاتياً يعفي الأمريكيين ناشري التمدن بهذه الصفة من أية مسئولية تجاه السكان الأصليين الذين يقع على عاتقهم عبء التأقلم مع هذا الواقع، دون تقديم أية مساعدة لهم، ولم تكن فضائل الحضارة وحدها هي مبرر الاستيطان والتوسع على حساب الآخرين بل كانت سلبيات البيض عوامل مبررة لهذا التمدد حين كان عليهم أيضاً انتهاز "الفرص" التي توفرها عيوبهم الأخلاقية كالجشع الذي "يمنح" الهنود التخلص من ديونهم ببيع أراضيهم ثم تطوير البقية[39]، وهو كلام نظري لم يتحقق إلا شطر الاستيلاء على الأرض منه.

ورغم أن توماس جيفرسون وصل حداً بعيداً من الإعجاب النظري المثالي الذي وحده بالهندي، فإن هذه الرؤية المثالية نفسها هي التي بررت له اضطهاد الهنود والقضاء عليهم[40] (وهي رؤية نجدها تتكرر عند الاستعماريين فيما بعد

(36) نفس المرجع، ص55-56.
(37) نفس المرجع، ص57.
(38) نفس المرجع، ص27.
(39) نفس المرجع، ص48-50.
(40) نفس المرجع، ص25.

لاسيما في فلسطين حين زاوجوا بين الإعجاب الرومانسي الماضوي بالسكان الأصليين واضطهاد حاضرهم وكأن المطلوب منهم قصر وجودهم على المتاحف).

شراء لويزيانا سنة 1803

(يمكن الاطلاع على خريطة التوسع الأمريكي في الفصل الثاني عشر لرؤية المساحة التي أضافتها صفقة لويزيانا للولايات المتحدة) : كانت مقاطعة لويزيانا في وسط القارة الأمريكية تابعة لفرنسا حتى نهاية الحرب الفرنسية والهندية عندما تخلت عنها رسمياً لحليفتها إسبانيا في معاهدة باريس (1763) تعويضاً لها عن خسارة فلوريدا لبريطانيا المنتصرة[41]، ولكن نابليون عمل على استرداد المقاطعة من إسبانيا في محاولة لبناء إمبراطورية في العالم الجديد، فحصل عليها سراً في سنة 1800[42]، ولكن ظروفه السياسية اضطرته للتخلي عن هذا الحلم[43] وبيع هذه الأرض الواسعة للولايات المتحدة حيث خشي الرئيس جيفرسون من وجود دولة أوروبية قوية على حدوده لاسيما في ميناء نيوأورليانز الجنوبي حيث يصب نهر المسيسبي، ومنفذ تجارة مزارعي الغرب[44]، فدخل في مفاوضات انتهت بدفع 15 مليون دولار مقابل ضم لويزيانا للولايات المتحدة، أي أقل من ثلاث سنتات للفدان الواحد[45]، وهو ما كان تفسيراً موسعاً يرفضه نفس الرئيس للدستور الأمريكي الذي لا يسمح بضم أراض تملكها دول أجنبية[46]، وانتهاكاً

(41) Debo، 1983، ص81.
(42) Rosenbaum، 2003، ص215
(43) Foner، 2005، ص292.
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج10، صL-412-213 .
(44) Rosenbaum، 2003، ص215.
- Foner، 2005، ص292.
(45) New Standard Encyclopedia، 1999، ج10، صL-412 .
(46) نفس المرجع، ج10، صL-413 .
- جوردن، 2008، ص95.
- Foner، 2005، ص292.
- Rosenbaum، 2003، ص215.

واضحاً لمبادئ جيفرسون نفسه والتي لا تؤيد منح الحكومة الاتحادية صلاحيات واسعة[47]، وقد اعتمدت آراء الرئيس المؤيدة لهذه الخطوة على كونها تمهيداً لاستمرار الصفة الزراعية التي تمنح الدولة فضيلتها لاسيما أن المزارعين هم "شعب الله المختار"، وذلك مع اعترافه بكون الصفقة تجاوزاً للدستور الأمريكي[48]، وهو ما كان على استعداد للقيام به في سبيل الوصول لأهدافه كما سبق ذكره، ومن الطريف أن الحزب الاتحادي (الفدرالي) الذي كان يؤمن بصلاحيات واسعة للحكومة الاتحادية عارض هذه الخطوة التي ضاعفت مساحة الولايات المتحدة[49] بسبب خشيته من تضاؤل نفوذ نيو إنجلاند في إدارة شئون الدولة[50]، وإن كان لا يختلف مع الرئيس في أن التوسع هو ضمان الاعتماد على الذات، وقد اعتقد جيفرسون أنه بتحقيق هذه الخطوة ضمن الصبغة الزراعية للبلاد لقرون قادمة[51]، وشبهت واحدة من المؤرخين أهميتها للأمريكيين بأهمية اكتشاف أمريكا بالنسبة للأوروبيين[52]، وقد كان لهذه الصفقة آثار هامة على السكان الأصليين إذ سرعت أخبار الصفقة بين فرنسا وإسبانيا من سرعة إجراءات الاستيلاء على أراضي الهنود والضغط عليهم لبيع أراضيهم خشية من استقوائهم بالفرنسيين، وزال كل وخز للضمير أحسه الرئيس تجاه ضغطه على الهنود، كما أدت عملية الشراء إلى سلسلة من المعاهدات بعد ذلك جعلت من التأكيدات المستمرة على شعار حرية الهنود في التصرف بأراضيهم مجرد مهزلة بتعبير أحد المؤرخين[53]، وأتاحت الملكية الجديدة بدء التفكير بتهجير الهنود إلى الأراضي المكتسبة حديثاً في غرب المسيسبي[54].

---

(47) New Standard Encyclopedia، 1999، ج9، صJ-45b.
- Foner، 2005، ص292.

(48) Foner، 2005، ص293.

(49) New Standard Encyclopedia، 1999، ج10، صL-413.

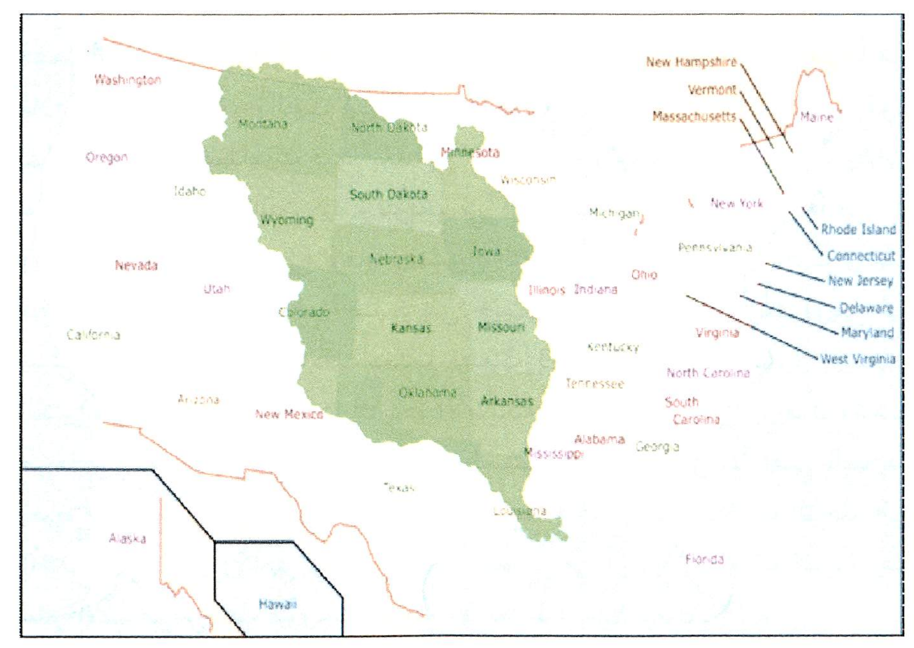
(50) Rosenbaum، 2003، ص215.

(51) Foner، 2005، ص293.

(52) Debo، 1983، ص101.

(53) Horsman، 1992، ص112 و124-126 و145.

(54) نفس المرجع، ص113.



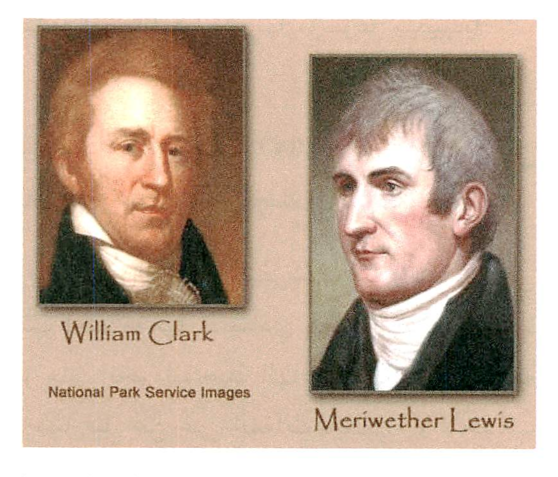
خريطة الولايات التي نشأت على مساحة لويزيانا كما نشرتها موسوعة ويكيبيديا[55]

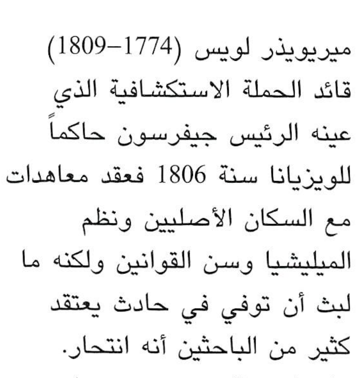
حملة لويس وكلارك لاستكشاف لويزيانا (1804-1806) والأمن المرتجى بين فرض القانون النظري ومتطلبات الجشع المادي :

نشأت فكرة استكشاف لويزيانا لدى الرئيس جيفرسون قبل انتقالها إلى سيادة الولايات المتحدة، وكان سبب اهتمامه بها اقتصادي يتعلق بتوسيع التجارة الخارجية لبلاده لاسيما بإيجاد ممر مائي نحو المحيط الهادئ طالما راود حلمه المستكشفين، بالإضافة إلى التحقق مما قيل عن غنى المقاطعة بالفراء والأخشاب والثروات المعدنية، وباشر الإعداد للحملة الاستكشافية قبل صفقة شرائها، ورصد لها الكونجرس 2500 دولار، فلما تمت الصفقة دعمت أهمية عملية الاستكشاف، وانطلقت الحملة بقيادة سكرتير الرئيس ميريويذر لويس وصديقه وليام كلارك في مايو/أيار/ماي 1804 بعد تحضيرات امتدت منذ السنتين السابقتين ووصل عدد أفراد الحملة إلى أكثر من 45 بينهم جنود للحماية، وكانت

(55) http://en.wikipedia.org/wiki/File:LouisianaPurchase.png

مهمتها دراسة الجغرافيا والسكان الأصليين والنباتات والحيوانات وغيرها من ملامح هذه المنطقة، والتقت في طريقها بمجموعة من القبائل الهندية التي سيكون لها تاريخ من الصدامات فيما بعد مع الأمريكيين، وقد قدم الهنود مساعدات نفيسة لرجال الحملة التي كانت تتوقف في فصل الشتاء ثم تواصل سيرها إلى أن وصلت المحيط الهادئ في نوفمبر/ تشرين الثاني من سنة 1805 ثم قفلت راجعة من نفس الطريق تقريباً ثم وصلت إلى حيث بدأت في مدينة سانت لويس في سبتمبر/ أيلول 1806، وذلك بعدما قطعت 13 ألف كيلومتر تقريباً وجمعت الكثير من المعلومات وأكدت السيادة الأمريكية على المنطقة إلى أوريغون وشقت طريقاً سيسلكه بعدها الكثير من التجار والمستوطنين للعبور إلى الأراضي الجديدة بغرض الحصول على الفراء أو الإقامة الدائمة، وقد وصلت نفقات الرحلة إلى 40 ألف دولار، أي أكثر مما رصده الكونجرس في البداية بأضعاف كثيرة، ولم تنشر النصوص الكاملة ليوميات الرحلة إلا بعد قرن من الزمان[56].




ميريويذر لويس (1774–1809) قائد الحملة الاستكشافية الذي عينه الرئيس جيفرسون حاكماً للويزيانا سنة 1806 فعقد معاهدات مع السكان الأصليين ونظم الميليشيا وسن القوانين ولكنه ما لبث أن توفي في حادث يعتقد كثير من الباحثين أنه انتحار.

وليام كلارك (1770–1838) القائد الثاني لحملة الاستكشاف والذي صعد بعدها في عدة مناصب مؤثرة في حياة السكان الأصليين.

ولعل من أهم ما لاحظه لويس فيما يختص بمستقبل هذه الأرض الواسعة

---

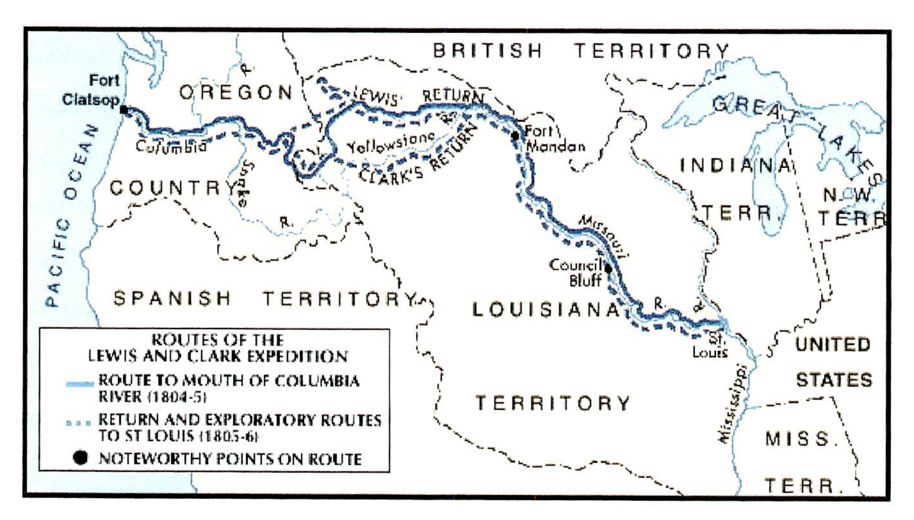
(56) New Standard Encyclopedia، 1999، ج10، ص L-177-180.
- Rosenbaum، 2003، ص204-205.

وسكانها الأصليين ملاحظة لم تأخذ نصيبها من الاهتمام والتطبيق إذ جرفتها الأطماع والعجلة للاستيلاء على أراضي الهنود ومواردهم، فقد قال في نقاشه عن طريقة حفظ الأمن في لويزيانا: "إن القاعدة الأهم لضبط الهنود هي ضبط البيض، وهذا لا يمكن أن يحدث دون مؤسسات وحرس"(57)، ورغم هذه الرؤية المحايدة والتي كانت مصلحة الولايات المتحدة هي منطلقها، فقد جرفتها الحوادث وتقاعست الدولة عن فرض القانون على رعاياها وأثبتت عجزها أمام اندفاعهم وفضلت دائماً قمع الهنود وسحب التنازلات منهم على إلزام مواطنيها البيض بما شرعته بنفسها، وكانت نظرتها الأحادية المحابية للمستوطن الأمريكي تستبعد من تمثيلها الهندي رغم دعاوى الدمج والتمدين والاستيعاب، فلم يكن على قدم المساواة مع الأبيض أمام الدولة وكان الطرف الأضعف المطلوب منه الخضوع لرغبات ونزوات المستوطنين رغم أن النصوص القانونية كانت تؤيد مطالبه غالباً.



الفتاة الهندية ساكاجاوا التي قدمت معلومات مهمة لإرشاد الحملة أثناء مرافقتها إياها

(57) Prucha، 1995، ص75.



طريق حملة لويس وكلارك ذهاباً وإياباً كما نشرته الموسوعة البريطانية[58]



الطريق ذاته حسب الولايات التي نشأت بعد ذلك في المنطقة[59]

(58) - http://www.britannica.com/blogs/2011/03/lewis-clark-expedition-picture-day/

(59) http://www.factmonster.com/spot/lewisandclark.html



وصول لويس وكلارك إلى أراضي قبيلة لاكوتا (سو) Sioux في سبتمبر 1804 في ما أصبح مقاطعة داكوتا بعد ذلك

وكان لقائدي الحملة، وهما ميريويذر لويس ووليام كلارك، شأن سياسي كبير بعد انتهاء حملتهما، أما الأول فقد عينه الرئيس جيفرسون حاكماً لمقاطعة لويزيانا سنة 1806 فقام بإجراءات عديدة في تنظيمها إلا أنه توفي نتيجة حادث يغلب الظن على كونه انتحاراً، أما الثاني صاحب الشأن الأكبر فقد عين في الفترة الممتدة بين 1807-1838 وكيلاً حكومياً لدى السكان الأصليين ثم حاكماً لمقاطعة ميسوري (1813-1820) والتي ضمت معظم مساحة لويزيانا، وعين بعد ذلك في سنة 1822 مراقباً عاماً للشئون الهندية، ورغم "تعاطفه" مع الهنود فإن سياسته العملية، التي شاركت في خُمس المعاهدات التي أبرمت مع الهنود وشارك هو شخصياً في التوقيع على عُشر جميع المعاهدات المبرمة والمصادق عليها (37 من 370)[60]، وصفت بالمسئولية عن تجريدهم من أراضيهم أكثر من مسئولية أية شخصية أمريكية أخرى[61]، وكان مثالاً للشخصية الاستعمارية المخلصة لسياسة التوسع عن طريق إخضاع السكان الأصليين فاتخذ كثيراً من الإجراءات التي قلصت مساحات أراضيهم ودمرت ثقافتهم وفي نفس الوقت أظهر التعاطف معهم محاولاً التخفيف من محنتهم[62]، ولكن ذلك كله صب في النهاية في مصلحة التوسع الاستعماري، إذ لو كان مخلصاً للهنود لاستبدلته الحكومة

(60) Buckley، 2008، صxvi.

(61) نفس المرجع، ص(Front flap).

(62) نفس المرجع، صxv.

وأحلت غيره مكانه في المنصب، ولو اهتم بتنفيذ مصالح الحكومة حصرياً لما وثق به الهنود أو وافقوا على التعامل معه[63]، وفي الوقت الذي عامل كثيراً منهم بالاحترام فإنه عندما كان يقدم المميزات لم يكن يهتم بمتابعة تنفيذها وفي نفس الوقت نبذ المتمردين وعاملهم بالعنف[64]، وملخص الأمر أنه انتقل من قتال الهنود إلى الدبلوماسية مع الاحتفاظ بالمشاعر السلبية تجاههم دون التخلي عن التقدير والإعجاب[65]، وهذه الازدواجية مكنته من أداء دوره الاستعماري بمهارة حين كسب ثقة الهندي نتيجة محاولته حمايته وفي نفس الوقت قدم الأهداف التوسعية والمصالح الاستيطانية على مصالح الهنود[66]، أي أنه حاول أن يجد المنافذ للهنود وفق ما تتيحه السياسة الاستعمارية، وبكلمة أخرى إنه حاول تنفيذ الأهداف الإمبريالية عن طريق الحصول على صداقة الهندي ومحاولة مساعدته ولكن عندما يتعاون مع البيض فقط وهو ما جعله يؤمن العلاقة الودية مع الهنود عندما تكون مفيدة لهم وفعالة لأهداف الولايات المتحدة[67]، ومع أن هذه السياسة الاستعمارية هي التي أثبتت جدواها على مر العصور، فإنها لم تكن ترضي جشع المستوطنين رغم أنهم هم الذين انتصروا بها في النهاية، أما الهنود فلم يشعروا بفوائد عملية لاسيما أنهم كانوا هم الخاسرين بلا جدال في النهاية رغم الدعاوى اللفظية والشعارات الإنسانية التي رفعت في لحظات الأزمات ولكنها لم تغن عنهم شيئاً، وأثبتت حياة كلارك استحالة التوفيق بين مصالح المستوطنين ومصالح السكان الأصليين[68]، وهي قضية اتضحت منذ بداية الاستيطان ولم تكن بحاجة لكل هذه الإثباتات، ويبدو أن الإصغاء للمهدئات اللفظية التي يحرص الحكم الاستعماري على تخدير الأهالي الأصليين بها سياسة تتكرر اليوم في فلسطين وتتخذ من عنف المستوطنين غطاء مسرحياً يوحي بالموضوعية والحيادية بين الأصلي والمستوطن لينسى صاحب الأرض أن هذا

(63) نفس المرجع، صxv.
(64) نفس المرجع، صxv.
(65) نفس المرجع، صxvii.
(66) نفس المرجع، صxvi.
(67) نفس المرجع، صxvi.
(68) نفس المرجع، صxviii.

الحكم هو عدوه الذي سلب أرضه منذ البداية وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يطمع في عدله وإنصافه.

وهذه السيرة الاستعمارية "المتعاطفة" هي ما فعلته شخصية مشابهة في تاريخنا ساهمت في استكشاف فلسطين وهي لورنس العرب الذي كان "متعاطفاً" مع العرب ولكنه قام بدور سلبي في خداعهم وقيادتهم إلى حتفهم بالثورة على السلطة الإسلامية لأجل مصالح الاستعمار، خلافاً لما كان يؤمن به وفقاً لتصريحاته الجلية عن غشه ونفاقه في مذكراته[69]، ثم قام بدور جوهري في التمهيد للمشروع الصهيوني بإقناع الملك فيصل بن الحسين بالترحيب بهذا المشروع وعقد الاتفاق مع الصهاينة، ليصوَّر فيما بعد شهيداً في سبيل قضية العرب[70]، والواقع أن "التعاطف" الاستعماري طريف في طبيعته، ولقد شهدنا في تاريخ الشرق المندوب البريطاني يقوم بالبكاء مع ضحاياه من الحكام العرب بعد قيامه بتفتيت ممالكهم وتأديب ملوكهم حسب هواه كما بكى السير بيرسي كوكس لبكاء الملك عبد العزيز آل سعود بعدما اقتطع كوكس قسماً كبيراً من مملكته ثم بكى لبكاء شيخ الكويت أحمد الجابر بعدما اقتطع ثلثي إمارته في مؤتمر العقير سنة 1922، وكما بكى المندوب السامي البريطاني السير الصهيوني هربرت صموئيل وهو يبلّغ الملك عبد الله بن الحسين قرار نفي والده الشريف حسين إلى قبرص، لضرورات عملية طبعاً، ولا يمنعه ذلك من الاعتراض بالدموع وحدها على ما ارتكبته يداه ولكن دون أي تغيير عملي، وهذه هي المفارقة الاستعمارية حين يكون القلب مع الضحية والسيف ضدها، وهو ما يجب أن نعتاد عليه وألا نفاجأ أو ننبهر بإنسانية المستعمر الجوفاء.

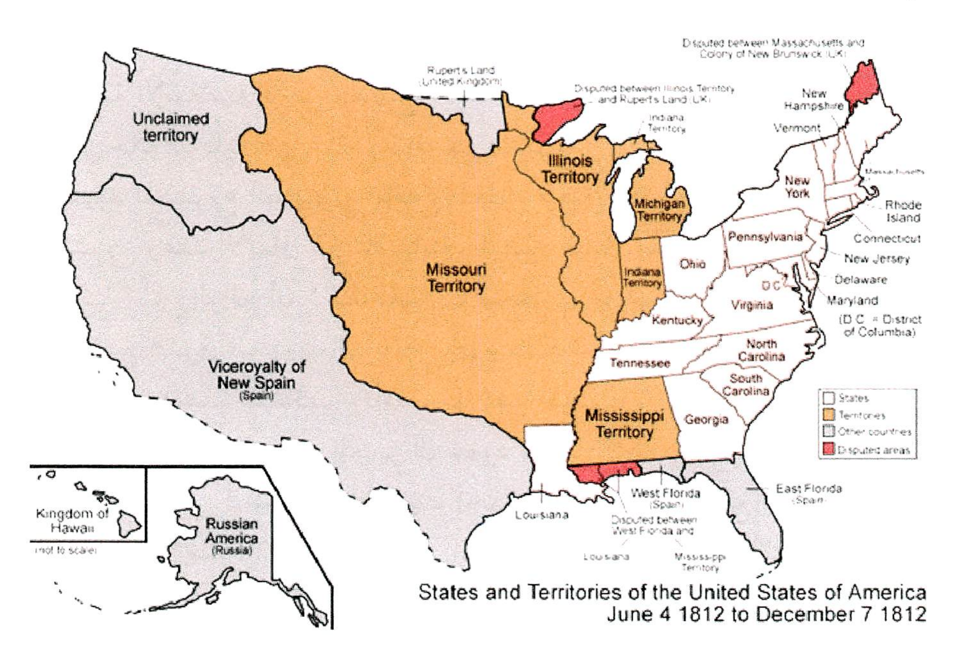
ويمكننا أن نطابق بين مهمة لويس وكلارك الاستكشافية وجمعيات استكشاف فلسطين في تاريخنا والتي نشأت في البلاد الغربية التي كانت لها مطامع سياسية وثقافية وروابط دينية بتلك الأرض، ومن أمثلة هذه الجمعيات صندوق استكشاف فلسطين وهي جمعية تأسست في بريطانيا سنة 1846 برعاية الملكة فكتوريا وساهمت وزارة الحرب فيها بخدمات بعض الضباط كما ساهم

---

(69) لورنس، 1979، ص146 و186-187 و315-316 و351-352.

(70) الخولي، 1973، ج1، ص460-485.

الجيش الأمريكي في رحلة لويس وكلارك، وكان من أولئك الضباط من تسلم مناصب عليا فيما بعد كما حدث مع وليام كلارك قائد الحملة الاستكشافية الأمريكية، كاللورد كتشنر الذي أصبح معتمد بريطانيا في مصر وكان له دور شهير في السودان، ولورنس العرب.



مقاطعة الميسوري التي أصبح وليام كلارك حاكماً عليها (1813–1820) وذلك كما نشرتها موسوعة ويكيبيديا[71]

وكانت مهمة الصندوق المعلنة هي البحث في تاريخ وجغرافيا وجيولوجيا وسكان الأرض المقدسة بهدف "التوضيح التوراتي"، مما جعل أهدافه مسيرة في سبيل تحقيق الأهداف الاسترجاعية التوراتية، ولهذا قام بدور ملحوظ في تزويد الساسة والعسكريين البريطانيين بالمعلومات اللازمة لمد النفوذ الاستعماري في منطقتنا، تماماً كالدور الذي قامت به حملة لويس وكلارك في أمريكا، وكانت تقارير الصندوق تؤكد على ضرورة عودة اليهود إلى فلسطين، وكان من ضمن

(71) http://en.wikipedia.org/wiki/File:United_States_1812-06-1812-12.png

إصداراته خرائط دقيقة وكتب وتقارير كيوميات حملة لويس وكلارك، وقد استخدمت الجيوش البريطانية خرائط الصندوق أثناء الحرب الكبرى الأولى في تنقلاتها في فلسطين، ولم يكن هذا الصندوق البريطاني هو الوحيد في الساحة الاستعمارية، إذ نشأ غيره لنفس الأهداف في بريطانيا وألمانيا وفرنسا[72].

النشاط الاستيطاني والتوسعي:

نتج عن معاهدة غرينفيل (1795) تدفق الخمور على أراضي السكان الأصليين المتاخمة للمستوطنات الأمريكية فأحدثت الكثير من الدمار والعنف واليأس في مجتمعاتهم، في الوقت الذي استمر فيه التوسع الاستيطاني[73]، وقد كان من المفترض أن الخط الذي رسمته حداً لن يتجاوزه الاستيطان الأمريكي، ولكن هذا لم يكن الواقع، إذ استمرت تعديات المستوطنين وصار من المسلم به سنة 1800 أن الاستيلاء على مزيد من هذه الأراضي من الهنود سيتم بصورة أو بأخرى، ولهذا نظمت مقاطعة الشمال الغربي القديم في مقاطعتين جديدتين تمهيداً للاستيطان فيهما وهما أوهايو وإنديانا[74]، وقد تسارع التوسع والاستيطان في عهد الرئيس جيفرسون بصورة لافتة للنظر، فدخلت ولاية أوهايو في الاتحاد (1803) بعدما ضُمت أراض كانت قد ضُمنت للسكان الأصليين، وجاء الدور على إنديانا لتحصل على مزيد من أراضي الهنود، فأقر التعيين الذي قام به سلفه الرئيس جون آدامز[75] لحاكمها الذي وجد فيه الأداة المناسبة لتطبيق سياسته الشرسة وحملته العنيفة لإلغاء حقوق الهنود في أراضيهم حتى وصفه أحد المؤرخين بمطرقة جيفرسون[76]، وكان هذا الرجل هو وليم هنري هاريسون وهو ذو آراء معادية للسكان الأصليين[77] فأوضح بعد تعيينه نواياه العدوانية تجاه أراضيهم[78]، وبعد سنة 1805 تسارعت

(72) المسيري، 1999، ج6، ص156-157.
(73) Marks، 1998، ص46.
(74) Horsman، 1992، ص105.
(75) Marks، 1998، ص46.
(76) Owens، 2007، ص(Front flap).
(77) Sternstein، 1995، ص516.
(78) Horsman، 1992، ص142.

عملية ضم الأراضي الهندية التي كانت تحت الضمان للهنود وفقاً لمعاهدة غرينفيل رغم ادعاءات الرئيس الفيلسوف بالحفاظ على الحقوق كما ضمنتها هذه المعاهدة[79]، ولكن بعيداً عن الدعاية الإعلامية أصبح واضحاً أن هذه المعاهدة لم تعد سارية المفعول[80]، وعقدت معاهدات عديدة وُضعت بموجبها يد الولايات المتحدة على مساحات واسعة من الأراضي الهندية شرق وغرب المسيسبي (في إنديانا وإلينوي وأهايو وميتشيغان وويسكونسن) بمبلغ سنت واحد للفدان (!)[81] واستخدمت الوسائل التقليدية لتوقيعها كالضغوط والرشاوى رغم التأكيد على "حرية" الهنود في التصرف[82]، ومع ذلك استمرت تعديات المستوطنين وتحول "زعماء المعاهدات" المسالمون، ومنهم ثوار سابقون، إلى "زعماء المساعدات" الذين أصبحت همومهم محصورة في طريقة الحفاظ على بقاء أممهم المنكوبة بواسطة المساعدات الهزيلة التي يدفعها الرجل الأبيض وليس الحفاظ على حقوق هذه الأمم وهو ما دق طبول الحرب لدى السكان الأصليين وحذرهم من شر قد اقترب وصرف وجوه المحاربين عن زعماء "السلام" فتبعوا قواداً جدداً ظهروا على الساحة وبشروا بالمقاومة[83] (وهي ظاهرة تكررت في الصراع مع الصهيونية الإسرائيلية حين كانت وجوه المقاومة تجتذب المؤيدين بعد اليأس من تحقيق أي إنجاز على أيدي المسالمين الذين حولوا شعب فلسطين في النهاية إلى عالة على مساعدات الدول الكبرى)، فنبتت بذور صراع مسلح جديد سيكون لهاريسون فيه دور كبير سيبني عليه "أمجاده" على حساب الهنود وسيصل إلى منصب الرئاسة فيما بعد بناء على ذلك[84].

---

(79) نفس المرجع، ص149 و154.

(80) نفس المرجع، ص147.

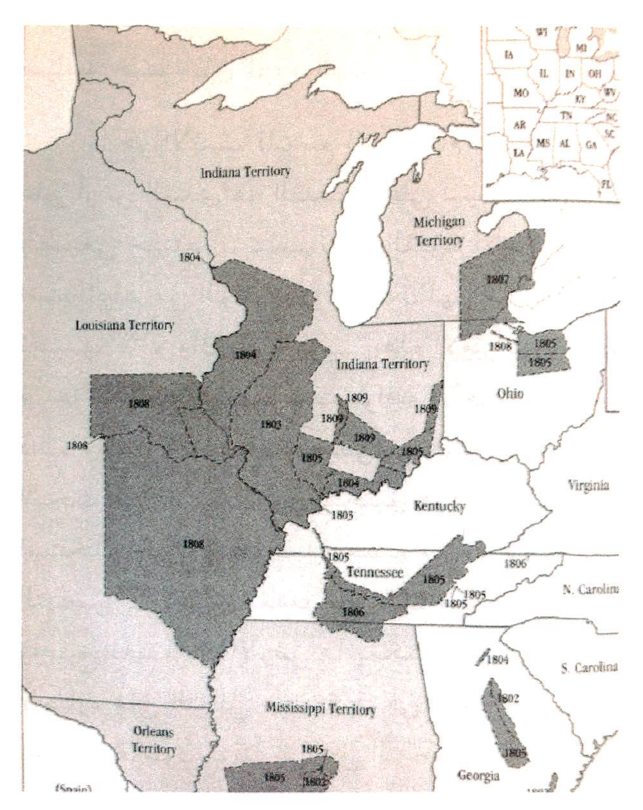
(81) White، 1979، ص239.

(82) Horsman، 1992، ص132 و135 و137.

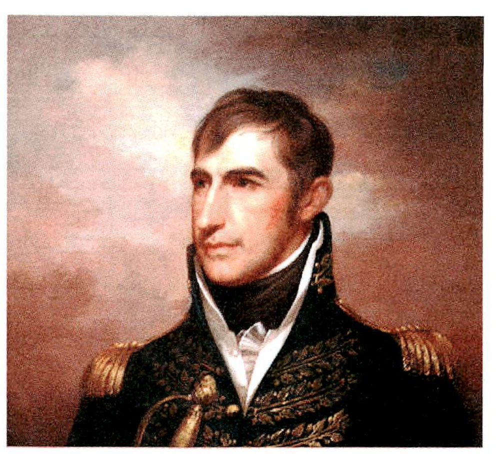
- Marks، 1998، ص46.

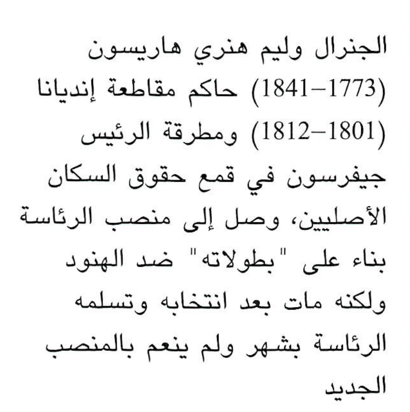
(83) Marks، 1998، ص47.

(84) Sternstein، 1995، ص516-517.



الأراضي التي تم الاستيلاء عليها زمن الرئيس توماس جيفرسون[85]





الجنرال وليم هنري هاريسون (1773–1841) حاكم مقاطعة إنديانا (1801–1812) ومطرقة الرئيس جيفرسون في قمع حقوق السكان الأصليين، وصل إلى منصب الرئاسة بناء على "بطولاته" ضد الهنود ولكنه مات بعد انتخابه وتسلمه الرئاسة بشهر ولم ينعم بالمنصب الجديد

---

(85) Wallace، 1999، صXV.

سياسة جيفرسون تجاه الهنود:

ما هو الأنسب للتوسع التمدين أم التهجير أم الإبادة؟ : لما كان الاستيلاء على أرض الهندي هو الهدف الأعلى لسياسة الدولة الأمريكية الاستيطانية، فمن الطبيعي حينئذ أن تتسم نظرة القيادة الأمريكية للسكان الأصليين بضرورة استبعادهم من المشهد وألا يكون لهم مكان في امبراطورية الحرية الجاري تأسيسها[86]، وأن يكون مؤسس هذه الإمبراطورية وهو الرئيس جيفرسون واضحاً في موقفه تجاههم مهما بدت مواقفه الأخرى مبهمة وملغزة، ذلك أنه كان يسعى دائما وبوضوح واتساق للتخلص من الهنود[87]، وكان المهم بعد ذلك أن يجري البحث عن أنسب الطرق لتحقيق هذا الهدف بأقل التكاليف الممكنة، وقد استخدم حل الإبادة ضد بعضهم[88]، كما اقترح وحاول استخدام حل التهجير[89] لاسيما بعدما تضاعفت مساحة الولايات المتحدة بصفقة لويزيانا وأصبح لديها من الأرض ما يمكنها نقل الهنود إليها، ولكن حرب الهندي لإجباره على التخلي عن حقوقه في أرضه كانت أكثر نفقة من مسالمته، ولهذا تخلى جيفرسون مؤقتاً عن حل التهجير مع احتفاظه ببراءة اختراع هذا المشروع وحاول اللجوء إلى سياسة التمدين[90] التي تخدم في النهاية مشروع التوسع.

بدأ تبني جيفرسون لحل الترحيل منذ كان حاكماً لولاية فرجينيا أثناء الثورة الأمريكية، فقد أوصى بتطبيق سياسة التهجير القسري إلى الغرب ضد قبيلتي الشيروكي والشاوني اللتين وقفتا إلى جانب بريطانيا في الحرب، ولما تولى الرئاسة في بداية القرن التاسع عشر وقد أصبحت الأراضي الفرنسية في لويزيانا متاخمة للحدود الأمريكية وتسبب ذلك في استياء الأمريكيين من مجاورتها، رأى أن الحل في شحن الحدود بالمستوطنين، وتمكن من ضم لويزيانا فيما بعد بشرائها من فرنسا، ولكنه خشي من إثارة حرب شاملة مع الهنود فقامت سياسته

---

(86) Wallace، 1999، ص18.

(87) Jennings، 2000، ص252.

(88) Calloway، 1995، ص53 و172.

(89) نفس المرجع، ص197.

(90) Horsman، 1992، ص113.

الأولية على ضرورة استيعابهم في المجتمع الأمريكي وذلك بالقضاء على اكتفائهم الذاتي وإغراقهم في الديون (نفس أساليب الاستعمار في بلادنا) وبفرض تخليهم عن ثقافتهم ودينهم وأسلوب حياتهم لصالح تبني المسيحية والملكية الخاصة والزراعة والتجارة واقتصاد السوق (وهي شعارات سيثبت كذبها عندما يطبقها الهنود كما ثبت كذب شعارات التمدين الاستعمارية في بلادنا)، ووصف دوافع هذه السياسة بالإنسانية المحضة (تماماً كما فعل المستعمرون عندنا) والتي عليهم أن يقدروا القوة التي تقف خلفها والقدرة الأمريكية على سحقهم، وفي حال مقاومة أي منهم لذلك سيتم انتزاع أراضيهم والتخلص منهم بإبعادهم إلى الغرب، هذا ما كتبه جيفرسون سراً للجنرال وليم هاريسون سنة 1803 وطلب منه كتمان هذا المشروع، ولكنه في نفس الوقت الذي كان يصرح فيه بالعمل على تمدين الهنود على أرضهم، كان يعقد صفقة مع ولاية جورجيا تقضي بترحيلهم عنها مقابل تنازلها عن امتدادها غرباً وقبولها بوضع حدود غربية لها، ثم تحول الخيار بعد عشر سنوات مما بين التمدين والرحيل إلى ما بين الترحيل والإبادة، وذلك بعدما رفض كثير من الهنود خطة التمدين القائمة على سلبهم وانضموا إلى بريطانيا في الحرب (1812)[91]، ولكن حتى من قبِل منهم تفاصيل الحضارة الأمريكية لن يصبحوا في مأمن وستكتسحهم الأحداث.

لقد كان من الواضح أن مشروع تمدين الهنود مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاستيلاء على أرضهم، ومع ذلك لم يتوان جيفرسون عن ادعاء أن التوسع الأمريكي ليس مفيداً للمستوطنين وحسب، بل للهنود أيضاً، (وهي حجة طالما لاكها المستعمرون البيض في كل أنحاء العالم بعد ذلك بالادعاء عن عبء الرجل الأبيض في نشر الرسالة الحضارية)، فالتمدين يعني الاستقرار على قطعة من الأرض لفلاحتها والتخلي عن كل الأراضي اللازمة للصيد إلى جانب الزراعة، ومن ثم كان ادعاء العمل على تمدين السكان الأصليين مربحاً حتى لو كانت جهود التمدين غير جادة وقد كان هذا هو حالها فعلاً، لأن المستوطنين الذين كانوا على جبهة الاحتكاك المباشر بالهنود لم يكن لديهم اهتمام بازدهار السكان

(91) http://en.wikipedia.org/wiki/File:United_States_1812-06-1812-12.png
- Horsman، 1992، ص123.

الأصليين ولا تمدينهم، ولاحظ بعض المؤرخين أن التمدين طرح على القبائل التي جرى الطمع بأراضيها وأهملت القبائل التي لم يكن المستوطنون بصدد التعدي عليها آنذاك[92]، كما أن سياسته في نشر التمدن كالتهديد بالحصار الاقتصادي أو شن الحروب في حال رفض التنازل عن الأراضي، وتقديم الرشاوى للزعماء لهذه الغاية أواختيار الزعماء المطواعين للتعامل معهم بالإضافة إلى وسيلة التوريط في الديون[93] التي فضلها جيفرسون لابتزاز قادة الهنود وسلب أراضيهم تؤكد على طبيعة الجشع البعيد عن الأهداف التمدينية، وقد أثبتت النتائج التي أسفرت عنها حملات "التمدين" وبقاء الهنود بعيداً عن استيعاب المجتمع الأمريكي لهم إلى اليوم أن كل الشعارات التي غطيت بها عملية الاستيلاء على أرضهم لم تكن شعارات جادة وأن الهدف الأعلى كان هو سلب هذه الأراضي بأقل التكاليف الممكنة كما كانت سياسة التوريط في الديون تحت ذريعة مشاريع التمدين هي المقدمة لاحتلال بلادنا في القرن التاسع عشر.

ولا يفوتنا في هذا المقام الإشارة إلى الازدواجية التي طبعت شخصية جيفرسون في سلوكه تجاه الهنود، فبينما هو يدافع عنهم أمام الأوروبيين ويأمر رجال حملة لويس وكلارك بانتهاج سياسة إنسانية تجاههم، نراه هو نفسه الذي خاض في حياته العامة حروباً ضارية ضدهم وسطر في إعلان الاستقلال إدانة خالدة لهم[94]، وهذه الازدواجية بين التصرف الفردي الذي ربما كان إسكاتاً لوخز الضمير، والتصرف العام سنجدها بصورة أوضح لدى خليفته أندرو جاكسون الذي وضع سياسة الترحيل موضع التنفيذ.

---

(92) Horsman، 1992، ص104-114.

(93) نفس المرجع، ص112.

- Jennings، 2000، ص252.

- Wallace، 1999، ص19.

(94) Bennett، 2006، ص246.

جيفرسون والرؤى "الاستئصالية" التي اخترعت جذوراً قديمة للمستوطنين البيض في أمريكا على غرار الحقوق التاريخية الصهيونية:

لم تقتصر الرؤى الاستشراقية-الاستئصالية لتوماس جيفرسون على إنكار التقدم الحضاري للسكان الأصليين في أمريكا رغم المشاهد المحسوس لبعض الإنجازات الكبرى التي درسها بنفسه في المجال الذي حكمته مستعمرته فيرجينيا ابتداء واحتوى بقايا هرمية ضخمة وطرقاً مسورة وسياجات لأماكن احتفالية يعود أقدمها إلى خمسة آلاف عام مضت، وقد اهتم جيفرسون بعزو هذه الإنجازات إلى القرطاجيين القدماء مثلاً كما عزا غيره المدنيات الكبرى في بيرو والمكسيك إلى سلالات من شمال أوروبا (الدانمارك)، وأهمل المحسوس أيضاً من ممارسة الهنود الزراعة وأصر على ربطهم بحرفة الصيد[95]، لكي يبرر لنفسه عملية التمدين بتعليمهم الزراعة المفضية في النهاية إلى الاستيلاء على أراضيهم، ولكنه لم يقتصر على ذلك إذ أنه في تقدير أحد المؤرخين حاول اصطناع جذور تاريخية في أمريكا تغنيه عن العودة إلى الجذور التاريخية في العالم القديم، وبحث عن هنود شقر ذوي عيون زرق ليربطهم بويلز في بريطانيا[96]، وفي ذلك يقول بعض المؤرخين إن إنجلترا سبقت الولايات المتحدة في هذه المحاولة وإن مستشار الملكة إليزابيّث الأولى وفي مسعى لتعزيز المطالبة بأمريكا من جانب أسرة تيودور الملكية المنتمية إلى مقاطعة ويلز، والتي حكمت إنجلترا زمن اكتشاف أمريكا، "بادر إلى إحياء أسطورة مادوك، أمير إقليم غويند الواقع في الجزء الشمالي من ويلز، ويُزعم أن مادوك أبحر من موطنه في القرن الثاني عشر، اهتدى إلى أمريكا واستوطنها، فمنح بريطانيا حقاً قبْلياً في امتلاك القارة مع حق الحلول محل الإمبراطورية الإسبانية التي تأسست على اكتشاف كولمبس الملتحق بالركب متأخراً، وقد قيل إن البرهان لصحة هذه الخرافة موجود في عدد من التقارير المختلفة عن لغات (أهالي) الأراضي الجديدة، (الذين) كانوا يتكلمون لغة ويلز، وجرى توظيف الخرافة كما لو كانت واقعاً، وتم إلباس الأسطورة ثوب الحقيقة في المواثيق التي أنعم بها التاج على الشركات التجارية المساهمة الشبيهة بشركة

---

(95) Horsman، 1992، ص106.

(96) Wallace، 1999، ص130-160.

فرجينيا التي تولت استيطان الأراضي وصولاً إلى إيجاد الإمبراطورية، وفي تاريخ لاحق أبدى توماس جيفرسون، الذي جاء أجداده الأوائل من المنطقة القريبة من سنودونيا في إقليم غويند الويلزية، ولعاً شديداً بفكرة الهنود الناطقين بالويلزية، وبوصفه رئيساً للجمهورية، قام بتمويل حملة لاستكشاف الأعماق الشاسعة التي تم الحصول عليها بشراء لويزيانا في 1803، وطلب من لويس (و) كلارك أن (يوليا) اهتماماً خاصاً لمسألة العثور على أحفاد مادوك، الذين يقال إنهم يعيشون هناك، وقد تبين أن هنود الماندان، أفضل المرشحين، لم يكونوا من الناطقين بالويلزية، إلا أن البعثة لم تتردد في إرساء قاعدة استغلال واستيطان الولايات المتحدة الأمريكية الموسعة"[97].

وذلك كما كان الصهاينة فيما بعد يصلون تاريخهم بتاريخ فلسطين القديم ويرفضون تاريخهم الحقيقي خارجها[98]، وهذه هي سمة الكيانات الاستيطانية التي تنزع نحو نبذ تاريخها قبل الاستيطان[99] وتحاول وصل أنفسها بالأماكن التي هاجرت إليها، وعندما نرى محاولة وصل تاريخ المستوطنين البيض بتاريخ أمريكا القديم لا نعجب من اختلاق الصهاينة حقوقاً تاريخية لهم في فلسطين ذلك أن الرابط بين الرجل الأبيض وأمريكا كان أبعد كثيراً من رابط العقيدة اليهودية بفلسطين ومع ذلك اختلق "حقوقه" التاريخية في العالم الجديد، وهو ما يؤكد أن كل هذه المحاولات ليست سوى تشريعاً لما هو قائم وما تحتمه حاجة المعتدي وليست دافعاً له "للعودة" إلى أصول ما، فمحاولة الأمريكيين جاءت بعد قرنين من استيطانهم ولم تكن فكرة سابقة على الاستيطان نفسه، وكما أرجع الوجود الإنجليزي حقوقه إلى وجود أسطوري ثبت خطؤه، وكما لم يؤد الفشل في الحصول على أدلة على ذلك الوجود الويلزي إلى ضعضعة الاستيطان الأمريكي، فكذلك لم يتردد الاستيطان الصهيوني العلماني في تقديم أوراق اعتماد من الأساطير التوراتية ولم يؤثر فشله في الحصول على أدلة على وجود الهيكل، في تثبيت أركانه في فلسطين، ولم يعد علماء الآثار فيه يخجلون من

---

(97) ديفيز، 2006، ص147-148.

(98) المسيري، 1979، ص18.

(99) المسيري، 1999، ج7، ص59.

إعلان زيف الأدلة التوراتية بعدما أصبح الكيان الصهيوني وجوداً مادياً ليس بحاجة إلى مبررات في نظرهم.



نموذج من التلال الهرمية التي عزاها جيفرسون إلى سلالات بيضاء في أمريكا[100]

الميراث الهندي لجيفرسون: جمع أحد المؤرخين ملخصاً لما أدت إليه نظرة جيفرسون للسكان الأصليين وسياسته تجاههم فوجد أنه بعد ترك الرئيس منصبه سنة 1809 حافظ خلفاؤه على الجهاز الإداري الذي أوجده وعلى القيم التي وضعها وأبقوا الأشخاص الذين عينهم لتطبيق سياساته في مناصبهم مثل الرئيسين القادمين وليام هاريسون وأندرو جاكسون اللذين أديا أدواراً بارزة في قمع وهزيمة واضطهاد السكان الأصليين، فقد هزم هاريسون سنة 1812 الاتحاد الهندي الذي تزعمه الزعيم تكومسيه وأدى ذلك إلى تدمير إمكانات الوحدة الهندية في مجابهة الغزو الاستيطاني الأوروبي إلى الأبد[101]، وقام جاكسون بتطبيق سياسة التهجير التي وضعها جيفرسون وترتب عليها كثير من الخسائر البشرية، واستند في ذلك إلى رؤية جيفرسون نفسه عن زوال العرق الهندي وتبرير أخلاقي استقى شرعيته من ممارسة أعدائه الهنود الذين يعدهم متخلفين ومتوحشين، وما داموا وفقاً لتقديره قد أبادوا وسلبوا أسلافهم، فما المانع من معاملتهم بأخلاقهم (!؟)، وبغض النظر عن ظنية هذا التأريخ، فكيف لمدع

(100) http://www.ancientworlds.net/aw/Places/District/459390

(101) Horsman، 1992، ص169.

- Sternstein، 1995، ص516.

حمل أنوار العقل والإنسانية والديمقراطية للبشرية أن يبرر أفعاله بمبررات من أعماق ظلام التاريخ البشري؟ وما هي إضافة التفوق الأوروبي إذا كان سيكرر نفس خطايا ظلمات الجهل والتوحش والتخلف البشري؟

وظلت رؤية جيفرسون عن الاستيلاء على الأرض والقضاء على الهنود المعادين تحكم السياسة الأمريكية طويلاً، وبينما تنبأ جيفرسون بنهاية حضارة السكان الأصليين، لم تتوقف مقاومتهم، ورغم استيعاب كثير منهم ضمن المجتمع الأمريكي، لاسيما في مجالات التعليم والتوظيف، فقد كانت الخسارة كبيرة جداً، إذ تمت إبادة معظم أفراد هذا العرق ولم يتبق من مجموع السكان الذين عاشوا قبل وصول كولمبس سوى 5% في بعض التقديرات وتشتهر محمياتهم الباقية بمعدلات عالية من الأمراض الاجتماعية كالبطالة والإدمان على الكحول والمخدرات، وكان نظام المحميات المحاصرة والمستمرة بالانكماش والتي يهجّر إليها الهنود بعيداً عن أوطانهم هو نتاج سياسة اتبعت بانتظام منذ القرن التاسع عشر، ولم يكن جيفرسون هو الوحيد في تطبيقها ولكنه من جعل هذه السياسات مركزية للنظام الأمريكي، وبتأكيده على النهاية المحتومة للهنود نحو الاختفاء الحضاري منح تبريراً أخلاقياً لعملية تجريدهم من أراض ادعى أنهم في غير حاجتها.

ولم يقم الاضطهاد تحت هذا العنوان القاسي، ففي البداية استدخل جيفرسون ومن تبعه فكرة المجال الهندي المعزول والمحمي من الاعتداء الاستيطاني، ولكن المشكلة لم تكن مشكلة حكم استبدادي يتعلق قراره بحاكم متفرد ومستبد، بل كانت الأزمة أزمة حضارة استبطنت فكرة المنفعة ومن ثم لم تتوقف عن التمدد داخل حدود الآخرين مما استتبع المقاومة من جانب أصحاب الحق فاندلاع الحروب فالتوقيع على معاهدات الهزيمة والتخلي عن الأرض في ظل عدم تكافؤ القوى، ويقر المؤرخ والاس من جانب بدور الرأي العام الأمريكي المؤيد للتوسع الذي ساهم جيفرسون وغيره من الآباء المؤسسين في غرس مفاهيمه، ومن جانب آخر كراهية الدولة، الممثلة لهذا الرأي العام، لاستخدام القو،ة وإنفاق المال، وإراقة الدماء لحماية أراضي الهنود وحقوقهم، مما جعل عملية كبح الاستيطان مستحيلة وساهم في "المصير الواضح" الذي انتظر السكان الأصليين.

ولم تكن هذه الأزمة الناتجة عن مشكلة التعددية داخل المجال الأمريكي خاصة بالولايات المتحدة، فهي مشكلة واجهت الكثير من المجتمعات في القرن العشرين ونتج عنها المحرقة النازية والتطهير العرقي وإزاحة السكان الأصليين والحروب العرقية والدينية لمجتمعات واجهت نفس المعضلة الأمريكية بين مكوناتها: ما العمل بخصوص مجموعات عرقية ترفض الاندماج أو هي غير مؤهلة له كالهنود والأفارقة؟ لقد كانت إجابة الأمريكيين هي الفصل بين الأعراق أو الإبادة، وهو قرار اتخذه قادة آخرون في القرن العشرين، ولكن ما لا يلاحظه هذا المؤرخ أن قرارات "الحلول النهائية" اتخذت في مجتمعات شمولية كألمانيا النازية، فهل يحق لنا الآن أن نؤكد أن الإبادة والفصل العنصري من ملامح المجتمعات الغربية عموماً سواء الشمولية منها والديمقراطية وأن الخلل يعود بأصله إلى جذور الحضارة الغربية وليس مجرد انحراف جانبي عن مضمونها التنويري؟ وإذا كان الآباء المؤسسون قد قاموا باستيعاب اختلافات اقتصادية وسياسية ضمن الاتحاد الذي أسسوه، فلماذا لم يحاولوا، بمهاراتهم وقدراتهم الفكرية الفائقة، القيام بالإجراء ذاته فيما يتعلق بالاختلافات العرقية؟[102].

جيفرسون وأولى الحروب على "الإرهاب":

لم يكن الرئيس توماس جيفرسون شديداً على السكان الأصليين في أمريكا فقط، وضمن التلازم بين النظرة للهندي والمسلم في العقل الأمريكي، وجدناه أيضاً مؤسساً للحرب على الشرق العربي الإسلامي أيضاً تحت عنوان الحرب على البرابرة والذي أصبح معادلاً للحرب على الإرهاب اليوم، وذلك لأن الحربين شنتا على نفس العدو وبنفس الدوافع وتحت نفس الذرائع، ذلك أن الولايات المتحدة كانت منذ استقلالها تدفع الجزية للنيابات العثمانية (طرابلس الغرب وتونس والجزائر) والمغرب في شمال إفريقيا، ولما طالبت طرابلس أمريكا بزيادة الجزية رفض الأمريكيون (1801) فأعلنت طرابلس الحرب عليهم، فقاموا بحصار المدينة من البحر لمدة سنتين (1803-1805) وهاجموا درنة

(102) الفقرة كلها تستند إلى هذا المرجع مع مناقشة أفكاره: Wallace، 1999، ص335-338.

بقوات من "المعارضة" الطرابلسية، فوقّع الباشا معاهدة مع الأمريكيين تنص على عدم فرض الجزية عليهم، ولكنهم استمروا في دفع الجزية لبقية النيابات، وفي سنة 1812 رفضت أمريكا زيادة الجزية التي تدفعها للجزائر فأعلن الداي الحرب عليها فأرسلت الولايات المتحدة أسطولها في سنة 1815 مهددة بتدمير المدينة إذا لم تلغ الجزية ويدفع الداي تعويضات عن الخسائر الأمريكية، فوقّع معاهدة بتلك الشروط وتم إقناع بقية الدول في شمال إفريقيا بتوقيع معاهدات مماثلة[103]، وكان سبب هذه النتيجة أن العثمانيين كانوا في سنوات شيخوختهم وكانت الولايات المتحدة في فورة انطلاقها، وقد وقعت الجزائر بعد سنوات قليلة تحت الاحتلال الفرنسي (1830)، ومازال نشيد البحرية الأمريكية يتغنى "ببطولاتها" في طرابلس إلى اليوم.



لوحة للفنان دينيس كارتر عن الهجوم الأمريكي على سفينة طرابلسية 1804

(103) New Standard Encyclopedia، 1999، ج3، صB-85-86.



الفرقاطة الأمريكية فلاديلفيا التي أسرها الطرابلسيون سنة 1803 أمام سواحل طرابلس وقرر الأمريكيون إحراقها كي لا يستفيد أعداؤهم منها، اللوحة رسمها في نهاية القرن (1897) الرسام إدوارد موران

مشروع "عودة" إلى إفريقيا لحل مشكلة العبيد المحررين يسبق مشروع "العودة" إلى فلسطين لحل المشكلة اليهودية في أوروبا

من القضايا التي واجهتها الثورة الأمريكية التي طرحت فكرة التحرر من الاستبداد، قضية الرق ومساوئه والتي فرضت نفسها على الآباء المؤسسين ومنهم توماس جيفرسون الذي كتب مسودة إعلان الاستقلال وألصق فيها تهمة التجارة بالبشر بالملك البريطاني وحده، مع أنه برر استعمال الرقيق بكونه من متطلبات البقاء لسكان أمريكا وهو ما يتقدم على مبادئ العدالة، وكان جيفرسون يعتقد أن مآل العبودية إلى الزوال ولكن ذلك لن يؤدي إلى السلام وسيظل العنف الناتج عن تبعات الاسترقاق على السادة والعبيد، والفروق الطبيعية في رأيه بين البيض والسود، يلقي بظلاله على المجتمع الأمريكي، وحل هذه المشكلة التي تتعلق بفائض سكاني فقد وظيفته في هذا المجتمع وأصبح عبئاً عليه، يتمثل في رأيه في الفصل بين الشعبين و"عودة" هذا العنصر البشري الفائض إلى موطنه الأصلي

بمساعدة سادته السابقين واستعماره في بلد خاص يصبح ملكاً له ويضمن فيه سلامة العبيد وسعادتهم ويمنحهم الحماية والرعاية ويمكن لأولئك السادة السابقين أن ينشئوا تحالفاً مع هذا الكيان الجديد، وكما كان صاحب فكرة هذا المشروع ضد اضطهاد العبيد في أمريكا فقد كان ضد العبيد أنفسهم وساقه حرصه على الهوية إلى اقتراح ترحيلهم مرة أخرى إلى إفريقيا بعدما تم ترحيلهم من إفريقيا أول مرة، وكذلك كان الوزير البريطاني آرثر جيمس بلفور صاحب الوعد المشئوم معادياً لوجود اليهود في بريطانيا فسن أثناء رئاسته للوزراء (1902-1905) قانون الغرباء الذي يقيد هجرتهم إليها في نفس الوقت الذي كان فيه متعاطفاً مع فكرة ترحيلهم إلى فلسطين ومنسجماً مع الأحلام الصهيونية إلى حد التبني كما هي صفة معظم الصهاينة غير اليهود الذين يكرهون اليهود ولهذا يتعاطفون مع الهدف الصهيوني وهو التخلص منهم في أوروبا وترحيلهم إلى فلسطين.

ويلاحظ تشابه المسألة الإفريقية في أمريكا مع المسألة اليهودية في أوروبا، ففي الحالتين كان هناك فائض سكاني فقد عمله وأصبح عبئاً على مجتمع يرفض استيعابه، فكان الحل هو تصدير المشكلة إلى الخارج تحت ستار "العودة" بإنشاء كيان استعماري استيطاني يرعاه السادة السابقون، لهذا العنصر المرفوض ويتحالفون مع كيانه الجديد الذي سيصبح أداة في يد المصالح الجديدة لأولئك السادة في مكانه الجديد، وكما كان أعداء اليهود هم أنصار الحل الصهيوني الذي طالب بترحيل اليهود من أوروبا إلى فلسطين، فكذلك كان أنصار ترحيل العبيد المحررين هم أنفسهم أعداء بقائهم في أمريكا وكارهي عنصرهم الإفريقي، وكما ظلت الأفكار الصهيونية في عالم الأماني زمناً طويلاً فقد ظلت فكرة ترحيل العبيد السابقين حبيسة الفكر الجيفرسوني منذ نهاية الثورة الأمريكية لمدة أربعين عاماً بعد ذلك وظل يدافع عنها إلى يوم وفاته في ذكرى إعلان الاستقلال سنة 1826، وكان سابقاً زمنه في اختراع هذا الحل على غرار السابقين في اختراع الحل الصهيوني[104].

(104) Onuf، 2000، ص147-188.

وقد نتج عن هذا الحل الترحيلي في إفريقيا والذي أدى إلى قيام دولة ليبيريا من المشاكل بل الكوارث الدموية بين السكان الأصليين والوافدين الجدد ما يوازي النكبات التي حلت بالشعب الفلسطيني نتيجة الحل الصهيوني، رغم كون "العائدين" في الحالة الإفريقية ممن لا شك في أصولهم الإفريقية وهو ما يؤكد أن صلات النسب البعيد بالأرض ليست هي معيار الحقوق وأن عودة أي منفي بعد زمن طويل تحت راية أجنبية هدفها الطرد والإبادة والاستيطان سيواجهها أصحاب البلاد بنفس المقاومة التي يواجهون بها أي أجنبي محتل، خلافاً للترحيب باللاجئ طالب الأمان الذي يطلب المساعدة حتى لو كان غريباً، وأن اتخاذ الاستعمار أدوات تحت ذريعة العودة يختلف جذرياً عن العودة نفسها لأن العائد الحقيقي يحترم أصحاب الدار الذين ثبتوا في الأرض في الوقت الذي كان هو قد غادر فيه، وحتى لو كان مجرد لاجئ أجنبي وليس عائداً فإن الأبواب تكون أكثر تفتحاً له من محاولة اقتحامها قسراً بالقوة، وقد استقبلت بلادنا كثيراً من اللاجئين من الشرق والغرب (الأرمن والشركس والشيشان والبشناق) واستوعبتهم في نسيجها إلا أن الموجة الصهيونية لم تكن محاولة لجوء وإيجاد مأوى بل غزو استعماري استيطاني يستهدف الإبادة والإحلال لأجل قيام كيان مرتبط بالخارج الغربي ومن هنا كان رفض السكان الأصليين له ولم يكن رفضهم إفساح مجال لمجموعة هاربين من الاضطهاد كما يصور الصهاينة أنفسهم، وكذلك كانت ليبيريا كياناً مرتبطاً بالراية الأمريكية استبعد السكان الأصليين واضطهدهم ولذلك رفضوه وحاربوه بغض النظر عن أصول المستعمِرين الإفريقية، والخلاصة أن حجة العودة مرفوضة عندما يستخدمها كيان استعماري يعمل على استبعاد الأهالي، سواء كانت الأصول صحيحة كالحالة الإفريقية أو مشبوهة كالحالة الصهيونية أم مختلقة كالجذور الأوروبية التي حاول جيفرسون اختراعها في أمريكا الشمالية، وهذا الحل يؤدي دائماً إلى مشاكل متتالية بحجة إيجاد مأوى مع أن المأوى لا يتطلب الطرد والإبادة.

الفصل الخامس عشر

الحروب بين الدول الاستعمارية

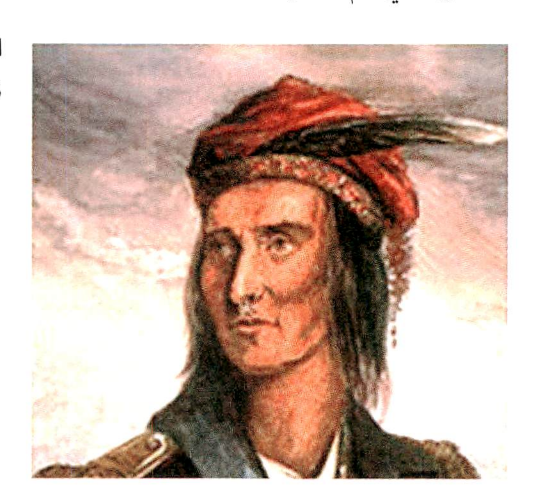
(3)

ثورة الزعيم تكومسيه والحرب البريطانية الأمريكية (1812)

كان الزعيم تكومسيه Tecumseh ينتمي لقبيلة الشاوني التي تقطن في وادي نهر أوهايو بين البحيرات العظمى والجنوب الأمريكي، وقد فقد والده وأخوين في الحروب ضد الأمريكيين ورفض المشاركة في معاهدة غرينفيل (1795) التي لم يلتزم الجانب الأمريكي بها ولا بالمعاهدات اللاحقة التي حصلت على المزيد من أراضي الهنود واستمرت تعديات المستوطنين مما جعل تكومسيه يفكر بإقامة دولة هندية تمتد من البحيرات العظمى إلى خليج المكسيك، واستهدف إحياء الحلم الهندي بجعل نهر الأوهايو هو الحد الفاصل بين الدولة الهندية والولايات المتحدة[1]، أما التعايش بين الشعبين فهو غير ممكن (وهي نتيجة توصل إليها الكثيرون أيضاً من الطرف الفلسطيني داخل الصراع مع الصهاينة، وفي الحالتين الأمريكية والصهيونية بني هذا الحكم على قرار الطرف الأقوى الذي لم يكن معنياً باستيعاب الضحية أو تحضرها أو القبول بها)، وكان تكومسيه يعتقد أن هذه الدولة الهندية المرتقبة يمكن أن تعيش في سلام مع جارتيها الولايات المتحدة الأمريكية وكندا البريطانية، بل كان يعتقد أن الإنجليز سيدعمون هذه الدولة لمواجهة أعدائهم الأمريكيين، ولتنفيذ هذا المشروع نادى بوحدة هندية شاملة يتمكن الهنود بها من قتال الولايات المتحدة، وفي زمن تميز بممارسة تعذيب

(1) Brandon، 1985، ص210.

الأسرى رفض تكومسيه ذلك، كما دعا أخوه الذي انضم إليه ولُقب بالنبي إلى تكريس الثقافة الهندية الأصيلة وعدم تقليد البيض لاسيما في شرب الكحول ودعا كذلك إلى خليط من التعاليم الهندية والمسيحية لاسترداد السكان الأصليين إلى الطريق القويم الذي سيحيي أمرهم ثانية ويملأ حياتهم بالوفرة المفقودة، وكان يرى أن أراضي الهنود ملك لهم جميعاً ولا يحق لأية قبيلة أن تتخلى عن أي جزء منها دون موافقة جميع القبائل الأخرى، ولذلك فإن أي معاهدة تعقدها الولايات المتحدة مع قبيلة واحدة للحصول منها على مساحة من الأرض تعد معاهدة لا قيمة لها، فجذبت دعوته كثيراً من المحاربين لاسيما في أجواء القهر التي عاشتها القبائل على حدود الاستيطان الأمريكي وهي أجواء منحته التأييد الأكبر حتى من القبائل التي لم يغمرها الاستيطان بعد[2].



لوحة تصور الزعيم تكومسيه (1768–1813) لفنان مجهول (1815 تقريباً)

أسس تكومسيه وأخوه سنة 1808 مركزاً لدعوتهما في مقاطعة إنديانا حيث يمكن أن يجتمع الهنود دون تطفل أبيض، وأطلق على المدينة الجديدة اسم تيبيكانو Tippecanoe نسبة إلى النهر الذي تقع عليه، وقام الزعيم بزيارات لمختلف القبائل من البحيرات العظمى شمالاً إلى خليج المكسيك جنوباً، وخاطب الهنود بحماس مذكراً إياها بمصير الفناء الذي واجه القبائل الكبرى في

(2) Marks، 1998، ص47-48.

الساحل الشرقي بسبب الرجل الأبيض: "لقد فنوا أمام جشع واضطهاد الرجل الأبيض، وهكذا سيكون مصيركم، وقريباً ستجدون غاباتكم الضخمة تقطع لتصبح سياجاً للأرض التي سيجرؤ الدخلاء البيض على الادعاء بأنها لهم"[3]، "هل سنسمح لأنفسنا بأن ندمَّر بدورنا دون كفاح منا، وأن نتخلى عن بيوتنا وأرضنا التي وهبتنا لنا الروح العظيمة؟ أن نتخلى عن قبور موتانا وكل ما هو عزيز ومقدس لدينا؟ أعلم أنكم ستصرخون معي: أبداً أبداً "[4]، كما خاطب أخوه المتنبئ قومه بنفس اللهجة: "اسمعوا مني أيها المضلَّلون للمرة الأخيرة، هذه البلاد الواسعة كانت ميراثكم يوماً ما... لقد مضى زمن طويل منذ اختفاء القبائل الشرقية، وحتى الغابات التي آوتهم سقطت، وبالكاد سنعثر على بقايا أمتنا سوى اسم هنا أو هناك لقرية أو نهر، وسيكون هذا مصير الآخرين طال الزمن أم قصر، وعما قريب سيذهبون في الطريق الذي سلكه إخوانهم من قبل، وسيختفون كما يختفي الضباب على وجه الأرض، وسيضيع تاريخهم في النسيان، والأماكن التي تعرفهم الآن لن تظل تعرفهم، لقد ظللنا نتراجع حتى لم يعد لنا مكان نتراجع إليه، وقد كُسرت أسلحتنا وانطفأت نيراننا، وقريباً سيتوقف الرجل الأبيض عن اضطهادنا لأننا سنختفي من الوجود"[5].



أخو الزعيم تكومسيه والذي رافقه في دعوته وحربه، تنسكواتاوا الذي لُقب بالنبي وتنبأ بفناء القبائل الهندية أمام زحف الرجل الأبيض.

(3) نفس المرجع، ص48.

(4) براون، 1982، ص7.

(5) Waters، 1998، ص59-60.

ولاقت دعوة الزعيم نجاحاً في منطقة نهر واباش حيث أسس مدينته، وأصبح بذلك يخطط للثورة الهندية على الأطماع الأمريكية الزاحفة، ورفض المعاهدة التي عقدها الأمريكيون مع بعض الزعماء المصطنعين والمرتشين والمخدوعين والسكارى (1809) وتخلى هؤلاء بموجبها عن أرض واسعة تقدر بثلاثة ملايين فدان مقابل 7 آلاف دولار فقط (أي خُمس سنت للفدان الواحد) مع مساعدة سنوية ضئيلة[6]، وواجه تكومسيه حاكم الشمال الغربي مواجهة شخصية (1810) وأسمعه رأي قومه فيما يحدث : "الروح العظمى أبي، والأرض أمي، وسأستلقي في النهاية في حضنها" وصرخ مستنكراً : "أبيع بلادي؟ فلماذا لا أبيع الهواء، والغيوم، والبحر الكبير، كما أبيع الأرض؟" ثم لجأ إلى استخدام المنطق الأمريكي الذي وحّد أقواماً مختلفين في ولايات متحدة ثم يستنكر قيام الهنود بنفس العملية[7] (وهو نفس المنطق الغربي عامة والأمريكي خاصة الذي ما يزال يتعامل معنا بنفس الأسلوب حين ينكر علينا ما يرضاه لنفسه ويحطم وحدتنا ونهوضنا بالقوة المسلحة مع أن هذه هي أسس الحياة السياسية الغربية المعاصرة)، ورفض الزعيم مطالب الجنرال المذلة بتسليم محاربين هنود متهمين بقتل مستوطنين[8] (ستتكرر هذه الظاهرة الاستعمارية في تاريخنا لاسيما في فلسطين حيث يطالَب السكان الأصليون بغطرسة بتسليم المقاومين فتستجيب قيادات وترفض أخرى).

وفي هذه الأثناء قاد نفس حاكم مقاطعة إنديانا في الشمال الغربي، وليام هنري هاريسون والذي عينه الرئيس السابق جيفرسون وعُرف بآرائه المناهضة للهنود، حملة مؤلفة من 800-1000 جندي ضد تكومسيه الذي كان في الجنوب الأمريكي يطلب دعم القبائل الخمس المتمدنة، وأوصى أخاه بعدم الاشتباك مع القوات الأمريكية حتى يعود، إلا أن هاريسون توجه نحو القرية المركزية لتكومسيه (تيبيكانو) وأوقع هزيمة بالهنود أدت إلى فشل مشاريع الوحدة والدولة

(6) Debo، 1983، ص106.
- Waldman، 2000، ص137.
(7) Debo، 1983، ص107.
(8) Waldman، 2000، ص137.

(1811)، ولكن مقاومة الزعيم استمرت بانضمامه للإنجليز في الحرب التي بدأها هو بين بريطانيا والولايات المتحدة سنة 1812 [9]، ومرة أخرى كان سبب الخيار الهندي كما كان دائماً هو الخشية من التمدد الاستيطاني الأمريكي ولهذا لم ينضم منهم للأمريكيين سوى عدد قليل، وكان السكان الأصليون يعلمون أن الإنجليز يستخدمونهم لأهدافهم الخاصة ولكن لم يكن لهم خيار آخر في ذلك الوضع الذي حشرهم الأمريكيون فيه والذي كان الأمريكيون فيه يلقون باللوم في تصاعد أعمال المقاومة الهندية ضد معاهدة سنة 1809 على بريطانيا ولكن مؤرخين من التاريخ المعاصر أدركوا أن رفض الهنود للمظالم التي وقعت عليهم وليس التحريض البريطاني كان هو السبب في تلك المقاومة[10]، وكانت مشاركة السكان الأصليين في هذه الحرب ملحوظة إذ قاتلوا الأمريكيين على تخوم أراضيهم في الشمال الغربي بأعداد أكبر من الأعداد التي قاتل بها البريطانيون[11].



معركة تيبيكانو

وقد نتج عن الحرب دخول القوات الأمريكية كندا ودخول القوات البريطانية الأراضي الأمريكية ووصولها إلى العاصمة واشنطن وإحراقها، وقد كان

---

(9) Debo، 1983، ص109.

(10) Horsman، 1992، ص167 و169.

(11) Prucha، 1995، ص78.

حلفاء الهنود من الإنجليز يرتكبون قتل الأسرى وهو ما كان يرفضه تكومسيه[12]، وقد اندفع غاضباً في إحدى المعارك التي ارتكب فيها الإنجليز قتل الأسرى وأوقف المجزرة فوراً وصرخ في وجه القائد البريطاني بأنه لا يصلح للقيادة وأن عليه ارتداء ثوب النساء[13]، ومع ذلك التصقت بقومه تهم التوحش والبدائية والهمجية دون البيض أنفسهم، وفي النهاية قُتل الزعيم في معركة ثيمس Thames في أكتوبر/ تشرين الأول سنة 1813 أثناء تغطية الهنود لعملية هروب البريطانيين نحو كندا، وتلقى تكومسيه الرصاصة تلو الأخرى وهو في الصفوف المتقدمة، ويبدو أن رفاقه أخفوا جثته كي لا تتعرض للتمثيل الذي مارسه الأمريكيون على جثة أخرى ظنوها هو، وفي تقويم لهذه الشخصية قال عدوه الرئيس الجنرال وليم هاريسون إنه "واحد من تلك العبقريات الفريدة التي تبزغ أحياناً لتصنع ثورات تقلب النظام القائم للأشياء، ولولا قربه من الولايات المتحدة، لربما تمكن من تأسيس امبراطورية ينافس مجدها امبراطوريتي الأزتك في المكسيك والإنكا في بيرو"[14]، (وهذا الاعتراف ضمن اعترافات كثيرة زخر بها التاريخ الأمريكي خاصة والغربي عامة عن أعداء الحضارة الغربية ولكنها كانت تأتي دائماً بعد فوات الأوان ودون أي أثر عملي حتى لضحايا آخرين لم يتم اكتساحهم بعد)، ويرى أحد المؤرخين أن هذا الزعيم لو كان متولياً قيادة الجيوش البريطانية لحقق لها النصر على الأمريكيين، ولو امتلك وقتاً أكثر مما حدث بالفعل لتمكن من إقامة الوحدة والدولة الهندية التي حلم بها[15].

(12) Waldman، 2000، ص137.

(13) Debo، 1983، ص110.

(14) Reynolds، 2009، ص83.

(15) Waldman، 2000، ص139.



موقع معركة تيبيكانو
كما يبدو اليوم[16]

وقد وقع الطرفان الأمريكي والبريطاني في النهاية معاهدة غنت (1814) التي لم يحقق بها أي منهما مكاسب على حساب الطرف الآخر، وكانت الهزيمة الحقيقية من نصيب السكان الأصليين إذ تمكنت الحكومة الأمريكية من إخلائهم من منطقة الشمال الغربي بواسطة معاهدات عقدتها مع زعمائهم المفككين وتخلوا بموجبها عن حقوق أقوامهم في تلك المنطقة مقابل مساعدات سنوية وبهذا الطوفان الاستيطاني تحولت إنديانا إلى ولاية سنة 1816 وإلينوي كذلك في 1818[17].

نتائج حرب 1812:

أدت نهاية الحرب البريطانية الأمريكية إلى انسحاب آخر عائق أوروبي في مواجهة التوسع الأمريكي في القارة[18]، وقد أُطلق عليها اسم حرب الاستقلال الثانية، وبعد زوال العوائق الأوروبية أصبح السكان الأصليون فرادى في مواجهة السيل الاستيطاني الجارف، ولمنع اتصال السكان الأصليين بالإنجليز قضت معاهدة السلام بين بريطانيا والولايات المتحدة بمنعهم من التجارة مع الهنود في

(16) http://en.db-city.com/United-States--Indiana--Tippecanoe--Battle-Ground
(17) Debo، 1983، ص111.
(18) Marks، 1998، ص58.

الأراضي التابعة للولايات المتحدة، ولتحقيق هذا الهدف والسيطرة على التخوم لاسيما أراضي الشمال الغربي وعدم إفساح المجال أمام خروجها عن السيطرة مرة ثانية اتجهت السياسة الأمريكية نحو بناء الحصون في الأراضي الغربية لتحمي سكان مستوطنات التخوم ولتكون مراكز تجارية تغني الهنود عن التعامل مع الإنجليز، وكذلك عقد معاهدات سلام لم تحل القضايا العالقة والمتعلقة بحقوق الهنود والتي تركت لوقت لاحق (مفاوضات الوضع النهائي بتعبير التاريخ الفلسطيني) ووزعت الهدايا (أو الرشاوى) على الهنود على شكل بضائع بقيمة عشرين ألف دولار (أرخص كثيراً من نفقات أي حرب) لتعوضهم عن البضائع التي كان الإنجليز يزودونهم بها[19].

كما أدت نهاية الحرب إلى نهاية فكرة تمدين السكان الأصليين ومن ثم استيعابهم في المجتمع الأمريكي مما أدى إلى التوجه نحو التهجير، ويلخص أحد المؤرخين المشهد بالقول إنه منذ نهاية الثورة الأمريكية سنة 1783 وإلى سنة 1786 اعتمدت الحكومة الأمريكية على القوة المجردة في إخضاع الهنود متبنية فكرة أن جميع الأراضي شرق نهر المسيسبي آلت إليها بحكم انتصارها على بريطانيا وحلفائها الهنود وأنها يمكن أن تتحكم بهم وبمصيرهم، ولكن هذه السياسة فشلت بسبب عدم توفر المال اللازم لمواجهة الهنود وعدم قدرة الولايات المتحدة على مواجهة الأمم الأوروبية بهذا القمع للهنود بعدما ادعت أنها أمة مثالية[20]، ولكن هناك اعتراض رئيس على الحجة الضميرية التي يوردها لأننا سنرى أنه عندما توفرت للولايات المتحدة الإمكانات المادية اللازمة لمواجهة الهنود لم تتردد في القمع الدموي ضاربة عرض الحائط بكل ادعاءاتها المثالية أمام أوروبا.

ويؤكد ذلك ما يورده مؤرخنا من أن السياسة الجديدة التي اتبعتها الحكومة الأمريكية بعد مرحلة القوة المجردة التي تخلت عنها تحت ضغوط الشح المالي والعسكري والضميري، كان هدفها تسهيل عملية التوسع الاستيطاني أيضاً عن طريق السيطرة المحكمة على التخوم والاعتراف بحقوق الهنود في شغل أراضيهم

---

(19) Prucha، 1995، ص81-84.

(20) Horsman، 1992، ص170-171.

وليس بالتصرف فيها كما سبق ذكره، وكان من المؤمل من هذه السياسة أن تغري الهنود ببيع أراضيهم تدريجياً بعد قناعتهم بذلك نتيجة تضاؤل موارد معيشتهم فيها واختفاء حيوانات الصيد منها، وستؤدي عملية التحكم بالتخوم ولجم الاستيطان العشوائي إلى منع الحروب ذات النفقات العالية لصالح التوسع السلمي، فلم يكن اللجم لصالح السكان الأصليين بل لصالح التوسع نفسه والذي سيكون أكثر سلاسة وسهولة بتحديد خطوط حمراء تستمر في التراجع غرباً كلما باع السكان الأصليون "برضاهم" المزيد من الأرض، أما مصيرهم بعد التنازل عن الأرض التي يعيشون عليها فقد صُور نظرياً بأنهم سيستفيدون من مزايا التمدن وسيكون التوسع نعمة عليهم كما هو نعمة على الأمريكيين (وبهذا أصبح نشر الحضارة هو "المبرر الأمثل" للتمدد الاستعماري كما كان في بلادنا بعد ذلك)، أما عملياً فلم يؤد هذا التبرير إلى خدمة الأهداف المتعلقة بالضمير لأن السكان الأصليين كانوا يتراجعون ويتضاءلون نحو الاختفاء النهائي(21).

هذا بالإضافة إلى أن "التحضر" الذي تخيلته السياسة الأمريكية ليس عملية آلية سريعة، ويلزمها كثيراً من الوقت في الوقت الذي لم يكن المستوطنون فيه مهتمين بجلب الحضارة للهندي وكانوا يستهدفون أرضه وموارده فقط، ولم يصبروا على تمهل الحكومة في عملية التوسع ودخلوا في مواجهة مع السكان الأصليين لاستعجال الاستيلاء على أراضيهم، ولما وجدت الحكومة نفسها مخيرة بين مواجهة مواطنيها الذين يلزمهم لجم عنيف، أو موافقتهم في مواجهة الهنود الغاضبين من الاستفزازات وعدم قبلولهم التنازل عن الأراضي التي يعيشون عليها، خلافاً لافتراض رغبتهم المستمرة في البيع أمام زحف الاستيطان "السلمي"، اختارت الوقوف إلى جانب مواطنيها وقتال الهنود(22).

وبهذا نرى أن البرنامج الاستيطاني لم يكن سيحقق للسكان الأصليين أية مزية سواء على المستوى النظري "المثالي" حيث كان مصيرهم الفناء كما توقع جيفرسون منذ البداية، أو على المستوى العملي حيث فضلت الحكومة الوقوف إلى جانب المستوطنين في مواجهتهم مع الهنود للاستيلاء العاجل على أراضيهم

(21) نفس المرجع، ص171- 172.
(22) نفس المرجع، ص172- 173.

(كما تساير الحكومة الصهيونية برامج وأفعال المستوطنين في الأراضي الفلسطينية رغم تصويرهم أحياناً بصفة الخارجين عن القانون)، وهو ما أكد أن التوسع هو الهدف الأعلى الذي انحازت إليه الحكومة الأمريكية لما وجدت نفسها على مفترق الطرق واضطرت للتخلي عن المظاهر والأقنعة، ولم يكن برنامج التمدين سوى واجهة تبريرية وتجميلية للاكتساح والإبادة.

ويرى هورسمان أيضاً إن تبرير التوسع بنشر الحضارة كما حدث في الفترة بين 1783-1812 سبق استعمال نفس هذه الحجة في عمليات التوسع التالية والتي ادعي فيها العمل على تمدين المكسيكيين وسكان جزر هاواي والفلبينيين بل وحتى الكنديين، وفي ذلك لم يكن الأمريكيون فرادى لأن الغربيين عموماً قاموا بطرح نفس هذه الحجة في عملية توسعهم ضد الأمم المختلفة وهي عملية تضمنت معضلة التوفيق بين المصالح ومستلزمات الشرف، ولم تتمكن من تحقيق "التوسع السلمي"، وهو يعتقد أن التوفيق بين الشعبين كان مستحيلاً ولم يكن من الممكن تحقيق السلام إلا بتوقف نهائي لعملية التوسع وترك الأرض كلها للسكان الأصليين، إلا أنه يقر بأنه كان بالإمكان معالجة المسألة بطرق أكثر واقعية ثم يعود لينكر قدرتها على حل المشكلة[23]، ولكن يجب إضافة أن هذا الاستعصاء نجم عن جشع الجانب الأمريكي القوي الذي كان يدير الصراع حسبما شاء ولم يكن يقبل بأقل من الاستيلاء على كل ما في يد الهندي من موارد، حتى بعد قبول السكان الأصليين بتبني "التحضر" والتخلي عن طريقتهم في الحياة والاندماج في المجتمع الأمريكي، ولم تعد لهم حاجة لمساحات واسعة من الأرض بل أصبحت الكرة في ملعب الرجل الأبيض ليقودهم في طريقه ويزودهم بالأدوات اللازمة لممارسة الحياة الجديدة ويعلمهم طريقة استخدامها، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل حشرهم في الأراضي القاحلة التي لا يرغب فيها أحد ولا تصلح لممارسة الزراعة التي هي حرفة "المتحضرين" وأهمل تزويدهم بأدواتها وتعليمهم طرق ممارستها وتبخرت كل دعاوى التمدين بعدما نال وطره منها بإجبار الهنود على ترك أراضيهم تحت شعاراتها وإغراءاتها، ثم رماهم إلى اليوم في بحور الفقر والبؤس والحرمان والأمراض الاجتماعية المختلفة، بل إنه لما

(23) نفس المرجع، ص173.

اكتشف بعض الثروات الكامنة في هذه الأراضي القاحلة جدد جشعه فيها وزاحم أهلها مرة أخرى عليها ليستولي على مواردها الخبيئة، وفي الوقت الذي كان ومازال يرحب بملايين المهاجرين من أصقاع الدنيا، يضيق بقليل من السكان الأصليين الذين مازالوا يؤلفون الأقلية الأبرز في قاع المجتمع ولا يقوم بأي جهد لاستيعابهم على شاكلة بقية المهاجرين، مما يؤكد أن المشكلة لم تكن في قلة قدرات المجتمع الأمريكي على استيعاب هذه الثلة بل في رفضه القيام بذلك، تماماً كما يقوم الكيان الصهيوني اليوم بتوسل الهجرة من أي يهودي أو شبه يهودي أو حتى أي غريب عن أرضنا ومن أي مستوى اجتماعي مهما كان منخفضاً ليستوعبه في مجتمع الصهاينة في الوقت الذي يرفض فيه رفضاً قاطعاً عودة أصحاب الأرض الشرعيين إليها رغم نسبة التعليم العالية بينهم مما يدحض فكرة كونه جالباً للحضارة إلى بلادنا وهو أيضاً ما يوضح بجلاء فكرة الرفض والإقصاء وليس العجز عن الاستيعاب.

ولهذا ليس من التجاوز القول إن الصراع بين الكيانات الاستيطانية الإحلالية والشعوب الأصلية هو صراع على الوجود وليس صراعاً على الحدود، وهذا أمر يقرره دائماً الجانب المعتدي الأقوى الذي يرفض التعايش مع المظلوم الأضعف ويصر على سلبه كل ما يملكه من أراض وموارد للاستئثار بها كلها في الوقت الذي يحاول الضعيف التعايش مع ظالمه إلا أنه لا يملك من القوة ما يفرض بها هذا الحل على الواقع، ومع ذلك نجد من يرفضون "تطرف" المظلوم عندما يشير إلى هذه الحقيقة التي فرضها الظالم ويصمون هذا المظلوم الثائر على هذه المعادلة المختلة بكونه رافضاً التعايش والسلام.

امتداد آثار حرب 1812 إلى المشرق العربي العثماني:

لقد كان لبريطانيا اهتمام باليمن منذ بداية القرن السابع عشر، وكان هذا الاهتمام يزيد ويقل حسب تطورات المنافسات السياسية مع الدول الأوروبية، وقد أدى نشوب الحرب سنة 1812 إلى عودة الاهتمام البريطاني بعدن وذلك لأن التجار الأمريكيين تمكنوا من احتكار معظم تجارة البن في المخا وصاروا يهددون مصالح بريطانيا التجارية في اليمن تهديداً مباشراً، ومع أن نهاية الحرب أدت إلى تضاؤل اهتمام الإنجليز بذلك الميناء بعد زوال الخطر الأمريكي، فإن هذا

الاهتمام عاد للظهور مرة أخرى وانتهى بالاحتلال البريطاني سنة 1839 لتصبح عدن محطة تموين للسفن وقاعدة عسكرية لمواجهة المنافسين مثل محمد علي باشا وروسيا وفرنسا[24].

(24) ناجي، 1976، ص11-12.

الفصل السادس عشر

حروب أشباه الآلهة الأمريكيين

(3)

أندرو جاكسون وسياسة التهجير
قبائل الجنوب الأمريكي في مسار الأحداث:

عند الحديث التاريخي عن قبائل الجنوب الأمريكي يغلب ذكر القبائل الخمس الكبرى التي أصبحت معروفة عند الأمريكيين بشكل رسمي وغير رسمي بالقبائل الخمس المتحضرة The Five Civilized Tribes[1]، وذلك بسبب الخطوات الواسعة التي قامت بها في سبيل تبني حضارة الرجل الأبيض، وهذه القبائل هي الشيروكي Cherokee فيما أصبح ولايات ألاباما وجورجيا وكارولينا الشمالية وتنيسي، والكريك Creek في ألاباما وجورجيا، والشوكتاو Choctaw والشيكاساو Chickasaw في المسيسبي، والسيمينول Seminole في فلوريدا[2]، وقد تركز الحديث منذ بداية الباب الثاني على مقاومة السكان الأصليين في شمال ووسط الولايات المتحدة، ولكن هذا لم يكن يعني عزلة هنود الولايات الجنوبية عن الأحداث، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم منذ بداية الاستيطان كما رأينا ومنذ أحداث الثورة الأمريكية أيضاً، وإذا كان ثقل الأحداث قد استوطن في الشمال بسبب الكثافة السكانية الأمريكية التي احتاجت الأرض أكثر من سكان الجنوب البيض[3] ومن ثم تركزت الصراعات

---

(1) New Standard Encyclopedia، 1999، ج7، ص157.

(2) وولف، 2004، ص402.

(3) Banner، 2005، ص194.

شمالاً في البداية، فإنه سرعان ما انتقل هذا الثقل إلى الجنوب بعد انتهاء زمن سياسة التمدين وانتقال الحكومة الأمريكية والمجتمع الأمريكي إلى تبني سياسة التهجير التي شهدت أفظع فصولها فيمن قطع شوطاً كبيراً للاندماج بمجتمع الرجل الأبيض الذي لم يتقبل أحداً من خارجه.



المواطن الأصلية للقبائل الخمس المتمدنة في جنوب أمريكا الشمالية[4]

(4) http://dougdawg.blogspot.com/2010/10/maps-and-history-of-oklahoma-county.html

بدأت الولايات المتحدة بعد انتصار الثورة (1783) علاقاتها مع القبائل الجنوبية بمعاهدات هوبويل Hopewell (1785-1786) التي تنازل فيها السكان الأصليون عن الأراضي التي احتلها المستوطنون مقابل وعود بلجم التعديات الاستيطانية المستقبلية على بلادهم، كما وعدت الحكومة الأمريكية قبيلة الشيروكي بقبول مندوبها في الكونجرس وهو ما كان يعني تكوين ولاية مستقلة، وقد طالبت قبيلة كريك بنفس المزية لتعطي ولاءها للولايات المتحدة[5]، ولكن من حصلوا على هذه الوعود لم يحصلوا على تطبيقها، فلا الولاية قامت ولا حتى تم لجم الاستيطان داخل الأراضي الهندية، وكل ما قام به الكونجرس في هذا المجال هو إصدار بيان تحذير من التعدي على أرض الهنود ولكن دون أي إجراء عملي[6]، وقد حذر وزير الحرب في تقرير لجورج واشنطن سنة 1789 من خرق المعاهدة مع الهنود مطالباً الكونجرس بالنظر في القضية، ولكن ما حدث هو إجبار الهنود على التوقيع على معاهدة جديدة (1791) للتنازل عما استولى عليه المستوطنون مقابل وعد جديد بالحماية من تعدياتهم المستقبلية مع تزويد الهنود "مجاناً" بالأدوات الزراعية اللازمة لسيرهم في طريق الاستقرار والتحضر، وهي وعود سيجري تكرارها باستمرار في المعاهدات التالية مع القبائل الهندية، ولكن لن يُلتزم بها، وجرت محاولات لرشوة القبائل بالمساعدات السنوية (1500 دولار سنوياً بالإضافة إلى الماشية والأدوات الزراعية) ولشراء الزعماء بشكل خاص حتى أن أحدهم وصلت رشوته السرية إلى مستوى رشوة القبيلة كلها تقريباً (1200 دولار سنوياً مع رتبة عسكرية)[7].

كانت قبيلة الشيروكي قد بدأت بالفعل السير في تبني حضارة الرجل الأبيض منذ منتصف ثمانينيات القرن (1785) وتمكنت من تحقيق خطوات واسعة[8]، ولكن الصراع استمر بالرغم من ذلك، ولم يتم الالتزام بالمعاهدة الجديدة، واستمرت تعديات المستوطنين وهجوم رجال الميليشيا على البلدات

(5) Debo، 1983، ص88-89.

(6) نفس المرجع، ص88.

(7) نفس المرجع، ص93-96.

(8) نفس المرجع، ص88.

الهندية، التي كان يقطنها أنصار "السلام" غالباً، لتدميرها وقتل سكانها، مما استوجب الرد من الهنود الذين لم يكونوا بمعزل عن التطورات في الشمال إذ اتصلوا بالإنجليز كما اتصلوا بالإسبان في الجنوب للحصول على المساعدة ضد الأمريكيين، وشاركوا هنود الشمال في المعارك التي وقعت في صراعهم لأجل الاحتفاظ بوادي الأوهايو (1791-1794)، ثم اشتركوا في مشروع الزعيم تكومسيه فقاتل بعضهم إلى جانبه[9]، وشجعت بعضهم الآخر دعوته على المقاومة في أرضهم مما جعل ممثل الحكومة الأمريكية يهدد من لا يقف إلى جانبها ضد الثوار بالحرب[10] (منطق من ليس معنا فهو ضدنا الذي استعمله الأمريكيون في بلادنا زمن الحرب على "الإرهاب" بعد سبتمبر/ أيلول 2001) مما أدى إلى حشد من الجيش والمقاتلين الأمريكيين والهنود ضد الثوار، وتم تدمير وحرق كثير من المدن التي تحتوي "بيوتاً ذات تنظيم رفيع ومملوءة بالمواد الثمينة لسكنى الهمج" وفقاً لشاهد عيان (مما يؤكد ثانوية هدف التمدين والتطوير في العدوان الأمريكي)، وفي المعركة الفاصلة (مارس/ آذار 1814) عند هورسشو بند Horseshoe Bend (منحنى الحدوة) في ألاباما قاتل الثوار باستماتة حتى الموت[11]، وكان الهنود حلفاء الأمريكيين هم البادئين بالهجوم على قرية إخوتهم في تلك المعركة الفاصلة (كما وقف العرب من عملاء الاستعمار معه ضد إخوتهم منذ ثورة العرب 1916 وثورة 1936 إلى حروب تدمير العراق)، ولما وجد الأمريكيون عدم كفاية عملائهم تدخلوا في المعركة التي قُتل فيها مئات من الثوار، وأُسر مئات من النساء والأطفال بأيدي المرتزقة الهنود[12]، وكما أدت معركة ثيمس ومقتل الزعيم تكومسيه (1813) إلى تحطم آمال الهنود شمالاً، كذلك فعلت معركة هورسشو بند في الجنوب[13]، والتي كانت أيضاً من توابع ثورة تكومسيه وحرب 1812 التي أدت في النهاية إلى فتح الغرب

---

(9) نفس المرجع، ص93.

(10) نفس المرجع، ص110.

(11) نفس المرجع، ص111-112.

(12) Brandon، 1985، ص227-228.

(13) Prucha، 1995، ص79.

للاستيطان الأمريكي[14] وأُطلق عليها حرب الاستقلال الثانية[15].

وبعد الانتصار على الهنود الثوار جمع القائد أندرو جاكسون زعماء قبيلة الكريك التي انطلقت الثورة منها وفرض عليهم شروط الاستسلام والإقرار بذنبهم في هذه الحرب رغم أن كل المجتمعين كانوا ممن حاربوا إلى جانبه ولم يخرجوا على السلطة الأمريكية، ومع ذلك تنازلوا على ثلثي أراضيهم التي ربحت الحكومة الأمريكية من بيعها آنذاك أكثر من 11 مليون دولار،(وسنرى في تاريخ منطقتنا بعد ذلك كيف أوقع المحتلون الغربيون والصهاينة العقوبات الجماعية على أبناء بلادنا كذلك ولم يفرقوا بين ثائر وحليف لأن هدفهم كان هو الهيمنة والسلب وليس تطبيق أي قانون)، وبعد قرن ونصف (1962) "ربحت" القبيلة قضية أمام لجنة المطالب الهندية التي حكمت بدفع أقل من أربعة ملايين دولار لنسل القبيلة المتضررين من عملية الاستيلاء، وهكذا نرى هوة العدالة الأمريكية كيف تبتلع الحقوق بسهولة وتربح منها الكثير ثم تدفع فتاتاً منه للضحايا بعد تعاقب الأيام والسنين إرضاء لضمير الديمقراطية المعذب (!)

المهم أن جاكسون أكمل مسيرة الاستيلاء على أرض بقية القبائل الهندية الجنوبية (الشيروكي والشوكتاو والشيكاساو) رغم انتفاء حجة الثورة، وهنا قام القائد الأمريكي باستعمال أدوات التعاهد المعروفة: الرشوة والضغط والتهديد، وساعده في ذلك إعجاب ضحاياه بقيادته العسكرية ضد الإنجليز مما مكنه من سلبهم كما سلب أقرانهم من قبل[16] (وستشهد بلادنا أيضاً أن العقوبات التي كانت تفرض عليها تستهدف الهيمنة والاستغلال بدليل تطبيقها على المذنب والبريء كما فعل جاكسون، وسيودي بنا الانبهار بقتال الحلفاء، الذين يستعمرون بلادنا ويقف زعماؤنا معهم ضد النازية، كما أودى بزعماء الهنود الذين انبهروا بعدوّهم من قبل).

---

(14) النيرب، 1997، ص154.

(15) Onuf، 2000، ص114.

(16) Debo، 1983، ص112.

ظهور شخصية أندرو جاكسون على الساحة الأمريكية:

كان الجنرال أندرو جاكسون الذي انتصر على هنود قبيلة الكريك في معركة منحنى الحدوة آنفة الذكر وأطلق عليه الهنود اسم السكين الحادة قد بدأ حياته السياسية عضواً في الكونجرس (1796) ولفت الأنظار إليه بلغته المتشددة تجاه السكان الأصليين رغم تقدمهم الملحوظ، واتهاماته الجارحة التي طالت وزير الحرب والرئيس واشنطن نفسه[17]، ومهد له انتصاره على الهنود قيادة الدفاع عن مدينة نيو أورليانز الجنوبية الهامة في الحرب ضد بريطانيا (1815) مما جعله بطلاً قومياً[18]، وخاض بعد ذلك حرباً ضد هنود السيمينول في فلوريدا الإسبانية (حرب السيمينول الأولى 1817-1818) بدأت بغارات أمريكية لاستعادة العبيد الهاربين والملتجئين إلى القبيلة، حيث عاشوا في وضع تبعية أفضل من عبودية الرجل الأبيض[19]، وأدت الغارات الأمريكية إلى غارات هندية انتقامية فأمر الرئيس جيمس مونرو الجنرال جاكسون بإنهاء الصراع إلا أنه تجاوز الصلاحيات الممنوحة له وقام بغزو شبه الجزيرة لإخضاع الهنود الذين تجمعوا هناك بعد هزيمة منحنى الحدوة[20]، حيث أضعف الوجود الإسباني ودفع إسبانيا للتخلي عنها للولايات المتحدة بصفقة بيع الأمر الذي أزاح المنافسة الأوروبية وجعل المنطقة كلها تحت السيطرة الأمريكية ومن ثم أفقد القبائل الهندية أهميتها للأمريكيين بصفتها فواصل بين الولايات المتحدة والأوروبيين، أو مصدر تحالف وقوة في القتال ضدهم، وهو ما سيشجع على التخلص منها للاستيلاء على أراضيها ومواردها وسيجعل "روح الحدود" الداعية لاستبعاد الهنود أكثر شعبية وانتشاراً، وهذا هو مصير العملاء دائماً بعد انتهاء صلاحيتهم، ليتسلم أندرو جاكسون منصب الرئاسة في سنة 1829 بصفته ممثلاً لتلك الروح ويقوم بتطبيق فكرة تهجير السكان الأصليين من الشرق إلى الغرب[21].

---

(17) نفس المرجع، ص94.

(18) Brandon، 1985، ص228.

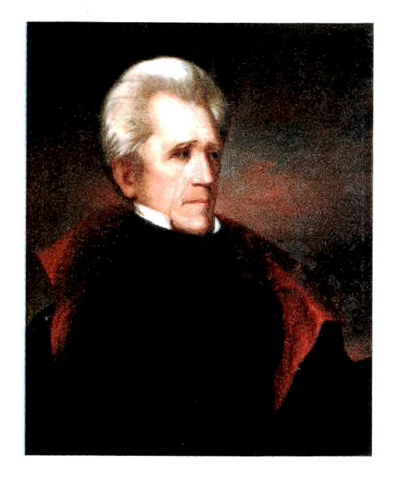
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج9، صJ-6 وج 15، صS-279.

(19) Prucha، 1995، ص230.

(20) Brandon، 1985، ص228.

- New Standard Encyclopedia، 1999، ج9، ص J-6.

(21) Brandon، 1985، ص228-229.



أندرو جاكسون (1767–1845) الرئيس الأمريكي السابع (1829–1837) الذي طبق سياسة تهجير الهنود ونال منزلة رفيعة في التاريخ الأمريكي بصفته آخر جيل الثورة ومطبقاً للديمقراطية ونصيراً للإنسان البسيط في مواجهة الأثرياء، وكان الرئيس جون كوينسي آدامز يصفه بالهمجية[22]

تطور فكرة التهجير:

كان الرئيس جيفرسون هو المهندس الأول لفكرة تهجير السكان الأصليين من شرق نهر المسيسبي بعد قيام الرئيس واشنطن بالتلميح إليها، وكان جيفرسون يعتقد أن السكان الأصليين أمامهم خياران هما الاندماج في المجتمع الأمريكي بصفة مواطنين أو الانفصال عن هذا المجتمع والحياة بعيداً عنه في الغرب[23]، وفي ظل عدم إعطاء الفرصة الكافية زمنياً لاستيعاب الهنود ضمن المجتمع الأمريكي، وعدم القيام بالجهود اللازمة من وجهة نظر عملية التمدين لإحداثها، بل التأثير السريع سلباً وليس إيجاباً على وجود الهنود وأخلاقهم باحتكاكهم بالرجل الأبيض مما ولّد وشجع رفضهم الاندماج في هذا المجتمع، لم يكن من الغريب أن يتبنى جيفرسون نفسه فكرة إزاحة الهنود واختفائهم من الوجود ليصفو الجو للاستيطان الأبيض كما سبق ذكره، ولم يكن من الغريب بعد ذلك على خلفائه أن يتخذوا من الأثر السلبي الذي أحدثه الاحتكاك بالبيض في المجتمعات الهندية الأصلية حجة لإحداث مزيد من الآثار السلبية بتهجير هذه المجتمعات بعيداً عن أوطانها حيث ازداد بؤسها، وقد وضعت فكرة التهجير على بساط البحث الجاد والتطبيق الفعلي بعد حرب 1812 بين بريطانيا وأمريكا حين استنتج

(22) White، 1979، ص224.
(23) Reynolds، 2009، ص83.

الأمريكيون "فشل" حل التمدين الذي تبنوه بعد انتصار ثورتهم وفشل حلول فرض الأوضاع بالقوة التي تبنوها لبرهة (1783-1786)، وقد جاء هذا الاستنتاج بفشل التمدين مبكراً جداً في الوقت الذي بدأت ثمار هذا الحل بالظهور بوضوح في مجتمعات القبائل الخمس التي اعترف الأمريكيون أنفسهم بتطورها فوصفوها بالمتمدنة، ولكن الطمع بأراضيها غطى كل رغبات نشر الحضارة المزعومة وكان ذلك استمراراً لمصير الهنود المتحضرين والمتنصرين والمتعاونين مع الأمريكيين كما سبقت الإشارة والتي تؤكد أنه لم يكن هناك صوت يعلو على صوت الرغبة في الاستيلاء على أرضهم.

وفي سنة 1825 قدم الرئيس جيمس مونرو اقتراحاً للكونجرس بنقل جميع السكان الأصليين المتواجدين في شرق نهر المسيسبي إلى غربه[24]، وفي غضون عشر سنوات بين 1828-1838 تم تهجير 80 ألفاً من السكان الأصليين من الشرق إلى الغرب، وكانت رئاسة الرئيس الأمريكي السابع أندرو جاكسون (1829-1837) في صلب هذه المدة، ويرى أحد المؤرخين أن فكرة التهجير لم تكن جديدة آنذاك لاسيما إذا نظر إليها من زاوية طرق الحصول على أراضي الهنود وتبعات تنازلهم عن هذه الأراضي، وأنها كانت استمراراً لسياسة الحصول على الأرض منذ مائتي عام[25]، وفيما يخص هنود الجنوب الأمريكي فقد بدأت هجرتهم إلى الغرب منذ نهايات الثورة الأمريكية (1782)، وقال أحد زعمائهم في تلك الفترة معلقاً على استمرار التوسع الأمريكي ودفع السكان الأصليين إلى الخلف حتى لم يتبق لهم مكان يذهبون إليه: "لسنا طيوراً ولا أسماكاً، ولا نستطيع الطير في الهواء ولا الحياة تحت الماء"[26]، إلا أن الجديد في الأمر كان السرعة التي تمت بها عملية التهجير هذه المرة وساعد عليها وجود مخزون جديد من الأرض في مقاطعة لويزيانا التي تم شراؤها سنة 1803 وأصبح من الجلي أنها ستستخدم في مبادلة الأراضي الهندية الشرقية بإقرار رسمي من الكونجرس الذي أصدر قانونين بهذا الشأن في سنتي 1804 و1817، وفي الفترة

(24) Marks، 1998، ص63.

(25) Banner، 2005، ص191-192.

(26) Marks، 1998، ص50.

الواقعة بين 1817-1821 وقعت الحكومة الأمريكية كثيراً من صفقات مبادلة الأراضي الشرقية بأراض غربية مع القبائل الهندية، وذلك بعدما كان الآلاف من الهنود قد بادروا بمغادرة أراضيهم للغرب دون التخلي أصلاً عن حقوقهم فيها[27].

دور ولاية جورجيا في تبني حل الترحيل:

وكان ما حفز الحكومة الأمريكية على تبني حل التهجير بصورة مكثفة هو تزايد عدد السكان في ولاية جورجيا الجنوبية والتي تخلت عن بعض أراضيها للحكومة الاتحادية التي وعدتها بالحصول على أراضي القبائل الهندية والتي كانت تؤلف نسبة كبرى من أراضي الولاية لاسيما بعد تنازلها عما أصبح فيما بعد ولايتي ألاباما ومسيسبي، وأصبح سكان جورجيا يرون أنفسهم في وضع أقل امتيازاً من الولايات التي قل فيها عدد السكان الأصليين بصورة ملحوظة[28]، مما يؤكد أن صاحب الأرض الأصلي كان خارج معادلة التمدين والاستيعاب، فكيف يمكن للجورجي أن يعد نفسه مظلوماً لوجود الهندي في ولايته إذا كان هذا الهندي من مسئولية الحكومة الأمريكية وأخاه في المواطنة؟ ولماذا لم يشكُ من البيض المجاورين له وعدّ نفسه جزءاً من جبهة واحدة معهم في مواجهة جبهة أخرى لم تعتدِ عليه إلا إذا جعلنا مجرد وجودها على أرضها في طريق تمدده وتوسعه "عدواناً" على "حقوقه"؟

التطور الذي أحرزه السكان الأصليون زمن الترحيل يكذب ادعاءات التمدين البيضاء:

وتجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات لترحيل السكان الأصليين من الجنوب الأمريكي، كانت هنالك دلائل قوية على قيام هؤلاء الهنود بجهود كبرى من أجل تبني مدنية الرجل الأبيض وإنجازهم خطوات واسعة في هذا السبيل، وقد أدت العلاقة مع الأوروبيين إلى تبني الهنود سلسلة

---

(27) Banner، 2005، ص194.

(28) نفس المرجع، ص195.

من الأساليب الأوروبية، كحراثة الحقول بالثيران وزراعة المحاصيل وتربية المواشي والدواجن واقتناء الأسلحة وملكية المزارع الواسعة التي يعمل فيها عبيد أفارقة تم شراؤهم من الأوروبيين والسكنى في بيوت خشبية وارتداء الأنسجة المنزلية وتعلم اللغة الإنجليزية واستيعاب القوانين الأمريكية، هذا بالإضافة إلى مصاهرة الأوروبيين واعتناق المسيحية[29]، وكانت أبرز القبائل في هذا المجال قبيلة الشيروكي التي كتب وكيل الحكومة الأمريكية المعين للقبائل الجنوبية في سنة 1796 تقريراً تضمن مشاهدته مزارع مسيجة، وبساتين، وحقولاً محروثة، وقطعان كبيرة من الماشية، ومساكن مريحة، كما تكلم عن رؤية محاصيل من القطن التي نصح الهنود بإنتاج مزيد منها، وقام بجمع النساء وحثهن على تعلم عملية الغزل والنسيج فقبلن ووعدن باتباع النصيحة وطلبن أدوات للعمل، ورغم حماس الهنود لممارسة التجارة فإنهم يفتقرون إلى سوق لتصريف منتجاتهم الزراعية (رغم اتساع مساحة الولايات المتحدة)، ومازالوا لم يتلقوا المحاريث التي وعدهم الأمريكيون بها[30]، وهذا يدل على عدم جدية جهود إدماج السكان الأصليين في الحياة الأمريكية مع كونها السياسة الرسمية المعلنة للدولة آنذاك.

وأظهرت عملية جرد في سنة 1810 تقدماً سريعاً بمقاييس الرجل الأبيض، فهناك عشرات الآلاف من رءوس الماشية وأكثر من ألفين من آلات الغزل والنسيج بالإضافة إلى مئات المحاريث، ومطاحن الدقيق، والمناشر والعربات، إلا أن شعور السكان الأصليين بالضغوط من حولهم وعدم الترحيب بهم داخل المجتمع الأمريكي أوجد عندهم رد فعل نحو العودة إلى حياتهم الأولى وذلك في الوقت الذي كان فيه تكومسيه وأخوه يبشران بهذه العودة في الشمال[31]، وكان ما قدمه الأمريكيون "للترحيب" بتقدم الهنود هو المناداة بترحيلهم غرباً مع بعض الشكليات التجميلية التي تؤكد أن هذا الترحيل هو لمصلحة القبائل الهندية

(29) وولف، 2004، ص403.
- Capps، 1981، ص164.
(30) Debo، 1983، ص94.
(31) Marks، 1998، ص53.

وأنها لن تُجبَر على التخلي عن أراضيها، وسيكون ذلك برضاها وموافقتها[32]، وهذا ما لم يراع كما سنرى.

وكان العمل الأهم في تقدم قبيلة الشيروكي هو اختراع الحروف المكتوبة للغة الشفوية للقبيلة على يد العبقري سيكويا الذي أنجز عمله في سنة 1821، وهو ما سهل عمل المدارس التي طلبتها القبيلة وبدأت عملها منذ بداية القرن التاسع عشر، كما قامت القبيلة بكتابة قانون وتكوين حكومة مسئولة بدلاً من الزعامات العشوائية وأنتخبت في سنة 1828 مؤتمراً دستورياً أنتج حكومة لها زعيم وبرلمان مزدوج ونظام قضائي، وبنت عاصمة بمبان عامة، وأصدرت صحيفة باللغة القومية والإنجليزية وشاركت في الانتخابات، وكانت زعامتها نخبة من الذين تجري فيهم الدماء البيضاء ومنهم الزعيم المنتخب جون روس الذي لا ينتمي للقبيلة إلا بمقدار ثُمن نسبه وظل محتفظاً بثقة القبيلة إلى وفاته سنة 1866، وكانت القبيلة تعتقد في هذه المرحلة أنها بمنأى عن التنازلات التي كان الزعماء المرتشون يقدمونها للأمريكيين[33]، (وذلك مثلما كان انتخاب أي زعامة في بلادنا انتخاباً صحيحاً يعني تصديها للمخططات الاستعمارية).



العبقري سيكويا Sequoyah الذي
اخترع الأحرف المقطعية التي أمكن بها
كتابة لغة قبيلة شيروكي وصدرت بهذه اللغة
صحيفة القبيلة وقوانينها

(32) Banner، 2005، ص195.
(33) Debo، 1983، ص114.

التمهيد للترحيل:

وسارت بقية القبائل المتمدنة في نفس الخط الحضاري الذي انتهجه الشيروكي، فتقبلت التعليم ومارست الزراعة، ولكن ذلك لم يكن حامياً إياها من جشع البيض وطمعهم في أراضيها، وذلك لأن التحضر لم يكن هو الهدف من التوسع الأمريكي بل الاستيلاء على أراضي الآخرين، ولم يكن الأمر كما ظن الشيروكي وغيرهم من أن تبني طريقة الرجل الأبيض في الحياة ستحميهم من الطوفان، فابتداء من عشرينيات القرن التاسع عشر تبنت الحكومة الأمريكية سياسة الترحيل التي أصبحت أشد اندفاعاً في نهاية العقد[34]، واستخدمت في ذلك وسائلها التقليدية كالرشوة لإغراء الهنود ببيع أراضيهم، والضغط السياسي على الزعماء، ومحاولة شرائهم بالهدايا والهبات والمرتبات السنوية الدائمة لدفعهم للموافقة على خطط الترحيل، أو اصطناع زعماء مزيفين بدلاً منهم، وغرس العملاء بين الهنود لنشر فكرة الرحيل، أو سن قوانين جديدة لإزعاج الهنود المقيمين داخل حدود الولايات ودفعهم للهجرة، واللجوء إلى الاحتيال للحصول على سندات التمليك، وقامت الحكومة بإجراءات قسرية رغم الادعاءات عن حرية الهنود في الانتقال إلى الغرب بعد مبادلة أراضيهم في الشرق، ومن ذلك الدعم الضمني لعمليات اقتحام أراضيهم والاستيلاء على ممتلكاتهم والقضاء على مصادر رزقهم بإفناء حيوانات صيدهم أو تعريض الصيادين للاعتداءات أثناء قيامهم بالصيد داخل حدود الولاية، ولم تكن الاعتراضات على الوسائل غير الشرعية لتجدي شيئاً، فما تم بوسيلة غير شرعية يُعاد إنتاجه بالوسائل "الشرعية"، وما لا تنفع الرشوة في إتمامه وتؤدي الانتصارات القانونية المزيفة في إلغائه من صفقات البيع الفاسدة، تنفع الضغوط في تشريعه بالوسائل "القانونية"[35].

---

(34) Banner، 2005، ص198.

(35) نفس المرجع، ص198.

- وولف، 2004، ص403-404.

الشروط المستحيلة للتقدم:

ولكن هذا الجشع والطمع لم يعدم التبرير والتسويغ الذي اتخذ قناعاً "علمياً" لإثبات عدم تحضر الهنود، وبقائهم همجاً وعدم ظهور أية علامة تؤهلهم لدخول جنة الإنسان الغربي، وكل تلك الإصلاحات لم تمنع من دحض فكرة تقدم الهنود "علمياً" ووصفها بالوهم ونسبة ما حدث من تطورات إلى البيض الذين يعيشون بين الهنود أو أصحاب الدماء المختلطة، كما سبق أن تعامى كولمبس ورجاله عن أي شيء ذي أهمية في السواحل التي رسى عليها ووصف كل الحضور السكاني غير المحدود بأنه عديم الأهمية، وهذا طبعاً من وجهة نظره الباحثة عن مصادر الثروة كما أن إنجازات الهنود الزراعية غير ذات أهمية من وجهة نظر البيض الذين يهمهم الانتقاص من الهنود للاستيلاء على أراضيهم، وكما تعامى الصهاينة بعد ذلك عن اهتمام الفلسطينيين بأرضهم ووصفوهم بالكسل والتخلف ووصفوها بالبور والخلاء، تعامى البيض من قبلهم عن اهتمام الهنود بالزراعة ووصفوهم بالكسل والتخلف، ومن ثم تبنت الحكومة الأمريكية هذه الأدلة "العلمية"[36]-التي ثبت زيفها فيما بعد- لتدمير هذه المجتمعات عندما طمع المستوطنون بأراضيها واكتشف الذهب فيها، ومنح الكونجرس الرئيس أندرو جاكسون سلطة للتفاوض مع القبائل للوصول إلى معاهدات تستبدل بأراضيهم أراض أخرى في الغرب البعيد ليتم انتقال جميع الهنود إليها كما سيأتي، وعلى كل حال لا نستطيع جدال الغربيين في مواصفات حضاراتهم المطلوبة للانضمام إلى نخبتها، وكل ما يمكن قوله إنه إذا كان كل ما فعله الهنود من تطور سريع حتى تلك اللحظة غير كاف في نظر البيض، فإن ذلك لا يمنح تبريراً لتدمير القبائل الهندية كما ظن أعداؤها، بل إنه يمكننا من الحكم بيقين على أن هذه الشروط مستحيلة التنفيذ، وهي خارج إطار القدرات البشرية، وغير تاريخية، ولم تكن سوى شروط تعجيزية استهدفت تبرير العدوان لاسيما عندما نتذكر ما كان واضحاً في تلك الأيام عن كون التحضر عملية تدريجية طويلة كما ذكر ذلك الكاتب الفرنسي أليكسيس دي توكفيل في تحليله لظاهرة تبني الهنود حضارة الأمريكيين كما سيأتي تفصيله.

---

(36) Svaldi، 1989، ص73-75.

هستيريا الاستيلاء على أرض الهنود بلا ضوابط:

وفي هذه الأجواء تبنت الولايات المستفيدة من الاستيلاء على أراضي الهنود إجراءات عديدة انتهكت فيها التزامات الحكومة الاتحادية تجاه السكان الأصليين وذلك حين قررت وضع الأراضي الهندية تحت سلطات الولايات وعدّت الحكومات القبلية الهندية خروجاً عن القانون، وهذا خروج عن مضمون المعاهدات التي عقدت سابقاً، وبسيادة قوانين الولايات أصبح بإمكان المستوطنين والمتطفلين وتجار الخمور التعدي بغير حق على الأراضي الهندية وإن كان ذلك ضد القانون الاتحادي، مما سهل عملية الاستيلاء على هذه الأراضي باستعمال الخمور التي كان الثمل بها يؤدي إما إلى الإزاحة أو الموت، وقد سهل كل هذا الخداع إصدار قانون يمنع قبول شهادة الهندي ضد الرجل الأبيض مهما كان حجم الجريمة وهو ما جعل أي ادعاء أمريكي مقبولاً لغياب شهادة الطرف الآخر(37).

عجز السلطة أم أزمة الحضارة؟:

يلاحظ متتبع التاريخ الأمريكي سمة متكررة في حوادث التخوم وهي عجز السلطة عن الالتزام بتعهداتها للسكان الأصليين وعدم قدرتها على كبح جماح مواطنيها عن التعدي على أراضي وحقوق الهنود(38)، وقد اتضحت هذه السمة بشكل بيّن في الفترة التي قادت إلى ترحيلهم بدلاً من الالتزام بالوعود التي بُذلت لهم وفقاً للمعاهدات الموقعة، ويرى بعض المؤرخين أن سبب هذه الظاهرة لم يكن تقصيراً من جانب الحكومة بقدر ما هو عجزها عن وضع القانون موضع التنفيذ(39)، وذلك بسبب الرأي العام الذي ساد في منطقة الحدود وكانت أية محاولة لإنصاف الهنود فيها تؤدي إلى إثارة السكان في مجتمع غير مستعد لإدانة فرد يرتكب جريمة ضد الهنود(40)، ويؤدي التجريم إلى اهتياجهم وقيامهم بمزيد

(37) Brandon، 1985، ص229-230.
(38) Banner، 2005، ص196-197 و207.
- Foreman، 1972، ص108-109 و193 و201.
(39) Prucha، 1995، ص112.
(40) نفس المرجع، ص105.

من التعديات على كل ما حولهم بما في ذلك السلطة الاتحادية[41]، وربما كان هذا الرأي صواباً ولكنه عذر أقبح من ذنب لأنه يؤكد أن الانحراف السلوكي كان متغلغلاً في جذور الحضارة الغربية وليس مجرد انحراف سطحي لسلطة جائرة يمكن أن تقوم القواعد الشعبية بتقويمها في أي وقت، بل وجدنا أن السلطة هي التي تقف عاجزة أمام الانحراف الشعبي فلا تستطيع تقويمه وهو الذي يكبل أيديها عن ممارسة العدالة التي قد تبتغيها ولو من باب حفظ ماء الوجه أمام شركائها السياسيين من السكان الأصليين للحفاظ على هدوئهم وتحاول تعويضهم أحياناً بشكل من الأشكال[42]، ولكنها عموماً تضطر للتراجع أمام تعديات المستوطنين، ولما تحاول فرض القانون تؤكد على "مراعاة" ظروف المعتدين وهو ما يشرح سبب الفشل في تحقيق أي توازن بين الطرفين[43]، فقد كانت الحكومة متعاطفة مع أهداف الاستيطان وليست متناقضة معها.

ويصف أحد المؤرخين المشهد قبل عملية الترحيل بالقول إن المستوطنين في التاريخ الأمريكي كانوا هم الطرف المسئول عن معظم التخريب، إذ كان الضغط الذي يمارسونه على السلطة المركزية هو سلاحهم الأمضى في ذلك، فقد كان لديهم صحفهم وسياسيون متعصبون وأنذال، والأهم أنهم كانوا يملكون حق الاقتراع، أما الهندي فكان محروماً من هذا الحق إلى سنة 1948 (هل كان الفراغ من الانشغال بالمواجهة في القصة الهندية هو بداية الانهماك في القصة الفلسطينية؟)، ورغم المشاعر الإنسانية التي كانت الحكومة تعبر عنها تجاه السكان الأصليين، فقد كانت ضعيفة جداً إلى حد الجبن في التصدي لصوت الاستيطان العالي، كما كان لديها من القضايا ما يشغلها عن قضية الهنود ومظالمهم، وبعدما تمكن توماس جيفرسون من غرس فكرة ترحيل الهنود بعمق في السياسة الأمريكية، لم يعد من الممكن التراجع عنها أو تخفيف وطأتها، ومما يلفت النظر أن وزير الحرب في حكومة الرئيس جيمس مونرو، جون كالهون، حاول كبح مستوطني التخوم وممثليهم لمدة ثمان سنوات حتى عجز عن

---

(41) Foreman، 1972، ص121-123.

(42) Prucha، 1995، ص104.

(43) Foreman، 1972، ص113.

المواصلة كما عجز قبل ذلك الملك جورج الثالث عن كبح الاستيطان الذي حاول فرضه في إعلانه الملكي سنة 1763، فاتجه كالهون إلى تأسيس مكتب الشئون الهندية في سنة 1824 والذي حاول معالجة قضايا السكان الأصليين بفكر مستنير إلى أن تولى أندرو جاكسون الرئاسة وهو عدواني وصاحب سلوك وحشي تجاه الهنود فشرع وطبق سياسة الترحيل[44].

وفي هذا الإطار نجد أن السلطة الأمريكية عجزت عن وقف ما هو أبسط من التوسع والاستيطان وربما لم يكن أمراً مهماً لجميع سكان الحدود ألا وهو بيع الخمر للهنود والذي كان يمارسه تجار باحثون عن الربح ولم يكن ممارسة ضرورية لموجة التوسع، ومع ذلك فطالما أصدرت الحكومة الأمريكية ومن قبلها البريطانية قوانين تلو القوانين للحد من ذلك ولكن بلا جدوى وذلك بسبب المنافع المادية التي كان الخمر يجلبها للتجار وهو ما جعل الحكم عاجزاً عن حظره رغم مضاره الشديدة على الهنود[45] حتى وصل الأمر إلى الإقرار ببيع الخمر للهندي من باب "المساواة" في المجتمع الأمريكي المعاصر، فإذا كانت الدولة الأمريكي قد عجزت عن كبح جماح ضرر كبير كهذا مع كونه ليس ممارسة تهم كل القاعدة الشعبية، فكيف كان سينجح في وقف تمدد الملايين؟ وهنا سبب القول إن المشكلة في جذر الحضارة وليس في انحراف سلطة.

وإن كل الأسباب التي وضعها المؤرخون لتفسير عجز السلطة الأمريكية ومن قبلها البريطانية عن الالتزام بالمعاهدات والوعود[46] تؤكد هذه الحقيقة، وهي تغلغل العدوان في جذور الحضارة، فلا طول منطقة الحدود، ولا افتقاد القوة العسكرية اللازمة للجم المستوطنين، ولا غيرها من الأسباب تفسر ذلك العجز لو لم يكن الخلل الأخلاقي عاماً وشاملاً، لاسيما عندما تكون الحكومة ديمقراطية تمثل مصالح هذا الشعب الذي هو من المتطلعين لغزو الآخرين وتتبنى نفس أهدافه التوسعية وإن كان ذلك مغلفاً بضرورات الدبلوماسية لتحقيق

---

(44) White، 1979، ص213.

(45) Prucha، 1995، ص99.

(46) نفس المرجع، ص113-114.

- Banner، 2005، ص98-99 و103.

الأهداف بكفاءة أكبر بعيداً عن نفقات الحروب الباهظة ليس إلا[47]، فمن هي الحكومة التي تستطيع الوقوف في وجه شعبها لو سرى فيه أي خلل أخلاقي كالذي يحدث في الغرب لو انقطعت الكهرباء ساعة من زمن عن مدينة ما؟ ومن هي الحكومة التي تملك من الجنود ما هو كفيل بكف هذا الأذى العام عندما يفتقد الوازع الداخلي لدى الأفراد؟

ومع ذلك يلتمس بعض المؤرخين الأعذار ونحت الإنجازات لما حدث ويجملون الدور الحكومي بالقول إنه لم يكن عاجزاً تماماً وإنه تمكن من فرض سلام ونظام ضد الاعتداءات غير القانونية التي كان يقوم بها المتطفلون في منطقة التخوم ضد الأراضي الهندية[48]، ولكن يمكننا أن نسأل: وماذا أفاد هذا "السلام" غير إمكان استمرار التوسع "بهدوء" ودون حروب مكلفة وعلى حساب الأهالي الأصليين الذين لم يجنوا في النهاية شيئاً من ذلك "السلام"؟ (وهكذا هي فوائد عمليات السلام دائماً تصب في مصالح الطرف الأقوى الساعي للتمدد والمتخذ من "الهدوء" فرصة للتوسع دون نفقات الحروب الباهظة، ولعل ما حدث في زمن اتفاقية أوسلو كالنمو الاقتصادي الذي حققه الاقتصاد الصهيوني والتراجع في الاقتصاد الفلسطيني، والتمدد الاستيطاني الصهيوني في الأرض الفلسطينية والذي وصف بأنه أكبر توسع في بناء المستوطنات منذ عام 1967 والهيمنة على الموارد المائية، لمثل واضح على ذلك)[49].

ازدواجية الرئيس جاكسون في مسألة حقوق الولايات:

تنصل الرئيس جاكسون بعد انتخابه من فرض القانون الاتحادي على الولايات الجنوبية التي انتهكته (جورجيا وألاباما ومسيسبي)، وأبلغ الهنود بالسر والعلن وبشكل رسمي عجزه عن فعل أي شيء لمساعدتهم[50]، وذلك رغم أنه لم يكن من أنصار حقوق الولايات وقد حرك أسطوله ضد ولاية كارولينا الجنوبية

(47) Prucha، 1995، ص114 و116 و135.
(48) نفس المرجع، ص109.
(49) روجان، 2011، ص622.
(50) Debo، 1983، ص117.

في سنة 1832 عندما ألغت قانوناً اتحادياً أصدره الكونجرس بخصوص الحماية الجمركية ضد مصالحها، وعد خروجها خيانة يجب قمعها بالقوة[51]، وعندما ناشده الهنود التدخل لحماية حقوقهم وفقاً للمعاهدات الموقعة (كما بحت أصوات الفلسطينيين من المطالبة بالالتزام الصهيوني بالاتفاقيات الموقعة دون جدوى)، كان رد الرئيس هو إبداء عجزه عن كبح جماح المعتدين على أراضي الهنود وعجزه عن إلزام الولايات بالقانون الاتحادي، وأن القضية أصبحت وجوب العلاج وليس الدفاع عن الحق، وهذا العلاج لن يتأتى إلا بترحيل الهنود غرباً ومنحهم أراض تظل ملكاً أبدياً لهم "ما دام العشب ينمو والمياه تجري"[52]، ويظهر التاريخ أنه خلافاً لظرف تحدي كارولينا الجنوبية التي تدخل الرئيس بقوة لكبح جماحها، فقد كان متعاطفاً مع التحدي الذي أبدته الولايات الجنوبية للقوانين الاتحادية لأن ذلك يصب في مصلحة نفس الهدف الذي سعت الرئاسة إليه آنذاك وهو التخلص من السكان الأصليين[53]، ولهذا كان رد الرئيس على إلغاء القوانين الاتحادية الخاصة بمصالح الهنود هو الإمعان في الاضطهاد والوقوف إلى جانب الولايات بإصدار قانون ترحيل الهنود في مايو/ أيار/ ماي 1830[54].

صدور قانون التهجير بعد إجهاض المعارضة: وبهذا أصبح الترحيل سياسة رسمية سنة 1830 بعد انتخاب الرئيس جاكسون بفترة وجيزة وذلك بإقرار الكونجرس الذي خول الرئيس بموجب القانون سلطة تبادل الأراضي مع القبائل الهندية لمنحها أراض في غرب نهر المسيسبي مقابل تنازلها عن أراضيها الأصلية في الشرق، وقد واجه مشروع الترحيل معارضة قوية في الكونجرس قبل صدوره، واستندت المعارضة إلى منطق عقلي واضح: ما حاجتنا إلى الأرض ونحن نملك ملايين الأفدنة الخالية في الشرق (كما يعارض الكثير من الصهاينة اليوم الاستيطان في الضفة الغربية)، فلماذا نهجّر الهنود من أراضيهم وقد تبنوا

(51) Brandon، 1985، ص237.
(52) نفس المرجع، ص230.
(53) نفس المرجع، ص237.
(54) Debo، 1983، ص117.

حضارتنا وطريقتنا في الحياة؟ وماذا عن قدسية المعاهدات والمبادئ التي ناضلنا لأجلها والتي يطالبنا هؤلاء الهنود اليوم بتطبيقها؟ وكان الرد على ذلك هو التمسك بحقوق الولايات التي لم يكن الرئيس جاكسون نفسه يحترمها إذا مست السياسات الاتحادية العليا، كما اتهم أنصار التهجير خصومهم المشارقة بالنفاق لأنهم أظهروا إنسانيتهم بعدما قضوا على الهنود في مجالهم وأصبح الهندي عندهم مجرد ماض مثالي لا خطر منه[55] (وذلك مثلما يمكن اتهام الصهاينة "المسالمين" بالنفاق إذ قام كيانهم على الظلم منذ البداية وأصبحوا بعد ذلك ضد استمرار نفس النهج الذي أسسوه هم).

وهذا النموذج من المعارضة نجده في كل الديمقراطيات التي ترفع شعارات إنسانية وتصدقها قطاعات من جماهيرها، إلا أنه خلافاً لحفاوة المبهورين بهذا الحراك الديمقراطي الدال على حرية الآراء بنظرهم، فإننا لم نجد له أثراً عملياً حتى يومنا هذا في كبح أي عدوان، وذلك لأن لا يستند إلى مصالح متجذرة ويصرخ في البرية كما يعترف أصحابه (مثل جماعة أصوات في البرية التي لا يسمعها أحد على ما يبدو عندما ترتفع قعقعة الأسلحة)، وعندما تواجه المصالح الكبرى هذه الأصوات المعزولة تهزمها بسهولة كما رأينا في استقراء مجمل التاريخ الغربي ولهذا يحسن عدم التمسك بفرع لا أصل له.

ومع أن القانون لم يشرع استخدام القوة في هذه العملية فقد كانت القوة أمراً لازماً في ظل تمسك السكان الأصليين بأراضيهم ككل البشر في جميع العصور والبلاد[56] (وذلك كما كان مجلس أمن الأمم المتحدة يبدي تمسكه بسيادة العراق ووحدة أراضيه منذ أزمة الخليج 1990 وهو يصدر أقسى قرارات انتهاك السيادة بالعدوان والحصار والاحتلال).

لجأت الحكومة الأمريكية إلى مختلف الوسائل غير المشروعة لإجبار الهنود على قبول الترحيل، ومن ذلك ممارسة الخديعة، واستخدام الخمر، واستعمال

---

(55) Reynolds، 2009، ص111.
- ليفن، 2008، ص245.
- مكدوجال، 2001، ص135.
(56) Brandon، 1985، ص229.

القوة، وتقديم الرشاوى، وتزييف التمثيل، أي الاقتصار في التعامل على الزعماء المطواعين الذين يعامَلون رغم قلتهم بصفتهم ممثلين للأمة كلها[57]، وعلى الرغم من هجرة بعض الهنود إلى الغرب قبل إقرار قانون الترحيل، فقد ظلت القبائل الكبرى في الجنوب متمسكة بأراضيها ومستندة في ذلك إلى قدرتها على مجاراة حضارة الرجل الأبيض مما ينفي الحاجة لرحيلها[58]، لاسيما في ضوء ادعاءاته التي تعود إلى المؤسس توماس جيفرسون بأن هناك خيارين أمام هذه القبائل وهما تبني الحضارة (والمقصود طبعاً حضارة البيض وفقاً لنفس فكرة كولمبس منذ البداية: دفع الهنود إلى "تبني أساليبنا") أو الرحيل إلى الغرب في حال عدم التلاؤم معها[59].

1 - **تهجير الشوكتاو**: وقد تفاوت مدى اليسر الذي تمت به عملية التهجير وتفاوتت الخسائر الناجمة عنها تبعاً لذلك، فأولى القبائل المرحلة هي الشوكتاو التي وقع بعض أفرادها غير الممثلين لمجموع القبيلة على معاهدة نهير الأرنب الراقص Dancing Rabbit Creek في سنة 1830 وتخلوا بموجبها عن أراضي القبيلة في الشرق مقابل أراض في غرب المسيسبي[60]، وتم تهجيرها بين 1830-1833، وحصلت مقابل موافقتها على الرحيل على وعود بأن الأراضي الجديدة التي ستنمح لهم غرباً لن تُضم مستقبلاً إلى أية مقاطعة أو ولاية أمريكية، ولن تفرض على القبيلة قوانين أمريكية كما ستحمي الحكومة الأمريكية إلى الأبد القبيلة من أية قوانين خارجية كما ستحمي تطبيق كل قوانين القبيلة غير المتناقضة مع القانون الاتحادي، وقد منح الخيار نظرياً لأفراد القبيلة بالبقاء أو الرحيل إلى الغرب، فاختار بعضهم البقاء ولكن رُفض تسجيلهم واستولى البيض على ممتلكاتهم مما تركهم في حال من البؤس والعوز وضحايا للتمييز إلى يومنا هذا، أما البقية فقد آثرت الرحيل غرباً، ورغم كون عملية ترحيلهم أيسر مما حدث مع غيرهم من القبائل فقد مات الكثير منهم من صعوبات الطريق وإعادة التوطن في

(57) نفس المرجع، ص230-233.
(58) Debo، 1983، ص116.
(59) Reynolds، 2009، ص109.
(60) Waldman، 2000، ص207.

أرض موحشة كما مات البعض من آلام الحسرة، وقد تحدث بعض المراقبين عن مشاهد حزينة من آلام الفراق كعناق سيقان الأشجار والعويل بانسجام وتمايل أو الصمت المطبق والحزين[61]، ووصلت نسبة الوفيات من آلام الترحيل إلى 15% من أفراد القبيلة التي عد انتقالها هادئاً نسبياً[62]، ويقول بعض المؤرخين إن نسبة الوفيات وصلت الربع أثناء الهجرة وارتفعت بعد الوصول إلى المقاطعة الهندية[63].

وقد وصلت نفقات تهجير الشوكتاو 5 ملايين دولار، وهو مبلغ أكبر من الذي رُصد لتهجير جميع القبائل الهندية[64]، وأكبر بأضعاف مما أنفق على مشروع ترحيل العبيد المحررين إلى ليبيريا، مما يدل على أهمية التخلص من الهنود ولكن دون تحمل مئونتهم بالطبع، ولهذا فإن ما أنفق على مئونة الهندي يومياً أثناء الترحيل وفي الوطن البديل أقل من سبعة سنتات فقط[65]، وكان التعويض الذي قبضه الهندي هو 13 دولاراً وبطانيات (درس هام لمؤيدي تعويض الفلسطينيين عن وطنهم)[66]، والأمران يدلان على سوء تقدير وتطبيق معاً، فقد كانت ظروف الرحيل بائسة بسبب قلة المخصصات المالية التي رصدت ووصلت فعلاً للهنود، فكان هناك نقص في الطعام والأغطية والعربات والجياد، واستغل التجار حاجة الهنود بفرض أسعار باهظة، وهاجمتهم عصابات قطاع الطرق[67]، وقد تحدث أحد المؤرخين عن الفساد الذي شاب توزيع المخصصات المالية واستعمالها وكيف وزعت وظائف متعهدي نقل الهنود كجوائز سياسية يتوقع جني الأرباح منها وكيف اضطر الهنود لخوض الرحلة بلا مال[68]، وربحت الحكومة الأمريكية من بيع أراضي القبيلة 8 ملايين دولار، ثم عادت بعد زمن طويل من

(61) Debo، 1983، ص118.
(62) Thornton، 1990، ص114.
(63) Waldman، 2000، ص207.
(64) Prucha، 1995، ص219.
(65) Foreman، 1972، ص68.
(66) White، 1979، ص224.
(67) Waldman، 2000، ص207.
(68) Brandon، 1985، ص231.

المفاوضات لتعوض القبيلة نفسها بمبلغ 3 ملايين دولار[69].

2 - **تهجير الكريك**: وفي سنة 1829 اختارت قبيلة الكريك البقاء في موطنها والخضوع لقوانين الولاية (أي سايرت خدعة إجبار الهندي على "تبني أساليبنا" التي أعلنها كولمبس قبل أكثر من ثلاثة قرون)، ولما اشتكى زعيم القبيلة من مئات الدخلاء الذين استوطنوا أراضي الهنود كان جواب الحكومة الأمريكية هو أن على قومه الرحيل، فوقع الهنود على معاهدة في سنة 1832 يسلمون بموجبها جميع أراضيهم القبلية مقابل ضمانات باستقلالهم في الغرب وعدم إجبارهم على الرحيل وقدرة من يختار البقاء على الحصول على حصص محددة من الأرض ليعيش كالرجل الأبيض على الزراعة والفلاحة، وكانت المكاسب التي حصلت عليها الحكومة الأمريكية من هذه المعاهدة هائلة، لأن الأرض التي وزعت على أفراد القبيلة بلغت مليوني فدان فقط من مجموع الأرض المتنازل عنها والتي بلغت خمسة ملايين فدان، وستفتح الملايين الثلاثة "الفائضة" للاستيطان الأمريكي[70].

ورغم ذلك فإن هذا الخيار أثبت استحالته أمام طمع البيض الذين غمروا المنطقة للحصول على أراضي الهنود بالخداع إذ لم يكن السكان الأصليون يعلمون ما الذي يوقعون عليه بسبب تحريف الترجمة أو استخدام الأختام الرسمية على سندات فارغة يملؤها المخادع كما يشتهي أو التزوير المباشر لاسيما باستخدام أشخاص مزيفين ومرتشين (بعشرة دولارات على الأكثر)[71] للقيام بأدوار أصحاب الأراضي والتوقيع بدلاً منهم على بيع حقوقهم أو بالتلاعب في إثبات قانونية العقود في دهاليز المحاكم حيث ينتشر عدم الأمانة أو باستخدام الخمور للحصول على الموافقات أثناء غياب الملاك عن الوعي[72]، وقد أخبر أحد الموظفين الحكوميين الرئيس بأن كمية الفساد في التعامل مع أملاك الهنود لم تظهر في أي مكان من العالم من قبل[73] (ويمكننا أن نشبه عمليات الخداع

---

(69) Prucha، 1995، ص219.

(70) نفس المرجع، ص221-222.

(71) Foreman، 1972، ص130-131.

(72) Debo، 1983، ص118.

(73) Brandon، 1985، ص236.

التي حصلت على الدعم الرسمي الضمني بمطالبات التعويضات الهائلة والكاذبة التي أقرتها الأمم المتحدة والولايات المتحدة ضد العراق بعد أزمة الخليج 1990).

وقد نتج عن ممارسات الخداع والسلب واسعة الانتشار تشريد أعداد كبيرة من الهنود الذي هاموا على وجوههم في الأرض بعد فقدان بيوتهم ومحاصيلهم ومواشيهم، ويصف أحد المؤرخين هذا المشهد بالقول إن الهنود سيقوا إلى الغابات والمستنقعات وهم جوعى، وقد قالت صحيفة عاصرت الحدث إن مشاهدة جموع من البشر محرومة من الطعام وصراخ لا ينقطع لأجساد هزيلة تطلب الخبز أمر مفجع فوق الوصف، وقد ظل بعضهم على قيد الحياة بعد تناول جذور ولحاء الأشجار، ولا يرفضون أي نوع من الطعام مهما كان كريهاً، وهم يتسولون الطعام من باب إلى باب ومن المؤلم رؤية هذه المخلوقات البائسة تهيم في الشوارع عارية منهكة[74]، فمنهم من هاجر إلى الغرب ومنهم من انضم إلى قبائل أخرى لم يأت دورها في الترحيل بعد، وحاول مجموعة من الهنود اللجوء إلى المقاومة المسلحة وقتلت النساء صغارهن ليتمكن من القتال إلى جانب الرجال[75]، وأصدر حاكم ألاباما أمراً بمعاملة كل من لا يساعد من القبيلة في قمع الثورة معاملة الأعداء، فدخلت القبيلة في حرب أهلية ثانية بعد الحرب الأولى التي دخلت فيها وأدت إلى معركة منحنى الحدوة (1814) آنفة الذكر أثناء ثورة الزعيم تكومسيه والتي أعلنت الحكومة الأمريكية أثناءها أيضاً أن من ليس معها فهو ضدها (نفس منطقها بعد هجمات سبتمبر/ أيلول 2001)، وبحلول صيف 1836 كانت المقاومة قد انتهت وسيق الهنود مكبلين بالحديد إلى أوكلاهوما في الغرب وشنق بعض من بقي في ألاباما وخضع عدد آخر للاسترقاق[76]، وتم في النهاية التراجع عن كل الوعود التي بذلت للهنود بالسماح ببقاء من يختار البقاء تحت سلطة الولايات الأمريكية (كما نقضت الوعود التي بذلت للفلسطينيين في قرار العودة رقم 194 بالسماح لمن يرغب

(74) نفس المرجع، ص236.
(75) نفس المرجع، ص239.
(76) Debo، 1983، ص119.

بالعيش بسلام مع جيرانه الصهاينة بالبقاء تحت سلطة الكيان الصهيوني)، وأُجبر الهنود على الرحيل غرباً[77].

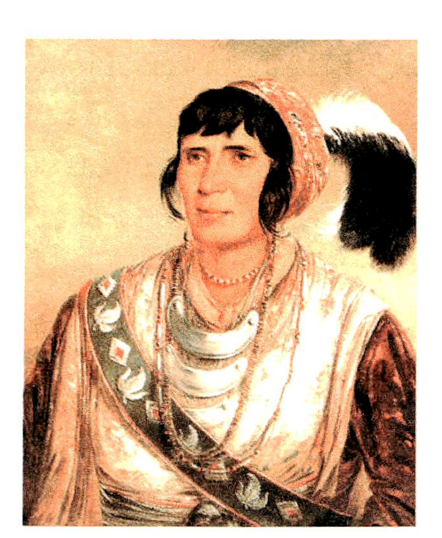
وكانت رحلة التهجير إلى الغرب قاسية جداً وعانى فيها السكان الهنود وبعدها معاناة شديدة فوق المعاناة التي سبقت الرحيل، فأدت إلى خسارتهم 40-50% من عددهم[78]، ومن أمثلة ذلك وفاة 3500 بالحمى الصفراوية من أصل 10 آلاف تمت إعادة توطينهم في 1836-1837[79]، وسنترك الحديث عن أهوال الترحيل ذاته لدرب الدموع الذي سلكته قبيلة الشيروكي.

3 - **تهجير السيمينول**: لم تكن أراضي قبيلة السيمينول ذات أهمية اقتصادية للولايات المتحدة، ولو تُركوا لشأنهم لأمكن تجنب كثير من الدماء والخسائر، ولكن اجتمع الطمع بالأرض مع الرغبة بإعادة العبيد الهاربين، في الدفع لغزو الهنود[80]، وأدت محاولة ترحيل قبيلة السيمينول من فلوريدا إلى نشوب حرب ثانية طاحنة تبعت حرب السيمينول الأولى التي سبق ذكرها (1817-1818)، ووقعت الحرب الثانية عندما رفضت القبيلة قرار التهجير الذي استدرجت إليه بمعاهدة خادعة[81] (1832) استغلت حالة البؤس التي كانت القبيلة تعاني منها[82]، وقد عانت هذه القبيلة أكثر من غيرها، إذ استعمل الجيش الأمريكي الكلاب المتوحشة في تعقب أفرادها وتصيدهم وتمكن من جر عدد قليل منهم وإجبارهم على الرحيل غرباً[83]، كما جند مئات من هنود القبائل الأخرى لقتالهم وجعل هؤلاء المجندين في مقدمة الجبهة ليتحملوا العبء الأكبر للقتال والخسارة[84]، وقد وصف أحد ضحايا السيمينول المشهد في أوكلاهوما

---

(77) Brandon، 1985، ص240.
(78) Debo، 1983، ص120.
- Thornton، 1990، ص114.
- Marks، 1998، ص124.
(79) Thornton، 1990، ص114.
(80) Prucha، 1995، ص229-230.
(81) Debo، 1983، ص125.
(82) Prucha، 1995، ص231.
(83) Debo، 1983، ص125.
(84) Foreman، 1972، ص348.

حيث وصلوا بالقول إن الطقس بارد والهنود بلا ملابس ولا صيد يطعمهم ولا حقول يزرعونها ولا بيوت يأوون إليها وأطفالهم يصرخون من الجوع والبرد والفاقة التي زادت من ضريبة الحرب والترحيل[85]، واتبع الهنود في فلوريدا أسلوب حرب العصابات في القتال بقيادة زعيمهم الشهير أوسّيولا، وشاركت النساء في القتال إلى جانب الرجال، وقامت في سبيل تحرير أنفسهن من الالتزامات العائلية بقتل صغارهن حتى يتمكن من القتال، ولم يستطع الجيش الأمريكي التغلب عليهم إلا بالغدر المتكرر إذ اعتقل زعيمهم وأعداداً منهم تحت علم الهدنة التي تم التوصل إليها بمساعدة حسنة النية من زعامة قبيلة الشيروكي التي احتجت على هذه التصرفات الأمريكية فرد الجيش الأمريكي بكون هذه هي الوسيلة الوحيدة الممكنة للتغلب على مقاتلي السيمينول البارعين جداً في بيئتهم الطبيعية الحاضنة[86] (هل ندمت القيادات العربية التي ساعدت بريطانيا على إخماد ثورة فلسطين 1936 بعدما حلت النكبة بالفلسطينيين؟ أو على تدخلاتها "بحسن نية" لإحلال "السلام" الذي لم يتحقق مع الصهيونية فيما بعد؟).



أوسّيولا (1804–1838) زعيم قبيلة السيمينول في الحرب الثانية التي شنت على القبيلة بهدف ترحيلها إلى الغرب

مات أوسّيولا بعد ثلاثة أشهر فقط من اعتقاله سنة 1837، ولكن الحرب استمرت وكلفت كثيراً، وفي النهاية تمكن الجيش الأمريكي من ترحيل 4 آلاف من السيمينول إلى الغرب كانت خسارة ترحيلهم 40% من عددهم إذ لم يتبق منهم

(85) Debo، 1983، ص125–126.
(86) Brandon، 1985، ص239.

في سنة 1859 إلا 2250 تقريباً، وكانت الحرب التي شنت عليهم أكثر الحروب كلفة في تاريخ الحروب الهندية في التاريخ الأمريكي[87]، إذ أدت إلى مقتل 1500 جندي أمريكي (أي قُتل جندي أمريكي مقابل ترحيل كل ثلاثة أشخاص، بل أقل، من القبيلة) وإنفاق 20 مليوناً من الدولارات[88]، وهو مبلغ ضخم جداً في تلك الأيام جعل من هذه الحرب الأطول والأكثر كلفة في تاريخ الحروب الهندية في أمريكا[89]، وظل بعدها عدد من أفراد القبيلة في فلوريدا بعدما سلمت الحكومة الأمريكية بالأمر الواقع وتخلت عن محاولة ترحيل الجميع[90]، واعترف كبار العسكريين المشاركين في هذه الحرب، كالجنرال توماس جيسوب (1838) الذي غدر بزعيم الهنود، بأنها لم تكن ضرورية في ضوء عدم أهمية أرض الهنود للزراعة وكونهم ليسوا عائقاً في وجه الاستيطان الأمريكي[91]، وقال الجنرال إيثان ألان هيتشكوك (1840) لأخيه إنه عندما تطوع لقتال الهنود (1836) كان يظن أنهم متوحشون نقضوا تعهدهم بالهجرة التي سبق أن وافقوا عليها وإنه كان يريد أن يعاقبهم بكل الوسائل الممكنة، وبعد الحرب والجهود التي بُذلت لتحطيم الزعامة الشرعية وتنصيب زعامات بديلة ومطواعة، توصل في النهاية إلى قناعة بأن الهنود تعرضوا للظلم وأن مهمته واحدة من أكثر المهام الميئوس منها والتي عُهد إلى رجل بالقيام بها[92]، وهكذا تقر الدقة العلمية للحضارة الغربية بالمظالم حتى في وسط معمعة القتال، ولكن دون أية نتيجة عملية سوى رتوش "إنسانية" لا قيمة لها إلا في تحسين ظروف تكفين الضحية.

ووصِف السلام الذي تم التوصل إليه بأنه من أفضل ما يمكن، وقاومت القبيلة فيما بعد لمدة عشرات السنين شروطاً مغرية جداً قل عرضها على غيرها لمغادرة موطنها[93]، ورغم كون الحرب امتدت عملياً بين سنتي 1835-1842

(87) Debo، 1983، ص125.

(88) Brandon، 1985، ص239 .

(89) Hoxie، 1996، ص577.

(90) Debo، 1983، ص126.

(91) Prucha، 1995، ص232.

(92) Foreman، 1972، ص376-378.

(93) Brandon، 1985، ص240.

فإنها لم تنته نظرياً إلا بتوقيع معاهدة سنة 1934 [94]، ولم تستأنف القبيلة علاقتها بالحكومة الأمريكية إلا في سنة 1962، وظل هناك ممن بقي منها في فلوريدا يصرون على كونهم مازالوا في حرب مع الولايات المتحدة بعد زمن طويل من تلك التواريخ[95]، مما جعلها ربما أطول حرب في التاريخ[96]، وهذا ما تم الإعلان عنه عند توقيع المعاهدة آنفة الذكر[97].

4 - تهجير الشيروكي ورحلة العذاب في درب الدموع: عندما وصل الإسبان إلى بلاد الشيروكي في جنوب شرق أمريكا الشمالية في سنة 1540 كانت القبيلة قد طورت مجتمعاً مركباً ذا ثقافة متطورة حول عاصمتهم القديمة إيكوتا التي تم نقلها في القرن السابع عشر إلى إيكوتا الجديدة[98]، وهو ما يدحض فكرة التخلف الذي وجده البيض عند السكان الأصليين في أمريكا وكون الرجل الأبيض هو حامل لواء الحضارة، ثم قطعت قبيلة الشيروكي شوطاً أوسع من بقية القبائل في تبني حضارة الرجل الأبيض، فبنت المدارس واستقبلت المبشرين وطورت الزراعة والحرف الصناعية[99]، وتزاوجت مع البيض حتى أنه سجل في سنة 1825 وجود 120 زواجاً داخل القبيلة من رجال ونساء بيض[100]، وأصبح لها قيادة سياسية مختلطة الدماء وعلى غرار النخبة الجنوبية مالكة العبيد، وتحث أتباعها على التمسك بحقوقهم وهم يسيرون على النهج الأمريكي، بالإضافة إلى مجلس تشريعي بقسميه النواب والأعيان، ونظام قضائي، وفي ذكرى الاستقلال الأمريكي سنة 1827 أعلنت القبيلة استقلالها متبنية دستوراً على غرار الدستور الأمريكي[101]، وكانت قد اتخذت من مدينة نيو إيكوتا New Echota عاصمة سياسية لمنظومتها الجديدة منذ سنة 1825.

(94) Murdoch، 1995، ص27.
(95) Debo، 1983، ص126.
(96) Murdoch، 1995، ص27.
(97) Yenne، 1986، ص151.
(98) نفس المرجع، ص35.
(99) Reynolds، 2009، ص109.
(100) Grant، 2000، ص76.
(101) Reynolds، 2009، ص109.



موقع مدينة نيو إيكوتا كما يبدو اليوم مجرد أثر بعد عين

كان هذا الإجراء مستفزاً وليس مفرحاً لولاية جورجيا التي استنكرت قيام دولة داخل الدولة ولم تسر بظهور ثمار الحضارة الأمريكية على "المتخلفين"، وزاد الأمر تعقيداً باكتشاف الذهب في أراضي الهنود[102]، وهو أمر سيكون مبرراً لاكتساح أية قبيلة في الغرب الأمريكي فيما بعد مهما كانت الحصانات القانونية والسياسية التي تحميها بموجب شرعة الرجل الأبيض، وستثبت حوادث التاريخ أن الاستقلال لم يكن هو سبب العداء الأمريكي للقبائل الجنوبية بقدر ما كان السبب هو الرغبة في القضاء عليها وسلب مواردها، واختلاف المصائر بين الهنود وبيض الجنوب الأمريكي الذين أعلنوا استقلالهم بعد ثلاثين عاماً ثم تم دمجهم بالمجتمع الأمريكي رغم كل المعاناة التي أصابتهم يؤكد إرادة سحق الهنود لا دمجهم، فمعاناة الجنوب الأبيض تختلف جذرياً عن الاضطهاد الذي لحق بالقبائل الهندية حتى دون أن يعلن كثير منها الاستقلال الذي اقتصر على الشيروكي، ولكن المعاناة شملت الجميع، وفي النهاية لم يمنعوا من الاستقلال وحسب بل مُنعوا أيضاً من دخول الاتحاد كولاية أمريكية في مطلع القرن العشرين.

---

(102) نفس المرجع، ص109.

أعلن الرئيس الجديد جاكسون رفضه الخطوة الهندية الاستقلالية بحجة أن الدستور يمنع قيام ولاية داخل أراضي ولاية أخرى[103]، ولما اكتُشف الذهب في أرض القبيلة قامت ولاية جورجيا بإلحاقها وإبطال العمل بالقوانين التي يصدرها الشيروكي فيها استناداً لمبادئ توماس جيفرسون أيضاً[104]، وتعرض الهنود للهجوم في أرضهم من قبل الغزاة الجورجيين الذين طمعوا فيما بأيديهم وأثبت التاريخ أن كثيراً منهم كانوا في مستوى حضاري أقل من الهنود[105]، فاستولوا على البيوت والجياد والماشية وهاجموا من اعترض طريقهم في ظل أوضاع قانونية مؤاتية لهم لأن شهادة الهندي لم تكن مقبولة في المحاكم ضد الرجل الأبيض[106]، وأتبعت جورجيا صدور قانون الترحيل (1830) بإصدار مجموعة من القوانين المعادية التي تمنع اجتماعات السلطات الهندية إلا عند التنازل عن الأراضي (كما سمحت سلطات الاحتلال الصهيوني باجتماع السلطة الفلسطينية التشريعية، الممثلة بالمجلس الوطني الفلسطيني، لأول مرة بعد الاحتلال في غزة بفلسطين سنة 1996 لإلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني) وتمنع عمليات استخراج الذهب (كما يسرق الصهاينة ثروات فلسطين من نفط وماء ويمنعونها عن أصحاب الأرض) وتفرض مسحاً لأراضيهم لتوزيعها بالقرعة على مواطنيها، وألفت حرساً خاصاً لفرض القوانين الجورجية على الهنود، وكان أولئك الحرس من الأشخاص الأشرار الشرسين الذين اقتحموا أراضي الهنود واعتقلوهم وقذفوا بهم في سجون قذرة وربطوهم إلى جذوع الأشجار وجلدوهم، وشجع الرئيس جاكسون ولاية جورجيا على استمرار الضغط على الهنود وفي المقابل ادعى لهم أنه غير قادر على التدخل لصالحهم[107].

لجأ زعيم الشيروكي جون روس، وهو من أصول اسكتلندية مطعمة بجذور هندية لأن أحد أجداده الثمانية كان هندياً[108]، إلى نفس أسلحة الرجل الأبيض

(103) نفس المرجع، ص110.

(104) Bennett، 2006، ص241.

(105) Foreman، 1934، ص356.

(106) Thornton، 1990، ص115.

(107) Debo، 1983، ص120-121.

(108) Prucha، 1995، ص236.

القانونية، ورفع الهنود قضية وربحوها في المحكمة العليا الأمريكية (1832)، إذ أعلن القاضي جون مارشال في حكمه الشهير إبطال إجراءات جورجيا استناداً إلى الحقوق الهندية التي منحتها المعاهدات بين الهنود وحكومة الولايات المتحدة[109]، والاعتراف بتميز الأمة الهندية وأن علاقتها يجب أن تكون مرتبطة بالحكومة الاتحادية وحدها وليس بالولاية[110]، ومثلما كان الحال دائماً، فاز الضعيف بالقانون والأخلاق والعدل وفرح بذلك "فرحاً يفوق الخيال"[111] (كفرحنا بالقرارات الدولية الفارغة فيما بعد)، وكان من الممكن أن يصل قرار المحكمة حد الاعتراف باستقلال الهنود وجعلهم كالأمم الأجنبية ذات السيادة المستقلة، أي يمكن إقامة علاقات بسفراء معهم[112]، ولكن القوي فرض واقعه على الأرض، فلم يأبه الرئيس الأمريكي بقرار المحكمة[113]، وهناك من يصف المشهد بعجزه عن فعل شيء حتى لو أراد ذلك[114]، وهو عذر أقبح من ذنب ويشير إلى سيادة الطغيان العام وليس مجرد طغيان سلطة منحرفة، والذي جعل من إقرار العدالة مستحيلاً في جمهورية الحرية والإنسانية، واستمرت الضغوط على الهنود ومناصريهم الذين تعرضوا للهجوم والاعتقال والإبعاد[115]، وغزا الاستيطان أرضهم مما أدى إلى تفكك وحدتهم[116]، وقبول بعضهم، وهم الأقلية، بالتوقيع على التنازل عن أرضهم والرحيل إلى الغرب في معاهدة نيو إيكوتا (1835) والتي منحت قبيلة الشيروكي خمسة ملايين دولار وأرضاً في الغرب مقابل وطنها (نفس فكرة التوطين التي عرضت على الشعب الفلسطيني منذ

---

(109) Foreman، 1972، ص235.

(110) Reynolds، 2009، ص109 و112.

(111) Debo، 1983، ص122.

(112) Reynolds، 2009، ص112.

(113) Brandon، 1985، ص239.

(114) Prucha، 1995، ص212.

(115) نفس المرجع، ص212.

- Debo، 1983، ص121- 122.
- Thornton، 1990، ص116.
- وولف، 2004، ص404.

(116) Prucha، 1995، ص236.

- Debo، 1983، ص123.

النكبة)، وتم التعهد بحماية الهنود في الوطن البديل من الضم السياسي والتطفل الاستيطاني[117]، مع مهلة سنتين بداية من التصديق على المعاهدة للرحيل "طوعياً" إلى الغرب[118] رغم أن من وقعوها لم يكونوا يمثلون مجموع القبيلة[119] (ويلاحظ القارئ تاريخ المشروع الصهيوني في فلسطين أن موضوع هجرة سكانها "طوعياً" طُرح أيضاً في الأدبيات الصهيونية)[120].

اعترضت الأغلبية على توقيع معاهدة التنازل، ووقع 16 ألفاً من أفراد القبيلة عريضة احتجاج عليها حملها الزعيم جون روس إلى واشنطن[121]، وذلك بعدما قامت ولاية جورجيا باعتقاله دون تهمة لكي تمنعه من الوصول إلى العاصمة[122] (كما حوصرت القيادة الفلسطينية لأكثر من سنتين قبل اغتيالها في رام الله سنة 2004)، ولما أطلق سراحه قدم للمسئولين الأمريكيين لائحة ديمقراطية على المقاس الأمريكي تماماً (كما دأب مسئولونا على تقديم أوراق الاعتماد الديمقراطية إلى الولايات المتحدة والغرب ليثبتوا الجدارة التي لا تأبه بها أمريكا)، وعاش أفراد القبيلة على تناول الجذور وعصارة الأشجار رافضين المساعدات الحكومية كي لا يُحسبوا ضمن الموافقين على المعاهدة، وكانت تصلهم إشعارات بقضايا مرفوعة عليهم بلا حق ومن ضمنها عدم دفع "إيجارات" لأراضيهم التي يملكونها[123]، ومع ذلك ظلوا ثابتين ولكن دون جدوى، فلم تجد الديمقراطية في بلد الديمقراطية.

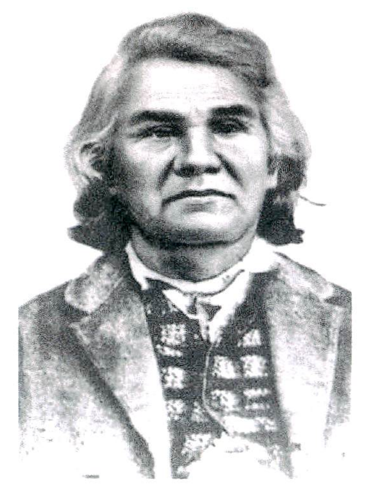
---

(117) Prucha، 1995، ص237.
- Debo، 1983، ص124.
(118) Hoxie، 1996، ص106.
(119) Prucha، 1995، ص237.
- Reynolds، 2009، ص112.
- Debo، 1983، ص123-124.
(120) المسيري، 2002، ص123-124.
(121) Marks، 1998، ص75.
(122) Debo، 1983، ص123.
- Brandon، 1985، ص238.
(123) Marks، 1998، ص74.



جون روس John Ross (1790–1866)
زعيم أكثرية قبيلة الشيروكي التي تمسكت بأرضها وقاومت الترحيل حتى آخر لحظة، ظل زعيماً إلى زمن الحرب الأهلية ورفض الدخول في معارك الرجل الأبيض

كان هنود الشيروكي قد شعروا بالخطر الاستيطاني مبكراً ففضل بعضهم الهجرة إلى الغرب منذ عام 1782 أي أثناء الثورة الأمريكية[124]، ووصل عددهم قبل موجة الترحيل الكبرى في ثلاثينيات القرن التاسع عشر ستة آلاف شخص تقريباً[125]، ومع ذلك ظل معظم الشيروكي متمسكين بوطنهم الأصلي بزعامة جون روس، ولما تزايدت الضغوط ومنحتهم الحكومة سنتين للرحيل، هاجر ألفان تقريباً إلى الغرب وظلت الأغلبية ثابتة في بلدها، ويقدر عدد أفرادها بحوالي 15 ألفاً[126].



ستاند واتي Stand Watie (1806 –1871) من زعماء حزب الأقلية في قبيلة الشيروكي، وقع معاهدة الترحيل وظل مخلصاً لنهج الرجل الأبيض وحارب إلى جانب الجنوبيين في الحرب الأهلية الأمريكية (1861–1865) وكان آخر جنرالات الجنوب استسلاماً

(124) نفس المرجع، ص50.
(125) Prucha، 1995، ص235 و273.
(126) Foreman، 1972، ص286.
وهناك تقديرات قريبة في كل من:
- Prucha، 1995، ص273.
- Thornton، 1990، ص117.



الميجور ريدج Major Ridge (1771–1839) من زعماء الأقلية التي أُطلق عليها "حزب المعاهدة" بسبب قبولها التوقيع على معاهدة الترحيل 1835، وكان قد شارك أندرو جاكسون في قتال القبائل الهندية الأخرى (الكريك والسيمينول)، ثم قام أفراد من الأغلبية الشيروكية بإعدامه مع ابنه وابن أخيه ونجا ابن الأخ الصغير ستاند واتي من القتل

ومع ذلك فضلت الحكومة الأمريكية التعامل مع حزب الأقلية وإهمال الأكثرية (ديمقراطية الاستعمار هكذا دائماً)، ووُصف المشهد بأنه نزاع مع الزعامة المستبدة للقبيلة (تهمة الديكتاتورية في كل زمان ومكان !) والتي لا تستجيب لمطالب الحكومة الأمريكية(127) (وهذا هو معيار الاستبداد دائماً !)، ولهذا لا بد من تغيير هؤلاء الزعماء(128) (دائماً)، وبحجة "استبداد" الزعامة الهندية و"استغلالها" لشعبها، ورغم عدم الاهتمام بمنح الهنود نعمة الديمقراطية(129) تم قذفهم جميعاً، الشعب والقيادة، في مجاهل الغرب البعيد مع وعود بالحماية هناك رد عليها المخلصون بطلب الحماية الآن وليس مستقبلاً وفي الوطن وليس في المنافي، وباستقراء تاريخ لم يبين أن قوماً رحلوا من أوطان تتوفر فيها معايشهم إلى البرية ليصبحوا متحضرين فيها، وبالقول إن المصاعب التي ستواجه الهنود أثناء الرحيل ستكون أكبر من أي مصاعب تواجههم في مواطنهم الأصلية(130)، وهو ما ثبت صحته عملياً فيما بعد، ولكنه لم يكن يمس

(127) Foreman، 1972، ص240.

(128) نفس المرجع، ص239.

(129) Bennett، 2006، ص241.

(130) Banner، 2005، ص211.

سبب الرحيل وهو جشع الرجل الأبيض[131] وليس البحث عن راحة الهندي الأحمر أو حتى حقوقه الدنيا.

عم الاهتياج بين ذوي النوايا الحسنة في الولايات المتحدة[132]، ومع ذلك تم التصديق على المعاهدة في السنة التالية لتوقيعها (1836) وإن كان التصديق قد مر بأغلبية صوت واحد في الكونجرس[133] (هكذا دائماً ينتصر العدوان الغربي ولو بأغلبية ضئيلة بعد الضغوط والتزوير ولا تجدي كل الاعتراضات حسنة النوايا أمام اكتساح المصالح كما حدث في مشروع تقسيم فلسطين سنة 1947)، ولما انتهت المهلة الممنوحة للهنود لكي يرحلوا كان الرئيس جاكسون قد غادر منصبه وتولى مكانه خلفه مارتن فان بورين، وكان من أبرز المعترضين على اضطهاد الشيروكي الكاتب الأمريكي الشهير رالف والدو إيمرسون[134]، الذي كتب رسالة اعتراض إلى الرئيس الجديد جاء فيها: "لقد سمعنا من ولايتنا البعيدة (ماساشوستس في نيو إنجلاند) بعض الأخبار عن جدارة الشيروكي وتمدنهم، ولقد استقبلنا بابتهاج تقدمهم في الآداب الاجتماعية... وإنه لمن المسلم به عند جميع مواطني الجمهورية... أن هؤلاء الهنود سيعامَلون بشكل لائق وأنهم سيذوقون طعم العدل والحب من جميع من أوكلنا إليهم التعامل معهم"، وفيما يخص معاهدة 1835 قال إيمرسون: "هذا النبذ للقيم والإيمان، وهذا الرفض للعدل، وهذا الصمم عن صرخات العدالة، لم يسمع به في أزمنة السلم وفي تعامل أمة مع حلفائها ورعاياها الذين هم تحت وصايتها منذ بدء الخليقة، سيدي، هل تظن هذه الحكومة أن مواطني الولايات المتحدة أصبحوا همجاً وحمقى استؤصلت من نفوسهم مشاعر الحب ومُسحت الطبيعة الخيرة، إن روح الإنسان، والعدالة، والرحمة التي هي قلب القلب عند كل الناس، من ولاية مين (شمالاً) إلى ولاية جورجيا (جنوباً) تمقت هذه المعاملة (للهنود)"[135].

(131) Prucha، 1995، ص195.
(132) Debo، 1983، ص124.
(133) Prucha، 1995، ص237.
(134) Reynolds، 2009، ص112.
(135) Ehle، 1988، ص303.



رالف والدو إيمرسون (1803–1882) مفكر وكاتب أمريكي شهير اعترض دون جدوى على معاملة الهنود وترحيلهم

ترحيل قبيلة الشيروكي بعد مغادرة جاكسون منصبه:

انتهت المدة التي منحت للهنود كي يغادروا بلادهم الشرقية "طوعاً" إلى الغرب بعد نهاية عهد الرئيس أندرو جاكسون، ورغم أنهم هُجّروا من بعده فإنه يتحمل كامل المسئولية عن عملية التهجير التي شرعها وشرع فيها وقام بمعظمها في زمنه، ثم واصل دعمها حتى بعدما ترك منصبه(136)، وبالفعل فقد ارتبطت سياسة الترحيل باسمه في التاريخ الأمريكي وقليلاً ما يُذكر غيره عند ذكرها، وعند نهاية المهلة المحددة في مايو/ أيار/ ماي 1838 لم يكن قد غادر من مجموع القبيلة سوى ألفين فقام سبعة آلاف من الجنود الاتحاديين والمحليين من الولايات المحيطة بمحاصرة القبيلة التي نُزع سلاحها وإتمام ترحيل معظم من بقي منها (15 ألفاً) إلى المقاطعة الهندية (أوكلاهوما فيما بعد) بين يونيو/ حزيران/ جوان 1838 وإبريل/ نيسان/ أفريل 1839 (137)، وقد جرت عملية النقل ضمن 13 قافلة في كل منها ما يقارب الألف مهاجر، وذلك فيما عرف برحلة درب الدموع لكثرة ما خسره الهنود من الضحايا فيها، وتمكن ما يقارب الألف منهم

---

(136) Bennett، 2006، ص243.

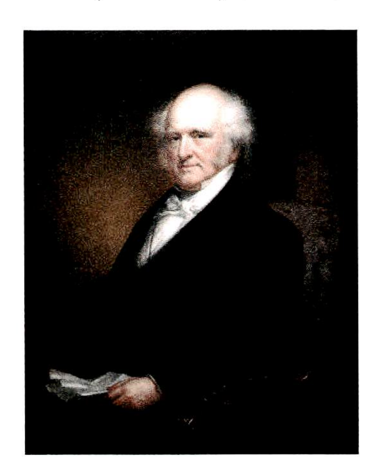
(137) Hoxie، 1996، ص106.

- Foreman، 1972، ص286.

من الفرار من الترحيل مختبئين في جبال كارولينا الشمالية حيث مازالت سلالتهم تعيش إلى اليوم[138] (كما تمكن بعض أهل فلسطين من تجنب مصير التهجير الذي واجهه معظم الشعب سنة 1948).



اللوحة الأشهر التي تصور درب الدموع للفنان روبرت لندنو (1871–1970)



الرئيس الأمريكي الثامن مارتن فان بورين (1782–1862) تولى الرئاسة في الفترة بين (1837–1841) والتي شهدت ترحيل آخر القبائل الهندية إلى الغرب وأهمها قبيلة الشيروكي، وهو الرئيس الأول الذي يعود لأصول غير إنجليزية ولغته الأم غير الإنجليزية (كانت لغته الهولندية)

(138) Thornton، 1990، ص117.
- Waldman، 2000، ص209.
- Yenne، 1986، ص36.

وقد روى المؤرخون جانباً من هذه المأساة التي انطلق فيها جنود أمريكا يهاجمون الهنود في بيوتهم بالبنادق والرماح ويجمعونهم كسجناء أينما وجدوهم، فهجموا على أسر على موائد الطعام أو في أسرة النوم أو أثناء العمل في الحقول وعلى الأطفال وهم يلعبون ليسوقوهم بالضرب والسباب وأمام أسنة الرماح إلى مراكز الاعتقال التي بنيت خصيصاً لهذه المهمة، ولم يسمحوا لهم بأخذ شيء يذكر معهم، وربما غادروا بما عليهم من ملابس فقط، وتركوا حقول الذرة والمواشي والجياد ومعظم المنقولات لأي عابر سبيل قد يمر بهذه الأملاك، وكان الأوباش يتعقبون الجنود لحرق بيوت الهنود وسلب ممتلكاتهم ونبش قبورهم طمعاً فيما قد يكون دفن مع أمواتهم، وصرح عقيد في الجيش الجنوبي بعد عشرات السنين من تهجير الهنود بالقول إنه شهد الحرب الأهلية الأمريكية بكل أهوالها حيث قُتل الرجال بالآلاف وقطعت أجسادهم ولكن ترحيل قبيلة الشيروكي كان العمل الأكثر وحشية الذي شاهده[139].



مشهد يوضح الهجوم على الهنود في بيوتهم لإجبارهم على الرحيل

كانت رحلة الهجرة صعبة وشاقة في برد قارس وجوع شديد وأمراض فتاكة، وذلك في ظل معاملة وحشية أظهرها الجنود الذين كانوا يقومون بدفع

(139) نفس المرجع، ص116-117.
- Foreman، 1972، ص286-290.
- Reynolds، 2009، ص112-113.

الهنود بقسوة لتسريع الخطى أثناء السير ويمنعونهم من دفن موتاهم إلا عند التوقف، وتعرض الهنود لهجمات قطاع الطرق الذين لم يمنعهم وجود الجيش من الاعتداء على المهجّرين[140]، ووصف أحد المسافرين الأمريكيين الذي التقى بقافلة من المرحلين مشهدهم كالتالي: "كان كثير منهم يركبون الجياد وجمهورهم يمشي على الأقدام وحتى النساء العجائز اللواتي يقتربن من الموت كن يسرن وأحمال ثقيلة على ظهورهن على أرض متجمدة أحياناً دون أي غطاء على الأقدام، وقد علمنا من السكان القاطنين على الطريق الذي سلكه الهنود أنهم كانوا يدفنون 14-15 من أمواتهم عند كل نقطة توقف"[141].

كان مجمل الخسائر الهندية مرتفعاً إذن، وقد وصلت نسبة الوفيات من الجوع والبرد والمرض (كالزحار والسعال الديكي والحصبة)[142] إلى ربع المرحلين أو أكثر (4 آلاف)[143]، ولهذا أطلق الهنود على هذه الرحلة المأساوية اسم "درب الدموع" الذي أصبح علماً على كل عمليات الترحيل القسري التي أصابت الهنود[144]، ويقول بعض المؤرخين إن النسبة ارتفعت إلى النصف (8 آلاف) نتيجة لتبعات الترحيل بعد الوصول إلى المقاطعة الهندية[145].

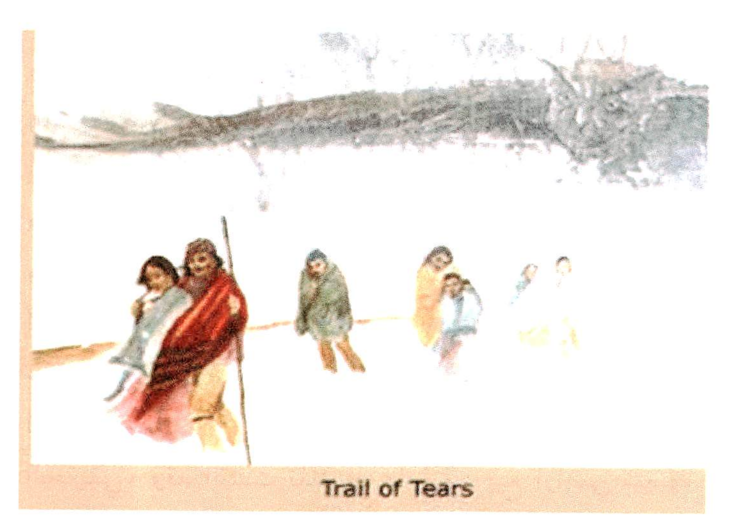
وجرياً على عادة "لوم الضحية" التي يقوم بها المعتدي للتخلص من عبء جريمته، فإن الجنرال وينفيلد سكوت، الذي أشرف على التهجير والذي كان يسعى لمنصب البيت الأبيض من هذه "المأثرة"[146] مثل غيره من الرؤساء الأمريكيين الذين بنوا سمعاتهم من اضطهاد السكان الأصليين، قال إن الهنود ملومون لكونهم وضعوا ثقتهم في قيادتهم[147]، وهي نفس النغمة التي عزفها

(140) Waldman، 2000، ص209.
(141) Reynolds، 2009، ص113.
(142) Capps، 1981، ص164.
- Reynolds، 2009، ص113.
(143) Foreman، 1972، ص312.
(144) Waldman، 2000، ص209.
(145) Thornton، 1990، ص117-118؛ - براون، 1982، ص12.
(146) Reynolds، 2009، ص112.
(147) Foreman، 1972، ص288.

الغرب بعد ذلك عندما قام "بإلقاء اللوم على الضحايا" في القضية الفلسطينية[148].



مشاهد متخيلة لرحلة تهجير الهنود ودرب الدموع





(148) سعيد، 1991.

5 - ترحيل القبائل الشمالية وحرب الصقر الأسود: قامت الولايات المتحدة بترحيل القبائل الشمالية أيضاً أو ما تبقى منها، وكانت آخر ثورات المقاومة الهندية الوحدوية في شرق المسيسبي هي الحرب التي أعلنها الزعيم الصقر الأسود Black Hawk في سنة 1832 في منطقة الشمال الغربي جنوب البحيرات الكبرى حيث قام بمحاولة توحيد القبائل كرة أخرى على خطى من سبقه من الزعماء الوحدويين وأعلن رفض سياسة الترحيل التي استندت إلى المعاهدة التي وقعها سنة 1804 أشخاص غير مخولين قبلياً وتنازلوا فيها عن أجزاء كبرى من ولايتين مقابل هدايا وخمور قدمها الأمريكيون لهم ولم يعطوا القبيلة مقابل كل هذه الأرض سوى ألفي دولار ووعد بمئونة سنوية بألف دولار (بكم زجاجة خمر ينوي الصهاينة شراء فلسطين اليوم؟)، وقد اشترك الصقر الأسود في حرب 1812 في الجانب البريطاني ضد الأمريكيين في محاولة لدفع الاستيطان عن أرضه، وفي مواجهة المطالب الأمريكية بانتقال قبيلته إلى غرب المسيسبي قاد الصقر الأسود محاربين من القبيلتين Sauk and Fox وشن عدة غارات ناجحة دفاعاً عن حق قومه في أرضهم التي أراد المستوطنون ومن خلفهم الحكومة الأمريكية الاستيلاء عليها واصطنعوا زعامة مزيفة تقبل بكل الإملاءات التي رفضها الزعيم الحقيقي، وقد اغتنت تلك الزعامة من بيع أراضي شعبها إلى عدوها، ورغم النجاح الذي حققته ثورة الصقر الأسود فإن الزعيم لم يحقق طموحاته الوحدوية ولم يكن لديه فرصة للانتصار على المد الكاسح الذي أنهى مقاومة الهنود في الشمال الغربي القديم (أو شمال شرق المسيسبي) بمجزرة الفأس الرديئة Bad Axe في يوليو/ تموز/ جويلية 1832 والتي راح ضحيتها المئات من الرجال والنساء والأطفال وهم يحاولون البحث عن ملجأ آمن من سطوة الجيش الأمريكي، وقد شارك أبراهام لنكولن في هذه المعارك ضد الهنود ليستكمل زمن رئاسته عملية قمعهم كما سيأتي، وتم أسر الصقر الأسود وسيق لمقابلة الرئيس جاكسون وعُرض على الجمهور الأمريكي الفضولي بصفته غنيمة تذكارية وشهيرة من الحرب، ولما توفي 1838 نهب اللصوص قبره وعرضوا رأسه للجمهور ثم وضع هيكله العظمي في مكتب حاكم مقاطعة أيوا المؤسسة حديثاً آنذاك[149].

---

(149) Waldman، 2000، ص140-142.



زعيم قبيلة سوك (الصقر الأسود) (1767–1838) كما رسمه الفنان تشارلز بيرد كينج (1785–1862)، وقد حصل الصقر الأسود على تأبين بعد موته (كالعادة) كان من ضمنه إطلاق اسمه على إحدى الطائرات العمودية للجيش الأمريكي الذي يقتل بها السكان الأصليين في أماكن متفرقة من العالم



الزعيم كيوكوك الذي نافس الصقر الأسود ووقع معاهدة التنازل وقبل بالترحيل والتوطين، واللوحة من رسم الفنان الشهير جورج كاتلين.

- براون، 1982، ص10.
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج3، ص4b B-27.
- http://en.wikipedia.org/wiki/Black_Hawk_(Sauk_leader)

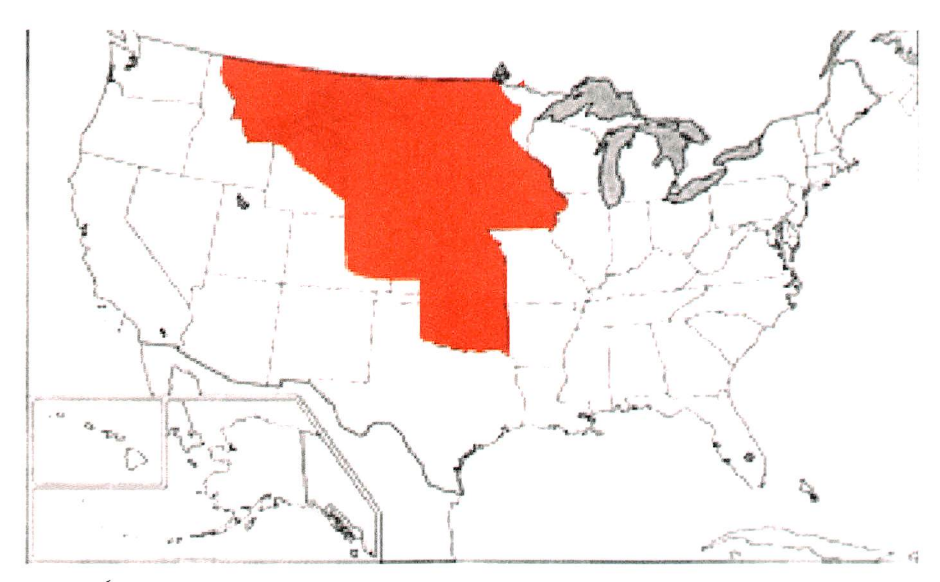
الحصيلة النهائية لعملية ترحيل القبائل الهندية إلى غرب المسيسبي:

قبل البدء في تطبيق سياسة التهجير في عشرينيات القرن التاسع عشر كان يعيش في شرق المسيسبي 125 ألفاً من السكان الأصليين، وفي سنة 1840 وبعد تطبيق تلك السياسة، رُحل ثلاثة أرباع ذلك العدد ممن ينتمون إلى ثلاثين قبيلة تقريباً ولم يتبق في الشرق إلا 30 ألفاً معظمهم حول البحيرات العظمى في الشمال إذ تركزت عملية التهجير على جنوب الولايات المتحدة حيث الأراضي الخصبة والثروات المعدنية وسيفقد ستون ألفاً من السكان الأصليين مواطنهم هناك ويرحلون 800 ميل غرباً بسرعة سير تقطع 6-12 ميلاً يومياً لكل قافلة، وكانت كل قافلة تتألف من 500-1000 مهاجر، كما سيفقد ربع إلى ثلث مجموع الهنود الجنوبيين حياتهم نتيجة تلك السياسة، وسيتم التخلي عن 100 مليون فدان في الشرق مقابل 32 مليون فدان في الغرب مع وعود بدفع 68 مليون دولار على شكل مساعدات سنوية(150)، وسيضمن "شرف" الحكومة الأمريكية الأراضي الغربية للهنود إلى الأبد وفقاً لقانون سنة 1834 الذي أطلق عليه قانون تنظيم التجارة والعلاقات مع القبائل والحفاظ على السلام في التخوم، وأوجد "المقاطعة الهندية" غرب المسيسبي والتي ستخصص لسكنى الهنود وحدهم ومنع الاستيطان الأبيض فيها وحذر من استخدام القوة المسلحة في حال مخالفة المستوطنين لأحكامه(151)، وسيتبين من محنة الهنود في مقاطعتهم أن كل وعود الحماية والازدهار، ككل وعود الرجل الأبيض، مكتوبة على الماء.

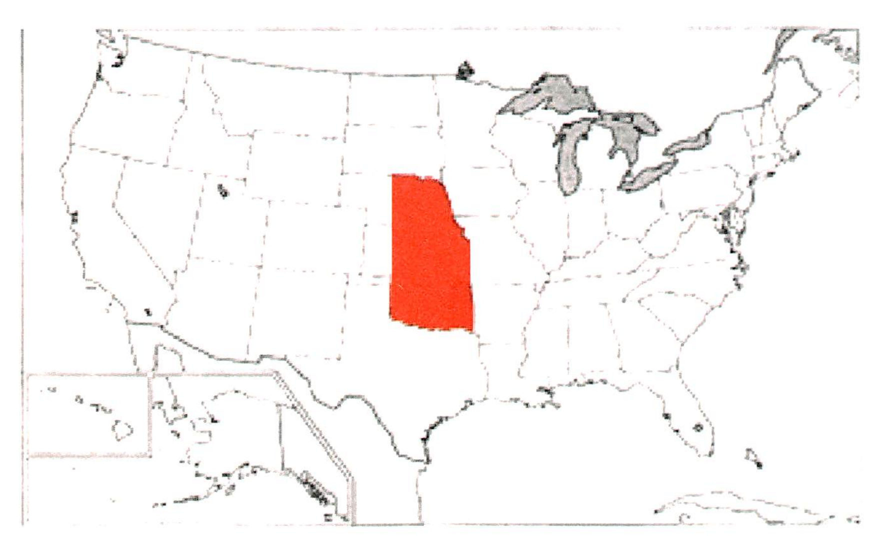
---

(150) Reynolds، 2009، ص113.
- Marks، 1998، ص90.
- Capps، 1981، ص164.
- وولف، 2004، ص404.
- Debo، 1983، ص124.
- Waldman، 2000، ص208-209.
- Foreman، 1972، ص119 و127 و168 و174 و210 و291.

(151) براون، 1982، ص11.



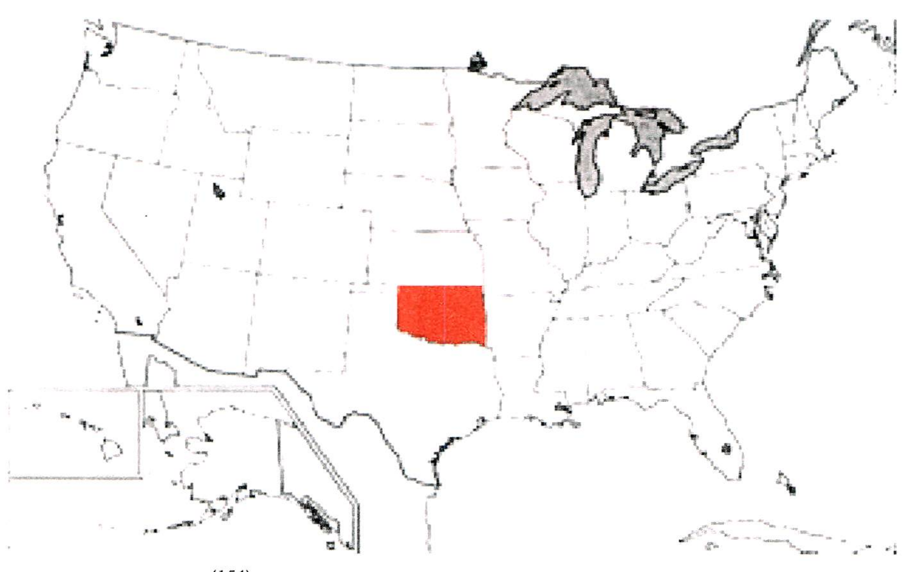
المقاطعة الهندية (1) كما حددها قانون سنة 1834 وستتقلص مساحتها كثيراً في السنوات التالية[152]



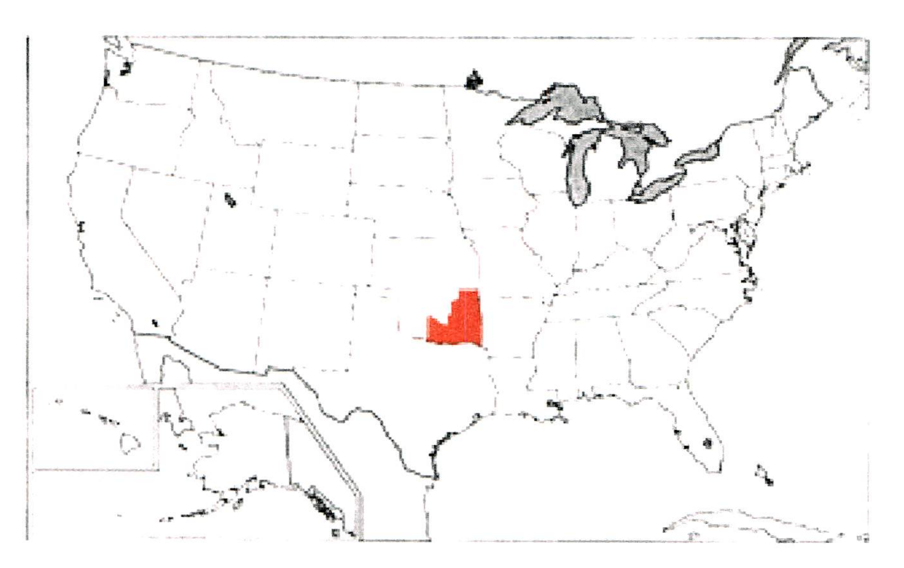
المقاطعة الهندية (2) كما أصبحت سنة 1854[153]

(152) http://users.humboldt.edu/ogayle/hist110/unit3/indians.html

(153) http://users.humboldt.edu/ogayle/hist110/MapIndianCountry1834.png – http://users.humboldt.edu/ogayle/Hist%20110%20Images/IndianCountry1854.gif



المقاطعة الهندية (3) كما صارت سنة 1876[154]



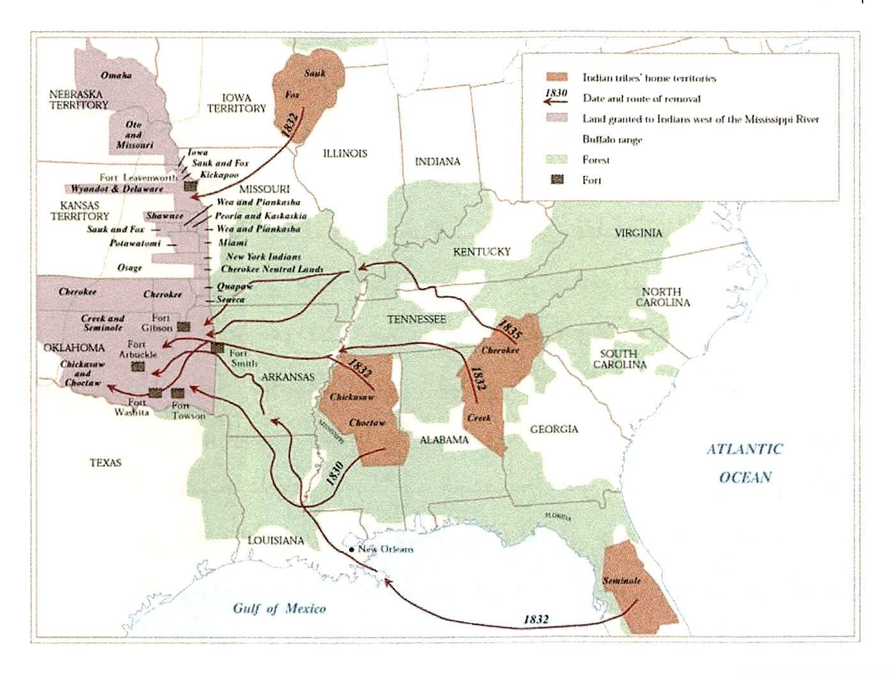
المقاطعة الهندية (4) كما صارت سنة 1889 بعد تطبيق قانون دوز وتخلي القبائل عن أراض تابعة لها لحساب إنشاء مقاطعة أوكلاهوما[155]

(154) http://users.humboldt.edu/ogayle/hist110/INDIANCOUNTRYMAP1876.png

(155) http://users.humboldt.edu/ogayle/hist110/IndianCountryMap1889.png

حصيلة الاحتكاك بالرجل الأبيض:

كانت خسائر الترحيل جزءاً من الخسائر العامة التي تكبدها السكان الأصليون نتيجة حلول المهاجرين الأوروبيين في بلادهم، ومن نماذج الخسائر التي أصابت القبائل الهندية أن قبيلة الشيروكي كانت قبل الاحتكاك بالرجل الأبيض يصل عدد أفرادها إلى 22 ألفاً وتمتلك مجالاً واسعاً يمتد على ثمانية ولايات حالية هي كارولينا الشمالية والجنوبية وفرجينيا وتنيسي وكينتكي وجورجيا وألاباما، ثم تقلص عددها إلى النصف تقريباً نتيجة أوبئة الأوروبيين ثم شارفت حد الانقراض بعد الثورة الأمريكية وما شهده الهنود من أهوال فيها كالقتل والمرض والجوع وإحراق المدن والحقول، وبين 1721-1835 تقلصت المساحة الكبيرة لأراضي القبيلة إلى صفر بواسطة 36 عملية تنازل عن الأرض تدريجياً للبريطانيين والأمريكيين(156)، هذا بالإضافة إلى آلاف الضحايا أثناء عملية التهجير وتحطيم كل الإنجازات الحضارية والاستيلاء على الأملاك المنقولة.



خريطة توضح مواطن القبائل الهندية قبل التهجير وبعده والسنوات التي بدأت فيها عمليات تهجيرها(157)

(156) Hoxie، 1996، ص105.

- Thornton، 1990، ص114-115.

(157) http://www.studyblue.com/notes/note/n/29-indian-removal/deck/4930588

مصير العملاء والمتعاونين:

ولكن ماذا عن الهنود الذين وقفوا إلى جانب الولايات المتحدة في قمع إخوتهم وقتالهم وتحملوا العبء الأكبر من ذلك إرضاء للرجل الأبيض؟ ويجيب عن هذا أحد المؤرخين بالقول إن حلفاء أمريكا لم يكن مصيرهم أفضل من أعدائها، وإن الذين شاركوا في صناعة انتصارات جاكسون شملهم الترحيل كما شمل غيرهم، وبينما كان بعضهم يقاتلون إخوتهم وهم موعودون بالحماية الرسمية ريثما تنتهي مهمتهم، كانت أسرهم تتعرض في موطنها للنهب والقتل والاغتصاب، ولما عاد المتطوعون الهنود من مساعدة الجيش الأمريكي وجدوا أنه حتى الحماية المؤقتة التي وُعدوا بها لم تنجز لهم وأن أسرهم قد غادرت نحو الغرب بعدما فقدت كل أملاكها وأملاكهم[158]، وهكذا دائماً يكون مصير العميل والمتعاون مع الاحتلال.

معضلة إسكات صوت الضمير (جاكسون والهنود على الصعيد الفردي):

لم يخرج الرئيس أندرو جاكسون عن طبيعة النفس البشرية حينا قام بإجراءات دفاعية لإسكات ضميره المكلوم بالمعاملة الوحشية التي مارسها تجاه السكان الأصليين، ومثلما يقوم كثير من الناس بتقديم الحسنات الزهيدة بدلاً من الواجبات الثقيلة، قام جاكسون الذي قتلت سياسته آلاف الهنود وشردت آلافاً آخرين، بتبرير هذه السياسة بأنها خير يقدمه لهم لكي لا يستمر احتكاكهم بالبيض بعدما أنتج عواقب أخلاقية واجتماعية وخيمة على قبائلهم مما يستدعي جهوداً "إنسانية" تجنبهم مصير القبائل المندثرة بعد احتكاكها بالرجل الأبيض، وهنا نرى أن الضرر أصبح مبرراً لضرر أكبر وهو سلب الأوطان والتهجير منها بدلاً من أن يصبح دافعاً للإصلاح، وستصبح نفس حجة الثورة على الظلم عند تكومسيه من قبل، وهي اختفاء القبائل الشرقية في وجه زحف الرجل الأبيض، حجة لدى جاكسون لترحيل البقية الباقية من هذه القبائل وإزالتها من طريق البيض في سبيل "سعادتها" وتحقيق "مصالحها"[159]، ولا بد من الاعتراف هنا بكون الإصلاح

(158) Brandon، 1985، ص240.

(159) Reynolds، 2009، ص110.

في منتصف الطريق مستحيل التطبيق في بيئة الحضارة الغربية المفعمة بالنفعية، ولهذا قام جاكسون بالاسترسال في إسكات صوت الضمير بتبني طفل هندي كان الجنود الأمريكيون قد قتلوا والديه وأصبح يطلق عليه لقب البنوة[160].

لجان التحقيق في المظالم وآلية التصحيح الذاتي المعطلة دائماً:

وفيما بعد راجت تهم عن عمليات خداع واختلاس الأموال والمساعدات التي وُعد الهنود بها في معاهدات الترحيل، فأمرت الحكومة بتحقيق يجريه الميجور إيثان ألان هيتشكوك الذي قاتل قبيلة السيمينول وأصيب بوخز الضمير كما سبق ذكره، وبدأ بتحقيقاته سنة 1841 وتوصل إلى أنه قبل وأثناء وبعد الرحيل جرت عمليات رشوة وتزوير وإخلاف وعود ونقص في الموازين وصرف أطعمة فاسدة من اللحوم والحبوب، بالإضافة إلى كل أنواع الخداع على أيدي رجال ماكرين من البيض، وقد رفضت الحكومة نشر هذا التقرير على الملأ[161]، وتبدت هنا ازدواجية المعايير من الحكومة التي كانت تقف إلى جانب اعتداءات مواطنيها البيض وتجبر الهندي على تقديم التنازلات لهم وترفض فرض القوانين التي أصدرتها هي إذا كانت لصالح الهنود (وظل السؤال يتكرر إلى اليوم عن جدوى لجان التحقيق أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين رغم كل النتائج التي توصلت إليها ولم يكن "لآلية التصحيح الذاتي" في الحضارة الغربية أي مفعول إيجابي عليها).

تفصيل المبادئ على مقاس المصالح:

وهنا تستوقف الباحث ملاحظة هامة، وهي قيام جميع المبادئ أثناء عمليات الضم والتوسع بدور المبررات لهذه السياسات، فنجد الحديث أولاً عن استيعاب الهندي بافتراض تخليه عن أرضه طوعاً وتصور عملية "التمدين" بخدمة مشتركة للهندي الذي سيدخل عالم الحضارة و"بالصدفة" للأبيض الذي سيدخل أرض الهندي، ثم يتبين أن الهندي غير مهتم بصفقة السلب والنهب هذه، لاسيما

---

(160) نفس المرجع، ص110.

(161) Waldman، 2000، ص209.

عندما تتضح له حقائق هذه الحضارة من الاحتكاك السلبي، ومع ذلك يتبنى إيجابياتها فيحرج الرجل الأبيض الذي ينتقل برنامجه من التمدين الذي لم يعد يخدم الاستيلاء على الأرض إلى ترحيل الهندي وتؤجل عملية استيعابه إلى وقت لاحق مع عدم التخلي عنها حتى أثناء التخلص منه وقذفه بعيداً وتركيز الاهتمام على الحصول على أرضه في الوقت الجاري[162]، ولما يرحل الهندي بعيداً ينشغل الرجل الأبيض بنشر الحضارة لنفسه حتى إذا وصل استيطانه ثانية إلى الهندي الذي كان بعيداً فأصبح قريباً ومتحضراً أيضاً تثار الشكوك على حضارته وتمدنه وذلك طمعاً فيما ظل في يديه من الأرض لتخدم المبادئ دائماً عملية الاستيلاء على الأرض وتفصّل على مقاسها لتسلب من الهندي تحت شعارات كاذبة كل أملاكه وتتركه وحيداً بائساً فقيراً دون أرض ولا حضارة.

وقد قيل في تبرير الترحيل كثير من المبررات التي ربما أقنعت أصحابها في ذلك الوقت ولكن نواياهم أدت إلى فضح الأكاذيب التي قدمتها هذه المبررات، ومنها حجة قامت بقلب الحقائق بشكل فاضح وهي أن عملية النقل والترحيل ليست مقصورة على الهنود وحدهم فالرجل الأبيض قد ترك مواطنه ورحل بعيداً في سبيل نفس الهدف الذي يدفع الهندي للرحيل الآن وهو البحث عن سبل العيش[163]، والغريب أن الهندي دُفع للرحيل بحثاً عن الحياة المتمدنة عن نفس الأرض التي غزاها الرجل الأبيض بحثاً عن نفس الهدف (ولعل هذه الحجة عن تشابه الرجل الأبيض والهندي في الرحيل تشبه حجة الصهاينة في أن اللجوء الذي صاحب قيام كيانهم سنة 1948 لم يكن مقصوراً على أهل فلسطين وحدهم بل شمل "لجوء" اليهود من بلاد العرب أيضاً، وهو ما تكشف زيفه بعمليات الإرهاب التي مارسها الصهاينة لدفع اليهود للرحيل بالاتفاق مع سلطات عربية عميلة).

مكانة الرئيس أندرو جاكسون في التاريخ الأمريكي:

رغم القسوة التي طبعت سياسة الرئيس جاكسون تجاه السكان الأصليين

---

(162) Prucha، 1995، ص114.

(163) نفس المرجع، ص196.

وكونه أحد المؤسسين لاضطهادهم اضطهاداً مركزاً سار عليه مَن بعده، فإن هذا السجل لم يؤثر على نظرة الأمة الأمريكية الإيجابية له بل لقد كان قمع الهنود أحد "إنجازاته" الهامة التي صنعت شعبيته الجارفة حتى قبل وصوله منصب الرئاسة[164]، إذ اكتسب معظم سمعته وشعبيته الضخمة بصفته مقاتلاً ضد الهنود، ولما كانت سياسة ترحيلهم قد بدأت في عهد الرئيس جيمس مونرو وتباطأت في عهد خلفه جون كوينسي آدامز، فقد تطلع إليه الأمريكيون للإسراع في تطبيق هذه السياسة التي ابتدعها نبيهم توماس جيفرسون وأصبح محط أنظار سكان الحدود "لحمايتهم" من غارات الهنود (أي من دفاع أصحاب الدار عن دارهم)، وكان تعهده بالقضاء على مقاومة السكان الأصليين عاملاً رئيساً في فوزه بالانتخابات الرئاسية التي لم يخسر فيها أية ولاية مازالت آنذاك في مواجهة مع الهنود، ولما وصل إلى الحكم كانت مبادئه الديمقراطية تقتضي حكم الإرادة الشعبية التي يقول مؤرخ بارز إنها لم تدعم قرار ترحيل السكان الأصليين فقط، بل طالبت بذلك، ولهذا حصلت سياسة الرئيس على دعم ملايين الأمريكيين، كما وصف هذا الدعم الذي حصل عليه في زمن ولايته بالكاسح[165]، و"كانت عملية التهجير القسري كلها مصحوبة بأناشيد الإطراء المفعمة بآيات امتداح انتصار الحضارة على الوحوش"[166].

وأصبح هذا "الإنجاز" ضمن رصيده الأكبر الذي منحه "الدعم الشعبي الكاسح" في زمنه: فقد وسع دائرة التصويت وألغى المصرف الثاني[167] بطريقة شبهت بإعلان الاستقلال وذلك بعدما شبهت انتصارات جاكسون العسكرية بانتصارات واشنطون[168]، وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال وخفض رسوم الجمارك[169]، وكان انتخابه علامة على نهاية التقاليد الأرستقراطية التي حكمت مؤسسة الرئاسة منذ الاستقلال وأتت برؤساء من الطبقة

(164) دشنر، 2003، ص156.

(165) Bennett، 2006، ص240-243.

(166) وولف، 2004، ص404.

(167) نفس المرجع، ص244.

(168) Reynolds، 2009، ص97-99.

(169) كروزيه، 2006، ج6، ص114.

العليا في فرجينيا، وكان جاكسون أول رئيس من الغرب ومن رجال الحدود ومن الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم ولم يتكل على عراقة الأصل، فمنح الغرب مكاناً في حكم البلاد، وكان داعياً لشكل جديد من الديمقراطية يشمل الناس العاديين وليس الملاك الأغنياء وحدهم، وأعطى معنى جديداً لمفهوم سيادة الشعب، وأصبح رمزاً للحرية الفردية ولحقوق الولايات[170] (رغم كونه ضد هذا المفهوم باستثناء "حقوقها" في مواجهة السكان الأصليين)، وعندما غادر المنصب كانت شعبيته أوسع من البداية[171]، وقد أقيم له تمثال فارس في واشنطن سنة 1853 بعد وفاته[172]، هذا بالإضافة إلى تماثيل في ولايات لويزيانا (مدينة نيوأورليانز حيث حقق انتصاره على الإنجليز) وميسوري (مدينة كانساس) وتينيسي (مدينة ناشفيل حيث مسقط رأسه) وميسيسبي (مدينة جاكسون)، وطبعت صورته بعد ذلك على النقود الأمريكية فئة عشرين دولاراً.



وكل ما سبق يؤكد أن التناقض بين المجتمع الاستيطاني ومجتمع السكان الأصليين ليس تناقضاً محدوداً بين أنظمة حاكمة وشعب مظلوم بل هو تناقض بين القواعد الاجتماعية ولهذا يكون الصراع بينهما صراع وجود وليس صراع حدود، ويكون الحكام الأكثر تمثيلاً لمصالح مجتمع المستوطنين هم الأكثر قمعاً لحقوق السكان الأصليين، ولهذا لا يستطيع أشد المتحمسين للدفاع عن جاكسون الادعاء أنه نشر الديمقراطية أو اهتم بالحضارة لدى السكان الأصليين[173].

(170) Reynolds، 2009، ص106.
(171) New Standard Encyclopedia، 1999، ج9، ص8 ,J-3-4.
- Reynolds، 2009، ص95-100.
(172) دشنر، 2003، ص157.
(173) Bennett، 2006، ص241 و246.



الترحيل المركب وأهميته:

كان ترحيل القبائل الهندية من الجنوب الأمريكي هو الشطر الأول من عملية الترحيل التي شهدتها هذه المنطقة، وبالتزامن مع هذه العملية وفيما تلاها شهدت المنطقة ذاتها نقل أكثر من نصف مليون من العبيد الأفارقة إليها من الولايات الجنوبية الساحلية فيما يصفه أحد المؤرخين بواحدة من أقسى وأكبر الهجرات القسرية في التاريخ كله، وتبدو الأهمية الاقتصادية للمنطقة الجنوبية التي جرى ترحيل الهنود منها وفتح أبواب الغرب من خلالها أن المغازل التي كانت تعمل في الشمال الشرقي وتعتمد على القطن الجنوبي تضاعف عددها بين عامي 1815-1831 ثلاث مرات، أي بين القضاء على المقاومة التي أثارها الزعيم تكومسيه في معركتي ثيمس (1813) في الشمال ومنحنى الحدوة (1814) في الجنوب ثم الانتصار على الإنجليز في نيوأورليانز (1815) وبين بداية عملية الترحيل، ثم تضاعفت أعداد المغازل الشمالية ثلاث مرات أخرى بين بداية عملية الترحيل (1831) وما قبل الحرب الأهلية (1860)، وكان الغرب المتوسع هو الذي يوفر الغذاء المتزايد اللازم للجنوب لاسيما بعد سنة 1816[174]، ولهذا فقد أفسح ترحيل الهنود المجال لتطوير مملكة القطن في أمريكا[175]، و"تمخض الاختتام الناجح للعملية عن تحقيق حلم جاكسون المتمثل بالمسارعة إلى إقحام الأرض الهندية بين فكي "كماشة السوق""[176].

ويرى أحد المؤرخين أن التوسع غرباً كان تحققاً للحلم الأمريكي الذي تصور فيه أمثال توماس جيفرسون أمة تتكون من كتلة فلاحية مستقلة وقوية لأنها لا تخدم أحداً بفضل امتلاكها الأرض، وكانت قيمة الأرض تفوق قيمة

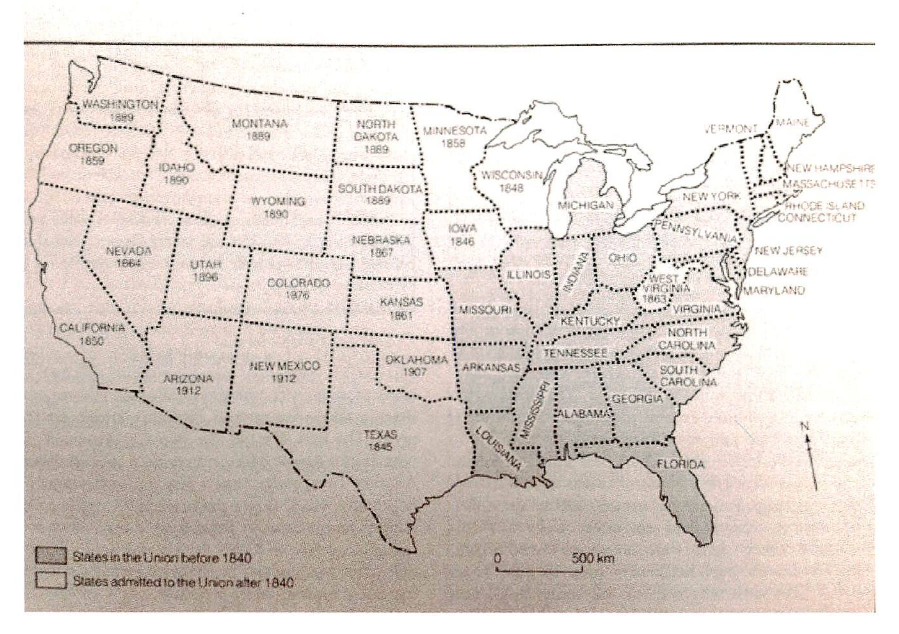
---

(174) وولف، 2004، ص397 و401.

(175) Reynolds، 2009، ص113.

(176) وولف، 2004، ص404.

المحاصيل والمواشي التي يمكن استخراجها منها، وكانت بتعبيرات مؤرخين آخرين أكثر السلع جاذبية، وفرصة الاستثمار الرئيسة[177]، وسنرى فيما بعد أن الأرض ستزداد أهميتها مع فتح الغرب للاستيطان وستصبح نقطة الانعطاف ووسيلة الاستثمار ومكان الاستيطان[178] الأكثر جذباً من بين طرق الثراء، وذلك بعدما قطع الأمريكيون مسافة طويلة في عملية الاستيطان، وبينما كانت حدود البلاد عمليا سنة 1815 هي جبال الأبالاش وكان سبع السكان وأقل من ربع الولايات البالغ عددها 18 ولاية تقع إلى الغرب من تلك الجبال، أصبح نصف السكان في سنة 1850 ونصف عدد الولايات الثلاثين تقع غرب الأبالاش، وهو ما ألف واحدة من أكبر الهجرات في التاريخ[179].



الولايات الأمريكية (المظللة) التي انضمت للاتحاد بحلول الفراغ من تطبيق سياسة تهجير القبائل الهندية إلى غرب المسيسبي (1840)[180]

(177) نفس المرجع، ص402.

(178) Reynolds، 2009، ص116.

(179) نفس المرجع، ص95.

(180) Tucker، 1996، ص59.

هذا ما أنجزه الترحيل من "إيجابيات" للأمة الأمريكية، أو بعبارة أدق ذلك هو ما استلزمه رفاه الأمة الأمريكية من تكاليف، إلا أن سياسة الترحيل تركت وصمة لا تمحى في التاريخ الأمريكي باعتراف حتى من يصفق لها[181]، أما التأريخ المحايد فيقول إن ما نتج عن ترحيل السكان الأصليين من أرضهم كان أكبر من اقتلاع عشرات الآلاف من بيوتهم، لأن ما حدث هو غرس لدرس فعال وسيء في ذهن الأمة الأمريكية الشابة التي تورطت في مؤامرة انضم إليها الرئيس نفسه واستغل فيها قسماً كبيراً من سكانها فاكتسبت من ذلك تعلم طرق جديدة في ارتكاب الخطايا التي تمر دون عقاب، لقد كان هذا الدرس العملي عرضاً لممارسة قذرة أعطت درساً غير محمود للأمة الجديدة[182]، ومما يؤكد ذلك أننا سنرى تكراراً لهذا المشهد المأساوي في داخل الولايات المتحدة وخارجها فيما بعد.

التجربة الهندية كما يصفها مؤرخ الديمقراطية الأمريكية:

كتب المفكر السياسي الفرنسي أليكسيس دي توكفيل (1805-1859) كتابه الشهير "الديمقراطية في أمريكا" (1835) بعد رحلة إلى الولايات المتحدة ومعاينة الحياة التي امتدحها كثيراً وتمنى أن تتعلم بلاده من تجربتها، ومع ذلك لم يفته الثغرة التي وصمت طابع المساواة في أمريكا والتي اطلع على هوتها العميقة عن قرب إذ كانت مشاهدته في وسط معمعة عمليات الترحيل التي قام بها الرئيس أندرو جاكسون للقبائل الهندية المتمدنة، ووصف توكفيل المشهد كما يلي في كتابه: "ليست الديمقراطية المطلقة كل ما في أمريكا... لو أنا اعتبرنا بما يحدث في هذه الدنيا، لوجب علينا في أغلب الأحوال أن نقول بأن الأوروبي يعد بالنسبة إلى بقية الجنس البشري مثلما يعد الإنسان بالنسبة إلى الحيوانات الأدنى منه، فهو يسخره لقضاء أغراضه، فإن لم يستطع قضى عليه بالهلاك (ولم يؤثر ذلك على ديمقراطية أمريكا رغم ذلك)... الحضارة ثمرة عملية اجتماعية طويلة الأمد... ويدل نجاح الشيروكي هذا على أن الهنود قابلون للأخذ باساليب

---

(181) Bennett، 2006، ص243.

(182) Brandon، 1985، ص241.

الحضارة، ولكنه لا يدل على أنهم سينجحون فيما حاولوا... من سوء حظ هؤلاء الهنود أن يجيء اتصالهم بشعب متحضر من أشد الشعوب جشعاً، وهذا ما يجب أن نعترف به، على حين لا يزالون هم نصف همج، وأن يجدوا سادتهم بين معلميهم، وأن يتقبلوا التعليم والظلم معاً في وقت واحد... وحتى هذا العيش الذليل ليس ميسوراً له دائماً في كل حال، فعندما يحاكي الهنود جيرانهم الأوروبيين بأن يحرثوا الأرض كما يحرثونها، يتعرضون مباشرة لمنافسة قوية، فالرجل الأبيض يحذق مهنة الزراعة كل الحذق، على حين الهندي مبتدئ فيها" والأبيض يجبي الغلال الطيبة والهندي يجد العقبات أمام الحصول على الثمرات، والأبيض يعيش وسط قومه ويشترك معهم، والهندي يعيش معزولاً وسط أفراد معادين ولكنه لا يستطيع العيش دون معاونتهم، ومساعدة الهنود لم تعد تكفي مما يجعل حياة الحضارة أصعب من الاستقلال الذي يتمتع به بين إخوانه، ثم إن البيض يغرونه بمبالغ تافهة عندهم ضخمة في نظره لقاء أرضه (نفس ما فعله المستوطنون في بداية الأمر على الساحل الشرقي كنيوأمستردام التي أصبحت نيويورك، وما فعله كولمبس من قبل)، فيفضل الحياة بعيداً عنهم ويهجر الحياة المتحضرة، ولا شك أن الهنود أبدوا عبقرية طبيعية لا تقل عن شعوب أوروبية ولكن لا يخفى أن الأمم كالأفراد تقضي وقتاً طويلاً لتتعلم، ورغم إعلانات حسن النوايا من الحكومة الأمريكية على لسان الرئيس جورج واشنطن نفسه، فإن استبدادها يؤيد جشع المستوطنين، "فالأمريكيون الذين في هذا الجزء من الاتحاد ينظرون بعيون الحسد والطمع إلى الأراضي التي مازالت في أيدي الهنود"، وقبل أن تتوثق روابط الهنود بالحياة المتحضرة كانت النية مبيتة لإجبارهم على الرحيل، وعندما التجأ الهنود للحكومة المركزية لضمان حياتهم الحرة على الأرض التي ضمنتها لهم وقفت الولايات تقيم العقبات الكأداء في طريق الرئاسة ففضل الرئيس الطريق الأسهل وهو أن يدع قبائل همجية تهلك كما هلك من قبلها حتى لا يعرض سلامة الاتحاد للخطر، ورغبة في التخفيف عن الهنود قررت الحكومة نقلهم إلى الغرب وهو ما رفضه معظمهم لأنهم علموا المصاعب التي ستقطع طريق تحضرهم والمقاومة التي سيلقونها من سكان البراري وتساءلوا من الذي سيضمن بقاءهم في الموضع الجديد بسلام لاسيما أن الأرض التي كانوا عليها ضمنت لهم بأغلظ الأيمان، "إن الاتحاد يعامل الهنود

الحمر بأقل مما تعاملهم به الولايات المختلفة من حيث الجشع والعنف، ولكن حكومة الاتحاد، وحكومات الولايات المختلفة، كلها سواء في الغدر بهم وسوء النية نحوهم، فالولايات تمنح الهنود ما تسميه نعمة القوانين، معتقدة أن القبائل الهندية تؤثر أن تتراجع على أن تخضع لتلك القوانين، أما الحكومة المركزية التي تعد هذه الخلائق البائسة بملجأ دائم تأوي إليه في الغرب، فتعلم حق العلم أنها أعجز من أن تفي لهم بما تعدهم به، وهكذا نجد استبداد الولايات يكره الهمجيين هؤلاء على التراجع، وييسره الاتحاد لهم بما يقطعه على نفسه من عهود، وبما له من موارد، ولا يخفى أن هذه الإجراءات كلها، إنما تهدف إلى غرض واحد بعينه" (وهذه الإفادات الخطيرة تؤكد أن استبعاد الهندي من جنة الرجل الأبيض لم يأت ضمن غمرة الأحداث بل كان عن سوء نية واضحاً منذ أيام المواجهة ولم يكن "اكتشافاً" لاحقاً وأن هناك هدفاً جلياً منذ البداية حرك هذه الأحداث كلها وهو الاستيلاء على أرض الهنود).

لقد بيّن الهنود أنهم استقبلوا الرجل الأبيض في بلادهم بالترحاب في البداية، وفندوا كون وقوفهم مع بريطانيا أثناء الثورة الأمريكية هو سبب تجريدهم لاحقاً من حقوقهم لأن ذلك لم يذكر في المعاهدات التي عقدت بعد الأحداث مباشرة، ويثنّي دي توكفيل على هذا ويقول إن قولهم حق، ثم يتبع ذلك بالقول إنه من أية ناحية نظرنا إلى مصائر سكان أمريكا الأصليين اتضح لنا أن كوارثهم لا علاج لها "فإن هم بقوا في همجيتهم ظل البيض الأمريكيون في تقدمهم يسوقونهم أمامهم، وإن حاولوا الأخذ بأسباب الحضارة، كان اتصالهم بجماعات أكثر منهم مدنية يعرضهم لمعاناة الظلم والفقر، فهم مقضي عليهم بالهلاك إذا ما ظلوا ينتقلون من قفر إلى قفر، وإن حاولوا أن يستقروا لم يكن لهم أي مفر من الهلاك أيضاً؛ فمعاونة الأوروبيين إياهم لا بد منها لتعليمهم، ومع ذلك فاقتراب الأوروبيين منهم يفسدهم ويدفعهم إلى العودة إلى حياة الهمجية... أما مسلك أمريكيي الولايات المتحدة حيال السكان الأصليين فقد تميز... باستمساك غريب بشكلية القانون، فما دام الهنود متشبثين بعاداتهم الهمجية، لم يتدخل الأمريكيون في شئونهم، بل عاملوهم على أنهم أمم مستقلة، ولم يستولوا على أراضي صيدهم إلا بعد اتفاق معهم وتعاقد على الشراء، وإن حدث أن شعباً من شعوب الهنود قد أُغير على أراضيه وتحيفت (أي أُخذت من أطرافها وجوانبها، ومن

الذي يقوم بذلك غير الأمريكيين "الحريصين" على شكليات القانون؟) حتى ضاقت بمن بقي منهم، فلم يعودوا يستطيعون العيش فيها، أخذ الأمريكيون بأيديهم في رفق ورحمة، ونقلوهم إلى مقبرة لهم بعيداً كل البعد عن أراضي أجدادهم" (لعل الكاتب كان يسخر في حديثه عن "الرفق والرحمة" أثناء عملية تخلو بطبيعتها من الرفق والرحمة وهي تهجير الهنود من أراضيهم، لاسيما أنه كان في وسط عمليات ترحيل القبائل الجنوبية المتحضرة إلى الغرب (1835) مع أن نكبات درب الدموع لم تكن قد حدثت بعد ولم يشهد الكاتب كذلك مآسي الحروب الهندية بعد الحرب الأهلية الأمريكية والتي ستحدث فيها فصول دامية كثيرة).

ويلخص دي توكفيل المشهد العام بقوله إن الإسبان عجزوا عن إبادة الهنود الحمر رغم الفظائع التي ارتكبوها "وهي فظائع لا نظير لها، وسمتهم بميسم العار، بل إنهم لم يستطيعوا حتى أن يجردوهم كل التجريد من حقوقهم التي لهم، أما أمريكيو الولايات المتحدة فقد حققوا هذا الغرض المزدوج (الإبادة والتجريد من الحقوق) بلباقة مدهشة حقاً، وفي هدوء، وعلى صورة قانونية بشكل عمل خيري، ومن غير إراقة دماء، أو انتهاك لمبدأ واحد عظيم من مبادئ الإنسانية في نظر العالم؛ فمن المستحيل أن يُقضى على قوم مع احترام للقوانين الإنسانية بأكثر مما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر"[183]، وفي هذا رد على من حاول التخفيف من جريمة الأمريكيين ضد السكان الأصليين بكون التهجير ليس تطهيراً عرقياً شاملاً لأن هدفه كان التمدين والتحضير والاستيعاب بفرض نموذج محدد للملكية الفردية وليس الاستبعاد[184]، وقد تبين فيما سبق ومن شهادة دي توكفيل أيضاً مصير الذين وافقوا على هذا النموذج وقبلوا بالحياة وفقاً لمقاييس الرجل البيض الضيقة.

---

(183) توكفيل، 1962، ج1، ص406-431.

(184) Anderson، 2005، ص8.



أليكسيس دي توكفيل (1805–1859) مفكر سياسي فرنسي وفيلسوف الديمقراطية، دوّن مشاهداته عن الديمقراطية الأمريكية في كتابه الشهير "الديمقراطية في أمريكا" (1835) بهدف إفادة بلاده من تجربتها، وكان ذلك في وسط معمعة سياسة الترحيل التي نفذها الرئيس الأمريكي السابع أندرو جاكسون (1829–1837) ضد القبائل الهندية التي اعتُرف رسميا بتحضرها وفق المقاييس الأمريكية في جنوب الولايات المتحدة ومع ذلك تم تهجيرها إلى الغرب البعيد المقفر في عهده بسبب الطمع بالاستيلاء على أراضيها الخصبة الغنية، ولم ير الكاتب الفرنسي في هذا الطمع والاضطهاد أو اضطهاد العبيد الأفارقة ما ينفي عن الولايات المتحدة صفة الديمقراطية، كما أنه أيد الفظائع التي ارتكبتها فرنسا في احتلال الجزائر، ولم يكن ذلك معارضاً للديمقراطية التي ينظّرها ويحلل مضامينها.

ملخص الماضي ومآل التمدن الهندي:

خلصنا مما سبق إلى أن الحكومة الأمريكية اتبعت سياسة الترحيل في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر لإنهاء وجود القبائل الهندية شرق المسيسبي وإعطائهم أراض في الغرب، وقد تطورت هذه السياسة من تلميح الرئيس جورج واشنطون وحث الرئيس توماس جيفرسون للقبائل على استبدال أراض غربية بأراضيها شرق النهر، ثم تعززت هذه الفكرة بمطالبة بعض الولايات

أثناء العشرينيات بنقل الهنود، ثم بعث الرئيس جيمس مونرو رسالة خاصة إلى الكونجرس يشرح فيها "مزايا" انتقال الهنود إلى الغرب، ومن هذه المزايا عدم وجود مطالبات أمريكية في تلك الأراضي ومن ثم يمكن للهنود العيش هناك بحرية، أي أن الحرية ممنوحة لهم حيثما لا يرغب الأمريكي بمزاحمتهم، فرغباته وأطماعه هي التي تحدد ما يمكن أن يستولي عليه وما يمكن للآخرين التقاط بقاياه وفتاته، مما يؤكد هامشية هدف تمدين الآخرين الذي ادعته المثل العليا لذلك الزمان، وما يزيد في التأكيد على ذلك أن جون كالهون وزير دفاع مونرو برر فكرة الترحيل بكونها ستحل المشكلة الهندية بمنح السكان الأصليين أراض في منطقة السهول التي كان يعتقد بأنها "صحراء أمريكا الكبرى" حيث لا يرغب بها أحد وسيتعلم الهنود هناك صيد الجاموس[185] (وهم الذين كانوا يمارسون الزراعة وهي مطلب الرجل الأبيض نظرياً)، أي أن طلائع التمدين والحضارة اعترفوا بأنهم يريدون الانتكاس بالهندي من وضع حضاري متقدم يمارس فيه الزراعة إلى وضع متخلف يرتد فيه إلى الصيد، فعن أية أهداف حضارية يتحدث المبررون؟ وعن أي التزام بقيم ذلك الزمان يبرر المؤرخون؟

ولكن التنفيذ الفعلي لهذه السياسة بدأ في عهد الرئيس أندرو جاكسون الذي سبق أن حارب الهنود، فقد تبنى سياسة النقل بقوة ووقّع القانون الخاص بها وصادق عليها الكونجرس في سنة 1830، وكان هذا القانون يعطي الرئيس حق التفاوض مع القبائل لنقلها غرباً بصفة ذلك هو "الحل الوحيد" للمشكلة الهندية ولتأمين "سلامتهم"، وبالفعل تمت المفاوضات بشكل مسرحي هزيل استبعد من مشهده كافة المعارضين الذين كانوا هم الممثلين الحقيقيين للأمم الهندية ووقعت المعاهدات التالية: معاهدة نهير الأرنب الراقص (1830) مع قبيلة الشوكتاو ومعاهدات مع قبيلتي الشيكاساو والكريك والسيمينول سنة 1832 ومعاهدة إيكوتا الجديدة مع قبيلة الشيروكي سنة 1835، إلا أن معارضي الترحيل لم يقبلوا بهذا الجور وأشعلوا مقاومة مسلحة في قبيلة الكريك سنة 1836 وفي قبيلة السيمينول التي استمرت حربها الثانية لمدة سبع سنوات (1835-1842) في غابات

(185) Andrist، 1993، ص7.

ومستنقعات فلوريدا، واشترك في قمعها عشرة آلاف جندي وثلاثون ألف متطوع وتمكن الهنود من قتل 1500 من الأمريكيين وأنفقت الحكومة عشرين مليون دولار، أما قبيلة الشيروكي فلم تنتقل إلا بعدما حاصرها الجيش وأرسل أفرادها بالقوة إلى معسكرات الاعتقال ومنها تم نقلهم إلى الغرب في شتاء 1838-1839 في رحلة عذاب مات أثناءها ربع القبيلة من البرد والجوع والمرض والتعب والقهر فسمى الهنود هذه الرحلة بدرب الدموع، وتمكنت الحكومة الأمريكية من نقل الأمم الخمس المتمدنة إلى الغرب بعدما حطمت تجربتها الحضارية وقطعت الطريق على تبنيها مدنية الرجل الأبيض.

ورغم كل ما سبق واصلت القبائل الخمس المتمدنة لاسيما الشيروكي في وطنها الجديد في المقاطعة الهندية (أوكلاهوما فيما بعد) طريقها السابق فاعتمدت السير على طريق الرجل الأبيض من جديد فألفت كتلة القبائل الخمس المتمدنة السائرة على طريق الرجل الأبيض[186] والتي أنشأت مزارع فردية كبرى يعمل فيها عبيد أفارقة كما يفعل الرجل الأبيض، وبنت بيوتاً فارهة ومفروشة بالأثاث المستورد من السوق الأمريكي، وبهذا كان الهنود يعيشون كما يعيش جيرانهم البيض من سكان الحدود الأمريكيين، كما تبنوا دساتير ومناهج حكم بمجالس ومقاطعات وانتخابات وفقاً للنموذج الأنجلو سكسوني، وكانت مجتمعاتهم ملتزمة بالقوانين كجيرانهم البيض أيضاً، هذا بالإضافة إلى وجود المدارس والإرساليات[187]، وأعادت قبيلة الشيروكي تأسيس نظام التعليم وبنت المدارس الابتدائية والعليا وواصلت إصدار صحيفتها باللغة الإنجليزية ولغتها القومية، كما أسست حكومة ذات ثلاث شعب تنفيذية وتشريعية وقضائية واتخذت عاصمة لها وواصلت تبني الديانة المسيحية وبناء الكنائس، ولخص أحد الباحثين إنجازاتها بأنها حاولت "بناء مجتمع قائم على أفضل مواصفات حضارة البيض"[188]، ويلاحظ أحد المؤرخين المفارقة بين المعاناة التي شهدتها قبيلة الشيروكي من

---

(186) Grant، 2000، ص129.

(187) Debo، 1983، ص128-129.

(188) Capps، 1981، ص164.

عملية الترحيل والازدهار الذي صنعته رغم خسائرها فيقول إن الفترة الممتدة بين نهاية التهجير (1840) والحرب الأهلية الأمريكية (1861) كانت العصر الذهبي الذي عاشته القبيلة[189].

وقد تتبع بعض المؤرخين خطوات عملية التطور فوجدوا أن الدستور الشيروكي كتب في نفس السنة التي وصلوا فيها إلى موطنهم الجديد (1839) ووضع موضع التطبيق في صيف 1840، وسيتأسس نظام تعليمي في السنة التالية (1841) وفي غضون ثلاث سنوات سيكون لدى القبيلة 18 مدرسة وستطبع صحيفة الشيروكي في غضون أربع سنوات بصفتها أول صحيفة في أوكلاهوما وستكون بلغتين هما الإنجليزية ولغة القبيلة المحلية، وفي غضون 11 عاماً سيتم افتتاح مدرستين للتعليم العالي[190] للذكور والإناث.



معهد التعليم العالي للبنات في تاهليكوا عاصمة الشيروكي في المقاطعة الهندية كان يهيئ الطالبات للدراسة الجامعية في الجامعات الأمريكية[191]

ماذا كانت ردة الفعل الأمريكية على كل هذه الخطوات الواسعة التي اتخذتها القبائل المتحضرة في السير في طريق الرجل الأبيض؟ وهل أقنعها كل

(189) Hoxie، 1996، ص106.

(190) Capps، 1981، ص24.

(191) نفس المرجع، ص164.

ذلك لقبول الهندي في المجتمع الأمريكي؟ وهل نجحت كل تلك الإصلاحات في تحويل الهندي إلى رجل أبيض؟

لقد أصيبت القبائل الهندية في مجتمعها الجديد بصدمتين بعد صدمة الترحيل، الأولى هي الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) والثانية هي قانون التحصيص الذي سمي باسم السناتور هنري دوز الذي اقترحه وتم إقراره سنة 1887 وتطبيقه على القبائل الخمس المتمدنة في بداية القرن العشرين (1903)، وقد تمكن السكان الأصليون من تجاوز الصدمة الأولى وهي التهجير وكذلك الصدمة الثانية وهي الحرب الأهلية رغم أن الولايات المتحدة أهملت مساهمات من وقفوا إلى جانبها وعاملتهم كأعداء[192]، إلا أن الصدمة الثالثة كانت قاتلة لمشروع التمدين الهندي.

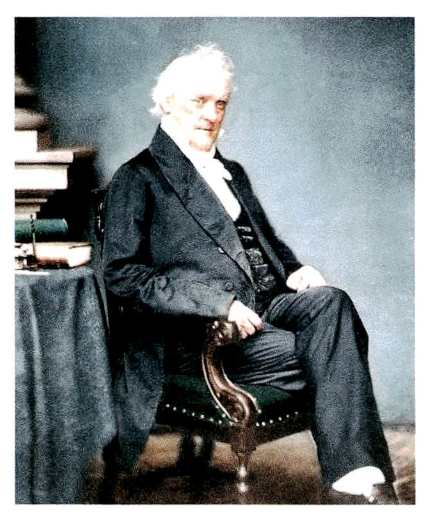
استمر صعود القبائل الهندية المتمدنة في موطنها الجديد، ولكنها لم تلبث طويلاً حتى تجددت الأطماع الأمريكية بتلك الأراضي، خلافاً للوعود الرسمية التي بذلت لهم وأكدت أن التنازل عن الأراضي الشرقية سيكون الأخير، وأن أراضي المقاطعة الهندية ستبقى لهم إلى الأبد[193]، وتحققت نبوءة كانت واضحة لأحد معارضي سياسة التهجير سنة 1829 أي قبل الترحيل القسري من شرق المسيسبي حين كتب: "بعد خمس وعشرين سنة، سيصبح 4 ملايين من سكاننا مستقرين في غرب المسيسبي، وبعد خمسين سنة لن يكون العدد أقل من 15 مليوناً، وبحلول ذلك الزمن سيكون الضغط على الهنود من قبل البراري الممتدة التي سيتم إخضاعها واستيطانها، أكبر كثيراً من الضغط عليهم الآن من جهة حدودهم (في مواطنهم الشرقية)"، وبالفعل ظهرت الضغوط على الهنود في عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر بعد قليل من استقرارهم في المقاطعة الهندية خلف حدودها "الدائمة"، وجاء على لسان حاكم مقاطعة كانساس المجاورة سنة 1857 إن أراضي المقاطعة الهندية من أكثر أراضي القارة كلها ملاءمة وخصوبة وتصلح لزراعة القطن ويجب أن تصبح قريباً ولاية أمريكية، ويجب أن يتم استبدال المعاهدات مع الهنود الذين سيصبحون الأكثر ثراء وازدهاراً من بيع

---

(192) Hoxie، 1996، ص577.

(193) Brandon، 1985، ص230.

أراضيهم (نفس الوعد الذي قدمه هرتزل لسكان فلسطين الذين توقع لهم الثراء من بيع أراضيهم[194]، وكانت نتيجة الوعود الخلابة والكاذبة، والتي احتوت نقيضها بالمطالبة بتجريد أصحاب الحقوق من أراضيهم، متشابهة وكارثية في الحالتين الهندية والفلسطينية)، ورغم الاعتراف الرسمي الذي أدلى به الرئيس الأمريكي جيمس بوكانان (1857-1861) عن تقدم الهنود السريع في جميع فنون الحضارة وتوقعه أن يندمجوا في الاتحاد بولاية ذات سيادة، فقد علت أصوات تطالب بإخلاء المقاطعة الهندية من السكان الأصليين، وكان ذلك على لسان الحملة الانتخابية "للمحرر العظيم" أبراهام لنكولن[195]، الذي سيشهد الهنود مشاهد دموية أثناء رئاسته التي ستفتتح آخر فصول الاستيطان والحروب الهندية التي ستكون طويلة ودامية.



الرئيس الأمريكي الخامس عشر جيمس بوكانان (1857–1861) اعترف رسمياً في رسالته السنوية الأولى إلى الكونجرس بالتقدم السريع الذي أنجزه الهنود في فنون الحضارة وتوقع دخولهم الاتحاد قريباً بولاية ذات سيادة، ولكن العكس هو الذي حدث إذ تم إجهاض مشروعهم وتُركوا فريسة للفقر والبؤس والمرض (اللوحة من رسم الفنان الأمريكي ماثيو برادي بعد تلوينها كما جاءت في موسوعة ويكيبيديا)

اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال الصناعي والجنوب الزراعي، فانتقل الانقسام إلى المجتمعات الهندية وتحولت الحرب بين الأمريكيين إلى حرب عند الهنود بين موالين للشمال وموالين للجنوب، وكانت الصفة الغالبة على قبيلتي الشوكتاو والشيكاساو مساندة الجنوب أما بقية القبائل ففضلت مبدئياً

(194) المسيري، 2002، ص123.

(195) Prucha، 1995، ص428 و417.

الحياد[196]، ثم أصبحت الصفة الغالبة على القبائل الخمس موالاة الجنوب مع وجود أحزاب شمالية قوية بين الشيروكي والكريك، وهي مفارقة أن يتحالف الهنود مع أعدائهم الجنوبيين الذين أجلوهم من أوطانهم ضد الشماليين[197]، وبلغ من حماس الهنود للحرب أن قائد الشيروكي ستاند واتي كان آخر الجنرالات الجنوبيين استسلاماً بعد نهاية الحرب، كما استعرت الحرب بين من كان موافقاً على الترحيل قبل ثلاثين عاماً ومن كان معارضاً له، وهذا العامل هو الذي جعل الحرب مدمرة للهنود، وهي مفارقة أخرى في زمن تأييد الجنوب، ولكن موقف الهنود بشكل عام في هذه الحرب نبع من عدة مبررات هو أنهم حمّلوا الحكومة الاتحادية مسئولية تهجيرهم، كما أنهم خشوا من فقدان عبيدهم ومن نوايا غزو الشماليين أراضيهم، ولم تقم حكومة لنكولن بجهد حقيقي في البداية لمناوأة النفوذ الجنوبي لدى الهنود، كما أن الحكومة الشمالية خططت للانسحاب من أقاليم الهنود الجنوبية ولم تحاول الاحتفاظ بها، وقد وعد الجنوبيون الهنود بالمشاركة السياسية وقبول مندوبيهم في الكونجرس، وفي النهاية لم تكن لديهم النية ولا القدرة على حماية أراضي الهنود في الوقت الذي غيّر فيه الشماليون رأيهم وحاولوا جذب الهنود إليهم وجندوهم بالفعل إلى جانبهم، بعد تمنّع الرأي العام الشمالي العنصري الذي انصاع له الرئيس لنكولن حتى ظهرت مصالح جديدة، ولكن الشماليين أنفوا بعد ذلك من القتال إلى جانب الهنود واستخدموهم في سبيل المصالح الأمريكية الخاصة والمجهود الحربي الشمالي ولم يسمحوا لهم بحماية أراضيهم الهندية، وكان جزاء اللاجئين من المقاطعة الهندية إلى كانساس والذين احتفظوا بالولاء للشمال هو البؤس والحرمان وكان شأنهم ضئيلاً في جدول اهتمامات الحكومة، ولما عادوا إلى مساكنهم بعد عدة وعود منكوثة ورفض من لنكولن لإعادتهم، نُزعت الشرعية من حقوق الهنود الذين ظلوا يحتفظون بأراضيهم المضيفة هناك حتى ذلك الوقت فانضموا إلى قائمة النزوح إلى المقاطعة الهندية [198]، (كان وضع اللاجئين الفلسطينيين ومازال لا يحظى بمكان مهم في اهتمامات الأمريكيين منذ عشرات السنين).

(196) Hoxie، 1996، ص123-124.
(197) Prucha، 1995، ص415-416.
(198) Nicholas، 2000، ص25-64.

أي أن الحرب صارت حربين، واشترك عشرات الألوف من الهنود في القتال، وخسروا أعداداً كبيرة من أفرادهم بسبب هذا القتال، وتقدر الخسائر بما بين 6-10 آلاف قتيل من مجموع السكان الذي وصل ستين ألفاً، وتلك نسبة خسارة مرتفعة، وتذهب تقديرات إلى أن قبائل الكريك والشيروكي والسيمينول وصلت نسبة خسائرها إلى ربع السكان[199]، وتؤكد تقديرات مؤرخ قارب الأحداث في نهاية القرن التاسع عشر أن خسائر قبيلة الشيروكي وحدها بلغت 7 آلاف قتيل من مجموع أفراد القبيلة البالغ عددهم آنذاك 21 ألفاً وأن الحرب تركت منطقة الهنود رماداً[200]، وفوق كل ذلك فُرضت على الهنود معاهدات الهزيمة التي أدت إلى تنازلهم عن القسم الغربي من أراضيهم، أي مزيد من السلب، ولم يحصل الذين ساندوا الشمال على شروط أفضل من الذين ساندوا الجنوب، وكانت النتائج حسب قوة القبائل ونفوذها لا حسب ولاءاتها[201]، وخلاصة ما سبق أن الحرب الأهلية الأمريكية كانت كارثة ونكبة على هنود القبائل الخمس المتمدنة، ومع ذلك عادت تلك القبائل ولملمت جراحاتها وتعافت سريعاً من آثار الحرب وواصلت مسيرتها[202].

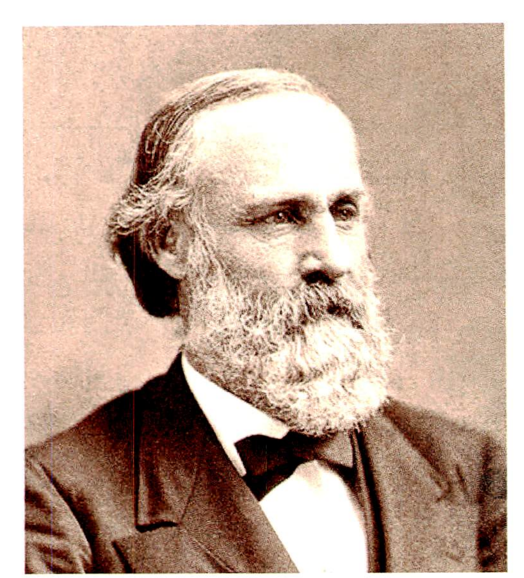
باسم القضاء على الرق قامت الحكومة الأمريكية بتوقيع معاهدات مع القبائل الهندية الجنوبية (الشوكتاو والشيكاساو) بعد نهاية الحرب الأهلية أجبرتهم فيها على التنازل عن أراض لصالح عبيدهم المحررين ولكنها لم تدفع لهم ثمن تلك الأراضي ولم تمنحها أيضاً للعبيد المحررين ثم فتحتها للاستيطان الأبيض[203]، وهكذا كان القضاء على العبودية من أشهر المبررات لأحط الممارسات

(199) Hoxie، 1996، 123-125؛ - Debo، 1983، ص201.
(200) Thornton، 1990، ص107.
(201) Debo، 1983، ص181-182.
(202) نفس المرجع، ص201.
(203) http://2012books.lardbucket.org/books/united-states-history-volume-2/s06-04-imperialism-at-home-and-abroad.html
- Debo، 1983، ص182-183.

في سنة 1887 أقر الكونجرس قانون التملك الفردي الذي اقترحه السناتور هنري دوز لتقسيم أراضي الهنود، أي محمياتهم التي ضمنتها لهم المعاهدات مع الولايات المتحدة، إلى قطع صغيرة توزع على الأفراد وعائلاتهم لتكون ملكية خاصة لهم مع فتح بقية أراضي القبائل للاستيطان وتملك البيض، وقد سمي القانون كذلك قانون التحصيص أو توزيع الحصص، وقد غلف بادعاءات إنسانية تحرص على تمدين الهنود ونشر الحضارة بإدخال مفهوم الملكية الفردية بينهم وكان مقترح القانون ممن يوصفون بأصدقاء الهنود، إلا أن النتيجة التي أسفرت عن تطبيق هذا القانون لمدة 47 سنة صورت كيف أن التوجهات الإنسانية يمكن أن تخدم أحط دوافع الطمع المادي، وقد وصفت نتائج القانون بالمدمرة، إذ تم تقسيم 118 محمية هندية وانتقلت نسبة الثلثين من أفضل أراضي الهنود إلى ملكية البيض وكان ما تبقى للسكان الأصليين هو الثلث الأكثر رداءة وقحلاً، ومع بذل المجهودات الكبيرة للاستيلاء على أرض الهنود "وفقاً للقانون وفي سبيل تمدينهم"، لم تبذل جهود موازية لتعليمهم المدنية الجديدة بعد نهب أراضيهم وقضاء الوطر منهم، وكان من أسباب الفشل، إضافة لرداءة الأراضي التي تركت لهم، نقص التدريب وقلة الأموال والاعتمادات، وسيدفع انعدام البديل إلى تمسك الهنود بطرقهم الجماعية القديمة، وسيسفر تطبيق القانون عن زيادة عدد الهنود الذين لا يملكون الأرض من 5 آلاف سنة 1887 إلى مائة ألف سنة 1934 عندما انتهت سياسة التحصيص[204]، وتصور لقطات عاصرت الحدث كيف وقف عشرات الآلاف من المستوطنين الطامعين على حدود الأراضي الهندية بانتظار لحظة فتحها رسمياً للانقضاض عليها والسبق إليها وكيف تم الاندفاع داخلها واحتلالها وشغلها في وقت قياسي في قصره، وعلى سبيل المثال قام 100 ألف مستوطن في 16 سبتمبر 1893 بوضع أيديهم على ستة ملايين فدان في غضون ساعات قليلة فقط[205].

(204) Rosenbaum، 2003، ص171.

(205) Geoffrey C. Ward، 1996، ص391-392.



هنري دوز (1816–1903) الذي أصبح سيناتوراً في الفترة (1875–1893) واقترح قانون تحصيص الأراضي (1887) لتمدين الهنود بالاستيلاء على أراضيهم وكانت منطلقاته في ذلك "خيرية" و"إنسانية" (!)



صورة حقيقية للهجوم على أرض الهنود في يوم فتحها للاستيطان
وفي الصفحة التالية لوحات تصور المشهد أيضاً







في البداية لم يطبق قانون التحصيص على الأراضي التي تقطن فيها القبائل الخمس المتمدنة، وذلك بعدما باعت أراضيها في غرب المقاطعة الهندية فافتتحت للاستيطان سنة 1889 (خريطتا المقاطعة الهندية رقم 3 و4 في هذا الفصل) وأصبحت مقاطعة باسم أوكلاهوما[206]، وكان سبب عدم تطبيق التحصيص على تلك القبائل هو الضمانات التي منحها الرئيس جاكسون لها في المعاهدات التي عقدها معها في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ومنحها فيها أراض في الغرب إلى الأبد مقابل أوطانها الأصلية في الشرق، ولكن في سنة 1901 بدأ الكونجرس بالتحضير لوضع محميات هذه القبائل ضمن قانون التحصيص وذلك بمنح المواطنة للهنود في المقاطعة الهندية التي تحوي هذه المحميات وذلك لجعلهم تحت سلطة القانون الأمريكي، وبالفعل امتد قانون التحصيص إلى هناك في سنة 1903[207]، ومع ذلك قامت القبائل الخمس بالتعاون مع بقية قبائل المقاطعة الهندية بإرسال مندوبيها إلى مؤتمر عام (1905) أطلق عليه اسم مؤتمر سيكويا تيمناً بمخترع أبجدية الشيروكي، وقام المؤتمرون بتحضير مسودة دستور لعرضه على الكونجرس بصفته القانون الأساس لولاية هندية مستقلة تدخل الاتحاد الأمريكي باسم ولاية سيكويا.

رفض الكونجرس المشروع برمته وأنهى وجود المقاطعة الهندية في السنة التالية (1906) وتم حل جميع الحكومات الهندية، وطُبق التحصيص على أراضي المقاطعة وألحقت بمقاطعة أوكلاهوما التي دخلت الاتحاد بصفتها ولاية أمريكية جديدة في سنة 1907، وكان ظهور أوكلاهوما واستقلالها إيذاناً بنهاية مشروع استقلال الهنود[208]، وهو ما يؤكد أن المشروع الاستيطاني لم يتأسس إلا على حساب الآخرين، وأن الظلم الذي أصاب الهنود لم يكن حتى في نقلهم من أوطانهم إلى أوطان غريبة وفقيرة، بل في عدم الأمان وعد الاستقرار في أملاكهم

(206) Rosenbaum، 2003، ص173.
- New Standard Encyclopedia، 1999، ج7، صF-157.
(207) Lamar، 1977، ص379.
(208) Grant، 2000، ص129.
- Rosenbaum، 2003، ص126 و173.
- Yenne، 1986، ص40.

الجديدة[209]، كما تبين سابقاً، واتضح حينئذ أن الصراع على الأرض هو القضية وأنها هي المحور، أو كما كتبت صحيفة الشيروكي، أن أرض الهنود سيسيل لها اللعاب وتثير طمع اللصوص الذين لم يتركوا فرصة للسرقة والسلب بالخداع وبتوظيف كل قدراتهم الفطرية ضد كل الجماعات الهندية التي أصبحوا على صلة بها[210].

لقد برر الرئيس جاكسون عملية نقل الهنود المتمدنين إلى الغرب بالقول إن هذا هو الحل الوحيد للمشكلة الهندية لأن الأراضي غرب المسيسبي غير مطلوبة أمريكياً ومن ثم يمكن تأمين سلامة الهنود حيث لا احتكاك مع البيض، وهو عذر أثبت فشله أمام شره الأطماع إذ لا يمكن المراهنة لمدة طويلة على عزوف اللص عن غنيمة بعيدة، وبُرر قانون التحصيص الذي سلب أراضي الهنود بأنه ضروري لتمدين الهنود عن طريق تعليمهم الملكية الفردية التي لا يمكن التحضر دونها[211]، وأن الملكية القبلية الجماعية تحجز مساحات واسعة أكثر من حاجة القبيلة، ولهذا على الهنود تعلم الطريقة المتحضرة في التملك، ولكن ما حدث بعد إلغاء الملكية الجماعية التي وصفت بأنها تدعم وحدة القبيلة التي هي عائق في وجه تمدين الهمج[212]، (هل ستقبل أمريكا التي تخشى وحدة قبيلة بوحدة عربية أو إسلامية؟)، يؤكد أن تلك التبريرات لم تكن سوى أكاذيب وذرائع لسرقة أراضي الهنود، فقد انتقلت الأراضي الجيدة إلى أيدي البيض ولم يبق مع الهنود إلا الأراضي الفقيرة، وأصبح هنود أوكلاهوما من أفقر الجماعات الهندية في أمريكا الشمالية[213] وكل ما فازوا به هو أن اسم الشيروكي أصبح علماً متحفياً لسيارة أمريكية شهيرة سرقت التاريخ كما سُرق أيضاً في كثير من الأسماء الهندية التي أصبحت علامات أمريكية (بونتياك، أباتشي، توماهوك... إلخ) وذلك بعدما سُرقت الجغرافيا من قبل، وقد حدث هذا بعدما هيأ الهنود أنفسهم ووصل مستواهم إلى إعلان ولاية خاصة بهم، ولهذا فإن قانون التملك الفردي لم يكن

---

(209) Prucha، 1995، ص229.

(210) Capps، 1981، ص164.

(211) Strickland، 1981، ص32.

(212) Brandon، 1985، ص388.

(213) Strickland، 1981، ص36.

كما وصفته الدعاية بأنه للهنود كإعلان تحرير العبيد للأفارقة وكإعلان الاستقلال للأمريكيين وكوثيقة الحقوق (الماجنا كارتا) دمجت جميعاً في وثيقة واحدة[214](!)

ورغم الفشل الذريع الذي منيت به شعارات تمدين السكان الأصليين وتحضيرهم، وذلك بانكشاف كذب الولايات المتحدة وزيف ادعاءاتها عن ضرورة تغيير الهنود أسلوب حياتهم لدمجهم في المجتمع الأمريكي، وظهور أن الأرض هي محور الصراع واستبعاد أية أهمية لأي جهد بذله الهنود لتطوير أنفسهم، فقد ظل هناك من يلقي اللوم بلا حياء على الهنود ويطالبهم بتغيير حياتهم وإلا فالموت أمامهم[215]، وظل هناك فيما بعد من يرفع هذه الشعارات في وجوه القبائل الهندية المتنقلة في السهول العظمى، ويطالبها بالاستقرار والزراعة رغم فشل من حاولوا ذلك في إقناع الأمريكيين الطامعين بجديتهم، وهي شعارات ثبت أن الهدف منها هو تبرئة الذات الأمريكية من تبعة الجريمة الكبرى الواضحة التي ارتكبت ضد سكان البلاد الأصليين وإظهار تقصيرهم في التلاؤم مع المد الحضاري الكاسح، الذي يمكن وصف شروط التلاؤم معه بالتعجيزية كما سبق ذكره وذلك لتبرير اكتساح الآخرين وسلبهم وإبادتهم بعدما وضعت الكرة في ملعبهم وكان المنتظر أن يقوموا بالاستجابة اللازمة، والتي لم تتحقق في نظر الأمريكي ليس بسبب التقصير كما ادعى بل بسبب رفضه المسبق قبول أية استجابة تكبح من تعطشه للاستيلاء على أراضي وممتلكات وموارد وحقوق الآخرين، ولا ندري كيف يمكن أن تتفق الصفة الحضارية مع المطالب القسرية الإبادية؟ ولكن هذا ما حدث ويقارن به ما قاله روتشيلد عضو مجلس العموم البريطاني في تأييده لمشروع التقسيم الذي طرح سنة 1937 ويبرئ فيه أبناء دينه من مسئولية القضية الفلسطينية "لإنهم أدوا أحسن ما يكون الأداء نصيبهم من عبء النهوض بفلسطين (هل كان هذا النهوض موزعاً على الجميع؟) وزيادة سكانها (أصبحت المشكلة هي الحل: أليس هؤلاء الأغراب هم سبب

---

(214) Utley، 2002، ص215.

(215) Sword، 1985، ص7.

الصراع؟) وترقية مواردها (لأنفسهم)"[216]، وبهذا يتضح جلياً معنى جلب الحضارة لمنطقة "متخلفة": فهو إغراقها بالأغراب وتحسين وضعهم فيها مع استثناء السكان المحليين بعزلهم أولاً ثم طردهم في النهاية.

وفي نفس الوقت الذي كان الأمريكيون فيه يستولون على أراضي الهنود "الفائضة" وتبرير ذلك بأن حق القبائل في أراضيهم محصور بالاستعمال وليس حق تملك مما يعني إمكان الاستيلاء عليها تحت شعارات الحضارة والزراعة والملكية الفردية، كان الاستعمار الاستيطاني الفرنسي يقوم بإجراءات مشابهة في الجزائر وتحت نفس الذرائع "القانونية": فالقبائل لا تملك سوى حق استعمال الأراضي ولا تملكها، وذلك كما كان الأمريكيون قد قرروا قبل ذلك بسنوات[217]، ولهذا فعليها أن تترك الأراضي "الفائضة" وتسلمها للدولة التي لن تعترف بالقبائل إلا بعد إتمام هذه العملية، ولن يبقى في أيدي الجزائريين إلا ما زرعوه قبل تطبيق هذا القانون (1861) بسنتين والمراعي التي كانوا يملكونها، وتمكنت الحكومة من اغتصاب 61 ألف هكتار من مجموع 343 ألف هكتار انطبق عليها القانون، ولما أثار ذلك الاستياء في البلاد، صدر مرسوم بعد سنتين (1863) نص على الاعتراف بملكية القبائل الجماعية وعدم جواز بيعها، إلا أنه اقترح تقسيم الأملاك الجماعية بين القبائل أولاً ثم بين الأسر، وهو ما مكن المستوطنين من الحصول على الأراضي ومكن الدولة من الاستيلاء على قسم من الأراضي القبلية (كما حدث في أمريكا تماماً)، وهكذا تم الاستيلاء على مليون هكتار من سبعة ملايين في غضون سبع سنوات من تطبيق المرسوم الجديد[218].

---

(216) الخولي، 1973، ج1، ص676-677.

(217) Banner، 2005، ص150-190.

(218) لوتسكي، 2007، ص198.



الفصل السابع عشر

الحروب بين الدول الاستعمارية

(4)

الحرب المكسيكية-الأمريكية (1846-1848)
ومآسي التطهير العرقي في تكساس وكاليفورنيا

عندما استقلت المكسيك عن إسبانيا سنة 1821 كان كثير من سكان تكساس التابعة لها من الأمريكيين الذين شجعتهم الحكومة المكسيكية على الاستيطان في تلك المقاطعة في البداية ثم غيرت رأيها نتيجة شعورها بفقدان السيطرة عليها وقامت بتحديد الهجرة وفرض قوانين شديدة على سكان تكساس، وقد دفعهم ذلك لإعلان استقلالهم سنة 1835 وتمكنوا من هزيمة الحملة العسكرية المكسيكية ضدهم وأعلنوا جمهوريتهم المستقلة (1836) التي رغبت في الدخول إلى الاتحاد الأمريكي منذ البداية ولكن تمسكها بالرق وتهديد المكسيك بالحرب أجّلا تطبيق هذا القرار عشر سنوات (1845) حين اتخذت الجمهورية الجديدة قرار الانضمام ووافق الكونجرس الأمريكي رغم علمه بأنه إعلان حرب على المكسيك، وبالفعل بدأت تلك الحرب في سنة 1846 ودخل الجيش الأمريكي الأراضي المكسيكية بقيادة الجنرال وينفيلد سكوت الذي أشرف على ترحيل قبيلة الشيروكي خلال درب الدموع سنة 1838-1839، واستمرت الحرب المكسيكية سنتين تمكن فيها الجيش الأمريكي من احتلال كثير من الأراضي ودخول العاصمة نيو مكسيكو في سبتمبر 1847، وتم التوقيع على الصلح في فبراير/ شباط/ فيفري 1848 بتخلي المكسيك عن نصف أراضيها الذي يضم كلياً أو جزئياً ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيفادا ويوتا وأريزونا ووايومنج وكولورادو

ونيو مكسيكو، وكل ذلك مقابل 15 مليون دولار[1].

ضمنت الولايات المتحدة عدم تدخل بريطانيا في النزاع مع المكسيك عندما توصل الأمريكيون والإنجليز إلى تسوية بشأن إقليم أوريغون الذي كان يتاخم أملاك المكسيك وكان تحت الإدارة الأمريكية البريطانية المشتركة إلى سنة 1846 حينما رسمت الحدود بين كندا البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية ثم أصبح الإقليم مقاطعة أمريكية سنة 1848[2]، وبهذا دخل الساحل الغربي في الملكية الأمريكية، وهو ما أدى إلى تبعات حاسمة فيما يتعلق بمصير السكان الأصليين، ذلك أن أراضي الهنود الغربية لم تعد حاجزاً مفيداً بين الولايات المتحدة والقوى الأوروبية، أو مخزوناً لترحيل القبائل إليه كلما تقدمت الحدود "الدائمة" نحو الغرب وتم الاستيلاء على مزيد من الأراضي، بل أصبحت حاجزاً يفصل شرق الأمة الأمريكية عن غربها، فأصبح من اللازم التفكير بوسيلة جديدة للتعامل مع "المشكلة الهندية" التي تواجه التوسع الأمريكي وهو ما سيسفر عن تبني نظام المحميات لحصر هؤلاء الهنود فيها بعد إجبارهم على التنازل عن أراضيهم بوسائل متعددة كانت ترتفع وسيلة العنف فيها كلما تقدم الزمن وضاقت المساحات التي بحوزتهم، ورغم أن هذا النظام كان معروفاً من قبل في السياسة الأمريكية فإنه اتخذ صورة أكثر أهمية وتحديداً وانتشاراً منذ نهاية الحرب مع المكسيك، كما أصبحت الولايات المتحدة تفكر في حماية مهاجريها ومستوطنيها في المقاطعات الجديدة من "خطر" أصحاب البلاد الأصليين مما سيجعلها تبني الحصون العسكرية في طول القارة وعرضها[3].

---

(1) نعنعي، 1983، ص122-123.

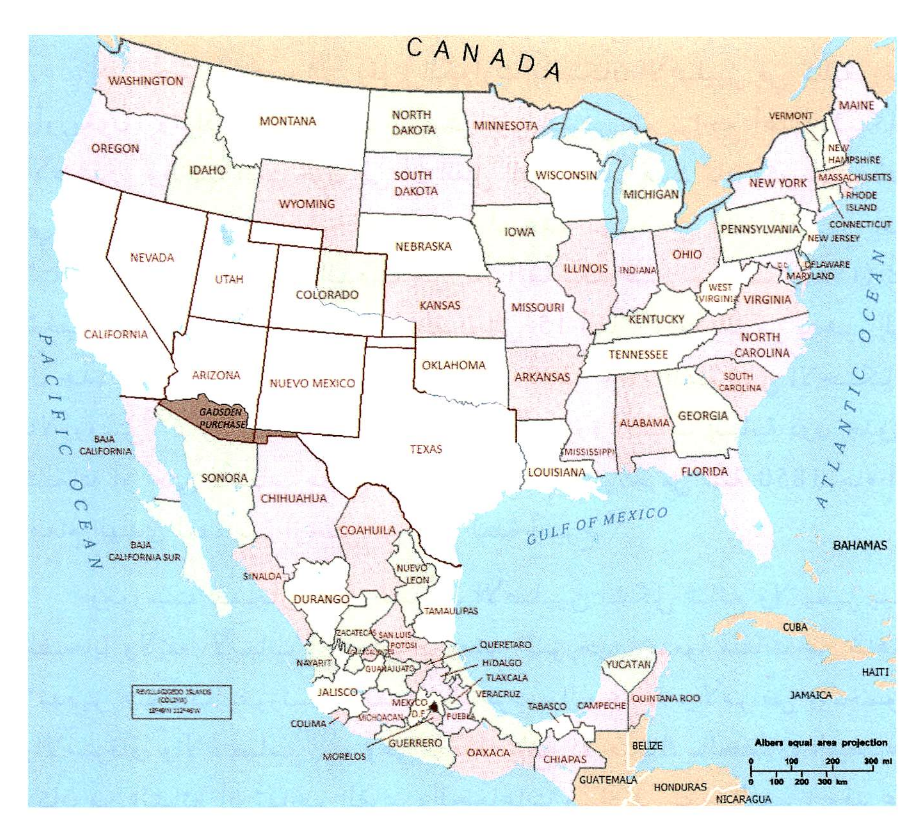
- موسوعة ويكيبيديا العربية: المكسيك والحرب المكسيكية الأمريكية (26/ 7/ 2014).

(2) Rosenboum، 2003، ص259-260.

(3) عن تبعات الحرب المكسيكية على الأراضي الهندية:

- Utley، 2002، ص39-40.

- Andrist، 2001، ص16.



المكاسب الأمريكية من التنازلات المكسيكية بعد حرب 1846-1848 في معاهدة غوادالوبي هيدالجو Guadalupe Hidalgo (المنطقة البيضاء)[4]

اكتشف الذهب في كاليفورنيا بعد مدة قصيرة من دخولها في حوزة الولايات المتحدة سنة 1848، فاندفعت سيول المنقبين والمستوطنين تقتحم المنطقة بعشرات الآلاف منذ سنة 1849، وزاد عدد السكان من 15 ألفاً (1848) إلى 93 ألفاً (1850) إلى 224 ألفاً (1852)[5] وأصبحت كاليفورنا ولاية في سنة 1850، وقد أفادت كاليفونيا إقليم أوريغون بزيادة الطلب على أسواقه وفي السنة التالية اكتشف الذهب هناك مما تسبب في سيل جديد من الهجرة.

(4) http://en.wikipedia.org/wiki/Treaty_of_Guadalupe_Hidalgo

(5) Rosenboum، 2003، ص143.

أدت حمى الذهب إلى وقوع الكوارث بالسكان الأصليين في كاليفورنيا وأوريغون، وترافق ارتفاع عدد المستوطنين البيض مع تراجع أعداد السكان الأصليين، ويذهب المؤرخون إلى أن القتل الذي استعر هناك كان أكبر عملية قتل في التاريخ الأمريكي إذ انخفض نتيجة له عدد الهنود من 100 ألف في أقل التقديرات قبل اكتشاف الذهب إلى 30 ألفاً بعد عشر سنوات (1859) ثم انخفض العدد مرة أخرى مع نهاية القرن إلى 15 ألفاً[6]، وهناك من يذهب إلى أن عدد هنود كاليفورنيا وصل ما بين 300- 700 ألف قبل الاحتكاك بالأوروبيين[7]، وكان هناك من يعارض هذه المجزرة لأسباب إنسانية دون جدوى كالعادة أو حتى لأسباب مادية، ففي تقرير قدم للكونجرس سنة 1850 جاء أن إطعام الهندي لمدة سنة أرخص من قتاله لمدة أسبوع[8].

ومورست المجازر ضد السكان الأصليين بشكل شائع ولا يميز بين الضحايا ولأتفه الأسباب[9]، حتى أن بعض المؤرخين جمعوا ملفات عن ظاهرة "تدمير هنود كاليفورنيا" بالقتل والحرب والمجاعة والأمراض والخمور والاسترقاق والاغتصاب[10]، وهي جملة نتائج الاحتكاك بالحضارة البيضاء، وكان من الشائع أن تُهاجم القرى والجماعات وتُباد في لمح البصر، وقد عد أحد المؤرخين عشرات من حوادث التدمير والإحراق والهجوم على قرى الهنود بواسطة حملات أرسلت ضدهم في الفترة بين 1855-1865[11]، واستُخدم الهنود المتبقون في أعمال السخرة والعبودية لمدة سنين، وذهب ضحية خطف

(6) Brandon، 1985، ص297.

وهناك تقديرات مقاربة في:

- Thornton، 1990، ص109.
- Debo، 1983، ص165.

(7) Thornton، 1990، ص109.

- Heizer، 1993، صV.

(8) Brandon، 1985، ص298.

(9) نفس المرجع، ص298-299.

- Heizer، 1993، ص243.

(10) Heizer، 1993.

(11) Thornton، 1990، 107-109.

الأطفال والنساء لاستخدامهم في العبودية المقنّعة أو السافرة آلاف من الهنود، وقد قدر بعض المؤرخين أن العدد وصل عشرة آلاف بين سنتي 1850-1863[12]، كما أُفسد السكان الأصليون ببيع الخمور لهم مع خلطها بالأحماض الأكالة مما تسبب في تدميرهم[13]، فثاروا على هذا الظلم حتى أن الجنرال جورج كروك أحد العسكريين البارزين الذين قضوا أعمارهم في قتال الهنود بضراوة ووُصف بكونه أكبر من قاتل الهنود في التاريخ الأمريكي، اعترف بالظلم الذي لحق بهنود كاليفورنيا بقوله أثناء وصفه تجربته شاباً حول إحدى مدن البحث عن الذهب: "كان من الشائع قتل أي هندي بدم بارد واغتصاب الهندية على يد وحش، ولم يُسمع عن معاقبة رجل أبيض بسبب ظلمه هندياً، وكانت نتيجة ذلك أنه قليلاً ما مر وقت دون أن يكون هناك حرب على ساحل المحيط الهادئ... وإنه من الصعب تصديق المظالم التي عانى منها الهنود في تلك الأيام، وأنا أشك في بقاء أي فرد يحكي قصتهم، لقد كانت مشكلة الجيش أن الهنود وثقوا بنا بصفتنا أصدقاء، وكنا نراقب المظالم التي تقع عليهم دون قدرة على مساعدتهم، ولما لم يعد بإمكانهم التحمل ولجئوا إلى إعلان الحرب كان علينا قتالهم وإن كانت مشاعرنا إلى جانبهم"[14]، وهذا التصريح من جنرال أمريكي معروف يلخص الحالة الأمريكية التي كانت الدولة تضع نفسها فيها إلى جانب مواطنيها الظلمة ضد السكان الأصليين المظلومين، وتفضل تأييد جمهورها على تطبيق القانون الذي سنته هي عليهم، وهي معضلة ديمقراطية لم يتم تجاوزها إلى اليوم، كما يلقي هذا التصريح الضوء على نموذج متكرر في تاريخ الحروب الهندية وهو انقسام الجندي بين قلبه الذي يدرك الحقيقة بفطرته فيعترف بها، وسيفه الذي يقاتل هذه الحقيقة لأجل مصالحه، وهذا هو حال الجهاز الحكومي آنذاك.

---

(12) Heizer، 1993، صxvi و219.

(13) Brandon، 1985، ص298.

(14) Crook، 1986، ص16.

- Debo، 1983، ص158-159.



الجنرال جورج كروك (1828–1890) وصف بكونه أعظم من قاتل الهنود في التاريخ الأمريكي، ومع ذلك كان لديه إحساس قوي بالمظالم التي وقعت عليهم، وسنجده تجسيداً بارزاً لمعضلة انقسام الإنسان بين قلبه وسيفه، مات وهو يحاول تأمين أوضاع أفضل لهنود قبيلة الأباتشي[15] بعد استقالته سنة 1885 من قيادة قطاع أريزونا احتجاجاً على عدم احترام الرئاسة الأمريكية شروطه التي اتفق بشأنها مع الثوار الآباتشي ليقبلوا بالاستسلام[16]، ومات متأثراً بنقض الحكومة للتعهدات التي بذلها لهنود قبيلة سو بصفته مندوباً حكومياً رسمياً[17]

وقد بدت في كاليفورنيا بشكل واضح ظاهرة تطرف القاعدة الشعبية الاستيطانية مقابل تريث السلطة الاتحادية، "فالشعب" يريد إزاحة السكان

(15) Debo، 1983، ص281.
(16) Andrist، 2001، ص332.
(17) Hyde، 1993، ص280.

الأصليين من طريقه لأنه يرى أن بقاءه يعتمد على إزالة "الخطر الهندي"، وهي الظاهرة التي شهدتها القبائل الخمس المتمدنة في شرق المسيسبي فيما سبق، ورأينا السلطة الاتحادية تحاول ولو من باب إسكات وخز الضمير فعل أي شيء لإنقاذ الهنود مبدئياً ولكنها ما تلبث أن تتراجع أمام ضغوط ممثلي المجتمع الاستيطاني في الكونجرس الأمريكي وتترك الهنود تحت رحمة المصالح الخاصة للمستوطنين والوكلاء الحكوميين الفاسدين الذين عُينوا "لحماية" الهنود، أما الجنود الرسميون في الميدان فكانوا تحت ضغط شديد من "الشعب" الذي يريد إفناء الهنود لأنهم "خطر على السلام والأمن" (نفس حجة "الإرهاب الفلسطيني والعربي والإسلامي")، وحتى عندما تحقق الحكومة فيما يرتكب ضدهم من مظالم ويتم توثيق ذلك بدقة لا تتخذ أي إجراء عملي للتغيير، وهو ما يؤكد أن مشكلة العدوان لا تقتصر على جانب واحد وأنها تشمل الحضارة البيضاء كلها التي تمارس وجهها "الإيجابي" للآخر حين تنبعث بعد فوات الأوان عملية الاهتمام بتوثيق الجريمة والبكاء على الأطلال وتفهم دوافع العنف الذي مارسه الهنود ضد المستوطنين والتي نبعت من اليأس والثأر للمظالم التي ارتكبت ضدهم وجعلتهم يعيشون في عالم "كجهنم"، وكل تلك المشاعر البيضاء "المرهفة" نتيجة وخز الضمير المتأخر عن وقته والذي يبرع في فضح الماضي والرد على أصوات التبرير والدفاع بإقرار أن الهندي كان لا شيء عند المستوطنين[18]، ولكن ماذا استفاد الهندي من كل ذلك في النهاية؟ وماذا استفاد المظلومون في بقية العالم ونفس الجرائم السابقة مازالت ترتكب ضدهم؟

وشهدنا في كاليفورنيا أيضاً الأفكار "الاستئصالية" التي سبق الحديث عنها والتي تصور السكان الأصليين كما صور الاستشراق أهل الشرق للغربيين، ومهد للاستعمار ومظالمه أو بررهما بتصويره "الآخر" بسلبية شديدة، وهو الذي أزعجونا بدروسهم المملة عن ضرورة تقبله، رغم أنهم سبق أن جعلوه خارج منظومة "البشر" المعترف بهم، ووجدنا أن الهندي في زمن المواجهة معه كان الجاهل الغادر البدائي الحيواني الذي لا يستحق أية حقوق أو تعاطف أو اهتمام، وسيظل "متوحشاً" مادام خطره قائماً وهو يعيش في البرية ومرصوداً

(18) Heizer، 1993، صvi-xvii و41.

للقتل والأسر والاسترقاق، أما عندما يزول خطره ويتحول إلى مجرد أثر بعد عين أو بقايا بائسة ومشردة من البشر في مجتمع الرجل الأبيض فإنه يصبح حينئذ محل سخرية وتسلية[19].

أما تكساس فقد كانت "أرضاً موعودة" قبل الحرب الأهلية الأمريكية، استوطنها 30 ألفاً في العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر، ثم قفز العدد إلى 160 ألفاً قبل الحرب الأمريكية المكسيكية (1845) ليرتفع العدد إلى 600 ألف باندلاع الحرب الأهلية (1861) (ونلاحظ هنا أن عدد المستوطنين تزايد بنفس المعدل وإلى نفس الحد وفي نفس المدة الزمنية التي تزايد فيها الاستيطان الصهيوني في "الأرض الموعودة" في فلسطين أثناء فترة الانتداب البريطاني)، وكان المهاجرون يتجهون إلى تكساس لرغبتهم في الحصول على الأرض بسهوله وسداد ديونهم وتحقيق الازدهار الاقتصادي، وقد صحب كثير منهم عبيدهم معهم والذين ألفوا ثلث عدد المستوطنين قبل الحرب الأهلية (1860)، وفي زمن الحكم المكسيكي كان المهاجر الأمريكي إلى تكساس يحصل على خمسة آلاف فدان مجاناً دون أعباء ضريبية، وكانت الخدمة العسكرية تطوعية وليست إجبارية، وخلافاً لحال المستعمرات الأمريكية مع بريطانيا قبل الثورة، كان لسكان الولاية تمثيل في الحكومة المكسيكية، ولم تكن الثورة التي اندلعت في تكساس ضد المكسيك سنة 1835 قتالاً في سبيل الحرية بل خطة فاشلة حاكها الجنوب الأمريكي للاستيلاء على تلك الأرض التي تبنت المؤسسة العبودية في سبيل تعظيم الأرباح من زراعة القطن، ولهذا فضل الشماليون النأي عنها، فأعلنت تكساس قيام الجمهورية المستقلة سنة 1836 وطورت ثقافة حربية التقت مع فكرة "المصير الجلي" التي ظهرت في الولايات المتحدة سنة 1845 ودعت إلى استعمار أنحاء القارة، وتم ضم الجمهورية الوليدة إلى الاتحاد الأمريكي بعد الحرب مع المكسيك (1846-1848).

وكأرض الميعاد الفلسطينية لم تكن تكساس خالية من السكان رغم أن المهاجرين رأوها أرضاً موحشة وفارغة، وكذلك كانت الرؤية الاستئصالية-الاستشراقية لدى الصهاينة، وكما أعطى الصهاينة أنفسهم صفات مثالية كذلك

(19) نفس المرجع، صxiii وxv و309.

تصور مستوطنو تكساس دولتهم أكثر صلاحاً وعظمة وتقديساً من غيرهم في التاريخ.

وكما جذبت فلسطين الانتدابية عرباً من محيطها للعمل والحياة فيها، كذلك هاجر إلى تكساس هنود من غير سكانها عندما طبقت الولايات المتحدة سياسة النقل والترحيل بدءاً من العشرينيات، ليزداد عدد الهنود فيها من ثلاثين ألفاً سنة 1820 إلى أربعين ألفاً بعد عشر سنين، وكانت تكساس "أرضاً موعودة" لهم كذلك.

وخلافاً لبقية الولايات الأمريكية احتفظت تكساس بالسيطرة على الأراضي العامة فيها بالإضافة إلى أراض في شرق نيو مكسيكو، منكرة حقوق السكان الأصليين فيها رغم أنهم لم يتنازلوا عن هذه الحقوق قط وقاتلوا منذ العشرينيات للدفاع عنها منذ بداية الاستيطان مما أدى إلى إزاحتهم بالقوة نحو الغرب والمكسيك بعيداً عن المستوطنات البيضاء، ومع تمدد هذه المستوطنات اصطدمت بالسكان الأصليين المستقرين الذين امتهنوا الزراعة (وهي المواصفات التي ادعى الأمريكيون أنهم يريدون تعليمها للهنود) ولم يقبلوا بمزيد من التنازل عن أراضيهم بعدما اضطروا في الماضي لاستقبال هنود الشرق الذين رحلتهم الولايات المتحدة إلى الغرب وتكونت نتيجة لذلك تعددية ثقافية لغوية اقتصادية اجتماعية فريدة في شمال شرق تكساس في العقد الرابع من القرن التاسع عشر (ومن الغريب أن التعددية إحدى شعارات الحضارة الغربية، ومنها الأمريكية التي ضاقت بهذا الواقع وعملت على تدميره).

امتدت الحروب الهندية من تكساس داخل منطقة السهول الكبرى منذ سنة 1839 واختلطت بالصراع مع المكسيك (1835-1845)، واستهدفت تدمير مجتمعات هندية صنعت اقتصاداً سياسياً ناجحاً جداً اعتمد على الصيد والتجارة وتربية الخيول أو الاستيلاء عليها، ولكن ما أغاظ تكساس كونها خارج هذه الدائرة التي شملت الكثير من المجتمعات الهندية، وأصبح الصراع عرقياً وامتد منذ بدايته في العشرينيات خمسين عاماً وهي أطول مدة يستغرقها صراع مستمر في التاريخ الأمريكي ونتج عنه دمار شديد ومقتل الآلاف ولم يخمد الصراع إلا في منتصف السبعينيات بعدما اتخذ تدريجياً صفة التطهير العرقي المتعمد لاسيما ضد البشر الملونين، وهناك من المؤرخين من وصف هذا الصراع بالإبادة الجماعية، وفي الحالين كان "حراس تكساس" Texas Rangers الذين اكتسبوا

صفات البطولة الأسطورية في تاريخ الولاية هم منفذي تلك الجرائم (كالميليشيات الصهيونية قبل قيام الكيان سنة 1948)، وكانت حكومة الولاية تشجعهم بصفتهم أداتها التنفيذية على ارتكاب تلك الجرائم ضد الهنود بمهاجمة القرى الآهلة وممارسة القتل بلا تمييز بالإضافة إلى الاغتصاب والنهب، وكان الهدف من ذلك هو بث الرعب بين الجماعات الهندية المحيطة ودفعها للهرب (كما فعل الإرهاب الصهيوني في مجزرة دير ياسين وغيرها أثناء حرب 1948)، وكانت هذه الوسيلة ناجحة كما نجح الإرهاب الصهيوني من قبل، وبنى بعض الحراس مكانة سياسية استناداً إلى تلك "البطولات" (كما بنى زعماء العصابات الصهيونية مستقبلهم السياسي استناداً إلى "بطولاتهم" في ذبح العرب).

وقد تم الاستيلاء على أراض هندية في غرب تكساس حتى دون شكليات المعاهدات الرسمية، ومن ذلك مقرات رئاسية لجورج بوش الابن وليندون جونسون، وجرت محاولات لفصل أملاك الهنود بمحميات على غرار بقية أنحاء الولايات المتحدة ولكن المجلس التشريعي في تكساس رفض الاعتراف بأي حقوق للهنود في الأرض، ولم تتمكن الحكومة الاتحادية من تطبيق أي إنصاف لحقوق الهنود ولما أسست محميتين صغيرتين قام الحراس بانتهاكهما وتبنت واشنطن إجراءات التطهير العرقي التي قاموا بها وأعلنت أن جميع الهنود في تكساس أعداء لها وساقت من تمكنت منهم إلى المقاطعة الهندية في أوكلاهوما.

ولما اندلعت الحرب الأهلية ألقى مستوطنو تكساس تهمة العنف على السكان الأصليين وهي تهمة ظالمة لشعب كان آنذاك معرضاً لكوارث الجفاف المتلاحقة التي قضت على قدراته العسكرية في الوقت الذي كان غرق الولاية في العنف ناجماً عن انقسامها حول القضية التي اندلع الحرب حولها: الانفصال عن الاتحاد، واستمرت هذه الفوضى حتى تمت هزيمة السكان الأصليين نهائياً في عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر، والعجيب أن هذه المعلومات استقاها المؤرخون المعاصرون من شهود عيان عاصروا الأحداث وشاركوا فيها ودونوها، وكانت تشير إلى أن الهنود هم الجانب المعتدى عليه والمظلوم والمعرض للانتهاكات أكثر من قيامه بالاعتداء، وهو أمر واضح بإحصاء الحوادث التي دونها أولئك الشهود، ولكنهم لم يصلوا منها إلى نفس الاستنتاجات الحديثة والإنسانية والمتعاطفة مع الهندي المظلوم بعد فوات الأوان، وكان العنف الأقل

الذي مارسه هذا الهندي انتقاماً من الاعتداءات المتكررة على وجوده هو الذي ترك الأثر الأكثر عمقاً في تاريخ الولاية (كما يتجاهل الصهيوني اليوم كل جرائمه ويركز على دفاع العربي عن نفسه بصفته إرهاباً غير مفهوم الدوافع ويعبر عن عنف فطري وتعطش للدم ومعاداة للحياة)، وهو ما يؤكد لنا "أن المعرفة لا تؤثر كثيراً في السلوك الأمريكي... فالثوابت الاستراتيجية لا يغير منها فهم أو سوء فهم المستشارين"، ومدى تعاطفهم مع الأعداء أو عدائهم لهم[20]، ولهذا يحذر الدكتور عبد الوهاب المسيري من تصور أن الغرب "عقلاني" وأننا يمكننا أن نقارع الحجة بالحجة ونقنعه بعدالة قضيتنا وخلل نموذجه وسلوكه الإمبريالي[21]، وقد تؤدي هذه الجهود إلى نتائج أكبر ولكن بعد فوات الأوان وزوال المنافع من القضية محل الطلب.

ظل حراس تكساس محل التبجيل والتقديس زمناً طويلاً بصفتهم مقاتلين في سبيل تقدم الحضارة، ومازال مؤرخو الولاية إلى اليوم يجدون من الصعب الاعتراف بتجاوزات هؤلاء المقاتلين كالنهب والاغتصاب، وبينما ترك الهنود وراءهم بهذا المقياس آثاراً طويلة من القتل والاغتصاب والتمثيل، لم يرتكب الحراس ولا جنود الولايات المتحدة شيئاً من هذا، وكانوا حماة لتقدم الحضارة وبناة للأمة ولم يرتكبوا مجزرة قط ولا يمكن تصور تاريخ الولاية دون دورهم الذي أصبح رمزاً مقدساً، ورغم المساهمات الحضارية الواضحة للسكان الأصليين في الزراعة وبناء المدارس والمدن، فقد كان اختلافهم الثقافي عن العرق الأنجلو ساكسوني السائد والمهيمن هو الذي برر سلبهم أراضيهم رغم عدم وجود إجماع على سياسة التطير العرقي، ولكن دعاتها كانوا هم الصوت الأعلى الذي كسب الجولة، وهذا ما يضعنا دائماً أمام عبثية المعارضة الإنسانية في مواجهة الأطماع المادية في المجتمعات الديمقراطية الغربية، ويشير إلى وجود كل الحجج العقلية والإنسانية في زمن العدوان ولكن دون آذان صاغية إلا بعد فوات الأوان وانقضاء المصالح لتبدأ عملية الإحساس الزائف بالذنب وسكب الدموع المزيفة على ضحايا الأمس الذين لم يكن نقص المعلومات هو الجاني

---

(20) المسيري، 2005، ص466.

(21) المسيري، 2010، ص32.

عليهم بل نقص العدالة، مما يجعل الصراع على أرض تكساس فتحاً أكثر منه تحريراً، وكراهية عرقية متطرفة والتزاماً بالحرب العنيفة أكثر مما تقتضيه الحاجات الاقتصادية[22].



فرقة من حراس تكساس مختصة بمنطقة التخوم 1882

وبعد هزيمة السكان الأصليين اتجه بعضهم بشكل ملحوظ نحو تبني طريقة الحياة الأمريكية، وكان أوضح مثال لذلك قبيلة الكومانشي Comanche التي كونت امبراطورية هيمنت على جنوب السهول مدة قرن من الزمان (1750-1850) ومع أنها لم تكن امبراطورية على النماذج الغربية فقد تمكنت من كبح التمدد الاستعماري في تلك المنطقة[23]، ثم انتقل زعيمها الأسطوري كواناه باركر

(22) الحديث عن تكساس ملخص من المرجع التالي:
- Anderson، 2005، ص3-17.
(23) Hamalainen، 2008، ص1-5.

Quanah Parker (1845-1911) من المقاومة العنيفة التي دوخت الجيش الأمريكي ورفضت التوقيع على معاهدة السلام (1867) لسنوات لاسيما بعدما نقضها الأمريكيون وتسببوا في خيبة آمال شركائهم السلميين، إلى العيش كرجل أبيض في المقاطعة الهندية التي انتقلت قبيلته إليها حيث حثها على تبني الأساليب الجديدة مع استمرار احترامه للتقاليد القديمة، وأصبح من ملاك المزارع الأثرياء ووصف بأنه أغنى هنود أمريكا في زمنه، وتقلب في عدة مناصب أسندتها إليه الحكومة الأمريكية ولكن ولاءه ظل لقبيلته محاولاً تحقيق أكبر قدر من المكاسب لقومه ولم يتردد في انتقاد السياسات الأمريكية ومعارضة المشاريع التي تتناقض مع مصالح الكومانشي، ورغم أنه حقق الكثير على المستوى الفردي كلقاء الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت ومصاحبته، والعمل في الوظائف الرسمية كنائب عمدة أو رئيس منطقة تعليمية أو قاض، والاستثمار في السكك الحديدية التي منحها اسمه لتمر بمحاذاة البلدة التي تحمل اسمه، والارتباط مع رعاة البقر الذين استثمروا المراعي في أراضي المحميات الهندية وناوءوا التمدد الاستيطاني فيها مما كبح جماح التوسع وأعاق سلب أراضي الهنود برهة من الزمن، رغم كل ذلك فإن الطبيعة الاستيطانية غلبت على سياسة الدولة وتم الاستيلاء على أرض الكومانشي بعد نهاية العصر الذهبي لازدهار ظاهرة رعي البقر، ولم يستطع باركر الحفاظ على بقاء قومه وقد تضاءل عددهم في حياته من 20 ألفاً يضمون أربعة ألاف محارب إلى مجمل لا يتجاوز 1200 شخص فقط، وبهذا يتبين أنه مهما حاول "المسالمون" و"المفاوضون" العمل تحت مظلة المجتمع الاستيطاني وبوسائله القانونية بعد تخليهم عن أسلحتهم، فإن أفضل المعروض لن يكون إلا ما يمنحه التطابق مع مصالح متنفذة في ذلك المجتمع وستغلب عليه السمة الاستيطانية في النهاية وتتلاشى "الانتصارات" المؤقتة[24].

وفي قصة قبيلة الكومانشي عبر عديدة منها أن الغرب قطع طريق تطورها ونموها الحضاري كما قطع من قبل ومن بعد طرق حضارات أخرى ليستغل مواردها في سبيل بناء نموذجه الذاتي، ومن العبر أيضاً أن تبني حضارة الغرب أو

(24) Capps، 1982، ص119 و124 و126.

- Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص282-284.

اتباع أوامره غير مجد للضعفاء ولن يؤدي إلى الاندماج في مجتمعه ولن ينجز في أحسن الأحوال إلا ما تسمح به ظروف تيارات داخلية فيه تنتفع من صيانة حقوق المستعمَر وليس لمجرد القبول بالآخر المضطهَد، ولكن هذه التيارات لن تلبث أن تتلاشى لمصلحة الطبيعة العدوانية في مجموع هذا المجتمع، ومن العبر كذلك أن الدخول في تعامل سياسي مع الغربيين دون دعم بالقوة المسلحة لن يؤدي إلى التزامهم بأي بنود تم الاتفاق عليها كما حدث مع زعماء الهنود الموقعين على معاهدة الكوخ السحري Medicine Lodge سنة 1867.



الزعيم كواناه باركر في منزله على غرار الحياة الأمريكية في زمنه (1888)



منزل كواناه باركر من الخارج كما يبدو اليوم

الفصل الثامن عشر

حروب أشباه الآلهة الأمريكيين

(4)

أبراهام لنكولن والحروب الهندية الموازية للحرب الأهلية الأمريكية

الجهود الاستيطانية للرئيس أبراهام لنكولن: عندما يأخذ أي سياسي وضعية مقدسة في مجتمع استيطاني يجب علينا أن نستنتج فوراً أنه قام بجهد مميز في دعم الاهتمام الرئيس لهذا المجتمع وهو العملية الاستيطانية، وإذا كانت شهرة لنكولن قد ارتبطت بخوض الحرب الأهلية ضد انفصال الولايات الجنوبية، فإن جهوده في دعم المستوطنين وخوض الحروب ضد الأهالي الأصليين كانت كبيرة أيضاً حتى لقد قال مفوض الشئون الهندية سنة 1863 إن الاتحاد تحت رئاسة لنكولن يواجه، بالإضافة إلى العصيان الجنوبي الكبير، "حرباً هندية ليست هينة"[1]، وعدها الجيش "جبهة ثانية"[2].

وقد أسس لنكولن لعملية استيطان السهول العظمى فيما وراء نهر المسيسبي بعدة إجراءات جاءت الحروب الهندية في إثرها لتكتسح السكان الأصليين و"تنظف" أراضيهم للمستوطنين، وقد بدأت هذه الإجراءات بقانون السكن الذي صدر سنة 1862، ومنح لأول مرة كل مواطن أو من سيصبح مواطناً ويرأس عائلة أو وصل إلى سن 21 سنة، قطعة أرض مجانية مساحتها 160 فداناً بشرط أن يقيم فيها ويبني عليها ويزرعها مدة خمس سنوات، ويمكنه تملكها كذلك بدفع

---

(1) Marks، 1998، ص183.
(2) Prucha، 1995، ص412.

1,25 دولار لكل فدان بعد ستة أشهر فقط من الإقامة، وقد زادت المساحة الممنوحة فيما بعد أربعة أضعاف وانخفضت مدة الإقامة المطلوبة إلى ثلاث سنوات، وكانت الرئاسة التي سبقت أبراهام لنكولن قد اعترضت على هذا القانون، وبعد نفاذه استفاد منه حوالي 1,4 مليون أمريكي واستمر العمل به إلى سنة 1976[3].

كما صدر في سنة 1862 كذلك قانون موريل الذي منح كل ولاية ظلت في الاتحاد ولم تعلن انفصالها 30 ألف فدان عن كل مندوب لها في الكونجرس بهدف استخدام الأرباح من بيع هذه الأراضي في بناء معاهد لتعليم الزراعة والهندسة والاقتصاد المنزلي بالإضافة إلى مواد علمية، وقد أسفر تطبيق هذا القانون عن إنشاء 70 كلية[4] وعُد أهم قانون تعليمي على الإطلاق صدر في الولايات المتحدة[5].

وفي نفس العام المذكور (1862) قامت الحكومة الأمريكية بمنح امتيازين لمد سكة الحديد عبر القارة لشركتين عملاقتين، ومن مزايا هذين الامتيازين الحصول على عشرة أميال مربعة من الأرض "العامة" تحيط بكل ميل من السكة وذلك لاستخدام أرباح بيعها والاستثمار فيها في تمويل عملية الإنشاء، كما أقرضت الحكومة الشركتين من 16 ألف دولار لإنشاء كل ميل في الأرض المنبسطة إلى 48 ألف دولار لكل ميل في الأراضي الجبلية، وكان مجموع الأراضي التي منحت لشركات السكك الحديدية بين 1862-1872 أكثر من مائة مليون فدان بالإضافة إلى أكثر من 64 مليون دولار على شكل قروض وحوافز ضريبية، وقد أدى ذلك إلى تضاعف طول السكك الحديدية من 56 ألف كيلومتر سنة 1865 إلى أكثر من 406 ألف كيلومتر سنة 1916، وتم حشد المستوطنين من أماكن قصية كأوروبا نفسها لشراء الأراضي واستعمال القطارات[6]، ولا يخفى أن كل هذا التوسع كان على حساب السكان الأصليين.

---

(3) New Standard Encyclopedia، 1999، ج8، صH-218.

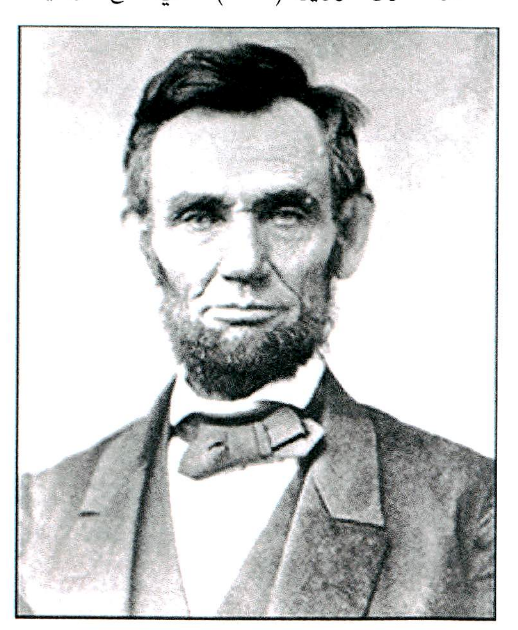
- Rosenbaum، 2003، ص302.

(4) Rosenbaum، 2003، ص303.

(5) New Standard Encyclopedia، 1999، صM-535.

(6) Tucker، 1996، ص18.

الرئيس أبراهام لنكولن (1861-1865) أعلن في مواجهة انفصال الجنوب أن هدفه هو الحفاظ على الاتحاد سواء بزوال الرق أم باستمراره، وإلى جانب حربه الأهلية التي صورت بأنها في سبيل تحرير الرقيق شن حرباً ضروساً موازية على السكان الأصليين على جبهتين استيطانية وحربية: فقد صدر في عهده قانون السكن Homestead Act (1862) لتشجيع الاستيطان في الغرب بمنح مساحات واسعة مجانية لأول مرة لكل أمريكي راغب في الإقامة في الغرب، كما صدر قانون موريل (1862) الذي منح الولايات التي ظلت متمسكة بالاتحاد مساحات بعشرات آلاف الأفدنة لكل مندوب من مندوبيها في الكونجرس للتربح من بيعها لصالح إقامة الكليات العلمية، وتم في عهده تنظيم عدة مقاطعات جديدة في الغرب تمهيداً لاستيطانها، وبدأت في عهده فورة مد السكك الحديدية مخترقة أرض الهنود، وعلى الجبهة العسكرية تميز عهده أيضاً بمعاناة الهنود الشديدة إذ وقعت فيه مجزرة نهير الرمل Sand Creek حيث قُتل مئتان من الهنود من قبيلة الشايان تحت قيادة الزعيم المسالم الإبريق الأسود Black Kettle وهم تحت الحماية الرسمية للجيش



الأمريكي (1864) في ظل صمت مطبق من "المحرر العظيم"، وشنت حرب الإبادة ضد قبيلة الآباتشي وعلقت المشانق لثوار قبيلة داكوتا في أكبر عملية إعدام جماعي في التاريخ الأمريكي (1862) وتم اتباع سياسة الأرض المحروقة في الهجوم على قبيلة النافاجو لترحيلها بالقوة من موطنها (1862-1864) إلى محمية قفراء تبعد 300 ميل حيث مات المئات من الهنود أثناء عملية الترحيل وأثناء بقائهم في ظروف التربة الجرداء والمياه الفاسدة وقلة الغذاء وهجوم الأمراض إلى أن تمت إعادتهم إلى موطنهم سنة 1868 بسبب عدم رغبة الرجل الأبيض في تلك الأرض، وكل ذلك يكذب أسطورة الحرية التي قاتل الشمال من أجلها

- Rosenbaum، 2003، ص309.
- The New York Public Library، 1997، ص370.

كما تم تنظيم خمسة مقاطعات جديدة أثناء سنوات الحرب هي داكوتا وكولورادو وآيداهو وأريزونا ومونتانا[7] لتنضم إلى الاتحاد بعد ذلك على بصفتها ولايات جديدة ولكن هذا الانضمام لم يتم إلا بعد نشوب كثير من الصراعات وجريان أنهار من الدماء ونقض كثير من المعاهدات، وهو ما سنرى مجرد جوانب منه فيما يلي.

أ - قبيلة النافاجو ومشوار المعاناة الطويل

عاشت قبيلة النافاجو في منطقة الجنوب الغربي من الولايات المتحدة بين ولايتي نيو مكسيكو وأريزونا، ومرت بعمليات تطور اجتماعي نقلتها من الاعتماد على الغزو والإغارة إلى الاعتماد على العمل الذاتي لاسيما في الرعي وزراعة الحقول الغنية والمكتفية ذاتياً التي عمي عنها الاستشراق الاستئصالي الأمريكي فيما بعد وادعى جلب "الازدهار" للقبيلة "بتعليمها" الزراعة والاستقرار (!) (Marks، 1998، 175)، وقد اصطدمت القبيلة بطلائع الغزو الأوروبي منذ حلول الإسبان في منطقتها ثم المكسيكيين ثم الأمريكيين الذين قاموا بعد انتصارهم في الحرب ضد المكسيك بطمأنة المستوطنين الأنجلو ساكسون والمكسيكيين بأنهم تحت الحماية الأمريكية من غارات الهنود، ولم تقدَّم ذات الطمأنة للهنود أنفسهم الذين كانوا يعانون من المشكلة ذاتها من قبل الغارات المكسيكية التي تخطف أبناءهم لاسترقاقهم، مما استبعد السكان الأصليين منذ البداية من حماية وتمثيل الدولة الأمريكية، وهذه هي المعضلة التي شابت تعاملها مع الهنود دائماً وجعلتهم خارج إطار رعايتها وفي مرمى كل الاعتداءات من قبل مواطنيها دون أي تبعة أو مسئولية قانونية تترتب على نقض الالتزامات التي قيدت نفسها رسمياً بها أمام القبائل التي لم تكن تملك القوة لفرض هذه الالتزامات مما يجعلها في تراجع مستمر أمام التمدد الاستيطاني الجشع.

ومن مستصغر الشرر نما غضب النافاجو من حوادث نتجت عن النظرة الدونية التي عاملهم بها الجيش الأمريكي الذي بنى حصناً في أرضهم أسماه حصن التحدي Fort Defiance (1851) بعد توقيع معاهدتين معهم في النصف الثاني من عقد الأربعينيات، وكان الحل الذي ارتآه الجيش للقضاء على غارات

(7) Marks، 1998، ص172.

الهنود الذين يدافعون عن وطنهم هو تهجيرهم إلى محمية تبعد 300 ميل إلى الشرق من موطنهم، ولما رفضوا وقاوموا شن الجيش عليهم حرب الأرض المحروقة (1863) حيث قام الجنود بتدمير الحقول والبساتين (ففي عملية واحدة مثلاً تم تدمير سبعين فداناً من القمح والذرة، وفي نهاية ذلك العام كان القائد الميداني الأمريكي كيت كارسون قد أتلف مليوني رطل من حبوب الهنود، ولنتذكر دائماً أن حجة البيض في حربهم ضد الهنود أنهم كانوا لا يمارسون الزراعة ولا يحيون حياة مستقرة)، هذا بالإضافة إلى إحراق البيوت والقرى، كما قاموا بمصادرة الماشية واعتمدوا في تموينهم على منتجات القبيلة، واستمرت الحملة ستة أشهر كان مجموع ضحاياها من النافاجة 78 من القبيلة التي يصل عدد أفرادها إلى 12 ألفاً[8]، وهي نتيجة متواضعة لاسيما لو قارناها بمشاهد أفلام الدعاية الهوليوودية التي تصور سقوط الهنود في أرض المعركة كتساقط الفراش حول النار، وزاد من عنف الحملة الأمريكية أنباء اكتشاف الذهب في المنطقة، ولكن الهنود ظلوا يقاومون حتى وصلوا من الفاقة حد المجاعة فاستسلموا على مراحل كان آخرها في سنة 1866، وتم نقلهم على دفعات إلى المحمية القاحلة "بوسك ريدوندو" Bosque Redondo في ولاية نيو مكسيكو، وقد مات منهم في هذا "المشوار الطويل"، الذي ذكّر "بدرب الدموع" الذي سلكته قبيلة الشيروكي والقبائل المتمدنة قبل ربع قرن[9]، أعداد كبيرة بلغت المئات ووصلت إلى ربع القبيلة أثناء رحلة النفي والإقامة في المنفى[10]، وكانت الإقامة في مكان قاحل ماؤه فاسد ولا يصلح لزراعة المحاصيل ولا زاد ولا مؤن فيه ويعيش من فيه في جحور ككلاب البراري لوقاية أنفسهم من الشمس والمطر[11]، وتتفشى فيه الأمراض ويجاورهم فيه هنود معادون من قبيلة الآباتشي والتي كانت تعاني بدورها من الاضطهاد الأمريكي في نفس الفترة.

---

(8) Waldman، 2000، ص166-168.

- Capps، 1981، ص165 و168.

(9) Prucha، 1995، ص451.

- Utley، 2002، ص84.

(10) براون، 1982، ص31.

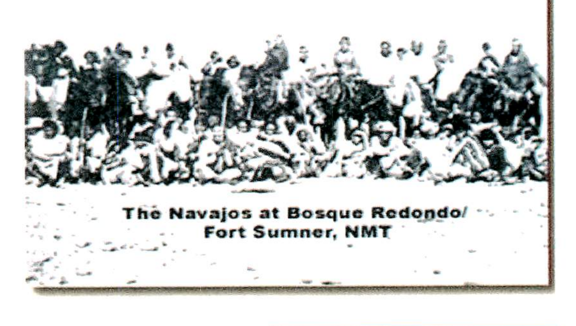
- Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص238.

(11) براون، 1982، ص31.

لم تمنع الأحوال السيئة المسئولين الأمريكيين من إطراء الذات والثناء على "إنجازاتهم" التي كانت تتطلب نظرياً أمركة الهنود وتنصيرهم[12]، فتبادلوا في ذلك الأحاديث عن "سعادة" الهنود و"غناهم"، ولكنها أحاديث تختلط معها أيضاً الاعترافات بما تم الظفر به أيضاً من ثروات الهنود[13]، ولكن بعد أربعة مواسم فاشلة في الزراعة اعترف الأمريكيون بفشل عملية "التمدين" وأعادوا النافاجو إلى موطنهم حيث كانوا أسعد حظاً من غيرهم من القبائل التي كانت على وشك الصدام بالجيش الأمريكي، ولا يفوتنا ملاحظة أنه تم اقتطاع الأجزاء المرغوبة من أرضهم لصالح مراعي البيض[14]، وتُركت لهم الأراضي الصحراوية التي لا يرغب بها أمريكي[15].

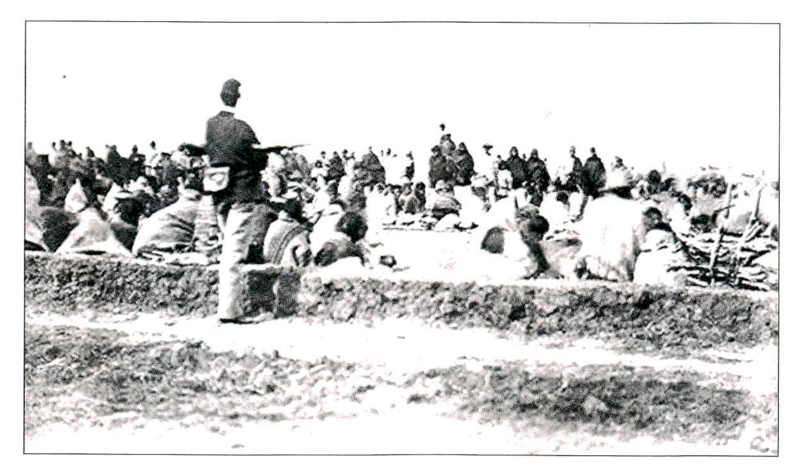


لوحة تصور مشوار النافاجو الطويل لإليزابيث روز



النافاجو في محمية بوسك ريدوندو القاحلة

(12) Hoxie، 1996، ص423.
(13) براون، 1982، ص29.
(14) نفس المرجع، ص32.
(15) Marks، 1998، ص181.
- Debo، 1983، ص200.



تعداد الهنود الناجين من المشوار الطويل في بوسك ريدوندو 1864

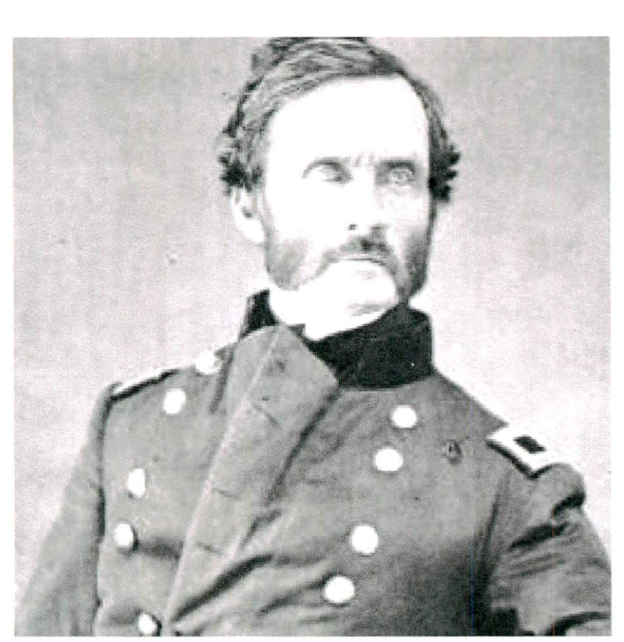


الأسرى الهنود
في حصن
سومنر بمحمية
بوسك ريدوندو



عائلة زعيم النافاجو
مانويليتو في المحمية
وهو الذي ظل يقاوم حتى
الإعياء

كان المشرف على برنامج تمدين الهنود النافاجو هو الجنرال جيمس كارلتون قائد قطاع نيومكسيكو أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وكانت نظرية البرنامج هي أنه بإبعاد الهنود عن موطنهم يمكن تعليمهم الزراعة وتعليم أبنائهم القراءة والكتابة وغرس المسيحية في الجميع، وعندما يموت الكبار، سترحل معهم نزعات القتل والنهب (الأوصاف الاستعمارية لفكرة المقاومة) وسيحل الصغار محلهم دون هذه الميول (أي أن الكبار سيموتون والصغار سينسون كما كانت النظرية الصهيونية تتوقع أن يحدث لشعب فلسطين)، وتتابع النظرية القول إنه في غضون عشر سنوات سيصبح النافاجو "أسعد الهنود وأكثرهم بهجة في نيو مكسيكو بل ربما في الولايات المتحدة كلها"، وستصبح الحرب معهم من مخلفات الماضي، وقد رأى الجنرال كارلتون أن محمية البوسك ريدوندو هي مختبر هذه النظرية ووضع ثقله لعرض نجاحاتها[16].



الجنرال جيمس كارلتون الذي حارب الانفصال الجنوبي في الحرب الأهلية من أجل حرية الرقيق كما ادعوا، ثم التفت لسلب حرية الهنود تحت شعارات تمدين وتحضير شاب الفساد والتقصير تطبيقها بوضوح مما أدى إلى نهايات مأساوية عدها بعض المؤرخين نعمة مقارنة بما حدث لبقية الهنود بعد ذلك، وقد عد رؤساء كارلتون سياساته متطرفة وتم إعفاؤه من القيادة[17]، وهو أمر ليس شائعاً في الجرائم الأمريكية ولعل سببه هو عدم الطمع بأراضي النافاجو بعد تشذيبها.

(16) Utley، 2002، ص84-85.

(17) Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص238.

هذا على مستوى النظرية، أما التطبيق فلم يكن منطبقاً على إعلان النوايا هذا، فالأرض لم تكن كافية لعدد الهنود، وما قاموا بزراعته تعرض للجفاف والسيول والبرد والحشرات، ولم يكن هناك غذاء كاف للأغنام التي تعرضت لهجوم القبائل المعادية، والمؤن التي أرسلتها الحكومة كانت بالكاد تكفي لدرء المجاعة، ولم تكن الملابس كافية لدرء برد الشتاء، ونتيجة لضعف بناهم من سوء التغذية والتعرض للأنواء، أصيب الهنود بالالتهاب الرئوي والحصبة وأمراض أخرى، ومع كل ذلك رفض كارلتون الاعتراف بالفشل وأصر على المباهاة بإنهاء الحروب مع النافاجو، ولما استسلم زعيم مقاومتهم مانويليتو استعرضه في شوارع سانتافي كالسجناء[18]، وكل ما حدث على أرض هذا المختبر الذي صنعه كارلتون لنظرية التمدين من فشل وكوارث يؤكد أن نكبة الهنود لم تكن بسبب اختلاف المفاهيم بين عصرنا والقرن التاسع عشر، بل بسبب الفساد والتقصير الذي شاب تطبيق الشعارات البراقة في ذلك الزمن وقد كان ذلك فساداً وتقصيراً وإهمالاً حتى في موازين أهل ذلك الزمن كما تدل الاعترافات وتقارير اللجان السياسية المتعددة التي تقصت أحوال الهنود آنذاك، أي أن الأمر باختصار انحطاط خُلُقي وليس عيباً خَلقياً.

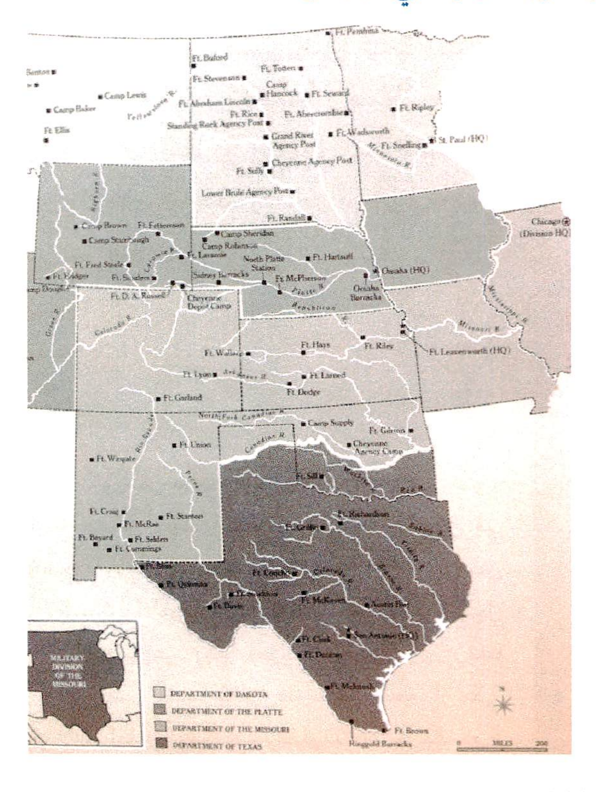


مانويليتو Manuelito زعيم النافاجو المقاوم الذي رفض بعناد التخلي عن وطنه والعيش في المحمية وظل يقاوم حتى الإعياء (1866)، وكان الجيش الأمريكي قد طالبه بالاستسلام لأجل قومه الجوعى (كما فعل الأمريكيون في زمننا المعاصر عندما كانوا يفرضون الحصار على بلد لتغيير قيادته ويحملونها مسئولية جوع مواطنيها).

(18) Utley، 2002، ص85-86.

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه قبيلة النافاجو تتعرض للعذاب كانت قبيلة الآباتشي تواجه برنامج الإبادة الكبير الذي وصل أوجه في سنة 1864 حين وقعت مئات من المواجهات المسلحة[19]، وذلك في نفس عهد "المحرر العظيم" أبراهام لنكولن، وكان مصير بعض الناجين هو الجمع في نفس محمية بوسك ريدوندو في نيومكسيكو، وتصف واحدة من المؤرخين نشاطهم في العمل هناك لإعالة أنفسهم بالقول إن عددهم كان أربعمائة عملوا بطاقة الآباتشي المميزة فحفروا القنوات وزرعوا المحاصيل، وكان من الممكن لهم أن ينجحوا بشيء من حسن الحظ والإدارة الشريفة والتخطيط الذكي، ولكنهم لم يحصلوا على شيء من ذلك[20]، وهو ما يؤكد ما سبق قوله عن عدم جدية برامج التمدين.

ب - "الغراب الصغير" يقود ثورة الهنود في مينيسوتا



قطاع الميسوري العسكري وسط الولايات المتحدة والذي يضم السهول العظمى حيث جرت المواجهات النهائية بين المقاومة الهندية والجيش الأمريكي والمستوطنين أثناء وبعد الحرب الأهلية وتبدو فيه الحصون العسكرية التي يرد ذكرها في الكتاب [21]

---

(19) Brandon، 1985، ص377.

(20) Debo، 1983، ص199.

(21) Nevin، 1981، ص163.

بعد انضمام كاليفورنيا وأوريغون إلى الولايات المتحدة عقب انتصارها على المكسيك في سنة 1848، نشأت ظروف جديدة بررت للحكومة الأمريكية البحث عن سياسة تختلف عن سياسة ترحيل الهنود إلى الغرب كلما تم الاستيلاء على مزيد من أراضيهم، فأصبحت تتطلع إلى حماية مواطنيها من مقاومة السكان الأصليين وإلى العمل على الاستيلاء على أراضي هؤلاء لأولئك وإلى محاولة حل "المشكلة الهندية" التي تقف في وجه التوسع، وتسارعت الأحداث حين اكتشف الذهب في كاليفورنيا سنة 1849، كما اكتشف الذهب أيضاً في أوريغون بعد سنتين (1851)، فاندفعت سيول المنقبين والمهاجرين نحو تلك الأراضي مخترقة أراضي الهنود في السهول العظمى التي كان الظن حتى ذلك الوقت أنها صحراء كبرى ولهذا لم يرغب بالاستقرار فيها أحد، إلا أن وقوعها في وسط البلاد جعلها في وسط العاصفة وكان عبور هذه الأعداد الهائلة من البشر يخلف وراءه دماراً غير محتمل لسكان البلاد الأصليين، ولخص أحد المؤرخين المشهد بالقول إن عبور المهاجرين استنزف أشجار وأعشاب وصيد القبائل الهندية[22]، وفصلت مؤرخة أخرى الوضع بالقول إن المهاجرين حصدوا أخشاب البراري الثمينة لنيران معسكراتهم، والتهمت مواشيهم أعشاب الأودية حتى عرتها، ودمرت في طريقها مآوي الحيوانات والنباتات البرية التي يعتمد عليها الهنود، وأصبح من غير الممكن تجديد الحياة النباتية والحيوانية الناضبة وصار الهنود يكافحون في بعض المواقف لتجنب شبح المجاعة، لاسيما أن المهاجرين كانوا يمرون في الصيف بأخصب مواقع السهول العظمى وهي وديان الأنهار التي يعتمد عليها السكان الأصليون للحياة الشتوية، ووجد الهنود أنفسهم أمام وضع صارت فيه أعشاب خيولهم عرضة للاستهلاك والدوس، وأشجار وقودهم عرضة للقطع، فماذا تبقى لديهم[23]؟ ويعرض مؤرخ ثالث المشهد بالقول إنه في سنة 1850 عبر 50 ألف باحث عن الذهب الطريق المار إلى أوريغون وكاليفورنيا مخلفين الدمار وراءهم: موت الأعشاب وآلاف الجواميس، وموت الهنود والبيض من الجوع والكوليرا التي جلبتها قوافل العابرين مما أدى إلى توقعات بثورات هندية إذا لم

(22) Utley، 2002، ص42.

(23) Marks، 1998، ص144.

يحصل الهنود على تعويضات عن هذه الأضرار[24].

ومع ذلك تحاول بعض الكتابات التاريخية تصوير المشهد بأنه استنزاف من الهنود والبيض على حد سواء[25]، مع أن السكان الأصليين عاشوا أحقاباً في هذه الموائل ولم يعرضوا توازنها البيئي للخطر، ولم يحدث ذلك إلا بقدوم العابرين الجدد.



طرق الغرب التي سلكها المهاجرون ويظهر طريق كاليفورنيا وأوريغون موضوع الحديث في هذا الفصل والذي افتتح في بداية أربعينيات القرن التاسع عشر ثم مرت به سيول المهاجرين بعد هزيمة المكسيك واكتشاف الذهب في المقاطعتين[26]

(24) Capps، 1981، ص163.

(25) Marks، 1998، ص144.

(26) http://www.tngenweb.org/tnletters/usa-west.htm

دعت الحكومة الأمريكية ممثلي القبائل للاجتماع في حصن لارامي الواقع فيما سيصبح بعد ذلك ولاية وايومنج والذي كان مركزاً تجارياً فاشترته الحكومة سنة 1849 وحولته إلى حصن عسكري لحماية المهاجرين[27]، وبناء على دعوة الحكومة سنة 1851 اجتمع أكبر حشد من ممثلي القبائل الهندية حتى ذلك الوقت (10 آلاف)، وكانوا يمثلون تسع قبائل في شمال السهول العظمى ومنها قبائل متعادية ولكنها اجتمعت في سلام آنذاك، وفي هذا الاجتماع تم الاتفاق بين الحكومة والقبائل على عدة بنود أهمها:

1 - تحديد أراضي الصيد لمختلف القبائل.

2 - السماح للمهاجرين بعبور الأراضي الهندية إلى أوريغون وكاليفورنيا.

3 - السماح للحكومة ببناء طرق ومراكز عسكرية في الأراضي الهندية.

4 - وفي مقابل هذا ستتلقى القبائل مساعدات سنوية قيمتها خمسون ألف دولار في السنة لمدة خمسين عاماً.

ولكن الكونجرس سيقلل هذه المدة إلى 10 سنوات يمكن للرئيس أن يمددها إلى 15 سنة فقط، ومع ذلك لم تلتزم الحكومة بهذه المعاهدة ووقع منذ البداية ما يعكر صفو هذا الاتفاق، فعندما سمح الهنود بعبور المهاجرين ووجود العسكريين لم يكونوا يتوقعون الأعداد التي جاءت فيما بعد، ولم يتوقع أحد أن يفضل بعض المستوطنين الاستقرار فيما كان حتى ذلك الوقت يُظن أنه صحراء كبرى[28]، ووفقاً لتوماس فيتزباتريك وهو الوكيل الحكومي الأمريكي المعين للإشراف على هنود الغرب فإن زحف المهاجرين على طريق أوريغون كان مدمراً لهنود السهول، ففي تقريره سنة 1853 أكد أن الهنود بحاجة ماسة للطعام لمدة ستة أشهر في السنة وأن عبور المهاجرين يبعد قطعان الجاموس التي يعتمد عليها السكان الأصليون أو يحصرها في نطاق ضيق أثناء فترة الهجرة مما يضطر القبائل للتنافس في الحصول على الدعم حين كانت نساؤها واقعات تحت ضغط الحاجة وأطفالهن يبكون من الجوع مما جعل الهنود يتجمعون حول بعض الصيادين

---

(27) Debo، 1983، ص165.

(28) Capps، 1981، ص163 و165.

البيض المرخصين وذلك للعمل عندهم سعاة أو رعاة أو مترجمين أو حتى بأعمال غير أخلاقية لكسب العيش[29]، وبهذا تصاعدت الضغوط على الهنود وكان الانفجار ينتظر شرارة اشتعلت في سنة 1854.

ففي أثناء تجمع الهنود حول حصن لارامي لتسلم المساعدات السنوية في ذلك العام وجد أحد هنود قبيلة "سو" Sioux بقرة عرجاء يبدو أنها ضلت الطريق أو استغنى أصحابها عنها فأخذها وذبحها، ولما علم صاحبها بذلك توجه للحصن شاكياً وآملاً بالحصول على تعويض، وبالفعل هرع زعيم الهنود إلى الحصن عارضاً مبلغ عشرة دولارات تعويضاً رغم أن البقرة لا تساوي هذا المبلغ ويقال أيضاً إن صاحبها كان قد استغنى عنها ولكنه عاد للمطالبة بها لما وجد فرصة للتعويض، ولم يقبل بدولارات الزعيم الهندي وأصر على المطالبة بخمسة وعشرين دولاراً وهو مبلغ كبير جداً آنذاك فرفض الهنود دفعه لأنه فوق طاقتهم[30]، وهنا غضب آمر الحصن العقيد جون جراتان John Grattan الذي قاد سرية جنود لاعتقال المحارب الهندي وهو أمر يخالف ما نصت عليه المعاهدة التي أوجبت على كل طرف أن يعاقب المتجاوزين من أفراده، وبعد مفاوضات حامية رفض فيها الهنود تسليم ابنهم للجنود أمر جراتان بإطلاق الرصاص فأعقب ذلك معركة أسفرت عن مصرعه مع جنوده الثلاثين، وقد وجد في جسده بعد مقتله 24 سهماً، وبعد ذلك أرسلت الحكومة حملة "لتأديب" الهنود رغم كونها المسئولة عن خرق المعاهدة، والتقى الجيش بهم في مجزرة وادي الرماد Ash Hollow فذبحهم، مما دفع الهنود للثأر، وبذلك تم تدمير السلام الهش الذي بني في لارامي 1851[31].

---

(29) Andrist، 2001، ص22.

(30) نفس المرجع، ص23.

(31) Capps، 1981، ص165.



موقع معركة جراتان (تسميها الخريطة مذبحة كالعادة) ومجزرة وادي الرماد الانتقامية التي تسميها الخريطة "معركة" في قلب واضح للحقائق[32]

كان العقيد جراتان من المؤمنين بالأفكار "الاستئصالية"، المقابلة للاستشراق في بلادنا، والتي تحرف واقع الآخر وتنتقص قدره وتهمشه تمهيداً لاستئصاله فعلياً، ومن ذلك الحكم بكون الهنود جبناء وضعفاء يمكن لعقيد مثله أن يقضي على قبيلة كاملة منهم بعشرة جنود فقط وأن يهزم مجموع قبائل السهول كلها بثلاثين جندياً[33]، وهو مثل من التهور سنجده يتكرر بعد ذلك في أكثر من شخصية عسكرية أمريكية، ومن الطريف أنهم جميعاً سقطوا صرعى هذا التهور والانتقاص من مكانة المحارب الهندي الذي واجههم جميعاً بكل شجاعة ولما حاولت الدعاية تبرئة مواقفهم ادعت، كما حدث مع جراتان، أن المواجهات كانت "مذابح" ارتكبها الهنود ضد الجنود رغم الحقائق التي أكدت أن الجيش

(32) http://indiancountrytodaymedianetwork.com/2013/09/03/native-history-how-one-lame-cow-sparked-events-leading-plains-wars-151133

(33) Stewart، 1987، ص16.

هو المعتدي في كل الحالات وهو الذي هاجم السكان الأصليين في عقر دارهم وليس العكس[34]، وهذا نموذج من "الاستئصال" الاستشراقي الواضح.

المهم أن انتقام الجيش الأمريكي "لمذبحة جراتان" أصاب الهنود المسالمين الذي كانوا يسعون للحياة بسلام مع الأمريكيين ولم يكونوا متهمين بأية إساءة ضدهم[35]، ومع ذلك سقطوا صرعى هذه السلمية وهو مشهد رأيناه فيما سبق وستشهده كثيراً ساحة المواجهات في الحروب الهندية القادمة.

كانت معاهدة لارامي 1851 جزءاً من مجموعة معاهدات استهدفت الحكومة الأمريكية منها تمهيد أراضي الهنود للعبور أو الاستيطان، وقد سبقتها معاهدة في نفس العام مع الفرع الشرقي لقبيلة "سو" في مينيسوتا، ولحقتها بعد سنتين معاهدة مع السكان الأصليين في جنوب السهول بعدما رتبت أمور الشمال في حصن لارامي.

كان الفرع الشرقي من قبيلة "سو" أو داكوتا المسمى "سانتي" Santee قد تنازل عن جميع أراضيه شرق المسيسبي سنة 1837 ضمن حملة الولايات المتحدة "لتنظيف" هذه المنطقة من سكانها الأصليين وأصحابها الشرعيين، وفي مقابل هذا التنازل حصل الهنود على مبالغ مالية تسربت كلها إلى ديونهم للتجار البيض[36]، وفي سنة 1851 تنازل هنود "السانتي" عن بقية أملاكهم في داكوتا ومينيسوتا وأيوا (24 مليون فدان) مقابل ما يقارب ثلاثة ملايين دولار تدفع نقداً وعلى شكل مساعدات سنوية لمدة خمسين عاماً[37]، وفي عام 1858 أنقص الكونجرس أراضي المحمية التي تبقت للهنود في المعاهدة السابقة بمقدار النصف[38]، وفي جميع الأحوال كانت المبالغ التي تخصص للهنود محل طمع المصالح التجارية والاقتصادية للتجار والمستوطنين بسبب ديون يتم تضخيمها أو خدمات مبهمة مما يؤدي إلى تسرب الأموال إلى المدعين البيض ومن ثم يخرج

(34) نفس المرجع، ص16.
(35) نفس المرجع، ص16-17.
(36) Andrist، 2001، ص29.
(37) Prucha، 1995، ص438.
(38) Andrist، 2001، ص30.

أصحاب الأرض الشرعيون أخلاء الوفاض من صفقات التنازل عن حقوقهم[39] (وهذا ما سيحدث لو وافق أهل فلسطين يوماً على قبول أي تعويض عن حقهم في بلادهم وسيخرجون هم أيضاً من أية صفقة صفر الأيدي بعد حسابات مشبوهة لن تعدم وسيلة لسلبهم أي مبلغ يخصص لهم).

كان الهدف النظري من إسكان الهنود في المحمية هو "تمدينهم" بتعليمهم ممارسة الزراعة في قطعة من الأرض مملوكة بالملكية الفردية وجعل العمل والكد في طبيعة الحياة بدلاً من الصيد، وهو ما عبّر عنه كولمبس منذ بداية الأمر بجعل الهنود يتبنون أساليب الأوروبيين، وكما تبين من تجربة القبائل الخمس المتمدنة قبل ذلك بربع قرن، كان هذا الهدف مجرد واجهة كاذبة تغطي هدف الاستيلاء على الأرض، وهو الهدف الحقيقي وراء ما سمي بعملية التمدين والتي لم يقم الرجل الأبيض برعايتها بجدية في أي مرحلة من تاريخ المواجهة مع السكان الأصليين، بل عمد إلى تدميرها بقسوة في أي موقع تمكنت من إعطاء ثمار إيجابية فيه، وإذا كانت القبائل الخمس المتمدنة لم تحصل على رعاية البيض الذين انصبت أطماعهم على أراضيها رغم ما حققته من تقدم، فمن باب أولى ألا يكون تحضير قبيلة مثل السانتي في مينيسوتا ذا أهمية في سلم أولويات الحكومة الأمريكية (رغم أنها قبيلة زراعية تسكن في قرى مستقرة (Lamar، 1998، ص1051).

هذا لا يعني بالطبع أن السكان الأصليين لم يقاوموا عملية التحول الحضاري التي أراد الرجل الأبيض أن تتم بنفس سرعة رغبته بالاستيلاء على أراضيهم، هذا لو توفر صدق النية لديه وهو ما لم يحدث أيضاً، وقد وجدنا أن الهنود ينقسمون دائماً بين حزبين: "تقدمي" يؤيد التحول إلى حياة الرجل الأبيض، وتقليدي يؤيد الإبقاء على أسس الحياة المتوارثة والتمسك بها، والمهم في دور الرجل الأبيض بين هذين الحزبين أنه لم يكن يستهدف إحداث التحول الحضاري في حياة الهنود إلا بمقدار ما يعينه الإعلان عنه على الاستيلاء على أكبر مساحة من أرضهم، ومن هنا كانت العجلة في إجراءاته والتي لا تتفق مع سنن التغير الاجتماعي حتى بموازين ذلك العصر التي عبر عنها مراقب ثاقب

(39) نفس المرجع، ص30.
- Prucha، 1995، ص438.

النظر كالكاتب الفرنسي الشهير أليكسيس دي توكفيل كما سبق ذكره، وقد واجه الهنود الرجل الأبيض بحجة لا بد أنه لم يأخذها على محمل الجد انطلاقاً من مركزيته التي صورت له تفوقه المطلق على العالمين، فقد قال أحد زعماء الهنود في مينيسوتا إن الهنود يقاومون أن يغير الرجل الأبيض حياتهم كما كان سيفعل لو أن الهنود حاولوا تغيير حياته.

وبالإضافة إلى ذلك لم يقدم البيض الدعم الكافي لعملية التغير السريع التي أرادوها مما نتج عنه خيبة الحزب "التقدمي" الهندي الذي تعلق بأهدافهم (كما خابت في بلادنا آمال الاتجاهات التي علقت الآمال على مساعدة الاستعمار)، وذلك كما حدث في مينيسوتا حين تسربت الأموال التي دفعت للهنود إلى أيدي الطامعين، ثم تأخر تسليم الدفعات التالية لهم بعد ذلك وهو ما لم يكن ليأخذ أبعاداً مأساوية لو لم يكن الهنود قد جُردوا من وسائل عيشهم التقليدية وأصبحوا معتمدين تماماً على مساعدات الرجل الأبيض[40] مما أوقعهم في مأساة الجوع عند تخلف مخصصاتهم تخلفاً غير مبرر زاد من نكبته فشل المحصول الزراعي ورفض الرجل الأبيض إطعامهم إلا حين تصل أموالهم[41] التي كان تأخيرها بيده هو.

وعند وصف حالة قبيلة السانتي قبل ثورتها يقول المؤرخون إن الحرب الأهلية جعلت الحكومة تتخلف عن دفع مخصصات الهنود الذين كانوا قد انقطعوا عن وسائل معيشتهم التي أراد الرجل الأبيض أن يفصلهم عنها، مما تسبب في زحف المجاعة إليهم لما تأخرت مساعدات الحكومة عن الوصول، وزاد من إثارتهم رفض الوكيل المسئول عن توزيع المؤن أن يقوم بمساعدتهم، واستدعائه جنود الجيش الأمريكي لحماية المخازن إلى حين وصول المال رغم أن مخازن الوكالة كانت مليئة بالطعام مما حدا ببعضهم إلى الهجوم عليها وانتزاع ما يقيم أودهم وأود عائلاتهم، ولم يتركوا المكان حتى أخذوا وعداً من الوكيل بالحصول على كميات جديدة ولكن الوكيل نكث بوعده ولما اجتمع به زعيم

(40) Prucha، 1995، ص441.

(41) نفس المرجع، ص441.

ÙBruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص213.

القبيلة "الغراب الصغير" Little Crow أعلمه الوكيل أنه لن يصرف الطعام حتى تصل الأموال، فقال "الغراب الصغير": "لقد انتظرنا فترة طويلة، المال مالنا، ولكننا لا نستطيع الحصول عليه، ليس لدينا طعام، وها هي المستودعات مليئة به، وطلبنا منك أيها الوكيل أن تقوم ببعض التدابير بحيث نحصل على الطعام من المستودعات، أو أننا سنضطر إلى سلوك طريقنا الخاص لحماية أنفسنا من الموت جوعاً"[42]، ووصلت الإثارة حداً خطيراً بالإهانة التي وجهها أحد التجار لهم حين قال إن عليهم أن يأكلوا الأعشاب أو برازهم لو كانوا جوعى[43]، وفي هذه الظروف الكئيبة اندلعت الثورة في صيف 1862 لأسباب وجيهة جداً وليس كما وصفها أحد المؤرخين بسبب وقوع حادث قتل غير مترو لاسيما بعد طرد الهنود الجائعين من مخازن الطعام الممتلئة وتأخر مخصصاتهم بلا سبب وإهانتهم على الملأ[44]، فالحادث كان وليد هذه الظروف التي تراكمت وكان طبيعياً جداً في سياقه أن يقوم الهنود الجياع بقتل المستوطنين، ولو كان الغضب محصوراً في الأفراد الأربعة الذين قتلوا خمسة من المستوطنين لما تضامنت القبيلة معهم وأعلنت الثورة التي انتشرت كالنار في الهشيم.



زعيم قبيلة داكوتا سانتي
"الغراب الصغير"

(42) براون، 1982، ص37.
(43) Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص212-213.
(44) Prucha، 1995، ص441.

هاجم الهنود الوكالة الحكومية وقتلوا عشرين رجلاً وأسروا بعض النساء والأطفال، وقد ساعد بعضهم أصدقاءهم من البيض على الهرب والنجاة من القتل، وتمكن الهنود من الحصول على الطعام، كما أحرقوا المباني وهاجموا سرية من الجيش وقتلوا عدداً من أفرادها وتعرض حصن ردجلي لهجمات متتالية كما هوجمت مدينة نيو أولم New Ulm وأصيبت بخسائر كبيرة، وانتشرت مجموعات صغيرة من المحاربين وهاجمت المستوطنين في أماكن متعددة، وأسفرت الثورة عن مقتل ما بين 400-800 من المستوطنين والجنود، وعن هروب 30 ألفاً من المستوطنين، وعن تدمير 23 منطقة تركت بلا ساكن وقدرت مساحتها بعشرة آلاف ميل مربع(45)، ومع أن "الغراب الصغير" لم يكن راضياً عما فعله أتباعه فإنه كان يدرك مشاعرهم جيداً.



حذر كثير من الهنود أصدقاءهم البيض قبل اندلاع الثورة في مينيسوتا، وفي الصورة مجموعة من المستوطنين بعد اندلاعها بخمسة أيام

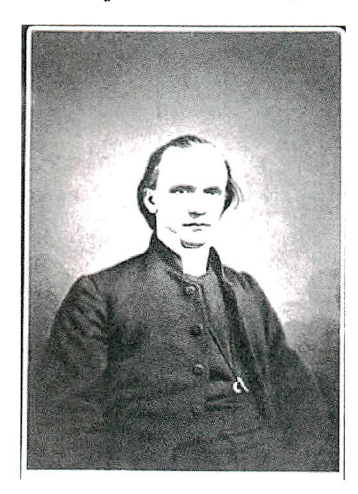
أرسلت الحكومة العقيد هنري سيبلي للقضاء على ثورة السانتي فتمكن من هزيمتهم بعد شهر تقريباً من اندلاع الثورة، فاجتمع زعماء الهنود لتقرير ما يجب فعله وقرر بعضهم الاستسلام كما قرر آخرون الهرب وكان "الغراب الصغير" من بينهم.

(45) Andrist، 2001، ص66.



الجنرال هنري سيبلي (1811-1891)
في زمن ثورة السانتي (1862)

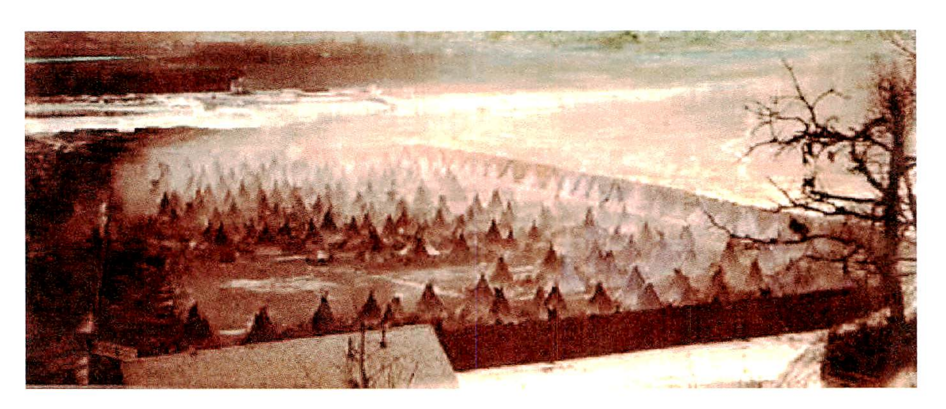
استسلم ألفان من قبيلة السانتي وحوكم المشكوك في اشتراكهم في الثورة وحكم على 303 منهم بالإعدام إلا أن الأسقف هنري ويبل Henry Whipple توسط لدى الرئيس أبراهام لنكولن لتخفيف حكم الإعدام ووصف قتلهم بأنه "أفظع مذبحة هندية في التاريخ"(46)، فصادق لنكولن على إعدام 39 منهم وأعلم الجنرال سيبلي أن "بقية السجناء المحكومين يجب أن تتركهم قيد الحجز حتى تصدر أوامر جديدة، شريطة ألا يهربوا وألا يتعرضوا لأي عنف غير قانوني"(47).



الأسقف هنري ويبل (1822-1901) توسط لدى الرئيس لنكولن لتخفيف الأحكام عن الهنود فأمر الرئيس بتحقيق في المحاكمات فصدم المحققون من التجاوزات التي اكتشفوها: محاكمات سريعة، اعتماد على الإشاعات، وعدم اتباع الإجراءات القانونية المستحقة للمتهمين (48)

(46) Capps، 1981، ص170.
(47) براون، 1982، ص51.
(48) Prucha، 1995، ص444.

كان الهنود قد تعرضوا للعنف غير القانوني قبل صدور هذا التحذير، إذ نُقل السجناء إلى معسكر اعتقال على نهر مينيسوتا وساروا إليه عبر مدينة نيو أولم التي خرج سكانها للانتقام منهم بقذفهم بالحجارة والمياه الحارقة فأسفرت عمليات الانتقام عن جرح 15 من الهنود، ثم قام بعض سكان البلدة باقتحام معسكر الاعتقال لإعدام الهنود فتدخل الحراس لمنع ذلك ونقل الهنود إلى معسكر آخر أشد تحصيناً.



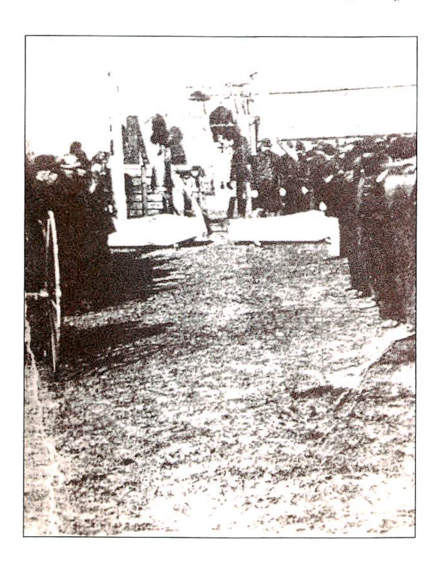
معسكر الاعتقال الذي حشر فيه الهنود في مينيسوتا في شتاء 1862–1863 تمهيداً لترحيلهم غرباً

شابت صفة الانتقام الجماعي العقوبات التي لحقت بهنود السانتي، ذلك أنه حتى الأفراد الذين لم يشتركوا في الثورة ولم توجه إليهم أية تهمة والبالغ عددهم 1700 أغلبهم من النساء والأطفال قرر الجنرال سيبلي إبقاءهم رهن الاعتقال ونقلهم إلى حصن عسكري حيث هاجمهم البيض في الطريق بالحجارة والضرب حتى الموت، ولما وصلوا إلى الحصن وضعوا في حظيرة رديئة ولم يقدم لهم طعام إلا النزر اليسير جداً[49].

وفي 26 ديسمبر / كانون الأول 1862 تم تنفيذ حكم الإعدام ضد 38 من أصل 39 من المحكومين ليكتشف فيما بعد براءة اثنين منهما، وقد شعر المحكوم عليهم بخيبة أمل شديدة حتى أن أحدهم كتب إلى من أقنعه بالاستسلام وعدم

(49) براون، 1982، ص51.

الانضمام إلى "الغراب الصغير" : "لقد خدعتني، قلت لي إننا لو اتبعنا نصيحة الجنرال سيبلي وسلمنا أنفسنا إلى البيض سيسير كل شيء على ما يرام، أنا لم أقتل أو أجرح أو أؤذي رجلاً أبيض أو أي أشخاص بيض، كما لم أشارك في نهب ممتلكاتهم، ومع ذلك فأنا قد فرزت اليوم للإعدام وسأموت في غضون أيام قليلة، بينما سيبقى أشخاص مذنبون في السجن، زوجتي ابنتك، وأطفالي أحفادك، أتركهم في رعايتك وتحت حمايتك، لا تجعلهم يعانون، وحين يكبر أطفالي، فليعرفوا أن أباهم مات لأنه اتبع نصيحة زعيمه ودون أن يكون قد سفك دماء رجل أبيض تواجهه بها الروح العظمى، زوجتي وأولادي أعزاء علي، لا تدعهم يحزنون علي، بل فليتذكروا أن المحارب الشجاع يجب أن يكون جاهزاً لمقابلة الموت، وسأتصرف كما هو ملائم لهندي من الداكوتا "[50].



إعدام الزعيمين شاكوبي و"زجاجة الدواء" اللذين اتجها بعد هزيمة الثورة إلى كندا ثم دُبرت مؤامرة للقبض عليهما بتخديرهما نفذها مجموعة من الجيش الأمريكي والكنديين، وعند الصعود إلى المشنقة سمع شاكوبي صفارة قطار فقال:"عندما يأتي الرجل الأبيض، يذهب الهندي"[51]

وحتى الذين لم يُعدموا فقد عاشوا ليندموا على استسلامهم، فقد قال أحدهم وهو "النسر الكبير" : "لو عرفت أني سأُرسل إلى السجن لما كنت قد استسلمت، ولكني حين كنت في السجن مدة ثلاث سنوات، وأرادوا إطلاق سراحي، قلت لهم إنه يمكنهم إبقائي عاماً آخر لو رغبوا في ذلك، وكنت أعني

(50) نفس المرجع، ص52.

(51) Capps، 1981، ص177.

ما أقول، لم تعجبني الطريقة التي عوملت بها، لقد استسلمت بنية طيبة عارفاً أن الكثيرين من البيض يعرفونني وأني لست بالقاتل، ولا حضرت حصول أية جريمة، وإن كنت قد قتلت أو جرحت شخصاً فقد كان ذلك في معركة عادلة"[52].

أما الذين لم يستسلموا فقد توجهوا في ربيع سنة 1863 إلى كندا وحاولوا الحصول على مساعدة بريطانيا ولكن السلطات لم تمنحهم سوى بعض الطعام، وعاد "الغراب الصغير" في الصيف التالي إلى الولايات المتحدة مع ثلة قليلة من قومه وشن بعض الغارات على المستوطنين للحصول على الجياد مقابل الأرض التي استولوا عليها من قومه، وقال ابنه فيما بعد: "قال أبي إنه لا يستطيع محاربة البيض ولكنه سيسرق جيادهم ويعطيها لأولاده حتى يكونوا مرتاحين ثم سيرحل بعيداً"[53]، إلا أنه أثناء وجوده مع ابنه قرب مستوطنة لجمع الفراولة في شهر يوليو/ تموز/ جويلية، شاهدهما مستوطنان وأطلقا عليهما النار فقُتل "الغراب الصغير" ونجا ابنه وانطلق نحو بقية المحاربين وحذرهم فانتشروا على الفور وظل هو يهرب من مكان لآخر حتى قُبض عليه وحوكم وحكم عليه بالإعدام إلا أنه خفض للسجن ثم أطلق سراحه بعد سنوات.

اتخذت ثورة السانتي مبرراً للاستيلاء على ما تبقى من أراضيهم (كما اتخذ الصهاينة من حرب 1948 مبرراً لتجاوز حصتهم من فلسطين في قرار التقسيم ولتهجير الشعب الفلسطيني ورفض إعادته إلى وطنه)، وقطعت المساعدات عنهم لمدة أربع سنين، واستخدمت لتعويض المستوطنين عما خسروه رغم أن كثيراً من عمليات السلب ارتكبها البيض أنفسهم كما أقرت بذلك لجنة رسمية للنظر في الخسائر، ولم ينظر بعين الرأفة لمن لم يشارك في الثورة فشملهم العقاب جميعاً[54]، وخصصت لهم محمية بعيدة في وادي الغراب على نهر الميسوري بداكوتا، ولم ينفع الاستسلام في الحفاظ على الأرض حتى للمستسلمين أنفسهم، وقد تم ترحيل الدفعة الأولى من القبيلة في مايو/ أيار/ ماي 1863 من

(52) براون، 1982، ص52.

(53) نفس المرجع، ص53.

(54) Andrist، 2001، ص66.

مدينة سان بول St. Paul على متن سفينة بخارية إلى حيث انتظرهم الأرض القاحلة والأمطار الشحيحة والصيد القليل، فتوفي أكثر من300 من أصل 1300 في غضون العام الأول من المنفى[55].

ج - مسيرة الشايان السلمية: بين مجزرتي نهير الرمل وواشيتا كان الهندي الصالح هو الهندي الميت[56]

وكما نقضت الحكومة الأمريكية معاهدة حصن لارامي (1851) في سنة 1854 في حربها ضد قبيلة "سو"، نقضتها كذلك مع حليفة السو وهي قبيلة الشايان Cheyenne، إذ بعد توقيع المعاهدة بسبع سنوات، أي في سنة 1858، اكتشف الذهب في منطقة جبل الحراب Pikes Peak فيما سيصبح بعد ذلك مقاطعة كولورادو، وكالعادة، اندفعت سيول المنقبين تخترق أراضي الهنود، وتقيم فيها، في واحدة من أكبر اندفاعات البحث عن الذهب في التاريخ الأمريكي والتي وصل عدد من شاركوا فيها مائة ألف منقب، أطلق عليهم لقب أبناء سنة 59 Fifty-Ninersنسبة إلى سنة 1859 التي وصلت الهجرة فيها إلى الذروة كما حدث ذلك لأبناء 49 Fourty-Niners قبل ذلك بعشر سنوات في كاليفورنيا، ورفعوا شعار: إما الوصول إلى الذهب في جبل الحراب أو الإفلاس .Pikes Peak or Bust



صورة للمنقبين في جبل الحراب 1860

(55) براون، 1982، ص55.

(56) هذا الفصل تلخيص لما جاء في كتاب براون، 1982، عن المجزرتين، ص56-80 و114-134، ما لم ترد الإشارة بخلاف ذلك.

وفي البداية لم يعترض أصحاب الأرض على ذلك، بل إن أحد زعماء قبيلة الأراباهو Arapaho، واسمه "الغداف الصغير" Little Raven، أخبر المنقبين بسروره لحصولهم على الذهب ولكنه طلب إليهم المغادرة بعد الانتهاء من جمعه (هل يشبه هذا موقف زعماء البلاد النفطية الذين سلموا ثرواتهم للشركات الأجنبية مقابل رواتب ضئيلة؟)، ولكن المنقبين لم يغادروا، فمن هو الشخص الذي يشبع من الذهب؟، بل لقد زاد وفود جماعات المهاجرين والمنقبين، وبنيت مدينة دنفر فوق أرض الهنود، وشاركت الحكومة في هذه الحمى وأنشأت مقاطعة كولورادو وعينت لها حاكماً، ولإسباغ الشرعية على كل ذلك عقدت الحكومة معاهدة جديدة مع قبيلتي الأراباهو والشايان في بداية ستينيات القرن التاسع عشر، وكان على الهنود بموجبها الاستقرار في منطقة محددة من أراضيهم مع احتفاظهم بحرية الحركة من أجل الصيد في بقية الأرض وبكل حقهم فيها، ولكن لم يوقع على هذه المعاهدة سوى ستة من زعماء الشايان البالغ عددهم 44 زعيماً بالإضافة إلى بعض زعماء قبيلة الأراباهو، وكان من بين موقعي الشايان الزعيمان "الإبريق الأسود" Black Kettle و"الظبي الأبيض" White Antilope.



"الإبريق الأسود" من أكثر زعماء الهنود مسالمة للبيض في التاريخ الأمريكي، ومع ذلك فهو من أكثرهم تعرضاً للعدوان الأبيض إذ واجه قومه مجزرتين من أشهر مجازر التاريخ الأمريكي إلى أن قُتل تحت سنابك الجيش

وفي شهر مايو/ أيار/ ماي من سنة 1864 هاجم الجيش الأمريكي مجموعة من قبيلة الشايان ثم توجه إلى قرية "الإبريق الأسود" ولما خرج "الدب

الهزيل" إلى الجنود مع مجموعة من المحاربين لمصافحة الضابط أطلقوا عليه النار وقتلوه، فرد الشايان بقوة على هذا الغدر، إلا أن "الإبريق الأسود" بذل جهداً كبيراً لمنع المحاربين من الاستمرار في قتال الجنود ذلك اليوم، وتوجه بعد ذلك إلى صديقه الأبيض القديم "وليام بنت" ليستفسر منه عن سبب تصرفات الجنود، وقد استمرت في هذه الأثناء عمليات الهجوم على الشايان فوعد وليام بنت صديقه الزعيم الهندي ببذل الجهد لدى سلطات كولورادو العسكرية لوقف التحرش بالهنود.

توجه بنت إلى حصن ليون وقابل العقيد جون تشيفنجتون John Chivington وأخبره بنوايا الشايان السلمية، وقال بنت فيما بعد: "أجابني (تشيفنجتون) أنه غير مفوض بإقامة السلام وأنه كان حينئذ على طريق الحرب... ثم قلت له إن هناك مخاطرة كبيرة في الاستمرار في الحرب، فقد كانت هناك قطارات حكومية مسافرة إلى نيو مكسيكو وأنحاء أخرى وأن هناك كثيراً من المدنيين ولا أعتقد بوجود قوات كافية لحماية طريق السفر، وأن المدنيين والمستوطنين سيعانون الكثير، فقال لي إن على المدنيين أن يحموا أنفسهم".

وفي شهر يونيو/ حزيران/ جوان أصدر حاكم مقاطعة كولورادو بياناً يطلب فيه إلى "الهنود الأصدقاء" التوجه نحو حصن ليون حيث سيتم إعلامهم بالمناطق الآمنة التي عليهم التوجه إليها لأن الجيش سيقوم بإخضاع "الهنود العدائيين" الذين "أثاروا الاضطرابات" في الفترة السابقة، ومن لا يتوجه إلى المناطق المحددة سيكون عرضة لضربات الجيش، وقد حاول بنت بأقصى سرعة إيصال التحذير إلى الشايان والأراباهو ولكن انتشارهم في تلك الفترة من الصيف لأجل الصيد جعل العملية تستغرق أسابيع حدثت أثناءها مصادمات عديدة.

ما أن تلقى "الإبريق الأسود" التحذير حتى أسرع بإرسال رسالة إلى حصن ليون ليعلم أين يجب عليه أن يذهب بقومه ليكون آمناً من الجنود أو المتطوعين المدنيين للقتال، ولما تسلم الضابط الآمر في الحصن الرائد إدوارد وينكوب رسالة الزعيم الهندي توجه إلى الجبل الدخاني Smoky Hill حيث عقد اجتماعاً معه واتفقا على إيفاد سبعة زعماء هنود إلى مدينة دنفر للاجتماع بالحاكم إيفانز والعقيد تشيفنجتون والتباحث معهما في مسألة السلام، وقد تم ذلك الاجتماع

بعد وصول وينكوب وسبعة من زعماء الشايان والأراباهو إلى دنفر في 28 سبتمبر/ أيلول 1864.



موكب زعماء الشايان والأراباهو يصل دنفر ويسلم الأسرى الأمريكيين كمبادرة حسن نية

ومع ذلك لم تكن نفسيات القيادتين السياسية والعسكرية في دنفر لصالح السلام، فالحاكم إيفانز لا يريد إجراء مباحثات مع الهنود مطلقاً لأن واشنطن سمحت له بإنشاء فوج من المتطوعين بعد أن أقنع المسئولين هناك بضرورة توفير الحماية ضد الهنود، ولو تحقق السلام فجأة ودون قتال سيُتهم بتشويه الحقائق، وهذا خطر على مستقبله السياسي (كم حرب خاضتها القيادات الأمريكية والصهيونية ضد المشرق عموماً وفلسطين خصوصاً لدعم المستقبل السياسي لهذا الرئيس أو رئيس الوزراء ذاك)، كما أن هذا الفوج من المتطوعين يضم الهاربين من الخدمة العسكرية ضد الجنوب الكونفدرالي في الحرب الأهلية، ولا بد من أداء الخدمة العسكرية ضد الهنود الأقل تسليحاً من الجنوبيين والأقرب من ساحة الحرب الأهلية البعيدة في الشرق، وذلك ليكون هؤلاء المتطوعون قد أدوا خدمة عسكرية ليتم إعفاؤهم من قتال الجنوب، وبالإضافة إلى ذلك لا بد لأفراد الفوج من ممارسة ما تم تدريبهم عليه: "ماذا سأفعل بفوج كولورادو الثالث لو تحقق السلام؟ لقد دُربوا على قتل الهنود، ويجب أن يقتلوا الهنود" (ألا يشبه هذا خوض الحروب في الزمن المعاصر ضد العراق وفلسطين وغيرهما لتجربة الأسلحة الحديثة التي ابتكرتها آلة الموت الأمريكية؟).

ATTENTION!

INDIAN

FIGHTERS

Having been authorized by the Governor to raise a Company of 100 day

U. S. VOL CAVALRY!

For immediate service against hostile Indians. I call upon all who wish to engage in such service to call at my office and enroll their names immediately.

Pay and Rations the same as other U. S. Volunteer Cavalry.

Parties furnishing their own horses will receive 40c per day, and rations for the same, while in the service.
The Company will also be entitled to all horses and other plunder taken from the Indians.

Office first door East of Recorder's Office.

HAL SAYR.

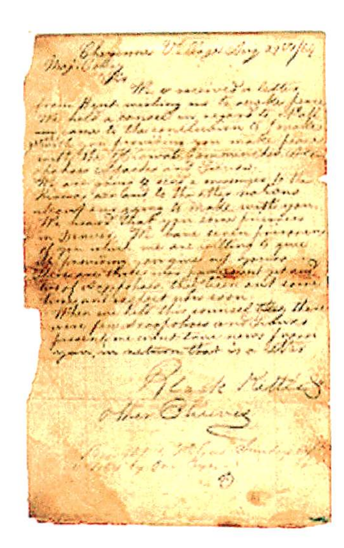
Central City, Aug. 13, '64.

إعلان رسمي من فوج الخيالة الثالث في كولورادو عن طلب متطوعين لقتال الهنود قبل مجزرة نهير الرمل مع منح امتيازات للمتطوع تماثل امتيازات الجندي النظامي

أما على الجانب العسكري فلم يتعب الجنرالات أنفسهم بمثل هذه الحجج "الوجيهة" لقتال الهنود، بل اكتفوا بإصدار الأوامر، فقد أبرق قائد القطاع العسكري الجنرال صامويل كيرتيس إلى العقيد تشيفنجتون "لا أريد السلام قبل أن يتعرض الهنود للمزيد من المعاناة"، وهنا يقف قارئ التاريخ أمام حقيقة الجيش في الكيان الاستيطاني والذي لا يقوم بمهمة حماية الأهالي والدفاع عنهم بل بالإشراف على تعريضهم بسادية واضحة لأكبر كمية من المعاناة لأجل ضمان أمن المستوطنين (وهذا بالضبط ما يفعله الجيش الصهيوني في فلسطين لاسيما في الضفة الغربية وقطاع غزة اليوم).

وفي النهاية رضي إيفانز بالاجتماع بالهنود، ورغم أن مقابلته إياهم كانت غليظة فإن "الإبريق الأسود" قال: "... لقد اقترح الرائد وينكوب أن نأتي لمقابلتك وقد أتينا بعيون مغمضة نسير في طريق حفنة من الرجال وكأننا نمشي عبر النيران، وكل ما نطلبه هو السلام مع البيض، نريد أن نمسك بيدك، أنت أبونا، كما قالها ملوك عرب لمندوب الحكومة البريطانية الذي كان يحدد لهم

حدود ممالكهم وفق إرادة ومصالح دولته "البهية القيصرية"[57]، لقد سافرنا عبر غيمة وكانت السماء مظلمة منذ أن بدأت الحرب، وهؤلاء الشجعان الذين معي راغبون في أن يفعلوا ما أقوله لهم، نريد أن نعود إلى بيوتنا بأنباء طيبة لأفراد قومنا حتى يمكنهم أن يناموا في سلام ... " (وكذلك رغبت قيادة الشعب الفلسطيني في عقد سلام الشجعان أيضاً وكانت النتيجة في الحالتين واحدة)، وبعد سلسلة من التحقيقات والفظاظة من جانب إيفانز، وتأكيدات الزعماء الهنود على السلام وعدم اشتراك الشايان في أعمال العنف ضد البيض، أخبرهم تشيفنجتون أن عليهم الاستسلام إلى الرائد وينكوب في حصن ليون، وبالفعل توجه "الإبريق الأسود" بقومه إلى نهير الرمل Sand Creek الذي يبعد 40 ميلاً عن حصن ليون تعبيراً عن رغبته في السلام وانتعشت العلاقات بين الهنود والحصن كثيراً إلى درجة أن قبيلة الأراباهو تركت مخيم "الإبريق الأسود" واستقرت بجانب الحصن تماماً، ولما لم يجد الهنود صيداً في المنطقة الآمنة وزع عليهم وينكوب مساعدات حتى لا يضطروا للخروج إلى المناطق المحظورة.


Cheyenne Village Aug 29th/64
Maj. Colley
Black Kettle & other Chieves

رسالة محفوظة في كلية كولورادو كان "الإبريق الأسود" قد أرسلها إلى حصن ليون في 1864/8/29 طالباً علاقات سلمية مع الأمريكيين، وقد وصلت الرسالة بعد أقل من أسبوع (1864/9/4)

وبدلاً من تقدير جهود وينكوب في إقامة سلام مع الهنود كان جزاؤه الإقالة

(57) الخليفة، 1998، ص423 و428.

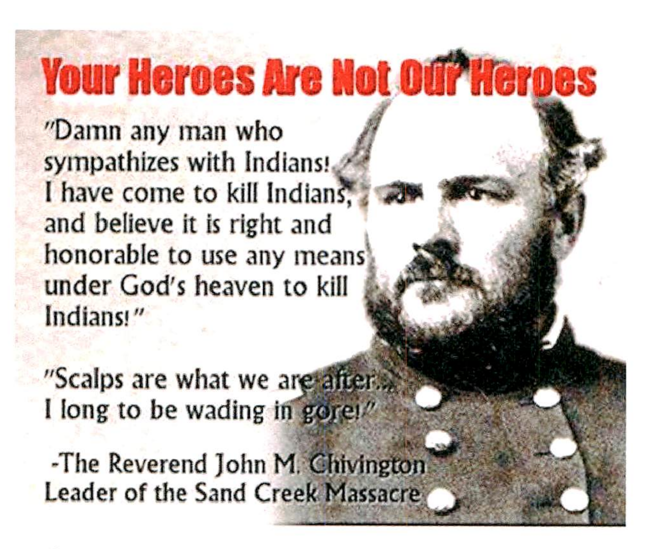
من منصبه، وبإلقاء نظرة على شخصية خلفه الرائد سكوت أنتوني يتضح لنا سبب الإقالة، ذلك أن قبيلة الأراباهو عندما توجهت إلى الحصن لمبادلة الطعام بالجلود أمر الحراس بإطلاق النار على الهنود وضحك عليهم وهم يهربون وقال: "لقد أزعجوني ما فيه الكفاية، وهذه هي الطريقة الوحيدة للخلاص منهم"، وقد حاول "الإبريق الأسود" التفاهم معه، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني توجه للحصن لزيارته، فأكد أنتوني للزعيم الهندي أن الهنود سيكونون عند نهير الرمل تحت حماية حصن ليون وأن بإمكانهم التوجه إلى الجبل الدخاني لممارسة الصيد، كما طلب من الأراباهو فك مخيمهم القريب من الحصن والتوجه للصيد، وفعلاً لحق قسم منهم بمخيم "الإبريق الأسود" واتجه الآخرون جنوباً.

وبعد ذلك أبلغ أنتوني رؤساءه بأن هناك "جماعة من الهنود تبعد أربعين ميلاً عن الحصن، ... وسأحاول أن أبقي الهنود هادئين حتى تصلني التعزيزات"، فسبب إزاحة وينكوب والإتيان بأنتوني هو تنفيذ مخطط "الكبار" بضرب هنود المنطقة، ولكن لماذا حدث ذلك مع وجود تلك الروح المسالمة جداً عندهم؟ وسيتكشف ذلك فيما بعد.

وبالفعل وصلت التعزيزات في 27 نوفمبر/ تشرين الثاني: 600 جندي فيهم فوج كولورادو الثالث، الذي دُرب على القتل ويجب أن يقتل كما قال الجنرال كيرتيس، والجميع بقيادة العقيد تشيفنجتون الذي تحدث بصراحة عن القتل الذي ينوي ممارسته فاحتج عليه بعض الضباط لأن هذا نقض للسلام الذي التزم الهنود به، فغضب تشيفنجتون وأجاب: "ملعون كل من يتعاطف مع الهنود، لقد جئت لقتل الهنود، وأعتقد أنه لأمر شرعي ومشرف أن أستعمل أية وسائل تتواجد تحت سماء الرب لقتل الهنود".

تحرك طابور الجيش في الساعة الثامنة من مساء الثامن والعشرين من نوفمبر 1864، أي في اليوم التالي لوصوله حصن ليون، نحو نهير الرمل حيث كان الهنود مطمئنين لحماية الجيش إلى حد أنهم لم يضعوا حراساً ليليين للمخيم، إضافة إلى أن معظم المحاربين كانوا بعيدين في رحلة صيد حسب توجيهات الرائد أنتوني.

وصل الطابور مخيم الهنود مع حلول الفجر، ولما أحس "الإبريق الأسود"



رجل الدين "المبجل" العقيد جون تشيفنجتون[58] كان يملك طموحاً سياسياً لتبوء منصب في ولاية كولورادو حديثة التكوين[59] ، وكانت الأعمال العسكرية ضد السكان الأصليين هي الطريق الذي سلكه هو ورجال قبله وبعده للصعود الجماهيري في المجتمع الاستيطاني، وكان هذا الطريق هو الذي أوصل كل قيادات الكيان الصهيوني لأعلى المناصب السياسية

بوجودهم رفع علماً أمريكياً وعلماً أبيض بجانب خيمته وهو متأكد من أن الجنود عندما يرون العلمين لن يصيبوا أحداً بأذى، وتوجه "الظبي الأبيض" للجنود طالباً إليهم التوقف عن إطلاق النار ولكنهم أطلقوا عليه الرصاص وقتلوه، ولم يمنعهم العلم الأمريكي ولا العلم الأبيض من الاستمرار في القتل، فارتكبوا ذلك اليوم واحدة من أبشع مجازر التاريخ الأمريكي:

"أما روبرت بنت (الإبن المولد للوكيل وليام بنت صديق الهنود) الذي كان يصطحب الكولونيل تشيفنجتون مكرهاً، فقال إنهم حين وصلوا إلى مكان يرون منه المخيم كان العلم الأمريكي مرفرفاً، وإنه سمع "الإبريق الأسود" يقول للهنود أن يتجمعوا حول العلم، وكانوا هناك جاثمين رجالاً ونساء وأطفالاً، وقد حدث ذلك حين كنا على بعد خمسين ياردة من الهنود، كما رأيت علماً أبيض يرفع، وهذان العلمان كانا في مكان واضح جداً بحيث أنه لابد من رؤيتهما،

---

(58) https://elysebruce.wordpress.com/tag/colonel-john-m-chivington/ -

(59) Utley، 2002، ص87.



تخيل الفنان روبرت ليندنو Robert Lindneux للهجوم على قرية الهنود عند نهير الرمل، ويمكن رؤية العلم الأمريكي والعلم البيض اللذين رفعهما "الإبريق الأسود"

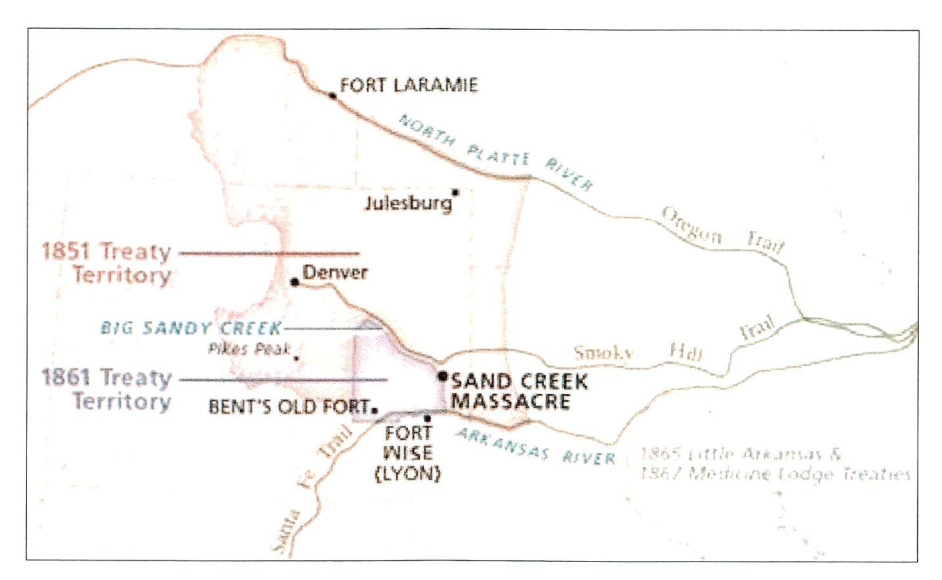
وحين أطلق الجنود النار، ركض الهنود وانطلق بعض الرجال باتجاه خيامهم لجلب أسلحتهم ربما... أعتقد أنه كان هناك ما مجموعه حوالي ستمائة هندي، وكان هناك من المحاربين خمسة وثلاثون وبعض الرجال المسنين أي حوالي ستين رجلاً فقط... أما بقية الرجال فكانوا بعيدين عن المخيم يمارسون الصيد، وبعد إطلاق النار وضع المحاربون النساء والأطفال معاً، وأحاطوا بهم لحمايتهم، وشاهدت خمس نساء يختبئن تحت مقعد خشبي يحتمين به، وحين اقترب منهن الجنود خرجن وركضن باتجاههم ليعرف الجنود أنهن نساء وطلبن منهم الرحمة، ولكن الجنود قتلوهن جميعاً، ورأيت إحدى النساء ممددة على المقعد الذي انكسرت إحدى قوائمه من قذيفة، ثم وصل أحد الجنود مجرداً سيفه، رفعت ذراعها لتحمي نفسها ولكنه ضربها فبتر ذراعها، تدحرجت ورفعت ذراعها الأخرى، فضربها وبترها، ثم تركها دون أن يقتلها، كان هناك قتل دون تمييز للرجال والنساء والأطفال، وكان هناك ثلاثون أو أربعون امرأة تجمعن في حفرة للحماية وقد أرسلن فتاة صغيرة في السادسة مع علم أبيض على عصا، ولكنها لم تتقدم بضع خطوات حتى أطلق عليها النار فقتلت، وقد قتلت كل النساء في تلك الحفرة فيما بعد، وكذلك أربعة أو خمسة رجال خارجها، لم

تقاوم النساء قط، وكل من رأيته ميتاً كان مسلوخ الفروة، ورأيت إحدى النساء وقد شق بطنها وفيه جنين كما أظن وقد تمدد إلى جانبها، وقال لي الكابتن سول فيما بعد إن هذا صحيح، وقد رأيت جثمان "الظبي الأبيض" وقد بترت أعضاؤه التناسلية وسمعت جندياً يقول إنه سيصنع منه كيساً للتبغ، ورأيت امرأة هندية وقد بترت أيضاً أعضاؤها التناسلية... ورأيت فتاة صغيرة في الخامسة من عمرها كانت مختبئة في الرمال، واكتشفها جنديان، فجردا مسدسيهما وقتلاها ثم سحباها من ذراعها من الرمال، ورأيت عدداً كبيراً من الأطفال بين أذرع أمهاتهم وقد قُتلوا مع أمهاتهم".

وجاء في شهادة الملازم جيمس كونور: "حين ذهبت إلى ميدان المعركة في اليوم التالي، لم أر جثة لرجل أو امرأة أو طفل دون أن تكون مسلوخة الفروة، وفي أحيان كثيرة كانت أجسادهم ممثلاً بها على نحو أشد ما يكون شناعة حتى أن الأعضاء التناسلية للرجال والنساء والأطفال كانت مبتورة، وسمعت أحد الجنود يقول إنه اجتث الأعضاء التناسلية لإحدى النساء وكان يعرضها على عصا، وسمعت رجلاً آخر يقول إنه بتر أصابع أحد الهنود ليحصل على الخواتم التي فيها، وحسب معرفتي التامة فإن هذه الأعمال الفظيعة قد ارتكبت بمعرفة ج. م. تشيفنجتون ولا أعرف أنه اتخذ أية إجراءات لمنعها، كما سمعت عن طفل عمره بضعة شهور وقد رمي به في صندوق طعام إحدى العربات وبعد أن حمل مسافة صغيرة تُرك على الأرض ليموت، كما سمعت عن حوادث كثيرة جرى فيها بتر الأعضاء التناسلية للنساء وتعليقها على الجزء الأمامي المقوس من السرج، أو وضعها على القبعات أثناء سير هؤلاء الجنود ضمن الصفوف"، وجاء في شهادات أخرى أن الجنود قتلوا أطفالاً بصدم رءوسهم بالأشجار[60].

---

(60) Nevin، 1981، ص150.



مساحة الأرض المخصصة للهنود من قبيلتي الشايان والأراباهو في كولورادو وما حولها وفقاً لمعاهدة لارامي (1851) والتي انكمشت في معاهدة تالية بعد عشر سنوات، مع تحديد موقع مجزرة نهير الرمل ودينة دنفر التي بنيت بصورة غير شرعية وحصن ليون ومركوز بنت التجاري(61)



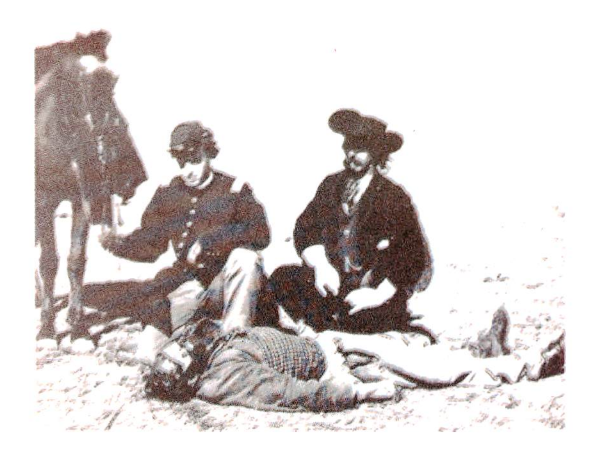
أصرت الولايات المتحدة إلى زمن قريب أن مجزرة نهير الرمل كانت "معركة"

(61) http://www.nps.gov/sand/parknews/a-tale-of-two-treaties.htm -



نصب جديد في موقع المجزرة يعترف بكونها مذبحة وليست معركة وذلك منذ سنة 2007 في زمن بوش الابن الذي أعطى موافقته على ذلك في وقت انهمك هو فيه في مجازر حديثة، فأين هي آلية التصحيح الذاتي والتعلم من الأخطاء؟

انتقم الهنود لمذبحة نهير الرمل وشنت قبائل السو والشايان والأراباهو في بداية عام 1865 غارات عديدة على طول نهر البلات Platte الجنوبي على العربات والمحطات والمراكز العسكرية، وأحرقوا بلدة جولزبيرج Julesburg وفعلوا بأهلها مثل ما فعله الجنود بالشايان، وقطعوا خطوط المواصلات والتموين.



جانب من عمليات الانتقام الهندية إثر مجزرة نهير الرمل مما أدى إلى سحب 8 آلاف جندي من جبهة الحرب الأهلية وإرسالهم إلى الغرب[62]

وبعد الانتهاء من الغارات الانتقامية اجتمع زعماء الشايان لتقرير ما سيفعلوه، وقد مال معظمهم للتوجه شمالاً واللحاق بزعيم السو الأوغلالا

---

(62) Capps، 1981، ص186.

"الغيمة الحمراء"، وبأقربائهم من الشايان الشماليين الذين كانوا يستعدون في تلك الفترة لتوجيه ضربات موجعة للجنود الذين اخترقوا منطقة نهر البارود Powder River بغير إذنهم وأفسدوا عليهم مناطق صيدهم، أما "الإبريق الأسود" الذي نجا من مجزرة نهير الرمل ففضل الاتجاه جنوباً نحو نهر الأركنساس.

استمر "الإبريق الأسود" في اتباع السياسة السلمية التي أصبح من الأدق بعد ما لاقاه وصفها بالسياسة الاستسلامية (كم زعيم عربي وفلسطيني حذا حذو هذا الاستسلام رغم جرائم الغرب والصهيونية)، فقد اجتمع مع رسميي الحكومة في خريف 1865 حيث قال له جيمس ستيل: "نحن ندرك تماماً أنه من الصعب على أي شعب أن يغادر وطنه وقبور أجداده، ولكن لسوء حظكم تم اكتشاف الذهب في بلدكم، وقد ذهب إليها حشد من البيض للعيش فيها، ومعظم هؤلاء الناس هم من ألد أعداء الهنود، إنهم أشخاص لا يهتمون بمصالح الهنود ومستعدون لارتكاب أية جريمة بغرض الوصول إلى الثروة، هؤلاء الرجال موجودون في بلدكم الآن، في كل أنحائها، ولا يوجد جزء واحد يمكنكم أن تعيشوا فيه بحيث تعتمدون على أنفسكم إلا وتصطدمون فيه معهم، إن نتائج هذه الحالة من الأمور هي أنكم معرضون دائماً للاستغلال وعليكم اللجوء إلى السلاح للدفاع عن النفس، وبسبب هذه الظروف، لا توجد في رأي اللجنة أية بقعة في بلدكم السابق يمكنكم العيش فيها بسلام".

وقّع "الإبريق الأسود" على التخلي عن أراضي قومه شمال نهر أركنساس وعلى الموافقة على البقاء جنوبه، وذلك في 14 أكتوبر/ تشرين أول 1865، وبهذا تحقق هدف المجزرة التي وقعت في نهير الرمل وليس من المبالغة القول إن الذهب هو الذي دفع إلى ارتكابها، ومع ذلك لم تكن هذه هي نهاية متاعب "الإبريق الأسود" مع "آبائه" البيض.

لم يعترف كثير من أفراد قبيلة الشايان بالمعاهدة التي وقعها زعيمهم المسالم، وتجمعوا تحت قيادة "الأنف الروماني"، وانضموا زمناً إلى قيادة زعيم قبيلة "سو" الغربية أو لاكوتا "الغيمة الحمراء" في حربه ضد غزاة نهر البارود، ثم عاد "الأنف الروماني" جنوباً وهو مصمم على حماية أرض قومه، وانفجرت ثورتهم بعد قيام الجيش بقيادة الجنرال جورج أرمسترونج كاستر بإحراق مخيمهم

فردوا بمهاجمة المحطات وعمال السكك الحديدية وقطع خطوط المواصلات.

وفي صيف 1867 ظهرت في الأفق خطة "سلمية" جديدة من جانب الحكومة، فقد أرسلت لجنة "سلام" لإقناع قبائل الشايان والأراباهو والكيوا Kiowa والكومانشي Comanche بالاستقرار في محمية كبيرة جنوب نهر الأركنساس حيث يتعلم الهنود هناك الزراعة ويحصلون على الماشية من الحكومة، فاجتمعت اللجنة بزعماء الهنود عند نهير الكوخ السحري Medicine Lodge في شهر أكتوبر من عام 1867، فبذل "الإبريق الأسود" جهداً لإقناع الزعماء بالموافقة على مطالب الحكومة وتوقيع المعاهدة، وقد عرض أحد الزعماء فكرة المشاركة في ملكية الأرض بحيث يسمح الهنود بمد خط السكة الحديدية، ويسمح لهم البيض باستعمال أراضي الصيد في منطقة الجبل الدخاني، ولكن الأمريكيين لم يقبلوا بذلك (كما رفض الأمريكيون والصهاينة فكرة الدولة ثنائية القومية في فلسطين وأصروا على احتكار ملكيتها وهويتها اليهودية).

وفي نهاية ذلك الشهر وقّع من وافق من الزعماء على المعاهدة ورفض من لا يرغب فيها، وكان "الأنف الروماني" Roman Nose ممن رفضوا التوقيع واتجه شمالاً مع محاربيه، أما الذين وقّعوا على المعاهدة فأمضوا شتاء هادئاً جنوب الأركنساس عند نهر واشيتا Washita ولكن لم يكد ينتهي ذلك الشتاء حتى نفد ما لديهم من طعام ولاح لهم شبح المجاعة في الوقت الذي كان الكونجرس مايزال يناقش التصديق على المعاهدة، ولهذا ساد التوتر بين الهنود واتجه بعضهم نحو الجبل الدخاني بحثاً عن الصيد وهذا الجبل هو أرض صيدهم القديمة التي تخلوا عنها في المعاهدة الأخيرة، وقاد بعض الزعماء الغارات على المستوطنات للحصول على الطعام والذخيرة.



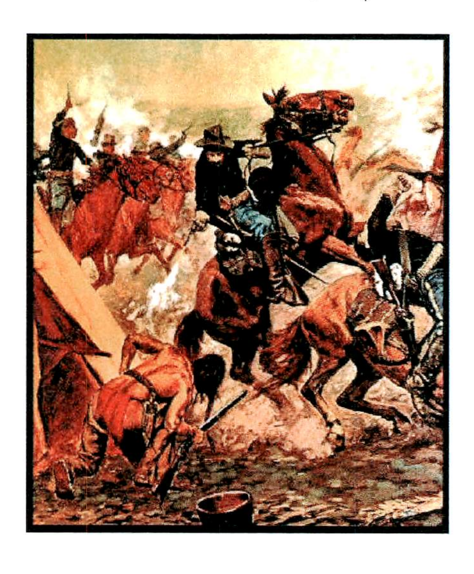
"الأنف الروماني" (1830–1868) من زعماء المقاومة في قبيلة الشايان لم يهاجم البيض إلا بعد مجزرة نهير الرمل ثم قتله الجنود

قال "الإبريق الأسود" تعليقاً على تأخر المساعدات: "إن إخوتنا البيض يبعدون عنا اليد التي مدوها إلينا في "الكوخ السحري"، ولكننا سنحاول التمسك بها، نأمل أن يشفق علينا الأب الأعظم (أي الرئيس الأمريكي) ويعطينا البنادق والذخيرة التي وعدنا بها حتى نستطيع اصطياد الجاموس ونرد غائلة الجوع عن أسرنا"، إلا أن عدم شفقة الأب الأعظم (الذي نادى بعض المسئولين العرب في زمننا المعاصر بضرورة التوسل إليه أيضاً ليشفق علينا) أبقت على حالة التوتر ووقعت معركة جزيرة بيتشر Beecher Island التي قُتل فيها "الأنف الروماني" في سبتمبر/ أيلول 1868، فانفرطت الجبهة العسكرية الهندية بخسارته وتوجه المحاربون جنوباً للانضمام إلى "الإبريق الأسود" الذي "أشفق" عليه "أبوه الأعظم" أخيراً وأرسل إليه الجنرال فيليب شيريدان قائداً لحصن كانساس ليخطط لشن حملة شتوية على الهنود غير المستعدين في جنوب نهر الأركنساس، وهم الذين التزموا بالمعاهدة، لإجبارهم على الاستقرار في محمية حول حصن كوب Fort Cobb (وذلك كما "أشفق" الأب الأعظم بوش الإبن في زمننا على توسلات العرب بشن الحملة ضد العراق 2003) ولما سمع "الإبريق الأسود" في نوفمبر بوصول أعداد من الجنود قاد قومه مائة ميل نحو حصن كوب طلباً للأمان، ولكن قائد الحصن الجنرال وليام هازن رفض السماح له بالاستقرار قرب الحصن وأكد له بأن عليه صنع السلام مع الجنرال شيريدان نفسه[63]، وأنه لو عاد مع قومه إلى مخيماتهم والتزموا بالمعاهدة فلن يهاجمهم أحد، وذلك مع علم هازن بخطة شيريدان الهجومية، فعاد الهنود إلى نهر واشيتا.

وفي فجر السابع والعشرين من نوفمبر اكتسح الجنود بقيادة الجنرال جورج كاستر مخيم "الإبريق الأسود" الذي خرج هذه المرة أيضاً لمقابلتهم والتفاهم معهم كما فعل في نهير الرمل ولكنهم قتلوه الآن ومروا فوق جثته وجثة زوجته ودخلوا المخيم وارتكبوا مجزرة راح ضحيتها عشرات من الشايان معظمهم من النساء والأطفال وكبار السن، وبهذا انطوت صفحة "الإبريق الأسود" بسلخ فروة رأسه على أيدي "آبائه" البيض، وبوصفه بأنه "مجرد صفر عجوز مهترئ لا قيمة له" كما قال الجنرال شيريدان، وادعى في تقريره عن هذا "الانتصار" أنه أعلم

(63) Debo، 1983، ص222.

الزعيم الهندي أنه لو جاء إلى الحصن سيكون تحت حماية الجيش ولكنه "رفض" و"قُتل في المعركة" (!) والغريب أنه طالب الهنود من قبيلة الكيوا بعد المجزرة بالقدوم إلى نفس حصن كوب لإعلان السلام، وتتساءل مؤرخة بارزة لماذا لم يُقبل نفس العرض من "الإبريق الأسود" قبل فترة وجيزة؟[64]

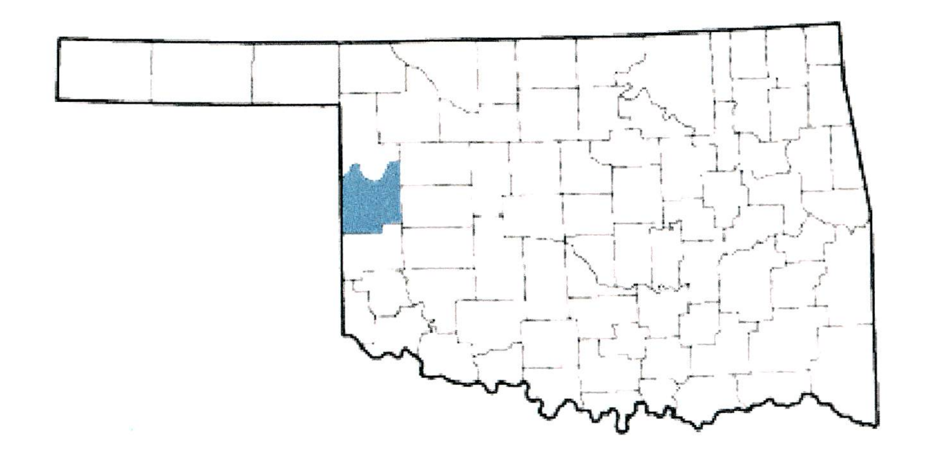


لوحة "هجوم في الفجر" للفنان الأمريكي تشارلز شريفوجل (1861–1912) تصور هجوم واشيتا



الجنرال فيليب شيريدان (1831–1888) من القادة البارزين في الحرب الأهلية من أجل تحرير الرقيق كما زعموا وفي نفس الوقت من أشد المحاربين ضد حرية الهنود قسوة، قاد حملة الهجوم على الشايان في واشيتا بصفته قائد قطاع الميسوري، أطلق بعد المجزرة عبارته الشهيرة:"الهندي الصالح هو الهندي الميت"، وهي عبارة سيكررها الصهاينة فيما بعد ويطبقونها على الفلسطينيين.

(64) نفس المرجع، ص223.



المقاطعة التي وقعت فيها مجزرة واشيتا في أوكلاهوما



النصب التذكاري في موقع المجزرة اليوم مازال يؤكد إصرار الأمريكيين على عدها "معركة" في الوقت الذي يرفضون فيه عد عمليات العدوان، التي أبيد فيها جنودهم المعتدين، معارك، ويصرون على كونها "مجازر"

ضحايا آخرون من زعماء السلام

لم يكن "الإبريق الأسود" هو الزعيم المسالم الوحيد من الهنود، ولم يكن الوحيد أيضاً من قبيلة الشايان، ولم يكن الوحيد من الشايان الذين قُتلوا رغم سلميتهم، فقد عد أحد المؤرخين مجموعة كبيرة أخرى من الزعماء الشايان المسالمين للرجل الأبيض ومن الغريب أن عدداً منهم قُتلوا أيضاً على أيدي البيض رغم ميولهم السلمية، فمنهم من قُتل وهو يحاول حماية المهاجرين المستوطنين[65]، واثنان منهم قُتلا في مجزرة نهير الرمل[66]، ومنهم من اعتقل بعد المجزرة وهو يناهز الثمانين ووضع في السجن حيث قُتل[67]، ومنهم من قُتل قبل المجزرة بأيدي الجنود رغم حمله قلادة سلام ورسالة صداقة من الرئيس أبراهام لنكولن نفسه[68]، وكان تفسير هذه المواقف أن الزعماء المسالمين لم يكونوا بقادرين على التحكم في رجالهم الذين يمكن أن يقوموا بأعمال عنف ترتد آثارها على الجميع، ولكن يلاحظ أن نفس هذا المأخذ يمكن تسجيله على الحكومة الأمريكية التي لم تكن تستطيع لجم رجالها ومواطنيها[69] الذين كانوا يرتكبون الجرائم ومع ذلك لا ينالهم عقاب عليها.

تقويم سياسة لنكولن تجاه السكان الأصليين

كان هذا الموضوع ومازال مهملاً في التاريخ الأمريكي، ولم يصدر في معالجته حتى الآن إلا كتاب واحد يقول ما يلي:

مع أن المؤرخين المحدثين أهملوا الشأن الهندي أثناء الحرب الأهلية الأمريكية بصفته متعلقاً بقوم كُتب عليهم الفناء أمام امتداد الحضارة، وافترضوا أن الرئيس أبراهام لنكولن لم يكن يملك وقتاً للسكان الأصليين، فإن قضايا الهنود لم تكن دائماً هامشية لديه بل كانت متشابكة مع عدة مسائل سياسية ومالية

---

(65) Hoig، 1990، ص34 و37.
(66) نفس المرجع، ص37 و59.
(67) نفس المرجع، ص36-37.
(68) نفس المرجع، ص67 و76.
(69) نفس المرجع، ص121.

وعسكرية واجتماعية حيوية في ذلك الزمان[70]، إلا أن الهنود في حد ذاتهم لم يكونوا على درجة هامة في سلم الأولويات، ولما اهتم بأمورهم كان ذلك ضمن السياق العسكري العام، وترك معالجة شئونهم لمكتب الشئون الهندية ولم يعطهم مطلقا أولوية في سياسته، إذ كان مهتماً بانضمام المقاطعات الجديدة (انضمت خمس مقاطعات أثناء الحرب الأهلية كما سبق ذكره) وبالسكك الحديدية والموارد المعدنية وجاء الهنود بعد كل ذلك، ورغم حديثه عن سعادتهم ورفاهيتهم فإن اهتمامه الأول في الغرب كان تأمين التمدد الاستيطاني الذي كان هو مصمماً على دعم تطوير الغرب بواسطته ولم يتم عرقلته حتى بسبب الحرب الأهلية[71].

في السنوات التي سبقت الرئاسة لم يتحد لنكولن الفكرة السائدة عن ضرورة إزاحة الهنود أمام تقدم الحضارة، وقد تكونت رؤيته للسكان الأصليين في سنواته الباكرة حين شارك في الحرب ضد ثورة "الصقر الأسود" (1832) وحاول كغيره من ساسة العصر أن يستفيد من سجله العسكري ضد الهنود للوصول إلى منصب سياسي (المجلس التشريعي)، وعلى الصعيد الشخصي تميزت مواقفه بالإنسانية (تماماً مثل سلفه جزار الهنود الرئيس أندرو جاكسون الذي تبنى طفلاً هندياً فقد والديه في حروب جاكسون)، إلا أن مواقفه العامة طُبعت بالاهتمامات السياسية (عملياً) والآراء المستقلة (نظرياً)[72].

وقد احتوت الأفكار العنصرية السائدة والتي دعمت عملية التوسع والاستيطان والعدوان على صفات الاستئصال الاستشراقي الذي يرى الشيء ويعتقد بعكسه : فرغم ممارسة الهنود الزراعة كان البيض يدمرون مزارعهم وبساتينهم بحجة أنهم بدائيون لا يمارسون التحضر الزراعي، ورغم المعارك الدموية الطاحنة التي نشبت بين البيض على طول التاريخ الأمريكي والأوروبي أيضاً ووصلت ذروتها في الحرب الأهلية كان لنكولن يرمى الهنود ومعاركهم الداخلية الهزلية بتهمة العنف والميل لقتل بعضهم بعضاً وينفي عن البيض هذه

(70) Nicholas، 2000، ص1-2.
(71) نفس المرجع، ص161-164.
(72) نفس المرجع، ص3-4.

الميول ليبرر في النهاية عنفه ضد الهنود[73].

وكانت الأفكار السائدة عن السكان الأصليين والتي اعتنقها لنكولن والمصلحون أيضاً تنطوي على تناقضات عميقة أظهرت السياسات العملية حقيقة الالتزامات التي قيدت ذلك المجتمع بها، وقد نبعت التناقضات من ادعاء نوايا "طيبة" تجاه الهنود وهذا يتطلب أن يصبحوا على الأقل مثل الرجل الأبيض ويشاركونه عالمه إذا لم يحصلوا على رفاهية أن يُتركوا وشأنهم ليعيشوا كما يريدون، في الوقت الذي لم يكن خيار ذلك التحول والمشاركة خياراً جدياً عند الرجل الأبيض الذي انحصرت أهدافه في الحصول على الأرض ومواردها دون مشاركة سكانها في التمتع بها.، ومن هنا طالبوا بعزل الهندي بنقله غرباً أولاً ثم بوضعه في المحميات ثانياً في الوقت الذي يدعون فيه محاولة استيعابه في المجتمع الأمريكي، ومن جهة أخرى يبررون عزله بأنه لصالحه بعيداً عن الآثار السلبية للحضارة مع أنه سيفنى في رأيهم إن لم يندمج في هذه الحضارة (!)، ويدعون أن له مكاناً في هذا المجتمع المتحضر في الوقت الذي يقومون بإزاحته باستمرار نحو الغرب كلما اقتربت منه طلائع هذا المجتمع، ويدعون أنهم يقدمون الحضارة للهندي في الوقت الذي لم يستطيع الهندي اللحاق بتطورها المستمر[74].

وفيما يتعلق بالتطبيق العملي لسياسات الاستبعاد كانت إدارة الشئون الهندية "أكثر الإدارات الحكومية فساداً" بشكل تقليدي، كان لنكولن "خادماً" لهذا الفساد الذي كان يخدم مصالح شخصية للمتنفذين في الحكومة بدلاً من خدمة مصالح الهنود وحمايتهم كما كان يُفترض في هذه الإدارة[75]، وكانت ولاية مينيسوتا حيث ثار الهنود قد ورطت لنكولن بشكل مباشر أكثر من غيرها من الولايات في الأعمال المأساوية لهذا النظام الفاسد[76].

(73) نفس المرجع، ص187 و201.
(74) نفس المرجع، ص197.
(75) نفس المرجع، ص24.
(76) نفس المرجع، ص5 و65.

لم يكن لنكولن غافلاً عن مشاكل الفساد الذي ينخر إدارة الشئون الهندية في مينيسوتا[77] والتي حرصت على أن تكون صلة وزير الداخلية في حكومة الرئيس الجديد بإدارة شئون الهنود وثيقة، ولكن الرئيس لم يصغ إلى صوت التحذير الذي بلغه من لجنة التحقيق التي تألفت لكشف جوانب القصور العديدة في هذا النظام، وأدى تجاهله إلى اندلاع ثورة الهنود بعدما سرقت أموالهم وتأخرت مخصصاتهم ومنعت عنهم المساعدات ووصلوا حد المجاعة كما سبق ذكره، فرأى الرئيس في شن الحرب عليهم حرباً قومية وليست محلية[78]، وكانت المصالح الانتخابية وراء اهتمام الرئيس بمينيسوتا بصفتها ولاية دعمت حزبه في معركة الرئاسة وهو حريص على إرضائها[79]، ومن الطريف أن رجالها الذين دعموا تحقيق العدالة للعبيد الأفارقة لم تمتد عدالتهم لتشمل الهنود فطالبوا بإجلاء حتى الأبرياء من الولاية دون استشارتهم فقط لكونهم هنوداً[80]، وسبب تلك المفارقة بسيط: إن استغلال الهنود يجلب المال والنفوذ[81]، ولهذا لم يكن من العجيب أن يدعم حاكم الولاية الفاسد[82] هذا الطلب، وتخيل كثير من رجال الإدارة الأمريكية أصابع الجنوب الكونفدرالي وكندا البريطانية في هذه الثورة، وهو أمر لم يكن صحيحاً[83]، فلدى الهنود ما يكفى من الأسباب للسخط والاستياء، ولكن الرئيس لم يدرك ذلك إلا متأخراً[84]، أما الحكومة فعالجت الأمر بتعيين رجل هو الجنرال هنري سيبلي الذي طالما أفاد من الهنود في التجارة والسياسة ليستفيد الآن من قتلهم بأعداد كبيرة وقمع ثورتهم وكان له مصلحة ذاتية في هذا الإجراء الذي يطابق توجهات رؤسائه المؤيدة للحل

---

(77) نفس المرجع، ص77.

(78) نفس المرجع، ص85.

(79) نفس المرجع، ص81.

(80) نفس المرجع، ص96 و115.

(81) نفس المرجع، ص91.

(82) نفس المرجع، ص66.

(83) نفس المرجع، ص92.

- Prucha، 1995، ص440.

(84) Nicholas، 2000، ص92.

الإبادي[85]، وعموماً فقد اعترف لنكولن بحاجة إدارة الشئون الهندية إلى الإصلاح[86] ولكنه لم يدعم عملية إخراجها من دائرة المنافع السياسية، وفي تقويم عام لسياسته يقول نيكولاس إنه وعد بالكثير ولكنه لم ينجز إلا قليلاً رغم أنه كان شديداً في مجالات أخرى مثل السكك الحديدية وتطوير استثمار المعادن، وكانت سياسته وسياسة المصلحين في زمنه أساساً لقانون التحصيص (قانون دوز 1887) الذي كان كارثة على الهنود باسم التمدين[87].

أما الإعدام الجماعي الذي أوقعه لنكولن بالثوار من قبيلة سو أو داكوتا (السانتي) فكان حلاً وسطاً أرضى به الرئيس جميع الاتجاهات المتضاربة بشأن مصير المتهمين بأعمال العنف[88]، ولم يكن يستطيع إهمال الرأي العام الجارف ضد السكان الأصليين والذي كان يطالب بتوقيع أقصى العقوبات بأكبر عدد ممكن منهم حتى أن المئات قاموا بالهجوم على مكان احتجازهم لتنفيذ الإعدام بأيديهم[89]، ولما عقدت المحاكمات جرت سريعة بمعدل 10 دقائق أو 15 دقيقة لكل فرد[90] ومن 30 إلى 40 محاكمة في اليوم[91] نتج عنها الحكم على 303 بالإعدام رغم أنهم كانوا قد استسلموا بوهم ضمان سلامتهم[92]، ورغم وخز الضمير الذي أحس به الجنرال سيبلي في تلك المحاكمات فإنه أصر على إرضاء أشد الميول المتعطشة للدماء[93]، ورغم تصديق الرئيس على إعدام 39 من أصل 303 فإن ذلك كلفه هبوط شعبيته بشكل ملحوظ في الانتخابات التالية (1864) من 10 آلاف صوت إلى 7 آلاف صوت وقد صرح له السناتور ألكسندر رامزي حاكم مينيسوتا السابق أنه لو قام بإعدام عدد أكبر لكانت شعبيته قد استمرت

(85) نفس المرجع، ص87-88.
(86) نفس المرجع، ص141.
(87) نفس المرجع، ص159-160.
(88) نفس المرجع، ص112.
(89) نفس المرجع، ص106.
(90) نفس المرجع، ص99-100.
(91) نفس المرجع، ص95.
(92) نفس المرجع، ص105.
(93) نفس المرجع، ص98.

بنفس المستوى ولكن الرئيس قال إنه يرفض ارتكاب الإعدام في سبيل الحصول على الأصوات الانتخابية[94]، ويجب أن نتذكر أن هذا الهبوط وقع في سجل "المحرر العظيم" في ولاية جمهورية أيدت الرئيس منذ البداية ودعمت إعلان تحرير الرقيق (1863)[95]، وهو ما يؤكد أن الصدام لم يكن بين نظام فاسد وسكان البلاد الأصليين بل بين شعبين هما المستوطنون والأصليون وكان المستوطنون أكثر تشدداً من حكوماتهم، وقد وقعت ضغوط على الرئيس ليعدم عدداً كبيراً وكانت الولاية تحت ضغط وقوع صدام بين الدولة ومواطنيها وعرض عليه حاكم الولاية أن يخوله تنفيذ القانون ليقوم بالإعدام ويريح ضمير الرئيس[96]، ويبدو أن أمر العفو لم يمر إلا بوعد الولاية بأموال ضخمة تعوضها عن خسائر الثورة الهندية وبأرض الهنود الذين رُحلوا منها سواء المذنب أم البريء، المذنب بذنبه أو بإلصاق الذنب فيه والبريء بحجة حمايته من غضب البيض (!) وبهذا استبدلت الأرض والأموال بحياة الهنود ورضي المستوطنون بهذه الصفقة وتدفقت الأموال على مينيسوتا[97].

ولم تقتصر الصفقة على ذلك، فقد أدت إلى ملاحقة الهنود والتشديد عليهم وجعل مصيرهم بين السيء والأسوأ، وبعد مقتل زعيم الثورة "الغراب الصغير" وسلخ فروة رأسه، أرسل لنكولن الحملات لمطاردة قبيلته بعيداً عن مينيسوتا وقد تباهى الجنرال سيبلي بأنه تمت هزيمة الهنود وإضعاف معنوياتهم بشدة حتى أنهم أرسلوا رسائل يطالبون فيها بالسلام بأية شروط، ولكن ذلك لم يكن كافياً في نظر الأمريكيين وتوالى إرسال الحملات ضدهم إلى سنة 1866، ولم تكن هذه الحملات مبررة من الناحية العسكرية بل كان الهدف منها هو تدمير الهنود بغض النظر عن أفعالهم وأصولهم[98].

أما المحكوم عليهم وبقية المساجين فقد كان من التنازلات المقدمة لأهل

---

(94) نفس المرجع، ص100 و118.

(95) نفس المرجع، ص81 و91.

(96) نفس المرجع، ص106-107.

(97) نفس المرجع، ص116.

(98) نفس المرجع، ص120.

مينيسوتا استمرار حجزهم حتى من حصل على البراءة منهم، وقد مات من المحتجزين في الحبس أكثر من الذين تم إعدامهم ومع ذلك لم يطلق لنكولن سراحهم إلى نهاية حياته[99].

وتحت شعار رفاهية الهنود (!) تم تهجير قبيلة الوينيباجو Winnebago التي لم تشارك بالثورة، وكان مبرر تهجيرها هو كونها هندية فقط، وقد نقلت من أرض خصبة إلى أرض قاحلة في الغرب[100] لا يتوقع أن تنتج إلا كل خمس سنوات فتجمع حولها 600 من البيض للإفادة من عطاءات الحكومة[101].

ويجب أن يوضع عفو لنكولن عن معظم محكومي السانتي في مقابل الشدائد التي تعرض لها الهنود بعد ذلك كخسارة الأراضي والتهجير واستمرار الحجز وقد أصاب ذلك المذنب والبريء لمجرد كونه هندياً، كما أعان أهل مينيسوتا بتعيين وزير داخلية ساعدهم على إجراءات الانتقام من الهنود، ولما خبا الرأي العام وزالت الأخطار السياسية فضل الرئيس تناسي الموضوع على أساس أنه "قضية متنازع عليها" وترك الهنود لمعاناة آلامهم ووجه اهتماماته لقضايا أخرى[102]، وقد كلف هذا التردد كثيراً من حالات الموت من الجوع والمرض بين الرجال والنساء والأطفال[103].

وعن سياسته تجاه القبائل الجنوبية أثناء الحرب الأهلية والتي سبق لنا استعراضها يقول نيكولاس إنها لم تفد أحداً ولم تنجز التزاماتها إلى الهنود بموجب المعاهدات مما دفعهم إلى الولاء الجنوبي وقامت الحكومة الاتحادية باستغلال الهنود الموالين للشمال وقذفهم في البؤس والحرمان بعد معاناتهم الشديدة [104]، وتم الاستيلاء على أراضي هنود كانساس لأسباب أنانية واضحة اعترف بها مشرعو الفكرة أنفسهم[105].

---

(99) نفس المرجع، ص123-125.
(100) نفس المرجع، ص121.
(101) نفس المرجع، ص122.
(102) نفس المرجع، ص128.
(103) نفس المرجع، ص119
(104) نفس المرجع، ص63-64.
(105) نفس المرجع، ص62.

اهتمت حكومة لنكولن بمد السكك الحديدية واتبعت في سبيل لتأمينها من التهديدات سياسة شديدة تجاه الهنود وتجاه الجنوب أيضاً، وتضمن ذلك الحملات على مقاطعة داكوتا (ضد السو) والحملات ضد الشايان في كولورادو والحملة ضد الآباتشي والنافاجو في نيومكسيكو، والحرب المكثفة التي قادها الجنرال يوليسيس غرانت، وفي سنة 1865 كان عشرون ألف جندي أمريكي يرابطون في التخوم الهندية وهو رقم كبير نظراً لورطة الحرب الأهلية(106)، ولم يأبه الرئيس كثيراً بما حدث للهنود في كولورادو(مجزرة نهير الرمل) لأن أولوياته الانتخابية طغت على ذلك(107).

وإذا كانت وحشية المجزرة قد أثارت المطالبات بالتحقيقات التي وعدت بالتغيير، فإن السؤال البديهي الذي يتبادر إلى الذهن هو: وماذا كانت فائدة كل ذلك للسكان الأصليين إلى نهاية الحروب الهندية؟ لاسيما وقد سبق ذكر أن "سياسة السلام" التي نوت تحقيق المثل الأخلاقية في التعامل مع الهنود زمن الرئيس غرانت لم تؤد إلا إلى تكريس الفساد والعدوان، وهل أدى أي شيء من الحقائق التي كشفتها التحقيقات وطالب بتغييرها حتى أشد الساسة المتعصبين إلى أي تقدم؟(108)

وفي النهاية نرى أن شخصية لنكولن انطوت على التناقض بين دعوته النظرية لخير السكان الأصليين والتزامه العملي العميق بالاستيطان ومقدماته الفكرية (تفوق الرجل الأبيض وتخلف الهندي) ومتطلباته المادية (قوانين الاستيطان ومد السكك الحديدية واستثمار الموارد المعدنية)، والتزامه من جهة أخرى بتسييس توزيع المناصب في إدارة الشئون الهندية، هذا التسييس الذي كان منبعاً للأضرار التي أصابت الهنود ولم يغير لنكولن منه شيئاً إلا على صعيد المطالبة النظرية، كما أن رجاله الذين قاتلوا الجنوب الكونفدرالي بزعم تحرير الرقيق هم الذين واصلوا سياسته العملية بسلب حرية الهنود بعد مقتله واستمر الاضطهاد والعدوان إلى نهاية الحروب الهندية بعد ربع قرن (1890)، ولهذا قال أحد المؤرخين إنه

(106) نفس المرجع، ص164.

(107) نفس المرجع، ص170.

(108) نفس المرجع، ص172-174.

في الوقت الذي تم فيه تحرير العبد الإفريقي شرع الأمريكي فيه باستعباد الهندي[109]، فهل يمكن عد كلام لنكولن "الإيجابي" أكثر أهمية من تصريحات واعترافات أشد أعداء الهنود في الميدان لصالحهم نظرياً مع عدم وجود أية نتيجة عملية لكل هذه الصحوات في الضمائر؟

(109) White، 1979، ص211.

الباب الثالث

الخلاصات والعبر
من قراءة التاريخ الأمريكي



الفصل التاسع عشر

أدوات الاستئصال الفكري:
كيف يؤدي الاستشراق وظيفته التحريفية؟

"استئصال" عام لجميع السكان الأصليين وليس مجرد علم محايد عن الإنسان (أنثروبولوجيا) أو استشراق خاص بالشرق وحده

تحدث كثير من منتقدي الاستشراق عن دوره في تشويه صورة الشرق، موضع دراسته أو ضحيته، للتمهيد للسيطرة عليه وتبرير التحكم فيه، وقد وجدت في دراسات تالية عن التاريخ الأمريكي أن ما انطبق على الشرق عموماً، انطبق أيضاً على غير الشرقيين من السكان الأصليين الذين احتك الغربيون بهم ودخلوا في صدام معهم خارج المنظومة الجغرافية التي تقع إلى الشرق من أوروبا، مثل السكان الأصليين في الأمريكتين، وهو أمر يعم إفريقيا جنوب الصحراء وأستراليا أيضاً، فعن كل تلك القارات نشأت علوم اجتماعية منها ما سمي تأدباً وتمويهاً بالأنثروبولوجيا أو علم الإنسان، ولكنها مارست على السكان الأصليين في تلك القارات ما مارسه الاستشراق علينا من تشويه وتبرير العدوان، ويقول جيرار لكلرك إن الأنثروبولوجيا نادراً ما أعادت النظر بمعطيات الاستعمار ودوافعه "بل لقد قدمت على الدوام للاستعمار حجة من الطراز الأول، فإذا امتاز الاستعمار بالعنف، والنهب، فهو عنف "معقلن" أي أنه شرعي وضروري، وإذا كان العالم قد عرف الاستعمار منذ القدم (الفينيقيون، اليونان، إلخ) فإن ميزة الاستعمار الحديث ليس التعالي، بل إنه حدث يسوغه تفوق المجتمع العلمي خاصة في

مجال العلوم الاجتماعية"[1]، وعن معاناة السكان الأصليين في الولايات المتحدة من هذا الاستعمار الثقافي يقول أحد وجوههم البارزة وهو الأكاديمي فاين ديلوريا إنه منذ حصر الهنود في المحميات كان علماء الأنثروبولوجيا وراء كل السياسات التي ابتليت بها القبائل، وضرب مثلاً للمفارقة التي يجسدها هذا العلم الذي يستهدف حل مشاكل الصراع البشري في الظاهر في الوقت الذي يؤلف هو مشكلة جديدة في حد ذاته، فقال إن أحد العلماء قام بدراسة إحدى القبائل التي يبلغ عدد أفرادها ألف شخص، فاستغرقت دراسته عشرين عاماً وأنفق عليها عشرة ملايين دولار لو أنها أنفقت في تحسين أوضاع القبيلة بالبناء والعمل لما ظلت هنالك مشكلة للدراسة أصلاً (!)[2].

وقد عمت الممارسة الاستشراقية جميع السكان الأصليين خارج أوروبا الغربية واستهدفت العدوان عليهم حتى قبل أن تنشأ الأنثروبولوجيا رسمياً في القرن التاسع عشر، فعمليات التنميط والتشويه والتحريف ترجع زمنياً إلى الوراء أبعد من ذلك أي منذ بدايات الاحتكاك، الأمر الذي يعطيها بجدارة اسماً ذا معنى مزدوج هو "الاستئصال"، أي دراسة المواطن الأصلي على غرار ما يفعله الاستشراق بالشرق من جهة، وذلك لنفس الغرض الذي يستهدفه الاستشراق من جهة أخرى وهو التحكم بهذا المواطن لسلبه أو اقتلاعه أو إبادته، وهو ما تؤديه كلمة الاستئصال: 1-المشتقة من كلمة أصل المتعلقة بالسكان الأصليين، 2- والمستمد معناها من العدوان.

وقد وضح الأثري الأمريكي ألكسندر برادفورد سنة 1841 الربط بين مختلف السكان الأصليين في المخيلة الغربية في عصر الهجمة الغربية على العالم عندما قال إن تحطيم الهنود في أمريكا ليس إلا تحطيماً لحضارة شرقية على يد الحضارة المسيحية الأنجلو-أوروبية[3]، وطالب السياسي البريطاني لورانس أوليفانت صاحب واحد من أوائل المشاريع الصهيونية في فلسطين والأردن (1880) بوضع العرب هناك في محميات على غرار النظام "الذي تبنيناه بنجاح

(1) لكلرك، 1990، ص37.
(2) Vine Deloria، 1988، ص81 و93.
(3) Pearce، 1988، ص157.

في كندا مع القبائل الهندية في شمال أمريكا الذين احتفظوا بمحمياتهم، ويعيشون بسلام فوق أديمها في وسط السكان (البيض) الزراعيين المستقرين"[4]، وهو الحل الذي مازال الكيان الصهيوني يعمل على تطبيقه في فلسطين بواسطة زرع الاستيطان في الضفة الغربية.

وعمم الباحثان ضياء الدين سردار وميريل وين ديفيز ذلك بتتبع هذه الظاهرة والقول إن الأفكار التي ظهرت في أوروبا أثناء حربها المقدسة ضد الإسلام ومواقف الحط من قيمة المسلمين الناجمة عنها انتقلت فيما بعد لتصنع الأفكار التكوينية للولايات المتحدة والتي أسست طريقة التعامل مع سكانها الهنود الأصليين، وبعد الانتهاء من مواجهتهم انتقلت هذه الأفكار مرة أخرى إلى ساحة جديدة حيث أصبحت الولايات المتحدة تنظر إلى بقية سكان العالم كما نظرت في السابق إلى الهنود الحمر[5]، وهو ما يؤكده المؤرخ الأمريكي ألفن جوسيفي بالقول إن استمرار الاعتقاد الأمريكي بجاذبية الثقافة الأمريكية يؤكد أن دروس المواجهات مع الهنود لم يتم استيعابها وهو ما أدى إلى دروس أكثر إيلاماً في فيتنام والعالم الإسلامي وأماكن أخرى[6].

المصالح وأدواتها المعرفية

وأشار منتقدو الاستشراق كذلك إلى أن هذا التشويه الذي قام به نبع من كونه تلبية لحاجات غربية داخلية ولم يكن مجرد حقل اهتمام علمي محايد، فمن الحاجة إلى مرآة لتحديد الهوية الغربية الذاتية وتحديد ما يريده الغرب وما لايريده مروراً بتبرير العدوان على الشرق والتحكم فيه وصولاً إلى تلبية ميول وغرائز مكبوتة في أوروبا[7]، ولأجل كل ذلك استخدم الاستشراق خاصة و"الاستئصال"

(4) أوليفانت، 2004، ص287.

(5) ديفيز، 2005، ص300-314 و391.

(6) Alvin M. Josephy، 1989، ص90.

(7) ساردار، 2012، ص9-13 (مقدمة المترجم) و24 و27 و32 و44-45 و62 و68 و76 و86-87.

- سعيد، 1984، ص39 و141 و275.
- قرم، 1990، ص33.
- Pearce، 1988، ص135.

عامة عدة أدوات للانقضاض على الضحية ورسمها بما يناسب هذه الأهداف:

1 - إسقاط الرغبات الذاتية على صور الآخرين:

لم يكن تبرير العدوان هو الهدف الوحيد من الاستشراق خاصة والاستصال عامة، وإن كان هو الهدف الأوضح في هذه العملية، ولكن للرؤية الاستشراقية-الاستئصالية أهداف أخرى ساهمت في تكوين الصور المشوهة، وفي ذلك تقول المؤرخة إليزابيث هانسون ضاربة أحد الأمثلة لإسقاط الرغبات الذاتية على رؤية الآخرين إن الهندي المجازي الخيالي، وليس الهندي الحقيقي الذي نجا من الهجرات البيضاء، هو كيان أوجده الرجل الأبيض لغاياته الذاتية، وهو كيان غذى الرجل الأبيض وجوده أيضاً لغاياته الذاتية، وهذا القول ينطبق على المفكر الأمريكي المعروف هنري ديفيد ثورو الذي لم يكن من الغريب أنه صمم تجربته مع الهنود لاستعماله الذاتي، فقد رأى في الهندي تفكيره الذاتي، وطور خياله الذاتي، وعالج مشاكله الذاتية، وحدد اهتماماته الروحية الذاتية، وأوجد وعيه الجمالي الذاتي... لقد كان هندي ثورو ومازال اختراعاً للرجل الأبيض لم يستند إلى تجربة حقيقية مع القبائل بل هو مخلوق خيالي بمجموعة من الأغراض الخطابية والعناصر الجمالية، وقد كان هذا الهندي نتاجاً ذاتياً واعياً لثورو[8].

ويشير مؤرخون آخرون إلى أن الهندي الأحمر مثّل للأمريكي الجانب المظلم الذي يحتوي على الصفات السلبية في شخصية الأمريكي ذاته وهي صفات العنف والكسل والاعتداء الجنسي والتنقل واللصوصية والإدمان على الكحول التي يخشاها داخل نفسه، وكلها سمات وجدت بكثرة بين البيض في أمريكا وخشوا منها ولذلك أسقطوها على عدوهم الذي أصبح تعريفه بهذه الصفات مرتبطاً بتعريفهم لمعنى وجودهم وهويتهم بصفة هذا الهندي هو النقيض الذي يحمل كل عيوبهم وليس له أياً من فضائلهم وكان الحل لهذا الصراع مع سلبيات الذات ومن ثم مع العدو النقيض هو الكبح والترحيل والإبادة[9]، وقد كانت هذه الصورة التي رسمها الأمريكي للهندي مجرد أسطورة كما كانت كذلك

(8) Hanson، 1991، ص120-124.

(9) Nicholas، 2000، ص201.

الصورة المثالية التي رسمت في بعض المراحل رمزية لا علاقة لها بالهندي الحقيقي[10].

2 - التمركز حول الذات الأوروبية المولِّد تعالياً على الآخرين:

ظهر الاستشراق مع ظهور الإسلام بصفته إجابة عن التحدي الذي فرضه الدين الجديد على العالم المسيحي، ومن الطبيعي أن ينظر هذا العالم إلى الوافد الجديد المختلف عنه، رغم ما قدمه الإسلام من اعترافات بأهمية المسيحية، نظرة سلبية ومتعالية نابعة من الاختلاف الديني والحضاري أيضاً[11]، ولكن هذا لم يمنع الصلات الحضارية واقتباس ما أنجزته الحضارة الإسلامية عند نقاط الاحتكاك المباشر، وعندما تحول ميزان القوة العلمية لصالح الغرب الأوروبي صار عنده سبب مادي لازدراء عالم الإسلام وغيره أيضاً، ففي القرن التاسع عشر "كان الفرنسيون والإنكليز ينظرون إلى العثمانيين باستصغار على أنهم عرق متخلف يعمه في عاداته وتقاليده المتحجرة" وكان شعورهم مماثلاً تجاه الهنود والصينيين[12]، وذلك لأن القوة والهيمنة والتوسع توجد عند الجماعة القائمة بها إحساساً بالتفوق والتميز والاستعلاء وتصبح واضعة حدوداً فاصلة تحول بين اندماجها بالجماعات الأخرى المغلوبة التي تصبح مطيعة ممتثلة ولكن القوي يرفض ذلك ويؤصل انفصاله بالعودة إلى أساطير التقسيم العرقي القديمة مع إضفاء مسحة "علمية" عليها[13]، وبهذا يصبح النظر إلى المسلمين نظرة دونية تملي على الضعفاء تقديس صاحب التفوق التقني[14] الذي أصبح هو وعالمه معياراً لكل شيء كما يقول الدكتور نصر محمد عارف: فالأعراق الإنسانية مختزلة في ضدين، نحن وهم، والتاريخ البشري مقسم إلى قديم ووسيط وحديث وفقاً للتطور الأوروبي الذي لا يراعي تواريخ الآخرين، وعلم السياسة لا يعترف إلا بالدولة ومؤسساتها ووظائفها وفقاً للتجربة الأوروبية، وتطور المجتمعات

(10) Slotkin، 2000، 558.

(11) ساردار، 2012، ص45-47.

(12) كارابل، 2010، ص263-264.

(13) إبراهيم، 2003، ص283-286.

(14) ساردار، 2012، ص32 و62-65.

محصور في التقسيمات الأوروبية الخطية المتصاعدة على اختلاف العلماء في ذلك والذين اتحدوا في إسقاط التجربة الاجتماعية الغربية على العالم كله، والمثل الأوروبية وأشهرها الوفرة والاستهلاك جعلت غايات للعالم أجمع، وأصبح قياس النماذج البشرية يتم وفقاً لقربها وابتعادها عن النموذج الأوروبي: فالمسيحية هي أوج الديانات والعلمانية هي أوج المجتمعات وما لا يطابق المجتمع الأوروبي المعاصر يعد تخلفاً ورجعيةً وبدائية، وقد استلزم هذا نفي للثقافات والمؤسسات والاقتصاد التقليدي وإحلال نظائرها الحديثة محلها، وذلك رغم الحديث المتكرر والممجوج عن التعددية "لأنهم يقصدون بالتعددية معنى يقصرها على المجتمع الداخلي في إطار ثقافة وحضارة واحدة، وليس بمعنى التعدد على مستوى الحضارات البشرية، حيث لا ينظر إلى التنوع الثقافي والحضاري إلا من خلال منظور فولكلوري لإشباع الرغبة في العلو والتميز، وليس الاعتراف بشرعية وجود "الآخرين"، وحقهم في صياغة نماذج بشرية نابعة من ذواتهم"[15].

3 - علمنة نسق الماضي الديني:

ظلت الذات الأوروبية متمركزة حول نفسها رغم انتقالها من عصر الإيمان إلى عصر العقل ولم يغير ذلك هويتها أو مصالحها أو مواقفها من الآخرين، بل إن اكتساب القوة التقنية وانبثاق أنظمة رأسمالية باحثة عن الأرباح أعطى دفعة دنيوية قوية للعدوان الذي أصبح يستند إلى حجج عقلية وعلمية دون غياب الظهير الديني، وما حدث هو علمنة[16] للمفاهيم المعبرة عن الذات والمصالح الغربية: فالرسالة الحضارية وعبء الرجل الأبيض والقدر الجلي ثم نشر الديمقراطية وحرية التجارة بدلاً من نشر الإيمان والدفاع عن القبر المقدس، وتحولت العنصرية إلى الانتخاب الطبيعي بدلاً من الاختيار الإلهي، واستند الخلاص إلى

---

(15) المسيري، 1997، ج2، ص176-191 (د. نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية: نموذج للتحيز في العلوم السياسية).

(16) لوكمان، 2007، ص60.

- سعيد، 1984، ص143-144.

- ساردار، 2012، ص24 و97.

العمل البشري بدلاً من النعمة الإلهية (استفادت الصهيونية من ذلك)، وتحول مفهوم العالم المسيحي إلى الحضارة الغربية، وأصبح الاستيطان والاحتلال والإبادة قدراً جلياً ونشراً للحضارة ودفاعاً عنها ضد الهمجية والإرهاب بدلاً من الاستناد إلى الوعد الإلهي بأرض الميعاد.

وقد وضحت مارغريت ميسيرفي مثلاً عن التحول الذي حدث في الغرب في اللغة والفكر الدارجين في دراستها عن المؤرخين الإنسانيين الأوروبيين في عصر النهضة ونظرتهم للدول الإسلامية، فقالت إن القلق الغربي من العثمانيين استمر في القرن السادس عشر كما كان في الماضي، وكان من ضمن التغيرات التي طرأت على المفاهيم، التغير الذي حدث في هذا العصر في طرق التعبير عن هذه الهواجس إذ أصبح تناول الخطر التركي من جهة المؤسسات والثقافة العثمانية أكثر من تناوله من جهة أصول العثمانيين التي تنبئ عن"بربريتهم" وتربطهم بنسب كريه، كما جاء في حديثها عن بعض هؤلاء المؤرخين الذين أكدت على ارتباطهم وديْنهم لتراث العصور الوسطى المسيحية(17)، أي أن ما يسميه الدكتور المسيري رحمه الله الخريطة الإدراكية لم تتغير، ولعل ما حدث هو تغير الألوان التي ترسم بها.

ويلاحظ أن الدين ظل حاضراً في الميدان منذ ذلك الزمن إلى يومنا هذا، يدل على ذلك استمرار استخدام المبررات الدينية (في الحالتين اليهودية والمسيحية الصهيونيتين)، بالإضافة إلى التحالف الذي قام بين التبشير والاستعمار خارج القارة الأوروبية رغم التناقض بينهما في الداخل(18) وهو ما أعطى انطباعاً بوجود بعد ديني في صراع الغرب مع ضحاياه، ولهذا كله لم يتغير موقف الغرب من العالم الإسلامي بل استمر العدوان باستمرار المصالح وجاذبيتها، وظهرت صور استشراقية عديدة مستمدة من الروح الفرنجية الصليبية والمجازات المتعلقة بها لا سيما أثناء المواجهات المسلحة بين الغرب والإسلام (حرب بوش الصليبية مثلاً).

(17) Meserve، 2008، ص239 و242.

(18) قرم، 2011، ص137.

وكثيراً ما كان الحضور الغربي في بلاد المشرق الحديث يرى نفسه في أحضان الماضي المقدس ويعبر عن نفسه بمفردات ذات دلالات دينية وتاريخية مقدسة، وفي ذلك يقول المؤرخ الصهيوني الأمريكي مايكل أورين في حديثه عن الرحالة: "لم يكن هناك شيء عند الأمريكيين يعادل زيارة فلسطين... كانت إثارة المسافرين وتشوقهم يزدادان كلما اقتربوا من الأرض المقدسة؛ وكان ذلك يقاس بعدد مرات إشارتهم للإنجيل؛ أما كولي، فكانت رؤية سحرة الثعابين تثير لديه ذكريات سفر الجامعة (10/ 11) في التوراة (إن لدغت الحية بلا رقية، فلا منفعة للراقي)، وكانت مشاركة الفلاحين طعامهم تذكره بإنجيل متى (26/ 23) (الذي يغمس يده معي في الصفحة هو يسلمني)، وتساءل ستيفنز: "هل يمكن أن يكون ذلك حلماً؟" وهو يقف على شاطئ البحر الأحمر "في نفس النقطة التي توقف عندها شعب الله المختار ليشهدوا انقسام البحر" أو فوق جبل سيناء "يسترجعون ذلك اللقاء العظيم بين الإنسان وخالقه"، واختلطت الطبيعة والكتابات الدينية في نفس اللحظة التي كان الأمريكي يطأ فيها الأرض المقدسة؛ فههنا كانت المدن التي قرأ عنها وسمع بها منذ طفولته، التي اشتقت منها المدن الأمريكية أسماءها، وصاحت هايت: "كل ذكرياتي التاريخية تعود بقوة إلى ذاكرتي، فقد رأيت في كل وجه واحداً من آباء التوراة (إبراهيم وإسحق ويعقوب)، وفي كل رئيس قبيلة أحد الحواريين"، "وصوّر تايلور نفسه مثلاً على أنه صليبي يسير في معركة ضد صلاح الدين، وأخذ يفكر متأملاً: " حتى الأشجار والحشائش تسمع أبواق العصور الوسطى، وقعقعة الدروع الأوروبية"[19].

4 - الانتقائية بين التجاهل والتضخيم:

إذا كان الجهل هو وسيلة الاستشراق المبكر الذي صور الإسلام دينا وثنياً يعبد أتباعه صنماً للنبي عليه الصلاة والسلام، فإن الانتقائية طبعت الاستشراق الحديث بصورة أوضح، وهذه الانتقائية تتلازم مع التجاهل والتضخيم، لأن الذي يهمل النظر إلى مجمل الثوب ويركز نظره على بقعة ربما كانت غير مرئية ابتداء،

---

(19) أورين، 2008، ص167-168.
- .Oren، 2007، ص157-158.

فإنه يعمل بلا شك على تضخيم أهميتها وتجاهل بقية الثوب، وفي ذلك يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون إنه حتى حينما كان الغربيون يزورون الشرق فإنهم كانوا يبحثون عن صورة رسموها مسبقاً في أذهانهم، ومن ثم "ينتقون ما يرونه بعناية ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كونوها سابقاً"[20].

أسطورة تفرد الغرب واستثنائيته: منذ القرن التاسع عشر يصوّر الغرب الأوروبي والأمريكي نفسه نسيجاً فريداً في التاريخ بنى نفسه معتمداً على ذاته فقط في خط مستقيم ومتصل منذ عهد الإغريق مروراً بالرومان والمسيحية وصولاً إلى الزمن المعاصر وليس مديناً لأي طرف خارجي فتمكن من التأثير في العالم تأثيراً إيجابياً منحه كل المبادئ المعنوية (الديمقراطية والحرية ودولة القانون وحقوق الإنسان والمساواة والفردية والعقلانية وسيادة السوق وحرية التجارة والأمم المتحدة) والإنجازات المادية (العلوم والانتصار على الأمراض والجوع والفقر وغزو الفضاء) وهي كلها استثنائية توجت بالحداثة.

هذه الصورة الوردية جعلت كثيراً من الباحثين يتشككون في صدقها فلاحظوا أنها تقول الشيء ونقيضه (كالتأكيد تارة على عبقرية المسيحية وتارة أخرى على عبقرية الخروج من عالم الدين) وتهمل السلبيات الكثيرة التي حفل بها التاريخ الغربي ككوارث الإبادة في قارات عديدة والحروب الصغرى والكبرى المتتالية والرق والاستعمار والاضطهاد والاستغلال[21]، كما أنها تتجاهل الدَيْن الكبير الذي يدين به الغرب لحضارات أخرى استعار منها الكثير، وإن تلك الأسطورة تضخم الجانب الذاتي وتتجاهل إنجازات الآخرين، ويلاحظ مارتن برنال أن إطراء العصر الإغريقي بصفته سلفاً وحيداً للغرب الحالي لم يكن نتيجة تقدم في البحث وكشف معلومات جديدة عن ذلك العصر يفسر هذا التغير في الرأي وإسقاط النموذج القديم الذي يؤكد المؤثرات الشرقية (المصرية والكنعانية والفينيقية) في اليونان، بل إن هذا الإطراء بني على تجاهل ما كتبه اليونانيون

(20) بوزورث، 1978، ص80 (مكسيم رودنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية).

(21) قرم، 2011، ص24 و70 و103.

أنفسهم عن تاريخهم ليتناسب ذلك التاريخ مع النظرة العنصرية التي سادت في القرن التاسع عشر[22].

وعلى الجانب الآخر من الأطلسي ضخم الأمريكي ذاته مركزاً الضوء على إنجازاته السياسية في تاريخه ومتجاهلاً استعارته المؤكدة والموثقة من النظام السياسي لبعض قبائل السكان الأصليين التي ألهمت نموذجه الفيدرالي الذي يؤدي الاعتراف بديْنه حتى اليوم، رغم أن الكونجرس أقر بهذا الديْن الهندي سنة 1988 [23]، إلى "حالة من التعصب والغضب داخل أمريكا" وصلت إلى حد وصف هذه الفكرة بأنها "حماقة بالغة" و"إلغاء الحقائق" وقتلاً لأكثر قواعد ومبادئ الحضارة الغربية مدعاة للاحترام والإجلال، وغير ذلك من ألفاظ الانتقاص والتشنج، وتعرّض مناصرو الفكرة "لإدانات حماسية في وسائل الإعلام الشعبية" مما يدعو للتساؤل بعد هذا كيف يمكن لبقية العالم أن يأمل بالدخول في حوار هادئ مع أمريكا؟[24] ولعل الأهم من مجرد الاعتراف اللفظي والأصعب منه هو كيف ستعترف أمريكا بحقوق الشعوب الأخرى وهي ما زالت رافضة إدخال سكانها الأصليين في دائرة رعايتها وهم الذين زال خطرهم منذ أمد بعيد؟ وإذا كانت تتساءل ببلاهة عن سبب انتشار كراهيتها بين المسلمين فلماذا لا تسأل نفسها سؤالاً أعوص وهو لماذا ما زالت ترفض القيام بتنازل بسيط حين تمنع تطبيق جوهر المفاهيم الديمقراطية على القبائل الهندية رغم الإعلان الواضح في المعاهدات والسياسات الاتحادية عن حق الهنود في تقرير المصير وحكم أنفسهم والسوابق القضائية في ذلك[25].

ويشير مايكل أورين إلى تجاهل الأمريكيين عيوبهم في نقدهم المشرق العثماني في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فيقول إن الرحالة الأمريكيين المسافرين إلى الشرق اتفقوا على أنه يعاني من مشكلات عديدة يمكن علاجها بكل بساطة بنبذ الدين الإسلامي وتبني الثقافة الغربية، ومنهم من دعا إلى حملة

---

(22) برنال، 1997، ص627-629.

(23) Utter، 2001، ص434-435.

(24) ديفيز، 2005، ص319-330.

(25) نفس المرجع، ص316.

صليبية دولية لإذلال المسلمين وتفكيك الدولة العثمانية، وتنبأ بعضهم أن بريطانيا ستحتل مصر وأجزاء من آسيا الصغرى وستحتل فرنسا سوريا وشمال إفريقيا، ولكن يجب أن يختفي الإسلام من الساحة أولاً، ويعقب أورين على ذلك بالقول إنه من منظور قرننا يبدو الأمريكيون الذين انتقدوا المشرق بسبب ادعاءات عن فساده وقسوته وتعصبه بالتأكيد منافقين، إذ قاموا هم باستعباد سدس سكان بلادهم (العبيد الأفارقة)، وطردوا السكان الأصليين من بلادهم، وازدهر الفساد السياسي عندهم، وكانت عمليات الشنق بلا محاكمة مازالت وسيلة للتسلية العامة، ومع ذلك تجاهل الأمريكيون كل هذا ولم يبدوا استعداداً لمقارنة أوجه النقص في بلادهم مقابل ما رأوه في المشرق العثماني، وكان السياح يؤكدون أن لدى الولايات المتحدة المثل الأعلى للحرية والفضيلة وكثيراً من الدروس التي يمكن تقديمها للمشرق، وكانوا ينتظرون بشغف الذي يقوم به المبشرون والمهندسون والمعلمون والساسة "باختراق الظلام الذي يكتنف ذلك البلد الكافر" وإعادة تكوين المنطقة وفقاً للنموذج الأمريكي، وقد "تجاهل الرحالة الأمريكيون نقص المساواة والعدل الذين كانا يلطخان مجتمعهم في موطنهم، ونظروا إلى مرآة الشرق الأوسط المكسورة بزجاجها المغبش، فكانت الصورة التي رأوها (لأنفسهم) مثالية لا غبار عليها"[26].

5 - الجهل المستعين بالخيال:

لم تخل صورة الشرق في الذهن الغربي من الجهل الذي كان أحد المركبات الرئيسة في تكوينها، ويذكر الباحث ضياء الدين ساردار أن هذه الصورة اعتمدت على مرجعيات لم تقم بزيارة الشرق أو التعرف إليه عن كثب، بل اتصلت به بواسطة الكتب، وأصبح من غير الضروري لمن يوصف بالرحالة أن يغادر عتبة بيته[27]، ولأن فضول الإنسان يدفعه إلى ملء الفراغ بخياله، فإن خيال الأوروبيين الواسع أكمل الفراغ بصور لها بداية وليس لها نهاية، وفي ذلك يقول المؤرخ الأمريكي زاكري كارابل إن اطلاع أوروبا على الشئون العثمانية الداخلية

---

(26) أورين، 2008، ص164-165.

(27) ساردار، 2012، ص57.

كان محدوداً حتى بعدما تدخل الغربيون فيها في القرن التاسع عشر، ولأن الخيال هو نتاج الجهل، فقد استحضر الغربيون صورة للعثمانيين استمدت من أنصاف الحقائق والأساطير، وأصبح هذا الخيال المحرف حقيقة واقعة استمرت أكثر من حياة الدولة العثمانية نفسها[28].

مثال حريم السلطان: رغم كثرة الآداب والفنون الاستشراقية المتعلقة بحريم السلاطين العثمانيين وعموم الشرقيات، فإن المراجع الحديثة تؤكد أن هذه المنتجات كانت وليدة الخيال[29] لأنه لم يكن من المسموح للرجال الغرباء، فضلاً عن الأجانب، بدخول عالم النساء المسلمات عموماً ونساء السلاطين خاصة، وكان الهدف من تصويره والكتابة عنه بذلك الشكل المثير إشباع رغبات داخلية لرجال الطبقة البورجوازية في أوروبا والتعبير عن بعض مصادر القلق الاجتماعي فيها، وقد وثق الباحث ساردار بعض الدوافع الشخصية الخاصة لبعض المستشرقين وراء هذا الإنتاج[30]، ولقد كانت روايات القلة من النساء الأوروبيات اللواتي دخلن هذا العالم الخاص بالنساء المسلمات أكثر واقعية واعتدالاً وتميزاً عن روايات الرجال الخيالية وكشف بعضهن أنه "كان هنالك جنس أقل بكثير مما يُظن، وكان هناك شرب شاي وأعمال خياطة أكثر من ذلك بكثير"[31]، ولكن "من فكروا بالشرق بصورة إيجابية كانوا دائماً مهمشين"[32].

ولم يكن الجهل دائماً على هذه الصورة المثيرة، فربما اتخذ شكلاً "علمياً" كالمثل الذي رواه لوكمان وهو مثل متكرر في الدراسات الاستشراقية حيث كانت الإحالة والعنعنة منتشرتين، فباحث غربي يحيل إلى باحث غربي آخر، وباحث غربي ثالث يروي عن باحث غربي رابع، وهكذا، والشرق هو الغائب، فقد ألف ألبرت هو ليبير في سنة 1913 دراسة عن حكومة الامبراطورية

(28) كارابل، 2010، ص198-199.

(29) عكاشة، 2003، ج2، ص44 وما بعدها.

- Aldrich، 2007، ص340.

- Toledano، 1998، ص29.

(30) ساردار، 2012، ص86-87.

(31) كارابل، 2010، ص209 و233.

العثمانية في زمن سليمان القانوني، بالرجوع إلى دراسات أوروبية سابقة ودون الرجوع إلى أية مخطوطات باللغة العثمانية رغم توافرها، وهذا ماجعل دراسته قاصرة حتى في موازين ذلك الزمن حين كان يصعب تخيل دراسة عن تاريخ فرنسا الوسيط دون الرجوع إلى المصادر الأصلية باللغات المتصلة بالموضوع، ومع ذلك فقد أصبحت دراسة ليبير مرجعاً مقبولاً ومدرساً على نطاق واسع إلى ستينيات القرن العشرين ولم يكن فشله في التعامل مع المواد الهائلة المتوفرة باللغة العثمانية مشكلة كبيرة[33].

6 - فصل الإنصاف عن السلوك:

بالطبع لم يخل الأمر من احتكاك مباشر بين الغرب والإسلام يعرف فيه البعض أن الصور النمطية لا تنطبق على الواقع، "هناك أناس كثيرون في العالم المسيحي يعتقدون أن الأتراك شياطين أشرار، وهمجيون، ورجال بلا معتقد أو أمانة، لكن من عرفوهم وخالطوهم، لهم رأي آخر... فهم يقولون إنهم ورعون ومحسنون، متمسكون بدينهم"[34]، ولكن الذين تبنوا هذا الإنصاف هُمشت آراؤهم كما تهمش الآراء "المارقة" في المجتمعات الديمقراطية المعاصرة دون الحاجة إلى رقابة رسمية[35]، وليس من الضروري أن يهمَّش حامل الرأي المنصف، فالمهم هو عزل الرأي نفسه وهو ما كان يحدث أحيانا بإبطاله برأي مناقض يدعي مثلاً أن الدين الذي يتمسك به العثماني بهوس هو دين باطل وليس تقوى، أو يقوم المنصف نفسه بتهميش رأيه عملياً مماشاة منه للتيار السائد، مثل الشاعر البريطاني جورج غوردون بايرون (1788-1824) الذي عاد من زيارة الشرق سنة 1811 وتحدث أمام مجلس اللوردات عن العثمانيين قائلا: " هم ليسوا مخادعين، ولا جبناء، ولا يحرقون الهراطقة، ولا يغتالون الآخرين، ولا يدعون أياً كان يتقدم زاحفاً في اتجاه عاصمتهم، إنهم مخلصون للسلطان حتى يصبح غير صالح للحكم، ويتقون ربهم لا يشككون في قدرته، ولهذا فإن من

---

(32) ساردار، 2012، ص68.
(33) لوكمان، 2007، ص180.
(34) ساردار، 2012، ص68.
(35) ديفيز، 2005، ص182.

الصعب التنبؤ إذا أُخرجوا من سان سافيا (مسجد آيا صوفيا كناية عن عاصمتهم اسطنبول)، وحل محلهم الفرنسيون أو الروس، فيما إذا كان ذلك سيكون انتصاراً لأوروبا أم لا، لسوف تكون إنجلترا بكل تأكيد هي الخاسر"، ورغم هذه الشهادة فقد كتب الحكايات التركية التي يصفها ساردار بقوله: "إنها قصائد في العنف المجاني، والانتقام غير العقلاني، والبربرية التي لا رحمة فيها، التي يتسم بها الأتراك... لكن العثمانيين الذين التقاهم بايرون كانوا من نوع مختلف تماماً"[36].

إن الذي صنع هذه الفجوة بين الإدراك والسلوك هو أن الإدراك لا يحدد سلوك البشر كما قال الدكتور عبد الوهاب المسيري، فالحقيقة الواحدة يمكن أن تنتج نماذج مختلفة من ردود الأفعال، وضرب مثلاً لذلك بردود أفعال اليهود على الحقيقة التي صدمتهم عندما اكتشفوا أن فلسطين يسكن بها شعب وليست أرضاً بلا شعب، فمنهم من تردد في اتخاذ موقف ومنهم من حاول التفاهم مع الفلسطينيين ومنهم من زاد توحشه تجاههم، ويسجل التاريخ أن بعضهم رفض المشاركة في مهرجان الظلم من بدايته فحملوا رحالهم وغادروا هذه الأرض بكل إباء وكبرياء[37]، ولذلك ليس من العجيب أن يقود إدراك بايرون المنصف للعثمانيين إلى سلوك غير منصف فيروج في قصائده عكس ما رآه وشهد به ويقاتلهم ويموت أثناء حرب الاستقلال اليونانية ليصبح أيقونة عاطفية عظيمة في الغرب[38].

7 - إسقاط المفاهيم السلبية للواقع الغربي على الآخرين:

من الوسائل التي لجأ إليها العقل الغربي في إساءة تفسير الحياة في المجتمع الإسلامي عند الجهل بها محاولة التوحيد بين عناوين مشتركة تدل على واقع متباين في كل من المجتمع الإسلامي ومجتمعات الحضارة الغربية، وفي هذا يقول الباحث إيهود توليدانو إنه في القرن التاسع عشر كان الأوروبيون والأمريكيون يحملون مفاهيم متشابهة عن الرق تنزع لتعميم ظروف العمل في

---

(36) ساردار، 2012، ص90-91.

(37) المسيري، 1996، ص3-8 و55-62.

(38) ساردار، 2012، ص91.

مزارع العبيد في الجنوب الأمريكي ولا تترك فسحة لخيار مختلف، وإن الأبحاث الغربية لم تلتفت جيداً لمشكلة الاسم، فكان الرق خارج المجتمعات الغربية يعرض بصفات مفعمة بالمعاني السلبية المشتقة من الممارسات الغربية لا سيما في الجنوب الأمريكي[39]، وفي الوقت الذي كان الرق في الأمريكتين منزلة شديدة الانحطاط، كان ما يوصف بالرق أيضاً في المجتمع العثماني سُلّماً للوصول إلى أعلى المناصب التي تلي منصب السلطان نفسه مباشرة، ورغم كون الانكشارية عبيداً للسلطان، يلاحظ كارابل أنهم "على نقيض الأرقاء الأفارقة في الأمريكيتين، (كانوا) طبقة حاكمة لدولة امبراطورية، وكانوا يتمتعون بالمزايا الناجمة عن ذلك"[40].

من هو آكل لحوم البشر: ومن أمثلة إسقاط الصفات المعيبة للغرب على ضحاياه ما فصله الباحث منير العكش عن إلصاق تهمة أكل لحوم البشر بسكان أمريكا الأصليين والذي كان على العكس من التهمة متوافراً في المجتمع الإنجليزي الذي أسقط التهمة على ضحاياه[41]، ومن الطريف أن الطرف الذي ارتكب الإبادة اتهم الضحية بالعنف والتوحش والدموية في الوقت الذي سجل المراقبون المباشرون أن الحرب بين الهنود أنفسهم قبل تدخل الرجل الأبيض كانت أقل عنفاً وشراسة من حروب الأوروبيين بل كانت شبيهة بالتسلية التي قد تستمر سبع سنوات دون أن يُقتل فيها سبعة رجال[42]، وهو أمر مشابه اليوم لقيام الامبراطوريات الغربية الكبرى والمدججة بالأسلحة المدمرة التي تخوض بها حروباً عظمى بقذف غيرها من الضعفاء بتهم العنف والإرهاب والخطر على العالم كله، وقد قالت العرب قديماً مثلاً طريفاً عن ذلك وهو: رمتني بدائها وانسلت.

---

(39) Toledano، 1998، ص15 و29،

(40) كارابل، 2010، ص201-202.

(41) العكش، 2009، ص41-62.

(42) Drinnon، 1997، ص43.

مجمل الصورة الاستشراقية التقليدية

أما الصورة التي نتجت عن كل هذا الجهل والخيال وتلك الانتقائية والعلمنة وذلك الإسقاط فقد ازدهرت وظلت مدة طويلة في خيال الجمهور: "صخب في الألوان، ترف وضراوة وحشية، حريم وسراي السلطان، رءوس مقطوعة ونساء توضع في أكياس وترمى في البوسفور، مراكب وسفن شراعية يرفرف عليها علم الهلال، استدارة القبب اللازوردية والمآذن البيضاء المحلقة، وزراء ومحظيات وخصيان، ينابيع باردة قرب أشجار النخيل، كفار شقت حناجرهم، نساء أسيرات يخضعن لشهوة المنتصر النهم"، وهي صور جمعتها مجموعة فكتور هوغو الشعرية الغنائية المسماة "الشرقيات" (1825)، وقدمت في رأي رودنسون "إشباعاً رخيصاً للغرائز المتأصلة والشهوات الخفية والماسوشية والسادية اللاشعورية للبورجوازية المسالمة" وفقاً للشاعر هاينه[43]، وهو ما يؤكد أن الاستشراق لبى حاجة غربية داخلية قبل أن تكون عملية بحث علمي محايدة.

وقد وصف كارابل هذه الصورة بالقول إنها كانت "صورة للسلطان تخدمه نساء لديهن الرغبة في خدمته ويحرسه خصيان من جنوب صحراء أفريقيا، ويدافع عنه جيش من العبيد أُسروا حينما كانوا لا يزالون أولاداً صغاراً، وتم تدريبهم على حياة خشنة كمحاربين قد يموتون حالما ينبس السلطان بأوامره. وفي قاعة العرش، يجلس السلطان العثماني يلفه الغموض، ومحاطاً بالوزراء الذين يخططون للحملة المقبلة ضد الغرب.وتقليداً لملوك الشرق نادراً ما كان يسمح لزواره بالنظر إليه؛ مما عزز هالة الغموض تلك. وقد ملأ الغربيون الثغرات التي تتخلل ما يعرفونه عن السلطان بالرهبة، وحولوه إلى محارب مقدس يعمل على إهلاك المسيحية، بغية إنجاز ما بدأ به النبي محمد وانتقاماً للعالم الإسلامي لخسارته إسبانيا"[44].

---

(43) بوزورث، 1978، ص79 (مكسيم رودنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية).

(44) كارابل، 2010، ص199.

8 - الجهل ينتج استشراقاً ماركسياً:

ولم تسلم المدرسة الماركسية التي ظهرت لتصحح أمراض الرأسمالية من الوباء الاستشراقي الذي أصاب مجمل الباحثين الغربيين، فقد اتهمت كتابات ماركس وإنجلز "نمط الإنتاج الآسيوي" الذي أدرجت تحته دول متباينة ومساحات واسعة، بالركود وعدم التطور لمدة آلاف السنين، فحياة الفلاح في القرن التاسع عشر هي نفسها حياة أسلافه منذ عشرات القرون بسبب غياب الملكية الخاصة للأرض، ولهذا نفى ماركس أن يكون للمجتمع الهندي مثلاً تاريخ حيث لا تغير ولا تجدد، وهو ما ينطبق على المجتمعات الإسلامية والعثمانية منها، مما جعل الباحث الاجتماعي البريطاني بريان تيرنر يؤكد أن نهاية الاستشراق تتطلب نهاية أشكال من الفكر الماركسي وإيجاد نوع جديد من التحليل(45).

وقد أثبتت الدراسات الحديثة، وحتى اليسارية منها، محدودية معلومات مؤسسيْ المذهب الماركسي وعدم إلمامهما بطبيعة المجتمعات غير الأوروبية التي أطلقا أحكامهما عليها، وفي ذلك يقول المؤرخ البريطاني إريك هوبزباوم عن معرفة ماركس وإنجلز: "كانت سطحية تماماً حول مرحلة ما قبل التاريخ، وحول أميركا ما قبل التاريخ وكانت معدومة تماماً حول أفريقيا، ولم تكن مبهرة حول الشرق الأوسط أثناء العصور الوسطى أو القديمة، لكنها أفضل بكثير حول بعض أجزاء آسيا خاصة الهند، ولم تكن كذلك فيما يخص اليابان، وكانت جيدة حول فترة العصور القديمة والعصور الوسطى في أوروبا"(46)، ويؤكد أندرسون نقص معلوماتهما عن آسيا وحتى تخلفهما عمن سبقهما من الدارسين، وأن فكرة ركود المجتمعات الآسيوية كانت من تجليات هذا الجهل لديهما لأن غياب النموذج الأوروبي عن هذه المجتمعات "لم يكن يعني أن تطورها كان بالنتيجة راكداً أو دائرياً وقد اتسمت بدايات التاريخ الآسيوي الحديث بتقدم عظيم جداً، بالرغم من أنها لم تتطور نحو الرأسمالية، وهذا الجهل النسبي هو الذي خلق وهم الطابع الراكد والمتماثل للامبراطوريات الشرقية، في حين أن تنوعها وتطورها

---

(45) تيرنر، 1981، ص104.

(46) المسيري، 2004.

هما اللذان يلفتان، في الواقع، انتباه المؤرخين في الوقت الحاضر"[47]، وقد أشرت إلى مواطن القوة والتطور في الاقتصاد العثماني في العصر الحديث في دراسة منشورة (مدى مسئولية تاريخنا العثماني الحديث عن تخلفنا العربي المعاصر).

9 - غطرسة القوة وتبعاتها:

بعد تصاعد القوة الأوروبية نتيجة الثورة الصناعية ودخول القارة في عصر التوسع لم يعد مجرد الاختلاف هو الدافع لكراهية المنافسين الآخرين أو التفوق الحضاري هو الحافز على التمركز حول الذات، فقد ظهرت أفكار وفلسفات تمجد القوة المجردة وتجعلها الحكم في صراعات الحياة التي لن يفوز فيها سوى الأصلح، وذلك بدءاً من فلسفة نيتشة ومروراً بالداروينية الاجتماعية ثم النازية والفاشية-اللتين يحاول الغرب عبثاً فصلهما عن مجمل تاريخه بادعاء أنهما مجرد شذوذ وهذا ما يكذبه الواقع[48] حيث الإبادة نمط متكرر في التاريخ الغربي[49]- وصولاً إلى نهاية التاريخ وصراع الحضارات وأفكار المحافظين الجدد، وما يهمنا في كل هذا أن هذه الفلسفات ألغت دور التبرير الفكري في التعامل مع الأعداء، وهي المهمة التي كان يقوم بها الاستشراق و"الاستئصال"، ودعت إلى التعامل المباشر مع الضعفاء لاستئصالهم عملياً دون الحاجة إلى "الاستئصال" الفكري أوتبرير يصفهم بصفات سلبية تمهد لاستعمال القوة ضدهم كما كان يحدث في الماضي، إذ يكفي الآن أن تكون الدولة الغربية الكبرى قوية ليؤهلها هذا لاستعمال حق القوة مع أي طرف تراه معادياً دون الرجوع إلى قيم عالمية أو مؤسسات دولية أو أطراف حليفة وذلك في سبيل تحقيق المصالح التي يمكن وصفها حسب الرغبة صدقاً أو كذباً بشكل أحادي، فالفاعل هو مرجعية نفسه وفقاً لتعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله، ويمكنه أن يستعمل قوته متى شاء دون موافقة غيره أو الحصول على إجماع من الآخرين حتى لو كانوا من

---

(47) أندرسون، 1983، ص78-81.

(48) قرم، 2011، ص193-241 (من موزارت إلى هتلر: ماذا حدث يا ترى؟).

- الويشي، 2007.

(49) المسيري، 1997، ص24-44.

الأصدقاء، وقد اتخذت هذه السياسات عنوان "القدر الجلي" في الولايات المتحدة عندما كانت تخوض صراعاً إبادياً ضد بقايا القبائل الهندية في داخل القارة في القرن التاسع عشر، ثم أخذت اسم الحرب على الإرهاب لإخضاع المتمردين في العالم الإسلامي في بداية القرن الحادي والعشرين، وهو ما يؤكد ما ذكرته سابقاً عن أسبقية التجربة الهندية التي طُبقت على بقية العالم فيما بعد.

ومع أن المراحل التاريخية تتداخل فلا يمكن الفصل بين التمركز حول الذات وغطرسة القوة فإننا يمكننا أن نفرق بوضوح بين سياسات كل منهما وانتقال التوجه العام نحو استعمال القوة المجردة كما اتسمت بذلك مرحلة حكم المحافظين الجدد زمن بوش الابن الذي أعلن مبدأه سنة 2002 بأن السيادة الأمريكية تظل مطلقة ولا مثيل لها، وسيادة الدول الأخرى تحددها الولايات المتحدة، وليس لأي دولة أخرى الحق في منطقة نفوذ حتى في محيطها، وواقع الأمر كما يراه المؤرخ أناتول ليفن أن النية هي بلوغ أمريكا حداً من القوة يمنع عن الآخرين أية خيارات سوى الحشد خلف القوة الأمريكية وتركيز حرية الحركة بيدها وحدها[50].

وعن أثر القوة في صاحبها يقول لوكمان إن القوة المتعجرفة غالباً ما تجعل من يمارسها غبياً وتمنعه من الفهم الدقيق[51]، ومن ظواهر ذلك ما عدده المؤرخ ليفن عما يفعله القوي حين يهمل آراء كل من حوله ويغرق في تقديس ذاته والاعتقاد بحسد الجميع لنجاحه ويبالغ في الاعتداد برأيه والاعتقاد بحصرية الصواب فيه ويصر على الفوز في كل جدال مهما كان تافهاً ولا يعترف بأي خطأ ويحرر نفسه من أي مسئولية أخلاقية تترتب على أفعاله ويطلق يده لفعل ما يشاء[52]، أما الضحية ومكانها في مهرجان الاحتفاء الذاتي هذا فهو موضوع البند التالي.

(50) ليفن، 2008، ص43.

(51) لوكمان، 2007، ص423.

(52) ليفن، 2008، ص42 و48-54.

10 - شيطنة الضحية وصم الآذان عن آلامها:

عبر الأب الروحي لمعتقدات المحافظين الجدد المستشرق الأكثر نفوذاً في إدارة بوش الصغير، برنارد لويس عن الرأي الاستشراقي المعروف القائل إن الكوارث التي حلت بالعالم الإسلامي هي نتيجة إخفاقاته الذاتية ولا يد للسياسات الأمريكية فيها، وإن هجمات المسلمين على المصالح الغربية سببها الكراهية والعداء وعدم العقلانية المتأصلة جميعها في الإسلام بطريقة غير مبررة ولا مفسرة ولا تتحمل الولايات المتحدة أية مسئولية عن ذلك بسبب أي من سياساتها المتعلقة بإسرائيل أو دعم الاستبداديات العميلة أو ممارساتها الاستعمارية وانتهاكاتها المستمرة للحقوق، وأن الإسلام ذاته هو عدو الغرب وليس شخص معين ممن أعلنت أمريكا الحرب عليهم، وقد تحول هذا الرأي إلى سياسة عامة تبناها المحافظون الجدد وعبر عنها السؤال الغبي الذي طرحوه بعد هجمات سبتمبر وهو: لماذا يكرهوننا؟ وأجاب عنه رئيسهم بغباء أكبر حين قال إن المسلمين يكرهون الحرية الأمريكية، وانطلقت أبواق السياسة والإعلام (الذي يوصف عادة بأنه إعلام تجهيلي) بفصل مقاومة المسلمين للهيمنة الأمريكية عن سياقها التاريخي والسياسي، وبدلاً من بحث أسبابها المباشرة والبعيدة، توصف بالكراهية الغبية المفتقدة للأساس العقلاني والتي تنفجر بشكل مجنون لا علاقة له بأي من السياسات الأمريكية أو حتى بإساءة تفسيرها، وأن الالتفات إلى الدوافع والمظالم ضار ولا صلة له بالموضوع[53].

مثال من تبرئة الصهيونية في سبيل شيطنة أعدائها: ومن صور فصل الأحداث عن سياقاتها وتجهيل الناس بأسبابها رغم العلم المسبق بكل ذلك ما قام به السياسي والدبلوماسي الصهيوني أوري جولد الذي ساهم في هذه الحملة بتأليف كتاب عنوانه: "مملكة الكراهية: دور المملكة العربية السعودية في دعم الإرهاب الدولي الجديد"، ومع أنه ليس هنا مقام تفنيد أكاذيبه وادعاءاته وأسافينه، فإنه من الطريف أن نطلع على بعض أدلته "الموثقة" ومنها ما فعله عند ترجمة خطبة الشيخ عدنان أحمد في أحد مساجد مكة (11/ 5/ 2001) والتي جاء

(53) لوكمان، 2007، ص345-369.

فيها في ذم زيارة البابا لسوريا تعداد لجرائم حملات الغرب الصليبية على بلادنا ومنها حسب صورة الخطبة العربية: "هم أبناء من باركوا أصحاب مذبحة صبرا وشاتيلا، هم من باركوا ودعموا أصحاب مذبحة الحرم الإبراهيمي، وقصف المخيمات الفلسطينية، هم من دعموا قتلة الأطفال، وباركوا قتل محمد الدرة والطفلة الفلسطينية الرضيعة: إيمان حجو"، فما كان من المؤلف الأمين سوى حذف كل هذه الفقرة المتعلقة بدعم الكيان الصهيوني من الترجمة الإنجليزية[54] لتقتصر الشكوى على الاختلافات الإسلامية-المسيحية في البوسنة والشيشان وكوسوفو وغيرها، وليخرج هذا الكيان بريئاً من هذا الصراع الذي لا سبب له سوى عدوان الإسلام غير المبرر، ولمزيد من الإقناع يعلمنا بأن الترجمة تمت في مؤسسة الشرق الأوسط للبحث الإعلامي وليس منه شخصياً (!)

ويجب التذكير بمكانة هذا المؤلف وأنه كان على صلة وثيقة بالعرب وليس جاهلاً مظالمهم العديدة فقد كان مستشار السياسة الخارجية لرئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو 1996-1997، وعمل مبعوثاً دبلوماسياً صهيونياً لقادة مصر والأردن ودول خليجية والسلطة الفلسطينية، وكان على صلة وثيقة بالمفاوضات مع الفلسطينيين، وحاز على شهادة الدكتوراة في العلاقات الدولية ودراسات الشرق الأوسط وله كتب عديدة ومقالات في صحف شهيرة وفق تعريفه على الكتاب السابق.

هذا الأكاديمي النحرير يعتمد في كتابه الأسلوب الاستشراقي المعتاد في الإحالة والعنعنة عن أمثاله ويخرج في النهاية بأكاذيب مضحكة، فمن ضمن معلوماته "الموثقة" من مصادر مثله معلومة تؤكد أن "الملايين السعودية تمول الإرهاب ضد إسرائيل"، وهي المحور الذي يدور حوله الكتاب ليؤلب العالم تضامناً مع الصهيونية ضد المسلمين، ومن مجموع الأدلة على قوله، أنه ضمن اهتمام الجماعات الوهابية المسلحة باستعادة الأراضي الإسلامية المحتلة، دعم السعوديون بعض منظمات الإصلاح الإسلامية في آسيا الوسطى، أهمها حزب التحرير الذي أنشئ سنة 1953 في المملكة العربية السعودية والأردن والذي يشبه

(54) Gold، 2003، ص232-233.

الوهابية في نقاط مهمة منها عداؤه العنيف للصوفية والطقوس عند المقامات بالإضافة إلى عداء شديد للتشيع إلى درجة أنه توعد الشيعة بالطرد من آسيا الوسطى إذا وصل الحزب للسلطة[55] (!) وغني عن التوضيح للقارئ العربي الذي عنده اطلاع ولو كان سطحياً على الجماعات الإسلامية أن هذه المعلومات ليست سوى أكاذيب ما عدا تاريخ تأسيس حزب التحرير الذي يأخذ عليه السلفيون عدم تشدده تجاه الشيعة وليس العكس كما يروج هذا الصهيوني، ولا يرتبط هذا الحزب بأي نظام ولا يتلقى دعماً من أية حكومة والعكس تماماً هو الصحيح إذ يعادي جميع الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي ومن المستحيل أن يتلقى دعماً وهابياً سواء كان رسمياً أم غير ذلك.

كيف يحدث التحريف المركب؟

ليس من السهل وضع خط فاصل بين آليات الاستشراق و"الاستئصال" الفكري أو الاستئصال العملي، فليس من السهل أن نصف وضعاً أو فكرة بأنها نتيجة حصرية للتمركز حول الذات أوغطرسة القوة أوالجهل والخيال أوالانتقاء والتجاهل والتضخيم، فأين ينتهي الخيال وتبدأ الانتقائية مثلاً؟ وأين تكون المعلومة تجاهلاً يختلف عن الشيطنة؟ وأحياناً تكون نفس المعلومة جهلاً من شخص وتضخيماً من آخر وإسقاطاً لعيوب الذات عند ثالث وشيطنة عند رابع وهكذا، وربما كانت الشيطنة جزءاً من خيال أو من انتقاء، فعملية تكوين الصورة المحرفة والوصول إلى العدوان قد يتداخل فيها بعض من كل العوامل السابقة:

1 - تحريف صورة المزارع الهندي الأحمر:

وقد شرح بعض المؤرخين آلية تكوين الصورة المحرفة عن سكان أمريكا الأصليين والتي نفت عنهم جميعاً الطابع الزراعي وحياة الاستقرار رغم أن المستعمرين الأوروبيين تعلموا كثيراً من فنون الزراعة في الأرض الأمريكية من الهنود وتمكنوا من التأقلم في البيئة الجديدة مما تعلموه من أهلها ثم قاموا بإنكار كل السجل الهندي الزراعي (انتقائية) لتبرير وضع أيديهم على الأرض، التي

(55) نفس المرجع، ص136.

يجب ألا يتملكها إلا من يبذل جهداً فيها كما ادعوا (تمركز حول الذات)، ولنفي حق أصحابها (غطرسة القوة) البدو، المترحلين، الذين لا يعرفون الاستقرار ولا معنى الملكية وتحديد الأرض وليس لديهم مفهوم عما للنفس وما للغير ومن ثم لن يعترض بشر ولن يشتكي أحد إذا أُخذت كل الأرض منهم[56] (!) هذا ما أقنع الرجل الأبيض به نفسه فصدق أسطورته المشابهة لأسطورة "أرض بلا شعب" وقام بالاستيلاء على كل أرض الهنود بناء عليها كما استولى الصهاينة على بلادنا وفقاً للأسطورة السابقة أيضاً، ولكن كيف تم ذلك؟

يقول المؤرخ روي هارفي بيرس إن حياة الهندي في شرق القارة الأمريكية اعتمدت على الزراعة والصيد في آن واحد وكان هذا التشابك يجعله محتاجاً لأرض واسعة (عدة أميال مربعة) يقيم عليها هذه الحياة في الوقت الذي كانت فيه حياة المستعمر الاستيطاني الأوروبي تقوم على مساحة أضيق (عدة أفدنة) يمارس عليها الزراعة فقط (تمركز حول الذات)، ومن ثم فقد قدر مؤرخ من القرن الثامن عشر أن خمسمائة "متمدن" يمكنهم العيش في وفرة في نفس البقعة التي تكفي "همجياً" واحداً لحياة بدائية (تمركز حول الذات)، وقد سهل على الرجل الأبيض بعدما اشتهى أرض الهندي أن يدركه بصفته صياداً فقط وأن يمحو زراعته من المشهد الذهني ليبرر العدوان عليه بصفته بدائياً غير مرتبط بالأرض وكانت الآلية التي استند إليها التحريف أن معظم الأرض التي يعيش عليها هذا الهندي حيث تتوافر الطرائد تلزمه للصيد في الوقت الذي يلزمه للزراعة مساحة غير مرئية مقارنة بها، ولهذا رأى الرجل الأبيض حرفة الصيد وأعمته المنفعة عن رؤية الزراعة الهندية التي أخذ دروساً منها في بداية استعماره[57]، ويوثق نفس المؤرخ أمثلة عديدة عن العمى الذي أصاب الرجل الأبيض الذي كان يرى بعينيه الزراعة الهندية ثم يصر مكابراً أن الهندي مجرد صياد همجي[58]، وهو مثل صارخ عن الانتقاء في الرؤية بتجاهل غير المرغوب رؤيته (الزراعة) وتضخيم المرغوب (الصيد).

---

(56) Robert A. Williams، 1992، ص211.

(57) Pearce، 1988، ص66-67.

(58) نفس المرجع، ص123 و130.

ويشرح المؤرخ ستيوارت بانر هذا التجاهل بالقول إنه بحلول القرن التاسع عشر كان قد تم القضاء على قبائل الساحل الشرقي الزراعية إما بالأمراض أو بالهجرة نحو الغرب، ومن تبقى منهم كان في حالة مزرية في محميات معزولة وغير قادرين على إحياء ممارستهم الزراعية التي كانت مصدر قوتهم الأول والذي رعوه بجد واجتهاد يوماً ما حسب من رآهم رأي العين من كتّاب ذلك الزمن، ولكن أحوالهم تغيرت كثيراً نتيجة الاحتلال الأمريكي، وسهل على من راقبهم أن ينفي ضلوعهم في العمل الزراعي (انتقاء)، ومن تبقى منهم كقبائل الجنوب التي اعترف البيض بتحضرها كانوا يمارسون زراعة ليست على هوى ومقاييس الرجل الأبيض (تمركز حول الذات)، إذ كان العمل الزراعي موكولاً إلى النساء ولا تستخدم فيه نفس وسائل الأمريكيين كالحصان والمحراث، مما برر للبيض ادعاء أن الهنود لا يمارسون الزراعة مطلقاً، وفي هذا القرن أيضاً وصل الزحف الاستعماري الاستيطاني الأمريكي إلى غرب المسيسبي حيث غلب طابع الترحال على قبائل السهول العظمى الهندية، وهنا أيضاً وجدت الزراعة ولكنها لم تحظ باعتراف أو إدراك الرجل الأبيض الذي أصر على سلب الهندي من هويته الزراعية تحقيقاً لمصلحته الذاتية التي تنفي حق الإنسان في الأرض ما لم يخالطها عمل يديه وجهده، وفقاً لفيلسوف التوسع الأمريكي جون لوك[59].

وبهذا تمكنت النسخة الأمريكية من الاستشراق، أو ما أسميه "الاستئصال"، من تشويه صورة السكان الأصليين قطاعاً قطاعاً كل حسب وضعه وما يناسبه من آليات التشويه التي سلبتهم جميعاً حقيقة كانت مجسدة في حياتهم وهي الزراعة (انتقاء وتجاهل)، ثم أكدت أنهم غير قابلين للتحضر أو لا فرصة أمامهم لمجاراة الحضارة (غطرسة القوة)، ولما كان الخيار أمامهم منذ البداية هو الحضارة حسب المقياس المحدد أو الفناء، فإنه لم يبق أمامهم سوى الفناء أمام زحف المدنية السريع، وبذلك فصّلت الحجج على مقياس المراد بدقة تمهيداً لتحقيق المصلحة المادية من ذلك وهي الاستيلاء على أرضهم بعد نزع حقهم القانوني الذي فرض الرجل الأبيض مقاييسه بشكل أحادي كما يفرض الصهيوني اليوم "القانون" الخاص به على الفلسطينيين دون مشاركة منهم وينزع أراضيهم بطريقة "قانونية".

---

(59) Banner، 2005، ص151-157.

2 - شطب وجود الشعب الفلسطيني:

ومن أمثلة التحريف الاستشراقي في بلادنا أسطورة "أرض بلا شعب" التي وصفت فلسطين، فصنعت لها صورة لا صلة لها بالواقع الحقيقي (جهل وخيال) ولم يعد من المهم فيما بعد سبر هذه الحقيقة التي طغت عليها المصالح المادية وأمكن التلاعب بها كما سيأتي لتطابق مواصفات هذه المصالح كما حدث عندما "عالج" الرجل الأبيض في أمريكا كل الحقائق المتعلقة بممارسة الهنود حرفة الزراعة وأصر على كونهم مجرد صيادين متنقلين، وقد اعترف الوزير البريطاني اللورد بلفور وهو أحد رعاة المشروع الاستيطاني الصهيوني بدور المصالح في تأسيس هذا المشروع الذي هو علمنة لأفكار دينية، والذي سار على نهج المشروع الاستيطاني الأمريكي متجاهلاً أية أهمية علمية عن وجود أو عدم وجود سكان في هذه البقعة العربية التي أشارت إليها الأسطورة الاستشراقية، فكتب في سنة 1919: " إن القوى العظمى الأربع (إنجلترا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا) قد انحازت إلى الصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية صواباً أم خطأ، خيراً أم شراً، فإن جذورها تمتد في تقاليد عريقة، وفي حاجات قائمة، وفي آمال مستقبلة، ذات أهمية أعمق بكثير من الرغبات وألوان الحرمان التي يشعر بها سبعمائة ألف عربي يسكنون هذه الأرض القديمة"[60]، ويتضح في الخطاب مدى التمركز حول الذات الغربية فالسياسة لا تسترشد بالقيم الأخلاقية كما كانوا يدعون فقد اتبعوا هذا السبيل سواء كانت الصهيونية خيراً أم شراً، صواباً أم خطأ، وهم مرجعية أنفسهم وليس لهم قيم عليا خارجية، كما لا يهم سياستهم أي التزام بالديمقراطية أو التحرير أو الإنسانية أو أي شعار رفعته الدول العظمى أثناء الحرب الكبرى الأولى (1914-1918) في سبيل الفوز لأن "الحاجات" أكثر أهمية من رغبات شعب فلسطين (غطرسة القوة)، والذي لا تستفيد السياسة أيضاً من المعرفة المباشرة عنه والتي نقضت أسطورة أرض بلا شعب حين ثبت لدى الوزير وجود هذا الشعب (سبعمائة ألف عربي) لأن المهم عنده هو "الحاجات القائمة والآمال المستقبلة"، ولهذا قام بتحوير استشراقي جديد للأسطورة السابقة لتبرير سياسته فحوّل شعب الأرض القديمة في وعده المشئوم

(60) جارودي، 2008، ص276.

إلى مجرد جماعات أو طوائف غير يهودية (تجاهل) وعدها وعداً ثبت أنه كان فارغاً بصيانة حقوقها فيما حوّل الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء العالم إلى "شعب يهودي" (تضخيم)، وكل ما سبق هو خليط من الجهل والخيال الذي جعل من فلسطين ابتداء أرضاً بلا شعب ثم تعديل ذلك بانتقائية رأت هذا الشعب ولكنها حوّلته إلى طوائف لا قيمة لها وضخمت الجماعات اليهودية إلى شعب قائم بذاته، وهذا نموذج من قدرة الاستشراق على تحوير الحقائق وإصدار صور مخالفة للواقع تماماً[61]، وهو ما يؤكد أنه لم يكن حقلاً علمياً محايداً وأن "الحاجات القائمة" ألقت بظلالها الثقيلة عليه.

الاستشراق و"الاستئصال" من سجايا النفس البشرية

ويلاحظ أن وسائل التحريف الاستشراقية مستمدة من أعماق النفس البشرية التي تلجأ إلى هذه الوسائل في فهم الآخرين أو إساءة فهمهم عندما يكون لها مصالح مضادة لمصالحهم، أو حتى عند مجرد المقارنة معهم، فتمارس ضدهم تحيزاً معرفياً يبرر لها اضطهادهم لسلبهم حقوقهم أو لمجرد إثبات التفوق عليهم أو الإثنين معاً، ولعل إثبات التفوق هو البوابة التي ندخل فيها تمهيداً لاضطهاد الآخرين، وكم رأينا كثيراً من الآباء الذين أنفقوا أقواتهم على تعليم أبنائهم فكان جزاؤهم هو الاستخفاف بجهلهم والاحتقار لمستواهم والتعالي على بيئتهم المتواضعة بعدما نال هؤلاء الأبناء درجاتهم العليا وانتفت حاجتهم إلى من ينفق عليهم وأصبح ماضيهم وبيئتهم مصدراً لمعرتهم (تمركز حول الذات وتعال على الآخرين)، ودائماً ما تكون أنفسنا هي المقياس الذي نقيس به الآخرين، فما ينفعنا هو الخير وما يضرنا هو الشر بغض النظر عن القيم الأخلاقية (تمركز أيضاً حول الذات)، فمن ذلك عندما نصف شخصاً في محيطنا بأنه لص رغم ارتكابنا لأشنع من أفعاله (استدعاء المفاهيم السلبية للذات وإسقاطها على الاخرين)، وأحياناً نختزل حياة آخر بالفشل دون ذكر ظروفه الخاصة أو نجاحاته غير المرئية (جهل وخيال)، أو عندما ننعت ثالثاً بالغباء عندما لا يحيط بما نحيط نحن به دون اهتمام بذكر اختلاف بيئته ومدى فعاليته فيها (تمركز وانتقائية)، أو عندما

(61) الخولي، 1973، ج1، ص216.

نستسهل الاستهزاء بشخص رابع لمجرد غربته بيننا واختلاف لغته أو لونه أو أصله وعدم وجود من يسند إليه ظهره فينا (غطرسة القوة)، أو عندما نسرق جهد عامل لضعفه بيننا فننسبه لأنفسنا أو نبخسه أجره متطاولين عليه بالقوة والنفوذ... إلخ، كما يلاحظ أن هذه الانحرافات لا تطبق إلا حين وجود تباين في المصالح بين الطرفين فالإنسان لا يأبه بعابر السبيل ولا تظهر تحيزاته ضد أفراد لا احتكاك بينه وبينهم حتى لو كانوا بنفس المواصفات التي يبدأ بعيبها عند الاحتكاك، فمجرد الاختلاف ليس منبعاً للخلاف إلا حين تتضارب المصالح.

الاستشراق المتسلسل: عندما تمارس الضحية "الاستئصال" ضد ضحايا آخرين

وإذا انتقلنا من دائرة العلاقات الفردية إلى الانطباعات العامة عن الأمم والشئون العامة نجد كلاً منا يمارس استشراقه الخاص على بقية الشعوب، وإذا كنا قد شكونا كثيراً من تحول اليهود ضحايا الاضطهاد الغربي إلى مجرمين، فإننا نحن أيضاً قد وقعنا في فخ هذا التحول ضد شعوب وأمم أخرى تصورناها أدنى منا، إذ كيف بنا ونحن في مؤخرة الحضارات ننعت مواطني دولة نووية كالهند بالسذاجة، أو نسخر من ضعف وفقر دول إفريقية تحدت الولايات المتحدة في أكثر من مناسبة وخرقت حصاراً فرضته على أكثر من دولة عربية (ليبيا والسودان) في الوقت الذي كان فيه الأقزام العرب يتسابقون لإرضاء العمالقة الغربيين بتشديد الطوق وإحكام الحبال على أعناق إخوتهم المحاصَرين، وكثيراً ما تقمصنا التحيزات الاستشراقية التي تمارس ضدنا فمارسناها ضد غيرنا وقلنا: لسنا هنوداً حمراً، وذلك بحجة استبعاد الهزيمة عن مصير صراعنا مع الصهاينة رغم أننا في نفس الخندق نحارب نفس العدو الذي حاربه سكان أمريكا الأصليون والذي يحمل نفس المعتقدات التي حاربهم بها ويمارس ضدنا نفس السياسات التي مارسها ضدهم، ورغم أن تراثنا مليء بالأبطال الذين هُزموا عسكرياً ولكنهم سجلوا أروع صحائف البطولة والصمود، وهو ما فعله هنود أمريكا ولكن المد كان كاسحاً وأقوى من إمكاناتهم المادية الضعيفة، وليس من المعيب أن يُهزم المقاتل بعد تضحياته وصموده بل المعيب أن يتقمص الضحية ثوب جلاده فيتبرأ من رفاق طريقه متكلاً على جهله بهم وربما استدعى الفروق الاستشراقية

العنصرية الكامنة والتي لا يجرؤ على الإفصاح بها، كاللون مثلاً، ليثبت تميزه عن ضحية سبقته في درب الكفاح والتضحية، خاضعاً لسُلّم التراتبية الذي يفرضه العدو المشترك القوي، وهو ما يذكر بنفسيات العبيد الذين كانوا إذا اجتمعوا يختالون على بعضهم البعض بمقاييس التفوق التي فرضها المضطهِد مثل الغنى والأناقة وغيرهما، وبهذا يحرص العبد على أن يتفوق على زميله العبد ويختال عليه لا بصفاته الذاتية بل بصفات سيده المتفوقة على صفات سيد رفيقه وينشب الشجار بين الجماعتين التابعتين لسيدين مختلفين[62] بدلاً من أن تتحدا لمقاومة الظالميْن معاً (!).

"الاستغراب" يصدر تحريفات إيجابية لصالح المستعمِرين الأقوياء

ومما يثبت هذه الظاهرة، وهي قبولنا قواعد الاستشراق وممارستنا إياها ضد الأدنى، قيام عقولنا "باستشراق" إيجابي، أو "استغراب" يضفي تعميمات وردية مخلة على دول الحضارة الغربية مثلما تخيلنا أن الولايات المتحدة هي أرض العسل واللبن والفرص غير المتناهية التي توفر حياة المليونيرات الفارهة لكل من يهاجر إليها، وهي أسطورة ساعدت الدعاية الكاذبة على ترويجها وقال عنها الناقد الاجتماعي الأمريكي جورج كارلين إنها وُصفت بالحلم الأمريكي لأنه على المرء أن يكون نائماً ليصدقها[63]، وقد لمس زيفها بعد فوات الأوان كثير ممن وقعوا في فخها فاستنتجوا أن هذه الصورة استمدتورديتها من بؤس ظروف أوطاننا أكثر من سعادة الحياة في أمريكا نفسها، أو عندما ظن كثير من شبابنا أنهم سيدخلون الجنة الموعودة عند زواجهم بالأمريكيات فنتج عن ذلك كثير من المآسي الاجتماعية التي وقعوا فيها نتيجة هذا "الاستغراب" الخاص بهم والذي يستحق استغراب المراقب عن بعد.

ومما يؤسف له أن هذه النظرات الوردية المحرفة للعالم الغربي لم تقتصر على شباب مقهور في داره ومتحمس لأي تغيير وحراك اجتماعي في حياته الخاصة بل تعدى هذا "الاستغراب" المنحرف إلى مثقفين تبنوا ما يشيعه العدو

(62) دوغلاس، 1986، ص35.

(63) http://www.youtube.com/watch?v=_RrJYp3lypY -

القوي عن نفسه من مديح وإطراء بلا مبرر وطافوا حول صنمه مسبحين خاشعين وهم يحرقون البخور له في الوقت الذي كانت بلادهم وأمتهم هي وقود هذا الحريق كما سيتبين عند الحديث عن الاستشراق الداخلي.

بين العلماء والعامة

هذه كلها نماذج مصغرة من سلوكيات النفس البشرية في الحياة اليومية يرتكبها الاستشراق خاصة و"الاستئصال" عامة ضد الضحايا من موضوعات الدرس من السكان الأصليين، أو يوفرها "الاستغراب" لصالح الأقوياء من المستعمِرين والمستعبِدين، ولكن إذا كانت هذه التجاوزات مفسرة لو صدرت من الناس العاديين الذين لا تعصمهم أخلاقهم ولا تسعفهم معلوماتهم فإنه من غير المقبول أن تصدر من علماء جامعيين يصرون على أخطائهم أجيالاً متعاقبة نتيجة الجهل والتحيز والاختلاف الذي تفرضه طبيعة المصالح الغربية السائدة، وقد لاحظ المفكر الراحل إدوارد سعيد (1984) أن الدراسات النمطية المتعلقة بشعوب كثيرة في آسيا وإفريقيا بدأت بمواجهة تحديات في حقولها ودراسات مراجعة وتنقيحية بدءاً من ستينيات القرن العشرين تصحح النظرات التقليدية التي شابت تلك الحقول، إلا أن دراسات العالم الإسلامي لم تحظ بهذا التطور ومازالت تؤدي عملها دون تعديل[64]، وهو ما يؤكده الباحث ساردار بعد ذلك بسنوات (1999) فيقول إن "قروناً من البحث الاستشراقي لم تعمل على تحسين المعرفة إلى الحد الذي تزيل فيه أو تتغلب على العقبة التي تحول دون التوصل إلى فهم متبادل" ومازال الغرب يتخبط في ذلك بنفس الدرجة التي كان بها في أيام الاستعمار[65]، وبعد ذلك بسنوات أيضاً (2008) قال المؤرخ الأمريكي دوجلاس ليتل إن "الصور النمطية الاستشراقية مازالت حية وموجودة" وإنه من يريد أن يفهم المواجهة بين أمريكا والشرق الأوسط بعد سنة 1945 عليه الرجوع إلى الثقافة والصور النمطية التي حملها الأمريكيون منذ بداية ذهابهم إلى هناك حيث كانوا ينظرون إلى الشرقيين في إطار استشراقي وعدهم شعوباً متخلفة

(64) سعيد، 1984، ص300.
(65) ساردار، 2012، ص27 و105.

ومتفسخة وغير جديرة بالثقة، وفي القرن العشرين تبنى الساسة البريطانيون الرؤية الاستشراقية لخدمة أغراضهم من الشعوب الأخرى المحتاجة في نظرهم للوصاية الأنجلو ساكسونية ثم ورث الأمريكيون بعد سنة 1945 هذه النظرة التي صنعت الرأي العام والسياسة الخارجية، وقد لاحظت صحيفة نيويورك تايمز في14/ 7/ 1993 تراجع التعميمات البغيضة والصور النمطية في أمريكا تجاه اليهودي والصيني والإيرلندي والإفريقي، ومع ذلك يستمر "التعصب العرقي الأعمى" ضد العرب ويحتفظ "بقدر من التقدير" بفضل السياسة الدولية السائدة(66).

وقد طبع الجهل بالمشرق السياسات الأمريكية منذ بداية التورط في المنطقة، ويذكر المؤرخ الصهيوني أورين أن الرئيس الأمريكي ويلسون الذي تطوع بإعلان نقاطه "الإنسانية" بعد الحرب الكبرى الأولى "لم يحدد أبداً أي الشعوب العديدة في الشرق الأوسط تستحق حق تقرير المصير، وكيفية تحقيق هذا الحق، فقد كان لا يعرف عن جغرافية المنطقة وثقافتها وتقاليدها أكثر مما قرأ في الإنجيل"، وسعياً لكسب السلام كما كسبت أمريكا الحرب أسست الحكومة الأمريكية لجنة ضمت أكثر من مائة عالم في مجالات مختلفة للتوفيق بين خطط الرئيس بشأن المشرق "ولكن ولا واحد منهم كان متخصصاً في الشرق الأوسط، بل كان خبراء "لجنة التحقيق" يراجعون الموسوعات وكتب الرحلات ومنشورات المبشرين-أي كل شيء بخلاف النصوص العربية والتركية- لصياغة خططهم للمنطقة"(67).

وقد واجه نقد سعيد للاستشراق ردوداً دفاعية في الغرب أصرت على الطبيعة العلمية للمستشرقين وعدم ارتباطهم بالسياسة ودوافعها وانحيازهم بالمجمل إلى تخصصاتهم الأكاديمية المحايدة، وقد شرح المؤرخ الأمريكي زكاري لوكمان هذه المعضلة بالقول إن معظم المستشرقين في القرن التاسع عشر كانوا يعدون أنفسهم باحثين مكرسين للسعي نحو الحقيقة المجردة وغير متورطين في صناعة القرار السياسي، ولكنهم كانوا يشاركون مواطنيهم بالتسليم بتفوق الحضارة الغربية وبحق الأوروبيين، والأمريكيين فيما بعد، بممارسة الوصاية على الأعراق الدنيا.

(66) ليتل، 2009، ص30-60.
(67) أورين، 2008، ص368-369.

أما التسلسل المنطقي الممهد للمشاركة في المشروع الاستعماري فهو الابتداء بافتراض أن الغرب والإسلام حضارتان مختلفتان، وأن المسلم بمعتقداته وسلوكه هو القطب المقابل للإنسان الغربي، وبما أن المسلم هو الطرف الضعيف والغربي هو المتفوق، فإنه على المسلم ان يقلد الغرب، ومن ثم يسهل على من يتبنى هذه المقدمات أن يرى في النفوذ الأوروبي قوة إيجابية تجلب التقدم والازدهار والحضارة لعالم الإسلام الغارق في الضعف والانحطاط والركود، ولما كانت السيطرة الاستعمارية في ذلك القرن هي التعبير الأوضح عن هذا النفوذ فإنه من المقبول إذن ممارسة الهيمنة على المسلمين، وهذا هو المدخل "الخيري" الذي دفع الرأي العام الغربي لتأييد المغامرة الاستعمارية بالإضافة إلى مؤسسات البحث والدراسة التي كانت جزءاً من هذا السياق وتورطت بعمق في المشروع الاستعماري(68).

أضرار الاستشراق الداخلي أو "استئصال" الذات: الضحية تنظر إلى نفسها بعيون ظالمها

ولم يقتصر الأمر على أن تمارس الضحية "استئصالا" ضد من تظنهم أدنى، في محاولة لإثبات الوجود على السُّلم الذي وضعه القوي لصعود الأجناس، بل وصل استدخال الهزيمة إلى أن تنظر الضحية إلى نفسها بعيون عدوها، وكثيراً ما رأينا أن تقليد الغالب الذي يولع به المغلوب وفقاً لابن خلدون، يقود إلى تبنيه نفس الأحكام الدونية التي يصدرها ذلك الغالب ضده، ولعل مجرد ولعه بالتقليد هو قبول ضمني بالدونية التي وضعه الغالب في خانتها، ومن ذلك الدعوة التغريبية إلى تقليد حتى عيوب الغرب التي تفضل في الميزان الأعوج فضائل الشرق، أو القبول بأن جهادنا ومقاومتنا ضد المعتدين إرهاب، أو القبول بالنظرة الصهيونية لقضية فلسطين ومحاولة تحميل أمتنا وزر المحرقة النازية والمساومة على حق العودة الفلسطيني بل القبول بإلغائه مقابل إلغاء "حق العودة" اليهودي، وهذا قول من كان"متطرفاً" إذ هناك من يتبنى شطب حق عودتنا ويقبل "بحق" الكيان الصهيوني في الوجود كما يحلو له، وكذلك القول

(68) لوكمان، 2007، ص158-162.

إن هذا الكيان وجد ليبقى وتفهم حاجته إلى البرنامج النووي في الوقت الذي يُلغى فيه بالقوة المسلحة الماحقة والحصار القاتل حق أمتنا ببرنامج مماثل وينكر عليها حتى النسخة النووية السلمية، ولن ننسى بالطبع الذين زايدوا على الاتهامات الغربية لبلادنا بحيازة أسلحة الدمار الشامل وباعوا الغرب أكاذيب تدغدغ مخاوفه ورقصوا على أنغام القنابل الأمريكية وهي تحرق مدينة السلام حيث رأوا في نيرانها وهجاً ديموقراطياً، أو الذين تبنوا الإطراء الأمريكي الذاتي ورأوا في الولايات المتحدة قوة ديمقراطية خيرية تصوب إليها سهام العداء والحسد بسبب نجاحاتها، وهذه مجرد أمثلة تورط في بعضها أسماء قيادية لامعة ربما تصدى بعضها نظرياً لفكر الاستشراق ولكنها قبلت عملياً الجلوس في مقعد التلمذة مستسلمة أمام أستاذية الغرب ومتقبلة كل أحكامه مهما كانت قاسية ضد أمتنا ومستغِلة لمصالحها.

وفي ذلك توحدت قيادات سياسية تقليدية كانت لا ترى الخير إلا فيما يقوله السيد الاستعماري البريطاني ثم الأمريكي، وقيادات ليبرالية مثقفة رضيت بإخضاع مصالح بلادها لمصالح الغرب الديمقراطي لأنه لا تقدم إلا بذلك وفقاً لرؤيتها رغم الجشع الغربي والقمع الاستعماري، وانطبق ذلك حتى على قيادات ثورية راهنت على كسب جانب من الدول الكبرى ضد جانب آخر ضمن الخلافات والمنافسات بين الامبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا) وبين الامبراطوريات التي خلفتها (الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة)، أما القيادات الفكرية المثقفة فقد "توغل الشعور بالتفوق الغربي" لديها، فتبنت "الكثير من الطروحات الفكرية والإشكاليات الغربية في النظر إلى تطور التاريخ الإنساني دون ممارسة النقد في الطروحات التي كانت تقدمها الثقافات الأوروبية المختلفة حول عبقريتها وتفوقها"[69]، وهذا كما يصفها الدكتور جورج قرم، أما البروفيسور إدوارد سعيد فيصف المشهد بالقول إن "الطلاب الشرقيين والأساتذة الشرقيين، ما يزالون يريدون الحضور (إلى الولايات المتحدة) والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين، ثم العودة" لتكرار ما سمعوه على مسامع جمهورهم ليشعروا بالفوقية على أبناء أوطانهم بسبب هذا الحذق الاستشراقي،

(69) قرم، 2011، ص7.

ولتظل علاقتهم بمن هم أسمى منهم، أي المستشرقين الغربيين، علاقة المخبر المنتمي للسكان الأصليين[70]، أما الأستاذ ساردار فيتتبع منشأ هذه الظاهرة بالقول إن الإدارات الاستعمارية عملت على إيجاد طبقة متعلمة على النهج الغربي، بعد اقتلاع مؤسسات التعليم الإسلامي، لتعمل وسيطاً بين المستعمِر والمستعمَر، فتماهى أبناء هذه الطبقة التي وصفت بالعقول الأسيرة مع الثقافة الاستعمارية وأصبحوا يمثلون نوعاً جديداً من الاستشراق المتحدر من أصل شرقي ولكنه يقتات روحياً على الغرب، وكان هدف أتباعه هو الحط من قيمة تاريخهم وثقافتهم ويفخرون بجهلهم بكل ما يتعلق بهما، والتطابق التام مع التاريخ والثقافة الأوروبية التي يطمحون إلى تملك زمامهما، ويسرد الباحث نفسه أسماء لامعة كثيرة دخلت ضمن هذه الزمرة من القيادات السياسية والفكرية في العالم الثالث عموماً والعالم الإسلامي خصوصاً، وأصبح الغرب في هذا الوضع الجديد مجرد مراقب محايد أوكل مهمة تأكيد نظرياته لهؤلاء السادة الجدد ذوي البشرة الداكنة الذين حققوا له رغباته كاملة بوصولهم حدوداً لم يبلغها المستشرق الغربي نفسه[71]، ويطلق الهنود الحمر على أبناء جلدتهم الذين يتشبهون بالبيض لقب التفاح لأن ظاهرهم (أحمر) كالهندي وباطنهم كالرجل (الأبيض).

ومن ضمن ذلك الاستلاب قبول الطبقات التغريبية المثقفة جميع الأحكام الدونية التي يطلقها الاستشراق ضد تاريخنا الإسلامي كالاستبداد والدموية والطائفية وغير ذلك وتجهل هذه الفئات أو تتجاهل العيوب العديدة التي تزخر بها تواريخ الأمم الغربية ومنها كثير من العيوب التي عيرنا الاستشراق بها، فمثلاً يتوارى المتغربون خجلاً من ظاهرة الرق في المجتمع الإسلامي المفترض أنه من مجتمعات العصور الوسطى ويتلعثمون في الاعتذار والتبرير أمام سادتهم الغربيين ولا يثيرون إشكالاً كبيراً لظاهرة الرق الأكبر في مجتمعات غربية حديثة يفترض فيها الإنسانية والعقلانية والحرية والإخاء والمساواة وكل الشعارات الكثيرة التي ملئوا رءوسنا بها ومع ذلك مارس الغرب تلك العادات المعيبة ولم يتخل عنها إلا بعد قضاء وطره منها ليدخل في ممارسات مرذولة أخرى كالاستعمار قديمه

---

(70) سعيد، 1984، ص320.

(71) ساردار، 2012، ص152-162.

وجديده، ولا يعطي هؤلاء المنبهرون لأمتهم فرصة للتطور ولا يسمحون لها بالمحاولة والخطأ على غرار ما حدث في الغرب نفسه بل يطلقون سهامهم ورصاصهم ضد ذواتهم ويعتقدون أن النجاة في التعلق بالأجنبي، وتصل المفارقة مستوى هزلياً بحديث يُدخل الحابل بالنابل بطريقة لعل أكثر صفاتها تأدباً هي المفارقة التاريخية، وذلك كما فعل بعض أدعياء الثورة من الأغرار الذين ظنوا أنهم جمعوا الثقافة من أطرافها بقراءة صفحتين من كتاب هزيل حين عابوا على تاريخ الإسلام إلغاءه "التعددية" الدينية التي كان يوفرها تعدد الأصنام في مكة[72] (!) ظانين بذلك أنهم يحرجون المسلم المعاصر الذي هو في رأيهم ضد التعددية المعاصرة كما يفهمونها، مع أن الإحراج سيكون من نصيبهم لو سألناهم عن الأهمية التاريخية لهذا القفز الواسع عن كل إنجازات الحضارة الإسلامية وعن مصيرنا لو ظلت الوثنية العربية "التعددية" هي السائدة وهل كنا سنسبق أوروبا في هذه الحالة(!؟)، ومع أن العمل على غرس هذه التعددية حتى وفق منهجهم، حيث لم تتقدم أوروبا إلا بالعودة إلى الأصول "بالإصلاح الديني" سواء كان بروتستانتياً أم كاثوليكياً، لا يكون مثلاً بحديث المفارقة التاريخية الذي يلوم المسلمين الأوائل لعدم استخدامهم الدبابة ومن ثم هزيمتهم في معركة أُحُد، بل يكون بتعليم المسلم المعاصر كيف يصنع الدبابة وكيف يستعملها انطلاقاً من إعداد القوة المأمور به في القرآن والسنة.

ومن الأمثلة المبكرة على عمل الاستشراق الداخلي ضد الذات وأثره السلبي في المجتمع الإسلامي ما يرويه المستشرق برنارد لويس عن مفهوم الرعية الذي أساء الرحالة والدبلوماسيون والمؤرخون الأوروبيون فهمه وتفسيره، فقد قالوا إن كلمة الرعية تعني الماشية وإنها كانت تطلق على مسيحيي الدولة العثمانية وتعبر عن موقفها المستغِل إياهم، ويوضح لويس أن هذه الكلمة لم تكن خاصة بالمسيحيين بل بعموم الفلاحين سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، ولم تكن تطلق على سكان المدن سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين، وأن اشتقاقها جاء من الجذر رعى، وأن معناها يصف المثل الأعلى للحكم الراعي السائد في عالم الإسلام

https://www.youtube.com/watch?v=nvHCacbtg9E (72)

والعالم المسيحي معاً، ثم يعطي معلومة مثيرة عن الأثر الغربي على الدولة العثمانية وهي أنه منذ منتصف القرن الثامن عشر عبر سوء الفهم الأوروبي إلى الجانب العثماني الذي تبنى هذا التحيز فأصبح العثمانيون يستعملون كلمة الرعية وفقاً لذلك الفهم الاستشراقي المنحرف آنف الذكر[73]، وليس وفقاً لمفهومهم الأصلي، وهي صورة مبكرة لرؤية الذات بعيون الأعداء.

ويشرح المؤرخ زين نور الدين زين ذلك بالقول إن كلمة رعية كانت تطلق في البداية على جميع رعايا السلطان، وإنها عندما كانت تطلق على أهل الذمة من غير المسلمين كانت كلمة محترمة لأنها مشتقة من رعى، والرعية هم الذين يتعهدهم الراعي، ثم أصبحت في فترات الضعف تطلق على النصارى وتعني مركزاً اجتماعياً فيه شيء من المهانة مقارنة بمكانة المسلمين[74]، والطريف أنه في غمرة عملية التأثر بالغرب حاول المسلمون أن يعالجوا هذه الثغرة التي جاءت من الغرب أصلاً بدواء التنظيمات المقتبس من الغرب أيضاً مما سبب كثيراً من الدمار الاجتماعي لا سيما أن الغربيين استخدموه وسيلة لتحقيق مصالحهم والتدخل في شئون العثمانيين الداخلية كما شرحت ذلك مفصلاً في دراسة (آثار التغريب الاجتماعي على المجتمع العثماني : التحدي والاستجابة).

الغريب في كل هذا أن تختار مدرسة التغريب ذم التاريخ العثماني الذي كان يضم جميع الأتباع تحت نفس الاسم، وتحاول في الوقت نفسه تحقيق المكاسب التدريجية البطيئة جداً من تبعية الغرب الذي اعترف بمجمله أننا في مرتبة دونية عنده ومن أمثلة ذلك أن فرنسا بلد الحرية والإخاء والمساواة وإعلان حقوق الإنسان والمواطن تصنف سكان مستعمرتها الجزائرية قسمين: مواطنين معظمهم من الفرنسيين مع أقلية من الإقطاعيين المحليين يتمتعون بحقوق المواطنة، ورعايا من العرب والبربر المحرومين من هذه الحقوق[75]، وعموماً لم

---

(73) Lewis، 2004، ص119.

(74) زين، 1986، ص38-39.

(75) لوتسكي، 2007، ص302-303.

- روجان، 2011، ص302-303.

نعرف التراتبية العرقية والجنسية واللونية إلا من عنصرية الاستعمار الغربي، ومع ذلك رأت مدرسة التغريب أن تحقق لبلادها المزايا والفوز منها ولو بعد أمد طويل، وهو ما لم نحصل عليه إلى هذا اليوم رغم قبولنا بكل شروط "المجتمع الدولي"، وهي فرصة لو منحت لدورة الاجتماع الداخلي لبلادنا دون تطفل خارجي لوصلت إلى مكاسب أعظم في وقت أقصر وربما كان التأثير الغربي عن بُعد أفضل من التدخل السافر.

الخلاصة

قام العقل الغربي في عصر التوسع الأوروبي باستعمال عدة وسائل لتشويه صورة السكان الأصليين في مختلف أنحاء العالم مستخدماً في ذلك ما وصفه رياء بعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والاستشراق ليلبي حاجات خاصة به تتصل بتبرير السيطرة عليهم واستغلالهم بالإضافة إلى حاجات أخرى داخلية، وتنوعت هذه الوسائل من مجرد الجهل إلى استعمال الخيال والانتقاء والتضخيم وإسقاط العيوب الذاتية على الضحايا الضعفاء بطريقة تدعو أحياناً إلى السخرية مستندة في ذلك إلى التمركز حول الذات الغربية التي لم تغير العقلانية والأنوار تحيزاتها السابقة فنحّت الأصوات المنصفة ووصلت غطرستها إلى حد ادعاء الحق للقوة المجردة وصم الآذان عن سماع أي شكوى أو مظلمة وإلقاء اللوم كاملاً على الضحية الضعيفة (حديث شريف: الكِبْر بطر الحق، أي رده ورفضه، وغمط الناس، أي بخسهم مكانتهم)، ويلفت الانتباه قدرة الاستشراق خاصة و"الاستئصال" عامة على قلب الحقائق وتشويه الواقع إلى حد العمى عن رؤية ما يعاينه بنفسه (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)، ولم يسلم من هذا الداء حتى المدارس التي ثارت على الاستغلال الرأسمالي وعملت على القضاء عليه كالماركسية، ويبدو أن آليات "الاستئصال" مغروسة في النفس البشرية التي تمارسها ضد كل من تتعارض مصالحها معه حتى لو كان الأمر لمجرد إثبات التفوق عليه، ويكون التحريف تعظيماً لا ينطبق على الواقع إذا صدر من الضعيف المهزوم، وفي أحيان فريدة تكون هذه الآليات التحريفية إيجابية في صالح القوي المهزوم المولع بتقليد من ينتصر عليه-كما حدث في

ألمانيا واليابان- فيقوم برسم صور وردية له خلافاً لواقعه ليستفيد من تقدمه المسموح له به خلافاً للعادة، ويستفيد الطرفان من هذا التحريف، وتصل المفارقة منعطفاً بائساً عندما تمارس الضحية استئصال ضحايا آخرين بدلاً من مواجهة الظالم أو ترى نفسها بعيون ظالمها، ولكن إذا كان الأمر يبدو طبيعياً عندما تصدر هذه التحيزات من الإنسان العادي فإن ذلك يصبح غير مقبول إذا صدرت من علماء كبار لا سيما إذا أصروا على تبنيها جيلاً بعد جيل في عصر يوصف بالعلم والعقلانية.

الفصل العشرون

فلسطين الهندية الحمراء

(1)

قراءة في السوابق الأمريكية للسياسات الصهيونية

كان العداء نحو عالم الإسلام جزءاً من الثقافة الأمريكية قبل التورط الأمريكي في سياسات الشرق العربي بأمد طويل، وقد وصف أحد الباحثين هذا العداء بأنه أمريكي كفطيرة التفاح التي عدت علماً على هذه الثقافة[1]، ويعود هذا العداء بجذوره إلى أوائل المهاجرين الأوروبيين الذين حطت رحالهم على شواطئ أمريكا في القرن السابع عشر وحملوا معهم التصورات السلبية التي كانت الثقافة الأوروبية تزخر بها عن الإسلام وأهله ثم رسخت نتيجة الحروب التي دخلتها الولايات المتحدة الوليدة مع الولايات العثمانية في شمال إفريقيا التي كانت قد دخلت في صراع مرير مع الغرب الأوروبي منذ سقوط الأندلس ومجيء العثمانيين لدرء خطر إسبانيا والبرتغال عن هذه البلاد، ولم يكن من العجيب أن يكون الانطباع الأمريكي العام عن الشرق سلبياً في زمن كانت مصادر الثقافة عن بلادنا محصورة في إنجيل الملك جيمس وكتاب ألف ليلة وليلة[2].

المسلم ممثلاً للعدو عند الغربيين، والعثماني ممثلاً للمسلمين

يقول الأستاذ نبيل مطر في كتابه "الأتراك والإنكليز والمغاربة في عصر

(1) ليتل، 2009، ص49.

(2) نفس المرجع، ص61.

الاستكشاف" إن الإسبان "عندما بدءوا غزوهم للأمريكتين نقلوا آيديولوجيتهم الخاصة بالحرب الدينية المناهضة للإسلام عبر الأطلسي وطبقوها على هنود أمريكا، وقد عد كرستوفر كولمبس الاستيلاء على جزر الهند الغربية جزءاً من الحرب المقدسة ضد المسلمين لتحرير أورشليم، وأكد رجرد إيدن بعد بضعة عقود تلك الصلة بين حروب الملك فرناندو (الإسباني) ضد العرب، واحتلال جزر الهند الغربية، وكان الإسبان قد تعاملوا مع الكافر المسلم على أنه النقيض الذي يجب تدميره، وأخذوا ينظرون إلى الهندي الأمريكي بالطريقة ذاتها" وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه المواجهة مع العثمانيين[3].

ويؤكد الدكتور عبد الوهاب المسيري ذلك في موسوعته الشهيرة "اليهود واليهودية والصهيونية" بالقول إن الغزاة الإسبان للعالم الجديد كانوا يبيدون السكان الأصليين ويسمونهم "الترك" أي "المسلمين"[4]، أما الإنجليز فقد طبقوا الصور التي وضعوها للمسلمين على الهنود، وبدءاً من العقد الرابع من القرن السابع عشر انضم الهنود إلى المسلمين في نظر الإنجليز، وصاروا يظهرون بصفتهم أعداء المسيح الكفار الوثنيين "تماماً كما صُنف المسلمون على مدى قرون"[5]، كما كان النازيون يطلقون على مساجين معسكرات الاعتقال لقب "مسلم"، ويعلق الدكتور المسيري على ذلك بالقول إن "العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم"[6].

عندما كانت الدولة العثمانية وشمال إفريقيا مقصداً لهجرة الإنجليز كأمريكا

كما أن طاقة عصر النهضة في أوروبا دفعت الإنجليز نحو الاستكشاف شرقاً باتجاه الدولة العثمانية وغرباً باتجاه أمريكا، وقد أهمل المؤرخون علاقتهم المثلثة بشمال إفريقيا وأمريكا رغم أهميتها وتفوقها على بقية العلاقات في بداية الاستيطان في أمريكا، وكان هناك منذ منح الإمتيازات الأجنبية لإنجلترا سنة

(3) مطر، 2012، ص254.
(4) المسيري، 1999، ج2، ص478.
(5) مطر، 2012، ص245-255.
(6) المسيري، 1999، ج2، ص478.

1580 عدد من الإنجليز يسكنون المشرق العثماني وشمال إفريقيا أكثر من عدد الإنجليز المهاجرين إلى أمريكا، وكانت دوافع عبور "الإنجليز التعساء القلقين" البحر المتوسط إلى شمال إفريقيا هي نفسها دوافع عبور الأطلسي إلى أمريكا، أي البحث عن الفرص والثراء السريع، وكان القراصنة والتجار يجدون أن الفرص في شمال إفريقيا أكثر من الفرص في أمريكا، وكان كثير من الإنجليز "يهاجرون" إلى المسلمين ويعتنقون الإسلام، وظلت أعداد الإنجليز الموجودين في شمال إفريقيا أكبر من عددهم في أي مكان في العالم حتى أمريكا برحابتها إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر، ورغم أن الإنجليز وحدوا في نظرتهم بين الهندي والمسلم فإنهم فضلوا العبور من لندن إلى اسطنبول أو الجزائر على العبور من مستعمرة فرجينيا في أمريكا إلى الأراضي الهندية، وتمكنوا من فرض أنفسهم الثقيلة على الهنود ولكنهم اضطروا لتعديل أنفسهم مع المسلمين بما يناسب شروط المسلمين "الكافرة"، وكانت الأفكار الاستعمارية الإنجليزية تنجح في قمع الهنود ولكنها لم تنجح في قمع المسلمين إذ يمكن للسلطان العثماني أن يقابل كل جرائم الإنجليز بمثلها كما فعل عندما أمر بذبح التجار الإنجليز ومصادرة أملاكهم انتقاماً من هجوم الأسطول الإنجليزي على تونس[7].

العداء المماثل وحقوق السلب المتشابهة

وقبل أن يقوم الكيان الصهيوني في بلادنا ويطابق نفسه بتجربة المستوطنين الأمريكيين في بلاد الهنود الحمر بزمن طويل، اعتمد الأوروبيون في سلب أراضي الهنود على مبدأ حقوق الاكتشاف Discovery Doctrine الذي تعود جذوره إلى حروب الفرنجة الصليبية التي كان البابا أثناءها يملك الحق بفرض الحقيقة على الوثنيين بما في ذلك امتلاك أجسادهم وأرواحهم بموجب التفوق الديني ويمنح السلطة لمن شاء من الحكام بما فيها اقتسام أراضي العالمين[8]، ثم أتى الأمريكيون رحالة وتجاراً ومبشرين إلى الشرق العربي العثماني وطابقوا بين

(7) مطر، 2012، ص163-217.

(8) Utter، 2002، ص14-16.

تجربتهم وتجربة سكان الحدود الذين دخلوا في صراع مع السكان الأصليين في تخوم الولايات المتحدة، ورسخوا الصورة السلبية التي انطبعت في الذهن الأمريكي عنا، وفي زمن كان السكان الأصليون من الهنود الحمر هم العدو الرئيس للأمريكي حين احتدمت الحروب الهندية بين الطرفين بعد نهاية الحرب الأهلية، كان الشرقي العثماني يحمل نفس المعنى السلبي للهندي الأحمر، حتى أن صحيفة أمريكية قومية شبهت السلطان العثماني عبد العزيز (حكم بين 1861-1876) بزعيم المقاومة الهندية "الثور الجالس" Sitting Bull (1831-1890)[9] الذي كان يجسد للأمريكان مثال الإرهاب والتوحش والبدائية نتيجة دفاعه عن استقلال وحرية وحقوق قومه بالمقاومة المسلحة، وقد قامت شخصيتان مهمتان ممن حاربوا الهنود وقمعوا حريتهم، وهما الرئيس الأمريكي يوليسيس غرانت وقائد الجيش الأمريكي وليام شيرمان، بزيارة الشرق العثماني (مصر وفلسطين واسطنبول) في سبعينيات القرن التاسع عشر وأسفرت الزيارتين عن تثبيت الرؤى الاستشراقية التي ترى بلادنا مرتعاً للتخلف والظلم والطغيان، وقد صرح شيرمان بأن أهل مصر "عرق يبدو ويتحدث ويتصرف تماماً كالهنود الحمر"[10]، وقد علق مايكل أورين على النقد الأمريكي للشرق بأنه يبدو لنا اليوم نفاقاً إذ كان الأمريكيون يغضون النظر عن عيوبهم في استعباد الأفارقة وطرد الهنود ومظاهر الفساد في بلدهم وينتقدون الآخرين[11].

وقد تجلى هذا التلازم بين المشرق والهنود الحمر في الفكر الأمريكي في الآراء الصهيونية التي اعتنقها كثير من الرؤساء الأمريكيين والآباء المؤسسين الذين اضطهدوا السكان الأصليين وفي نفس الوقت طالبوا بوضع رموز يهودية للدولة الأمريكية الناشئة أو "بعودة" اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها، ومن هؤلاء توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين وجون آدامز وأندرو جاكسون وأبراهام لنكولن وتيودور روزفلت الذي عبر عن احتقاره الشديد لأهل المشرق وأثنى على الاحتلال البريطاني في مصر وطالب بإقامة الدولة اليهودية في

(9) Slotkin، 1998، ص460.

(10) أورين، 2008، ص237.

(11) نفس المرجع، ص165.

فلسطين[12] وذلك إلى جانب ثنائه على فتح الغرب الأمريكي والأعمال الوحشية التي رافقته ووضع كتاباً ضخماً عن "الفوز بالغرب".

وقد وُجد مغامرون عسكريون أمريكيون كانوا يحتقرون الهنود الحمر ويعتقدون بإمكان اجتياحهم وهزيمتهم بقليل من البيض "الخارقين"، وانتهى أشهرهم إلى حتفهم ضحايا تهورهم واستخفافهم بالهندي ومن هؤلاء القادة جراتان (1854) وفترمان (1866) وكاستر (1876) والذين وُجد نظائر لهم في المشرق يعتقدون مثلاً بإمكان اجتياح فلسطين بخمسين من الفرنجة الأقوياء لإحداث ثورة في البلد كلها مع الدعوة "لإعادة اليهود إلى فلسطين" كما طالب بذلك وليام فرنسيس لينش في منتصف القرن التاسع عشر بعد رحلته إلى المشرق (1847)، وبعد تلاشي الحدود الهندية في الغرب الأمريكي (1890) اندفع الأمريكيون إلى المشرق وكان منهم لويس توماس الذي صنع أسطورة للورنس العرب وادعى (1924) أنه محارب مغوار يمكنه قتل 400 عثماني بسلاح أمريكي ثقيل مما استخدم في مناطق التخوم الغربية[13]، ولعل هذه الأساطير تشبه الأسطورة التي نحتها الصهاينة لأنفسهم حينما صوروا للعالم أنهم الفتى داود الذي يمكنه الانتصار على العملاق الفلسطيني جالوت.



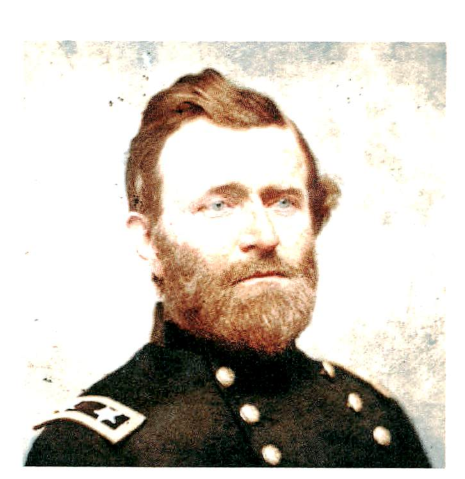
السلطان العثماني عبد العزيز
(1876-1861)

(12) ليتل، 2008، ص

(13) أورين، 2008، ص150 و231 و389-390.

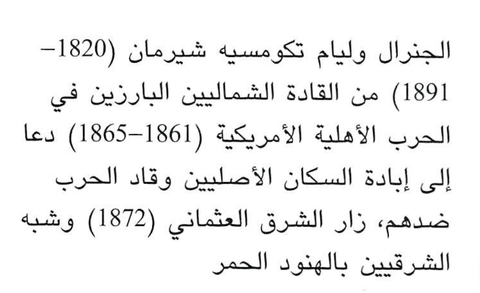


الثور الجالس (1831–1890) زعيم قبيلة لاكوتا في شمال السهول العظمى في الولايات المتحدة وقد قاد المقاومة والانتصار على الجيش الأمريكي في معركة ليتل بيغ هورن (1876)



الرئيس الأمريكي الثامن عشر يوليسيس غرانت (1822–1885) تولى الرئاسة لفترتين (1869–1877) وشهدت رئاسته فساداً كبيراً وقمعاً شديداً للهنود رغم تبنيه ما عرف بسياسة السلام، زار الشرق بعد انتهاء ولايته وحمل عنه رؤى استشراقية استقاها من الأديب مارك توين الذي كان يحتقر المسلمين كثيراً





الجنرال وليام تكومسيه شيرمان (1820–1891) من القادة الشماليين البارزين في الحرب الأهلية الأمريكية (1861–1865) دعا إلى إبادة السكان الأصليين وقاد الحرب ضدهم، زار الشرق العثماني (1872) وشبه الشرقيين بالهنود الحمر

ومع أن اليهودي اكتسب صورة سلبية عند الأمريكان واقترنت معاداته بمعاداة الإسلام منذ البداية، فإن اتساع عالم الإسلام وصغر الوجود اليهودي من جهة، والدور اليهودي في ملحمة الخلاص البروتستانتي من جهة ثانية، وأخبار المحرقة النازية وقيام الكيان الصهيوني برعاية غربية في مواجهة الشعوب العربية من جهة ثالثة، كل ذلك قلص من معاداة اليهود في الوقت الذي استمرت شيطنة العرب والمسلمين، وفي خضم هذا الصراع استحضر الأمريكيون قبلنا التشابه بين الاستيطان الأمريكي في مواجهة الهنود الحمر، والاستيطان الصهيوني في مواجهة عرب فلسطين، وكان هذا التطابق من دواعي الألفة الشعورية بين الكيانين على المستويين الرسمي والشعبي.

وبعد أن انتبهنا إلى هذه النقطة، كتب باحثونا عن أوجه التشابه بين التجربة الاستيطانية الأمريكية والتجربة الاستيطانية الإسرائيلية، وما أريد إضافته هنا أن هذا التشابه لم يقتصر على احتلال أرض الغير بالقوة واستبدال شعب مكان شعب بمبررات دينية مستقاة من التوراة، بل يمتد على طول هذين الصراعين إلى تفاصيلهما سواء من جانب المعتدي الغازي أم من جانب الضحية المستباحة، حتى أنني أذهب إلى القول بأنه لو كانت لنا دراية موسعة بالتجربة الأمريكية عندما غزانا الصهاينة، لكنا عرفنا كيف نتعامل مع تجربة مماثلة يحميها ويدعمها أصحاب التجربة الأولى نفسها، وربما لم نكن لنحقق الانتصار في ظل تفاوت كفتي ميزان القوى، ولكننا بالتأكيد كنا سنجنب أنفسنا كثيراً من التجارب العبثية التي أدخلتنا في دوامات من الأخطاء الكارثية والصراعات الجانبية التي نتجت عنها والتي لم تحقق في النهاية أكثر مما كان معلوماً منذ البداية.

1 - التشابه العقائدي: قارن الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله بين الفكرة البيوريتانية التي أسست الاستيطان في أمريكا والفكرة الصهيونية التي أسست الاستيطان في فلسطين ووجد بينهما نقاط التلاقي الآتية:

1) رفض التاريخ: فالمتطهرون يطالبون بالعودة للبساطة الأولى ويرفضون التاريخ المسيحي والصهاينة يرفضون تاريخ الشتات ويطالبون بالعودة إلى البساطة الأولى في فلسطين،

2) ولهذا نظر كل منهما إلى كيانه بصفته كياناً روحياً يحقق النبوءات المقدسة،

3) استخدام الحجج الدينية لتبرير الوحشية تجاه السكان الأصليين،

4) سيطرة عقلية "الريادة" على أصحاب العقيدتين الذين يرون أنفسهم أنهم "اكتشفوا" أرضا "خالية" بما فيها من عقبات يتم الانتصار عليها بالفعل الذي يرجح على الفكر النظري،

5) ممارسة العنف العنصري للتغلب على السكان الأصليين،

6) اتباع اقتصاد جماعي في المستعمرات وهو ما يفسر الصبغة "الاشتراكية" التي اتخذتها المستعمرات الصهيونية الأولى حيث لا يصلح الاقتصاد الرأسمالي الفردي القائم على المصلحة الذاتية لإدارتها[14].



لوحة للفنان جورج بينغهام تصور اقتحام المستوطنين الصعاب في البرية الأمريكية (1851)

الرائد الصهيوني الذي صُوِّر يذلل الصعاب ويحرث التراب في لوحة للفنان النمساوي الصهيوني فرانس كراوس رسمها في فترة الانتداب البريطاني (1935)

(14) المسيري، 1979، ص17 وما بعدها.
- المسيري، 1999، ج7، ص174.



الرواد الأمريكيون



الرواد الصهاينة

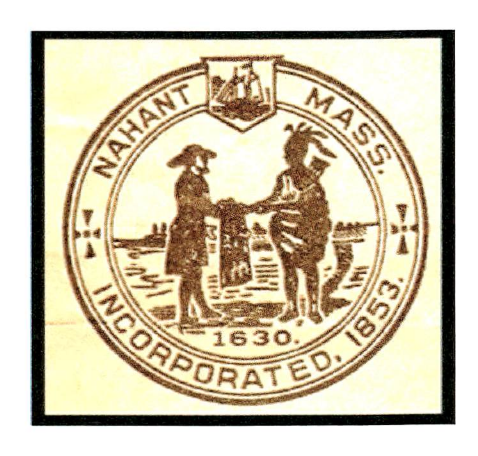


مستوطنة بيت إسحاق قرب نتانيا 1940

2 - إستعمار إحلالي: التجربة الأمريكية تجربة استيطانية اعتمدت على تفريغ الأرض من أصحابها لإحلال شعب آخر مكانهم تماماً كالتجربة الصهيونية، وإذا كان الصهاينة قد أضمروا منذ البداية الاستيلاء على كل فلسطين وربما أفصحوا عن نيتهم في بعض المناسبات التي يسميها الدكتور المسيري اللحظات الإدراكية، فإن هذا حدث نتيجة وجود المخزون البشري الذي سيملأ الأرض، أما في التجربة الأمريكية فإنه لم يكن واضحاً منذ البداية حجم القارة المكتشفة ولا حجم الكتلة السكانية التي ستنتقل إليها، ولكن بدا واضحاً منذ أيام الاستيطان الأولى أنه لا مكان لشعبين في نفس الأرض، فالاستعمار الاستيطاني مختلف عن الاستعمار التقليدي الذي يهدف إلى استنزاف البلد المحتل اقتصادياً واستغلال أهله لمصلحة البلد المستعمِر، فحيثما زرع الأوروبيون أنفسهم في أمريكا اختفى السكان الأصليون، وكان هذا بادياً في نوايا المستعمرين الاستيطانيين الذين ادعوا منذ البداية أن ربهم منحهم هذه الأرض الموعودة وعدوا اختفاء أهلها بالأوبئة على الساحل الشرقي نعمة إلهية مهدت لقدومهم واستعمارهم، ولو كانت نيتهم طيبة تجاه الهنود أو كان هدفهم نشر الحضارة والمسيحية بينهم كما ادعوا كذباً لما فرحوا بموتهم وزوالهم من طريقهم.

3 - زيف الأعذار: ولأن الأرض هي محور الصراع في التجربتين، فإن كل الأعذار التجميلية التي تكلم بها المستعمرون عن هداية السكان الأصليين أو تحضيرهم، كانت شعارات جوفاء (كشعار شركة خليج مساشوستس الذي سبق بيانه في الفصل الرابع) واعترف أصحابها في لحظات إدراكية بأنها مجرد هراء، ولكن هذا لم يمنع من تكرارها لخداع الضحية زمن ضعف المعتدي أو لخداع رأي عام يرفض وحشية الاستيلاء أو ربما لخداع النفس التي ربما ترفض الإقدام على سلب الآخرين لولا أساطير جلب الهداية والحضارة إليهم، وقد استخدم الأمريكيون هذه الأعذار وادعوا جلب الحضارة والزراعة والهداية إلى السكان الأصليين، ولكنهم قتلوا الهندي المسيحي كما قتلوا غيره، ودمروا القبائل التي مارست الزراعة كما دمروا القبائل المرتحلة، وضربوا تجارب قطعت شوطاً كبيراً في طريق تبني حياة الرجل الأبيض كالقبائل الخمس التي اعترف الأمريكيون أنفسهم بتحضرها

وسموها المتمدنة، وذلك كما ادعى الصهاينة أنهم آتون لتحسين حياة سكان بلادنا فكان التهجير والقتل والسلب هو ما أصابنا منهم، وقد كانت حقيقة الموقف بادية للقائمين على المشروعين، فاعترف بن غوريون بأن كلامه عن التحضر أجوف ومضحك(15)، كما اعترف كثير من القادة الأمريكان بهامشية تحضير الهنود مقابل مركزية الحصول على أراضيهم، وقد صور الرئيس جورج واشنطن نفسه منذ البداية حقيقة الموقف وأن الهندي سيتراجع أمام تقدم الأبيض(16)، أي لن يندمج ولن يتحضر ولن يهتدي، بل هو عند واشنطن كالذئب وإن اختلف معه في المظهر، وأن الهدف من الحرب معه هو الحصول على أرضه التي يحيا عليها، أي ليس تحضيره، وفي أية لحظة تعارض الهدفان، وما أكثر ما تعارضا، كان الخيار هو إبعاد الهنود نحو الغرب للحصول على أرضهم وتدمير كل ما أنجزوه في طريق "التحضر" كما حدث مع القبائل الخمس المتمدنة التي ضربت تجاربها مرتين، في ولايات الجنوب وفي أوكلاهوما، رغم أنها حصلت على الاعتراف الأمريكي بإنجازاتها على طريق تبني حياة الرجل الأبيض.



بعد إبادة السكان الأصليين في ماساشوستس ولم يبق منهم سوى الاسم (مدينة ناهانت) ظل الرجل البيض يدعي صداقتهم بعد أكثر من قرنين (!)

4 - عدم أهمية الحضارة: ولو بحثنا في التاريخ الأمريكي لوجدنا أنه حتى من تبنى من الهنود النموذج الحضاري الأمريكي بقياساته الضيقة، وهو ملكية

(15) المسيري، 1996، ص64.
(16) Sword، 1993، ص27.

أرض خاصة لممارسة الزراعة والتخلي عن حياة القبيلة المشاعية، سواء بالرضا أو بالإجبار، فإنهم كانوا يجابهون عدم مبالاة بل معاداة وطمع الرجل الأبيض، فإما أن تكون الأرض المخصصة لهم قاحلة وغير صالحة للزراعة، أو عرضة للجفاف والجراد، هذا بالإضافة إلى عدم اهتمام الحكومة بتزويدهم بالمساعدات من أدوات وإرشادات زراعية كانت قد وعدتهم بها عندما تنازلوا عن أراضي القبيلة ووافقوا على الاستقرار وممارسة الزراعة، ولو كانت الأرض المخصصة جيدة فإنهم سرعان ما سيحيط بهم الطامعون من البيض لسرقتها كما اعترف بذلك قائد الجيش الأمريكي الجنرال شيرمان الذي عرّف المحمية بأنها أرض خصصت للهنود ومحاطة باللصوص[17]، كل هذا أدى إلى فشل تجارب التحضير وكشف في الوقت نفسه أن الغاية الأمريكية من تبني شعار الحضارة بهذا المقياس كان الاستيلاء على أراضي القبائل لصالح مستعمريها وأنها استبعدت الهنود من دائرة رعايتها، حتى اعترف أحد الجنرالات المشهورين في الحروب الهندية وهو جورج كروك بأن الهندي مستعد لقبول الحضارة أكثر من استعدادها لقبوله[18]، ولهذا استنتجت باولا ماركس أن المطلوب من الهندي لم يكن التكيف الخلاق مع الحضارة بل طاعة الأوامر[19]، وهذا ما حدث في فلسطين حيث لم يكن الفلاح الذي يجيد استعمال الجرار(التراكتور) هو الفلسطيني الإيجابي عند الصهاينة جالبي الحضارة، بل كان الفلسطيني الذي يبيع أرضه[20]، وفي هذا السياق يبدو الإسفاف والعبثية في تصريح مسئول فلسطيني لإذاعة صهيونية مفاخراً ومتوسلاً لها بالفتاة الفلسطينية التي كانت محجبة فأصبحت تكشف ساقيها في الألعاب الرياضية وكأن المشروع الصهيوني قام لتعليمنا الرياضة، وها قد اتفقنا أخيراً (!) وكذلك في مشروع نادي القمار في أريحا الذي كان أول ما أنعمت به علينا الحضارة الصهيونية بعد اتفاق أوسلو وهو بالمناسبة مشابه لنوادي القمار التي انتشرت في محميات الهنود في الولايات المتحدة

(17) Marks، 1998، ص158.

(18) McDermott، 1998، ص106.

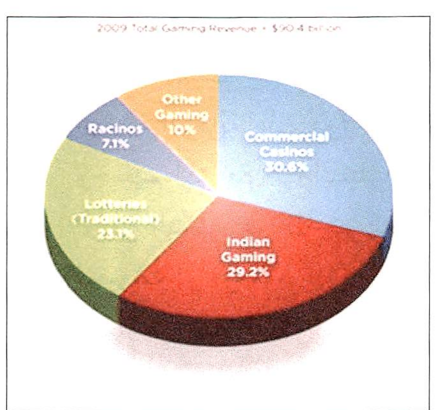
(19) Marks، 1998، ص201.

(20) جارودي، 2000، ص195.

منذ ثمانينات القرن العشرين بسبب منع القمار في بعض الولايات الأمريكية كما هو ممنوع في الكيان الصهيوني بسبب المتدينين اليهود، ولهذا رحلت النوادي إلى مناطق السكان الأصليين في فلسطين وأمريكا وأصبحت أفضل مورد اقتصادي منذ وصول الرجل الأبيض كما قال أحد زعماء الهنود سنة 1995[21].



أندية القمار هي الظاهرة الوحيدة التي نقلها الرجل الأبيض بنجاح من حضارته إلى الهنود الحمر



يدر القمار الهندي ما بين ربع إلى ثلث مجموع واردات القمار الأمريكي كله رغم قلة عدد الهنود في الولايات المتحدة (حوالي 2٪ من السكان) وفقرهم.

5 - استخدام الدين في تبرير المشروع: كان الدين حاضراً في تبرير إبادة السكان الأصليين في أمريكا وفلسطين وفقاً لنماذج الإبادة في العهد القديم "التوراة"، وكما استخدم الصهاينة حججاً توراتية لتبرير استيلاؤهم على

(21) Utter، 2002، ص3.

فلسطين، كان المتطهرون في أمريكا يستحضرون رموز التوراة في تبرير استيلائهم على أرض الهنود وصراعهم معهم، واستخدم التبشير بين الهنود لجعلهم أكثر طواعية لتنفيذ أوامر الرجل الأبيض، ولم يكن للهداية أهمية تذكر خارج هذا الإطار، بل ربما تعرض الهندي المسيحي إلى القتل والاضطهاد كغيره إذا دعت الحاجة، ويذكر أحد المؤرخين أن الهندي المسيحي لم يكن آمناً في مدينة بوسطن في نيو إنجلاند ويضطر للسير ليلاً بعد حجزه في النهار[22]، وقد تحالف الساسة مع المبشرين لإقناع الهنود بالتخلي عن أراضيهم، وسار التبشير والاستعمار يداً بيد، وهذا يشبه إلى حد ما استخدام المشروع الصهيوني الدين في حشد التأييد له بين اليهود وبين أبناء الطوائف المتصهينة، وإن كان يختلف معه في عدم التبشير بين السكان الفلسطينيين وذلك لأن المشروع يجب أن يظل غريباً عن أبناء المنطقة ليستمر ارتباطه بالغرب الحامي مقابل حماية المصالح الغربية في منطقة معادية كما يقول الدكتور المسيري رحمه الله.

6 - الغزو الفكري: لم تمنع حصرية المشروع الاستيطاني وانغلاقه على مجموعة خاصة استثنت السكان الأصليين من أرضها أو جنتها الموعودة من محاولة الهيمنة الفكرية على هؤلاء السكان للتحكم فيهم والسيطرة على تحركاتهم وجعلهم أكثر طواعية لتنفيذ أوامر الرجل الأبيض سواء في القتال إلى جانبه أو في التخلي عن الأرض له أو في مناوأة المقاومة أو في العمل الكشفي لجيوشه أو في منح الولاء للدولة الاستعمارية التي يتبع الهندي مذهبها المسيحي ضد الدولة المنافسة[23]، وقد استخدمت كثير من الوسائل لكسر كبرياء المواطن الأصلي واستتباعه منها إبهاره بالقوة المادية التي يمتلكها الرجل الأبيض أو بإدخاله في المسيحية أو بالتهديد أو بالإغراء، وكان من الذين قاتلوا إلى جانب الثورة الأمريكية المسيحيون الهنود، وقد استخدم الكيان الصهيوني عملية سميت بالأسرلة لفرض هيمنته الثقافية على الجمهور الفلسطيني الذي ظل في بلاده بعد نكبة 1948 واستطاع أن يؤثر على قطاع

(22) Slotkin، 2000، ص82.

(23) Calloway، 1995، ص86.

تقبل الطابع الإسرائيلي للدولة ولكن ذلك لم يكن وضعاً عاماً إذ تعرض الكيان الصهيوني ورموزه التي لا تمثل إلا اليهود إلى تحد واضح من عرب الداخل الذين لا تفتأ الممارسات الاحتلالية تذكرهم بمن هو عدوهم وهذا ينطبق على الجميع بمن فيهم الأقليات التي يحاول الصهاينة اللعب بأوراقها، ولكن هذا الغزو الفكري لم يكن يعني ضم الآخرين إلى جنة الاستيطان بل استتباعهم كعملاء يمكن الانقلاب عليهم في أي وقت، ومن الملاحظ ما أصاب الهنود المسيحيين من اضطهاد في التاريخ الأمريكي بالإضافة إلى إصرار الكيان الصهيوني على كونه دولة يهودية تمثل اليهودي وحده رغم الاستتباع الذي يضم عملاء متنوعين.

7 - الاعترافات الصادقة بالذنب دون نتائج عملية: وقد اعترف المسئولون في كلا المشروعين بأن السكان الأصليين ضحايا وليسوا مشاريع تحضر أو هداية، فقد قال الجنرال وليام شيرمان الذي قام بدور محوري في إخضاع الهنود بعد الحرب الأهلية الأمريكية: " لقد استولينا على أرضهم ومصادر معيشتهم، ودمرنا أسلوب حياتهم، وعاداتهم، وأدخلنا الأمراض والاعتلال بينهم، وكان هذا هو السبب وضد كل هذا أعلنوا حربهم علينا، هل من الممكن أن يتوقع أحد أقل من هذا؟ "[24]، وربما كان بن غوريون يردد صداه حينما قال: " لو كنت زعيماً عربياً فلن أتفق أبدا مع إسرائيل، هذا طبيعي: لقد أخذنا أرضهم، طبعاً لقد وعدنا بها الرب، لكن ما قيمة ذلك بالنسبة لهم؟ ربنا ليس هو ربهم.. ... لقد مررنا بمعاداة السامية والنازيين وهتلر وأوشويتز، ولكن هل ذلك بخطأ منهم؟ إنهم لا يرون إلا شيئاً واحداً: لقد جئنا هنا وسرقنا بلادهم.لماذا عليهم القبول بذلك؟ "[25].

8 - الحجج التاريخية: ربما يظن أن حجة الحقوق التاريخية من خصوصيات المشروع الصهيوني في فلسطين، وقد نعجب إذا علمنا أن الأمريكيين أيضاً ابتدعوا هذه الحجة لوجودهم في أمريكا واستيلائهم عليها، واتخذوا من وجود بعض القبائل الهندية التي تتميز ببياض البشرة دليلاً على وجود أسلاف

---

(24) McDermott، 1998، ص12.

(25) ليفن، 2008، ص490.

أوروبيين، حددوا هويتهم بدقة، في القارة [26]، وصاروا يبحثون عن بقايا هؤلاء الأسلاف كما يبحث الصهاينة عن حطام الهيكل[27]، وإذا كان الأوروبيون قد ابتدعوا جذوراً لهم في أمريكا مع بُعد الزمان والمكان، فلن يعدم الكيان الصهيوني حجة حتى لو لم يكن للهيكل ذكر في التاريخ، وفي النهاية لم يقرر الفشل في العثور على تلك البقايا مصير السكان الأصليين ولم يؤد إلى إنصافهم لأن الدوافع النفعية كانت أكبر من ثبوت الحقوق التاريخية أو عدمها.

9 - أهمية الثروات الطبيعية: رغم أن الأرض هي الثروة الرئيسة وهي محور الصراع في الكيانات الاستيطانية الإحلالية، وهي التي توجه السياسة، فإن بقية الثروات الطبيعية والمعدنية تساهم في عملية التمدد وتوجيه الاستيطان، وهذا ما فعله الذهب والفراء وتجارة الرقيق الهندية سابقاً ثم المياه والغاز والنفط واليورانيوم والفحم لاحقاً في الولايات المتحدة، وكم قامت من حروب ونقضت معاهدات في الصراع على هذه الثروات، وهذا ما فعلته المياه والنفط والغاز في الكيان الصهيوني.

10 - طبيعة الانقسام داخل المجتمع الاستيطاني: تميز المجتمع الاستيطاني في أمريكا بكون الانقسام فيه يقوم على أساس عرقي وليس اجتماعياً، فهناك المستوطنون البيض وفي مقابلهم أصحاب الأرض الأصليين من الهنود، ورغم انقسام مجتمع نيو إنجلاند إلى مؤيدين للملك ومنشقين بيوريتانيين، وملاك وفلاحين، فإن الجميع كانوا من الإنجليز البيض المسيحيين[28] في مقابل التهديد الأقوى من صاحب الأرض الهندي، كما نرى اليوم الانقسامات العديدة داخل المجتمع الصهيوني بين شرقيين وغربيين، متدينين وعلمانيين، مواطنين ومستوطنين، فإن الجميع يتحدون في مواجهة صاحب الأرض الشرعي.

11 - مكانة السكان الأصليين في المشروع: رغم أن المشروع الاستيطاني يتطلب

---

(26) Wallace، 1999، ص130.

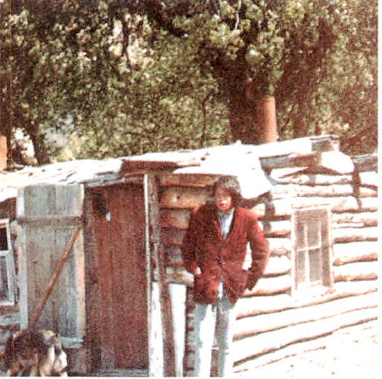
(27) ديفيز، 2006، ص147.

(28) Slotkin، 2000، ص69.

تفريغ الأرض من سكانها الأصليين، فإنه ينحو أحياناً نحو استخدام قوة عملهم في الأعمال الدنيا التي يتطلبها المشروع، هذا ما فعله الأمريكيون حين استعبدوا وتاجروا بالآلاف من سكان الساحل الشرقي قبل أن يتجهوا إلى الرق الإفريقي، وهذا ما فعله الصهاينة في فلسطين حين استخدموا العمال الفلسطينيين من الضفة والقطاع، وهو أمر تكلم عنه هرتزل نفسه وكان واضحاً منذ البداية أن الفرصة المتاحة أمام أهل البلد هي العمل في الحمل والحطب وسقاية الماء كما تصور ذلك مستشار الحكومة الصهيونية في خمسينات القرن العشرين أوري لوبراني (فيصل الشيخ،هل إسرائيل كيان عنصري3) وكما هو مصور في الأدب العبري كما يقول الباحث نواف الزرو، والمؤكد أن مبادئ الغرب لا تنطبق على غير الغربيين، وعندما أثيرت حجة تقرير المصير الفلسطيني ضد إقامة الوطن القومي اليهودي علق هربرت صموئيل المندوب السامي البريطاني: "إن حجة تقرير المصير لو كانت بلغت غايتها لوقفت عائقاً دون استعمار أميركا وأستراليا"[29]، وقد تميز المشروع الاستيطاني الأمريكي بدفع بقايا السكان الأصليين إلى حياة الفقر والبؤس والمرض بعد حروب الإبادة، تماماً كما فعل المشروع الاستيطاني الإسرائيلي، ورغم أنه لا مكان لغير الأوروبي في جنة الغرب كما أكدت حوادث التاريخ فما زال التغريب يلهث بحماس غير مجد حتى الآن لإفساح مكان له في تلك الجنة العنصرية.

(29) الهنيدي، 2003، ص202.





صورتان من حياة البؤس في محميات السو والشايان الهندية في القرن العشرين(30)



مشهدان مشابهان في أحد المخيمات الفلسطينية (مخيم غزة في جرش حيث يحمل نفس معاناة مدينة غزة ويتكدس فيه أكثر من 50 ألف نسمة في مساحة أقل من كيلومتر مربع واحد).



(30) Luling، 1984، ص41.

12 - التفاوت التقني مع الأهالي: واجه المشروع الأمريكي سكاناً أصليين أقل منه في المستوى الحضاري التقني، كما واجه المشروع الصهيوني سكانا أقل منه في نفس المجال، مما أعطى للمشروعين ميزة التفوق في ميزان القوى وجعل الطرف الآخر في الحالتين في موضع المتلقي لما يفرض عليه وأعطى الطرف القوي مسئولية المصير الذي سيؤول إليه الطرف الضعيف، وفي الحالين لم يكن الطرف القوي على قدر المسئولية الأخلاقية التي وضعته الظروف بها مما ألف تراجعا عن إنجازات حضارات سابقة استوعبت الأطراف المهزومة تحت شعار لهم ما لنا وعليهم ما علينا كالحضارة الإسلامية، وهو أمر يخل بفكرة "التقدم" الغربية.

13 - الحصرية: رغم التشدق الأمريكي بجلب الحضارة لسكان القارة الأصليين، فقد كان للمستوطن حقوق علت على حقوق الهندي، ورغم النوايا الحسنة والشعارات التي رفعها رؤساء أمريكيون عن تقديم نموذج لسعادة جميع السكان، كانت الدولة تتصرف كممثلة للعنصر الأوروبي الذي لم يكن معنياً بقيم التنوير التي ادعاها عندما تصطدم مصالحه مع العنصر الأصلي، وتفضل استخدام القوة لقمع الهندي للتخلي عن حقه بدل إجبار الأمريكي على الالتزام بالقانون أو المعاهدة التي وقعتها الدولة نفسها مع القبائل الهندية، وهو نفس النموذج الذي رأيناه في الكيان الصهيوني الذي عد نفسه ممثلاً لليهود معلياً "حقوقهم" على حقوق الفلسطيني الذي تمارس الدولة معه انتهاكات استيطانية لا يتصور ممارستها مع اليهودي كمصادرة الأراضي والإبعاد وهدم البيوت والاستيلاء عليها ومحاولة محو الأثر التاريخي وطمس المعالم التاريخية كما حدث في مقبرة مأمن الله في القدس والطريف أن هذا يحدث باسم نشر التسامح، مما يعطي صورة واضحة عن كذب وزيف الشعارات التي يرفعها المحتل صاحب العيون المسمرة على الأرض وثرواتها.

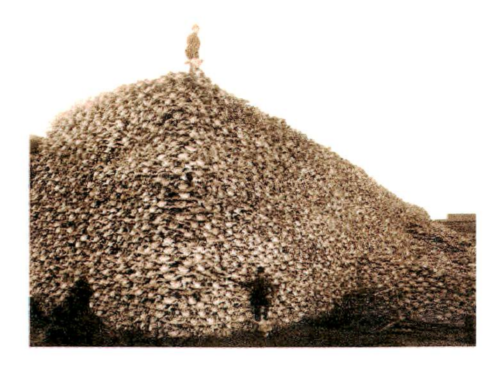
14 - تدمير الاقتصاد المحلي لإحلال "السلام الدائم": أثناء محاولة إخضاع السكان الأصليين في أمريكا قام الأمريكيون بقطع مصادر الرزق ووسائل المعيشة للتضييق على الهنود وإجبارهم على الاستسلام، ولعل أبرز هذه المحاولات عملية إبادة جواميس البيسون التي كان الهندي في منطقة السهول

العظمى يعتمد عليها كلياً في حياته إذ يأكل لحمها ويستخدم الفراء والجلد والعظام وغير ذلك في تأمين المسكن وأدوات المعيشة، وكانت هذه الجواميس تجوب السهول بأعداد ضخمة جدا قدرت بأكثر من ستين مليوناً وحكيت قصص مثيرة عنها مثل أن قطاراً اخترق 120ميلا يغطيها قطيع واحد، كما استغرقت فرقة من الجيش ثلاثة أيام لتخترق قطيعاً آخر، ولما استعرت آخر الحروب الهندية بعد نهاية الحرب الأهلية (1865) شن الأمريكيون حرب إبادة ضد جواميس البيسون لقطع أرزاق الهنود، وفي هذا قال الجنرال فيليب شيريدان عن الصيادين: "دعوهم يقتلون ويسلخون ويبيعون حتى ينقرض الجاموس، إذ أنها الطريقة الوحيدة لإحلال سلام دائم والسماح للمدنية بالتقدم"[31]، ولعل هذا الكلام يوضح معنى ومضمون "السلام الدائم" الذي تريده الكيانات الاستيطانية، وبالفعل لم يأت عام 1883 إلا وهذه الأعداد الضخمة قد تم قتلها وفسد جو الإقليم من رائحة الجثث ولم تلبث البراري أن امتلأت بالعظام، وهو أمر مهد بحسم لهزيمة المقاومة الهندية وإحلال "سلام" الرجل الأبيض "الدائم" على أنقاض الهنود والذي يشبه "السلام الدائم" الذي يريده الصهاينة على أنقاض الفلسطينيين كذلك، فنرى أن التجربة الصهيونية عملت على قطع أرزاق الفلسطينيين من بلدهم لإجبارهم على المغادرة، وفي هذا قال هرتزل في يومياته: "سنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح إلى البلدان المجاورة وذلك بتأمين أشغال لهم هناك، ورفض إعطائهم أي عمل في بلدنا"[32]، وقد طبق أتباعه هذه الوصايا بشعارات العمل العبري واحتلال العمل واقتحام العمل التي تحض على تشغيل اليهودي واستبعاد العربي وشعار اقتحام الإنتاج الذي يحض على شراء المنتج اليهودي ومقاطعة العربي، كما استمر الحرمان من وسائل المعيشة في مصادرة الأراضي مصدر رزق الفلسطيني وتجريفها وحرق الأشجار لا سيما شجر الزيتون وتدمير المحاصيل، حتى لقد استخدم التعليم العالي في هذه الحرب وسمح الاحتلال بإنشاء جامعات في الضفة والقطاع

(31) براون، 1982، ص200.

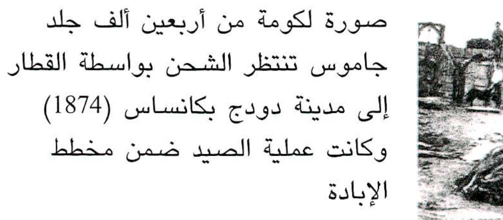
(32) قهوجي، 1978، ص89.

لتكون الشهادة العليا دافعا لحاملها على الهجرة من أرضه نتيجة ندرة الأعمال المناسبة[33].



عظام ثور البيسون التي أبادها الأمريكيون لخنق حياة السكان الأصليين





صورة لكومة من أربعين ألف جلد جاموس تنتظر الشحن بواسطة القطار إلى مدينة دودج بكانساس (1874) وكانت عملية الصيد ضمن مخطط الإبادة



كومة أخرى من عظام البيسون ضمن مخطط الإبادة وكان وزن طن منها يباع بخمس سنتات وتستخدم في صناعة الأسمدة

(33) تشومسكي، 1998، ص46.

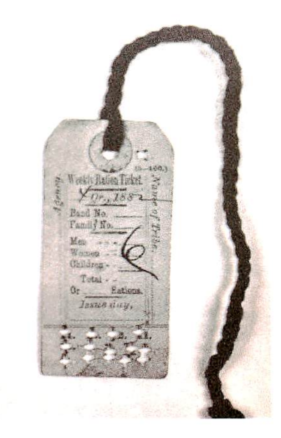


اقتلاع شجر الزيتون الذي يعيش عليه الفلاح الفلسطيني أحد وجه الحرب الاقتصادية الصهيونية لخنق الفلسطينيين

15 - تحقيق "السلام" أرخص وأجدى من خوض الحروب: وبعدما حرم الهنود من مصادر الرزق أصبحوا عالة على المساعدات الحكومية التي دفعت لهم ثمناً لبيع أراضيهم والقبول بالحجز في محميات كان عنوانها تعليمهم التحضر والسير في طريق الرجل الأبيض، واشتهر القول آنذاك بأن إطعام الهندي أرخص من قتاله الذي قد ينفق فيه مبلغ مليون دولار، على ضخامته في تلك الأيام، لقتل هندي واحد[34]، ولهذا كان الإبقاء على الهندي ومنحه مساعدات للبقاء حياً بعد انكسار المقاومة أرخص وأجدى من قتله، مع ما في ذلك من إراحة من وخز الضمير[35]، وبهذا يسير المبدأ والمصلحة في خط واحد كما سيأتي، وكانت تلك المساعدات المقدمة للهندي مرتعاً للفساد الذي استفادت منه حلقات التجار والوكلاء والسياسيين الذين نهبوا أموال الهنود وأطعموهم فاسد الطعام ورديئه أو تركوهم يجوعون إلى حد الثورة، ويلاحظ أن اللاجئين الفلسطينيين أصبحوا معتمدين على المساعدات الدولية الشحيحة بواسطة وكالة الغوث بعد طردهم من بلادهم، وهو أمر تساهم فيه نفس الدول التي ظاهرت على طردهم وذلك خوفاً على استقرار الكيان الذي قام على أنقاضهم،إذ يبدو أيضاً أن إطعام الفلسطيني أرخص من قتاله، كما يلاحظ أن أهل فلسطين أصبحوا بعد قيام السلطة الوطنية معتمدين

(34) Andrist، 2001، ص95.
(35) Hanson، 1991، ص120.

على المساعدات الدولية التي تدفعها السلطة على شكل رواتب ينذر انقطاعها بخطر جسيم وتكاد القضية الفلسطينية تختزل فيها.



كوبون المساعدات التي كانت الحكومة الأمريكية تقدمها للهندي عوضاً عن أرضه



الكوبون الفلسطيني



مشهد آخر للكوبون الفلسطيني



عملية توزيع المساعدات على الهنود (1871) في المقاطعة الهندية (أوكلاهوما) التي حشرت معظم القبائل فيها



مشهد آخر لتوزيع المساعدات في أوكلاهوما (حوالي سنة 1900) على قبيلة كيوا



طابور استلام المساعدات في أريزونا سنة 1892



طابور من قبيلة الآباتشي
ينتظر تسلم المعونات في محميته
بأريزونا سنة 1899

توزيع المساعدات على أهل فلسطين
زمن النكبة 1948

مساعدات وكالة الغوث للشعب
الفلسطيني

مشهد آخر لتوزيع المساعدات على
الفلسطينيين

16 - المفاوضات وسيلة انتزاع التنازلات: في بداية الاستعمار الاستيطاني الأمريكي، كان الطرف الهندي هو الأقوى، وقد منح المهاجرين أراض بصفتها هبة لضعيف محتاج، ولكن ميزان القوى تغير مع ازدياد المستعمرين، وأصبح الحصول على الأرض ضرورة حيوية لهم، ومن هنا أصبحت المفاوضات الذراع السياسي للقوة الأمريكية التي تسعى لفرض مطالبها بأقل التكاليف الممكنة مستخدمة أية وسيلة لتحقيق الهدف بما فيها الرشوة والضغط والخداع وتجاوز إرادة المجموع وتبديل الزعماء الرافضين، كما يحدث اليوم تماماً، وكانت القبيلة الهندية تعلم أن قوة هائلة تقف خلف لجنة المفاوضين الذين جاءوا "لشراء" الأرض، ونتيجة لذلك لم يكن قرار البيع اختيارياً لأنه في حالة الرفض فإن القوة جاهزة لانتزاع الأرض عنوة، وبهذه الطريقة ضاعت معظم أراضي القارة من الهنود، ولم يسجل التاريخ في مرحلة الصراع مفاوضات أملى فيها الهندي شروطه إلا إذا كان مدعوماً بقوة المقاومة كما فعل الزعيم "الغيمة الحمراء" Red Cloud في حربه مع الجيش الأمريكي (1866-1868) في شمال السهول العظمى، وقد شاهدنا هذا الشريط نفسه في المشروع الصهيوني: تمسكن في البداية حتى إذا اشتد عوده فرض مطالبه بالحرب وأصبح اليوم يستخدم التفاوض وخلفه قوة ماحقة لفرض مطالبه، أما الطرف الضعيف فإنه يرى أرضه تتآكل ولا يملك سوى المقاومة حتى الموت أو التنازل، وهذا هو حال أية مفاوضات مختلة الميزان.

17 - الديمقراطية العدوانية: قام الكيان الأمريكي على قيم ديمقراطية استثني الهنود منها بل كان قمعهم وطردهم وإبادتهم والاستيلاء على أراضيهم شرطاً لقيام هذه الديمقراطية، أو كما يقول البروفيسور ريتشارد سلوتكن: "لم يكن الاستيلاء الانتهازي على أراضي التخوم مجرد جشع، بل كان وسيلة طبيعية وحتمية لتأسيس مورد كاف لإعاشة ديمقراطية متكسبين. وإن مبادئ الأرض الحرة الخالية من الرق لم تكن عائقاً لمشاريع الاستيلاء على واستعمار أراض أجنبية، بل على العكس تماماً، فإن توفر أراض رخيصة كان الشرط الاقتصادي للعمل الحر والأرض الحرة"[36]، وقال أيضاً إن الاعتقاد بأن

---

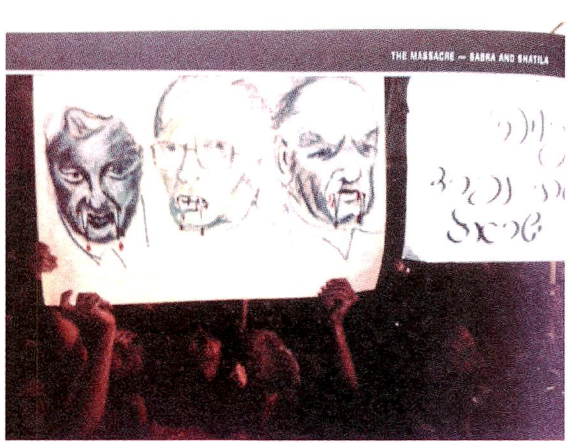
(36) Slotkin، 1998، ص248.

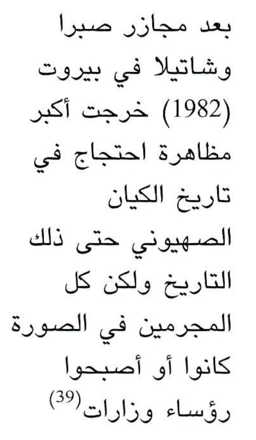
"توزيع الأراضي الرخيصة على الجميع كان ضماناً للتقدم والديمقراطية، ظل في قلب المعتقد السياسي العام"[37]، وكان الاستيلاء على أراضي الفلسطينيين وطردهم شرطاً لإقامة صرح ديمقراطية يهودية كما أن استمرار استبعادهم ومنعهم من العودة هو شرط لازم لاستمرار هذه الديمقراطية الحصرية، ودون ذلك سينهار المشروع من أساسه، وقد تجاوز الغرب الإرادة الديمقراطية الفلسطينية على طول تاريخ القضية منذ وعد بلفور الذي أهمل إرادة 700 ألف عربي في فلسطين مروراً بإقامة الوطن القومي اليهودي أثناء فترة الانتداب البريطاني الذي تعمد تعطيل عملية التمثيل السياسي الفلسطيني في مؤسسات الحكم والإدارة واستمر ذلك حتى انتخابات لم تعجب الغرب نتائجها سنة 2006 فشن الصهاينة الحروب الدموية على غزة منذ ذلك الحين، وذلك كما تجاوز الأمريكان المبادئ الديمقراطية عندما أهملوا الإرادة الحرة للهندي في تقرير مصيره ببيع الأرض أو عدمه، وهو شرط أكدت عليه المعاهدة مع الحكومة الأمريكية نفسها، فيتم التحايل على الديمقراطية باللجوء إلى تعطيل إرادة المجموع لصالح قلة من الزعماء المطواعين، أو باللجوء إلى التهديد بقطع المساعدات التي يعتمد الهندي عليها بعد فقدان أرضه وموارده، أو بالتلاعب بعدد الأصوات وتزوير التصويت، أو بتقديم الرشاوى وغير ذلك مما يؤكد حصرية ديمقراطية الكيانات الاستعمارية الاستيطانية، وقد سبق ذكر قول المندوب السامي البريطاني في فلسطين هربرت صموئيل إن فكرة تقرير المصير لا يجوز تطبيقها على فلسطين كما لم تطبق على أمريكا وأستراليا وإلا لعطلت الاستيطان الأبيض.

18 - الرأي العام المتعاطف أحياناً مع السكان الأصليين ولكن دون نتيجة عملية: لم تكن إرادة التوسع والطمع بالأرض والتمدد الاستيطاني السرطاني حائلاً دون ظهور بعض التعاطف مع السكان الأصليين لاسيما عندما يصل العدوان ذروة الوحشية التي تنفر منها فطرة البشر أو بعد فوات الأوان وزوال الوجود الهندي مما يسهل عملية البكاء المتأخر عليه، وهنا نجد الرأي العام

(37) نفس المرجع، ص252.

الأمريكي متعاطفاً مع الهنود كما حدث في ملاحم كثيرة مثل مجزرة نهير الرمل (1864) وهروب الأنوف المخرومة (1877) وخروج الشايان (1878) ومحاكمة البونكا (1879) وغيرها من المواقف، ولكن هذا الرأي العام سرعان ما يتغير لو خرج الهندي من حالة الضعف ورد بقوة على العدوان (1876) أو كان هناك في يده ما يطمع الرجل الأبيض فيه، وفي النهاية لا يخرج المجتمع الاستيطاني عن طبيعته ويستمر في توسعه ولهذا لا يمكن المراهنة مطلقاً على رأيه العام، وهذا ما رأيناه في المجتمع الصهيوني الذي دعم كل ما حل بشعب فلسطين من نكبات ثم بكى عليه زمن مجازر صبرا وشاتيلا وخرج عُشر سكان الكيان (300 ألف)[38] في أكبر مظاهرة احتجاج في تاريخه حتى ذلك الوقت، ثم أوصل المجرمين بعد ذلك إلى سدة رئاسة الوزراء.




بعد مجازر صبرا وشاتيلا في بيروت (1982) خرجت أكبر مظاهرة احتجاج في تاريخ الكيان الصهيوني حتى ذلك التاريخ ولكن كل المجرمين في الصورة كانوا أو أصبحوا رؤساء وزارات[39]

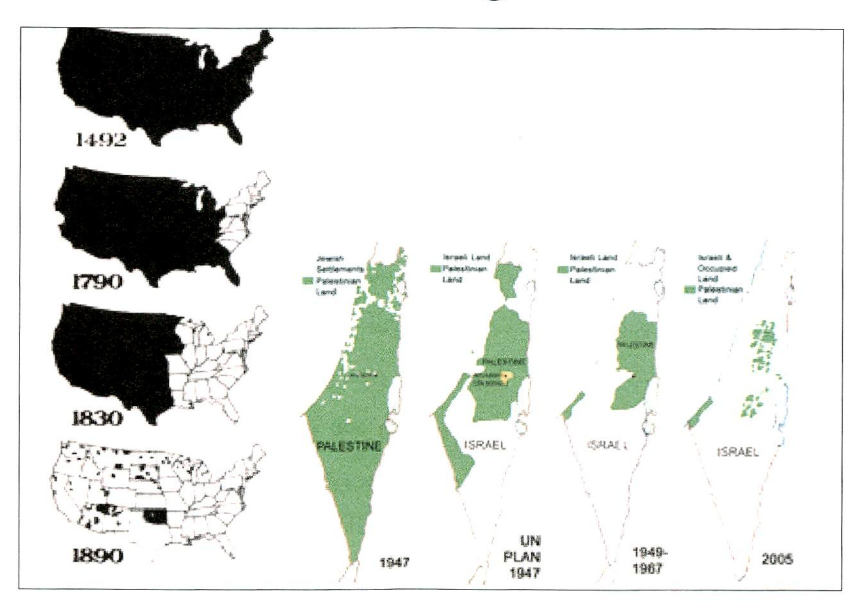
19 - محاولة إبهار السكان الأصليين تمهيداً للسيطرة عليهم والتحكم فيهم: وبسبب التفاوت التقني بين حضارة الأمريكي وحضارة الهندي، اعتمد المشروع الاستيطاني الأمريكي على إبهار الهندي بالتقدم التقني وفارق القوة لدفعه إلى الاستسلام والخضوع، ولهذا كانت السلطات الأمريكية ترتب لزعماء الهنود

(38) روجان، 2011، ص542-543.

(39) حماد، 1983، ص13.

زيارات للعاصمة والمدن الأمريكية لإطلاعهم على مدى قوتها وبالفعل يعود الزعيم وقد قرر الاستسلام، إلا ما ندر، وهذا يشبه في قضيتنا انبهار البعض، ومنهم زعماء، بالتقدم التقني الغربي والصهيوني، وقبولهم مشاريع الشرق أوسطية التي تقوم على العقل الصهيوني والمال والعمالة العربيين، وقد اشتهر عن رئيس عربي مخلوع قوله محذراً من يناوئ الولايات المتحدة: "إنها أمريكا"!

20 - تراجع السكان الأصليين: كما تقلصت الممتلكات الهندية في القارة الأمريكية، ما تزال الممتلكات العربية في فلسطين في تقلص مستمر، والناظر إلى خريطتين للموقعين[40]، سيرى مدى التشابه بينهما، ولا عجب، فعندما وضع الدستور الأمريكي لم يحدد حدوداً للدولة، وهي سابقة طالب بن غوريون بالسير على نهجها ليتوسع كيانه كلما زاد عدد سكانه[41].



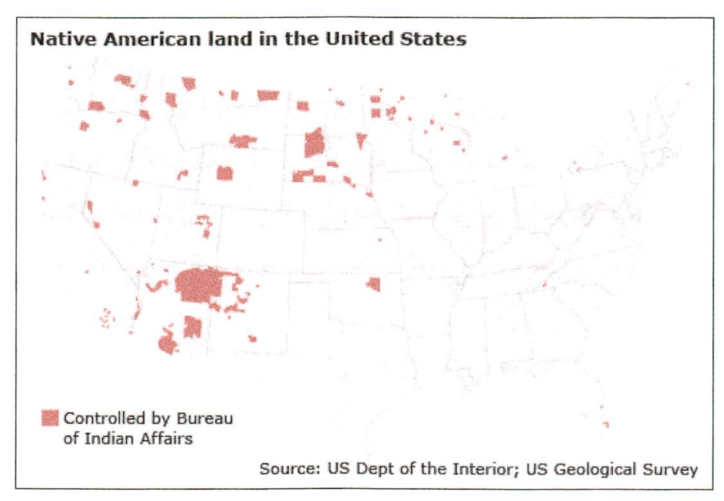
تمثل الخريطتان مقارنة بين تضاؤل أملاك عرب فلسطين(1947–2005) وتضاؤل أملاك هنود أمريكا بين وصول الأوروبيين(1492) ونهاية الحروب الهندية(1890)

(40) www.odsg.org. & http://puttingzone.com/indians.html

(41) الخالدي، 1998، ص164.

21 - كثرة الوعود المنكوثة بالدولة المستقلة: تكررت وعود ومحاولات إقامة دولة هندية أو ولاية خاصة بالهنود ضمن الاتحاد الأمريكي، وكل تلك الوعود حاولت استخدام الهنود ليكونوا أداة وظيفية في خدمة الاستيطان الأوروبي، وفي كل مرة تتدخل العوامل السياسية الاستيطانية الأمريكية لإفشال المحاولة، حدث هذا أثناء الثورة الأمريكية حين حاول كل من بريطانيا وإسبانيا والثوار الأمريكيين اجتذاب القبائل الهندية ووعدت الحكومة الأمريكية الثورية قبائل ديلاوير ومن ينضم إليها في مساعدة الثورة بالحق في تكوين ولاية خاصة بهم وإرسال مندوبيهم إلى الكونجرس، كما حاولت بريطانيا تأسيس دولة هندية حاجزة بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا البريطانية، وحاولت إسبانيا تأسيس دولة حاجزة في الجنوب بين أملاكها في فلوريدا والولايات المتحدة، ولما انتصرت الثورة لم تف أمريكا بوعدها لمن ساعدوها في حربها ضد بريطانيا بسبب الطمع الاستيطاني في الأرض، بل قامت بالهجوم عليهم وقتلهم قبل أن يتم انتصارها (1782) وفشلت محاولات الأوروبيين كذلك بسبب التمدد الاستيطاني الأمريكي، كما فشلت محاولات الهنود للاستناد إلى أمريكا أو أوروبا لتأسيس كيان لهم حتى مع عروض الخدمات الوظيفية التي كان الإغراء الاستيطاني أقوى منها، وقامت محاولة أخرى لإنشاء ولاية هندية في بداية القرن العشرين عندما اجتمعت القبائل الخمس المتمدنة التي اعترف الأمريكيون بأنفسهم بقبولها التحضر وفق مقاييسهم وكانوا قد وعدوها بالاستقلال بعد انتصار الثورة وأطلقوا عليها وصف التمدن، فحاولت سنة 1905 إعلان ولاية هندية في المقاطعة التي خصصها الأمريكيون للهنود ولكن الكونجرس الأمريكي لم يأبه بهم وبمطالبهم وأعلن ضم المقاطعة إلى ولاية أوكلاهوما سنة 1907، وقذف بالهنود في بحور البؤس والفقر والحرمان إلى اليوم، ولسنا بحاجة إلى تذكر الوعود المتكررة بالدولة الفلسطينية منذ إعلان الانتداب مروراً بقرار التقسيم وعملية سلام مدريد ثم أوسلو إلى وعود بوش الابن وحل الدولتين الموعود الذي يرجى منه أيضاً قيام دولة وظيفية حاجزة تحمي الكيان الصهيوني ودون هذا الشرط الوظيفي الذي يدعمه الكبار ستفشل كل محاولات إقامة الدولة الفلسطينية ضمن الموافقة الدولية.

22 - المعازل: من يطالع خريطة الضفة الغربية تحت الحكم الصهيوني اليوم يرى أن أهل فلسطين يعيشون في معازل مفتتة في أرضهم تشبه محميات السكان الأصليين في الولايات المتحدة، ولا يخفي المسئولون الصهاينة نواياهم بهذا الشأن باستمرار الاستيطان والطرق الالتفافية والنقط العسكرية التي ستحول المجال الجغرافي للضفة إلى مناطق معزولة يحبس فيها الفلسطينيون.



المحميات الهندية في الولايات المتحدة[42]

23 - استغلال الخلافات الداخلية: استغل الأوروبيون وخلفاؤهم الأمريكيون الخلافات الداخلية التي كانت تحتدم بين القبائل وتمزق القبيلة الواحدة ضمن المعادلة الاستعمارية الشهيرة "فرق تسد"[43]، فاستخدموا قبيلة ضد أخرى وزعيماً مهادناً ضد آخر مقاوم، وكانت هذه الانقسامات تساهم في إخضاع الأرض للغزاة ولم تعد بأية فائدة حتى على من وقف إلى جانبهم وتم اجتياح الجميع وإيقاع الدمار بهم، ولم يكن مصير المتعاونين أفضل من المقاومين، وهذا ما حدث في فلسطين عندما خدع البريطانيون واليهود قسماً من أهلها ولعبوا على وتر الخلافات الداخلية وانقسام الأحزاب بين مجلسيين

(42) http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/8344449.stm

(43) Calloway، 1995، ص6.

ومعارضين واستخدموا فلسطينياً مهادناً للاحتلال ضد فلسطيني مشارك في الثورة الكبرى 1936-1939 هذا فضلاً عن استخدام الزعماء العرب من "أصدقاء" بريطانيا الحميمين في إجهاض الثورة، حتى أتت ساعة الحقيقة فجرفت النكبة الجميع بلا تمييز، وتلاحظ الدكتورة سحر الهنيدي أن سياسة الانتداب البريطاني قامت على سد الطريق أمام طموحات الفلسطينيين بوسائل منها استغلال العداوات بين زعمائهم لإضعاف حركتهم الوطنية وتمزيقها بتشجيع فصيل محدود على شق الصفوف بطريقة تمكن المندوب السامي من الادعاء أن القيادة الوطنية لا تمثل كل السكان، وتكاملت السياسة الصهيونية مع سياسة الانتداب وقامت بتشجيع "الحزب المعتدل" واستغلال الضغائن والخلافات التي تمكن المندوب السامي من إثارتها بين الأحزاب[44]، ويتكرر الانقسام اليوم بخدع مماثلة لخدع الماضي، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

24 - التفتيت وإشعال الحروب: ولم يكتف الأوروبيون والأمريكيون باستغلال الخلافات الداخلية بين القبائل، بل كثيرا ما أشعلوا بينها حروباً لأجل مكاسبهم التجارية من الرق والفراء، أو حروب وكالة ضمن الصراع الأوروبي على النفوذ في القارة، أو لقمع قبيلة متمردة أو زعيم ثائر مما نجد له مشابهاً حديثاً في الدور الصهيوني في إشعال الخلافات والانقسامات في الشرق العربي كما فعل في لبنان والسودان والعراق، أو الدور الغربي عموماً والذي وثقه الدكتور جيرمي سولت في كتابه المترجم إلى العربية "تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي"، وهناك من الغربيين من يدعي أن المجتمعات الأصلية منقسمة أصلاً ويحاول تبرئة الفاعل الغربي من جرائمه، ولكن نظرة واحدة على هذه الانقسامات لو لم يتدخل العامل الغربي-ضمن علم ما يسمى "ماذا لو؟"-لوجدنا أن الإبادة لم تكن لتحل بالهنود الحمر نتيجة خلافاتهم وحدها ولما دمرت مجتمعاتنا في فلسطين والعراق ولبنان والسودان والصومال وأفغانستان وسوريا وليبيا وغيرها حيث حل التطفل الأجنبي لو اقتصرت الخلافات على أهاليها ولوجد

---

(44) الهنيدي، 2003، ص294-295.

المجال الاجتماعي الداخلي آليات لحل مشاكله ذاتياً بلا هذا الكم الهائل من الدمار.

25 - الوثائق المبهمة: استخدم الأمريكيون أسلوب الإبهام في عقد المعاهدات مع الهنود لانتزاع أكبر قدر من المكاسب منهم، وكثيرا ما شكي الزعماء من أن ما وقعوا عليه لم يكن مطابقاً لما طولبوا به فيما بعد، ولعل هذا يذكرنا بالجدل القائم إلى اليوم حول مراسلات الحسين مكماهون: هل كانت فلسطين من المنطقة الموعودة بالاستقلال أم لا؟ وبالجدل القائم أيضا حول القرار 242: هل يطالب بالانسحاب من الأراضي التي احتلت في حرب 1967 حسب نسخه باللغات غير الإنجليزية، ومن ثم على الكيان الصهيوني الانسحاب من كل الأراضي الفلسطينية والجولان بعد الانسحاب الصوري من سيناء، أم أن القرار يطالب حسب نسخته الإنجليزية بالانسحاب فقط من أراض محتلة وهذا ما تم بالانسحاب من سيناء التي تكوّن معظم الأراضي المحتلة ومن ثم فليس على الكيان الصهيوني أي التزامات أخرى ويعد مطبقاً للقرار الدولي (!!)

26 - نقض العهود: عقدت الولايات المتحدة حوالي 800 معاهدة مع القبائل الهندية على امتداد القارة، ولم يصادق الكونجرس إلا على أقل من نصفها، ولم يلتزم الجانب الأمريكي بأي منها، ورغم قرارات المحكمة العليا بوجوب تفسير البنود وفق ما فهمه الجانب الهندي عند العقد وبتفسير الاختلافات لصالح القبائل، فإن هذه المعاهدات ما تزال قيد المطالبة الهندية بتطبيق ما جاء فيها إلى هذا اليوم، وقد علق أحد كبار السن من الهنود أمام أحد رجال الدين الأمريكيين: "لقد وعدنا البيض وعوداً كثيرة ولكنهم لم يفوا إلا بوعد واحد: وعدونا بالاستيلاء على أرضنا وأخذوها فعلاً"[45]، وهذا يذكرنا بمئات القرارات الدولية التي ضمنت حقوق عرب فلسطين ولم يطبق منها شيء، وبالوعود الكثيرة التي أطلقها المجتمع الدولي والدول العظمى بحل مشكلتهم، وبالاتفاقات العديدة التي وقعت ولم تنفذ، ويعود هذا الإرجاء في الحالتين الهندية والفلسطينية إلى اختلال ميزان القوى وعدم وجود قوة لدى الجانب الضعيف لفرض مطالبه وحقوقه.

(45) Capps، 1982، ص212.

27 - صناعة العملاء: لتحقيق أهداف سياستهم، كان الأمريكيون يفضلون التعامل مع الزعماء المسالمين الذي يقبلون بالإملاءات الأمريكية، وإذا اعترضهم نفوذ أحد الزعماء المقاومين، كانوا يحاولون جهدهم تحطيم نفوذه و"تحرير" القبيلة من "طغيانه" بالإتيان بزعماء مطواعين بتركيز التعامل معهم وإهمال المقاومين، وإسباغ الهيبة عليهم أمام قومهم-فترة الحاجة إليهم فقط- واحتقار الرافضين، أو بالتعامل مع رءوس العائلات أو أفراد القبيلة بشكل مباشر لتفتيت إرادتهم الجمعية، أو بتعيين وكلاء حكوميين- مثل المندوب السامي في تجربتنا العربية- لتسهل السيطرة على القبيلة بواسطتهم، وإذا لم تفد كل هذه الوسائل تلجأ السلطات إلى الاغتيال، وكل هذا ليس بعيداً من تجاربنا الحديثة مع الكيان الصهيوني والغرب الاستعماري عندما يقف زعيم في طريق مطامعهم.

28 - إنشاء سلطة محلية للهيمنة على الأهالي ودعم استبدادها: بعد استتباب الأوضاع للاستعمار الاستيطاني في بلاد الآخرين وهزيمة مقاومة الأهالي يعمد المستعمَر إلى السيطرة على ما تبقى منهم بإنشاء حكومات محلية يختارها من الزعامات المتعاونة معه والتي يوجد نموذجها في كل أشكال الاستعمار التقليدية والاستيطانية، ويسميها التعبير الماركسي طبقة الكومبرادور، وقد لجأ الأمريكيون إلى إنشاء الحكومات القبلية منذ سنة 1934 على أنقاض الحكومات التقليدية التي كانت تحكم الهنود، وكان هذا هو خيار الاستعمار الأوروبي في بلادنا عندما أنشأ دول التجزئة ليقوم حكامها بوظائفه نفسها بعد رحيل جيوشه وذلك بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية، ولهذا دعم الغرب ديكتاتوريات التجزئة وأمدها بالعون السياسي والاقتصادي والعسكري أيضاً، وتطلب إنشاء الحكومات الهندية الحديثة في نفس الفترة تأليفها على غرار نماذج الحضارة الغربية وضرورة موافقة وزير الداخلية الأمريكي عليها[46]، وعندما اندلعت ثورة "القوة الحمراء" سنة 1973 في الموقع الذي جرت فيه مجزرة الركبة الجريحة (1890) وقف

(46) Utter، 2001، ص272.

النظام الأمريكي إلى جانب السلطة القبلية الاستبدادية بشكل واضح[47].

29 - الرشوة تحت عنوان المساعدات: استخدمت السلطات الأمريكية الرشاوى والضغوط السياسية لعقد المعاهدات الهندية لغير صالح القبائل وللاستيلاء على أراضيها، وربما وقع الزعيم على التنازل وهو سكران غير منتبه لما وقع عليه، وهذه الأساليب تذكرنا بالرشاوى التي أعطيت لزعمائنا لعقد معاهدات السلام تحت عنوان المساعدات، أو لتحقيق أهداف صهيونية كتغيير مناهج التعليم التي كشفت الأخبار أنه دفع فيها ثلاثمائة مليون دولار لزعامة في دولة عربية، أوبالضغوط التي مورست عليهم لابتزاز أكبر قدر من التنازلات في هوة لا نقع فيها على قرار.

30 - التهجير: استخدم الأمريكيون سياسة التهجير للاستيلاء على أراضي الهنود، وكانت القبائل تنقل مسافات شاسعة بعيداً عن أوطانها، في البداية من شرق القارة إلى غرب نهر المسيسبي، ثم إلى المقاطعة الهندية في أوكلاهوما، وقد نشأت مآس كبرى في عمليات التهجير هذه لعل أبرزها رحلة درب الدموع التي هجرت فيها قبيلة شيروكي من ولاية جورجيا إلى أوكلاهوما -حوالي 1200ميل-باستخدام الجيش ومعسكرات الاعتقال سنة 1838 وقد مات في الرحلة ما يقارب أربعة آلاف شخص يمثلون ربع القبيلة من الجوع والأمراض حتى أن جندياً عاصر أهوال الحرب الأهلية الأمريكية فيما بعد (1861-1865) أصر على أن رحلة الدموع هي أكثر المشاهد الوحشية التي شاهدها في حياته[48]، وكانت عملية التهجير تؤدي إلى نشوء مصالح تستفيد منها فوائد مادية فضلاً عن الأرض المصادرة، ومن ذلك عقود تزويد المرحلين بالمؤن التي غالباً ما تكون رخيصة وغير صالحة لاستخدام البشر مما يرجع بالمكاسب الكبرى على الممون، ومن المتعاقدين من كان يدفع رشوة تصل إلى 20 ألف دولار للحصول على هذه العقود[49] في زمن كان راتب الجندي في الشهر الواحد يقدر بعشرين دولاراً فقط.

---

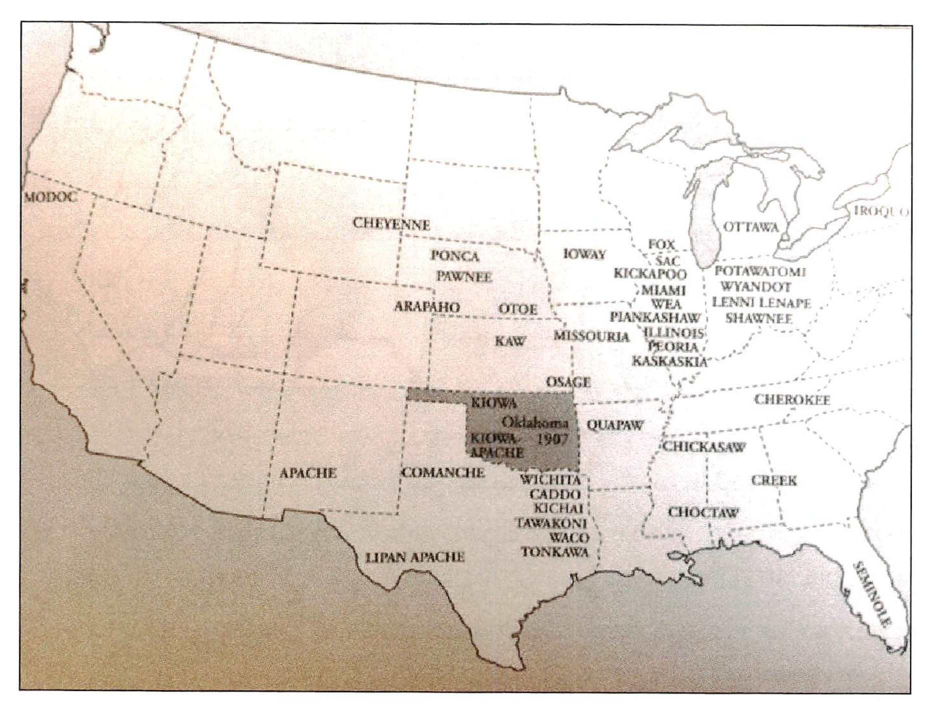
(47) Vine Deloria، 1992، ص20.

- Alvin M. Josephy، 1989، ص244 و252-253.

(48) Marks، 1998، ص91.

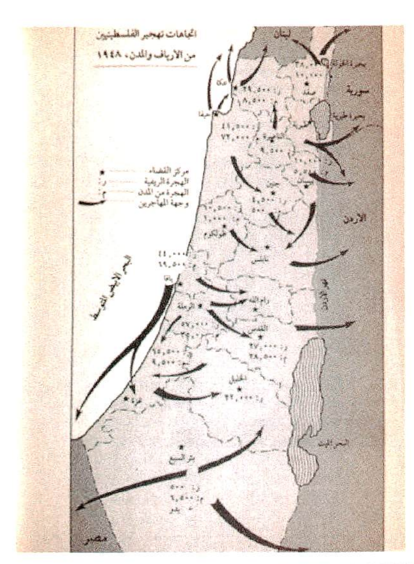
(49) White، 1979، ص239.

وقد سجل التاريخ الأمريكي مآس مشابهة لدرب الدموع كمشوار النافاجو الطويل (1862) وهروب الأنوف المخرومة (1877) وخروج الشايان (1878)، وقد هُجرت إحدى عشائر الآباتشي ثماني مرات إلى أن استقرت في بقعة غير مرغوبة، وهي رحلات تشبه إلى حد كبير نكبة فلسطين وهجرة أهلها سنة 1948 ثم هجرتهم الثانية سنة 1967، وهناك كثير من الفلسطينيين من هاجروا هجرات عديدة من فلسطين إلى دول عربية إلى بلاد المهجر.



المواطن الأصلية للقبائل التي رُحلت إلى المقاطعة الهندية في أوكلاهوما بموجب قانون الترحيل 1830[50]

(50) Waldman، 2000، ص207.



هجرة الفلسطينيين أثناء النكبة(51)



درب الدموع الهندي
كما تخيله الفنان

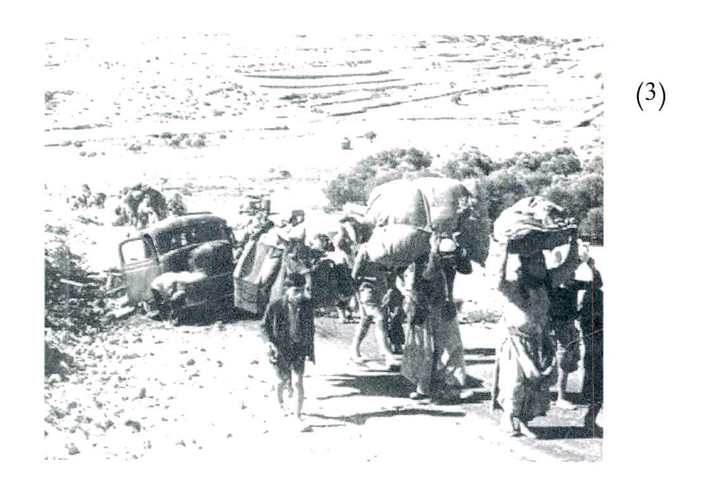


مشاهد من درب الدموع
الفلسطيني 1948
(1)

(51) الخالدي، 1998، ص152.

(2)





(3)

(4)



31 - التخلي عن شركاء السلام وازدراؤهم: لم يكن الزعماء المسالمون بمنأى عن العدوان الأمريكي رغم أن السلطة الأمريكية استخدمت نفوذهم في بعض المراحل لتحقيق أهدافها وأوهمتهم بالصداقة الأبدية، فربما حصل الزعيم الهندي على ميدالية تقدير من الرئيس الأمريكي نفسه أو شهادة صداقة تثبت ولاءه، ومع ذلك يُقتل برصاص الجيش الأمريكي لأن ما قدمه غير كاف للجم قومه (نفس الحجة الحديثة عند الكيان الصهيوني!)، أو لأن المصالح اقتضت ذلك، أو لأن الرئيس الأمريكي غير قادر على ضبط جنوده بكل أسف (!)، وقد قُتل كثير من الزعماء المسالمين برصاص الأمريكيين، ولعل أوضح مثل على هذا قصة زعيم قبيلة الشايان "الإبريق الأسود" Black Kettle الذي قضى عمره في البحث عن السلام وإتباع أوامر الرجل الأبيض وسلوك سبيل الأمان مضحياً بحقوق قومه وموافقاً على تقديم الأرض مقابل الحصول على السلام، فكانت النتيجة أن تعرض قومه لمذبحتين من أبشع مذابح التاريخ الأمريكي في نهير الرمل Sand Creek (1864) وواشيتا (1868) وقُتل تحت سنابك الجيش الأمريكي بكل وحشية هو ومئات من أفراد قبيلته، وكم من زعيم سلام لاقى الترفع والاستكبار من الرجل الأبيض، فهذا يعرض خدمات للقتال إلى جانب الجيش فيلاقي الإعراض والرفض بازدراء، وهذا يمد يده للسلام على الجنرال الأمريكي فيرفض الجنرال مس يده (مقارنة مع مصافحة اتفاق أوسلو في البيت الأبيض)، ولعل هذه الصور تعيد إلى أذهاننا صورا معاصرة عن كيفية معاملة الذين ساروا في درب عملية السلام.



مصافحة أوسلو الشهيرة حيث ترفع رئيس الوزراء الصهيوني إسحق رابين لبرهة عن مصافحة الرئيس ياسر عرفات في مشهد التقطته وسائل الإعلام آنذاك بوضوح ولكنه اختفى فيما بعد وتم تعديل الأفلام التي سجلت الواقعة (الصورة من صحيفة الوطن الكويتية 1993/9/14)



الزعيم المسالم ساتنتا الذي مد يده لمصافحة الجنرال الأمريكي فرفض هذا أن يصافحه بازدراء



الجنرال الأمريكي المتغطرس جورج كاستر كان يحتقر الهنود ويطمح للرئاسة الأمريكية، رفض مصافحة ساتنتا، قضى تحالف عسكري هندي على حلمه وحياته في معركة ليتل بيغ هورن (1876)

32 - المجازر: ينتشر استخدام المجازر في عملية غزو أمريكا على طول تاريخها، ولم تكن معاداة الهنود للبيض هي المحفز على ارتكابها، فكم من قرية كانت آمنة وفي صداقة مع الأبيض تعرضت للهجوم وكم من قرية اتبعت طريق الرجل الأبيض وديانته هاجمها الطامعون، ومنذ مجزرة البيكوت (1637) ارتكبت عدة مجازر وعمليات تطهير عرقي إلى أن اختتمت حروب الهنود بمجزرة ارتكبت عند نهير الركبة الجريحة Wounded Knee (1890) في ولاية داكوتا ما تزال ذكراها عالقة في أذهان الهنود إلى هذا اليوم كذكرى مجزرة دير ياسين في ذاكرتنا والتي ارتكبت ضد قرية مسالمة عقدت مواثيق الصداقة والأمان مع المستعمرات الصهيونية حولها لتأمن أهوال الحرب ولم تشترك في المعارك ضدهم ومع ذلك اقتضت المصالح العسكرية للعدو بإفنائها وجعلها عبرة لغيرها فلم يتردد الصهيوني في ذبحها، ولا ننسى بقية

المجازر الصهيونية في النكبة وقبية وكفر قاسم وبحر البقر وصبرا وشاتيلا وقانا وجنين وغزة وغيرها وغيرها.



مشهدان لدفن ضحايا مجزرة الركبة الجريحة (1890) التي أنهت الحروب الهندية والمقاومة المسلحة





المجازر جزء رئيس في تنفيذ المشروع الصهيوني: صبرا وشاتيلا (1982)





مجزرة قانا (1996)



مجزرة جنين 2002

33 - تدمير المجتمعات الأصلية: لم يقتصر الضرر الدموي من المشروع الاستيطاني على المجازر في أمريكا، فقد أدت عدة عوامل إلى تدمير واختفاء أكثر من 400 قبيلة أثناء 250 سنة من الحروب، وفي فلسطين أدى الاجتياح الصهيوني سنة 1948 إلى تدمير واختفاء اكثر من 400 قرية كذلك[52]، ومع أن هناك فرقاً بين الإبادة الهندية والنكبة الفلسطينية في كون معظم الشعب الفلسطيني ظل حياً، فإن النتيجة في الحالتين هي اختفاء المجتمعات الأصلية.

34 - رعاية الدولة البريطانية الكبرى للمستوطنين ثم استقلالهم عنها: رعت دولة كبرى هي بريطانيا الاستعمار الاستيطاني في أمريكا، ولكن أي كيان استيطاني عندما ينمو تتضارب مصالحه مع مصالح البلد الأم، فيسعى للاستقلال عنها، وقد كانت العلاقة مع الهنود والاستيلاء على أرضهم من ضمن أسباب الثورة الأمريكية على الحكم البريطاني، إذ سعت الحكومة البريطانية إلى تقييد الاستيطان برسم حد فاصل لا يجوز تجاوزه بين المستعمرات وأرض الهنود بعد الثورة التي قاموا بها سنة 1763، وأصدر الملك جورج الثالث إعلانا بذلك مما أغضب الأمريكيين المتطلعين نحو مزيد من التمدد في أرض الهنود ودفعهم لإعلان الثورة على التاج البريطاني، وقد كان انتصار الثوار كارثة على الهنود[53] بمجيء حكومة جمهورية ديمقراطية تتبنى أطماع المستوطنين الذين ظلوا رأس حربة في العلاقة مع الهنود فيما بعد وسبباً رئيساً للتوترات في مناطق التخوم كما اعترف بذلك قائد الجيش الأمريكي وليام شيرمان بعد الحرب الأهلية الأمريكية[54]، ومع ذلك اختارت الدولة قمع الهنود حتى عندما يكون المستوطن هو المعتدي لأن السيطرة عليهم أسهل من السيطرة على المستوطنين[55] الذين تستمد الدولة الشرعية من تمثيلهم، ولعل هذه الصورة تماثل ما حدث عندنا عندما

(52) الخالدي، كي لا ننسى، 1998، صxxvi.
(53) Calloway، 1995، ص64 و244 و291.
(54) Lazarus، 1999، ص41.
(55) Marks، 1998، 193.

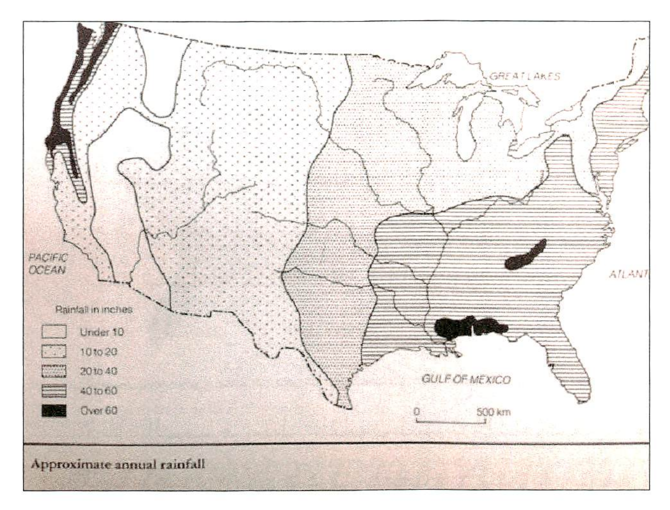
رعت بريطانيا الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي تمرد عليها لما اشتد عوده وأرادت وضع قيود عليه بعد ثورات العرب المتكررة واستجابة لحساباتها الإمبراطورية الخاصة، وكانت "حرب الاستقلال" الصهيونية نكبة على أهل فلسطين كما كانت حرب الاستقلال الأمريكية نكبة على الهنود، وتمدد الاستعمار الاستيطاني بعدها بشكل سرطاني وظل يلتهم الأرض تدريجيا إلى أن يصل إلى درجة التغير النوعي الذي يوجد حقائق على الأرض يصعب تغييرها وترسخ وجوداً جديداً للاحتلال تتراجع أمامه حقوق أهل فلسطين، فمن وطن قومي إلى تقسيم سنة 1937 إلى تقسيم سنة 1947 إلى حدود الهدنة إلى حرب 1967 وما تزال الدولة الصهيونية ترعى المستعمرين الاستيطانيين خارج حدودها رغم خرقهم القوانين والاتفاقات وعبثهم وعربدتهم فيما يشبه مناطق الحدود في السابقة الأمريكية.

35 - منح من لا يملك من لا يستحق: دأبت الدول الأوروبية الاستعمارية على التصرف في الأراضي الأمريكية فيما بينهما وكأنها لا مالك لها، ففرنسا تتخلى لبريطانيا بعد هزيمتها أمامها في حرب السنوات السبع عن كل أملاكها الأمريكية دون استشارة أو ذكر السكان الأصليين، وبريطانيا تمنح الولايات المتحدة بعد هزيمتها في حرب الثورة الأمريكية أراض واسعة جداً دون استشارة أو ذكر الهنود الذين تعجبوا من كون بريطانيا تمنح أراضيهم للولايات المتحدة بعدما سفكوا دماءهم إلى جانب الإنجليز في معارك الثورة وأصروا على أنه لا حق لبريطانيا في منح ما لا تملكه، كما فعلت بعد ذلك عندما كافأت العرب الذين قاتلوا إلى جانبها في الحرب الكبرى الأولى (1914-1918) بمنح فلسطين التي لا تملكها للصهاينة اليهود.

36 - انتخاب مواقع الاستيطان: عندما نشأت سياسة المحميات في الولايات المتحدة لإسكان القبائل الهندية بعيداً عن الاستعمار الاستيطاني الأبيض بداية من سنة 1787، تركت للهنود "الأراضي التي لا يرغب بها أحد"، فكانت أراض فقيرة وقاحلة، ويعيش اليوم 75% من سكان المحميات الهندية على مساحة 55% من أراضيها والتي لا يسقط عليها الحد الأدنى من الأمطار للزراعة[56]،

(56) Prucha، 1995، ص1180.

وأحياناً كان يتم تهجير القبيلة مرات عديدة لتستقر في نهاية الأمر في أسوأ بقعة، ومن ذلك إحدى عشائر الآباتشي التي هُجرت ثماني مرات حتى استقرت في أرض لا يرغب فيها أحد[57]، ولكن ثروات طبيعية كالنفط واليورانيوم اكتشفت بها في القرن العشرين بعدما كانت قد ضمنت ملكيتها للهنود، مما أدى إلى تجدد الهجوم عليها فيما وصفه أحد المؤلفين الهنود بغزو الرأسمالية الأمريكية لأرض الهنود في القرن العشرين طمعاً في الموارد الطبيعية للقبائل[58]، وهذا يذكرنا بطريقة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي كان ينتخب الأراضي الخصبة والمواقع الحساسة والمهمة، ولما اقترحت لجنة بيل البريطانية تقسيم فلسطين سنة 1937 منح المشروع خُمس البلد ليقيم عليه اليهود دولة مستقلة تضم معظم الساحل وبعض أكثر الأراضي خصوبة، "وخُصصت أجدب أراضي فلسطين للعرب"[59]، حتى إذا وقع التقسيم سنة 1947 كانت خلاصة البلاد بأيدي الصهاينة، ثم يذكرنا بنهب الكيان الصهيوني ثروة الضفة الغربية من المياه وسعيه لنهب الثروات التي اكتشفت في بحر لبنان وبحر غزة.



أحزمة سقوط الأمطار في الولايات المتحدة[60]، وبمقارنة مع مواقع المحميات (خريطة بند المعازل) نرى أن نسبة كبيرة منها تقع في أفقر الأحزمة أمطاراً

(57) White، 1979، ص239.
(58) Fixico، 1998.
(59) روجان، 2011، ص262.
(60) Tucker، 1996، ص3.

37 - عبثية سلاح القانون في استعادة الحقوق: هل نتصور أن أمم حضارة المنفعة تشرع قوانين تدينها وتعمل ضد مصالحها؟ وإذا كان الجواب نفياً بالطبع، فما هي جدوى اللجوء إلى حكم القاضي عندما يكون هو نفسه خصماً؟ وقد شخص المراقبون الأذكياء حقيقة دور القانون الممهد للعدوان في حضارة الغرب الأمريكي والغرب الأوروبي عموماً كما مر عن أليكسيس دي توكفيل وكما يقول أحد الأساتذة من الهنود المعاصرين إن مبدأ حق الاكتشاف الذي استند إليه الرجل الأبيض في الاستيلاء على أرض الهنود سمح له أن ينجز بالقانون وبضمير مستريح ما أنجزه بالسيف استناداً إلى نفس القاعدة فيما سبق، أي التدمير المادي والروحي للسكان الأصليين[61].

وقد حاول الهنود قبلنا اللجوء إلى السلاح القانوني لحماية حقوقهم طبقا لقانون الرجل الأبيض، ولكن هذا الأسلوب لم يغير من مسيرة الصراع ولا من نتائجه الكبرى، فقد نجحت قبيلة الشيروكي التي تبنت حضارة الرجل الأبيض بكل تفاصيلها في ساحة القانون الذي حكم لها (1832) ضد الإجراءات التي اتخذت للقضاء على استقلالها وتهجيرها إلى الغرب البعيد، ولكن أبو الديمقراطية الأمريكية الرئيس جاكسون رد على الحكم القضائي بقوله إن القاضي أصدر حكمه فليقم هو بتنفيذه إن استطاع (!)، ومن الأمثلة الطريفة على ذلك قيام زعيم قبيلة البونكا المسالمة برفع قضية سنة 1879 في المحاكم الأمريكية ليثبت أنه "شخص" له حقوق كأي فرد أمريكي ولا يجوز حجزه، خلافاً لرغبته، في محمية تحددها الحكومة، ورغم اتخاذ القضية بعداً شعبياً وشغلها الرأي العام، ورغم حكم القضاء بأن الزعيم تنطبق عليه صفة "شخص"، فقد منعت السياسة امتداد الحكم حتى لأفراد قبيلته لأن ذلك سيدمر نظام تعامل الحكومة مع الهنود وسياسة المحميات من جذورها، وظل الهنود في نظر القانون ليسوا "أشخاصاً"!، ومن الأمثلة الغريبة أيضا لجوء هنود ولاية داكوتا للقضاء لاستعادة منطقة التلال السوداء المقدسة لديهم والتي سلبت منهم عنوة بعد معاهدة ضمنت ملكيتهم لها سنة 1868، وكان ذلك نتيجة اكتشاف الذهب فيها، ومنذ أكثر من قرن والقضية تراوح في

(61) Robert A. Williams، 1990، ص326.

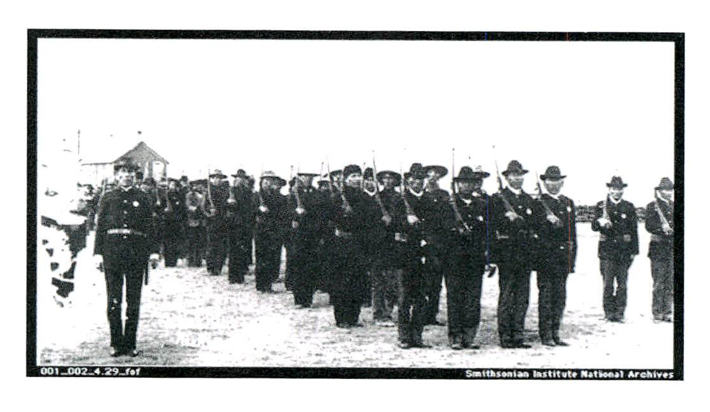
المحاكم لإثبات حق الهنود الذين رفضوا التعويض وفوائده رغم أنه فاق المليار دولار لأن القضية عندهم تتعلق بقدسية المكان لا بثمنه ويصفونه بأن قدس الهنود، وهذا يماثل لجوءنا للقانون الدولي لإنصافنا ورغم ذلك لم نستعد حقاً واحداً به رغم كثرة القرارات والمواد التي تدعم حقوقنا، ويبدو أن علينا إثبات كوننا "أشخاصاً" ابتداء لنحظى بالحقوق الغربية!، ومن غرائب الصدف أن الولايات المتحدة التي سرقت مقدسات الهنود هي نفسها التي تظاهر اليوم الصهاينة الإسرائيليين لسرقة مقدساتنا وأضافت لذلك اختيار موضع مسروق لتبنى عليه سفارتها في القدس[62].

38 - كثرة لجان التحقيق في مظالم السكان الأصليين دون نتائج عملية: ومثل القوانين أدت لجان التحقيق دوراً سلبياً في علاقة الهنود بالأمريكيين، وكثيراً ما استخدمت هذه الوسيلة للكشف عن ملابسات مجزرة أو جريمة أو للتحقيق في أوضاع الهنود المزرية، ولكنها لم تؤد إلى إعادة حق لصاحبه، ومن أمثلة ذلك عدم معاقبة العقيد تشيفنغتون الذي ذبح العشرات من الهنود الأبرياء في مجزرة نهير الرمل (1864) رغم قرار لجنة التحقيق بإدانته، ولكن كونه أصبح خارج الخدمة عند صدور القرار، أعفاه من العقوبة، ورغم قرارات لجنة دوليتل (1867) التي فصلت الحالة المزرية التي وصل الهنود إليها من نقصان في أعدادهم وقلة مواردهم وتضاؤل أراضيهم وإفسادهم بعيوب البيض كالخمر وغيره وتعديات المستوطنين عليهم، فإن هذه المعلومات لم تغير مسار الأحداث واستمر العدوان واستعرت الحروب حتى انتهت المقاومة الهندية المسلحة في سنة 1890، ويذكرنا هذا بلجان التحقيق البريطانية التي زارت فلسطين واحدة تلي الأخرى حتى وصل عددها إلى عشرين، لجنة بيل ولجنة وودهيد ولجنة شو ولجنة سمبسون وغيرها وغيرها، لتجيب عن أسئلة ساذجة عن سبب الاضطرابات وتفصّل الحقائق الواضحة ولكن مسار الأحداث ظل على ما هو عليه حتى وقعت النكبة بأهل فلسطين ولم تفدهم نتائج التحقيقات بشيء، وقد استخدم الصهاينة نفس اللعبة لتبرئة ساحتهم من مظالم ضحاياهم كما فعلت لجنة كاهان بعد مجازر صبرا

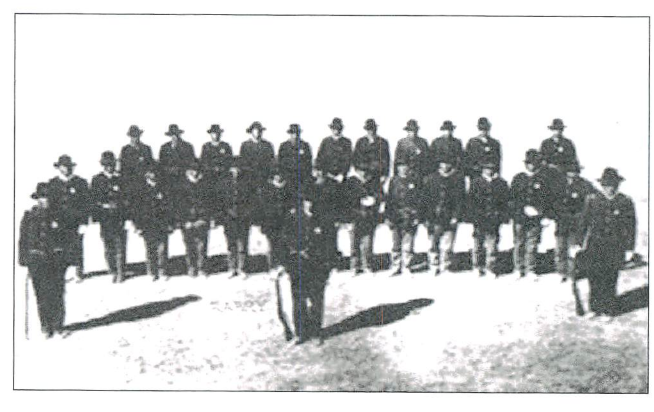
(62) الخالدي، 2009، ص356.

وشاتيلا (1982)، بل ما زالت اللجان ترسل إلينا كلجنة غولدستون الذي انقلب على الضحايا الذين جاء لإنصافهم بعد عدوان الصهاينة على غزة 2009.

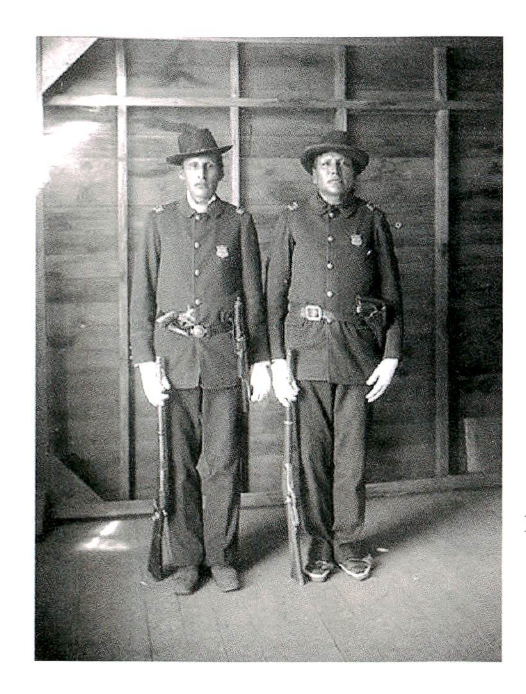
39 - تأسيس شرطة وطنية من السكان الأصليين لضبطهم: استخدمت السلطات الأمريكية شرطة هندية لضبط الأمن والسيطرة على الهنود في المحميات في سبعينيات القرن التاسع عشر، وكانت هذه الشرطة تأتمر بأوامر الوكيل الأمريكي الذي تعينه الحكومة الأمريكية، وقد أدت هذه الشرطة أدوارا حيوية إلى جانب الحكومة ضد شعبها من ذلك اغتيال زعيم المقاومة "الثور الجالس" سنة 1890، ولا ننسى هنا الشرطة الفلسطينية التابعة للوكيل الأمريكي التي أنشأتها اتفاقية أوسلو لضبط الفلسطينيين والسيطرة على مقاومتهم، وأدت في هذا المجال خدمات جلية للجانب الصهيوني لمنع العمليات الفدائية ضده وحماية أمنه بل أمن جنود احتلاله.



الشرطة الهندية في داكوتا لضبط المحميات



الشرطة الهندية التي اغتالت زعيم المقاومة الثور الجالس في داكوتا سنة 1890

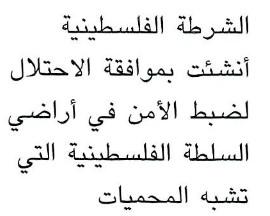


البلطة الحمراء Red Tomahawk (على اليسار) وهو الشرطي الهندي الذي اغتال زعيم المقاومة الهندية في شمال السهول العظمى سنة 1890



شارة الشرطة الهندية التي ارتداها قاتل زعيم المقاومة الهندية أثناء عملية الاغتيال في 15 ديسمبر 1890

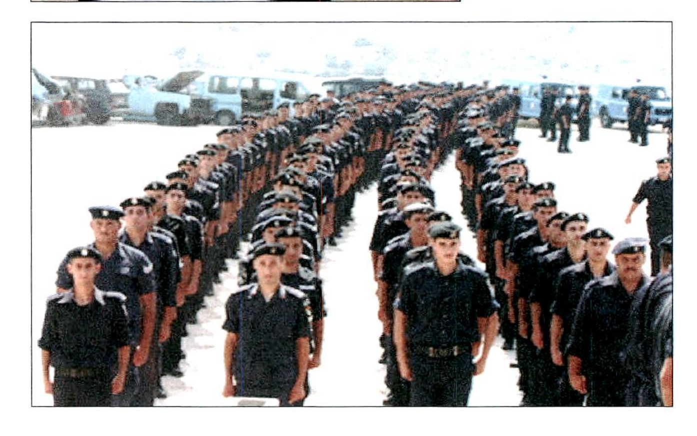




الشرطة الفلسطينية أنشئت بموافقة الاحتلال لضبط الأمن في أراضي السلطة الفلسطينية التي تشبه المحميات

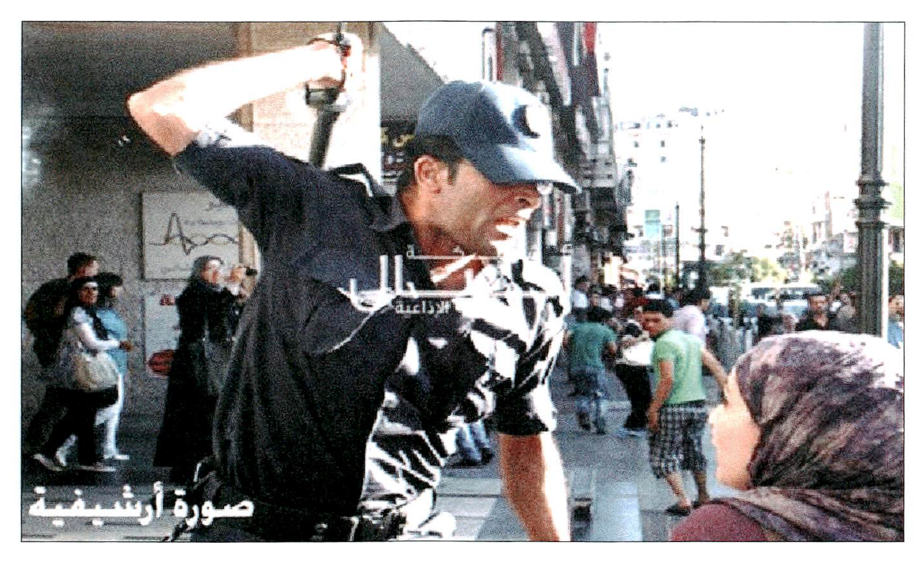



يا حيف ... صرنا نسال
ين الي اعتقله ؟؟
فلسطينية ولا اسرائيلية
؟؟؟




إعتقال سياسي
رصاص الجيش
وخرج منها ليعود في
سجون السلطة




الإذاعة
صورة أرشيفية



شارة الشرطة الفلسطينية

40 - أهمية المؤسسة العسكرية: أتى كثير من الرؤساء الأمريكيون بعد الثورة من المؤسسة العسكرية واعتماداً على سجلهم الحربي ومنه المواجهات مع السكان الأصليين، وكان تسجيل "البطولات" في الحروب الهندية من الوسائل التي يسلكها المرشح نحو منصب الرئاسة، وهذا هو حال الكيان الصهيوني الذي أتى زعماؤه من المؤسسة العسكرية استناداً لأمجادهم في المعارك مع العرب، وهذا بسبب أن المشروعين الأمريكي والصهيوني تبنيا العنف تجاه السكان الأصليين، كما ورد في قول جورج واشنطن السابق وكما قال الجنرال شيرمان بعد الحرب الأهلية: "كلما قتلنا أكثر هذه السنة، قل عدد من سنقتلهم في الحرب القادمة... يجب أن يتم قتلهم جميعا أو إبقاؤهم جنساً من العالة"[63]، وهو قول يشبه ما كتبه حاخام في الجيش الصهيوني: "يجب قتلهم تحت أي ظروف، لا نستطيع أن نثق في عربي، حتى وإن كان يبدو متحضراً في الحرب، عندما تشن قواتنا هجوماً نهائياً، فإن الشريعة تسمح لهم بل تأمرهم بقتل حتى المدنيين الخيرين"[64]، ولهذا ليس من العجيب أن تنتشر في الكيان الصهيوني مقولة أن العربي الجيد هو العربي الميت كما اشتهرت في الولايات المتحدة من قبل مقولة أن الهندي الجيد هو الهندي الميت.

(63) Utter، 2002، ص181.
(64) جارودي، 2000، ص198.

41 - نزعة شراء الأوطان: تبنى الأمريكيون نظرة داروينية ترى أن كل شيء يباع ويشترى بما فيه الأوطان والذكريات والروابط الإنسانية والمقدسات بل والإنسان نفسه، ولهذا لم يكونوا يفهمون منطق الهندي وهو يتحدث عن أرضه، وقد قال الجنرال أوليفر هاورد في سنة 1877 لقبيلة الأنوف المخرومة أثناء محاولته تنفيذ الأوامر بتهجيرهم من أرضهم: " لا أريد أن أتعدى على دينكم، ولكن عليكم التحدث عن أمور عملية، لقد سمعت منكم عشرين مرة حتى الآن أن الأرض هي أمكم وحول زعامتكم الموروثة من الأرض، لا أريد أن أسمع شيئاً من هذا القبيل بعد الآن"[65]، وهذا يشبه الحيرة التي يجد الصهاينة أنفسهم بها نتيجة رفض اللاجئين الفلسطينيين أي تعويض عن وطنهم رغم البؤس والحرمان والشقاء الذي يعيشون فيه وتوفر الخيارات البديلة التي قد تكون أكثر رفاهية من الوطن الحقيقي.

42 - صحوة الضمير بعد فوات الأوان: تتميز المجتمعات الغربية، وبخاصة الاستعمارية الاستيطانية منها بصحوة الضمير ولكن بعد زوال الخطر وفوات الأوان، وهذا لا يعود إلى تطور القيم كما يدعي بعض الباحثين الأمريكيين المدافعين عن مجتمعهم، لأن تجريم ما حصل للهنود لم يكن مقتصراً على المصلحين وأصحاب التوجهات الإنسانية ولجان التحقيق المحايدة، بل ظهر أيضاً في اعترافات ساسة العصر وكبار العسكريين الذين أخضعوا الهنود وقضوا على حريتهم، والانفصال بين القلب والسيف معروف منذ بدء الخليقة، والقضية لا تتعلق باختلاف القيم بين العصور بقدر ما تتعلق بسهولة الندم بعد فوات الأوان، وهذا يفسر الاعتدال الذي ينتاب الجمهور الأمريكي تجاه السكان الأصليين اليوم وكثرة الأبحاث والكتب التي توثق الجرائم التي ارتكبت ضدهم، ولكن هذا منقطع عن أي أثر عملي باستثناء قرار هنا أو هناك بتحسين ظروف معيشية، ولو تجدد الصراع على ثروة ما مرة أخرى لرأينا الخندقة تعود من جديد كما حدث فعلا في الصراع على ثروات المحميات في القرن العشرين، وقد بدأ الشعور المتعاطف مع الهنود في الساحل الشرقي بعد اندثارهم منه وزوال خطرهم، وصار من السهل على

(65) براون، 1982، ص239.

سكانه محاسبة سكان الغرب الأوسط المنهمكين في الصراع بمعايير لم يكونوا يقبلونها لأنفسهم عندما كانوا هم في خضم المعارك الهندية[66]، ولهذا لم تؤد النظرة الرومانسية إلى الهندي إلى تعديل جوهري في سياسة الاضطهاد والعدوان مادام الصراع قائماً[67]، وقد تنبه الأديب الصهيوني عاموس عوز إلى هذه مسألة الصحوة الضميرية المتأخرة وفائدتها الإعلامية وقال في حديث مع مسئول كبير من الصهاينة: "ماذا لو قتلنا مليوناً من العرب، أو حتى ستة ملايين؟ إن التاريخ سينسى ذلك، ويأتي أدباؤنا ويكتبون روايات عظيمة عن المذابح التي ارتكبناها في حق العرب ومشاعر الذنب التي تنتاب الجيل الجديد، ويحصلون على جوائز نوبل في الأدب"[68]، وهذا بالضبط ما يحدث للكتاب الأمريكيين الذين رفضوا اضطهاد الهنود في زمنهم ويحتفى بأعمالهم اليوم ويصبحون، مثل هيلين هنت جاكسون (1830-1885)، رصيداً للمجتمع الذي ذبح الهندي ومع ذلك انطلقت منه أصوات حرة لترفض الجريمة، وهذا ما يريده الصهاينة لو انتصر مشروعهم لا سمح الله ليحتفوا بأعمال المؤرخ إيلان بابيه مثلا بصفته دليلاً على مدى الحرية في المجتمع الديمقراطي الصهيوني، ولأن المجتمع الصهيوني لم يفرغ من الصراع بعد فمن الصعب أن نجد لديه هذا الإحساس الزائف بالذنب، وإن كنا نلمس فوارق في العدوانية بين سكان الكيان المحتل عام 1948 الذين طردوا أهل فلسطين من بينهم وسكان المستعمرات الاستيطانية المنهمكين يوميا في العراك مع الفلسطينيين.

---

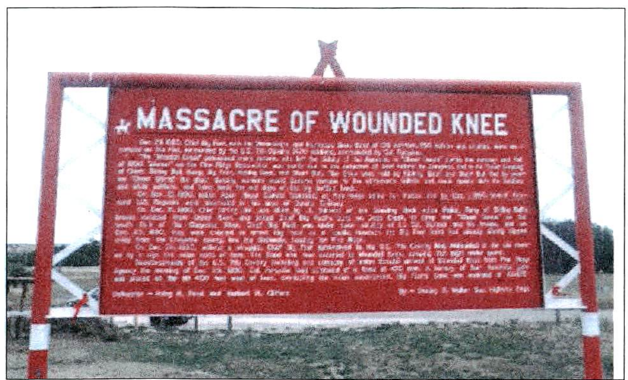
(66) William w. Savage، 1977، ص90.

(67) Slotkin، 2000، ص418.

(68) الشامي، 1988، ص177.



السماح بإقامة النصب التذكارية لضحايا المجازر جزء من صحوة الضمير ولكن دائماً بعد فوات الأوان، مشاهد من النصب التذكاري لمجزرة الركبة الجريحة كما يبدو اليوم

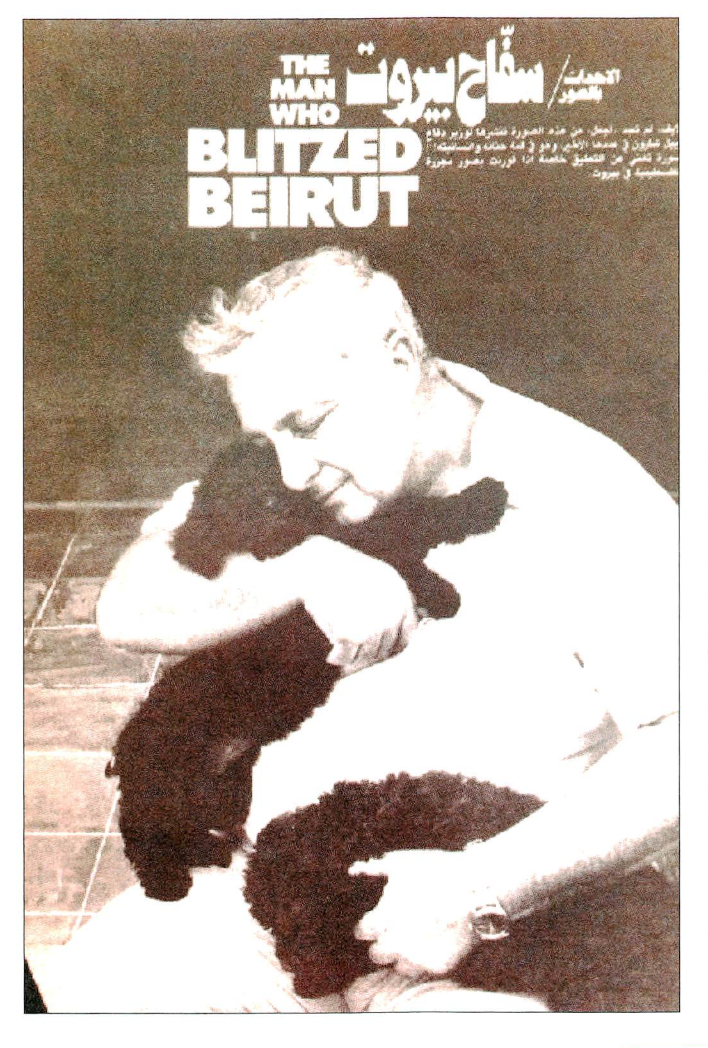




النصب التذكاري لمعركة ليتل بيغ هورن بعد تحديثه لتخليد ذكرى المحاربين الهنود وفقاً لقانون أصدره الرئيس جورج بوش سنة 1991 بعد أكثر من قرن من حدوث المعركة وبعد فراغه حديثاً من مجزرة حرب العراق وأثناء الانهماك في مجزرة الحصار ضده مما يؤكد عدم الاعتبار بدروس الماضي.

43 - اليسار الاستيطاني ودوره في اضطهاد السكان الأصليين: والحديث السابق عن صحوة الضمير بعد فوات الأوان يقودنا إلى ما يسمى في زمننا معسكر اليسار الصهيوني، ونظيره في التاريخ الأمريكي من المصلحين والإنسانيين الذين وافقوا مجتمعهم على شعاراته بوجوب تغيير حياة الهندي نحو الهداية والحضارة، وكانوا يعترضون على اضطهاده وسلب حقوقه، ولكنهم لم يكونوا يملكون قوة تحد من اندفاع التيار الجارف، ولهذا كانت وسائلهم محصورة بما يسمح به الظرف في مجتمع أجمع على استثناء الهندي من نعمه، وكانت إنجازاتهم قليلة في حماية حقوق الهنود وتنحصر في حالات فردية، وكانوا كثيراً ما يوافقون الساسة والعسكريين على المشاريع التي تحوي نهباً أو اضطهاداً أو تهجيراً، ومنطقهم في هذا هو محاولة حماية الهندي من الأسوأ، أو بسبب الموافقة على وجوب تغيير الهندي من حيث المبدأ، ولكن اختلاف النوايا بين السياسي الساعي نحو الاستيلاء على الأرض والإنساني الذي يرى ذلك جزءاً من مشروع أكبر نحو التمدين، لا يترك مجالاً لتطبيق المشروع الإنساني كاملاً لأن صاحبه يفتقر إلى قوة التنفيذ مما يحوله في النهاية إلى مجرد أداة للظلم والعدوان، ومن أمثلة ذلك مشروع نقل القبائل من الشرق إلى غرب نهر المسيسيبي في ثلاثينات القرن التاسع عشر والذي ارتكبت فيه كثير من الانتهاكات والمظالم، ومع ذلك بُرر "إنسانياً" بأنه لحماية الهنود من الآثار الضارة لاحتكاكهم بجشع البيض (الآن تم الاعتراف بأن الأبيض جالب للفساد لا للحضارة، وذلك لتبرير اضطهاد جديد بعدما استنفدت حجة الحضارة مفعولها وبان عوارها)، كذلك قانون دوز لنشر الملكية الفردية لقطع صغيرة من الأرض وذلك للاستيلاء على أراضي القبائل المملوكة جماعياً (1887) وهو قانون أصدره ودعمه الإنسانيون بحجة استيعاب الهنود في المجتمع الأمريكي وجعلهم على شاكلة البيض، فكانت النتيجة أن سلبهم القانون معظم أراضيهم وتركهم للفقر والحرمان دون أن يرتفعوا لمستوى البيض، أما الأصوات التي نادت بترك الهندي يعيش كما يشاء فكانت منبوذة ولا قيمة لها، وهذا شبيه بمعسكر السلام أو اليسار الصهيوني الذي ينسجم مع الإجماع الصهيوني على هوية الدولة اليهودية ورفض عودة اللاجئين، وربما فعل بعضهم ذلك من باب

"الواقعية" لا إنكاراً للحق الفلسطيني، مما يجعلهم في صف الظلم موضوعياً، ويركزون جهودهم على مكاسب جزئية أو فردية وعلى تجنيب الفلسطينيين أهوالاً أكبر مع القبول بما حصل لهم حتى الآن، وفي أوقات الأزمات يقف اليساريون بحماس خلف عدوان كيانهم يؤيدونه ويشتركون فيه كما حدث في العدوان على غزة 2014 [69]، أما الأصوات المطالبة بإرجاع الحقوق كاملة فهي هنا أيضاً منبوذة ولا يسمعها أحد كالمؤرخ إيلان بابه.



نموذج الإنسانية الغربية التي لا تتعارض مع الوحشية حيث المجرمون لا يفتقدون المشاعر "الرقيقة": السفاح الصهيوني أرييل شارون محتضناً كلابه كما نشرت صورته مجلة "لايف" زمن مجازر صبرا وشاتيلا ونقلتها مجلة "المستقبل" الصادرة في باريس عدد 292 السبت 1982/9/25

(69) http://albayan.co.uk/article.aspx?id=3863

44 - الاستشراق وسلفه الاستئصالي: اختلق الغرب شرقاً خاصاً به تسهل له رؤيته الاحتلال والاستعمار، وهو ما عالجه المفكر الراحل إدوارد سعيد في "الاستشراق"، ولا يمكن إنكار جانب كبير مما طرحه حتى لو اختلف المرء معه بعدم شمولية معالجته لجميع المستشرقين، فهناك ولا شك كتلة ضخمة من وجهات النظر الغربية المخالفة للواقع التي اتخذت حججاً لاستباحة الآخر، وورث الصهاينة هذه الرؤى عن فراغ فلسطين أو تخلف أهلها وكسلهم وبدائيتهم وتوحشهم وإرهابهم ليسهل عليهم استعمارها وطرد أهلها، بما في ذلك صورة المتوحش النبيل ذات الظاهر الإيجابي ولكنها تسير به إلى الزوال المحتم وهي صورة طبقت فيما قبل على الهندي الأحمر، وقد عالجت أبحاث كثيرة مسألة صورة العربي في الأدب الصهيوني، وقبل ظهور الاستشراق والحركة الصهيونية كان المهاجرون الأوروبيون وورثتهم الأمريكان قد طوروا رؤى خاصة بهم عن سكان أمريكا تسهل لهم التعامل العنيف معهم، كإنكار وجودهم أصلاً وعد القارة خالية، أو جعلهم جزءاً من العوائق الطبيعية التي تواجه الرائد الأبيض، أو الحديث عن توحشهم وبدائيتهم وكسلهم، أو حتى نبلهم -كما مر- ولكن السائر حتما نحو الزوال أمام تقدم المدنية، مما ألاحظ شبهه الشديد بأطروحات الاستشراق ولهذا أقترح نحت لفظ يعمم تسمية هذه الرؤى ب"الاستئصال" من كلمة "أصل" التي تشير إلى السكان الأصليين، وهي على وزن الاستشراق من كلمة شرق، وهذه الكلمة تفيد في تعميم وصف الرؤى الغربية التي مهدت لقمع جميع السكان الأصليين في أي مكان كما فعل الاستشراق مع الشرق، وفي نفس الوقت تشير إلى أن الغاية كانت اقتلاعهم أي استئصالهم، وهناك ملاحظات عن "الاستئصال" الأمريكي:

1) أنه عاب على الهندي ممارسات أصبحت فيما بعد جزءاً رئيساً من ممارسات الحضارة الغربية مثل العري كما يلاحظ ذلك الأستاذ منير العكش في أبحاثه النفيسة،

2) أن الأمريكي الذي وصف الهندي بالتوحش ساهم في نشر رذائله عندما وجد أنها في مصلحته ومصلحة مشروعه وذلك كعادة سلخ الرؤوس التي عرفها الهندي قبل قدوم الرجل الأبيض ولكن هذا الأخير منحها تمدداً وانتشاراً

عندما رصد لها جوائز عالية القيمة لفروة الرأس الواحدة وصلت أحيانا إلى ما يزيد عن راتب سنوي لرجل متعلم عندما كان التعليم قليلاً في أواسط القرن الثامن عشر، هذا إذا لم نذكر التدخين الذي أصبح من مشاكل العصر الحديث وقد اكتسبه الأوروبيون من الهنود الذين كانوا يستخدمونه استخداماً محدوداً للطقوس والاحتفالات فأصبح جزءاً من زاد الإنسان المعاصر بفضل الحضارة الغربية،

3) أن أطروحات "الاستئصال" كانت أحياناً كثيرة مخالفة للواقع بل مناقضة له، فكما كانت فلسطين أرضاً يسكنها شعب وادعوا أنها بلا شعب، كذلك ادعى الأمريكي أن أمريكا أرض خالية بلا شعب(70) وأن الهندي بدائي لأنه لا يمارس الزراعة ويحترف التنقل في الوقت الذي كانت القرى الهندية الزراعية تملأ القارة من الساحل الشرقي إلى الغربي ولكن الرجل الأبيض يريد مقياساً ضيقاً للتحضر يعتمد على أسلوبه الخاص في الملكية الخاصة وقد كشفت الحوادث أن المراد من تصديره للهندي هو الاستيلاء على أراضيه لا أكثر كما مر، وكما لم يكن الأمريكي هو البطل الخارق الذي يمكنه اجتياح الأمم الهندية بمفرده على طريقة أفلام "رامبو"، فكذلك لم يكن الصهيوني هو الفتى الذي تمكن من التغلب على العملاق الفلسطيني.

وبعد هذا الاستعراض المختصر لأوج التشابه بين سياسات الكيانين الأمريكي والصهيوني، نقرأ اقتباسا لأحد أنصار الكيان الصهيوني في الولايات المتحدة حيث قال: "كل حجة خلقية تدين إسرائيل هي أيضا دليل ينطبق على أميركا نفسها، وكل حجة ثقافية ضد إسرائيل هي حجة تنطبق على الحضارة الغربية في مجملها. ففي إسرائيل نجد أنفسنا نحن الأميركيين وجهاً لوجه مع أصولنا، وإذا ما تصرفت الولايات المتحدة وكأن لا مصلحة قومية لها في إسرائيل، فإن ذلك يعني أنها بصدد اطراح هويتها الدينية والخلقية والسياسية والثقافية نفسها، بل إن لأمريكا مصلحة قومية في إسرائيل تحديداً لأن ليس ثمة

(70) Slotkin، 2000، ص38.

أمة تستطيع أن تدعي بحق، وفي الوقت نفسه، نظير ما تمثله إسرائيل من القيم الأميركية الأساسية"[71].

ورغم هذه المطابقات بين السياسات الأمريكية والصهيونية يرى الدكتور المسيري رحمه الله أن المشروع الصهيوني لن يكتب له النجاح مثل المشروع الأمريكي الذي استعمر منطقة لم تكن كثافتها السكانية كبيرة واتسمت حضارتها بالبساطة رغم جمالها ولم تكن وسائل الإعلام الحديثة مسلطة على موقع الجريمة، أما فلسطين فيحيط بها كتلة سكانية ضخمة تنتمي لتراث حضاري مركب في زمن تطور وسائل الاتصال والإعلام، ولهذا فليست الإبادة سهلة كالماضي[72]، وكل كيان استيطاني لم ينجح في إبادة العنصر المحلي كان مصيره الزوال كما حدث في الجزائر وجنوب إفريقيا.

وخلاصة الأمر أن دراسة التجارب الاستيطانية الماضية التي تورطت فيها الحضارة الغربية يكسبنا معرفة بنظرة هؤلاء القوم إلى غيرهم وبطريقة التعامل الأفضل معهم، لوجود نقاط التقاء وتشابه عديدة بين هذه التجارب مما يوفر علينا الوقوع في أخطاء سبق ارتكابها.

---

(71) منصور، 1996، ص78.

(72) المسيري، 1999، ج7، ص318.

الفصل الحادي والعشرون

فلسطين الهندية الحمراء

(2)

مقارنة بين استجابات السكان الأصليين لتحديات المستعمرين الاستيطانيين

تشابهت استجابات السكان الأصليين في كلا المشروعين الاستيطانيين الصهيونيين الأمريكي والإسرائيلي على تحديات الاستعمار كما تشابهت سياساته تجاههم والتي استعرضتها في الجزء الأول من هذه الدراسة، وسأكرس هذا الجزء لبحث ردود أفعال هؤلاء السكان تجاه هذا التحدي.

وقد كان لتشابه المشروعين من حيث انطلاقهما من مبادئ الحضارة الغربية الحديثة دور كبير في تشابه ردود الفعل عليهما في الموقعين المتباعدين جغرافياً المتقاربين تاريخياً، فزيادة على أن الأوروبيين "اكتشفوا" أمريكا ضمن مشروع أكبر يتضمن محاولة استعادة القدس لسيطرتهم[1]، وأن قمع الهنود استحضر العداء نحو المسلمين "الأتراك والعرب، الحثالة البربرية الحقيقية بين الأمم"[2]، وجدنا أن المشروعين قاما على استثناء السكان الأصليين من الجنة الموعود إقامتها على أراضيهم، ولهذا تكررت مشاهد من الاستجابة في كل من أمريكا أولاً ثم فلسطين بعدها.

---

(1) تودوروف، 1992، ص17.

(2) نفس المرجع، ص177.

1 - التمسك بالأرض والحرية والمقدسات:

تتميز ثقافات السكان الأصليين في أمريكا بإسباغها احتراماً فائقاً للأرض بصفتها "أمّاً" للبشر ومصدراً للحياة والعطاء ومستقراً للأسلاف، وتجلى تبجيلها في أغانيهم وحكمهم وخطب زعمائهم، ولم يكن امتلاكها والمتاجرة بها وتقسيمها مفهوما عندهم، حتى القبائل المرتحلة فيهم والتي تمسكت بأوطانها بعناد شديد، وقد عبرت عن ذلك حواراتهم مع الرجل الأبيض الذي كان يلح لشرائها، فمنهم من يسخر من هذا الطلب قائلا كالزعيم تكومسيه: "نبيع أرضنا؟ لماذا لا نبيع الهواء، والغيوم، والبحر الكبير!!؟"[3]، ومنهم من يرد على طلب الشراء بقوله كالزعيم "الحصان الجامح": "المرء لا يبيع الأرض التي يمشي عليها الناس"[4]، كما احتفوا بالحرية ورفضوا القيود التي حاول البيض فرضها عليهم، وأشهر ما عبر عن هذا التوق للحرية خطبة الزعيم جوزيف زعيم قبيلة الأنوف المخرومة التي قال فيها: "دعوني أكون رجلاً حراً، حراً في التنقل، حراً في التوقف، حراً في العمل، حراً في التجارة أينما أردت، حراً في اختيار معلميّ، حراً في اتباع دين آبائي، حراً في التفكير والكلام والتصرف لنفسي"[5]، وقد تحمل الهنود الأهوال للتمسك بأرضهم مثلما سطرت قبيلة الشايان سنة ملحمة العودة إلى موطنها في ولاية مونتانا هرباً من المقاطعة التي حشرت الحكومة القبائل فيها في أوكلاهوما، وركب العائدون صعاباً جمة إذ قتل الجنود والبرد العشرات منهم في الرحلة التي امتدت مئات الأميال بين الثلوج والأنواء في سبيل العودة إلى الوطن الذي وصله البعض منهم فقط، وما زالت قبيلة لاكوتا ترفض بيع تلالها السوداء منذ قرن ونصف وترفض تسلم التعويض الذي زاد عن البليون دولار لأن المنطقة الواقعة في ولاية داكوتا مقدسة عندها، وكما يؤسس الكيان الصهيوني "حقه" في القدس استناداً إلى أنها لم تكن عاصمة عربية إسلامية في يوم من الأيام-وكأن مكة المكرمة كانت عاصمة في أي زمن-وأن الجانب العربي استحدث أهميتها ليستعيدها، كذلك يتهم الجانب الأمريكي الهنود

---

(3) Waters.، 1993، ص62.

(4) Lazarus.، 1999، ص81.

(5) McLuhan، 1986، ص124.

باستحداث قداسة للتلال الغنية بالذهب تمهيداً لاستعادتها[6]، وهكذا تنقلب المعايير في عالم المستعمر المحتل ويصبح المسروق في موضع الاتهام ويصبح الدفاع عن الحق المسلوب "تهمة" ينبغي على الضحية تبريرها بدلاً اتهام الجاني بسلب الحقوق ومطالبته بردها.

ونرى هذا التعلق بالأرض واضحاً عند أهل فلسطين منذ البداية، ويصف مدير الأمن العام في فلسطين زمن الانتداب البريطاني عملية نقل ملكية قرية العفولة في مرج ابن عامر في الجليل والتي تسكنها مئة عائلة فلسطينية كان عليها قبول تعويضات بعد أن بيعت قريتها للصهاينة: وافق ربع هذه العائلات على التعويض ورفضت الأغلبية لأن " هذه البيوت بيوتنا استناداً إلى ميراث الأسلاف وموتانا مدفونون هنا ونحن لا نرغب في الرحيل"[7]،وبعد نكبة 1948 حاول الصهاينة تكرار جريمتهم في قلقيلية في حرب 1967، فسطر أهلها ملحمة بطولية في التمسك بالأرض مشابهة لملحمة قبيلة الشايان قبل تسعين عاماً، وذلك حين حاولت القوات الصهيونية ترحيلهم بالقوة بعد نسف بيوتهم وسوق الحافلات لتجميعهم "ولكن أهل قلقيلية رفضوا أن ينساقوا إلى السيارات وهاموا على وجوههم في الطريق إلى نابلس، وانتشروا بين كروم الزيتون، لبضعة أيام، يلتحفون السماء ويفترشون التراب، ويأكلون ما تجود به الأرض من أعشابها، وهرع الصليب الأحمر ومعهم مراسلو الصحف العالمية... ورأت إسرائيل نفسها أمام فضيحة عالمية، فلم يكن لها خيار إلا أن تعيد الهائمين إلى بلدهم وإلى

(6) Ostler، 2010، ص22.

(7) الهنيدي، 2003، ص283.

أرضهم"[8]، كما تحكى قصص كثيرة عن مواطنين رفضوا بيع أراضيهم قبل النكبة رغم علمهم بمآل الأحداث وأن الصهاينة سيحتلونها، وذلك حتى لا يسجلوا بيع الوطن على أنفسهم، وما يزال اللاجئون يرفضون مشاريع التوطين والتعويض ويصرون على حقهم في العودة وتقف المرأة في فلسطين متشبثة بشجرتها في وجه الجرار الصهيوني في مشهد أثار عجب العالمين الذين سمعوا أخرى ترفض مقايضة أرضها بأمريكا وعماراتها الشاهقة في وقت أصبح مفتاح البيت في يد كل فلسطيني رمزاً لتمسكه بوطنه، وما زال حق العودة والقدس عقبتين تتكسر عليهما كل مشاريع التسوية، وهذا التمسك بالأرض والمقدسات هو الذي ولد المقاومة، وما زال شعب فلسطين يقاوم الاحتلال بانتفاضة تلي أختها ويقدم التضحيات الجسام ويصمد في أرضه حتى البدو منه رغم الطرد من البيوت والهدم المتتابع للقرى ويسعى بكل طاقته للحرية رغم كل العقبات الهائلة في وجهه.

2 - الترحيب الابتدائي بالمهاجرين الأوائل:

لم يفهم الهنود في البداية أبعاد الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه عندما وصل كولومبس القارة الجديدة سنة، فرحبوا به وبمن جاء بعده إلى أن جاء الإنجليز إلى مستعمرة فرجينيا سنة وحصلوا على ترحيب مماثل ثم ساعد الهنود مستعمري بلايموث سنة وزودوهم بالطعام وعلموهم صيد السمك وزراعة الذرة وصناعة القوارب، ولولا هذه المساعدة لما نجح "الآباء الحجاج" في أمريكا ولا احتفلوا بأول عيد شكر يمر عليهم بعد وصولهم، وهو الاحتفال الذي ما يزال الأمريكيون يحيون ذكراه إلى هذا اليوم.

---

(8) الشقيري، 2006، ج2 ص1282.



احتفال المهاجرين في مستعمرة بلايموث البيوريتانية المتطرفة بنجاتهم بعد أول حصاد يتم في العالم الجديد (1621) وكانت أغلبية الحضور من السكان الأصليين الذين لم يكن من الممكن إغفال دورهم في مساعدة المستوطنين على اجتياز المصاعب في البيئة الجديدة، ولكن أولئك الهنود سيندمون فيما بعد على قيامهم بذلك بعدما أسفر المستوطنون عن العداوة بعد تمكنهم واستغنائهم عن مساعدتهم.

إن هذا المشهد من الترحيب قد تكرر فيما بعد مع الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، فقد رحب أهل فلسطين بأوائل المهاجرين اليهود، وربما كان لهروبهم من روسيا القيصرية عدوة الخلافة العثمانية ما جعل الفلسطينيين يشعرون بالعطف عليهم، وكما كان مستعمرو فرجينيا "معتمدين على القبائل المجاورة للحصول على تموين ثابت"[9]، كذلك كان أوائل المستعمرين الصهاينة في فلسطين "على اتصال يومي بالمحيط العربي المجاور، لأنهم اعتمدوا على القرى المجاورة للحصول على الغذاء والسماد والعمال الموسميين والحراس، وللانتقال وتسويق منتجاتهم"[10]، وكما درب سكوانتو الهندي مستعمري بلايموث على الزراعة وتحضير الطعام والتلاؤم مع البيئة الجديدة، "تلقى مستعمرو هاديرا، مشمار هايردن والمطلة بعض التمرين الزراعي من الجيران والعمال العرب، واعتمدت بعض المستعمرات على القرى المجاورة للحصول على الماء... "[11]) كما شهد بذلك المؤرخ الصهيوني بني موريس.

(9) Robert A. Williams، 1992، ص208.

(10) Morris، 2001، ص46.

(11) نفس المرجع، ص46.

3 - المقاومة المسلحة:

لم يطل شهر العسل بين السكان الأصليين في أمريكا وأوائل المستعمرين الاستيطانيين، فقد كشفت الأيام للهنود طبيعة المشروع الذي ينوي الأوروبيون إقامته في بلادهم وأنه سيقوم على استبعادهم من أوطانهم، فقاموا يدافعون عن وجودهم بشن حروب المقاومة ضد التمدد الاستيطاني، ويحفل التاريخ الأمريكي بذكر الحروب الهندية التي امتدت على طول فترة الاستعمار الاستيطاني، فمن حرب البوهاتان في فيرجينيا (مروراً بحرب البيكوت في مساشوستس) ثم حرب الزعيم ميتاكوم الذي أطلق عليه المستعمرون لقب الملك فيليب (ثم حرب الزعيم بونتياك) التي أعقبت هزيمة فرنسا في حرب السنوات السبع، ثم حرب الثورة الأمريكية ضد الهنود، وحرب الزعيم تكومسيه)، ثم حروب المقاومة ضد التهجير إلى غرب المسيسيبي، وحرب الصقر الأسود)، وانتهاء بحروب السهول العظمى التي احتدمت بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية (وانتهت).



وتناظر هذه الحروب حروب وثورات المقاومة التي واجه بها أهل فلسطين ومحيطهم العربي الإسلامي الوجود الاستعماري الاستيطاني الصهيوني منذ بداية الانتداب البريطاني بعدما اتضحت لهم حقيقة المشروع، فمن ثورة ثم ثم ثورة البراق ثم ثورة الشيخ عز الدين القسام سنة والتي أعقبتها الثورة الكبرى)، ثم الحروب التي شاركت فيها البلاد العربية سنوات،،، وانطلاق المقاومة وحروبها منذ ومعركة الكرامة ثم انتصار الجنوب اللبناني سنة وحرب تموز وحروب غزة و2012 و2014، هذا غير الانتفاضات التي توجت بانتفاضة وانتفاضة الأقصى بعدها سنة، ومازال المسلسل جارياً.

4 - أثر المقاومة في المستعمِر:

رغم قلة عدد السكان الأصليين في أمريكا مقارنة بعدد المستعمرين الاستيطانيين، فقد كان للمقاومة الهندية أثرها رغم عدم نجاحها في وقف المد الأمريكي، ومما يدل على هذا الأثر اعتراف الجنرال فيليب شيريدان القائد الكبير في الجيش الأمريكي زمن الحرب الأهلية وما بعدها أن نسبة الإصابات في حملة التي تضمنت أكبر انتصار هندي على الجيش الأمريكي، فاقت نسبة الإصابات في الحرب الأهلية وفي الحرب العثمانية الروسية اللتين جرتا في نفس الفترة[12]، والمطلع على أهوال هاتين الحربين يدرك أبعاد تشبيه الجنرال، ولهذا شبه أحد الباحثين مكانة الحروب الهندية عند الأمريكيين بحرب طروادة[13] التي أثارت خيال اليونانيين القدماء أكثر من أي حدث آخر في تاريخهم بالإضافة إلى الرومان والأوروبيين كما تقول الموسوعة البريطانية، ولهذا ما يزال العقل الأمريكي مشغولاً بهذه الحوادث التي انتهت منذ أكثر من قرن ومع ذلك نشاهد كثيراً من المؤلفات الجديدة تطرح باستمرار عن أدق تفاصيلها.



معركة القرن الكبير Little Big Horn (1876) ذروة المقاومة الهندية المسلحة مازالت حية في الذاكرة التاريخية للولايات المتحدة

وأكثر مما أثرت المقاومة الهندية في الاستعمار الأمريكي، أثرت المقاومة الفلسطينية واللبنانية المدعومة عربياً وإسلامياً بالمحتل الصهيوني رغم الفوارق

(12) McDermott. ،1998، ص28.

(13) نفس المرجع، ص28.

التقنية الكبرى بين الطرفين، ويحلو لبعض المنهزمين التقليل من شأن المقاومة وأثرها، إلا أننا لا يمكننا تجاوز الخسائر التي لحقت بالكيان الصهيوني من الانتفاضة الأولى مما دفعه للبحث عن مخرج فنزل من عليائه ليفاوض الشعب الفلسطيني الذي كان ينكر وجوده سابقاً، ورغم هزال ما تحقق سياسياً فإن ورطة الصهيوني هي موضع استشهادي هنا وهي بادية لا تنكر، وكذلك ورطته في لبنان حتى خرج مدحوراً في ليلة مظلمة لا يلوي على شيء، ولا ننسى ما تكبده من خسائر من انتفاضة الأقصى حتى جن جنونه ولجأ إلى أصحاب القضية ليكفوه شر شعبهم مع الأسف بعد أن نال منه المنتفضون وأوقعوا بالمجتمع الصهيوني خسائر كبرى[14]، وفشله بعد ذلك في تحقيق أهدافه في حربين متتاليتين سنة وسنة، وهذا ما صنعته المقاومة رغم اختلال الميزان، ثم إنجاز المقاومة في صد عدوان 2014 حين قصفت الصهاينة من فوقهم وخرجت من تحت أرجلهم وزلزلت الأرض التي يقفون عليها وأصابتهم بالوساوس بخروج العمالقة من تحت كل بيت مما جعل التفكير يطرح على نطاق واسع بديل مغادرة هذا الكيان، والمعركة ما تزال مفتوحة ولما تحسم بعد.



صواريخ غزة تدك معاقل الصهاينة

ولأن المحتل لا يريد الاعتراف بسخط ضحيته التي يفترض أن تكون سعيدة به!، أو بسبب ما يعانيه من خسائر على يدها، فإنه يلجأ إلى إلقاء عبء المقاومة

(14) المسيري، 2002.

على أطراف خارجية كما فعل الأمريكيون حين عزوا مقاومة الهنود إلى تحريك أعدائهم الأوروبيين وبلغ الأمر أن سجل توماس جيفرسون في إعلان الاستقلال الأمريكي اتهام الملك البريطاني بإثارة "أولئك المتوحشين عديمي الرحمة من الهنود والذين لهم قاعدة معروفة في الحرب وهي قتل الناس بلا تمييز أو مراعاة لعمر أو جنس أو حال"[15]، ونكاد نقع على نفس التهم في الحالة الصهيونية تجاه "الإرهاب" الفلسطيني واللبناني الذي يقتل المدنيين "الأبرياء" بلا تمييز وتحركه إيران أو سوريا أو القاعدة أو أي خارجي وكأن أهل البلاد سعداء بالصهاينة لولا منغصات الدخلاء!

وفي الوقت الذي توصف فيه المقاومة بالتوحش أو الإرهاب يسبغ المحتل على إرهابه صفة البطولة فيطلق على ما يرتكبه من مجازر اسم المعارك، فقد أسبغ الأمريكيون-وما يزالون حتى بعد شعورهم الزائف بتأنيب الضمير-على مجازرهم مثل الركبة الجريحة (1890) وواشيتا (1868) وغيرهما صفة المعارك الذي يوحي بتقابل جيشين وليس بالهجوم على أبرياء عزل وقتلهم كما حدث فعلاً، في الوقت الذي يصورون هزائم جيشهم المعتدي على الهندي بصورة المجازر الوحشية التي يرتكبها السكان الأصليون ضد من يهاجمهم!! مثل معركة جراتان (1854) ومعركة فترمان (1866) وفي الحالتين هاجم الجيش الهنود في أرضهم مسيئاً تقدير قوتهم فأُبيد جنوده في القتال مما جعل الأمر في نظر الأمريكيين وكأنه مجزرة، أي أن المطلوب من الهندي تلقي الرصاص بحبور والقبول بالموت مستسلماً حتى لا يصبح مجرماً، كذلك جعل الصهاينة من مجزرة دير ياسين معركة، ويجعلون من جنودهم المعتدين ضحايا أبرياء.

5 - التحالف مع الجانب الأقل خطراً من القوى الكبرى:

ومن اللافت للنظر أن السكان الأصليين في أمريكا كانوا يتحالفون في معارك المصير مع الطرف الأوروبي الأقل خطراً على وجودهم وأرضهم، ففي حرب السنوات السبع بين فرنسا وبريطانيا(1754-1763) وقفت معظم القبائل

(15) أوروفسكي، 1998، ص19.

الهندية في مناطق النزاع إلى جانب فرنسا[16] التي كانت اهتماماتها التجارية أكبر من أطماعها الاستيطانية في الوقت الذي كان الإنجليز فيه يرعون مشروعاً استعمارياً استيطانياً كثيفاً في المستعمرات الأمريكية الثلاثة عشر وفي الأراضي الكندية أيضاً، ولهذا رأى الهنود أن الخطر الفرنسي على أراضيهم أصغر من الخطر البريطاني، ولما قامت الثورة الأمريكية سنة 1776 ضد الحكم البريطاني وضع الهنود ثقلهم مع بريطانيا ضد المستوطنين[17] لأنها أقل خطراً عليهم وعلى أرضهم بعدما حاولت لجم الاستيطان بالمرسوم الذي أصدره الملك جورج الثالث سنة 1763 .

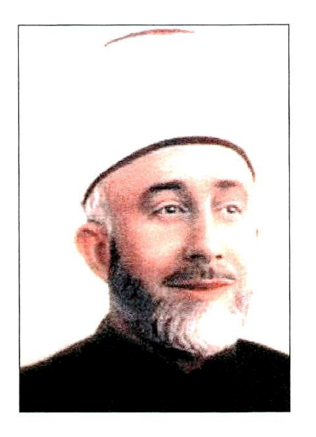
وهذا هو عين ما فعله أهل فلسطين وبقية العرب حين رأوا الخطر البريطاني أكبر من الخطر الألماني عليهم في الحرب الكبرى الثانية (1939-1945) ولهذا منحوا تأييدهم لألمانيا لعلهم يتخلصون من احتلال وقهر الحلفاء، ولم يكن من المنطقي أن يتخلوا عن مشاعرهم ليلبسوا مشاعر الرجل الأبيض المؤيد "للديمقراطيات" على حساب أنفسهم، وأية مطالبة لهم بعكس ذلك لا تدل إلا على غطرسة استعمارية لا تقيم وزناً لغير الغربي ومصالحه، كيف لا وقد كان من الصهاينة أنفسهم من رأوا في النازية منقذاً من القيود البريطانية فتحالفوا مع المحور ولم يكن ذلك عيباً عليهم ولم يمنعهم من الوصول إلى أعلى المراكز في الكيان الصهيوني كإسحق شامير رئيس الوزراء السابق[18]، وفي الحرب الباردة أيضا منح العرب تأييدهم للاتحاد السوفييتي الذي تبنى بعض حقوقهم مقابل المعسكر الغربي الصهيوني، ومن الجدير بالتذكر أن هذا التأييد كان سياسياً بدليل أن العرب استاءوا من الموقف السوفييتي من التقسيم سنة 1947 وأصبحت شيوعيته منبوذة في بلادهم ولم يمنحوه تأييدهم إلا في مرحلة تغير فيها موقفه من العدوان الصهيوني بعد أن تبين له بدوره أن الصهاينة أدوات غربية وليسوا طليعة اشتراكية.

---

(16) Prucha، 1995، ص21.

(17) نفس المرجع، ص39.

(18) برينر، 1985، ص327-332.



في الوقت الذي كرم فيه الكيان الصهيوني زعماء عصابة شتيرن التي خرجت عن موقف الأغلبية وتواطأت مع النازية ضد الحلفاء لمصلحة الكيان، مازال هناك من العرب من ينقد موقف الحاج أمين الحسيني الذي انسجم مع موقف أغلبية العرب وطلب مساعدة ألمانيا ضد القهر البريطاني، لا من باب عبثية التعاون مع أي غربي، بل من باب نقد الوقوف ضد الديمقراطيات، مهما أجرمت

6 - مقاومة الاحتلال بالوحدة:

أدركت ثلة محنكة من زعماء الهنود أن مواجهة الخطر الاستعماري الاستيطاني لن يحقق نتيجة ما دامت القبائل متفرقة يستفرد بها العدو واحدة خلف واحدة، ولهذا عمل هؤلاء الزعماء على توحيد القبائل تحت قيادتهم في مراحل متفرقة من تاريخ المقاومة، وتراوحت هذه الجهود بين وحدة شملت قبائل منطقة واحدة كتجربة الزعيم بونتياك في منطقة البحيرات العظمى (وتجربة الزعيم "الثور الجالس" في شمال السهول العظمى)، ووحدة حاول قائدها تكومسيه في بداية القرن التاسع عشر أن تشمل جميع القبائل شرق نهر الميسيسيبي من البحيرات العظمى شمالاً إلى خليج المكسيك جنوبا وأن تؤدي هذه الوحدة إلى قيام دولة للسكان الأصليين وظن أن بريطانيا ستدعم هذا الخيار لمواجهة أعدائها الأمريكان، ورفض الاتفاقات المنفردة بين القبائل والحكومة الأمريكية لأن الأرض ملكية عامة لجميع الهنود ولا يحق لطرف منفرد التنازل عنها.

وتذكرنا هذه المحاولات الوحدوية بشعار الوحدة الذي رفعته كثير من الجهات الرافضة لوجود الكيان الصهيوني في بلادنا سواء كانت وحدة بين قطرين أو وحدة عربية شاملة أو وحدة إسلامية، لأن الجميع أدركوا أننا لا نواجه الصهاينة اليهود وحدهم وأن وراءهم عالما غربيا داعما ولهذا فمن العبث مواجهتهم بإمكانات قطر هزيل لا يملك من أمره شيئا، وقد قامت تجارب وحدوية عديدة ولكن لم يتم لها النجاح حتى الآن رغم الحاجة الملحة لها، بل

لقد وصل الأمر بنا إلى تمني وحدة داخل القطر الواحد كوحدة الفصائل الفلسطينية مما يبدو حتى الآن بعيد المنال، ولكن علينا دائماً تذكر المصير الذي آل إليه الهنود الحمر دون الوحدة.



ازدهرت الممالك الفرنجية في المشرق في ظل الفرقة ولم تبدأ بالزوال إلا في ظل صيغ وحدوية بين الشام والعراق ومصر في العهود الزنكية والأيوبية والمملوكية (ويكيبيديا العربية)

7 - المقاومة بالعودة إلى الأصول:

اتضح للسكان الأصليين في أمريكا أنهم مستثنون من الحضارة التي جلبها الرجل الأبيض واعتدى بها على مجتمعاتهم، وأن ما نالهم من هذه الحضارة من الأذى الذي جلبته أوبئة البيض كالجدري والكوليرا والأنفلونزا بالإضافة إلى العادات المدمرة التي اكتسبوها من البيض كشرب الخمر، يفوق كثيراً ما استفادوه منها، كما أن الأمريكيين لم يقدموا لحلفائهم من الهنود ما يدعم موقفهم أمام قومهم، فلم يكافئوهم على تأدية خدمات في مناسبات حاسمة كالثورة الأمريكية

مثلا، واستهدفوهم بالعدوان كما استهدفوا غيرهم وطردوهم من أراضيهم وأذلوهم وقتلوهم ونكثوا عهودهم معهم كما فعلوا ببقية الهنود مقاومين أو مسالمين، ولهذا اتسمت مقاومة الهنود لهذا الطوفان بصفة العودة إلى فضائلهم قبل أن تلوثهم حضارة البيض، وبوصايا قادتهم بترك كل ما جاء به الرجل الأبيض وبخاصة شرب الخمر الذي أدى إلى نتائج كارثية أصابت النسيج الاجتماعي الهندي، وبعدما وصلت القبائل إلى آخر مراحل المقاومة ضعيفة منهكة وغير قادرة على مزيد من التحمل، لم يبق لها سوى أمل بطوفان يجتاح الرجل الأبيض ولا يترك على الأرض منه أحداً، وهذا ما جسدته حركة رقصة الأرواح التي انتهت بمجزرة الركبة الجريحة سنة وبها انتهت منطقة التخوم التي تفصل بين "المدنية" حيث الاستيطان الأمريكي و"الهمجية" حيث تقطن القبائل الهندية، وخضعت أراضي القارة كلها للطرف الأول.



ووفوكا Wovoka (جالساً في المقدمة) مؤسس ديانة رقصة الأرواح التي بشرت بزوال الرجل الأبيض وعودة الحياة الهندية إلى سابق عهدها وذلك بعد تلاشي الآمال بتحقيق الانتصار العسكري

ولعل هذا يماثل النبذ الذي عاملتنا به الحضارة الغربية حين احتلت بلادنا واستثنتنا من عالمها لصالح الاستغلال وحده، وهذا ليس سوء تصرف من الغربيين بل اتساق كامل مع وجهة نظرهم النفعية الحصرية في الحياة، ولكنه من جهة أخرى لم يسند موقف المتغربين الذين وجدوا مرجعيتهم تعادي بلادهم وتسلب أوطانهم وتنهب خيراتهم وهو ما اتضح بجلاء في فلسطين ولبنان حيث تتسم المقاومة بجلاء بالعودة إلى جذور هذه الأمة.

8 - مقاومة التقسيم:

بعدما انتهت الولايات المتحدة من حشر القبائل في محميات خاصة بها، ابتكر الاتجاه الإنساني مشروعاً يجسد اتفاقه الموضوعي مع التيار العدواني العام للسياسة الأمريكية، ولكن باسم نشر الحضارة، مما يلقي ضوءاً على كيفية المواءمة بين المبدأ والمصلحة في الحضارة الغربية، ويقضي هذا المشروع الذي سمي قانون دوز نسبة إلى واضعه والذي أقره الكونجرس في سنة بمنح كل عائلة هندية قطعة أرض لزراعتها وفتح بقية أرض القبيلة للاستيطان الأبيض، والهدف المعلن من هذا التقسيم هو استيعاب الهنود في المجتمع الأمريكي بنشر معايير التحضر الخاصة به، وهي الملكية الزراعية الخاصة، بينهم، ولم تكن موافقة أصحاب الشأن ضرورية لتطبيق هذا القانون، ولكن الحكومة رأت من الملائم الحصول على هذه الموافقة ما أمكن، وقد أشار بعض المخلصين في الكونجرس منذ البداية إلى خطر هذا الإجراء وأن هدفه الحقيقي سلب أرض الهنود ولكن كالعادة تُسكت المصلحة صوت الضمير، ولم يدخر الهنود في زمن انتهت فيه قوتهم العسكرية وسيلة ممكنة لمعارضة هذا الإجراء، وقدموا حجج معارضتهم القانون لممثلي الحكومة الأمريكية واتحدوا في موقفهم وحاولوا تأسيس حكومة تمثلهم وتتصدى لسلب أراضيهم، ولكن كل ذلك لم يجد، وكما تقول المؤرخة الأمريكية أنجي ديبو: "تم الحصول على صيغة ما من الموافقة من الهنود في جميع الحالات، سواء بالإقناع أو التهديد أو الخداع، وفي خلفية المشهد كانت السلطة جاهزة لتطبيق هذه السياسة (أي التقسيم) حتى دون موافقتهم"[(19)]، وفي دليل على اختلاف النوايا بين المصلح الإنساني الساذج الذي يمهد الطريق للسياسي المحنك الماكر، ظن الإنسانيون أن تطبيق قانون التقسيم سيبدأ بالقبائل الأكثر تحضرا واستعداداً لتقبل المعايير الأمريكية، ولكن ما حدث غير ذلك لأن الهدف الحقيقي للمشروع هو انتزاع الأرض من الهنود ولهذا بدأ التطبيق على الأراضي القبلية الأكثر جاذبية ورغبة من جانب البيض، وكانت النتيجة النهائية هي سلب ثلثي أراضي محميات الهنود وتركهم فريسة للفقر والحرمان وتدهور

---

(19) Debo، 1983، ص305.

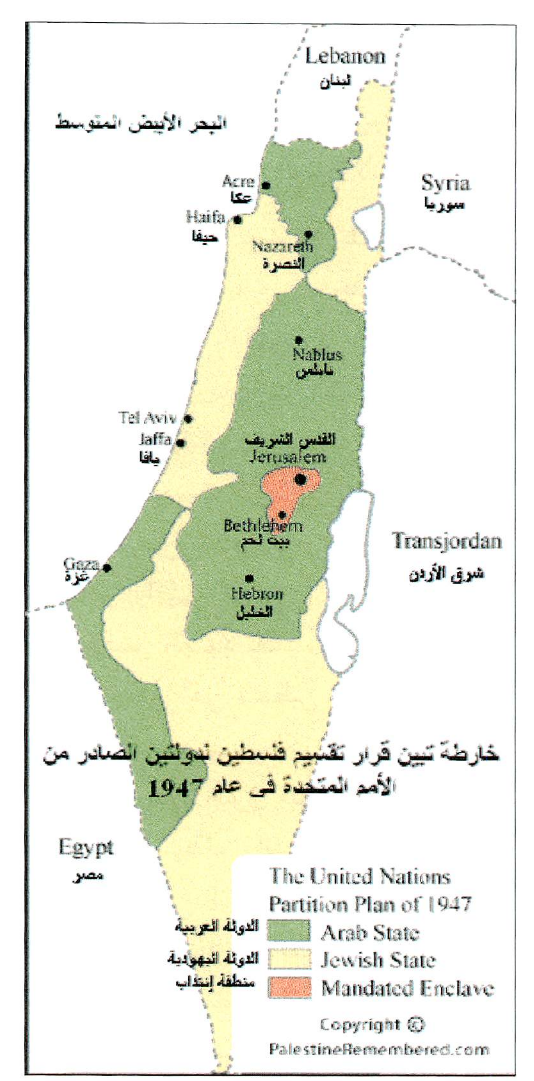
المعنويات والقضاء على حلم تأسيس ولاية هندية خاصة بهم[20]، وكشفت الحوادث أن الخلاف لم يكن على قيم كانت واضحة في ذلك الزمن ولكن الخلاف كان في درجة الطمع لا أكثر.

ويذكرنا هذا بمشروع تقسيم فلسطين سنة لإقامة كيان سيجلب الحضارة لبلادنا كما وعدونا، ولم يؤخذ فيه رأي أصحاب الأرض، وكان الهدف منه منح الصهاينة أراضي الفلسطينيين التي لم يكونوا يملكون منها سوى عُشر ما منحهم إياه المشروع، ومارست السياسة الخارجية للولايات المتحدة لإقراره في الأمم المتحدة من إقناع وتهديد وخداع ما مارست سياستها الداخلية قبل ذلك لإقرار تقسيم أراضي الهنود، وكما رفض الهنود تقسيم أرضهم رفض أهل فلسطين وقاوموا بكل قوتهم، ولكن الطوفان كان أقوى من قدراتهم البسيطة، وانتهى تطبيق المشروع إلى قذفهم بين أمواج المنفى والفقر والبؤس، وقضي على مشروع الدولة الفلسطينية وتم الاستيلاء على ثلاثة أرباع فلسطين كما في الحالة الهندية.



إعلان عن بيع أراضي الهنود المستولى عليها وفقاً لقانون دوز (1911)

(20) نفس المرجع، ص299 وما بعدها.



مشروع تقسيم فلسطين أدى إلى سلب ثلاثة أرباع البلد فيما بعد ومنحها للصهاينة[21]

موقف الرفض هذا الذي كثيرا ما وجه اللوم للشعب الفلسطيني على إضاعته فرصة ذهبية بإتباعه، هو الموقف الطبيعي لأي شعب يعيش على أرضه، ولو فعل الفلسطينيون العكس وسلموا بإعطاء جزء كبير من وطنهم للصهاينة " لكان تصرفهم هذا لا سابق له في التاريخ البشري على الإطلاق "[22] كما يقول مؤيد للكيان الصهيوني، مستشهدا بقول وزير الخارجية الصهيوني الأسبق آبا إيبان(حين قال: " كان من المستحيل بالنسبة لهم إعطاؤنا ما طلبنا، لو خضعوا للصهيونية بخنوع لكانوا أول شعب في التاريخ يتنازل برضاه عن وضعية الأغلبية التي يملكها "[23]، ومع كل هذا مازال هناك من بني جلدتنا من يتباكى على التقسيم ويطالب شعبه بأن يكون استثناء في الهزيمة والاستسلام بالقبول بهذا التنازل.

(21) http://www.palestineremembered.com/Articles/ArabicMaps/Story2527.html

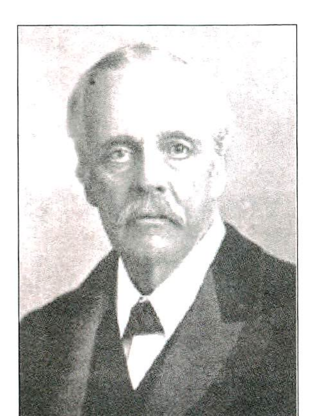
(22) ليفن، 2008، ص486.

(23) نفس المرجع، ص487.

9 - مقاومة التلاعب بالمصائر بجرة قلم من المستعمر:

طالما احتقر الغربيون غيرهم من الشعوب حتى عندما يتصارعون فيما بينهم ويتخذون حلفاء من غيرهم، فبعد انتهاء حرب السنوات السبع (بين بريطانيا وفرنسا، والتي طالت في أمريكا الشمالية تسع سنوات (وسميت الحرب الفرنسية والهندية، عقدت معاهدة باريس سنة وفيها تخلت فرنسا عن ممتلكاتها لبريطانيا ولكنها لم تدرج وضع حلفائها الهنود في أي بند من بنود المعاهدة، ونقلتهم مع أراضيهم إلى عهدة السيد الجديد كأنهم متاع من الأمتعة، وتكرر المشهد بعد الثورة الأمريكية حينما تخلت بريطانيا عن حلفائها الهنود في معاهدة باريس سنة ولم تدرج لهم ذكراً في بنودها، وكان من الطبيعي أن يرفض الهنود هذا التلاعب بمصائرهم " في حفلة شراب"[24] بين الكبار كما وصفها أحد زعماء الهنود، وأن تستمر ثورتهم حتى بعد أن تخلى حليفهم القوي عنهم في كل من المرتين، وفي هذا رد على من كان يتهمهم بأنهم مجرد أدوات تحركها أوروبا في صراع النفوذ على القارة، فصاحب الأرض والحق ليس بحاجة لمن يحركه دفاعا عن نفسه، ولكن المنطق العنصري الغربي لم يكن يولي أهمية لغير العنصر الأوروبي ويظن أن جميع الشعوب الأخرى لا إرادة لها.

ولما منح بلفور فلسطين لليهود بقصاصة ورق سنة ثم منحت لهم دولة عليها في تقسيم وفي تقسيم بجرة قلم في كل مرة، رفض أهلها كل هذا التلاعب الاستعماري بأرضهم وحملوا السلاح لمقاومته والدفاع عن أنفسهم ضد هذه الغطرسة التي لا تقيم وزنا إلا لمصالح المستعمرين الكبار، وما زال شعب فلسطين يرفض كل صفقات "حفلات الشراب" التي تقرر مصائر الشعوب أثناء سكر الساسة وثملهم.



الوزير البريطاني آرثر جيمس بلفور منح فلسطين بقصاصة ورق للصهاينة

(24) Calloway، 2006، ص169.

10 - تقديم حلول عقلانية لمشاكل الاستيطان ورفض المعتدين لذلك:

الاستعمار الاستيطاني هو جوهر التجربتين الأمريكية والصهيونية، ولهذا ليس من الغريب أن يحتل المستوطنون مركز القلب في المشروعين، وللمؤرخ الأمريكي فريدريك جاكسون تيرنر ("نظرية التخوم" التي يؤكد فيها أن وجود أرض خالية يتقدم فيها الاستيطان الأمريكي باستمرار نحو الغرب يفسر تطور أمريكا، وأن الشخصية الأمريكية "الفريدة" هي محصلة خبرة هذه التخوم، وقد كان لهذه النظرية أصداء واسعة وتأثيراً كبيراً على الدراسات التاريخية في هذا الحقل[25]؛ كما أن الكيان الصهيوني كان يعطي الاستيطان أهمية قصوى حتى أنه وصف على لسان القادة الصهاينة بأنه "أكسير الحياة" و"جوهر العمل العبري" وأن " الحكومة ليست حكومة قانون فقط، بل هي حكومة استيطان أيضاً" وأن الاستيطان "يعلو فوق القانون"[26].

وفي بعض مراحل الصراع عندما كان الاستيطان على التخوم يؤلف مشكلة حين يخترق أرض الهنود وتتدخل الحكومة لحمايته وعرض مبالغ مالية على الهنود لبيع أرضهم لصالح المستوطنين، كان الهنود يجيبون بحل عقلاني للمشكلة: منح هذه المبالغ إضافة لنفقات الجيش المرسل لإخضاع الهنود، للمستوطنين بدلاً من أراضي الهنود التي اغتصبوها، وفي هذه الحالة سيرضى الهنود ببقاء أراضيهم التي يعيشون منها وعليها، وسيرضى المستوطن الفقير بدلاً من العيش بين الأخطار في التخوم[27].

وفي تاريخ القضية الفلسطينية كان أصحاب القضية يتقدمون بحلول مماثلة للمشاكل التي أوجدها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، وفي الدورة الثانية عشر للأمم المتحدة (طرح موضوع اللاجئين وإنهاء عمل وكالة الغوث بدعوى جعلهم يتكلون على أنفسهم، فاقترح الأستاذ أحمد الشقيري رسمياً اقتراحاً مؤقتاً يزيل عبء اللجوء عن اللاجئ وعن بقية العالم وهو تعيين أمين دولي على ممتلكات

---

(25) New Standard Encyclopedia، 1999، ج17، صT-470.

(26) قهوجي، 1978، ص139.

(27) Jacobs. ، 1985، ص76.

اللاجئين في فلسطين المحتلة لإدارتها وتلقي عائداتها ودفعها لأصحابها[28]؛ ولأن الحلّين الهندي والفلسطيني كانا يتجاوزان الطبيعة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية للكيانين، فإنه لم يؤخذ بهما ليستمر الصراع بعدهما زمناً طويلاً على ما هو عليه.

11 - إدراك طبيعة الصراع ورفض الاستسلام:

المشروع الاستيطاني الإحلالي مشروع استئصالي لا مكان فيه لشعبين إلا بصفة الضحية أقلية متحفية تزين حديقة الحيوان "التعددية" للمستعمرين الاستيطانيين، ومن الأدلة المثيرة على ذلك قيام السلطات الأمريكية بإنقاذ ثور البيسون من الانقراض بعد حملات الإبادة العنيفة التي شنت عليه لإخضاع الهنود المعتمدين عليه في معيشتهم، وكان الذي تولى القيام بحملة الإنقاذ هو نفس الجنرال فيليب شيريدان[29] الذي دعا في الماضي بحماس لإبادة هذه الثيران، كما يحاول الأمريكيون اليوم منح الهنود المتبقين تنازلات سطحية بعد زوال خطرهم، مثل إعفائهم من الضرائب، وكأنهم يملكون ما يدفعون ضرائب عليه، ومنحهم اسم الأمريكيين الأصليين بدلاً من اسم الهنود الحمر وغير ذلك مما لا أثر عملياً له، كما يفاخر الصهاينة في بعض المواقف السياسية "بتعددية" مجتمعهم مثلما فعل رئيس الوزراء السابق إسحق شامير عندما فاخر بأن كيانه يضم المسلم والمسيحي واليهودي والملحد أيضاً، في محاولة للمزايدة على المجتمعات العربية التي لا تجاهر بضم الملحدين، وقد جاء هذا الاستعراض الإعلامي الفارغ بعد أن دمر شامير وأتباعه المجتمع الفلسطيني وأبعدوا معظم الفلسطينيين عن بلادهم.

وقد أدرك كثير من الهنود بعد زمن من معاشرة الرجل الأبيض أن صراعهم معه صراع وجود لا صراع حدود، واشتهرت في هذا المجال خطبة الزعيم تكومسيه في بداية القرن التاسع عشر محرضاً القبائل على الوحدة لمواجهة عدوها المشترك ومذكراً إياها بعبرة من سبق: "أين هي اليوم قبيلة البيكوت؟ أين هم

(28) الشقيري، ج5، ص3943.

(29) Ward، 1996، ص406.

الناراغانست؟ الموهيكان... والقبائل الأخرى العديدة التي كان لها شأن بين قبائل شعبنا؟ لقد تلاشوا أمام جشع وقمع الرجل الأبيض كما يتلاشى الثلج تحت شمس الصيف؛ هل سنسمح بأن ندمر دون كفاح منا، وأن نتخلى عن بيوتنا وأرضنا التي وهبتها لنا الروح العظمى؟ أن نتخلى عن قبور موتانا وكل ما هو عزيز ومقدس لدينا؟ أعلم أنكم ستصرخون معي: أبداً، أبداً"[30]، كما لخصت واحدة من سكان الجنوب الغربي في بداية القرن العشرين المشهد الصراعي بالقول: " نعم، نحن نعرف أنكم عندما تأتون، نموت"[31]، وظل الهنود يقاتلون أمام التراجع المستمر "للحدود الهندية الدائمة" التي تعدهم السلطات بها في كل مرة ولكنها يمكن أن تكون أي شيء إلا دائمة، ومع هزيمة المقاومة المسلحة في نهاية القرن التاسع عشر مازال الهنود يكافحون للحصول على حقوقهم في أراضيهم وثرواتهم ومواردهم إلى درجة رفع السلاح كما فعلوا في نهاية ستينيات وبداية سبعينيات القرن العشرين، ويلخص أحد زعماء قبيلة كري في كندا رأي قومه بالقول: "نحن نعلم أن بقاءنا مرهون بالكفاح في سبيل حقوقنا، وإذا استسلمنا، نموت"[32]، وربما ليس هناك ما يدل على إصرار شعب فلسطين ومن خلفه محيطه الحاضن على المقاومة من هذه الكلمات ومن رفضه الثابت كل مشاريع التسوية على حساب حقه في وطنه ومن رفع حركات المقاومة شعار أن الصراع مع الكيان الصهيوني هو صراع وجود لا صراع حدود رغم الفارق الكبير في القوة لصالح العدو وتراجع الأرض الفلسطينية والعربية أمام زحف الاستيطان.

12 - المواجهة الحضارية وعدم الانبهار بالمدنية:

لم تمنع بساطة المفاهيم الحضارية لسكان أمريكا الأصليين من مواجهتهم حضارة الأمريكيين بسلبياتها التي انعكست عليهم مضاعفة بعدما استُثنوا من إيجابياتها واتضح لهم أنه لا مكان لهم فيها، وقد طرح الهنود رفضهم وتحديهم الحضاري من منطلقات فطرية بسيطة ولكنها ذات مدلولات مازالت تطرح إلى

(30) براون 1982، ص7.

(31) McLuhan، 1986، ص125.

(32) نفس المرجع، ص169.

اليوم إضافة لمواقفهم البيئية من الطبيعة التي اكتسبت أهمية متزايدة في النصف الثاني من القرن العشرين، ومن أقوالهم في هذا المجال ما ينتقد سلوك المبشرين الذين ما كانوا ليهتموا بآخرة الهندي لو لم يكن في حوزته أرض تسلب منه، والذين يتصارعون فيما بينهم على حقيقة الخالق ويختلفون بشأن الديانة التي يريدون من غيرهم الاستنارة بها، وينصحون بالعمل والكد في الوقت الذي لا يمارسون هم عملاً سوى الصلاة، كما لا يمكن الوثوق بصدق كلامهم بعد سيل الأكاذيب التي أتت من الرجل الأبيض؛ وانتقد الهنود معاهد التعليم الأبيض التي تخرج أجيالاً لا تنفع مجتمعاتها الأصلية ولا تصلح في الوقت نفسه للسير على طريق حياة من علموها، ومن الانتقادات الهندية لحياة الرجل الأبيض كذلك رفضهم سكناه في بيت مغلق يحجب النور والهواء عن الإنسان وارتداءه ملابس غير صحية وامتلاء مجتمعه بالفقر والبغاء والغش وعبادة المال والإسراف في استهلاك موارد الطبيعة بما يزيد عن الحاجة، بالإضافة إلى عدم إنصاف الهندي الذي ساعد البيض في بداية قدومهم فأهدوه الخمر ليسمم حياته، ومن النقد السياسي التركيز باستمرار على نقض العهود الذي أفقد الهندي الثقة بما يقال له، ورفض الأكاذيب التي يدلي بها الساسة، والشكوى من عدم إعطاء الهنود فرصة لتعلم حياة البيض في الوقت الذي يدعون فيه الحرص على تحضره وتعليمه، ولهذا يفضل الهندي الموت هندياً على الحياة كالرجل الأبيض، ولكن هذا لا يمنع من أخذ ما عند البيض من حسنات؛ ومازالت المجتمعات الهندية في شمال أمريكا تصر على إحياء تراثها والتمسك به حتى بعد الهزيمة العسكرية.



الاحتفالات الهندية Powwows من طرق التمسك بالهوية الأصلية

هذا النقد وأعمق منه، بما يتناسب مع العمق الحضاري الإسلامي، وجدناه في المواجهة مع الكيان الصهيوني والحضارة الغربية، وتصر قطاعات واسعة من مجتمعاتنا على النهوض باستمداد العون من الجذور الحضارية لأمتنا بعيداً عن الآثار السلبية للغرب مع القبول بإيجابياته، وقد طرحت كثير من مشاريع النهضة الحضارية الإسلامية التي ربما مازالت في أول طريقها ولكنها ماضية بعزم لا يلين، وإذا كان المجتمع الأصلي في أمريكا مصراً على التمسك بتراثه وجذوره، فهذا درس لمن يملك زاداً أكثر تركيباً أن يحذو الحذو نفسه.

13 - الهجرة واللجوء:

لم ينجح الهنود في مقاومة السيل الاستيطاني الجارف، ولم يكن سبب هزيمتهم نقص شجاعتهم بل تفوق عدوهم في العدد والعدة واستعانته بأسلحة ضربت الهندي تحت الحزام كالخمر والأوبئة[33]، ورحّل الهنود في النهاية عن أوطانهم بقوة السلاح وعاشوا في أراض غريبة لاجئين، وكثيرا ما كانت رحلة الهجرة واللجوء مسلسلاً لا يتوقف إلا عندما لم يعد هناك غرب يُرسل الهنود إليه، واليوم تعيش الغالبية العظمى من القبائل الهندية بعيداً عن مواطنها الأصلية بمسافة تصل أحياناً إلى نصف القارة[34]، وإضافة إلى المحميات الرسمية تعيش نسبة كبيرة من الهنود تصل إلى الثلث في تجمعات غير معترف بها رسمياً مما يحرمها من الحقوق والخدمات[35].

وعلى الجانب الفلسطيني رأينا ما أن القوة الماحقة التي واجهها أهل فلسطين اضطرتهم إلى ترك ديارهم واللجوء إلى بلدان الشتات التي قد تفصلها عن بلدهم قارات واسعة، وقد قام كثير من اللاجئين برحلة اللجوء عدة مرات: 1948 ثم 1967 ثم 1970 ثم 1976 ... إلخ، يبني أحدهم بيتاً ليُهدم على رأسه أينما ذهب، وكما يعيش معظم الهنود اليوم بعيداً عن أوطانهم يعيش معظم أهل فلسطين في الشتات، ومن الطريف أن يصل الشبه إلى حد العيش في تجمعات

(33) Jacobs، 1985، ص165-166.
(34) Marquis، 1987، ص12.
(35) Vine Deloria.، 1985، ص44.

غير معترف بها في فلسطين المحتلة سنة 1948 حيث تحرم من الحقوق الأساسية والخدمات[36].

14 - الاضطرابات الاجتماعية الناتجة عن الترحيل:

عندما رحّلت السلطات الأمريكية هنود الشرق إلى الغرب للاستيلاء على أراضيهم، أسكنتهم في أراض تتبع قبائل هندية أخرى، وقد نتج عن هذه الهجرة الكبرى احتكاكات بين القادمين الجدد، وهو ضحايا الأمريكان، وأصحاب الأراضي الأصليين الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة أعداد ضخمة من المهجرين الذين يختلفون عنهم في الصفات الاجتماعية والذين لم يكن لهم يد في مصيبتهم.

هذا الوضع أدى إلى اضطرابات بين الطرفين الهنديين وصل إلى حد القتل المتبادل الذي ما زالت آثاره حية اليوم بعد ما يقارب القرنين[37]، وهو يشبه إلى حد كبير اضطرابات وقعت بعد نكبة فلسطين بين اللاجئين والبلاد التي استضافتهم ولم يكن لها يد في الكارثة التي أوقعها الصهاينة بهم، وبهذه المقارنة نضع هذه الحوادث في حجمها على أنها أثر اجتماعي طبيعي للهجرات الكبرى وتتطلب علاجاً حكيماً من جميع الأطراف وعدم تضخيمها كي لا يستغلها القائمون على المشروع الصهيوني والمستفيدون منه الذين يحلو لهم التلاعب ببلادنا وأهلها لاستقرار مشروعهم إلى حد طرح تهجير يتلو آخر، وكأننا بيادق شطرنج بأيديهم، وذلك كي ينفرد الصهاينة بفلسطين، ومما طرح في هذا المجال مبكراً المشروع الصهيوني لإقامة الوطن الفلسطيني البديل في شرق الأردن، ثم بعد اندلاع الحرب الأهلية في لبنان طرح كيسنجر وزير الخارجية الأمريكي السابق مشروعاً لتهجير المسيحيين من وطنهم وذلك لإنهاء مشكلتهم وتوطين الفلسطينيين بدلاً منهم، وهو مشروع قديم منذ فكر الفرنسيون مرتين بعدما أثار الغرب الفتن في لبنان (1840 و1860) بتهجير الموارنة إلى الجزائر لاستخدامهم أداة في السيطرة الاستعمارية عليها[38]، وهي مشاريع تشبه إلى حد كبير ما فعلته

(36) حيدر، 1997، ص56.

(37) Vere، 2000.

(38) Kuafman، 2004، ص29.

السلطات الأمريكية في المسألة الهندية عندما كانت ترحّل قبيلة من موطنها لإسكان قبيلة أخرى مرحّلة أيضا ليستولي البيض على وطنها[39].



أحداث أيلول 1970 في الأردن[40]: التوتر بين اللاجئين والبلاد المضيفة ظاهرة طبيعية سبق ظهورها في المجتمعات الهندية الأمريكية وسببها الرئيس هو الظلم الذي يرتكبه المستوطنون الأغراب بسرقة أوطان ومحاولة تعويض الضحايا بأوطان ضحايا آخرين

15 - ظهور حزب السلام:

تنوعت ردود الفعل الهندية على الهجمة الاستيطانية الأمريكية، ومثل كل المجتمعات التي تعرضت لظروف مماثلة، كان هناك من اختار مسالمة الوافدين الجدد، سواء لقناعته بتفوقهم في القوة على مجتمعه الأصلي، أو لانبهاره بأسلوب حياتهم، وتنوع الطيف المسالم بين راغب في أن يُترك وشأنه يعيش حياة أسلافه ولا يزعج البيض في شيء، وراغب في السير على طريق الرجل الأبيض وتبني أساليبه في الحياة، وتنوع هؤلاء بدورهم في سرعة التغير بين من تبنوا هذه الأساليب بسرعة وكفاءة ومن طلبوا وقتاً للتلاؤم مع الظروف الجديدة.

وتنبئنا الحصيلة النهائية للتجربة الهندية المسالمة والمستسلمة أيضاً أنه في

(39) Debo، 1983، ص210.

(40) http://fanack.com/typo3temp/pics/refugees_jordan_fedayin_1970_keystone_hh_02854178_01_1ca73e940f.jpg

ظل وجود خطة واضحة عند الطرف الغازي بالاستيلاء على الأرض، وفي ظل اختلال ميزان القوى بشكل حاسم لصالحه، يصبح الحديث عن السلام غير ذي أهمية في تقرير مصير صاحبه، سواء من يريد أن يترك بسلام وشأنه أو من يريد التحضر، حتى لو سابق الوقت وحرق المراحل في هذا السبيل فلن يجديه شيئاً وسيكون التدمير هو مصيره وستعلن الحرب عليه كما تُعلن على المحارب والمقاوم، لأن الظروف الموضوعية لصاحب المشروع هي التي تقرر سير الأحداث في ظل عجز الضحية عن فرض إرادتها، ولهذا كم من مسالم قُتل وكم من مهادن ذُبح وكم من متحضر دُمرت تجربته وكم من مسيحي مُسح عن وجه الأرض، ويبدو واضحاً من نهاية المأساة أنه لم يكن هناك فرق في المصير بين المحارب الهندي والمسالم وأن الاقتلاع شمل الجميع.

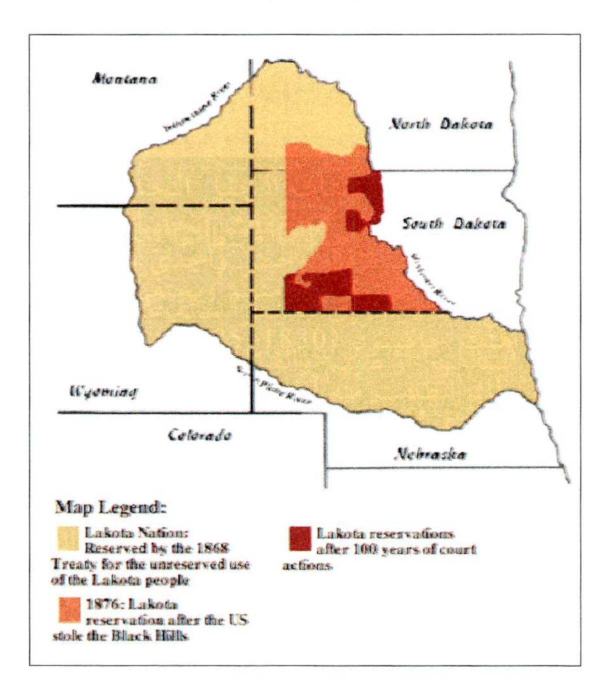
وهذا العرض يذكرنا بما حصل في فلسطين حين اختار قسم من زعمائها مسالمة الانتداب البريطاني والعمل تحت مظلته لنيل الحقوق، فلم يكن ما أصاب المسالم في النهاية مختلفاً عما أصاب المقاوم، وكانت ظروف الطرف الصهيوني المعتدي هي التي قررت مصير الجميع، لم تنفع المسالمة صاحبها ولم تضر المقاومة حامل رايتها، وهذا ما نراه سارياً إلى اليوم حين يُقتل المسالم كما يُقتل المحارب، وربما فشل السلام في النجاة أكثر من فشل المقاومة التي تجبر من لا يفهم سوى لغة القوة على التراجع أمام زخمها وقوتها، وحتى لغة السياسة دون هذه القوة لا معنى لها ولا نتيجة أيضاً وتترك صاحبها تحت رحمة من لا يرحم كما هو ظاهر لنا جميعا.

16 - التمسك بالمعاهدات والمواثيق:

يلجأ الطرف الضعيف، الذي لا يملك القوة لفرض مطالبه، إلى التمسك بنصوص المعاهدات والاتفاقات والقرارات التي تحفظ حقوقه أو شيئاً منها، نظرياً، لعلها تعيد إليه هذه الحقوق أو تحفظها من الانتهاك، وفي هذا يشهد الجنرال جورج كروك، وهو من أشهر القادة الذين قاتلوا الهنود، بأنه لا يعرف حالة كان الهندي هو البادئ فيها بنقض المعاهدات[41]، ومازال السكان

(41) Brandon، 1985، ص379.

الأصليون في أمريكا يطالبون إلى هذا اليوم بالالتزام بأكثر من 370 معاهدة عقدت معهم وانتهكها الجانب الأمريكي، وهذا يناظر إلى حد بعيد مطالبتنا المستمرة بتطبيق القرارات الدولية التي صدرت بشأن القضية الفلسطينية بالإضافة إلى الطلب إلى الجانب الصهيوني تطبيق ما نصت عليه الاتفاقات العديدة التي عقدت معه منذ اتفاقية أوسلو.



سلسلة خسائر الهنود من قبيلة سو Sioux في المعاهدات المتعاقبة والتي يفترض في كل واحدة أنها نهائية ومازالت القبيلة تتمسك ببعض يسير مما ضمنته معاهدة 1868

17 - الخروج من عملية السلام صفر اليدين:

لم تحم المفاوضات حقوق السكان الأصليين في أمريكا، فقد انتهك الجانب الأمريكي جميع المعاهدات التي عقدها معهم واستولى ومازال على ما يرغب به من حقوقهم سواء كانت أراض أم ثروات طبيعية، وقد كان لقضيتهم أثناء سنوات المواجهة عمليات سلام مثل التي للقضية الفلسطينية، دخلها بعضهم أملاً في تحقيق مكاسب لقومهم بالسياسة الرسمية بدلاً من الحرب، ومن أشهر هذه العمليات تعيين العقيد إيلي باركر، من قبيلة الإيروكوي، مفوضاً عاماً للشئون الهندية، وهو أعلى منصب في هذا المجال، لتطبيق "سياسة السلام" التي دشنها

الرئيس يوليسيس غرانت)، الذي وصف بأنه أعظم الأبطال العسكريين وأكثرهم شعبية منذ جورج واشنطن[42]، وكان الهدف من سياسته السلمية وقف العداء بين السكان الأصليين والأمريكيين والعمل على تحضر الهنود بتعيين رجال كنائس نزيهين في المحميات بدلاً من الوكلاء الفاسدين، وقد حاول باركر إيجاد تفاهم بين الهنود والحكومة ودعا زعماء لزيارة واشنطن وتصدى لاختراق أراضيهم للبحث عن الذهب وبهذا أصبح طول فترة وظيفته عرضة للدسائس من قبل العصابة الحاكمة، فمرة يحرجه الكونجرس بتأخير المساعدات السنوية التي يعتمد الهنود عليها في معيشتهم، وأخرى يقدم للمحاكمة بثلاث عشرة تهمة فيخرج بريئاً منها جميعاً، وثالثة يشهر به في الصحف ويوصف بالوثنية والتوحش، ولهذا استقال بعد سنتين فقط في صيف، لأنه أصبح " صخرة إزعاج" كما قال[43]، وفي تقويمه لسياسة الحكومة قال: "إن الرجل الأبيض هو العقبة الرئيسة في طريق تحضر الهنود"[44]، وكانت نتيجة "سياسة السلام" هي "جهود لدفع القبائل المختلفة نحو أراض محددة بعيدا عن أوطانهم، وفشل في حمايتهم وإطعامهم ... وأثناء السنوات العشرين التي حاولت فيها الحكومة تطبيق سياسة السلام انفجرت بعض أكثر الحروب الهندية دموية وكلفة"[45]، وعلى الجانب الأمريكي كان هناك من يحاول إحراز المكاسب للهنود بواسطة السلام مثل الجنرال جورج كروك الذي وصف بأنه أعظم مقاتل للهنود شهدته الولايات المتحدة[46]، ومع شراسته في قتال الهنود على أرض المعركة، كان من أفضل أصدقائهم في المحاكم[47]؛ هذا الجنرال الذي حاول أن يحقق للهندي بالسلام ما لم تحققه الحرب مات سنة من أساه لخيانة الحكومة تعهداتها للهنود والتي كان هو أحد القائمين عليها[48].

(42) Slotkin، 1998، ص6.
(43) براون، 1982، ص135-147.
(44) Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde، 1998، ص281.
(45) Hoxie، 1996، ص474.
(46) Debo، 1983، ص273.
(47) Mcdermott، 1998، ص106.
(48) Hyde، 1993، ص280.



إيلي باركر

مسيرة إيلي باركر تذكرنا بمسيرة الأستاذ أحمد الشقيري في الأمم المتحدة دفاعاً عن قضية فلسطين، إذ عمل رئيساً للوفود العربية الفلسطينية والسورية والسعودية في سنوات، وعيِّن أميناً عاماً مساعدا لجامعة الدول العربية سنة، ثم تولى تمثيل فلسطين ورئاسة منظمة التحرير في الفترة، وكانت هذه حصيلة تجاربه:

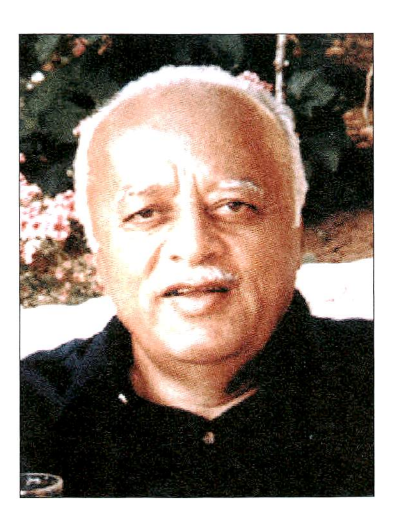
- "أي معنى لهذا الحوار في الأمم المتحدة وقد امتد بيني وبين إسرائيل خمسة عشر عاماً طوالاً، لقد مرغت وجه إسرائيل في الأمم المتحدة ولكنهم يمرغون وجوه العرب في الوطن، ولقد أحسست أنه لم تعد هنالك جدوى من الأمم المتحدة"[49].
- "إننا نضيع في الأمم المتحدة أربعين عاماً كما تاه بنو إسرائيل في سيناء، إذا كنا نظن أن الأمم المتحدة ستخرج إسرائيل من الأراضي العربية"[50].
- "في مؤتمر القمة الرابع في الخرطوم عام ابتدع الملوك والرؤساء شعار الحل السلمي والسياسي... وانسحبت من المؤتمر لأسباب... منها أني أفنيت زهرة عمري في الأمم المتحدة ولم أجد شيئاً اسمه الحل السلمي السياسي إلا في إطار الهزيمة وتحت وطأة الاستسلام"[51].

(49) الشقيري، 2006، ج1، ص711.
(50) نفس المرجع، ج1، ص915.
(51) نفس المرجع، ج1، ص929.

- "إنه لا جدوى من الأمم المتحدة"[52].
- "إن الأمم المتحدة لن تعيد إليكم شبراً واحداً من الأرض العربية المحتلة"[53].
- "أعتذر عن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي العامة عبر أربعين عاماً من عمري كله، ذلك الخطأ الكبير هو أني سرت مع الملوك والرؤساء في مسيرة الأعوام الأربعة التي انتهت بحرب الأيام الستة، ذلك الخطأ الكبير هو أني صدقت الملوك والرؤساء في عام يوم انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة ثم سرت في ركبهم في مؤتمر الإسكندرية وبعده في مؤتمر الدار البيضاء وأخيراً في مؤتمر الخرطوم، وحمدت الله أني انسحبت من هذا المؤتمر غير آسف ولا نادم"[54].

ترى لو قدر للرئيس ياسر عرفات رحمه الله الحديث اليوم، هل ستخرج كلماته عن هذا الإطار؟

وبعد هذا الاستعراض لنقاط التشابه بين المشروعين الصهيونيين الاستيطانيين في أمريكا وفلسطين على صعيد سياسة المحتل(في الجزء الأول) ومقاومة الضحية (في هذا المقال)، ماذا نستنتج نحن من التجربتين؟ وكيف نستفيد منهما في التعامل مع عالم سادت فيه حضارة الغزاة؟



الأستاذ أحمد الشقيري

(52) نفس المرجع، ج2، ص1898.
(53) نفس المرجع والصفحة.
(54) نفس المرجع، ج2، ص1222.

الفصل الثاني والعشرون

أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل

(1)

استنتاجات تاريخية عن الرموز الأمريكية
من واقع المواجهات الحضارية

مقدمة

آمن المهاجرون الأوروبيون الأوائل منذ بداية الاستيطان في أمريكا أنهم يؤسسون نموذجاً حضارياً فريداً تتطلع إليه الأمم بإعجاب، واقتبسوا لوصفه تشبيهاً إنجيلياً تكرر استرجاعه كثيراً هو المدينة على تل تنير العالم، وتجسيداً لهذه الاستثنائية أقيم نصب يمثل رموز الأمة الأمريكية على جبل راشمور في داكوتا، فهل حقاً أن الأمة الأمريكية كانت استثناء بين الأمم؟ وما هو مصدر الإجابة على هذا السؤال؟

إن معاملة السكان الأصليين تكشف وجهاً آخر للتجربة الأمريكية التي اكتسبت وجهاً براقاً عند شعوب كثيرة قبل أن تمتد ذراعها خارج القارة، وغفل كثيرون عن كشف الحقيقة إلا بعد فوات الأوان وإصابتهم بالأذى الذي سبق أن أصاب غيرهم، ومن العجيب أن تبدأ شعوبنا تجربتها مع الولايات المتحدة بالمطالبة بانتدابها على بلادنا إلى أن نصل سن الرشد، وتنهيها بحرق أعلامها في الشوارع العامة، رغم أن أمريكا صاحبة الشأن لم تتغير ومازالت كما هي منذ البداية كما تبين هذه الدراسة.

الاستنتاجات

1 - حقيقة رسل الديمقراطية وأنبياء الحرية ومؤسسي الجمهورية:

في الكيانات الاستعمارية الاستيطانية التي تمثل فيها الحكومة مصالح مجتمع المستوطنين الذين يسعون لامتلاك أراضي السكان الأصليين يكون أداء الحاكمين موزوناً بسعيهم لتحقيق هذه المصالح، أي الحصول على الأرض، ومن ثم فلا عجب أن يتناسب رضا المستوطنين عكسياً مع رضا السكان الأصليين، فكلما تقدم الاستيطان رضي المستوطن وقدر عمل الحاكم عالياً، وفي نفس الوقت غضب الساكن الأصلي وقاوم، مما يحفز رد الحكم الاستيطاني الذي "يدافع" عن مواطنيه، وكلما اشتد في قمع المقاومة وإزاحتها زاد رضا المستوطنين عنه، وفي الأنظمة الديمقراطية الاستيطانية حيث يكون الاهتمام بالسكان الذين يملكون الأصوات الانتخابية في نفس الوقت الذي يُحرم فيه السكان الأصليون من حق التصويت، لا يكون من العجيب ضياع حقوق الأهالي لصالح المستوطنين.

وبناء على ما سبق نجد من دراسة التاريخ الأمريكي أن الرؤساء المشهورين والمحبوبين كانت لهم بصماتهم السلبية على مجتمع الأهالي الأصليين، بل إن منهم من وصل منصب الرئاسة بناء على سجله في قمع الهنود كالرئيس التاسع وليام هاريسون والرئيس السابع أندرو جاكسون ولم تخل العهود الأخرى من هذه "المآثر" كما سنرى، وكلما علت مكانة رئيس اكتشفنا أنه كان أشد في معاملة الهنود من غيره، ولو تفحصنا تواريخ الرؤساء الذين عُدوا رموزاً للأمة الأمريكية ونقشت تماثيل لهم على جبل راشمور في ولاية داكوتا الجنوبية ويهمنا منهم واشنطن وجيفرسون ولنكولن الذين عاصروا الحروب مع الهنود، لوجدنا بداية معلومة لها دلالتها وهي أن هذا النصب الذي انتهى العمل فيه سنة 1941 بعد سنوات من العمل، والذي قصد منه "تمثيل مبادئ الحرية والتحرر التي قامت عليها الأمة"[1] قام على أرض التلال السوداء المغصوبة من الهنود وما زالوا

(1) Ostler، 2010، صxiii.

يلاحقون حقهم فيها بعدما سلبت منهم عنوة منذ قرن ونصف ويرفضون المبالغ التي عرضت لشرائها مهما ارتفعت كون هذه الأرض مقدسة لديهم، كما رفضوا مبلغ التعويض الذي حكمت لهم به المحكمة سنة 1980 رغم أنه زاد مع فوائد فترة عدم التسلم عن بليون دولار، وأن كل فرد من القبيلة -التي تسكن أشد المناطق فقراً في الولايات المتحدة- سيحصل على عشرة آلاف دولار لو تمت الصفقة، هذه الافتتاحية تبين أن "مزار الديمقراطية" كما تسميه هذه الحضارة العلمانية، قام على نهب الآخر وسلبه، وأن اضطهاد هذا الآخر كان لازماً لحرية الأمريكي وتحرره.

أما الرئيس جورج واشنطن قائد الثورة الأمريكية وأول رئيس للجمهورية ومؤسس الأمة الذي تحول إلى أسطورة لشعبه الذي رفعه إلى مقام قريب من التأليه والعصمة، هذا الرئيس كان عليه إثبات ولائه لأمته بشن الحرب على الهنود الذين قاوموا التمدد الاستيطاني ووقفوا إلى جانب التاج البريطاني عندما أعلنت المستعمرات الأمريكية الثورة عليه وذلك لأنه تعهد بلجم الاستيطان والتمدد داخل أرض الهنود، وأثناء معارك الثورة التي تعد معلماً للحرية عند الكثيرين "أعطى جورج واشنطن تعليماته إلى الجنرال سوليفان باجتياح مناطق استيطان الهنود الحمر، واقتياد من يبقى منهم على قيد الحياة للاحتفاظ بهم رهائن، وانطلق سوليفان لتنفيذ مهمته وبضربة واحدة أحرق بقسوة وحشية المحاصيل الزراعية لإحدى وأربعين منطقة كانت مستقراً للهنود الحمر، وقضى عدد كبير من الهنود نحبهم في الشتاء... وعندما انتهت الحرب، وانسحب البريطانيون، ترك الهنود الحمر وهم محرومون من كل دعم أو حماية في مجابهة النظام الجديد، وبدأت عملية القضاء على الهنود الحمر وإبادتهم بوحشية"[2]، ولهذا ليس من العجيب أن تكون الثورة الأمريكية التي كونت الولايات المتحدة واتخذها كثيرون نبراساً للتحرر، كارثة ونكبة لأصحاب البلاد الأصليين الذين استمرت معاناتهم وشن عليهم الرئيس واشنطن حرباً شعواء بعد تنصيبه استمرت خمس سنوات(1790-1795)[3] لانتزاع أراضيهم المتاخمة للبحيرات العظمى

---

(2) العسلي، 1980، ص70.

(3) Sword، 1993.

وأرسل لهم أحد جنرالاته الذي "دمر كل القرى التي تمكن من العثور عليها"[4] وفرض على الهنود التخلي عن أراض واسعة متاخمة لنهر أوهايو وفتحها للاستيطان.

أما الرئيس توماس جيفرسون باني إمبراطورية الحرية الذي كتب إعلان الاستقلال الأمريكي، كتاب التحرر المقدس عند الكثيرين، وفيلسوف الديمقراطية الذي وضع أسس الحكم للولايات المتحدة الناشئة، ونموذج الرجل الشامل الذي تطلع إليه عصر النهضة[5]، هذا الرجل له صورة أخرى في تاريخ السكان الأصليين، فهو الذي وصف الهنود في وثيقة إعلان الاستقلال التي مازال "صداها يتردد في شتى أنحاء العالم على تعاقب السنين"[6] بأنهم "متوحشون" و"لا يعرفون للرحمة معنى" و"لا تميز سنن الحروب المعروفة عندهم بين رجل وامرأة، وبين طفل وشيخ" وأن مقاومتهم مجرد أداة للطغيان البريطاني[7]، وبهذا سجل مكانة الهندي في جمهورية الحرية والديمقراطية الناشئة، ثم تجاوز الدستور الأمريكي، الذي يمنع ضم أراض أجنبية، ومبادئه الشخصية عن الحكومة المقيدة عندما وسّع صلاحياته الرئاسية واشترى إقليم لويزيانا سنة 1803 الذي شبهت أهميته للأمريكيين البيض آنذاك بأهمية اكتشاف أمريكا[8]، وضاعف بذلك مساحة دولته بجرة قلم تمهيداً لتوسيع الاستيطان على حساب الغير وأرسل حملة لويس وكلارك الاستكشافية (1804-1806) لهذا الغرض، وهو أول من فتح باب تهجير الهنود نحو الغرب لتفريغ الأرض من سكانها وإعدادها للاستيطان الأبيض مما نتج عنه نكبات متعددة للسكان الأصليين بعد ذلك، وقد تمكن من غرس فكرة ترحيل الهنود في السياسة الأمريكية حتى أصبح من المتعذر التراجع عنها بعده[9]، وهو الذي استخدم سياسة "قاسية لا ترحم" في انتزاع أراضي الهنود مستخدماً رجالاً بنوا أمجادهم من قمع السكان الأصليين كوليام هاريسون الذي أصبح رئيساً فيما بعد.

---

(4) Debo، 1983، ص93.

(5) New Standard Encyclopedia، 1999، ج9، صJ-42.

(6) رافيتش، 1998، ص62.

(7) نفس المرجع، ص65.

(8) Debo، 1983، ص101.

(9) White، 1979، ص212-213.

جيفرسون هذا هو مؤسس "الحرب على الإرهاب" عندما أرسل أساطيله ضد الولايات العثمانية في شمال إفريقيا في بداية القرن التاسع عشر وخاض ضدها معارك مازال يتردد صداها إلى اليوم في نشيد مشاة البحرية الأمريكية الذي يفاخر "ببطولاتهم" من تلال المكسيك إلى شواطئ طرابلس، كما أن منظّر الحرية هذا هو الذي أقام علاقة "استغلالية وأنانية" بإحدى إمائه لمدة ثلاثين عاماً نتج عنها ستة أبناء ظلوا في قيود العبودية حتى وفاة والدهم[10]، كما قام بإغواء متعمد لزوجة صديق طفولته وأقام علاقة محرمة معها[11]، وهي حقائق نهديها إلى كل من يتسقط الأخطاء في الحياة الخاصة لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم في الوقت الذي يقدس أنبياء الحرية والديمقراطية وكل ما جاء من الغرب.

هذا وقد تجاوز الآباء المؤسسون للولايات المتحدة، وعلى رأسهم واشنطن وجيفرسون، مثلهم الأعلى الذي آمنوا به وسطروه في إعلان الاستقلال والذي ينص على مساواة جميع البشر وحقهم البديهي في الحرية، فأبقوا على الرق في مساومة بين ولايات الشمال والجنوب جعل بموجبها خمسة من العبيد يساوون ثلاثة مواطنين بيض لإعطاء وزن تمثيلي للجنوبيين مع حرمان العبيد من التصويت، وقد تصرف مؤسس الجمهورية بنفس النفعية المناقضة للمبادئ عندما منح عبيده الحرية وهو على فراش الموت ولكن بعد أن تتوفي زوجته بعد موته[12]، أي بعد أن تنتهي المصلحة من استرقاقهم، وبذلك يتم الجمع بين المصالح والمبادئ عندما يصبح تطبيق المبادئ رخيصاً غير مكلف.

وأما الرئيس أبراهام لنكولن، "المحرر العظيم"، "المخلّص"، فهو الذي فتح أراضي الغرب للاستيطان على حساب الهنود بإصدار قانون السكن سنة 1862، وفي نفس السنة شنت حرب التجويع على قبيلة السانتي التي لم يعد عندها ما تقتات به بعدما صارت عالة على المساعدات الحكومية فثار أفرادها في ولاية مينيسوتا فأرسلت لهم جيوش التحرير التي طردت القبيلة من الولاية وحوكم المسئولون عن الثورة وطبق حكم الإعدام في 38 شخصاً وهو أوسع إعدام

---

(10) Kukla، 2007، ص115-141.

(11) نفس المرجع، ص41-63.

(12) جوليان، 1989، ص239.

جماعي في تاريخ الولايات المتحدة كله، ولنكولن هو الذي غرّب قبيلة النافاجو من موطنها ونقلها "مشواراً طويلاً" إلى منفى بعيد وقاحل في ملحمة عذاب وصمود ما زالت ذكراها إلى اليوم منذ سنة 1862، وهو الذي شن حملة إبادة على قبيلة الآباتشي وصلت ذروتها في سنة 1864، وفي نفس العام وقعت قبيلة الشايان المسالمة ضحية لواحدة من أبشع مجازر التاريخ الأمريكي "ولم يكن هناك اعتراض حقيقي على المجزرة ولا حتى من المحرر العظيم"[13] وأفلت المجرمون من العقاب رغم إدانتهم، ورجاله من بعده هم الذين شنوا الحروب على قبائل السهول وقضوا على المقاومة الهندية بعد ربع قرن من نهاية الحرب الأهلية.

وإذا أردنا الحديث عن الرئيس تيودور روزفلت صاحب التمثال الرابع على جبل راشمور فسنجده رغم توليه الرئاسة بعد نهاية الحروب الهندية يقوم بدوره في إطراء أحداثها، فقد عرف بآرائه العنصرية، وأشاد بمجزرة نهير الرمل الفظيعة (1864) ووصفها بأنها من أفضل الأعمال الصالحة والمفيدة التي أنجزت في منطقة التخوم"[14].

2 - حقيقة الالتزام الحضاري والديمقراطي:

طالما ادعى الأمريكيون أنهم حاملو شعلة الحضارة للقارة الجديدة، وكان شعار مستعمرة خليج مساشوستس يصور هندياً ينادي الإنجليز ويقول: تعالوا أنقذونا، ورغم أن الصراع دار حول الأرض فإن هذا الهدف قليلاً ما عُبّر عنه وإن كان قد افتضح من مسار الأحداث، وظل المستعمرون الاستيطانيون يدعون أنهم يريدون تحضير الهنود وتمدينهم لمصلحتهم قبل مصلحة البيض، ولكن مسار الأحداث أيضا فضح زيف هذا الادعاء عندما تقبل كثير من السكان الأصليين بدرجات متفاوتة برامج التمدين ومع ذلك اكتسحهم المد الاستيطاني ولم يبق لهم فرصة للحياة، وقد اعترف كثير من المسئولين الأمريكيين بحقيقة الوضع ومنهم الرئيس السادس جون كوينسي آدمز(1825-1829) في خطابه الأخير للكونجرس

(13) Sandoz، 1964، صvi.

(14) Stannard، 1992، ص134.

حين قال: " لقد كنا أكثر نجاحا في الاستيلاء على أراضيهم من منحهم المبادئ أو إلهامهم بروح الحضارة"[15]، ولعل أبرز مثل لقبول الهندي للتحضر هو مثال خمس قبائل عاشت في الولايات الجنوبية واكتسبت من الاحتكاك الأولي بالبيض خبرات واسعة حتى أن الأمريكيين أنفسهم أطلقوا عليها اسم القبائل الخمس المتمدنة لأنها سارت خطوات واسعة في تبني أوجه الحضارة الأمريكية، ومن أمثلة ذلك وضع القوانين وتأسيس الحكومات لحماية مفهوم الملكية الشخصية الذي اكتسبوه من البيض، وكانت أكثر القبائل حماساً للتحضر قبيلة الشيروكي التي وضعت في سنة 1827 دستوراً يفصل السلطة التنفيذية للرئيس عن السلطة التشريعية بمجلسين وعن النظام القضائي، كما كانت القبيلة قد أسست قوة شرطة لحماية المواطنين سنة 1808، واخترع أحد عباقرة القبيلة حروفاً لكتابة لغتها الشفوية وصدرت صحيفة باللغتين المحلية والإنجليزية[16]، هذا بالإضافة إلى اعتماد الاقتصاد على الزراعة وحياة الأفراد في بيوت خشبية تشبه بيوت البيض ورعاية الدواجن فيها وارتداء ملابس البيض واعتناق كثير منهم الدين المسيحي، بل إن بعضهم من كبار الملاك امتلكوا عبيداً أفارقة كممارسة البيض تماماً، كل هذا لم ينفع في درء الكارثة عنهم لأن عين المستوطنين كانت على أراضيهم وبخاصة بعد اكتشاف الذهب فيها، وقام الرئيس أندرو جاكسون الذي يعد أباً للديمقراطية في أمريكا لأنه نقل الديمقراطية الأمريكية إلى مرحلة جديدة أنهت القيم الأرستقراطية وشملت أكبر قدر من العامة وحارب استئثار النخب، قام بنقلة أيضاً في اضطهاد الهنود مما أكد أن ديمقراطية المستوطن تبنى على حساب الساكن الأصلي، فقد أسس لممارسة المحسوبية وتوزيع المناصب كغنائم على المقربين في مكتب الشئون الهندية مما كان له آثار سلبية كبرى في إساءة معاملة السكان الأصليين والربح من ظلمهم[17]، ثم انتقل إلى مرحلة التشريع عندما سن قانون النقل إلى الغرب(1830) وبدأ ترحيل القبائل من شرق المسيسبي إلى غربه في المقاطعة الهندية في أوكلاهوما في رحلة عذاب نقل فيها خمسون ألف هندي[18] توجت

---

(15) Prucha، 1995، ص190.

(16) Vere، 2000، ص19.

(17) White، 1979، ص213.

(18) Brandon، 1985، ص241.

بدرب الدموع الذي سلكته قبيلة الشيروكي سنة 1838 وهلك أثناءها أكثر من ربع القبيلة (4000 من 15000) من الجوع والبرد والمرض والإنهاك، وذلك رغم أن القانون لم يسمح بالترحيل القسري كما أن 80% من القبيلة وقعوا على رفض الترحيل، ولكن ديمقراطية أبي الديمقراطية لم تتسع لغير البيض، وذلك رغم نفيه الشخصي نية اللجوء إلى القوة في تطبيق سياسة النقل التي يجب -حسب زعمه- أن تكون طوعية، ورغم "عطفه" الشخصي على الهنود إلى حد تبني يتيم هندي[19] مما يلخص تناقض النزعات البشرية ومحاولة إرضاء الضمير في موقف أصحاب النزعات الإنسانية، وقد صرح جاكسون بأنه يطبق النقل لمصلحة الهنود في مشهد من تحالف النزعات "الإصلاحية" مع نزعة الطمع والذي تكرر في التاريخ الأمريكي.

الغريب أن الهنود واصلوا مشروع التمدن في مستقرهم الجديد الذي وُعدوا بامتلاكه إلى الأبد، فأسسوا عاصمة لهم في مدينة تاهليكوا وأعادوا تنظيمهم السياسي وبنوا المدارس بمستوياتها وطبعوا الصحف بل إنهم حاولوا إنشاء ولاية خاصة بهم تدخل الاتحاد الأمريكي ولكن التجربة كلها نسفت بأيدي "المصلحين" الذي تحالفوا مع الطامعين بأراضي الهنود المضمونة لهم أبداً وصدر قانون تقسيم الأراضي سنة 1887 ليسلب معظم أراضي القبائل وقبلت أوكلاهوما ولاية في الاتحاد سنة 1907 بعد تحطيم حلم الولاية الهندية وترك الهنود غارقين في الفقر والحرمان والبؤس بعد سلبهم أراضيهم لمصلحة ازدهار المستوطنين، وبهذا أسست الديمقراطية البيضاء على اضطهاد أصحاب البلاد.

ويلاحظ أن السكان الأصليين استفادوا من الحضارة الأمريكية عندما كانت بعيدة عنهم أكثر من استفادتهم منها لما اقتربت منهم عندما دمرت التجربة التي اقتفت أثرها، وهذا التسلسل ظهر أكثر من مرة في تاريخ أمريكا، فعندما أتى الأوروبيون بالحصان إلى القارة الجديدة كان له آثار إيجابية على حياة هنود السهول وأدى إلى تطورات إيجابية، ولكن لما اقترب الاستيطان من هذا الإقليم دمر كل ما صنعته الفائدة عن بعد.

(19) مكدوجال، 2001، ص320.

لقد كان التحضر يعمل في الحضارة الأمريكية في اتجاه واحد، فالمهاجرون الأوروبيون استفادوا حضارياً من حضارة الهنود في التنظيم السياسي الذي اقتبس منه نظام الولايات المتحدة بالإضافة إلى بعض المفاهيم الاجتماعية التي يذكرها المؤلفون، ولكن هذه الحضارة لم تقبل بالحوار والتبادل الحضاري ولم تمنح السكان الأصليين الفرصة للتعلم منها.

3 - حقيقة تحرير العبيد في التاريخ الأمريكي:

تكشف لنا الحروب الهندية أن الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) لم تكن صراعاً لتحرير الرقيق ونشر الحرية في الربوع الأمريكية بل كانت صراعاً بين نظامين اجتماعيين اختلفت مصالحهما بل تناقضت مما أدى إلى نشوب الصراع بينهما وكانت عملية تحرير الرقيق جزءاً من محاولة الشمال الهيمنة على الجنوب بسحب البساط الذي يقف الجنوبيون عليه، ولو رفضنا هذا التفسير ولجأنا إلى التفسير الأخلاقي الذي يدعيه المبهورون بتاريخ أمريكا ويزعم أن الحرب الأهلية نشبت لأسباب أخلاقية ترفض الرق وتناصر الحرية، فكيف نفسر قيام الولايات المتحدة بعد انتصار الشمال وتحرير العبيد، بحملة دموية كبرى لغزو الغرب قضي فيها على حرية السكان الأصليين واستولى المحرِّرون فيها على أراضي الهنود وحصر ما تبقى منهم في محميات قاحلة وتُركوا فريسة للفقر والجوع والحرمان وعالة على المساعدات البائسة التي ترسلها الحكومة الأمريكية لهم، ومن الطريف أن نعلم أن الذين قادوا حملات الإخضاع هذه هم نفس الرجال الذين اكتسبوا فضل تحرير العبيد، بدءاً من "المحرر العظيم" الرئيس أبراهام لنكولن الذي لم يغفل عن أهمية التوسع غرباً على حساب الهنود حتى في معمعة الحرب الأهلية فأصدر قانون السكن (1862) الذي يمنح كل أسرة أمريكية راغبة في الاستقرار 160 فداناً من أراضي الحكومة مما حفز عملية التوسع غرباً، ورغم أهوال الحرب الأهلية وانشغالاتها فإن التوسع لم يتباطأ ودخل الاستيطان خمس مقاطعات غربية جديدة هي كولورادو وداكوتا وإيداهو وأريزونا ومونتانا في سنوات الحرب وحدها كما اكتسبت نيفادا صفة الولاية وانضمت إلى الاتحاد[20]، ويذكر أحد المؤرخين أن مستوطني الغرب بدوا غير آبهين بالصراع

(20) Marks، 1998، ص172.

المحتدم بين الشمال والجنوب رغم حدته، أما الهنود الذين قاوموا النهب والإخضاع فقد شن عليهم الجيش الاتحادي الذي كان منهمكاً في "التحرير" حرباً طويلة بدأها لنكولن ووصفت بأنها "جبهة ثانية"[21] موازية للحرب الأهلية بكل أهوالها وواصلها رجاله من بعده، وارتكبت فيها أهوال المجازر والترحيل والاعتقال والسلب والنهب والتجويع وأشكال العنف كافة، ومن الغريب أن الوجوه العسكرية التي لمعت في عملية تحرير الرقيق هي نفسها التي تألق نجمها في عملية إخضاع الهنود وقتلهم وسلب حريتهم مثل الجنرالات غرانت وشيرمان وشيريدان وكروك ومايلز وكاستر وغيرهم؛ ولم يمتد انقسام الأمة الأمريكية بشأن الرق إلى المسألة الهندية التي توحد رأي الجميع بشأن مصيرهم ووجوب إزاحتهم من طريق "الحضارة"، والذين اختلفوا بشأن الرق لم يختلفوا بشأن السكان الأصليين[22].

وضمن الأجواء التي صنعها تحرير الرقيق، ظن البسطاء السذج أن هذه الحرية يمكن أن تمنح للهندي أيضا والذي كان يعاني آنذاك من "قرن من الخزي والعار" منذ نشوء الولايات المتحدة كما وصفته الكاتبة والناشطة الإنسانية هيلين هنت جاكسون التي قامت بتأليف رواية "رامونا" (1884) التي تصف معاناة الهنود وأرادت لها أن تحدث لهم نفس الأثر الذي أحدثته رواية "كوخ العم توم" لعملية تحرير الرقيق، وهنا برز أثر المصالح في توجيه الأفكار وظهرت حقيقة الحرية التي نادى بها المجتمع الأمريكي، إذ بدلاً من تحرير الهنود وإحسان معاملتهم، وجهت كتابات جاكسون الرأي العام نحو نوع غريب من التحرير تمثل في إصدار قانون دوز سنة 1887[23]، الذي استقبل بصفته "إعلان استقلال" و"وثيقة حقوق"[24] للهندي تحت شعار العمل على تحضره واستيعابه في المجتمع الأمريكي، وهو ما لن يتم إلا بمنح كل أسرة هندية قطعة أرض خاصة لزراعتها للاستيلاء على أفضل ما بقي من أراضي القبائل، فكانت نتيجة هذا الاستقلال والتحرير أن سُلب من الهنود ثلثا ما ظل بحوزتهم من أراض ضمنتها

---

(21) Prucha، 1995، ص412.

(22) نفس المرجع، ص349.

(23) McDermott، 1998، ص64.

(24) Debo، 1983، ص304.

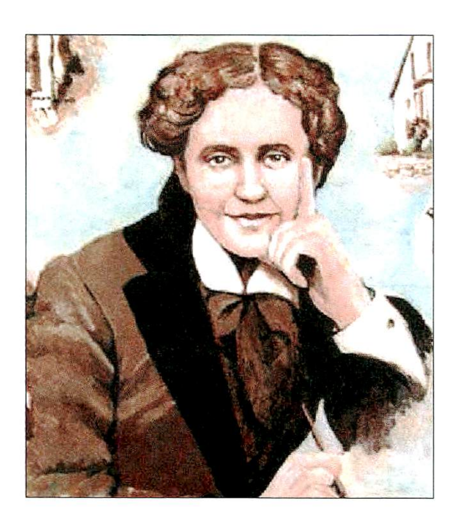
المعاهدات وقُذِفوا في بحر الفقر والحرمان ولم يأبه المجتمع المحرر بقيادتهم نحو التحضر بعدما قضى وطره منهم، ومن العجيب أن رواية رامونا آنفة الذكر حفزت الاستيطان على حساب الهنود أصحاب الأرض في منطقة كاليفورنيا التي جرت أحداثها فيها، لأن المستوطنين فتنوا بالأرض التي وصفتها القصة واندفعوا للسكنى فيها وذلك عكس ما أرادته الكاتبة[25]، مما يؤكد دور المصالح في توجيه الأفكار والمشاعر في المجتمع الرأسمالي وعبثية التصدي الإنساني لهذه المادية كما يكشف عن حقيقة الحرب الأهلية التي لم تكن من أجل الحرية، وهذا ما يؤكده أن حرص لنكولن كان موجهاً نحو المحافظة على الاتحاد سواء بزوال الرق أم ببقائه، وقد أبدى استعداداً للمحافظة عليه في ولايات الجنوب شرط بقائها ضمن الولايات المتحدة، ولكن هذه الولايات فضلت الانفصال بقرار ديمقراطي ولهذا شن الشمال عليها ما لا يزال يسمى إلى اليوم "حرب الانفصال" أو الحرب الأهلية التي فاقت خسائرها البشرية مجموع خسائر الولايات المتحدة الأمريكية في حروبها الدولية معاً بما فيها الحربين الكبريين (العالميتين)، وهو مؤشر لا يتناسب قط مع مدى الشعور الشمالي الهزيل جداً بالمساواة العرقية كما أكد أليكسيس دي توكفيل عندما كتب "الديمقراطية في أمريكا" في ثلاثينيات القرن التاسع عشر عندما كان الخلاف الجنوبي الشمالي متجهاً نحو الحرب الأهلية وقد قال في كتابه هذا إن "التعصب العنصري أقوى في الولايات التي ألغت الرق منه في الولايات المتحدة التي مازال قائما فيها، ولا يوجد ولاية بلغ فيها هذا التعصب العنصري ما بلغه في الولايات التي لم تعرف الرق أبداً"[26] وقال أيضا إن"التعصب الذي جعل البيض في الولايات المتحدة ينفرون كل النفور من الزنوج، ليزداد كلما تحرر السود وأصبحوا عتقاء، وكذلك يزداد ما بينهما من تفاوت في العادات الأخلاقية كلما منع القانون نفسه هذا التفاوت"[27] واستمر هذا الوضع بعد عشرات السنين من نهاية الحرب حين أكد مراقب بارز "أن المفارقة الاجتماعية في الشمال هي أن الجميع تقريباً ضد

(25) Ward، 1996، ص168.

(26) توكفيل، 2004، ج1ص310.

(27) نفس المرجع، ج1ص311.

التمييز بشكل عام ولكن في نفس الوقت يمارسون التمييز في حياتهم الشخصية"[28]، وذلك بعد ثمانين عاما من نهاية الحرب الأهلية، أقول إن حماس الشمال ضد الرق لا يتناسب مع هزال شعوره الأخلاقي بالمساواة ولكنه يتناسب مع مدى شعور الفريقين بتفاوت المصالح التي افترقت منذ بداية الاستيطان بين شمال صناعي وجنوب زراعي اختلفا حول السياسات الاقتصادية اللازم اتباعها في الدولة الوليدة بما يتناسب مع مصلحة كل منهما، ولهذا قال دي توكفيل إن إلغاء الرق كان مصلحة للبيض لا للسود[29]، وسلم مؤرخون أمريكيون بأن الحرب الأهلية كانت "صراعاً اقتصادياً"[30] في جانبه الرئيس.



الأديبة الأمريكية هيلين هنت جاكسون[31] أملت أن تحدث كتاباتها لاسيما روايتها "رامونا" آثاراً إيجابية لصالح السكان الأصليين تشبه الأثر الذي أحدثته رواية كوخ العم توم للعبيد الأفارقة، ولكن ما حدث هو العكس

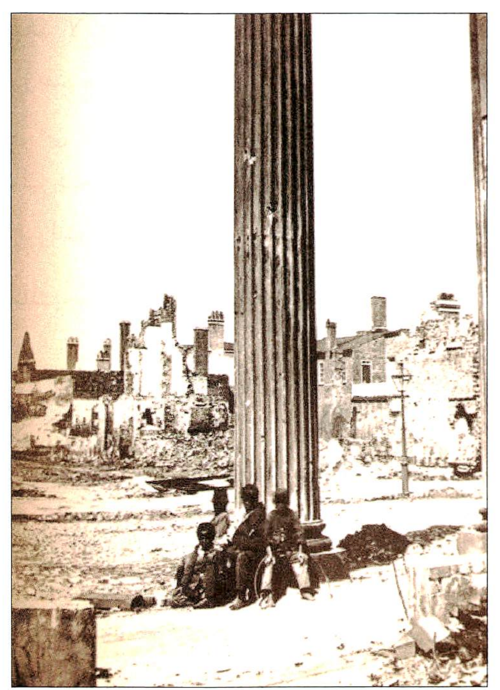
وفي هذا الإطار لابد من التشديد على مدى حرص الولايات المتحدة على استمرارية الاتحاد مما دفعها لخوض هذه الحرب المدمرة التي عاقبت قطاعاً واسعاً من مواطني الجنوب الذين كانت نسبة ثلاثة أرباعهم لا يملكون عبيدا ولا علاقة لهم بهذه المؤسسة ومع ذلك اجتاحتهم جيوش "التحرير" وقذفت بعشرات الآلاف منهم في بؤس اللجوء، ومن يطلع على صور الدمار التي خلفتها هذه

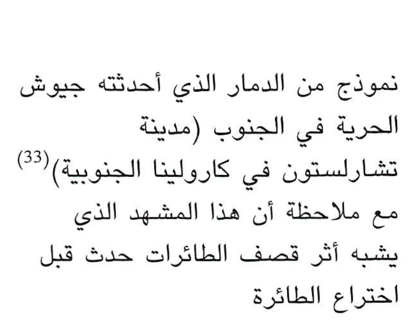
(28) Sugrue، 2008، صxvi.
(29) توكفيل، 2004، ج1ص311.
(30) Prucha، 1995، ص479.
(31) http://w3.d11.org/Bristol_Wall/1860/pic_1860_jackson.htm

الحرب، ومنها مسيرة الجنرال شيرمان التي مارست سياسة الأرض المحروقة ودمرت أرضاً بمساحة أكبر من 3500 ميل مربع في ولاية جورجيا، فإنه يعجب من وقوف أخلاف مرتكبيها ضد وحدة أمتنا وإلى جانب أية محاولة انفصالية فيها مهما قل عدد أنصارها، ولنا أن نتساءل: ترى لو ربح الجنوب المعركة وانفصل عن الولايات المتحدة وكوّن كيانه الخاص، كيف ستكون صورة لنكولن حينئذ في تاريخه؟ ألن يكون الديكتاتور الدموي قاتل شعبه ومستخدم أسلحة الدمار ضده... إلخ؟



مشهد اللجوء في الولايات الجنوبية التي اجتاحتها جيوش "الحرية"[32]





نموذج من الدمار الذي أحدثته جيوش الحرية في الجنوب (مدينة تشارلستون في كارولينا الجنوبية)[33] مع ملاحظة أن هذا المشهد الذي يشبه أثر قصف الطائرات حدث قبل اختراع الطائرة

(32) Allen، 1988، ص220.

(33) نفس المرجع، ص221.

ولنا بعد ذلك أن نعقب على المدخل الذي اقترحه المفكر الراحل إدوارد سعيد للقضية الفلسطينية في المجتمع الأمريكي وذلك حين قال إننا يمكن لنا أن نقنع هذا المجتمع بقضيتنا بالدخول عبر ميراث لنكولن الإنساني[34]، ولست أدري هل ظل يؤمن بهذه الفكرة إلى آخر حياته أم أنها تغيرت مع سلسلة خيبات آماله في هذا المجتمع ولكن لا بأس من الرد عليها لمن مازال يحملها من أصحاب الآمال الواسعة، فقد رأينا أن تفسير الحرية كان خاضعاً للطمع في امتلاك أرض الهنود، وأن "المحرر العظيم" كان الفاتح العظيم لأراضي الهنود وكان المخضع العظيم لقبائلهم والقاتل العظيم لهم أيضاً، وقد أقر أحد المؤرخين بأن هذا الرئيس الذي أصبح منافساً للمسيح ذاته في الفكر الأمريكي، كان يشارك قومه الرأي فيما يتعلق بمصير الهنود[35]، ولهذا ليس لنا أن نأمل في مكان أفضل من مكان الهنود عندما يتعلق الأمر باستعمار استيطاني يستهدف أرضنا بصفتنا سكاناً أصليين ويمثل القيم ذاتها التي فتح لنكولن وغيره من رؤساء أمريكا أراضي الهنود في ظلها، كيف لا وقد سجل الرئيس نفسه في سنة 1863موافقته على "إعادة اليهود إلى وطنهم القومي في فلسطين" ووصف هذه العودة بأنها "حلم نبيل يشترك فيه كثير من الأمريكيين"[36] وتمنى أن يأتي اليوم الذي يتمكن الأمريكيون من قيادة العالم لتحقيق أحلامهم، وذلك بعد الانتصار في الحرب الأهلية، فماذا بقي لنا من ميراث لنكولن؟

هذه استنتاجات تاريخية ويظل هناك استنتاجات سياسية لعالمنا المعاصر.

(34) سعيد، 1986، ص28.

(35) Prucha، 1995، ص413.

(36) أورين، 2008، ص225.

الفصل الثالث والعشرون

أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل

(2)

استنتاجات عن جذور السياسة الأمريكية من واقع المواجهات الحضارية

أهمية النموذج الأمريكي الأوّلي في الاستنتاج التاريخي

يجيب الباحث ديفيد سفالدي عن التساؤل عن أهمية الحروب الهندية الأمريكية، بعد مضي عصرها بزمن طويل، بقوله إن هذه الحروب كانت من أوائل الحروب مع أطراف "أجنبية" في التاريخ الأمريكي، وإن الولايات المتحدة الناشئة واجهت في السكان الأصليين أول عدو غير أبيض، وإن مفهومها عنهم كان أداء تمهيدياً للعلاقة الأمريكية الحديثة مع الدول النامية "الملونة"، وإن العنف الأمريكي في التعامل مع الهنود أثّر في السلوك الأمريكي تجاه الثقافات الأخرى، ورغم أن العدو الهندي زال خطره منذ زمن بعيد، فإن أي عدو جديد، وبخاصة لو كان "ملوناً"، فإنه سيحتل مكان هذا الهندي في المعاملة، ولذلك فإن المفاهيم الأمريكية عن الأعداء الملونين ستكون مشوهة كما كانت كذلك في القرن التاسع عشر أثناء المواجهات مع الهنود[1]، ويؤكد المؤرخ ريتشارد سلوتكين ذلك بالقول إن الهندي الأحمر كان هو المثل الأول لعدو البطل الأمريكي وإلى حد ما نموذجاً لكل الجماعات والأمم التي تهدد

---

(1) Svaldi، 1989، ص335-336.

الأمة الأمريكية، وفي معظم التاريخ الأمريكي كانت معظم الصراعات المسلحة مصحوبة بقتال الهنود، وكانت الحروب الهندية هي السمة المميزة للتاريخ الأمريكي، وقد تم استدعاء رموز هذه الحروب في المغامرات الإمبريالية الحديثة، ومازال ذلك عالم التخوم مرتبطاً بعالمنا ولم يتم وقف المسيرة حيث يتجدد ظهور شخصية الهندي في كل عدو جديد[2]، وينقل سفالدي عن المؤرخ براون ريتشارد ماكسويل أن الحروب الهندية صبغت الشخصية الأمريكية بالتوحش أكثر من غيرها من الأحداث[3]، وينفي مؤرخ أمريكي آخر هو فهرنباخ أن يكون الذين استوطنوا أرض الهنود وغزوا الغرب الأمريكي قد غيروا مظهرهم بين ليلة وضحاها حين اكتمل فتح القارة ويؤكد استمرار الغزو في الخارج فيما بعد[4].

ويرى الخبير الحكومي في الشئون القانونية الهندية فيليكس كوهن أن معاملة الهنود هي الكاشف الحقيقي لنظافة السياسة الأمريكية وإيمان المجتمع بالديمقراطية، أكثر مما تكشفه معاملة أية أقلية أخرى[5]، ولهذا فليس من العجيب أن يتطابق الرفض واسع النطاق عالمياً للسياسة الأمريكية مع المكانة المهمشة التي مازال الهنود يعيشون فيها داخل بلادهم.

إن معاملة السكان الأصليين تكشف حقيقة الكيان: ففي زمن تطورت فيه تقنية السلاح والاتصال، أصبح "الآخر" عند الدول الكبرى ليس مجرد عدو إقليمي تبادله المناوشات، بل أصبح الآخر يمتد ليشمل أبناء الجنس البشري كله خلاف أبناء هذه الدولة الكبرى أو تلك، ولهذا صار معيار التحضر هو كيفية التعامل مع هذه الأغلبية وليس مقدار ما يقدم للذات من مزايا وأصبح الرجوع إلى سوابق معاملة الآخر حيوياً لكل من تضعه ظروفه في مواجهة غيلان الدول الكبرى ليعرف مع من يتعامل وكيف يُنظر إليه، لأن مكان الحكم على ظاهرة ما هو مجال فعاليتها الأساسية كما يقول المفكر الراحل الدكتور عبد الوهاب المسيري، فالحكم على الصهيونية مثلاً "لا يمكن أن يتم في لندن أو باريس،

---

(2) Slotkin، 2000، ص558-565.

(3) Svaldi، 1989، ص336.

(4) ليفن، 2008، ص252.

(5) Brandon، 1985، ص392.

وإنما ينبغي أن يتم الحكم عليها في مجال فعاليتها الأساسية، في حيفا ويافا والضفة الغربية ومئات القرى التي هدمت، ولو أننا حكمنا على النازية في طوكيو مثلاً لوجدناها مجرد أيديولوجيا قومية تدافع عن حقوق وأمجاد الشعب الألماني"[6]، وبنفس المعيار يكون الحكم على الظاهرة الأمريكية في مكان عملها وليس بالانبهار من بعيد بها وتلقي دروس مملة منها عن احترام "الآخر" في الوقت الذي لا توليه هي أي احترام، وفي الجزء الأول من هذه الدراسة عرضت استنتاجات تاريخية تخص أحداثاً أمريكية ماضية، وفي هذا الجزء أتطرق إلى جذور السياسات الأمريكية التي ما زالت سارية إلى هذا اليوم، وذلك في محاولة لتقويم ما سمي بالاستثنائية الأمريكية موزونة بمعاملة "الآخر" الذي رفعوا لواءه لابتزاز "الآخرين".

الاستنتاجات

1 - مركزية المنفعة وكونها أصل الداء:

نص إعلان الاستقلال الأمريكي على أن حق الإنسان في السعي نحو السعادة من الحقائق التي لا تحتاج إلى برهان، وقد ترجم هذا الحق في التجربة الأمريكية بالإعلاء من شأن المصلحة الشخصية التي تتحقق المصلحة العامة بها، وعد عمل الفرد من أجل تكوين رأس المال والربح حقاً طبيعياً يجب عدم التدخل فيه ولو كان من جانب الدولة لصالح المجتمع[7]، ولأن الاستئثار من صفات المصلحة الذاتية، وفي مجتمع كانت الأرض فيه هي "العنصر الأهم في الحياة الاقتصادية"[8]، كان لا بد من تضييق دائرة المعترف بحقوقهم لتسهيل سلب أراضي السكان الأصليين، ومن هنا كان التعصب العنصري لازماً "للتوفيق بين التوسع والحرية، وكان لابد أن يُفهم أن ليس للهنود حقوق المواطنة، وإلا كيف كان يمكن أخذ أراضيهم؟"[9]، ومن الطريف أن هذه العنصرية لم تكن هي

(6) المسيري، 1999، ج6 ص78.

(7) الشيخ، 1979، ص64.

(8) Prucha، 1995، ص29.

(9) مكدوجال، 2001، ص133.

الدافع الأوحد في الصراع على الأرض، ولهذا لما احتاجت الولايات المتحدة لاستخدام القوة ضد بيض آخرين كالبريطانيين والجنوبيين، لم تتأخر في حربهم وقتلهم، مما يدل على أن "المنفعة" هي الأساس وقد استغل الأمريكيون العنصرية في عدوانهم على الهنود كما استغلوا مفاهيم كثيرة أخرى، وكون العدوان العنصري ليس هو الدافع لامتلاك الأرض كما يستنتج المؤرخ والتر مكدوجال من القتال مع بيض آخرين، مبرئاً قومه من حصرية العرقية في تفكيرهم، فهذا لا يمنع أن مجرد "استغلال" هذه الفكرة العدوانية بدافع "الفرصة" كما يعترف بنفسه، هو جريمة بل جريمة مركبة وهي استخدام وسيلة غير شرعية لغاية غير شرعية.

لقد طبعت المنفعة الشخصية طابع الحضارة الغربية وتغلغلت في كل مظاهر الحياة فيها، حتى أننا من العبث أن نتساءل لماذا لم تلتزم الحكومة الأمريكية بتعهداتها للقبائل الهندية، وذلك لأن الأزمة الأخلاقية التي أوجدتها فكرة المنفعة، جعلت الإفساد عاماً ولم يقتصر على تصرف رجال سياسيين فاسدين مهما علت مناصبهم، والمطلع على تفاصيل التاريخ الأمريكي يتساءل: لماذا اعتدى المستوطن العادي على أرض الهندي ولم يأبه بحقوقه؟ ولماذا ظلت الحدود الهندية "الدائمة" تتراجع نحو الغرب باستمرار رغم المعاهدات التي ضمنت أنها "أبدية" في كل مرة؟ ولماذا انتهك المنقبون أراضي الهنود بأعداد هائلة عند اكتشاف معدن ثمين فيها رغم أنها كانت مضمونة لهم من الحكومة؟ ولماذا غش التاجر زبائنه الهنود وباعهم الخمور الفاسدة، التي أنهكت مجتمعاتهم، رغم قرارات الحظر الرسمية؟ ولماذا صدّر لهم الأطعمة الفاسدة وبكميات ناقصة لا تشبع رغم التعهدات الرسمية المعسولة؟ ولماذا كان الغش في الميزان سمة ملازمة للتاجر الأبيض إلى درجة كثيراً ما دفعت الهندي للثورة؟ ولماذا كان الاحتكاك بعامة البيض مفسداً أخلاق الهنود حتى أن منهم (أي من الهنود) من كان يفضل الهجرة بعيداً إلى الغرب والتخلي عن أرضه فراراً بقيمه؟ ولماذا نفّر المبشرون السكان الأصليين من المسيحية بسلوكياتهم ولم يحسنوا التصرف معهم حتى عندما تسلموا مقاليد الأمور في ظل سياسة السلام التي تبناها الرئيس يوليسيس غرانت(1869)؟ ولماذا لم يكن هناك متسع لتنفيذ البرامج

الإصلاحية المعلنة وتُرك الهندي "جائعاً،عارياً، يائساً"[10] أمام الزحف العام؟ ولماذا كان الموظف الحكومي فاسداً يحيا على نهب مخصصات الهنود، الضئيلة أصلاً، حتى في ظل السياسة السلمية التي أرادت التعامل مع المسألة الهندية باللطف والعدل؟ وبكلمة مختصرة:لماذا كان الأثر العام للحضارة الغربية سلبياً على غير أبنائها في التجربة الأمريكية؟ ولماذا لا نجد تجربة هندية واحدة تطورت نحو الأفضل من احتكاكها بالبيض؟ لماذا لا نجد حديثاً إلا عن الحروب والمآسي والمجازر؟ هذه الأسئلة كلها مجمع على وقوع أحداثها في التاريخ، وقد أجاب عنها أحد معاصريها وذلك حين شهد الجنرال جورج كروك أحد أشهر العسكريين الذين قاتلوا الهنود على سطوة "الدولار المقدس" في التسبب بتسعة أعشار المشاكل مع الهنود[11]، وهذه الحقائق يجب أن تسبق التساؤل عن إخفاق الحكومة الذي أتى محصلة طبيعية لكل ما سبق من الشرور في عصر كانت فيه إمكاناتها أقل من إمكانات عصرنا الذي ما زالت الحكومة فيه عاجزة عن حماية مدينة واحدة لو انقطعت الكهرباء عنها ساعة من الزمن، والسؤال يتجه إلى منبع هذا الشذوذ العام قبل أن يتجه إلى سبب عجز المسئولين الذين كانوا الحلقة المتممة لهذه السلسلة من الانحراف، ولم يكن دور الحكومة بأي حال من الأحوال مناقضاً أو حتى كابحاً لهذا الإفساد بل شريك رئيس في النهب ونقض الوعود.

ولماذا في المقابل كان التاجر والصوفي والمستوطن في حضارة الإسلام هم الذين نشروا دينهم في مناطق عديدة لم تصلها جيوش الفتح؟ ولماذا كان أثر جيوش الفاتحين المسلمين مناقضاً لأثر فتح أمريكا؟ لماذا تمسكت الشعوب "المغلوبة" بدين الإسلام حتى أن بلداً كالأندلس احتاج فيه أبطال "الاسترداد" إلى كل فظائع محاكم التفتيش لمحو دين المسلمين ورغم ذلك بقيت آثاره بعد أكثر من خمسمئة عام من العدوان الوحشي؟ هذا مع العلم أن نسبة كبيرة من مسلمي الأندلس كانت من السكان الأصليين وليست من العرب القادمين (تذكر

---

(10) Prucha، 1995، ص380.
(11) Brandon، 1985، ص337.

الموسوعة البريطانية أن الموريسكيين لم يكونوا متميزين عرقياً عن جيرانهم الذين احتفظوا بالمسيحية تحت الحكم الإسلامي).

لقد كانت المنفعة كما رآها المجتمع الأمريكي تشخص بالحصول على أكبر قدر من الموارد حتى لو انتفت الحاجة إليها، ولهذا ضاق المجتمع المذكور بالسكان الأصليين وأصر على استنزاف مورد الأرض لديهم حتى آخر حبة رمل ولم يفسح لهم مجالاً للحياة داخله، تماماً كما يشخص الأمريكان مصالحهم في ثرواتنا اليوم بالإبقاء على علاقات الاستغلال وليس مجرد تأمين الحصول على الإمداد النفطي[12].

2 - تبعية المبادئ للمصالح:

يلاحظ دارس السياسات التي اتبعت في التعامل مع السكان الأصليين في التاريخ الأمريكي أن المباديء كانت تخدم المصالح بشكل يسمو عن مجرد صدف سعيدة، ففي البداية كان الهندي "محتاجاً للمساعدة" الحضارية وهذا الأمر يتطلب قدوم الرجل الأبيض إلى العالم الجديد "لإنقاذ" سكانه، ولما تكثر أعداده في الجانب الشرقي من القارة ويحتاج أرض الهنود هناك "يكتشف" أن الاحتكاك بالبيض جالبي الحضارة لم يجلب للهندي سوى الرذائل والانحدار الأخلاقي، فيتم إبعاد السكان الأصليين إلى الغرب، "حرصاً" عليهم بالطبع، وليعيشوا بحرية كما يحلو لهم، والاستيلاء على أراضيهم في الشرق بصفته غرضاً جانبياً "غير مقصود"، ولكن الدائرة لم تتوقف بعد، و"يكتشف" الرجل الأبيض مزايا الحضارة للهندي ثانية وأنه يجب ألا يترك في حالة "الهمجية"، وهذه الحضارة لن تأتيه هذه المرة إلا بحياة مستقرة داخل محميات يتعلم فيها حياة الرجل الأبيض، و"يكف شره" عن المستوطنين والتجار الذين هم من يخترقون أرضه في الحقيقة، وهذا يعني "بالصدفة" تخليه عن معظم أراضي قبيلته ومنحها للخيّر الأبيض الذي سيعلمه التحضر، ثم يكتشف السيد الأبيض أن المحمية لن تؤدي هدف التحضر إلا لو عاش فيها كل فرد هندي كالبيض تماماً: يملك أرضاً خاصة يزرعها ويقيم فيها، وهذا "بالصدفة" أيضا سيعود على المعلم الأبيض

---

(12) زكريا، 1991، ص55.

بمزيد من الأراضي الفائضة التي كان يشتهيها بتوق ليفتحها لاستيطان بني جلدته الذين "اكتشف" هذه المرة أن احتكاكهم بالهنود سيجلب الحضارة لهؤلاء "الهمج" بعدما كان احتكاكاً مفسداً في الماضي! وفي كل هذا التسلسل لاحظنا أن المبدأ خدم المصلحة، "بالصدفة" طبعا وليس لسوء نية المعلم الأبيض الخيّر، أما أن هذه الخطوات جميعاً أدت بداية إلى تدمير مجتمعات متحضرة ومزدهرة في الشرق باعتراف الأمريكي ولما نُقلت غربا ثم حصرت في محميات كانت أراضيها قاحلة ولا تصلح للزراعة بصفتها الهدف المعلن ثم لما قسمت فردياً لم تترك للهندي سوى الأسوأ من الأراضي ولم تقم الحكومة بإرشاده كما يجب لحياة الاستقرار والإنتاج وقذفته في بحر الفقر والحرمان، فهذا كله ربما وضع تحت بند الخسائر الجانبية أو ضريبة التحضر أو ربما ألقي اللوم على الهندي نفسه لأنه غير قابل لهذا التحضر.

وينطبق هذا التذبذب المبدئي على كل الشعارات التي رفعت في الصراع مع الهنود، كالدين والحضارة والحرية والديمقراطية، فعندما يكون نشر الدين بين الهنود مفيداً لصناعة عملاء طيعين، لا مانع، وعندما يصبح هؤلاء المهتدين عقبة أمام تمدد القديسين البيض، لا مانع من إزاحتهم وقتلهم، وعندما يراد تفكيك وحدة القبيلة وانسجامها تشن الحرب على زعاماتها باسم الحرية والقضاء على الطغيان، وإذا طرأت حاجة من هؤلاء الطغاة لا مانع من الاستعانة بهم أنفسهم، وقد رأينا أن الفكر العنصري ذاته استخدم في حرب المصالح هذه.

هذا النهج هو نهج الحضارة الغربية عموماً مع الآخر الذي ما يزال عنوان دروس مملة تلقيها ويلقيها المبهورون بها على غيرهم من الشعوب، فالمبادئ تخدم المصالح بشكل يدعو إلى العجب، عندما تدعو المصلحة إلى الابتعاد عن التدخلات ما دامت المصالح مؤمنة، يكون المبدأ هو عدم التدخل في الشئون الداخلية ولو مع أعتى المستبدين المفسدين، ولو هددت المصالح يصبح نشر الديمقراطية هو المبدأ ولو على حساب حكم منتخب بحرية مشهودة، وإذا قاتل المحلي أعداء الغربيين دفاعاً عن أرضه ومقدساته يكون مقاتلاً لأجل الحرية، ولما يغزو الغربيون بلاد هذا المحلي نفسه ويقاومهم كما قاوم غيرهم يصبح إرهابياً متوحشاً، وعموماً هذا التقلب ليس غريباً على حضارة جعلت المنفعة، هكذا بجلاء، ميزاناً معتمداً لسلوك البشر.

وقد أشار المؤرخ جورج مارسدن إلى ارتباط المبادئ بالمصالح في السياسة الأمريكية بقوله: "لقد كانت المثل الأخلاقية العليا أحياناً القوى المحركة الحقيقية في السياسة الخارجية الأمريكية، لكنها كثيراً ما كانت تستخدم لخدمة المصالح الذاتية للأقوياء والطموحين"[13].

3 - موقع الدوافع الأخلاقية:

كان الأمريكيون يعتقدون بسمو مثلهم الأخلاقية على أخلاق الآخرين، وقد دفعهم هذا الشعور إلى سلوك يختلف عما يمكن لأية منظومة أخلاقية أن تنتجه، وبتعبير المؤرخ مارسدن: "ومن سخرية الأقدار أن هذا الإحساس بأهمية الفضيلة الذي ساهم التراث البيوريتاني في توفيره يمكن أن يؤدي إلى استعلاء أخلاقي معنوي متغطرس ينتهك حقوق نفس الأشخاص الذين يزعم النظام الأخلاقي أنه يقوم بحمايتهم"[14]، وقد امتد هذا الانتهاك من بداية الاحتكاك بالسكان الأصليين إلى يومنا هذا مع كل أمة يحتك الأمريكيون بها مع أنهم أخبرونا بأن الحضارة الغربية تصحح مسارها تلقائياً نتيجة النقد الذاتي الذي تمارسه، وهذا يحتاج أولاً إلى إثبات أنها رأت ظلم الهنود خطأ يجب أن يصحح، وهذا يتنافى مع استعلائها الأخلاقي الذي ربما ندم على جريمته بعد فوات الأوان ولكنه أبعد ما يكون عن الاستفادة منها لتصحيح مساره مادام متمسكاً بأخلاقه تلك، والدليل على هذا أن الأمريكي مازال يرى كل عدو جديد هندياً يجب أن يعامل بنفس الطريقة التي عومل بها الهنود سابقاً، ففي الفلبين كان زعيم المقاومة يذكر بزعيم المقاومة الهندية كما قال ذلك الرئيس تيودور روزفلت نفسه[15]، وفي مصر كان الرئيس جمال عبد الناصر عند الرئيس لندون جونسون نسخة من جيرونيمو زعيم قبيلة الآباتشي[16]، وفي العراق وفيتنام كان الجنود الأمريكيون يحاربون في أرض الهنود[17]، أما فلسطين فلا حديث لهم إلا في شبه التجربة الصهيونية فيها

---

(13) مارسدن، 2001، ص52.
(14) نفس المرجع، ص27.
(15) ديفيز، 2005، ص348.
(16) ليتل، 2009، ص90.
(17) Utter، 2001، ص276.

بتجربة الرواد والمهاجرين الأمريكيين الأوائل وشبه سكانها بالهنود الحمر، وكما وُصف الهنود أعداء الأمس بالإرهاب[18] كذلك تصف الإدارات الأمريكية اليوم العرب والمسلمين أعداء اليوم بنفس الصفة، بل إن الرئيس السابق جون كنيدي أطلق على برنامجه اسم "التخوم الجديدة" ليعبئ الأمة خلفه لما لهذا التعبير المقتبس من تاريخ الحروب الهندية من تأثير تعبوي عليها، هذا في نفس الوقت الذي تذرف فيه الدموع الزائفة على ضحايا التاريخ الأمريكي من السكان الأصليين، أما عندما تتجدد التجربة فإن السلوك القديم نفسه يتجدد وذلك لسبب بسيط هو أن دوافع السلوك ليست أخلاقية أو علمية تتعدل بالمعرفة[19] ولكنها دوافع نفعية مازالت منذ بداية الاستيطان.

وبعد هذه المسيرة، وبعد أن رأينا استمرار التدخل الأمريكي المسلح في العدوان على الشعوب في أنحاء العالم بعد فراغه من المقاومة الهندية، في روسيا والفلبين واليابان والصين وكوريا وفيتنام ولاوس والسلفادور ونيكاراجوا وتشيلي والدومينيكان وكوبا وفلسطين والسودان وليبيا ولبنان والصومال وإيران وأفغانستان ووو.. ... إلى مجزرة العراق التي استمرت أكثر من عشرين عاماً، يحق لنا طرح هذا التساؤل المحرج والملح أيضاً بعد كل هذه الأحداث: ماذا استفادت الولايات المتحدة من أخطائها لتصحيح مسارها؟ ألم يقولوا لنا إن حضارة الغرب قادرة على الاستمرار لأنه يصحح أخطاءه تلقائياً بواسطة النقد؟ فما الذي أنتجه النقد الذاتي في تعامله مع الآخر- الذي صدعوا رءوسنا بدروسهم المملة والمنافقة عنه- ونحن نرى الأخطاء نفسها مستمرة كلما دعت المصالح لارتكابها؟ وهل عدل الغربيون مسارهم أم أنهم مستمرون بارتكاب الخطايا نفسها مع الاعتذار الأبله عن كل واحدة منها بعد فوات الأوان وتغير المصالح والانهماك بتكرارها من جديد ولكن مع قوم آخرين إلى أن يفرغوا منهم وتتغير المصالح وتدور دائرة الاعتذار والخطأ مرة أخرى، وكيف نصدق ندمهم على خطيئتهم الأولى مع الهنود الحمر وهم ما زالوا يرون الهندي في كل عدو جديد يقابلونه؟ إلا إذا كانوا يتعلمون من أخطاء كل تجربة أن يقلعوا عن الخطأ فيها وحدها دون

---

(18) Bennett، 2006، ص246.

(19) المسيري، 2005، ص466.

غيرها وهذا ما سيتطلب في كل مرة إبادة كإبادة الهنود الحمر أو حرق بلد كفيتنام أو العراق لتستيقظ ضمائرهم وهو ما لم يحدث إلا بعد فوات الأوان في كل مرة ولهذا لا يجب التعويل حتى على هذه الصحوة المتأخرة.

ومع ذلك فقد ادعى مبهورون بالغرب أن الأخلاق هي التي كفت اليد الأمريكية عن فيتنام واستدلوا بأن قتلى أمريكا هناك أقل من ضحايا حوادث الطرق ولهذا لم يكونوا سبباً في الانسحاب الأمريكي من هناك، وحتى لو سلمنا جدلاً بهذه الحجة، فهل علينا في كل مرة التفرج على احتراق البلاد والعباد إلى أن يستيقظ الضمير الغربي في ضوء تكرار الأخطاء وعدم الاعتبار والذي أشار له المؤرخ الأمريكي أناتول ليفن[20]؟ كما أن هذا التبرير يتناسى رمزية الحوادث ودلالاتها التي لا تخضع لعمليات حسابية مجردة، وقد أشار إلى هذا أحد الباحثين الأمريكيين عندما وضح أن اهتمام المؤرخين الأمريكيين بالحروب الهندية وخسائرها أكبر من اهتمامهم بالأوبئة وضحاياها رغم أنهم أكثر من ضحايا الحروب[21]، وهذا يعود إلى أن العقل يتعامل مع رمزية الحدث وليس مع الحدث المطلق، ولهذا فإن أثر أحداث 11سبتمبر2001 تفوق آثار حوادث الطرق في أمريكا رغم قلة عدد الخسائر البشرية في الأولى مقابل الثانية، وهذا يفسر لنا لماذا انسحبت أمريكا من فيتنام ولماذا مازال الاهتمام بأدق تفاصيل المعارك مع الهنود رغم انتهاء عصرها وبعد زمنها، ولماذا مازالت المؤلفات لا تنقطع عن هزيمة الجيش الأمريكي أمام تحالف القبائل في معركة نهر"القرن الكبير"الصغير سنة 1876 في شمال السهول العظمى رغم أن عدد قتلى الجيش الأمريكي لم يتجاوز ثلاثمئة وهو رقم صغير مقارنة بالمعارك الحديثة ولكن رمزية المعركة أكثر من العدد المجرد إذ أن لها أبعاداً أكبر من الوباء الذي من الممكن أن يعد كارثة طبيعية لا يد للبشر فيها[22] ولهذا لاتستحق الاهتمام كهزيمة جيش الجمهورية بقيادة أصغر جنرالات الحرب الأهلية سناً وأشهرهم أمام حفنة "متوحشين" في الذكرى المئوية الأولى للاستقلال.

---

(20) ليفن، 2008، ص176.

(21) McDermott، 1998، ص104.

(22) Kelton، 2007، ص221.

وقد حظيت الدوافع الأخلاقية بأكثر من حجة تدافع عن وجودها في السياق الحضاري الأمريكي، منها مثلاً ما مر عن تفوق المثل الأخلاقية الأمريكية على مثل بقية الشعوب (الشعب المختار أو إسرائيل الجديدة)، ومنها أيضا اللجوء إلى تبرير أخطاء العهد الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً بأنها أخطاء سبق لبقية البشرية أن وقعت فيها إلى حد تبرير سلب أراضي الهنود بأن قبائلهم كانت تعتدي على بعضها بعضاً فلماذا يلام الأمريكي إذا فعل ما فعله صاحب الأرض نفسه من قبله[23]؟ ولست أدري ما هي ميزة حضارة العقل والتقدم والإنسانية والحرية والعلم إذا كانت تبرر نفسها بأخلاق فجر الخليقة؟ وما هي قيمة التقدم البشري الذي زعموا أنهم حملة لوائه إذا كان الإنسان مازال يمارس أخلاق البداية في نهاية التاريخ؟ وما هي ميزة الأب الراشد إذا كان يبرر خطأه بخطأ أطفاله الذين يقوم على إرشادهم فإذا به يتصرف مثلهم؟ وقد وصل الأمر ببعض المبررين ومادحي الذات إلى الدعوة إلى النظر لتاريخ فتح أمريكا على أنه خلاف بين القبائل التي استعانت بالوافد الأوروبي على بعضها[24]، ولم يسأل المحتج نفسه لماذا لم تحل الإبادة بالسكان الأصليين الذين عاشوا آلاف السنين في بلادهم مختلفين إلا بعد تدخل هذا الوافد؟ وهل كانت خلافاتهم ستنتهي إلى هذه النتائج الكارثية من قتل وسلب وتهجير وتدمير لو لم يتدخل الرجل الأبيض؟ وهل يمكن عد تدخله هذا جانبياً مع النتائج الساحقة التي نجمت عنه؟ أو هل يمكن عد ما حصل في القارة من محارق شملت الجميع بلا استثناء أنه ناجم عن إرادة السكان الأصليين أياً كان موقفهم من بعضهم البعض؟ ولعل هذه الحجة تشبه تدخل الغرب في الخلافات العربية والإسلامية -كحروب الخليج مثلا-لينتهي بها إلى كوارث ما كانت لتحل لولا تدخله الفج.

ولم أجد رداً على هذه الاحتجاجات بأخطاء الآخرين لتبرير الذات أفضل مما سطره الأديب الراحل غسان كنفاني على لسان العائد إلى حيفا في حواره مع ابنه الذي ينطق باللسان الصهيوني: "متى تكفّون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجيّرة لحساب ميزاتكم، لقد اهترأت هذه الأقوال العتيقة، هذه

(23) Lazarus، 1999، ص413.

(24) .Brandon، 1985، ص245.

المعادلات الحسابية المترعة بالأخاديع... مرة تقولون إن أخطاءنا تبرر أخطاءكم، ومرة تقولون إن الظلم لا يصحح بظلم آخر، تستخدمون المنطق الأول لتبرير وجودكم هنا (في فلسطين)، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه، ويخيل إلي أنكم تتمتعون إلى أقصى حد بهذه اللعبة الطريفة، وها أنت تحاول مرة جديدة أن تجعل من ضعفنا حصان الطراد الذي تعتلي صهوته... وأنا أعرف أنك ذات يوم ستدرك هذه الأشياء، وتدرك أن أكبر جريمة يمكن لأي إنسان أن يرتكبها كائناً من كان، هي أن يعتقد ولو للحظة أن ضعف الآخرين وأخطاءهم هي التي تشكل حقه في الوجود على حسابهم وهي التي تبرر له أخطاءه وجرائمه" ويختم احتجاجه قائلا: "وأنت، أتعتقد أننا سنظل نخطيء؟ وإذا كففنا ذات يوم عن الخطأ، فما الذي سيتبقى لديك؟"[25].

وهناك حجة حاولت التخفيف من العبء الأخلاقي الذي ترتب على تدمير المجتمعات الأصلية في أمريكا باللجوء إلى حسابات مقبرية تحصر الأثر الأمريكي في قتل بضعة آلاف من الهنود مما لا يكون إبادة[26]، ويا دار ما دخلك شر!، وينسى المحتجون أن الضرر الذي جاء به المهاجرون الأوروبيون لم يقتصر على القتل المباشر بالسلاح، على بشاعته، فقتل رب أسرة محارب مثلاً يؤثر على أسرته وحياتها وإعالتها، كما أن أسر إفريقي واحد لاستعباده كان يكلف عشرة أضعافه خسائر أثناء الأسر والنقل، هذا بالإضافة إلى أن الهنود عانوا كذلك من أعمال التهجير والتجويع والاعتقال وقبل كل ذلك الأمراض التي جلبها المهاجرون وعدوها تدخلاً إلهياً لإفراغ القارة من سكانها لأجلهم بل وتدخلوا عمداً في نشرها أحياناً؛ ونسيان الأثر الواضح لكل هذا على بنية القارة كما كانت قبل "اكتشافها" فيه اختزال وإنكار مدى الدمار المعلوم بالضرورة مما أسماه عدة مؤرخين المحرقة الهندية تشبيها لها بالمحرقة اليهودية في الفكر الغربي.

ويرفض بعض المدافعين عن التاريخ الأمريكي، تحت شعار رفض الجلد الذاتي، محاسبة القرون الماضية وفق قيم القرن العشرين، وأن ما هو مرفوض

---

(25) كنفاني، 2006، ص73.

(26) Prucha، 1995، ص549.

اليوم كان مقبولاً بالأمس[27]، وهذه الحجة تقفز على حقيقة أننا لا نحاسب التاريخ بقيمنا بل بالقيم التي سادت فيه وفق أقوال واعترافات المحاسَبين أنفسهم، فلا ندين جورج واشنطن وفق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة سنة 1948مثلاً، ولكننا ندينه وفق ما كان يقوله بنفسه أو ما كان سائداً في عصره من قيم سطرتها المعاهدات والقوانين والتصريحات وغيرها مثل مرسوم الشمال الغربي الذي أصدرته الحكومة الاتحادية سنة 1787 بعد انتصار الثورة الأمريكية وجاء فيه: " سنلتزم بأقصى درجات حسن النية تجاه الهنود، فلن تؤخذ أراضيهم منهم دون موافقتهم أبداً... وستشرع من وقت لآخر قوانين قائمة على العدالة والإنسانية لمنع ارتكاب الأخطاء بحقهم وللمحافظة على السلام والصداقة معهم"[28]، هذا إلى جانب مئات المعاهدات التي قدمت وعوداً مبنية على قيم عصرها ومع ذلك لم يلتزم بها ومازالت القبائل الهندية تطالب بما قدمته هذه الوثائق القديمة، وإذا أضفنا لكل ما سبق تصريحات كبار السياسيين والعسكريين والقانونيين التي اعترفت في زمنها بالذنب المرتكب ضد السكان الأصليين ولم تر فيه عدلاً، لعلمنا أننا لا نقاتل الزمن الماضي بأسلحة حديثة بل بنفس الأسلحة التي استخدمت فيه، وكيف إذا رأينا أن أخطاء الماضي مازالت ترتكب إلى اليوم في زمن تطور القيم والتقدم البشري؟

وهناك تبرير لعملية التوسع مشتق من قلة عدد الهنود واتساع القارة التي كانوا "يحاولون الاحتفاظ بها بأنانية"[29]، وهو تبرير متهافت كثيراً لو نظرنا إليه من زاوية تجارب تاريخية أخرى وقعت في عوالم مختلفة عن العالم الأمريكي مثل تجربة إسكان العشائر البدوية في الدولة العثمانية "المتخلفة" و"المستبدة" و"المتوحشة" ورغم ذلك تمكنت من القيام بتوطين البدو في بقاع واسعة من أراضيها في تجربة لم تخل من العنف ولكن ليس بنية سلبهم أرضهم ولهذا كانت محصلتها النهائية فائدة للطرفين حين تحول البدو الرحل إلى الزراعة المستقرة[30]

(27) McDermott، 1998، ص110.

(28) Prucha، 1995، ص47.

(29) ليفن، 2008، ص425.

(30) كواترت، 2007، ج2 ص501 و568 و606 و611 و613 و630 و646 و649.
- Lewis، 2009.

ولم يعانوا من الإبادة والآثار المدمرة التي وقعت على هنود أمريكا الذين أبدوا استعداداً ظاهراً للسير في ركاب "المدنية" التي لم تكن قابلة بهم بنفس درجة قبولهم بها كما اعترف بذلك الجنرال جورج كروك، وهذا التباين يظهر كيف أن النية من الفعل تؤثر في نتائجه، فنية الأمريكيين، لو سلمنا لهم بالدولة والسلطة، كانت الحصول على الأرض لأنفسهم دون سكانها وليس البحث عن مصالحهم بصفتهم رعايا، حتى لو لم يعلنوا هذه النوايا التي أثبتتها الحوادث في النهاية، أما نية العثمانيين فكانت توطين العشائر لكف أذاهم وليصبحوا منتجين، وهذا ما حصل في النهاية، وإن هذا التبرير التوسعي يذكرنا بالتبرير الصهيوني لنكبة فلسطين الذي اعتنقه بعض "الواقعيين" لأنه "كان يصعب تصور كيفية تأسيس دولة يهودية وتدعيمها بوجود هذا العدد الكبير من الأقلية الفلسطينية المعادية"![31] ومن الذي سلم بوجوب إقامة هذه الدولة أصلاً غير أصحاب المصلحة المادية في مركزها الاستراتيجي وليس في أهميتها الدينية أو الاقتصادية كما أكد ذلك زعيم المنظمة الصهيونية ناحوم غولدمان سنة 1947[32]؟ ولماذا تقوم هذه الدولة على حساب الأبرياء دون الذين أذنبوا فعلاً بحق اليهود؟ ولماذا نتحمل نحن الجريرة ولا تطالب شعوب الغرب مثلا بإحسان معاملة يهودها بدل مطالبتنا بترك أوطاننا لحساب عناد الغرب ورفضه استقبالهم؟ أي أن إنقاذ اليهود لم يكن مشروطاً بنكبة فلسطين، كما أن استيعاب "ثلاثمئة ألف هندي"-كما قدرهم التوسعيون يومئذ[33]- داخل المجتمع الأمريكي المليوني لم تكن مستحيلة ولم تكن تتطلب هذه الوحشية في معاملتهم كما أثبتت تجربة إسكان العشائر في الدولة العثمانية، فقد كان يمكنهم البقاء في المجتمع الأمريكي لو أحسن معاملتهم وقدم لهم وسائل التحضر بعد استسلامهم ليصبحوا على شاكلة الرجل الأبيض، أو البقاء في بلادهم بحد أدنى من الأرض الصالحة للصيد كما كانوا يعيشون في الماضي بعدما كفلت لهم بعض المعاهدات هذا الحد الأدنى (معاهدة

---

(31) أناتول ليفن، 2008، ص493.

(32) الموسوعة الفلسطينية، 1990، ج6 ص334، دراسة الدكتور عبد الوهاب المسيري: الصهيونية.

(33) Prucha، 1995، ص624.

لارامي 1868 مثلاً)، ولكن المجتمع الأمريكي لم يقدم أياً من هذين البديلين.

4 - موقع الدور الإنساني في السياسات الأمريكية:

يدل استقراء المواقف الإنسانية في التاريخ الأمريكي على أن أصحاب هذا التوجه لم يكونوا بديلاً متكاملاً لتوحش الرأسمالية، وكل ما فعلوه كان ضمن ما يسمح به التوجه السياسي العام نحو هدف الاستيلاء على الأرض بما لا يعطله أو يوقف مسيرته، وكان من الواضح أن موقف الإنسانيين انطلق من توفير أكبر قدر ممكن من الحماية للضحايا الهنود ولكن ضمن هذا الإطار، وكان من مبررات الموقف الإنساني عدم قدرته على وقف السيل العام ضد الضحية، أو حتى الإيمان الحقيقي والعميق بنفس شعارات المجتمع الرأسمالي الذي يريد "قتل الهندي وإنقاذ الإنسان" أي استئصال الثقافة الهندية من صاحبها والإبقاء على حياته ليعيش كالأمريكي تماماً، ومن ثم لا بأس بانتزاع التنازلات من هذه الضحية سواء من باب الواقعية أوالتماهي مع المشاريع الرسمية تحت شعارات التحضير والأمركة والاستيعاب بصفة هذه الخطوات أنسب ما يحصل عليه "البدائي" و"المتوحش" ولهذا لم يكن مستغرباً أن يتفق الإنسانيون مع التوسعيين في مراحل عديدة وأن يسهلوا لهم عملية سلب الأرض واضطهاد الهندي ولكن تحت شعار السعي نحو مصلحته التي لا يدركها هو بفعل تخلفه الحضاري ويدركها الأب الأبيض أكثر منه كما يدرك الأب مصالح أبنائه القاصرين أكثر منهم، ولهذا وصف دورهم في بعض المراحل بأنه منسجم مع أكثر الآراء قسوة وعدم تفهم للهنود[34]، حتى أن واحداً من الشخصيات الهندية الأكاديمية البارزة قال: " اللهم احمنا من الذين يريدون مساعدتنا " ![35]، ومازال الدور الأمريكي يمارس أبوته علينا وعلى العالم ويخططه وفق مصالحه مستنداً إلى فكرة أن ما هو صالح لأمريكا فهو صالح للآخرين[36].

أما عندما كانت الإنسانية بديلاً فعلياً للسياسة التوسعية، وهذا ما تجلى في

---

(34) Marks، 1998، ص232.

(35) نفس المرجع، ص321.

(36) أناتول ليفن، 2008، ص78.

تجربة طائفة الكويكرز المسالمة في بنسلفانيا، فإنها سرعان ما أقصيت عن سلطة اتخاذ القرار وحل محلها فئة تناصر التمدد وسلب أراضي السكان الأصليين واندمجت الولاية في التيار السياسي السائد وذلك بعدما بدأت بداية واعدة من العلاقات السلمية معهم ولكنها لم تستطع الاستمرار في جو غلب عليه النهم والجشع، ولما تولى رئيس من الطائفة حكم أمريكا، وهو الرئيس رتشارد نيكسون، لم يكن مختلفاً عن غيره من رؤساء أمريكا وبخاصة فيما يخص قضايانا المتصلة بالكيان الصهيوني مما يثبت عدم أهمية الخلفية التي يأتي منها الرئيس الأمريكي ما دام قد حظي بقبول المصالح الموجهة للسياسة العامة.

5 - منبع ازدواجية المعايير:

طالما شكت مجتمعاتنا من ازدواجية معايير الدول الغربية في التعامل مع قضايانا، فما يصلح للغربي لا يصلح لنا، وهذه الازدواجية تعود بجذورها إلى أثرة النفس البشرية وحبها الحصول على أكثر مما يحصل عليه غيرها ولهذا تعامل نفسها بمعيار يختلف عن الذي تطبقه على الآخرين، ولهذا جاء في الوصايا أن حب الإنسان لغيره ما يحبه لنفسه من علامات السمو والخلق الرفيع.

ويظهر تاريخ أمريكا أن مصير الهنود اختلف عن مصير البيض، وأن الهندي إلى اليوم الأكثر فقراً والأقل تعليماً والأسوأ صحة[37]، رغم كل الشعارت التي رفعت لاستيعابه في المجتمع الأمريكي الذي وصل إلى لحظة إدراكية فهم منها عبث هذا الادعاء فرفع في سنة 1845 شعار "المصير الجلي" الذي نص على أن مصير السكان الأصليين هو الفناء.

وقد ساندت العنصرية بالطبع هذه المنفعة الحصرية، ما يصلح لنا لا يصلح لغيرنا لأنهم أقل منا وليسوا بأخلاقنا، ومازالت هذه العنصرية متجذرة في المجتمعات الغربية كما نص على ذلك تقرير لخبراء في منظمة اليونسكو[38]، وبخاصة التعصب تجاه العرب وفقاً لما جاء في افتتاحية نيويورك تايمز في 14 يوليو 1993 "وبفضل السياسة الدولية السائدة يبقى رغم ذلك (أي رغم تراجع

---

(37) Brandon، 1985، ص395.

(38) الويشي، 2007، ص237.

التعميمات العرقية المهينة) أحد أشكال التعصب العرقي الأعمى محتفظاً بقدر من التقدير في الولايات المتحدة وهو التحامل على العرب"[39]، ولهذا تصرفوا تجاه العراق في أزمة احتلال الكويت بشكل مناقض لتصرفهم تجاه الاحتلال الصهيوني، مع تشابه الحالتين من منظورهم.

6 - ازدواجية الأقوال والأفعال للتغطية على بؤس السياسات:

عندما لا تسعف المبادئ السياسي للوصول إلى المصالح التي يعمل لأجلها، يلجأ إلى "التحدث بلسان مزدوج" كما يعبر السكان الأصليون في أمريكا، فهو مثلاً يتحدث عن حقوق الهنود بلسانه ويخترقها في أفعاله، ويتحدث عن نقل الهنود إلى الغرب طوعياً، ويمارس العنف لتطبيقه، وربما لم يذكر الأرض في برامجه وهي هدفه الأسمى، وهذه السياسة الأمريكية مازالت تستعمل معنا إلى اليوم منذ أن رفض الرئيس روزفلت الديمقراطية للشعب المصري وأيد الاستبداد البريطاني زمن كرومر في نفس الوقت الذي كان الإنجليز يرعون المعارضة الدستورية في الدولة العثمانية ويوفرون الملجأ لها، ثم لما أرسل الرئيس ويلسون لجنة كنج كرين لاستطلاع رغبات أهالينا ثم انقلب على حق تقرير المصير الذي رفع لواءه بنفسه وساير القوى الاستعمارية بشيء من "المرونة" وأيد وعد بلفور، ومازالت هذه الازدواجية في الخطاب الأمريكي معنا إذ كانوا يتكلمون عن عدم شرعية الاستيطان في الأراضي الفلسطينية وفي نفس الوقت يمولونه بمساعداتهم الضخمة، ويرفضون الاحتلال بالكلام ولا يفعلون شيئا لإزالته ويسكتون عن انتهاكاته المستمرة.

وقد تصل هذه الازدواجية إلى الكذب الصريح مثلما حدث في العدوان على العراق حينما بثت الإدارة الأمريكية أكثر من تسعمئة كذبة لتبرير فعلها.

7 - دور الاضطهاد في تأسيس الديمقراطيات:

لاحظنا أن الاستيلاء على أرض الهنود في أمريكا تم بقرار ديمقراطي اتفق فيه التيار الرئيس على إزاحتهم من طريق الحضارة وسلبهم ممتلكاتهم، ولم

(39) ليتل، 2009، ص57.

يقتصر الدور الديمقراطي على تشريع الاضطهاد بل كان لهذا الاضطهاد دور مهم في تأسيس الديمقراطية لأنه " بالنظر إلى أهمية امتلاك الأراضي في الاقتصاد الأمريكي، كانت أعظم مساهمة في إشاعة الديمقراطية الاقتصادية والفردية، وضع نظام لتوزيع الأراضي بأسعار زهيدة على المستوطنين. تطبيق هذه السياسة الحرة على مساحات الأرض الشاسعة والخصبة الواقعة خلف الجبال، أدى خلال قرن من الزمن إلى المساواة والديمقراطية الاقتصادية"[40]، وقد بنى رسول الديمقراطية توماس جيفرسون تحقيق ديمقراطيته على ضمان وصول جميع الأسر البيضاء إلى الملكية من الأراضي العامة (التي نزعت أو ستنزع من الهنود)، وذلك في سبيل القضاء على الامتيازات الأرستقراطية في مجتمع المستوطنين البيض[41]، ومن الواضح أن هذا المثل العلى سيُبنى على حساب الآخرين، وهذه الحقيقة لم تغب عن كثير من المؤرخين، فالاضطهاد كان مدعوماً بالديمقراطية وداعماً لها في الحالة الأمريكية الهندية كما كان دعم الكيان الصهيوني قراراً ديمقراطياً أمريكياً مازلنا نذوق مرارته إلى اليوم.

أما الدعوة إلى الديمقراطية بين غير الغربيين فخضعت للعبة المصالح بشكل مفضوح منذ أيام السكان الأصليين في أمريكا، إذا كان الزعيم مناوئاً للسياسة الأمريكية فهو طاغية يجب استبداله وإن كانت السياسة بحاجة إليه تنسى كلامها عن طغيانه وتتزلف إليه، أما الشعب فهو محتاج للديمقراطية عندما يراد تفكيك وحدته والتفافه حول زعيم "طاغية"، وعندما تكون نفس الديمقراطية حائلاً أمام المطامع الأمريكية في الاستيلاء على الأرض، كشرط موافقة أفراد القبيلة على هذا التخلي مثلاً، يتم الالتفاف عليها بشتى أصناف الخداع والرشوة والتهديد بل واللجوء إلى "الديكتاتورية" للحصول على تعاونها وموافقتها بدلاً من الجمهور، تماماً كما شاهدنا هذه المسرحيات في بلادنا، ولهذا أقول إنه في زمن تروج فيه الديمقراطية الغربية بصفتها حلاً سحرياً ودواء جامعاً لمشاكلنا كلها، لابد من تذكر هذه الحقائق في بناء مستقبلنا وأن يكون النظام السياسي الذي نبحث عنه نابعاً من مشاكلنا وواقعنا وليس مستورداً لمصالح خارجية، إذ لا يعني السعي

---

(40) لاسي، ص141.

(41) Onuf، 2000، ص166-167.

نحو المشاركة الشعبية في صنع القرار والرقابة على تنفيذه أن يكون الجواب الليبرالي هو الوحيد على ذلك وبخاصة بعدما رأينا أنه بُني على إبادة وتعاسة شعوب، نحن من ضمنها، ادعى أنه منقذها.

8 - التنمية في السياسة الأمريكية الخارجية:

يقول المؤرخ أناتول ليفن إن دروس التطور في السياسة الغربية أثناء الحرب الباردة وبعدها توضح وجود ثلاثة متطلبات لإنجاح أية تجربة تنموية: دولة قوية لديها سياسة اقتصادية صحيحة، قومية محلية تقف إلى جانب الغرب الذي "عليه أن يكون مستعداً للقيام بتضحيات اقتصادية حقيقية من أجل الدول التي يرغب في مساعدتها بالتنمية"[42]، وبالطبع فإن مطالبة الغرب النفعي بالتضحية المجانية أو القائمة على إدراك غير مادي للمنفعة فيه سذاجة بالغة ومثالية خيالية لن تتحقق إلا إذا تغيرت الحضارة الغربية تغيراً جذرياً وهو أمر ليس متوقعا في المستقبل المنظور، وقد كانت الأمثلة التي ضربها لنجاح التنمية في القرن العشرين بمساعدة غربية كلها ترتبط بالصراع مع الشيوعية ومصالح الاستقطاب في الحرب الباردة وصلت "التضحية" فيها إلى درجة المساهمة "في انهيار قطاعات كبيرة من الصناعات في داخل الولايات المتحدة"[43]، أو هي نماذج رعتها دول غيرغربية أصلاً كالاتحاد السوفييتي والإمبراطورية اليابانية قبل الحرب[44]، وهي شروط لم تتوفر في الصراع مع السكان الأصليين في أمريكا، إذ لم تكن هناك دولة كبرى منافسة لأمريكا على ولائهم، فسحقتهم جحافل الاستيطان لأن المصالح كانت تسير ضد تحضرهم الذي جمع شرطين من الشروط التي ذكرها ليفن للتنمية ولكنه لم يوفر الشرط الأخير الذي يعتمد على استعداد الولايات المتحدة لتقديم تضحيات "حقيقية" دون مقابل من وجهة نظرها، وهذه المصالح الأمريكية نفسها تسير اليوم ضد التنمية والاستغلال الذاتي للموارد العربية، التي تسعى الولايات المتحدة للاستئثار بها، سواء كانت التنمية بشكل جمعي وحدوي أو حتى بشكل

---

(42) ليفن، 2008، ص527.

(43) نفس المرجع، ص531.

(44) نفس المرجع، ص216.

منفرد وقطري كما يؤكد ذلك الدكتور فؤاد زكريا[45].

9 - المؤشر الصهيوني للأذى الغربي:

إن الكيان الصهيوني جزء من الكيان الحضاري الغربي، قامت الدول الغربية، والولايات المتحدة خاصة، بإنشائه في بلادنا ورعايته في أرضنا وحمايته من أهلها والمدافعين عنها ومن ثم فإنه يلخص المدى الذي يمكن أن تصل إليه المعاملة الغربية والأمريكية لأمتنا إذا دعت المنفعة لذلك مهما تكلف ذلك من أذى لنا، وذلك تحت شعارات وتبريرات شتى، وهذا الوضع سار على نهج المواجهة الأولى مع الهنود الحمر كما أثبت هذا في الجزء الأول من دراسة "فلسطين الهندية الحمراء"، ثم سارت على نهجه أوضاع مقاربة من الأذى مع أقطار مختلفة من بلادنا، لبنان والسودان والعراق والصومال وأفغانستان وغيرها، مما يؤكد استمرار آلة القمع الأولى في الدوران، ويرى الأستاذ عطية الويشي أن الحالة الصهيونية هي "الحالة التي تصف المشهد الغربي بأبعاده السياسية والحضارية، والتي تتماثل من حيث السمات والخصائص والتجليات، سواء مع التنظير والفلسفة، وتنسجم مع معطيات الواقع بجذوره وملابساته التاريخية"[46]، ولهذا فإن علينا النظر إلى الحالة الصهيونية كلما أردنا استكشاف الموقف الغربي، والأمريكي خاصة، تجاهنا.

أين موقع الاستثنائية؟

لقد كشف مختبر الأخلاق الأمريكية، وهو معاملة السكان الأصليين، أن الاستثنائية المزعومة لا وجود لها وبخاصة بعد أن امتدت هذه المعاملة إلى أمم الأرض كافة، مما يجعلنا نقع على نوع آخر من الاستثنائية والخروج عن المألوف يتمثل في بندين لدى الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة:

1 - **القوة المادية المفرطة**: إذ لم يسبق لأمة أن حازت من القوة المادية ما يهيء لها الهيمنة على العالم، وكانت كل الدول العظمى قبل سيادة الحضارة

---

(45) زكريا، 1991، ص51، 61، 75.

(46) الويشي، 2007، ص253.

الغربية تتوسع في مجالها الجغرافي المجاور، فلما تهيأ للغرب أسباب القوة ساد في أنحاء المعمورة كلها لتصل هذه الاستثنائية ذروتها في السيطرة الأمريكية على أبعد النقاط العالمية عنها.

2 - **الهوة الفاصلة بين المثل والواقع**: وهي ازدواجية وجدت لدى كل الحضارات السابقة ومنبعها الاختلاف بين قول الإنسان وفعله، "لم تقولون مالا تفعلون"، ولكن هذه الهوة وصلت أبعاداً استثنائية في حضارة الغرب عموماً والحضارة الأمريكية خاصة، وقد لاحظ ذلك عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر ألان تورين في نقده المجتمع الصناعي عندما قال إنه "مجتمع يضرب المثل الأعلى للتناقض بين القيم النظرية التي يدعو إليها، وبين التطبيق الفعلي لهذه القيم"[47]، فالحديث عن الحرية أنتج عبودية حرفية لملايين البشر، والحديث عن الحضارة أنتج التخلف لمن لم يسعده الحظ بالانتماء للنخبة، ليسهم في رفاهيتها ببؤسه، والحديث عن الإنسانية أنتج نخبوية لا مثيل لها بين شمال الأعراق وجنوبها، والحديث عن العقل أنتج سياسات الرغبة والهوى التي وصلت حدوداً غير عقلانية من القتل والإبادة، ولم نر تراتبية طبقية بين البشر كالتي وجدت في ظل الحديث عن المساواة، كما أن الحديث عن العلم جعله أداة للأذى والتبذير والتطور المنفلت في أسلحة الدمار بدل أن يكون أداة للإصلاح.

ولما اجتمعت هذه الاستثنائية باستثنائية القوة ضاعفت الأذى الذي أشار إليه بيان أكاديمي أمريكي في 10/ 4/ 2002 وقعه 120 أستاذاً اعتراضاً على نهج الإدارة الأمريكية في الرد على هجمات سبتمبر وجاء فيه: " ولم تتحقق من قبل هذه الدرجة من عدم التناسب الخطير بين قوة التدمير المادية والقوة البناءة للحكمة الإنسانية"[48].

نتيجة الاستنتاجات

ليس الهدف من النقد السابق للحضارة الأمريكية هو تضخيم الذات بتصغير

(47) محمد، 2004، ص101.

(48) حمزة، 2003، ص373 دراسة محمد سيد أحمد، نحو حوار عربي أمريكي.

الغير، ولا الغرق في أحلام التفوق على حساب الآخر، ولا الاستسلام لأوهام الاكتفاء التي يتحجج بها بعض المتحمسين بعمى للغرب لحرماننا من حق المشاركة في نقده، فمجتمعاتنا العربية والإسلامية غارقة في فوضى التخلف والجهل والمرض والفقر وبحاجة ماسة إلى إعادة ترتيب جذرية، وهدف هذا النقد هو المساعدة في تلمس أفضل الطرق للخروج من المأزق الحضاري الذي يحيط بنا والبحث عن السبيل الأقصر لهذا الترتيب الجديد، ولكن هناك فرق بين الترتيب الذي ننشده والتدمير الذي ساقته الولايات المتحدة إلينا، فهي حضارة فرضت نفسها بقوة السلاح والإبهار ومنحت لنفسها مزايا حصرية ربما أسعدت أصحابها ولكنها بالتأكيد ليست صالحة لغيرهم ممن استُبعدوا من دائرة الاختيار، وهذا إن دل على أزمة أخلاقية فإنه ليس دليلاً على الانهيار، تماماً كما كان بإمكان النازية أن تسود لو لم تتصادم مع قوى تكافئها من جهة التسلح المادي.

فهل علينا أن ننتظر لحظة خيالية يتمنى البعض قدومها ويرعى فيها الذئب إلى جانب الحمل ويتخلى فيها الغربي عن فوقيته ويعيش فيها مع الناس وليس على حسابهم، بل يساعدهم على نوائب الدهر[49]، لنكف عن هذا النقد ونشاركه أعباء الحياة على نفس المستوى؟ وهل يمكننا أن ننتظر بعد أن رأينا عبثية آلية التصحيح الذاتي فيما يتعلق بمعاملة الآخرين على مدى قرون طويلة من عمر الحضارة الحديثة، رغم غزارة النقد الموجه من الداخل الغربي لاضطهاد الغير، تغيرت فيها وجوه الاستغلال وتطورت ولكن جوهره ظل قائما بعناد لأنه مستمد من الغرائز البشرية التي وجدت في تقنين المنفعة أرحب مجال للاستقرار.

إن موقعنا من هذه الحضارة الغربية والأمريكية خاصة هو موقع "الآخر" لسببين: أنها حضارة لم تنشأ في مجالنا الاجتماعي ولم تتطور فيه، ومن ثم لن تعطي النتائج نفسها عند إعادة استنساخها في بيئة أخرى كما أثبتت تجاربنا منذ التنظيمات العثمانية إلى ديمقراطية العراق الإجبارية، والسبب الثاني هو أننا في

---

(49) زكريا، 1958، ص69.
- معتوق، 2009، ص171.
- أناتول ليفن، 2008، ص533.
- نجدي، 2005، ص343.

موقع الضعيف المتلقي في موازين القوى الحالية ولهذا يتحدد ما ينالنا من هذه الحضارة بما تقرره قواها الأصلية.

وفي الوقت الذي أتعجب فيه ممن يرفض فكرة الصلاحية لكل زمان ومكان عندما يتعلق الأمر بتراثنا وقيمنا ثم ينادي بها عملياً عندما يدعو لنسخ تجارب الآخرين الذين لا يخفون اعتقادهم بالشمولية الزمانية والمكانية لحضارتهم، فإنني لا أعتقد أن هذا النسخ سيضيف إنجازا إلى تاريخنا المليء بالعثرات منذ داهمنا الغرب في عقر دارنا.

يقول الدكتور فؤاد زكريا في كتيبه النفيس "العرب والنموذج الأميركي" الذي ألفه رداً على المد الأمريكي الزاحف في ثمانينيات القرن العشرين:

"القضية التي أدافع عنها في هذه الدراسة هي

أولاً: أن النموذج الأميركي فريد في نوعه، حدث مرة واحدة ولا يقبل التكرار.

ثانياً: أن هذا النموذج الأميركي، الذي يدعو حقا إلى الانبهار، مليء بالعيوب الذاتية.

ثالثاً: أن هذا النموذج لا يصلح لأي بلد في العالم الثالث، ولا لأي بلد في العالم العربي بوجه خاص"[50].

كما أنه علق على فكرة الحكم الأخلاقي على السياسات الأمريكية بقوله: "إن المسألة ليست على الإطلاق مسألة أخلاقية: فليست أميركا، في عالمنا المعاصر، هي الفتى الشرير الذي يجر أصدقاءه معه إلى هاوية الفساد، وإنما الموضوع في أساسه موضوع نظام لا يملك إلا أن يسير في هذا الطريق، لأنه هكذا بدأ، وهكذا نما وتوسع، وهكذا يتحتم عليه أن يسير"، ويتابع مستنتجاً:

"إن أميركا، بحكم تكوينها ومصالحها الحيوية، لا تستطيع إلا أن تكون كذلك، أما نحن فمازالت أمامنا فرصة للاختيار، وليس هناك على الإطلاق ما

(50) زكريا، 1991، ص8.

يرغمنا على أن نختار طريقاً ثبت لنا أنه لن ينفع بلادنا الغنية ولا الفقيرة، ولن يوجه من ينقاد له إلا إلى طريق الهاوية"[51].

هذه الكلمات أهديها إلى أجيالنا الصاعدة التي تتلمس طريقها، من هذا المفكر المعروف الذي قضى عمره باحثاً في الفكر الغربي والحضارة الغربية.



الرؤية الهندية للآباء المؤسسين الحقيقيين بدل المنحوتين على جبل راشمور

(51) نفس المرجع، ص87.

الفصل الرابع والعشرون

الحوار الحضاري في التاريخ الأمريكي: هل انتقلت التنمية والتقدم والحضارة الأوروبية إلى السكان الأصليين؟

عندما تلتقي أي جماعتين بشريتين على أرض واحدة ينشأ بينهما حوار حضاري إذ يتعلم كل منهما من الآخر ما يراه مفيداً لحياته، وإذا كان هذا الوصف صحيحاً في العلاقات السلمية كالسياحة والتجارة والهجرات، فإنه صحيح أيضا في مجال الصدامات إذ لا تمنع الحرب بين فريقين، وبخاصة إذا طال أمدها، عملية الاقتباس المتبادل بينهما، وإن كانت درجته تختلف حسب تفوق كل منهما، ذلك أن الطرف الأضعف مولع بتقليد الغالب كما أكد ابن خلدون، وقد عرفنا مثل هذه الحوارات في تاريخنا الإسلامي أثناء حروب الفرنجة الصليبية التي كانت مناسبة للتبادل الحضاري الذي كان نصيب الفرنجة منه أكبر بحكم التفوق الإسلامي، والغزوات المغولية التي انتهت بإسلام الغزاة فكان ذلك ثغرة في القاعدة الخلدونية، وأيضاً أثناء الفتوحات الإسلامية حين لم يتردد المسلمون في تمثل الحضارات التي دخلوا أراضيها من موقع القوة والاقتدار.

وبحلول عصر الكشوف الجغرافية انطلقت أوروبا في القرن الخامس عشر وما تلاه في آفاق العالم محاولة دعم مواجهتها مع عالم الإسلام فعثرت في محاولتها هذه على عوالم أخرى ما لبثت أن دخلت في مواجهات معها لاستنزاف مقدراتها، سواء لدعم دول المركز الأوروبي أو لتأسيس كيانات جديدة قائمة بنفسها في تلك الأصقاع، وكانت المواجهة في القارة الأمريكية مع سكانها

الأصليين نذيراً لما سيصيب بقية أنحاء العالم بعد ذلك سواء في استرقاق إفريقيا أو استعمار آسيا أو إبادة أستراليا أو تقسيم العالم الإسلامي وكل ذلك جرى نموذجه البدئي في القارة الأمريكية لأنها شهدت أول تطبيق لرؤية عالم النهضة الغربية والأنوار الأوروبية والعقل الحديث على العوالم غير البيضاء، ومن هنا كانت أهمية دراسة هذا الموضوع في التاريخ الحديث.

الحوار الحضاري في ظل صراع الوجود

منذ بداية اللقاء بين العنصرين الأوروبي الوافد والهندي الأصلي في أمريكا اتضح أنه سيكون هناك صراع بين الطرفين لأن إسبانيا في البداية اهتمت بالحصول على ثروات أمريكا الوسطى والجنوبية، واهتم مهاجرو إنجلترا بالحصول على أرض الهنود، وربما لم يكن واضحاً لدى الجميع في بداية القرن السابع عشر أن الأوروبيين سيكتسحون القارة كلها ويستوطنوها ويطردون جميع سكانها، ولكن الواضح آنذاك أن الأوروبيين يصارعون أهل البلاد على أرضهم أينما حلوا، وعدم وجود مخطط أوروبي في ذلك الزمن للاستيلاء على القارة كلها لا يبرئ الأوروبيين من سبق الإصرار، وذلك على عكس ما يحاول إثباته الساعون للحصول على صكوك الغفران الحضارية بأثر رجعي، فبؤس المشهد المحلي الذي صاحب جميع تجارب الاستيطان الأولي في أمريكا، وما لازمه من نهم لا يشبع لابتلاع الأرض لم يتوقف إلا أمام المحيط الهادي، يثبت أن مصير السكان الأصليين كان إلى زوال أينما حل القادمون الجدد، وما حدث في القرون التالية لجميع السكان الأصليين ليس سوى إعادة مملة للفيلم الذي عرضته أولى المستعمرات في أمريكا، سواء في فرجينيا (منذ 1607) أو بلايموث (منذ 1620).

وقد لخص أحد المؤرخين حقيقة التناقض بين السكان الأصليين والمهاجرين الأوروبيين بتوضيح جانبها الاقتصادي الذي لخص المشكلة الهندية بالسؤال التالي: كيف يمكن الحصول على موارد الهنود؟ وبالقول أيضا إن جميع أوجه العلاقة بين الطرفين اشتقت من قضية جوهرية واحدة هي الصراع على الأرض، أو التمدد الأمريكي في أرض الهنود ومقاومة هؤلاء هذا التمدد، وقد ألفت العلاقة بين الهندي والأرض مصدر هويته الشخصية والثقافية والاجتماعية،

وكانت الرأسمالية التي يعتنقها المجتمع الأمريكي تجعل الأرض إحدى عناصر الإنتاج الرئيسة (مع رأس المال والعمل)، ولا يمكن تحقيق التراكم الرأسمالي إلا بفك قيود الروابط بين الهندي وأرضه والتي تناقض حرية السوق، ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك إلا بأحد حلين: تغيير جذري في المجتمعات الهندية أو إزاحتها من الطريق[1]، ولكن ما هو موقف السكان الأصليين من هذا الطوفان؟

تشير حوادث التاريخ إلى أن كثيراً من المجتمعات الهندية قبلت السير على نهج التغيير وتبني طريقة حياة الرجل الأبيض، وقطع بعضها خطوات واسعة جداً في هذا السبيل كما هو موضح فيما سبق، ولكن المجتمع الأمريكي لم يترك لهذه المجتمعات فرصة للحياة حتى على صورته وظل يطمع بما في يدها من بقايا الممتلكات التي حصرها فيها في مراحل سابقة ودمر كل إنجازاتها التي وصلت إلى محاولة الدخول في الاتحاد بولاية خاصة تمتلك جميع المقومات.

ولما كانت الأرض التي يعيش عليها الهندي هي الهدف الذي يتطلع إليه الرجل الأبيض في صراعه مع غريمه الهندي كما حدد ذلك الرئيس الأمريكي الأول ومؤسس الجمهورية جورج واشنطن[2]، موجزاً بذلك طبيعة العلاقة في كلمات قليلة ومبدداً أوهام الهداية الدينية وجلب الحضارة والتعايش، فقد كان من الطبيعي أن يتخذ الصراع طابعاً دموياً، يتراجع الهندي بقدر ما يتقدم غريمه، ولكن هذا الصراع لم يتم في برهة قصيرة بل امتد مئات السنين وأعطت هذه المدة فرصاً لنشوء حوار حضاري اقتبس فيه الطرفان من منتجات بعضهما الثقافية والمادية ما يعين كل منهما على حياته ويقويه في صراعه، وقبل أن تتحدد نتيجة هذا الصراع شاهدنا تبادلاً مثيراً منه على سبيل المثال ما جعل شباب المستوطنين الإنجليز في أرياف المستعمرات يباهون بارتداء ملابس الهنود (المئزر والجوارب الجلدية) ويذهبون بها إلى اجتماعات الكنيسة حيث يلفتون انتباه الفتيات[3]، ومن الطبيعي ألا يحدث ذلك إلا بين أمتين متعادلتين حضارياً قبل أن تميل الكفة وتهزم إحداهما، كما حدث اختلاط كبير في الدماء نتيجة الزواج المختلط لاسيما

(1) Utter، 2001، ص48-49.

(2) Sword، 1993، ص27.

(3) Calloway، 1995، ص18.

بين رجال الحدود من تجار وصيادين ووكلاء ونساء الهنود مما نتج عنه سلالة عملت وسيطاً بين الحضارتين ولكنها اصطفت في كثير من الأحيان إلى جانب الرجل الأبيض فسهلت له تنفيذ برامجه وكانت لعنة على السكان الأصليين رغم أنها كانت بائسة وفقيرة ومستبعدة مثلهم، ويكوّن اليوم ذوو الدماء المختلطة معظم من يصنفون أنفسهم من أصول هندية[4]، وقد تم التبادل الحضاري في الماضي وفقاً لما يلي:

ما اكتسبه الأوروبي والأمريكي من عالم الهندي الأصلي:

في البداية لا بد من التنبيه إلى أن أهم ما اكتسبه الرجل البيض من الهندي كان الأرض التي يعيش عليها، وهي الجائزة الكبرى التي دار الصراع عليها وحولها، وفي أثناء ذلك وقعت الفوائد المساعدة التالية:

1 - الاعتماد على المساعدات الغذائية الهندية:

كان ما قدمه السكان الأصليون من مساعدات حيوية للوافدين الجدد ضرورياً لبقاء المهاجرين على قيد الحياة، وقد ظلت مستعمرة فرجينيا بعد نشوئها بسنوات طويلة تعتمد على الهنود في التزود بالذرة لغذائها[5] في نفس الوقت الذي كانت فيه مستعمرة بلايموث تحتفل مع السكان الأصليين بالنجاة بعد أول حصاد يمر عليها بمساعدتهم (1621).

2 - تعلم الحياة في البيئة الجديدة:

ذلك أن المهاجرين الأوروبيين وجدوا أنفسهم في بيئة قاسية لما وصلوا العالم الأمريكي الجديد عليهم، ولم يتمكنوا من النجاة إلا بفضل المساعدة التي قدمها لهم السكان الأصليون عن طرق الحياة فيه والتي سميت "مهارات البرية"، كصناعة الفخاخ والصيد وبناء القوارب وإشعال النيران وصيد الأسماك وصناعة الأحذية الخاصة بالسير على الثلوج، هذا بالإضافة إلى زراعة النباتات الغذائية

---

(4) Thornton، 1990، ص176.

(5) Jacobs، 1985، ص160.

التي لم يكن الأوروبي يعرفها في الوقت الذي يعتمد عليها الهندي في غذائه كما سيأتي، وقد تعلم المهاجرون مسالك القارة وطرقها ومصادر المياه فيها من السكان الهنود، وموجز الأمر أن الوافدين الجدد "تعلموا كيف يبقون على قيد الحياة بالتلاؤم مع الطبيعة باستخدام التقنية الهندية"[6].

3 - التعرف إلى نباتات جديدة:

حفلت البيئة الجديدة التي وجد المهاجرون الأوروبيون أنفسهم فيها بنباتات لم تكن معروفة في العالم القديم ويقدر عددها بأكثر من أربعين، وقد تعلموا من السكان الأصليين استخدامات عديدة لها تراوحت بين الغذاء والدواء والملبس، ومن هذه المحاصيل الجديدة الذرة والبطاطا والطماطم والكاكاو والفول السوداني والتبغ والقرع واليقطين ودوار الشمس واللوبيا وغيرها من المحاصيل التي تكون اليوم ثلثي الإنتاج الزراعي البشري[7].

4 - التعلم من الطب الهندي:

على عكس ما هو شائع عن طب المجتمعات "البدائية" الموسوم بالسحر والخرافة عادة، تعلم المهاجرون الأوروبيون استعمال ستين نبتة برية من الهنود الحمر للاستخدامات الطبية وعلى رأسها الكوكايين والكينين[8]، وقد عد أحد المؤرخين مائة وسبعين دواء كان الهنود يستعملونها مازالت على قائمة الاستعمالات الحديثة في وقت كان الطب لدى المهاجرين الأوروبيين مازال ساذجاً وخرافياً مقارنة بحقيبة الطبيب الهندي[9]، ويقول مؤرخ آخر إن الطب الهندي في أمريكا كان معقداً ومركباً وفعالاً في علاج الأمراض المعروفة في القارة قبل الهجرة الأوروبية ولكنه لم يكن كذلك مع الأمراض الوافدة[10].

(6) Marquis، 1987، ص22.
(7) نفس المرجع، ص21.
(8) نفس المرجع، ص22.
(9) Jacobs، 1985، ص163-164.
(10) Thornton، 1990، ص47.

5 - فنون القتال:

أدت إعادة اكتشاف مآثر الهندي بعد فوات الأوان وزوال خطره إلى الاهتمام بمنجزاته الحضارية التي اكتشف منها أنه أثناء المواجهات العسكرية بين السكان الأصليين والوافدين الأوروبيين كان "أكثر المقاتلين الأوروبيين نجاحاً هم الذين تبنوا طرق الهنود في الحرب لتصبح طرقهم الذاتية" وأن "نجاح الأوروبيين في حروب التخوم كان متوقفا على قدرتهم على تحقيق التوازن بين تقاليدهم العسكرية وطريقة الهنود في الحرب" لأن"التطور العسكري الأوروبي في حد ذاته لم يكن ضماناً لإخضاع القارة"[11]، ويحكي أحد الجنود الأمريكيين متذكراً الحروب الهندية (1865-1890) التي أعقبت الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) أن سرعة الهندي في إطلاق سهامه كانت تفوق سرعة الجندي في إطلاق رصاصه من بنادق ذلك العصر[12]، وكما تأقلم الوافد مع فنون القتال الهندية فقد عدل السكان الأصليون من طرقهم القتالية لتكون أكثر فعالية في مواجهة الأسلحة النارية[13].

6 - التنظيم السياسي:

بعد سبعين عاماً من هزيمة المقاومة الهندية المسلحة ضد الاستعمار الأمريكي وزوال خطر السكان الأصليين على الوافدين الأمريكيين، اعترف الرئيس الأمريكي جون كينيدي بالأثر الهندي في بناء النظام السياسي الأمريكي الذي استلهم آباؤه المؤسسون (ومنهم توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين[14] في عملية بنائه، شكل التحالف السياسي الذي جمع قبائل الإيروكوي في شمال شرق الولايات المتحدة(نيويورك)[15] وذلك من مشاهداتهم المباشرة أو من قراءاتهم للفلاسفة الفرنسيين (ومنهم جان جاك روسو) الذين تأثروا بمشاهدات الرحالة بين

---

(11) Starkey، 1998، صviii والغلاف الخلفي.
(12) McDermott، 1998، ص33.
(13) Jennings، 1976، ص166.
(14) Robert A Williams، 1990، ص330.
(15) Utter، 2001، صxxxiii.

قبائل الهنود وتكلموا عن نزعتهم للمساواة والحقوق الطبيعية والتقاليد الديمقراطية التي تشبه الحكم البرلماني ذا المجلسين[16]، وقد اعترف الكونجرس الأمريكي بفضل الهنود في ذلك سنة 1988[17].

7 - المكاسب اللغوية:

دخلت كثير من كلمات اللغات الهندية العديدة في حياة الرجل الأبيض سواء بصفة أسماء لكثير من الولايات التي تزيد عن نصف مجموع الولايات الأمريكية (داكوتا، أوكلاهوما، ميسوري، أيوا، كانساس، ... إلخ) والمدن(شيكاغو، سياتل، ميامي... إلخ) والمعالم الجغرافية كالبحيرات (ميتشيغان... إلخ)والأنهار (ميسوري، ميسيسيبي... إلخ) والخلجان والجبال وغير ذلك، وقد عد بعض المختصين أحد عشر ألف مكان سمي في الولايات المتحدة بأسماء هندية[18]، نقل بعضها حرفيا وبعضها الآخر ترجم إلى اللغة الإنجليزية بما تؤديه المعاني في اللغات الهندية، هذا إضافة لأسماء البيئة الاجتماعية الهندية كالمساكن والملابس والأطعمة التي ظلت في اللهجة الأمريكية بنفس أسمائها الهندية، كما دخلت عبارات اختص السكان الأصليون باستخدامها في لغة الإنسان الأبيض مثل "الحديث بلسان مشقوق" كناية عن الازدواجية والنفاق و"السير على درب الحرب" كناية عن إعلان الحرب و"دفن البلطة" كناية عن اختيار السلام وغير ذلك من عبارات[19].

وقد استفادت الولايات المتحدة في زمننا المعاصر فوائد جمة من لغة قبيلة النافاجو-كبرى القبائل الهندية-ولغات قبائل أخرى وصل عددها إلى 16 في الحرب الكبرى الأولى(1914-1918) وفي الحرب الكبرى الثانية (1939-1945)[20] وقد تميز النافاجو في الحرب الثانية حين عينت الحكومة الأمريكية ما يقارب ألفي هندي من القبيلة في سلاح الإشارة الذي كان يتخاطب بلغة القبيلة

(16) Jacobs، 1985، ص168-170.

(17) Utter، 2001، ص435.

(18) Bright، 2007.

(19) Marquis, p. 22، 1987، ص22.

(20) Utter، 2001، ص111.

التي لم تتمكن جيوش المحور من فك رموزها[21] مما تسبب في تحقيق انتصارات هامة للحلفاء في نفس الوقت الذي كان يحرم فيه على الطلاب الهنود التحدث بلغاتهم في المدارس الأمريكية المخصصة لتمدينهم، ومن المفارقات أن أحد الطلاب من قبيلة النافاجو كان يعاقب لأنه تكلم بلغته في نفس الوقت الذي كان والده يعمل ضمن سلاح الإشارة في الجيش الأمريكي حيث يستخدم اللغة نفسها لتحقيق النصر لأمريكا[22] (!)

8 - بعض ملامح الحياة في أمريكا:

يوجه بعض المؤرخين الأنظار إلى أن الاحتفاء بالحرية في الحياة الأمريكية (داخلياً على الأقل وراية إعلامية في مواجهة الخصوم خارجياً من وجهة نظري) مدين للحرية التي عاشها الهندي[23] ودافع عنها حتى آخر سلاح في جعبته، وليس فقط للحرية التي بشرت بها الأنوار الأوروبية، كما أن الاهتمام الواسع بمنح المساعدات مدين بفضيلة المشاركة التي تميزت بها الحياة الهندية التي كانت تحض على العطاء (وهنا أيضا أرى مبالغة في التشبيه بين فضيلة أخلاقية هندية أصيلة قد تنزع كل ما يملكه المرء لأجل الآخرين بوسيلة أمريكية حديثة خاضعة لحسابات المنفعة وكثيراً ما استخدمت لإخضاع الآخرين وسلبهم أكثر من إعطائهم، مما يسبغ عليها الطابع المادي أكثر من الأخلاقي الذي إن وجد فهو في الداخل الأمريكي وليس مع الخارج)، ويعزو أحدهم الاهتمام الأمريكي بالسلام (على الطريقة الأمريكية طبعاً كما تعلمنا من المسألة الفلسطينية) إلى فضيلة هندية كانت تفضل إحلال السلام على شن الحروب، وبالطبع فإن كل الفضائل السابقة كانت جزءاً أصيلاً من حياة الهندي وقد يضحي بالمادة لأجلها ولكنها في الحياة الأمريكية خاضعة لحسابات المنفعة، وإن كان هدف الاستشهاد هو الأهمية الإعلامية التي تصاحب الدعاية لها خارجياً ومكانتها في الحياة اليومية الداخلية التي لا يحس بها المواطن العالمي في الخارج، ومن هذه

---

(21) Marquis، 1987، ص22.

(22) Utter، 2001، ص144.

(23) Slotkin، 2000، ص45.

الفضائل الهندية أيضا استيعاب الأغراب ضمن القبيلة والتي يرى المؤرخون أن استيعاب المهاجرين إلى القارة الأمريكية هو ترجمتها المعاصرة، وكذلك الاهتمام واسع النطاق بالبيئة والحياة البرية والذي يلتقي مع نظرة السكان الأصليين باحترام وتبجيل بل تقديس إلى الطبيعة وضرورة التوازن مع عناصرها وعدم الإضرار بها[24]، وهو أمر إن اكتسب شعبية فإنه مازال بعيداً عن الجداول السياسية واهتمامها بتحقيق السبق الاقتصادي والسياسي على بقية الأمم، وجل ما كسبته هذه الحركة هو نقل عناصر الخلل والتلوث البيئي من البيئة الأمريكية إلى دول العالم الثالث حيث تجد الشركات الكبرى راحة في فرض شروطها المخلة بالطبيعة على تلك البيئات الفقيرة الباحثة عن كسب لقمة العيش، ومما اكتسبه الأمريكي من الهندي كذلك ونسخه في مجتمعه الاهتمام بالحركة الكشفية التي تعود بجذورها إلى مهارات الكشافة الهنود في التخفي واقتفاء الأثر والحياة في البرية[25]، والخلاصة من هذا البند أن المجتمع الأمريكي وملحقه الكندي اكتسبا كثيراً من أخلاق السكان الأصليين ولكن بعد تحويرها بالطبع لما يلائم مجتمعا علمانياً مادياً ولهذا اختلفت الصورة عن الأصل كثيرا.

9 - القتال في حروب الرجل الأبيض:

قاتل السكان الأصليون إلى جانب الرجل الأبيض في جميع حروبه، سواء التي شنها ضد القبائل الهندية التي كان منافسوها من القبائل الأخرى ينضمون إلى جانب البيض، أو التي شنها البيض ضد بعضهم وكانوا يستعينون بالهنود في الجانبين مثل الحروب الاستعمارية بين الإنجليز والفرنسيين ومعارك الثورة الأمريكية ثم معارك الحرب الأهلية، ولولا المساعدة الهندية لما تمكن الإنجليز من شن الحرب على الفرنسيين في أمريكا[26]، كما شهد بذلك الرئيس الأمريكي الأول جورج واشنطن[27]، ثم حارب الهنود إلى جانب الأمريكيين في حروبهم

(24) Jacobs، 1985، ص158-168.

(25) Marquis, p. 22، 1987، ص22.

(26) Reynolds، 2009، ص40.

(27) Robert A. Williams.، 1992، ص280.

الدولية ومنها الحربين الكبريين وقد وصلت نسبة ضحايا الهنود في الحرب الثانية 10% مقابل 3% لبقية الجيش[28].

ويجب الالتفات إلى ملاحظتين في هذا الموضوع: الأولى أنه لم يكن جميع الهنود إلى جانب البيض في حروبهم ولا حتى أغلبهم، فقد ظل صراع الوجود يفصل المجتمعين ويذكر الضعيف بتهديد وجوده باستمرار، وعندما كانت الأغلبية تقاتل إلى جانب أحد الفرقاء من البيض فإن ذلك يكون مبنياً على تشخيص وضعه بأنه أقل خطراً من غريمه على مجموع الهنود، مثل القتال إلى جانب الفرنسيين الذين لا يؤلفون خطراً استيطانياً على أراضي الهنود ضد الإنجليز الأكثر خطراً، ثم القتال إلى جانب الإنجليز ضد المستوطنين الأمريكيين، والملاحظة الثانية أن من انضم من الهنود إلى الرجل الأبيض لم يكن مصيره عند الطرف المنتصر أفضل من الهندي الذي قاتل البيض وعاداهم، وذلك مثل كثير من القبائل التي وضعت معاداتها مع أبناء جلدتها قبل قضية أرضها المهددة ومع ذلك اكتسحها الطوفان الأبيض كغريماتها، وذلك لأن هذا المصير اعتمد على البرامج السياسية التي تبنتها الأطراف الأوروبية ثم الأمريكية ولم يكن لها علاقة بدرجة ولاء الهندي أو عدائه بل بالمصالح السياسية والرغبة في الاستحواذ على الأرض وثرواتها، ولهذا تخلت فرنسا عن السكان الأصليين بعدما قاتلوا إلى جانبها في حرب السنوات السبع (1756-1763)، ثم تخلى الإنجليز عنهم أيضا بعد انتصار الثورة الأمريكية، ولهذا أيضاً لم تُمنح المواطنة الأمريكية للهنود رغم خدمات كثير منهم إلا بعد زوال خطرهم والاستحواذ على أراضيهم، وكان ذلك في سنة 1924، وفي جميع الأحوال كان الهندي المهزوم يعاني أكثر من حليفه الأبيض المهزوم، أما المقاتل الهندي مع الجانب المنتصر فلم يحصد إلا الخيبة والخسران تماما كما خسر زميله الهندي المهزوم، وهذا ما حصل مع حلفاء الأمريكيين أثناء الثورة على بريطانيا، وما حدث لحلفاء الشمال في الحرب الأهلية، وكل هذا يذكرنا بتجارب عربية وإسلامية حديثة مرت بنفس التسلسل سآتي على ذكرها في الاستنتاج.

---

(28) Marquis, p. 23، 1987، ص23.

10 - الموارد الطبيعية:

في عصر التوسع القاري الأمريكي انتهكت كثير من المعاهدات وقامت كثير من الحروب لأجل الحصول على الموارد الطبيعية كالذهب والفضة والفراء، وحين خصصت الحكومة الأمريكية أراض قاحلة لمحميات توطين القبائل الهندية بعد هزيمتها أمام الطوفان الأمريكي في القرن التاسع عشر، لم تكن تعلم أنها تحتوي على ثروات طبيعية ثمينة، ويأتي حالياً عشر الفحم الأمريكي وسدس الغاز الطبيعي وكميات كبيرة من النفط ونصف اليورانيوم من أراضي السكان الأصليين الذين لا توجد هذه الموارد إلا في أراضي ثلث عددهم، وتتعرض هذه الأراضي لما وصفه أحد المؤرخين بالغزو الذي تقوده الرأسمالية الأمريكية على الموارد الطبيعية للقبائل التي تخوض صراعاً لحماية ممتلكاتها وحقوقها في وجه الخداع والجشع والعنف الذي يمارسه الباحثون عن الثروات من الشركات والأفراد، ويلخص أحد القرويين الهنود موقفه الرافض لاستغلال موارد القبيلة بقوله: "لا تحدثني عن أزمة الطاقة، فأنا أعيش في قرية ليس فيها حتى الكهرباء"[29].

ما أعطاه الرجل الأبيض للسكان الأصليين:

1 - الأمراض:

أبرز ما منحه الوافدون الجدد لسكان القارة الجديدة هو أمراض العالم القديم التي فشت بين السكان الهنود كانتشار النار في الهشيم، فقد قامت أمراض الجدري والحصبة والطاعون والكوليرا والتفوئيد والدفتيريا والحمى القرمزية والسعال الديكي والالتهاب الرئوي والانفلونزا والأمراض الجنسية وغيرها بحصد قبائل كاملة في بداية الاستيطان الأوروبي، وظلت نسبة الدمار الذي تحدثه هذه الأمراض تتراوح بين 55% و90% بين الهنود حتى بعد اكتسابهم قدراً من المناعة في مطلع القرن العشرين في الوقت الذي كان أثرها على الوافدين الأوروبيين يقدر بنحو 15% فقط، ويقدر عدد الأوبئة الكبرى التي اجتاحت السكان الأصليين بثلاثة وتسعين وباء، كما تقدر نسبة اجتياح الجدري بمرة كل سبع

---

(29) Fixico، 1998، ص145.

سنوات تقريباً، وقد قضت الأمراض على أربعة أخماس السكان الأصليين في منطقة نيو إنجلاند حيث بدأ الاستيطان في القرن السابع عشر، وكان أثرها أكثر فتكاً بالهنود من أسلحة الرجل الأبيض[30].

وربما يظن المرء للوهلة الأولى أن هذا الانتشار كارثة عرضية لم يكن للمهاجرين نية ولا يد فيها، ولكن هذا الاعتقاد يتبدد بقيامهم بكثير من الممارسات القمعية الرسمية التي كانت تساعد على إنهاك الهنود بالأمراض ونشرها بينهم ضمن وسائل الحرب عليهم للحصول على أراضيهم كالترحيل القسري والحشر في محميات قاحلة والتجويع بالقضاء على مصادر الرزق ووسائل العيش (إبادة الجاموس أوضح مثال) وما يتبع ذلك من إهمال سياسي يؤدي إلى تأخير المساعدات الغذائية عن القبائل مما كان يقود إلى اندلاع العنف قهراً، بل سجل التاريخ نشر الأمراض عمداً عن طريق توزيع البطانيات الملوثة في بعض الحوادث الموثقة، وتؤكد مؤرخة معاصرة أنه في القرن الثامن عشر كان الأوروبيون في أمريكا يملكون المعرفة والتقنية والإرادة لنشر مرض الجدري بين السكان الأصليين، وأن تكرار هذه العملية المتعمدة ربما كان أكثر مما أقر به المؤرخون فيما مضى[31]، وتشير الأبحاث الحديثة إلى أثر الممارسات الاستعمارية الإنجليزية في الجنوب الأمريكي على انتشار الأمراض بين السكان الأصليين فيه، فقد أدى استرقاق الهنود وتجارة الرقيق وما صاحبها من نقل أعداد كبرى من السكان الأصليين للمتاجرة بهم والعنف الذي رافق ذلك إلى أن تتمكن جراثيم الأمراض الفتاكة من "الوصول إلى أقصى درجات إمكاناتها القاتلة" التي لم تكن لتصل إلى هذه النتائج الكارثية في الجنوب الأمريكي لولا تجارة الرقيق التي جعلت أحد المؤرخين يؤكد أن تبعات الاستعمار الإنجليزي المأساوية فاقت تبعات الغزو الإسباني الدموي لتلك المنطقة[32]، بل أن انتشار الأمراض الوبائية لم يكن عملية نتجت تلقائياً بمجرد وصول الرجل الأبيض والتقائه بالسكان الأصليين، إذ تدخلت العوامل البشرية كأساليب الاستيطان والنشاطات الاقتصادية

(30) Thornton، 1990، ص45 و47 و64 و72 و78.

(31) Kelton، 2007، ص260.

(32) نفس المرجع، ص222-223.

التي تحكمت في درجة حدوث اللقاءات بين أفراد العالميْن، في جعل الجراثيم تقوم بتأثيراتها القاتلة[33]، وأن هذه الآثار الفتاكة حدثت بعد انتشار النفوذ الأوروبي وليس قبله[34]، ولا ننسى هنا ما سببته سياسة استرقاق الأفارقة من نشر أمراض وبائية جلبها تجار النخاسة من إفريقيا كالملاريا والحمى الصفراء، كما أدى الاحتكاك بين الأوروبيين والسكان الأصليين إلى اكتساب الهنود عادات مرذولة جلبت الأمراض الفتاكة معها كإدمان الكحول كما سيأتي الحديث عن نتائجه القاتلة، والتفسخ الجنسي، وكان الأثر الأمضى لأمراضه العديدة هو إضعاف الخصوبة لدى السكان الأصليين.

وبكل هذا لم يكن من الغريب أن أوائل طلائع المهاجرين الأوروبيين عدوا أن الأوبئة التي سبقت وصولهم إنما هي نعمة من الله أيد بها شعبه المختار وأخلى له الأرض من أعدائه ثم حسم الخلاف حولها بمزيد من الأمراض التي لم تبق منهم أحدا، وسرهم كثيرا منذ البداية مشهد الأكواخ المليئة بالجثث، وعزوا هذا التدبير إلى المسيح الذي يرعى كنيسته[35]، وفي الوقت الذي سبقت رذائل البيض وصولهم إلى القارة الجديدة فإن مزايا حضارتهم كالتطعيم ضد الأمراض كانت تصل الهندي متأخرة جداً عن ظهورها لدى مخترعيها بسبب عدم اكتراث الساسة الأمريكيين به[36]، ولم تفده كما أفادت غريمه، ووصله التطعيم بعدما أخذ الموت مأخذه منه ووصلت أعداد الهنود حافة الانقراض.

2 - الخمر:

رغم أن المسكرات كانت معروفة في القارتين الأمريكيتين قبل وصول كولمبس، فإن تأثير الخمور التي أدخلها المهاجرون الأوروبيون إلى العالم الجديد كان قاتلاً بشكل يقرنه المؤرخون بالأمراض الفتاكة وحروب الإبادة والتهجير وتدمير مصادر الرزق الذي أدى للمجاعات وسوء التغذية، وكان الشراب يحول الشاب العاقل داخل القبيلة إلى شيطان قابل لارتكاب أفظع

(33) نفس المرجع، ص36.
(34) نفس المرجع، ص99.
(35) دشنر، 2003، ص57.
(36) Thornton، 1990، ص82 و100-101.

الموبقات، وقد استغل الرجل الأبيض نهم الهندي للمسكرات فاستخدمها وسيلة للغش التجاري إذ كان التجار يعلمون أن السكران أكثر قابلية للاستغلال فيقومون بتقديم الخمر لزبائنهم الهنود قبل عملية الشراء ومن ثم يستولون على فرائهم ويهربون، كما كانت الخمور من وسائل الغش السياسي وكثيراً ما عقدت معاهدات التخلي عن الأرض تحت تأثير الخمر، وقد أدت هذه الممارسات إلى العنف الذي يتولد نتيجة شعور الهنود بالغبن والخداع، كما أدت الخمور، المغشوشة في كثير من الأحيان، إلى تدمير مجتمعات هندية بأكملها نتيجة ترك المزارعين بيوتهم وحقولهم والدخول في أعماق البرية للحصول على المسكرات من التجار، كما كان الصيادون يبالغون في صيد الطرائد لدفع ثمن المشروبات بما أخل بالتوازن البيئي وأدى لاختفاء أعداد كبيرة من الحيوانات كانت مصدر رزق لهذه المجتمعات فيما سبق، وكثيراً ما ارتكبت الموبقات كدفع النساء إلى الرذيلة، وسرقة الجياد والماشية، وتحدي سلطة الزعماء وتجاهل جميع التعاليم الأخلاقية، بل وإلى شن الحروب للحصول على الأسرى ودفعهم إلى تجار الرقيق، ويقول أحد المؤرخين البارزين إن التجار جلبوا بكحولهم الموت والتمزق للمجتمعات الهندية، ونقل عن أحد معاصري الأحداث من زعماء القبائل الهندية في الجنوب الأمريكي قوله إنه فقد أكثر من ألف شخص ماتوا بسبب الإفراط في الشراب في غضون سنة ونصف فقط، وشهد مبعوث بريطاني إلى أرض الهنود سنة 1777 أنه لم يشاهد في القرى إلا شرب الخمر ونساء يبكون أمواتاً من شرب الخمر[37].

وكان أثر هذه المسكرات واضحاً منذ البداية للمسئولين الاستعماريين الأوروبيين وجرت محاولات منع بيعها للهنود ليس حرصاً عليهم بل لما سببته عمليات الغش التجاري والسياسي من ردود أفعال عنيفة من جانبهم، ولكن

---

(37) عن آثار الخمر على المجتمعات الهندية يمكن الرجوع إلى هذه المراجع:

- Thornton.، 1990، ص54 و66 و132.
- Jacobs، 1985، ص33 و39.
- Kelton، 2007، ص207.
- Calloway، 1995، ص13-14.
- Wissler، 1989، ص292-297.

المصالح المادية السريعة والسهلة التي كانت تنتج من عمليات البيع كانت تغري حتى التجار "المحترمين" على معارضة إجراءات الحظر، ورغم تعهدات الحكومة الأمريكية بعد انتصار الثورة بحماية الهنود من الممارسات المسيئة في كلامها المنمق، فإن "الحقائق كذبت الانطباع الظاهري" في قول أحد المؤرخين الذي يصف حال من كان يحاول من المسئولين في التخوم فرض القانون بأنه سينتهي للوقوع تحت المساءلة في المحاكم بتهم التعدي أو الاعتقال غير القانونيين، ورغم أن الخمر كانت من أكبر مصادر الصعوبات في التجارة مع السكان الأصليين، وكان المسئولون الأمريكيون على وعي تام بمضارها، فإنه لم تتخذ الإجراءات الكافية لمنع بيعها للهنود، والسبب في ذلك كما يعزوه أحد المؤرخين ليس إلى سوء النوايا وتعمد الإساءة أو عدم الاكتراث بالهنود ولكن مرة أخرى إلى المصالح الاقتصادية والنظام الفدرالي الأمريكي الذي كان يوزع السلطات بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات[38]، ولكن هذه الحجج ترتد على قائلها لأنه ليس هناك إساءة في الحياة البشرية تنبع من تعمد الأذى إلا عند أصحاب الحالات المرضية أما الأذى في الحياة اليومية فنابع من الحرص على المصالح الذاتية دون مصالح الآخرين، ولماذا لم يؤد النظام الفدرالي مثلا إلى سلبيات في حياة الأمريكيين بحجم ما اقترفه من جرائم ضد السكان الأصليين؟

لقد عبرت القضية عن أزمة حضارية أكثر من تعبيرها عن أزمة سياسية أو اقتصادية لحكومة عاجزة، فطوفان الخمور الذي اكتسح الهنود رغم قوانين الحظر الشامل التي لاقت نجاحاً محدوداً، والعقوبات المشددة التي برع التجار في التحايل عليها يؤكد عموم الانحراف وليس شذوذه[39]، بل إن التاجر الأمين كان يجد نفسه خاسراً في تجارته لو التزم القانون[40] فيضطر لبيع الخمر ليحصل على ماله كما يربح التاجر الغشاش[41]، وقد وصف أحد المؤرخين هذه الأزمة العامة

(38) Prucha، 1995، ص20 و26 و30 و94-102.

(39) نفس المرجع، ص313.

(40) Jacobs، 1985، ص38.

(41) Wissler، 1989، ص293.

بالقول إن كبح جماح التجار الغشاشين كان صعباً كوقف تيار الاستيطان والتمدد في أرض الهنود[42]، وهذا لم يمنع من وجود استثناءات أثبتت أن توفر النزاهة كان كفيلاً بالقضاء على الفساد[43]، ولكن هذا كان الاستثناء وليس القاعدة في حضارة نفعية غلبت فيها التأثيرات الاجتماعية السلبية التي تركت أثرها على المجتمعات الهندية الأصلية من القرب من المستوطنات البيضاء والاحتكاك بعموم سكانها مما وسع الأزمة وجعلها أكثر من مجرد طمع تاجر شره هنا أو هناك، وقد اعترف المجتمع الأمريكي وقيادته بذلك حتى أصبح إبعاد الهنود عن الاحتكاك بمجمل الأمريكيين حجة "إنسانية" شائعة ومقبولة لعملية طرد القبائل من أراضيهم وسط التجمعات السكانية البيضاء والاستيلاء على ممتلكاتهم وإبعادهم إلى البرية المعزولة في الغرب، وذلك لأجل "سعادتهم" و"رفاهيتهم" بالتخلص من الضغط والإغواء وغيرهما من المساوئ المترتبة على وجودهم وسط المجتمع الأمريكي[44]، ولكن عندما حصر السكان الأصليون في المحميات كما سيأتي أصبحت الخمر هي وسيلة التنفيس عن الحياة البائسة التي يعيشها السكان الأصليون فيها[45]، أي أن حضارة الرجل الأبيض أدخلت الهندي في حلقة مفرغة من البؤس بدل استيعاب أعداده القليلة.

ومما يؤكد هذه الأزمة الحضارية في التعامل مع الآخر والتي جعلت القمع مبرراً لقمع آخر، والبؤس تنفيساً عن بؤس آخر، أنه عندما منح الهندي المواطنة الكاملة التي تقتضي المساواة العامة ببقية أفراد المجتمع الأمريكي أصبح منعه من المسكرات متناف مع المساواة[46] (!) فأصبح بإمكانه الحصول عليها "قانونياً" منذ سنة 1953 [47]، وبهذا استمرت المأساة من المساواة وأصبحت الخمر اليوم من الأسباب الرئيسة و"المشروعة" لارتفاع معدلات الوفاة بين السكان الأصليين لما تسببه من انتحار وحوادث طرق وأمراض السكر والتليف الكبدي، ومن

---

(42) Jacobs، 1985، ص38.

(43) Wissler، 1989، ص294.

(44) Prucha، 1995، ص312.

(45) Wissler، 1989، ص294.

(46) Prucha، 1995، ص654-655.

(47) Wissler، 1989، ص324.

المفارقات أن الخمر تحدث اليوم أضراراً بالهنود تزيد عن أضرار حروبهم مع الأمريكيين في الماضي[48]، وهي معدلات لا تحقق المساواة بمعدلات بقية المجتمع الأمريكي، وذلك على عكس ما قصد منها.

3 - الحصان:

كان الحصان يعيش في القارة الأمريكية منذ زمن بعيد وانقرض لمدة طويلة لأنه كان غير مدجن ويُصطاد للغذاء، فلما وصل الإسبان إلى أمريكا أتوا بالجياد التي ساحت في سهولها وتعرفت القبائل على ترويضها فشاع استعمالها مع نهاية القرن السابع عشر وبعد قرن كانت صورة الهندي راكب الحصان كما عرفها العالم بعد ذلك قد اكتملت، وبهذا فإن الهندي الفارس حامل البندقية في الحرب والصيد ليست صورة موغلة في القدم كما يظن البعض، إذ أنها نشأت مع نشوء مجتمعات هندية جديدة في سهول أمريكا، وصنع الحصان بذلك ثورة في حياة الهنود، إذ استعملوه بدلاً من الكلب للحمل والنقل فثقلت حاجياتهم وطالت خيامهم واتسعت مجالاتهم وبعدت مسافاتهم وقل استقرارهم وأصبحوا أكثر تنقلاً وأصبح امتلاك الجياد دليلاً على المكانة الاجتماعية بين أفراد القبيلة، وتنافس الفرسان في إظهار مهاراتهم الفروسية في الحرب والصيد اللذين انقلبت طرقهما وتغيرت تغيراً جذرياً عما سبق وأصبح اصطياد العدو والطرائد أكثر سهولة من استعمال الأقدام، ويصف أحد المؤرخين الأثر الذي تركه الحصان في المجتمعات الهندية بأنها أعمق من الأثر الذي صنعته السيارة في المجتمعات الحديثة[49].

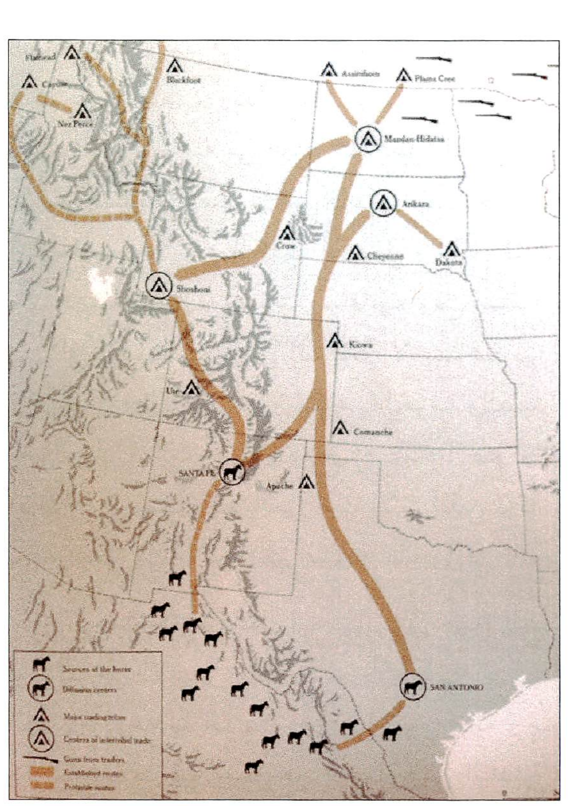
وسواء كان إدخال الحصان إلى حياة السكان الأصليين عمداً أم صدفة، فإن الرجل الأبيض محا الأثر الإيجابي الذي تركه هذا الإسهام منه في حياة الهندي، وعندما اقتربت جحافل مستوطناته وجيوشه دمرت المجتمعات الهندية التي استفادت فيما سبق من الجواد ومن البندقية ومن كثير من البضائع الأوروبية ثم الأمريكية التي صنعت انقلابات في حياتها، وفي هذا درس عن حصول الاستفادة من الغرب عن بعد والتي يدمرها الاقتراب أكثر من اللازم.

---

(48) White، 1979، ص245.
(49) Wissler، 1989، ص289.

4 - البندقية :

صنع وصول البندقية إلى يد الهندي تغيرات كثيرة في حياته، وقد وصلته عن طريق التجارة لأجل تسهيل حصوله على الفراء الذي يبيعه للتجار البيض، وكانت أيضا جزءاً من المساعدات التي تقدم للقبائل مقابل تخليها عن أجزاء من أراضيها وقبولها مسالمة الحكومة والمستوطنين لمساعدتها على الصيد وإطعام أنفسها قبل انقراض الطرائد ولكن الهنود استخدموها في معاركهم وبرعوا في استخدامها ومع ذلك ظل هناك عيب قاتل في هذه العملية وهو أن الهندي لم يكن قادراً على صناعة البندقية أو إصلاحها أو صناعة الرصاص والبارود وهو ما جعله دائماً أسير احتكار الرجل الأبيض للتقنية ومن ثم جعله معتمداً عليه وفي حاجة لاستمرار العلاقة معه وجعل مقاومته غير قادرة على الاستمرار والنمو لأن سلاحه ليس من صنعه، وبهذا أصبح مصير الصراع محكوماً بالتقدم التقني الذي لم تكن حتى الوحدة الهندية قادرة على صده[50].



مسالك انتشار الحصان والبندقية في القارة الأمريكية الشمالية[51]

---

(50) نفس المرجع، ص287.

(51) Capps، 1981، ص51.

5 - تشجيع المساوئ ومحاربة المزايا الهندية:

أدى الاحتكاك بالرجل الأبيض إلى نمو مساوئ عديدة عرفتها المجتمعات الهندية، فقد شجع الفرقة والانقسام بين القبائل وإثارة الحروب التي أخذت أبعاداً جديدة[52] مدمرة بينها بعدما كان القتال بين قبيلتين قد يستغرق سبع سنوات لا يقتل فيها سبعة رجال[53]، وذلك ما دفع أحد مقاتلي المستوطنين إلى أن يصف مشهد الحروب بين الهنود بأنه تسلية أكثر منه فتح أو إخضاع، وداخل القبيلة الواحدة شجع الرجل الأبيض المنافسة بين الأحزاب والزعماء على عادة كل المستعمرين في اتباع القاعدة المعروفة: فرق تسد، ووجدناه أيضا يشجع عادات همجية كسلخ فروة الرأس التي كان الأوروبيون والأمريكيون يدفعون لمن يأتي بها من أجساد أعدائهم مبالغ طائلة وصلت أحيانا إلى مقدار الدخل السنوي للفرد من الطبقة المتعلمة[54]، وتشير المصادر إلى أن عادة سلخ الرؤوس لم تكن منتشرة بين القبائل الهندية حتى قام الرجل الأبيض بتشجيعها ونشرها[55] بواسطة المكافآت المجزية إمعاناً منه في العمل على القضاء على أعدائه الهنود، وفي ذلك يقول المؤرخ دي براون: "قد يكون الأوروبيون قد جلبوا عادة فروة الرأس هذه إلى العالم الجديد أو لم يفعلوا ذلك، ولكن المستوطنين الإسبان والفرنسيين والهولنديين والإنكليز جعلوا هذه العادة شعبية عن طريق عرض مكافآت لفروات رءوس أعدائهم"[56].

---

(52) Thornton، 1990، ص48.
(53) Drinnon، 1997، ص43.
(54) Stedman، 1982، ص255.
- Calloway، 1995، ص49.
مقارنة بالدخل السنوي للفرد من الطبقة الوسطى في:
- جوردون، 2008، ص169.
(55) Brandon، 1985، ص328.
- Hoxie، 1996، ص572.
(56) براون، 1982، ص24-25.

State Ticket.

For Governor............Stephen Miller, of Stearns.
For Lieut. Governor...Chas. D. Sherwood, of Fillmore.
Secretary of State.......avid Blakely, of Olmsted.
Auditor of State..........as. McIlrath, of Nicollet.
tate Treasurer.........Chas. Scheffer, of Washington.
Attorney General.......Gordon E. Cole, of Rice.
Clerk Supreme Court..Geo. F. Potter, of Houston.

County Ticket.

For State Senator........................Thomas Simpson.
For Representatives......................Earle S. Youmans.
Thomas P. Dixon.
For Sheriff..........................Lynch . King.
For Treasurer..............................Mathew J. Norton.
For Surveyor...............................N. Felix Hilbert.
For Coroner................................Edward ly.

The State reward for dead Indinns has been increased to $200 for every red-skin sent to Purgatory. This sum is more than the dead bodies of all the Indians east of the Red River are worth.

إعلان تحقيري عن جائزة رسمية في صحيفة أمريكية حدودية مقابل قتل الهنود وذلك لأجل الحصول على جثثهم للدراسة "العلمية" التي تستهدف إثبات تفوق الرجل الأبيض[57] ويجب ملاحظة أن مبلغ 200 دولار كان يدفع لجثة هندي في زمن كان مرتب الجندي فيه يساوي أقل من 20 دولاراً شهرياً[58]

لقد تميز العالم الجديد الذي صنعه الأوروبيون في أمريكا بزيادة غير مسبوقة في درجة ممارسة العنف التي نتجت عن التمزق الاجتماعي الذي أدى إلى العنف الفردي العشوائي، كما وصلت الحروب مستويات عالية في شدتها، وقد حارب الهنود بعضهم البعض في سبيل الحصول على أسلحة البيض التي وجهوها نحو أعدائهم، كما أدى الاعتماد على الأوروبيين في الحصول على وسائل المعيشة والدفاع إلى الانخراط في الحروب الأوروبية داخل أمريكا حيث تعاملت أوروبا مع الهنود بمنطق بيع الولاء وشرائه مما أدى إلى زيادة الحروب بين القبائل والتي كان الأوروبيون يحدون منها أو يغذونها[59]، حسب ظروف مصالحهم.

ومن العادات المرذولة التي نشرها تشجيع الرجل الأبيض أسر الأفراد واسترقاقهم لاسيما في الجنوب الأمريكي حيث لعب البيض على وتر الخلافات الهندية وشجعوا الهنود على شن الغارات على بعضهم البعض-حتى لو كان الضحايا حلفاء لهم-لجلب العمالة للمستعمرين واتخذت هذه الممارسة أبعاداً

(57) https://elysebruce.wordpress.com/tag/colonel-john-m-chivington/

(58) براون، 1982، ص24.

(59) Calloway، 1995، ص5-6.

تجارية وأدت إلى دمار مجتمعات عديدة في تلك المنطقة وقعت ضحية هذه الممارسة وما نتج عنها من تبعات كانتشار الأمراض الفتاكة[60]، ومرة أخرى، وفي غير مجال الخمر تقف السلطة عاجزة عن كبح انتهاكات مواطنيها ضد السكان الأصليين حتى فيما تحرّمه بنفسها[61]، وهو عجز لازم السياسة العامة التي اتبعتها الحكومات البيضاء تجاه جميع انتهاكات الحقوق التي تعرض لها السكان الأصليون لا سيما من قبل المستوطنين الذين كانوا كثيراً ما يعتدون على أراضي الهنود ويخدعونهم ومع ذلك تقف السلطة عاجزة عن اتخاذ خطوة رادعة بل نجد رجالها ممن يشاركون في الانتفاع الشخصي بهذه الانتهاكات[62]، وهذا كله يشير بعلامة استفهام إلى حقيقة المهمة الحضارية التي نذر الرجل الأبيض نفسه لها ومع ذلك قام بتشجيع الهمجية ونشرها بين تلاميذه "البدائيين" وقصر في الدفاع عن حقوقهم التي ادعى الوصاية عليها.

ولم يقتصر الأمر على نشر الرذائل الهندية بل لقد أدى الاحتكاك بالمجتمعات البيضاء إلى تفسخ الهنود باكتسابهم العادات الرديئة الخاصة بالبيض مما أدى إلى فقدانهم محاسنهم الذاتية التي كانت لهم في الماضي، ويكتب أحد المؤرخين قائلا: "وكان مما أخذه الهنود عن البيض قلة الشرف، وفنون الكذب، فكان تفكيرهم وقانون أخلاقهم، وثقافتهم تنتهي إلى الاندثار فالانحطاط والاضمحلال، ويكتب بيتر لي قائلا: ما كان حسناً عندهم كان يتعرض للخنق"[63].

6 - التجارة والمساعدات والعلاقات الاقتصادية:

عندما التقت الأمتان وجد الأوروبي ثم الأمريكي عند الهندي الفراء والجلود الثمينة ووجد الهندي عند الرجل الأبيض بضائع مصنعة كالملابس والسكاكين والمرايا والبلطات والدبابيس والخرز، وأهم من ذلك البندقية والأهم

---

(60) Kelton، 2007، صxviii و128 و213 و214 و221-224.
- Gallay، 2002، ص354.
(61) Kelton، 2007، ص111 و127-133.
(62) Banner، 2005، ص53-54 و63-64 و67 و69 و96-99.
(63) دشنر، 2003، ص57.

منها الخمور، وكانت توهب له في البداية مجاناً وعلامة على "الصداقة"، فلما يعتاد على استعمالها وتصبح ضرورية لحياته ينقطع الإمداد فيضطر إلى شرائها بالثمن الذي يحدده التاجر من الفراء والجلود[64] بل ومن الأسرى للاسترقاق[65]، وقد استنفد الصيد المكثف موارد الأرض الحيوانية شيئاً فشيئاً وكان يدفع الهنود دائماً نحو الغرب للحصول على مزيد من الطرائد فيصطدمون بقبائل جديدة وتنشب الحروب بينهم، وكان التاجر الأبيض يهتم بجعل زبونه الهندي في حالة ديْن مستمرة[66]، وكان الهندي يتمكن من دفع ديونه في البداية ثم ينغمس في شراء الخمر فيصبح عاجزاً عن الدفع[67]، وكثيرا ما أدت الديون إلى سداد أثمانها من أراضي الهنود[68]، وشُنت الحروب لتأمين أسرى لدفعهم لتجار الخمور والرقيق ثمناً لتلك الديون[69]، وقد كان التنافس بين أمم أوروبا على التجارة الهندية المربحة من مسببات كثير من المنافسات والحروب التي نشأت بينها على القارة الأمريكية لاسيما بين فرنسا وبريطانيا، وملخص الأمر أن التجارة كان لها عواقب وخيمة على مجتمعات السكان الأصليين في أمريكا: فقد رفعت درجة الاعتماد على الرجل الأبيض، وحفزت على العنف، ونشرت الأمراض التي حفزها الاسترقاق كما مر[70]، وقد قدر أحد المؤرخين أبعاد ذلك بقوله إنه باعتياد الهنود على استعمال الأدوات المتطورة التي جاء بها الأوروبيون لم يعد لمهاراتهم البدائية مكان، وبعد فترة قصيرة لم يكن أمامهم مفر من التبادل التجاري بشروط ازدادت إجحافاً مع الزمن، فخسروا سيادتهم الاقتصادية وجلب ذلك بداية انحسار السيادة السياسية وكل ما ميز حضارتهم[71].

ورغم بعد المسافة فقد تشابهت كثيراً تبعات التجارة وديونها في الشرق

---

(64) Jacobs، 1985، ص33-34.
(65) Kelton، 2007، ص103-104.
(66) نفس المرجع، ص34.
(67) Wissler، 1989، ص293.
(68) Banner, p. 71، 2005، ص71.
(69) Kelton, p. 207، 2007، ص207.
(70) نفس المرجع، ص101.
(71) جوردون، 2008، ص19.

والغرب إلى حد بعيد، إذ أن كل تلك الأحداث تذكرنا بغزو التغريب الذي أتى بالسلع المصنعة إلى ديار العرب والمسلمين في الشرق وما تبعها من دوامات الديون ثم سيطرة أجنبية ثم احتلالات عسكرية وحروب المنافسة الاستعمارية، وقد ثقلت وطأة هذه الديون على بلادنا في الزمن المعاصر حتى رفع الأخ سلاحه وقتل أخاه سداداً لديون الأجنبي (1991)، تماماً كما حدث مع الهنود في الغرب، وكما كان المستعمرون يدخلون بضائعهم إلى بلادنا تحت ستار حرية التجارة ثم يسعون لاحتكار أسواقنا، كذلك كانوا يفعلون مع زبائنهم الهنود[72].

7 - المسيحية والحضارة والتعليم:

لما كانت الأرض هي محور الصراع بين السكان الأصليين والمهاجرين الوافدين، فإن تحسين أوضاع الأهالي الهنود لم يكن ضمن جدول المستعمرين كما لم يكن ضم الهندي إلى مجتمع الرجل الأبيض ضمن أولويات هذا الأخير[73]، وكان التمثيل السياسي والقانوني واضحاً في أنه محصور بالمستوطن والمهاجر دون صاحب الأرض الشرعي[74]، وإذا كانت الطبيعة التبشيرية للمسيحية قد فرضت نفسها على المستوطنين، فإنهم قد قاموا بتحويرها بما يناسب تطلعاتهم إذ لم يكن الهدف من التبشير إلا إيجاد عملاء هنود لأهداف المستوطنين[75]، مثل استخدامهم في الحروب كالأدوات[76]، كما أن عداوة الرجل الأبيض لوجود الهندي وليس لمجرد ضلاله خفض من عدد المهتدين لأن الهندي لم ير العدالة في رب الرجل الأبيض الذي يأتي بخلاص المعتدي ويتخلى عن الضحية، ولم يكن للهنود المتنصرين أية حرمة عند إخوانهم البيض، فقد واجهوا القتل والدمار والتهجير والسلب والاحتلال مثلما واجه كل ذلك من بقي على دينه من بقية الهنود[77].

---

(72) Diedrich، 1998، ص160.
(73) Horsman، 1992، ص107.
(74) Banner, p. 82، 2005، ص82.
(75) العكش، 2009، ص143-144.
(76) Calloway, p. 14، 1995، ص14.
(77) العكش، 2009، ص138 و143.

أما الحضارة فقد قتل الرجل الأبيض جميع احتمالات نشوئها بين السكان الأصليين وضيق على من حاول تبنيها منهم وحصرهم في بقاع قاحلة لا يرغب فيها أحد بحجة تعليمهم الاستقرار والزراعة ولكن لم يزودهم بشيء من مستلزمات ذلك، وكان الهندي في مراحل مختلفة يتساءل عن جدوى شروعه في حياة الاستقرار على أرض ستنتزع منه عاجلاً أم آجلاً بحكم البندقية[78]، ثم جعل الرجل الأبيض الهنود يعيشون عالة على بطاقة التموين التي تصرف لهم مؤناً لا تصلح للاستعمال الآدمي في كثير من الأحيان وبكميات قليلة، وكثيراً ما كانت تتأخر عن موعدها وتسبب مآس كبرى، وقد شبهت المحميات بمعسكرات اعتقال حيث الجوع والمرض والبطالة والغش والإهمال، وقد وصف مؤرخون عديدون الحياة فيها بأنها "محنة"[79] و"حزن لا يمكن وصفه"[80] "في أرض قاحلة"[81]، فأصبح العجب ليس من عدم تحضر الهنود فيها بل من مجرد نجاة جنسهم بعد مروره بهذه المحن التي لم يكن نفس الرجل الأبيض ليتحملها[82].

وأما التعليم الذي حاولت الولايات المتحدة فرضه على أبناء السكان الأصليين فقد كان شعاره "قتل الهندي وإنقاذ الإنسان" أي تخليص الهندي من كل ما له علاقة بهويته وجعله إنسانا آخر، وهو ما وصفه أحد المؤرخين بالتعليم من أجل الانقراض[83]، وجسدت هذه الفلسفة المدارس الداخلية التي أرسل إليها أبناء الهنود ووصف بعض المؤرخين الأعمال الوحشية التي كانت تمارس فيها ضد الصغار بأنها إبادة جماعية راح ضحيتها نصف التلاميذ[84]، أما الذين ظلوا أحياء فخرجوا منها بجروح نفسية عميقة شوهت حياتهم من جراء التعرض للإهانات النفسية والجسدية وذلك لأن سياسة الانقراض التي اتبعت في هذه

(78) Horsman، 1992، ص104 و118.
- Marks، 1998، ص255.
(79) Berthrong، 1992.
(80) Wishert، 1994.
(81) Marks, 1998، 1998.
(82) Wissler، 1989، ص311 و318.
(83) Adams، 1997.
(84) Churchill, 2004، 2004.

المدارس جعلت من الإهانة المستمرة سياسة متبعة تهدف إلى الحط من شأن الهندي وفي نفس الوقت لم تؤد إلى بناء مقابل مثل كل السياسات الحكومية في ذلك الوقت والتي أفقدت الهندي ما في يده ولم تعوضه ببديل عنه.

وسجل التاريخ أن كثيراً من الهنود رغبوا أن يعيشوا حياة الرجل الأبيض لاسيما بعدما دمرت موارد رزقهم ووسائل عيشهم، وحتى أكثر زعماء المقاومة تطرفاً لم يمانعوا في الحصول على مستوى معيشة البيض بالعمل مثلهم، كما أن جميع الهنود بعد هزيمة المقاومة المسلحة أجبروا على هذا الخيار، وكان العقلاء منهم يوصون أتباعهم باتباع محاسن الرجل الأبيض وترك مساوئه مع التمسك بحكمة الأسلاف التي عاشت وصمدت دهوراً[85]، ولكن مشروع التحضر عن طريق المحميات فشل فشلاً ذريعاً حتى باتباع "سياسة السلام" التي طبقها "أصدقاء الهندي" والتي أصرت على تجريده من هويته وأملاكه وقذفه في مجتمع تنافسي لا يعرف ولا يعترف بشيء من القيم التي نشأ الهندي عليها وتناقض الفردية الرأسمالية[86]، وكان من المتوقع أن تتم هذه التغيرات الفجائية في لمح البصر، مع أن أي تغير اجتماعي لا بد أن يأخذ وقته في التحول كما قال مراقب اجتماعي بارز في ذلك الزمن هو الكاتب والمؤرخ الفرنسي أليسكيس دي توكفيل في كتابه الشهير الديمقراطية في أمريكا[87]، وقد أدت السرعة الفائقة -لو افترضنا حسن نيتها- إلى فشل التحولات وترك السكان الأصليين ضحايا تقلب السياسات التي تستهدف "صالحهم"، دائماً، ولكن النتيجة الأوضح أنه في كل مرة كان الهندي يخسر فيها شيئاً من موارده ضمن برامج تمدينه كان هناك من يربحها على الجانب الأمريكي، فالأرض ربحها المستوطنون، والأموال التي خصصتها الحكومة لدعم برامج التحضير تقاسمها الفاسدون من أركان "الحلقة الهندية" وهم التجار والسياسيون والموظفون الحكوميون المتولون أمر الهنود في المحميات، والذين انقضوا على المال المخصص لتهيئة الهندي لحياة التمدن وراكموا ثروات ضخمة منه على حساب قوته، كما أن قطعان الجاموس التي

(85) Fixico، 1998، ص151.
(86) Wissler، 1989، ص318.
(87) توكفيل، 2004، ص299-303.

أبيدت لإجبار الهنود على الاستسلام للحضارة ذهب فراؤها إلى أسواق أوروبا وأمريكا وربح الصيادون والتجار والشركات من ذلك مبالغ طائلة، وذهب الذهب الذي انتهكت المعاهدات بعد اكتشافه في أراض الهنود المضمونة لهم إلى خزائن الرجل الأبيض الذي كان يبشر نفسه بحل أزماته الاقتصادية.

وخلاصة التفاعل الحضاري من وجهة نظر الهندي أنه عند وصول الأوروبيين كانوا هم يملكون الكتاب المقدس والهندي يملك الأرض، وفي النهاية أصبح الهندي يملك الكتاب المقدس والأوروبي يملك الأرض[88]، أما من وجهة النظر الأوروبية فإن "الأوروبيين لم يجدوا صعوبة في إقناع أنفسهم بأنهم قدموا تعويضاً مجزياً للهنود بمنحهم المسيحية والحضارة"[89] بدلا من سيادتهم وممتلكاتهم (!)، ونظراً لمجموع الخسائر الهندية من عملية الاحتكاك بالبيض، يمكن الاستنتاج أن محاولة نفي الإبادة بحصر الأضرار في إصابات الحروب التي ربما لم تتجاوز مقتل 6 آلاف من الهنود على أيدي الأمريكيين وهو رقم ضئيل مقارنة بأقل عدد لمجموع الهنود العام في أي وقت، ليست سوى محاولة لتبرئة الذات الأوروبية من الجريمة الكبرى التي يمكن رصدها بمجرد النظر وهي تدمير المجتمعات الأصلية ومحوها من الوجود نتيجة عوامل عديدة لم تكن الحرب سوى واحدة منها حتى لو سلمنا بالرقم الضئيل المذكور وهو ليس واقعياً، وكل تلك العوامل كانت نتيجة التدخل البشري وهي: الأمراض وما يتبعها كالإدمان على الكحول، والترحيل، وتدمير وسائل المعيشة، والحرب والمجازر، وقد وجدنا أن بعض هذه الأسباب القاتلة كانت أكثر تدميراً من الحروب كالحياة في المحميات والمدارس والإدمان على الكحول، بالإضافة إلى الأوبئة التي ساهمت العوامل البشرية مساهمات حاسمة في نشرها، ومن هنا يبدو من السذاجة حصر الخسائر الهندية بمجرد إصابات الحروب للوصول في النهاية إلى نتيجة مضحكة وهي أن الإبادة لم تقع[90].

(88) Vine Deloria.، 1988، ص101.

(89) Utter، 2001، ص17.

(90) Prucha، 1995، ص549.

- Thornton، 1990، ص48-49.

استمرار الاستغلال والشعور الزائف بالذنب:

المتأمل في مشهد المجتمع الأمريكي المعاصر تلفت نظره ملاحظة جديرة بالاهتمام، فعلى الرغم من الدعاية الضخمة التي تصاحب عملية استقبال عشرات الآلاف من المهاجرين الباحثين عن السعادة من جميع أقطار العالم سنوياً والقادمين ليندمجوا في "بوتقة الصهر" التي تتقبل الجميع نظرياً، يظل صاحب الأرض الشرعي، وهو المواطن الهندي الأصلي، خارج هذه الجنة الموعودة رغم قلة عدد السكان الأصليين مقارنة بمجموع سكان الولايات المتحدة (1,5% فقط وفقاً لتقديرات موسعة) وبمجموع المهاجرين الذين يفدون برخص رسمية كل عام إلى أرض الميعاد هذه، مما يجعلنا نستنتج أن الاستيعاب داخل الحضارة الغربية التي تمثل الولايات المتحدة قمتها في عالمنا المعاصر، ليس مرتبطاً بقدرتها على هذا الاستيعاب أو بإمكاناتها الضخمة التي تستطيع بكل تأكيد أن تشمل العدد الضئيل من سكان أمريكا الأصليين كما تشمل أعداداً ضخمة من غيرهم كالأقلية اليهودية مثلاً التي يحسن مقارنة عددها بعدد الهنود ونفوذها بتهميشهم، ولكن هذا الاستيعاب لم يحدث إلى اليوم بعد أكثر من قرن من هزيمة الهندي أمام قوة "الحضارة" الزاحفة وزوال خطره بإغلاق منطقة الحدود بين "المدنية" و"الهمجية" رسمياً ومع ذلك مازال المجتمع الأمريكي مصراً على نبذ صاحب الحق رغم أنه لا يؤلف عبئاً يذكر على إمكانات هذا المجتمع الكبيرة.

ورغم القوانين الكثيرة التي ادعت إلغاء سياسات القهر الماضية ومنح السكان الأصليين حق تقرير المصير والحرية الدينية، وتأسيس لجان النظر في الحقوق والمطالبات، ورغم المظاهر الاحتفالية التي يقوم بها الرؤساء الأمريكيون مثل التقاط الصور مع الهنود واستقبال زعمائهم لأول مرة في البيت الأبيض وإطلاق الأمنيات بأن يكون المستقبل أكثر إشراقاً من الماضي والتوقيع على إعلان الأمم المتحدة الخاص بحقوق السكان الأصليين، فإن واقع الحال مازال بعيداً عما توحي به هذه المظاهر، ومازال الهنود يعيشون على هامش المجتمع الأمريكي ويعانون من الإهمال الاجتماعي، وإذا بدأنا بأحوال الربع الأخير من القرن العشرين سنجد أن 75% من سكان المحميات كانوا يعيشون في أكواخ

وحافلات مهجورة ويحصلون على مياههم من البرك والخزانات والأنهار التي غالباً ما تكون ملوثة، ونتيجة لهذه الظروف غير الصحية وعدم كفاية المساكن وقلة الغذاء وتفشي الإدمان على الكحول ونقص الرعاية الطبية كان معدل حياة الهندي 45 سنة مقابل 72 للبيض، هذا بالإضافة إلى تفشي الأمراض المتعددة كالالتهاب الرئوي والسفلس وأمراض العيون والآذان والعظام، ويحصل الهنود على متوسط أجور يبلغ 30 دولاراً في السبوع مقابل 130 دولاراً لبقية الأمريكيين، ويعيش 40-60% منهم في بطالة دائمة، وفي الوقت الذي كان فيه متوسط دخل الأسرة الأمريكية 6400 دولار كان 75% من الأسر الهندية تكسب أقل من 2000 دولار و50% تكسب أقل من 1000 دولار ولا يحصل على أكثر من 4000 دولار سوى 10% من هذه الأسر (1976)، هذا بالإضافة إلى الأمراض الاجتماعية كالفساد السياسي والبطالة والنزاعات الداخلية مما جعل الهنود الطبقة الدنيا في المجتمع الأمريكي[91].

ومن تفاصيل هذا الحال اليوم أن مجتمعات السكان الأصليين تتميز بمعدلاتها العالية من البؤس والحرمان التي تفوق معدلات المجتمع الأكبر حولهم بكثير، "ولا أحد يستطيع إنكار أن السكان الأصليين مازالوا أكثر الأقليات حرماناً في الولايات المتحدة"، فظروف المعيشة في محمياتهم تشبه ظروف العالم الثالث وتكوّن استثناء وسط مجتمع من العالم الأول يتميز بالوفرة، وتتراوح نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر في هذه المحميات بين 38-63% وتسودها أوضاع صحية فقيرة جداً حيث من الممكن أن يعيش ثلاثة أجيال أو أكثر (قد يصل عدد أفرادها إلى 25) في مكان ضيق (غرفتين مثلاً) بلا تبريد أو تدفئة أو مطبخ وأكثر من نصفها بلا صرف صحي، وفي بعض المحميات يضطر ساكنوها إلى قطع 30 أو 40 كيلومتراً لملء خزان المياه و150 كيلومتراً للوصول إلى مستشفى.

أما عن ظروف العمل فتتراوح البطالة في المحميات بين 50-70% وقد تصل إلى أعلى من 80%، وقد وصلت البطالة في بعض محميات داكوتا-حيث

---

(91) White، 1979، ص244.

يعشش الفقر-في التسعينيات إلى 93%، في الوقت الذي كان فيه معدل البطالة في أمريكا لا يتجاوز 5%، ولم يكن من العجيب أن تتنافس المحميات في تسجيل أعلى معدلات الفقر حيث سجلت المقاومة الهندية آخر وقفاتها البطولية ضد الغزاة الأمريكيين في القرن التاسع عشر.

ومن بين جميع الأعراق في الولايات المتحدة يتربع السكان الأصليون على المركز الأول في كل من: معدل التسرب من المدارس (54%)، ومعدل وفيات الأطفال (60% أعلى من معدل السكان البيض)، ومعدلات الانتحار (60% أعلى من المعدل العام في أمريكا)، وحمل المراهقات، وانخفاض معدل الأعمار (55 عاماً فقط)، وفي بعض المحميات تصل نسبة الأسر المبتلاة بمشاكل الخمور إلى 80%.

ومن الدلائل الطريفة على الشعور الزائف بالذنب لدى الدولة الأمريكية أن المحميات الهندية معفاة من دفع الضرائب بصفتها موطنا لأصحاب الأرض الشرعيين الذين لا يملكون في الأغلب ما يدفعونه أو يدفعون عنه الضريبة، والأطرف من ذلك أن الهندي الذي يغادر المحمية يعاد فرض الضريبة عليه إذ يصبح لديه ما يقدمه بعد خروجه من أحزمة الفقر تلك.

وتعيش هذه المحميات على أموال المساعدات كدول العالم الثالث، ومثل هذه الدول أيضا لا يصل من المساعدات لمواطنيها إلا 12% [92]، والمهارة الوحيدة التي أخلص الرجل الأبيض في نقلها وأبدع في تعليمها للهندي هي القمار الذي تفوق فيه التلميذ على أستاذه فأصبحت المحميات الهندية تدر ثلث مجموع أرباح القمار الأمريكي كله حسب إحصاء سنة 2009، ولكن مثل أموال كل مؤسسات العولمة لم تؤد هذه الأموال إلى رفع شأن الهندي العادي والمجتمعات الهندية الفقيرة عموماً.

وفي الوقت الذي يستخرج فيه نصف اليورانيوم الأمريكي من محميات الهنود فإن80% من النشاط النووي الذي تقوم به الولايات المتحدة يقع في أراضي الهنود أو قريباً منها، وكما يحدث مع العالم الثالث، تقوم الحكومة

---

(92) Utter، 2001، ص236.

الأمريكية بإغراء السكان الأصليين بالمال لدفن المخلفات المشعة والسامة في أراضيهم، وقد تسرب التلوث إلى المياه والتربة والغذاء ثم إلى أجسام السكان الأصليين أنفسهم في بعض المناطق[93].

هذا النمط من التبادل الحضاري الأعرج الذي يستثني الغير من المزايا ويصب عليه المساوئ، كان هو النمط السائد في علاقة السكان الأصليين بالمهاجرين الأوروبيين منذ وطئت أقدامهم هذه القارة الجديدة عليهم، فقد تميزت هذه العلاقة باستئثار الجانب الأوروبي ثم الأمريكي بالمحاسن في نفس الوقت الذي صب فيه المساوئ على الجانب الهندي الضعيف، وإذا كان هذا هو السائد اليوم بعد انقضاء عصر المقاومة الهندية المسلحة وزوال الخطر الهندي على الاستيطان الأمريكي، فمن باب أولى أن يسود ذلك أيضاً في عصر الصراع الدامي على الأرض حين كان الطرف الهندي مازال قوياً بعض الشيء ويهدد المستعمرين بمقاومته ولهذا فإن حرمانه من المزايا الحضارية كان أكثر إلحاحاً وأهمية للجانب الأمريكي.

إمكانات التغير في أوضاع السكان الأصليين في الولايات المتحدة وعلاقتها بسبب الصراع

أقر الرئيس الأمريكي السابق جون كينيدي بثقل الماضي ووطأته في تعطيل الجهود لتحسين ظروف الحاضر والمستقبل فيما يتعلق بالسياسة القومية تجاه معاملة السكان الأصليين وفقاً لعلاقتهم الخاصة بالحكومة الاتحادية[94]، ولا أعتقد أن الرئيس كان يتحدث عن مجرد استمرارية الماضي بفعل القصور الذاتي،

---

(93) معلومات وأرقام واقتباسات هذا القسم مستقاة من المواقع التالية ما لم يذكر خلاف ذلك:

- http://www.nrcprograms.org/site/PageServer?pagename=naa_livingconditions
- http://www.cbn.com/cbnnews/337439.aspx
- http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
- http://www.guardian.co.uk/world/2012/apr/22/un-investigate-us-native-americans
- http://www.franz-marc-gymnasium.de/mobil/englisch/englisch11/seiten/na_nativea.htm
- http://planetearthandhumanity.blogspot.com/2012/05/who-is-1-in-gambling.html

(94) Utter، 2001، صxxxiii.

فإن الأهم من ذلك هو أن تصحيح ذلك الماضي يتطلب إدانة الرموز التاريخية المقدسة التي صنعت بؤس الهندي واضطهاده لتبني عليه وجود المستوطن وازدهاره، وليس من السهل أن يقر الإنسان بفشل إنجازاته ويدينها، فكيف يمكن لأمريكا اليوم أن تدين آباءها المؤسسين كجورج واشنطن وتوماس جيفرسون أو ثورتها أو توسعها الإقليمي أو دستورها أو مؤسسي ديمقراطيتها كأندرو جاكسون أو صائني وحدتها ومحرري رقيقها كأبراهام لنكولن ورجاله، وكل هذه الرموز كانت سلبية تجاه السكان الأصليين وهي التي صنعت مصيرهم المظلم.

وعن آفاق المستقبل يقول أحد المؤرخين إنه لا يمكن توقع أفضل من عودة قسم ضئيل من الأملاك الهندية لأصحابها، كما يمكن للهندي أن يحصل بواسطة المحاكم على مبالغ مالية كبرى تعويضاً عما خسره، ويمكنه أيضاً تعديل عقود الاستثمار في النفط والغاز والفحم والتي تعمل لصالح الشركات الكبرى وليس لصالحه، ولكن الرجل الأبيض بكل أسف لا يدرك عمق سخط الهنود، وإن إمكان التقارب بين الجانبين لا يبدو سريعاً لأن الرجلأبيض غير مستعد للاعتراف ببشاعة ما اقترفت يداه ويعد نفسه خيّراً ودوداً محباً للحرية وصديقاً للجنس البشري كله، وهو قادر على أن يتعامى عن عيوبه، ويمكن للهندي أن يرد على دعوات الرؤساء والشيوخ والنواب الأمريكيين لحقوق الإنسان بالضحك المكبوت أو الصاخب لأنهيدرك ما فعلوه له في الماضي والحاضر ولهذا فهو لا يصادق على أوراق اعتمادهم، وغذا كان الرجل الأبيض يظن أنه من الأفضل نسيان الماضي، فإن زيارة الأراضي الهندية حالياً والاطلاع على أحوالها يؤكد أن سخط الهندي لم يتضاءل وأن الملف الهندي مازال مفتوحاً رغم الرغبة البيضاء بعكس ذلك، وستمر سنين كثيرة قبل أن تلتئم جراح الهنود ويمكن أن يكون هناك صلح حقيقي بين الطرفين(95).

ولقد حسب أحد المؤرخين المدة اللازمة لعودة أملاك الهنود التي ضمنتها المعاهدات لهم كما كانت سنة 1887، وذلك قبل أن تسلب هذه البقية الباقية لتوزع منها حصص على الأسر الهندية تحت شعار تمدين الهنود وتعليمهم

---

(95) White، 1979، ص247-248.

الاستقرار والملكية الفردية وفقاً لقانون دوز، وتذهب بقية الأرض إلى المستوطنين الطامعين، وكان الهنود حينئذ يمتلكون فيه 7% من مجموع الأرض الأمريكية التي كانت كلها يوماً لهم، فوجد هذا المؤرخ أنه وفقاً "للتقدم" الذي حصل منذ التراجع عن القانون السابق سنة 1934 إلى بداية القرن الحالي فإن الأمر يتطلب ستمائة سنة للعودة إلى ما كان قائماً سنة 1887[96]، مع أن هذا الوضع بدوره كان نتيجة قرون من سفك الدماء والنهب والسلب والهزائم وانتهاك الحقوق والمعاهدات، ومع ذلك فإن "التقدم" من سيء إلى أسوأ جعله حلماً بعيد المنال، ومن أمثلة القضايا التي رافقتها أجواء إعلامية احتفالية كبرى توقيع الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر سنة 1980 على قانون بمنح إحدى القبائل الهندية مالاً يكفي لشراء 2% فقط من أراض واسعة طالبت بها في ولاية مين، وقد حدث هذا "الإنجاز" بعدما قضى الرئيس وقتاً في معالجة القضية أكثر مما قضاه أي رئيس أمريكي في قضايا الهنود منذ بداية القرن العشرين[97]، ومازالت الولايات المتحدة تحجم عن اتخاذ حتى خطوات رمزية لصالح السكان الأصليين مثل تقديم اعتذار أدبي[98] وذلك رغم زوال خطرهم منذ زمن بعيد واستحواذ الرجل الأبيض على معظم بلادهم وثرواتهم وحصول كثير من الضحايا والأقليات على اعتذارات مماثلة في أنحاء العالم.

ولكن لماذا مازال الهندي يؤلف مشكلة للمجتمع الأمريكي؟

وقد وصف أحد المحللين "المسألة الهندية" في المجتمع الأمريكي بأنها إصرار الهندي على أن يتمسك بهويته وأن يكون مختلفاً في مجتمع يدعي تقديم فرص للجميع ولكن ما يعرضه في الحقيقة هو التماثل بينهم وهو ما لا يلائم مجموعة تصر على أن تختار (على أرضها) ما يلائمها وترفض ما يفرضه الآخر عليها وهو ما يراه الهنود في المقابل "المسألة البيضاء"[99]، وهذا حق تراه بلا

---

(96) Utter، 2001، ص217-218.

(97) Trafzer، 2009، ص196.

(98) http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems

(99) Utter، 2001، ص48.

ريب مستمد من جذورها في هذه الأرض وكون أفرادها أصحابها الشرعيين وتظل متميزة عن المجتمع المحيط حتى وهو يتحول إلى أغلبية من الأقليات التي تنظر للمسألة الهندية من زاوية تختلف عن نظرة السكان الأصليين رغم كونهم أقلية بدورهم، كما أن النهوض بوضع الهنود يتضمن إدانة الماضي الذي سحقهم، وهذا الماضي الذي يتضمن الآباء الحجاج ثم المؤسسين والثورة الأمريكية والدستور والقدر الجلي والحرب الأهلية كله مقدس وفي نفس الوقت كله دنس بالنسبة للهنود لأن أي تقدم للمستوطن الأوروبي كان يعني تراجع الساكن الأصلي، ولكنه في نفس الوقت ماض تقوم عليه شرعية الحاضر بما فيها من أساطير الاستثنائية والحرية والإنسانية والديمقراطية والخيرية، ولهذا أصبح تقديم الاعتذار للهندي فضلاً عن تحسين وضعه الاجتماعي باهظ الكلفة من الناحية النفسية أكثر منه من الناحية المادية ويتطلب إعادة صياغة هذا المجتمع الظالم من أسسه.

مدى أهمية أي تغير مستقبلي

وبغض النظر عن بؤس الواقع الحالي للسكان الأصليين، وعن آفاق التحسن في هذا الواقع، فإن الثابت والمؤكد أن الهندي الأصلي ظل طوال عهد الطمع الأبيض بأرضه وثرواتها، ومقاومته هذا التمدد، محل عداء للمجتمع الأمريكي الذي يخفف قيوده وكراهيته إلى حد ما كلما قل ما في يد الهندي وقلت خطورته على ما في يد الأمريكي، حتى إذا استجدت الأطماع نتيجة كشف ثروة جديدة أو مطالبة الهندي بحق قديم، عادت الكراهية من جديد وعاد العداء إلى سيرته الأولى[100]، مما يؤكد أن الهندي الصالح اليوم هو الهندي المعدم الذي لا يملك ما يُطمع به، بعدما كان الهندي الصالح في عهد المواجهات المسلحة هو الهندي الميت الذي لا يقاوم الطمع في ممتلكاته وحقوقه، وهذا الوضع التاريخي الذي يصر الهندي اليوم على تصحيحه كما مر، هو الذي يضعه في تناقض مع حال اليهودي مثلا الذي يناظره عددا ويناقضه وضعا، وحتى لو تم دمج السكان الأصليين في المجتمع الأمريكي فيما بعد فأصبحوا جزءاً منه وممثلاً

(100) Jacobs، 1985، ص150.

له، وهو أمر لا يبدو احتمالاً قائماً في المستقبل القريب ولا حتى البعيد في ظل ما سبق، فإن هذا لن يكون تراجعاً عن شرور الماضي ولا عن الاستعداد لتكرار المظالم لو استجدت مصالح في أية بقعة من العالم، بل حتى لدى الهندي نفسه كما أثبتت بعض الانتكاسات الرجعية منذ القرن العشرين، وليس من الفضائل أن يقلع المرء عن الخطايا بعد زوال منافعها، وذلك لأن المصالح البشرية تتجدد ما دام الإنسان حياً، وعودة المصلحة تعني العودة للخطيئة.

محددات التغير في السياسات الظالمة

وكل ما سبق يؤكد أن مسيرة التقدم في العلاقة بين الأمريكي (الذي يمثل الحضارة الغربية) والهندي (الذي يمثل أي آخر موضع طمع) محكومة بدرجة المنفعة والقدرة على تحقيقها، وليس بتطور المفاهيم وتقدم الأفكار، إذ كما بينت فيما سبق (أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل 1و2)، لم نحاكم الشخصيات الرمزية في التاريخ الأمريكي والمتهمة بارتكاب المظالم، وفقاً لمفاهيم زمنية لاحقة، بل إذا نظرنا إليها وفقا لمفاهيم عصرها بل وفقاً لاعترافاتها الذاتية فإن الهوة بين القول والفعل واسعة وعميقة جدا، ليس بسبب القيود الفكرية للعصور التي عاشت فيها وقصرت مفاهيمها كما قوّمها من جاء في القرن العشرين، بل بسبب المصالح والأطماع التي اقتضت ارتكاب الظلم واستمراره ومنعت اتخاذ إجراءات عادلة والقضاء على الإساءات التي كان من الممكن وقفها كما أثبتت الحرب الأهلية الأمريكية والحرب الباردة ولكن ذلك لم يحدث إلا عندما تقضي المصالح والأطماع الجديدة وليس مجرد الإحساس بالخطيئة والندم عليها.

صراعات من أجل المصالح المادية وليس اختلافات فكرية بين الأزمنة

ومن هنا فإن المظالم التي ارتكبتها الولايات المتحدة ورموزها ضد الهنود الأصليين والأفارقة المستعبدين لم تكن مجرد التزام بمفاهيم عصر متخلف عما بعده ويسير قدماً نحو الأفضل، فمن الذي يريد أن يقنعنا بأن الإبادة التي حلت بالسكان الأصليين والاضطهاد الذي وقع على الأفارقة هما ذروة ما وصل إليه التقدم البشري في القرن التاسع عشر مع أنهما يذكران بهمجية فجر التاريخ وقد سبقهما حضارات أكثر تقدماً في معاملة الآخرين؟ ومن الذي يريد أن يقنعنا أن

الإبادة كانت هي القيمة السائدة والمقبولة خارج إطار الممارسات النفعية التي وإن كانت القيمة المطلقة في المجتمع الرأسمالي فإنها لم تلوث الفطرة النظرية التي عبرت عنها الوثائق الرسمية وآراء غير المنتفعين واعترافات المسئولين، لقد كان الاضطهاد نفاقاً اجتماعياً وظلماً مؤسسياً عبر عن الهوة الكبيرة بين القول والفعل نتيجة غلبة المصالح والأطماع المادية، وهي سمة ملازمة للمجتمعات الرأسمالية، واعترافات رجال ذلك العصر تثبت أنهم كانوا يرون ظلماً ما نراه نحن اليوم ظلماً، ويعترفون بالمظالم بصفتها منكرات كما نراها نحن اليوم كذلك أيضاً، وكونهم كانوا يرتكبونها فهذا لا يدل على أنهم كانوا يرونها صواباً وانهم كانوا منسجمين مع رؤاهم، بل على الازدواجية البشرية التي طبعت افنسان منذ بدء الخليقة بين المبادئ والمصالح لاسيما في مجتمع أصبحت المنفعة فيه هي القيمة العليا، ولهذا لم يكن يجرؤ على رفض هذا الظلم إلا من تحررت مصالحه من المواجهة مع الهنود، كسكان الساحل الشرقي في القرن التاسع عشر والذين ازدهرت بينهم المواقف الإنسانية تجاه الهنود بعدما تم تطهير المنطقة كلها منهم ولم يعد السكان الأصليون يؤلفون أي خطر على سكانها الذين أصبحوا يعيبون العنف الجاري بعيداً في الغرب ضد الهنود[101]، في الوقت الذي كان فيه سكان الغرب يتبنون الحل الإبادي لأنهم منهمكين في صراع لا يهدأ مع السكان الأصليين[102]، وكانوا يعيبون بدورهم على أهل الساحل الشرقي صحوة ضميرهم المتأخرة بعد فوات الأوان ورفضهم اليوم ما فعله أجدادهم بالأمس[103]، أي أن الاختلاف بل التناقض الفكري كان بين الأماكن المختلفة حسب توزع المصالح بينها وليس بين الأزمنة المتعاقبة حسب تطور الأفكار، وكان من الممكن وضع حد لهذه المظالم كما أثبتت الحرب الأهلية التي أثبتت أيضاً أن المصالح هي التي تحرك القدرة على التغيير، وأوضح دليل على ذلك أن الشمال حرر العبيد لأن ذلك يدعم حربه على الجنوب وفي نفس الوقت قام نفس الرجال الذين حاربوا لأجل حرية الرقيق بالقضاء على حرية وحياة الأمم الهندية التي كانت

---

(101) مكدوجال، 2001، ص135.

(102) Utley، 2002، ص102.

(103) Savage، 1977، ص90.

تقف في وجه التوسع الأمريكي في الغرب القاري، وتبدو المفارقة الواضحة بين مختلف الآثار الإنسانية في السياسة الأمريكية فيما حدث لكل من العبيد والسكان الأصليين في نفس الفترة في ظل المشاعر الإنسانية، ففي الوقت الذي صدر إعلان تحرير العبيد بتشجيع من الإنسانيين الذين حفزتهم رواية كوخ العم توم، أدت المشاعر الإنسانية تجاه الهنود والتي حفزتها كتابات أديبة إنسانية أخرى منها رواية رامونا طمحت كاتبتها إلى أن تجلب للهندي ما جلبته رواية كوخ العم توم للعبد الإفريقي من تعاطف، ولكن المفارقة أنها أدت إلى تطبيق سياسة "تمدينية" جسدها قانون دوز (1887) الذي شرّع سلب ثلثي ما بقي من أراض قليلة للهنود بعد معاهدات واتفاقات رسمية أقرت بقاء هذه الأراضي لهم بعد قرون من التوسع الأوروبي والأمريكي والقتل وانتهاك الحقوق، وهذا توضيح لا لبس فيه عن عبثية العوامل الإنسانية في ظل المصالح والمطامع في المجتمعات الرأسمالية.

كما أثبتت تجارب أمم أخرى أكثر "تخلفاً" من الولايات المتحدة وعاصرت حروب الهنود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجود خيارات أخرى غير الحل الإبادي الذي تبنته أمريكا، ومن ذلك تجربة توطين العشائر البدوية في الدولة العثمانية كما شرحت ذلك في دراسة أخرى سابقة ومنشورة (آثار التغريب الاجتماعي على المجتمع العثماني: التحدي والاستجابة).

والجدير بالملاحظة أن صحوة الضمير في المجتمع الأمريكي عامة لم تحدث كما يقول أحد المؤرخين إلا "بعد زمن طويل من زوال الخطر الهندي تماماً"[104]، وذلك بهزيمة المقاومة المسلحة وسلب ممتلكات الهنود، ولكن ما يكشف زيف الشعور بالذنب وأن الظلم لم يكن نتيجة القيود الفكرية للعصور الماضية، أنه كلما ظهرت دواعي الصراع مجددا على أي حق من حقوق الهنود عادت المشاعر السلبية القديمة وعاد العنف مرة أخرى[105]، وبرز إلى العلن السؤال الاستنكاري التهكمي الذي لا يدل على الندم على مظالم الماضي فيقول:

---

(104) White، 1979، ص241.

(105) Prucha، 1995، ص1185.

"هل نحن بصدد إعادة أمريكا إلى الهنود ثانية؟"[106]، وإذا كان الظلم الماضي قد حدث بسبب اختلاف القيم عن قيم عصرنا، فما بال الظلم مستمراً إلى اليوم ولم يفض انبثاق الوعي الحديث إلى تغير في سياسة واشنطن تجاه محميات الهنود، كما لم يؤد الوعي بمظالم سكان أستراليا الأصليين إلى أية تأثيرات عملية[107].

لقد تبنى المهاجرون الأوروبيون والأمريكيون سياسة التوسع منذ البداية، وكان هذا هو الذي فرض عليهم اتباع سياسات خاصة، وهو الذي فرض السياسات اللازمة لتحقيق هذا الهدف حتى في رأي من اعتقد أن سكان الحدود هم الذين منعوا تطبيق سياسات متنورة وجدت عند السياسيين في واشنطن[108]، فقمع السكان الأصليين كان متضمناً في استمرار هدف التوسع[109] وسلب أراضيهم وهو أمر لن يقفوا منه موقف المتفرجين، فكان رد فعل الحكومة الاستيطانية "الصالحة" هو ما أوضحه أحد الجنرالات الأمريكيين لمواطنين مكسيكيين أثناء الحرب الأمريكية المكسيكية (1846-1848) عند حديثه هن عجز الحكومة المكسيكية عن الدفاع عنهم ضد هجمات الهنود: "إن حكومتي ستصحح كل ذلك، ستصد الهنود وتحمي أرواحكم وممتلكاتكم"[110]، وهذا كان هو معيار صلاح الحكومة الاستيطانية التي عليها إثبات جدارتها بواسطته وتتنافس مع غيرها من الحكومات المشابهة في تحقيقه حتى على لسان شخص ذي تجربة كما وصف ذلك الجنرال في التاريخ، فكيف هو الحال مع عامة الناس؟[111]، ومن هذه الحرب وغيرها من الحروب التي قامت بين البيض أنفسهم كالثورة الأمريكية والحرب الأهلية يتبين أن الأمريكيين تصدوا لجميع من وقفوا ضد توسعهم، سواء كانوا من السكان الأصليين أم البريطانيين أم المكسيكيين أم الجنوبيين، ولهذا قال أحد المؤرخين إن العنصرية لا تصلح لتفسير التاريخ الأمريكي كله-وإن استفاد الأمريكيون منها في تبرير توسعهم على حساب الهنود- لأن حروبه طالت

---

(106) Alvin M. Josephy، 1989، ص209.

(107) فرّو، 2007، ص20.

(108) Drinnon، 1997، ص108.

(109) Utley, p. 31، 2002، ص31.

(110) نفس المرجع، ص31.

(111) نفس المرجع، ص31-32.

البيض كما طالت غيرهم، وقد كان المحرك للأمريكيين هو الحرية والبحث عن الفرص (ولو على حساب الآخرين) والانتقام من مقاومة الهنود[112]، وهي صورة طريفة للحرية التي تبنى بإبادة الآخرين تماما كما دافع الجنوب عن "حريته" باستعباد الأفارقة، كما أنها صورة طريفة لعذر (هو العنصرية) يماثل الذنب (وهو التوسع) قبحاً ومرارة.

لقد كان هذا الصراع على الأرض هو الأرضية الخصبة التي نمت فيها الصورة الاستئصالية (المقابلة للاستشراق في الشرق العربي الإسلامي) والتي صورت السكان الأصليين بصورة تبرر حربهم والقضاء عليهم واستئصالهم وسلبهم كما كان الاستشراق الذي اخترعه الغرب يبرر إخضاع الشرق وحكمه والهيمنة عليه للاستيلاء على المصالح الغربية فيه.

وبهذا نرى أن علاقة الغرب بالآخرين، ونحن من ضمنهم، ليست محكومة بتطور المفاهيم وتقدم الأفكار نحو الإنسانية والعقلانية كما يظن أنصار التغريب الذين يتهمون غيرهم باستعجال الجنة الآتية ببطء من الغرب، بل بنوعية المصالح وقدرة الغرب على فرضها على غيره، وقد أقر الرئيس كينيدي بأهمية القوة في معادلة الصراع فقال: "عندما كان الهنود يتحكمون بميزان القوى، كان المستوطنون الأوروبيون مجبرين على أخذ وجهة نظرهم في الحسبان، فكانوا يتعاملون معهم بالمعاهدات والأدوات الأخرى... وعندما فقد الهنود قوتهم، وُضعوا في محميات كانت غالباً أراض غريبة عنهم، وصرفت بقية الأمة اهتمامها عنهم إلى قضايا أخرى"[113]، ومن هنا فإن استعادة حقوقنا ليست مرهونة بعطف يستجد علينا في الغرب بل بقدرتنا على تحقيق مصالحنا في وقت مازالت فيه المصالح الغربية ثابتة في بلادنا وإن كان كثير من حملة الشعارات المثالية في الغرب يعارضونها، وهذه معارضة خيالية لن يلبث نفس دعاتها أن يتخلون عنها عندما يوضعون في موضع المسئولية المسئولة عن تحقيق المصالح لا تطبيق المبادئ، وفي كل الأحوال لن يقاتل لأجلنا أو بالنيابة عنا أحد ما لم نبدأ نحن بالدفاع بأنفسنا عن حقوقنا.

---

(112) مكدوجال، 2001، ص134-135.

(113) Utter، 2001، صxxxiii.

الاستنتاجات

■ توزيع المحاسن والمساوئ في الحوار الحضاري: الحضارة الغربية حضارة حصرية غير مستعدة لدمج الآخرين فيها رغم حديثها المستمر والممل عن ضرورة قبولهم، ومن أقوى الأدلة على ذلك استثناء السكان الأصليين من جنة بوتقة الصهر الأمريكية التي تذوب فيها كل الفروق بين البشر ومع ذلك تضيق بقلة من أصحاب البلاد الشرعيين الذين سارت العلاقة التاريخية الحضارية بهم في اتجاه واحد، فحصد المهاجرون البيض كل المزايا وكانت المساوئ من نصيب الهنود، فقد أعطوا محاسنهم للوافدين الجدد الذين لم يكتفوا باستغلال هذه المحاسن لأنفسهم وتدميرها عند أصحابها بل قاموا أيضا بحرمان الهنود من محاسن الحضارة الأوروبية رغم توق كثير منهم للدخول في جنتها، ولو حصل الهندي على مزية من الوافد بطريقة غير مقصودة فإن هذا الوافد سرعان ما سيدمر ما أشادته هذه المزية في حياة الهندي عندما يقترب من حدوده، كما قام الأوروبيون بتشجيع مساوئ الهنود والاستفادة منها وبتصدير المساوئ الأوروبية إليهم أيضاً، وبهذا حرم الهنود من جميع المحاسن واستنفدتهم المساوئ في الوقت الذي استفاد الأوروبيون من كل ما تصوروه حسناً سواء عندهم أم عند سكان البلاد حتى أنهم تجرءوا على حرمان الهندي مما كانوا هم يستفيدون منه من مزايا الهنود الذين أصبحوا محرومين من حقهم في ذواتهم المباحة للغير.

وقد رأينا أن كل شعارات التقدم والتنوير التي صنعت ازدهار الرجل الأبيض، صنعت العكس تماماً للهندي الأحمر، فقد أدى استقلال الأمريكي عن بريطانيا إلى فقدان الهندي استقلاله[114]، وما أن فاز الأمريكي بحريته حتى شرع في استعباد الهنود[115]، وكان تحقيق الديمقراطية للبيض يستلزم نهب الأرض التي يعيش عليها الهنود[116]، كما أدت الديمقراطية البيضاء إلى تشريع هذا النهب[117]، أما تمدين الهنود بقرارات شبهت بالإنجازات الغربية الكبرى

---

(114) Foner، 2005، ص219.

(115) Calloway، 1995، ص300.

(116) Slotkin، 1998، ص248 و252.

(117) Bennett، 2006، ص243.

كالماجنا كارتا والاستقلال وتحرير الرقيق فقد أدى إلى تدمير إنجازاتهم الحضارية على طريق تبني الحياة الأمريكية، أما الإنسانية البيضاء فقد كانت الطليعة التي شرعت إلغاء إنسانية الهندي وهويته تمهيداً لاستباحة حقوقه بطرق غير إنسانية[118].

■ الكيان الصهيوني نموذج مصغر للتجربة الأمريكية: وإن تجربة الكيان الصهيوني الذي يلخص مجموع التجربة الأمريكية بعدما كرر السوابق الأمريكية تجاه السكان الأصليين كما شرحت ذلك فيما سبق (فلسطين الهندية الحمراء/ 1)، وكما لم يكن للهندي مكان في العالم الذي صنعته الثورة الأمريكية، ولم تكن مبادئها "التقدمية" تنطبق عليه ولا على العبد الإفريقي[119]، كذلك لم يكن للفلسطيني مكان في العالم الذي صنعه الصهيوني بمساعدة الغرب كله، وتؤكد التجربة الصهيونية هذه الحقيقة حيث يحرم العربي الفلسطيني من العودة إلى داره في جنة أرض الميعاد التي تستقبل الوافدين الغرباء من أقاصي الأرض إلا أنها تضيق بصاحب الحق في الأرض، كما أن العجز الذي ينتاب "المجتمع الدولي" في مواجهة الانتهاكات الصهيونية لحقوق شعب فلسطين مقابل الشدة في مواجهة أية مقاومة فلسطينية يؤكد أن السلطة في الحضارة الغربية تمثل دائرة مواطنيها وغير معنية بضم الآخرين إليها أو معاملتهم على قدم المساواة وهو أمر يعيد إلى الأذهان عجز السلطات الأوروبية والأمريكية في القارة الأمريكية أمام انتهاكات مستوطنيها لحقوق الهنود الذين ادعى البيض أنهم يسعون لدمجهم في حضارتهم، وهذا يؤكد أن الحصرية في الحضارة الغربية ليست نتيجة لقلة إمكانات استيعاب الآخرين ولكنها مرتبطة بجدول المصالح الخاصة غير القابلة للتعميم كما تتصورها النخبة المستفيدة في هذا المجمع الحضاري.

■ مصير الانحياز للحضارة الغربية: ولم يكن نصيب الذين انحازوا إلى حضارة الرجل الأبيض أفضل من مصير من قاومها ووقف ضد أطماعها، فقد سلبت أرض المقاوم وانتهى إلى الفقر والطرد أيضا مَن تعاون مع البيض ببيع أرضه أو بالقتال إلى جانبهم، وهذا ما حدث مع بلادنا حين انحاز العرب إلى

---

(118) Calloway، 1995، ص298.

(119) نفس المرجع، ص298 و300.

جانب الحلفاء في الحرب الكبرى الأولى (1916) فكان مصيرهم فقدان حريتهم، وتقسيم بلادهم، واحتلال أرضهم، لأن المصالح الغربية اقتضت ذلك بغض النظر عن المواقف الذاتية، ولهذا علينا التيقن بأن قبولنا بخطة تقسيم فلسطين (1947) لم تكن لتدرأ عنا النكبة لأن خطط الأعداء لم تكن رهينة مواقفنا أو ردود أفعال عليها، وفي الحرب الأولى أيضاً كان مصير الدولة العثمانية التي كانت تهمتها هي التحالف مع الألمان أسوأ من مصير ألمانيا ذاتها في تكرار لتجارب الهنود التي كان المهزوم منهم فيها يعاني أكثر من حليفه الأبيض (الفرنسي أو البريطاني أو الأمريكي الكونفدرالي).

■ أين نحن من التجربة الغربية عموماً والأمريكية خصوصاً؟: ينادي أنصار التغريب بأن علينا أن نقتبس التجربة الغربية التي قامت بإنجازات أوصلت-على سبيل المثال-شخصاً من أصل إفريقي إلى منصب الرئاسة الأمريكية، والحقيقة أن هذه المباهاة فيها كثير من التجاوز على حقوق ملايين البشر التي سحقتها ومازالت تسحقها حتى اليوم الولايات المتحدة وأتباعها، وليس من الإنصاف أن يحمل الضحايا ثمن فاتورة تطور صنعه المجتمع الغربي لداخله في الوقت الذي مازال الخارج ينتظر منذ بداية عصر الكشوف الجغرافية والاستعمار والإمبريالية دون تقدم يذكر إلا بعد فوات الأوان دائماً، وليس من العقل أن يطالب الطريد بالإعجاب بما صنعه المغتصب على أرضه المسروقة من إنجازات يتمتع بها وحده دون صاحب الأرض الشرعي، وإذا تململ ورفض وقاوم فإنه يتهم بالعجلة[120] لأن الخير في طريقه إليه والشمس ستشرق من الغرب بعد انتظار دام أعماراً كثيرة واستهلك طاقات كثيرة وأصبح تكراراً مملاً لتجارب متغربين أصروا بعناد دائم على الانحياز للغالب الغربي لتحقيق شيء من الازدهار في ظله من داخل منظومة الهيمنة الغربية، في تجارب انتهت جميعها بفشل ذريع دل على أن مكان "الآخر" في هذه التجربة هو المكان الذي ترسمه المصالح المادية التي تفرضها مبادئ المنفعة التنافسية الاستئثارية وإرادة فرض الهيمنة الحضارية الغربية وتجسد النموذج البدئي لهذه المكانة في التجربة التي خاضها ومازال يخوضها الهندي

---

(120) جيفرسون، 2011، ص13 (من مقدمة بقلم حازم صاغية: الراهنية العربية لتوماس جيفرسون).

الأصلي بإقصائه واستبعاده منذ البداية إلى اليوم داخل القارة الأمريكية والذي تكرر مثاله في تنويعات على اللحن الأصلي والتي سمع فيها نغمة هذا اللحن بوضوح في أماكن متفرقة وعديدة في العالم تصر على الدفاع عن حقوقها المادية وهويتها الحضارية المختلفة عن الغرب وبخاصة في عالم العروبة والإسلام حيث تحكم المصالح الغربية والأطماع المتجددة دائماً والخلافات الحضارية مسار علاقتنا بالغرب أكثر من انتخاب مسرحي لإفريقي تشرب مبادئ العولمة وأصبح جزءاً من المنظومة الرأسمالية -كما يجسدها أشد أنصارها حماساً- أكثر من تمثيله مصالح الفقراء والمعدمين والمستضعفين الذين لم يغير هذا الرئيس من منظومة ظلمهم شيئاً، وأقول إن انتخابه مسرحي لأن أصداءه الإعلامية كانت أكبر من إنجازاته الحقيقية.

وعلى كل حال فإذا كان للغرب من حق في أن يأخذ -وفقاً لوعود الانتظار-وقتاً كافياً -قد يصل قروناً طويلة كما مر وإن لم يكن هنالك ضمانات لنهاية المسار- لاستيعاب الغير ودمجه في منظومته الحضارية كما يعدُنا المتفائلون بلا مبرر عملي، فإن على أنصار التغريب هؤلاء ألا يبخلوا على أممهم بأن تأخذ فرصتها الكاملة للتطور وفق مساراتها الذاتية دون أن يقوم قُطاع الطرق من الغرب بفرض مسارهم الذاتي لتحقيق مصالح حصرية لا تشمل الضحايا في نفس الوقت الذي يدعي فيه هؤلاء الغربيون أنهم يفعلون ذلك لصالح الإنسانية كلها ولا يمكننا فهم ذلك إلا إذا كانوا يقصدون بالإنسانية أنفسهم وحدها وهو ما ثبت بالفعل من تحليل الخطاب الحضاري الغربي التاريخي الذي أراد فرض التماثل داخلياً والتبعية خارجياً رغم كل الأحاديث عن التنوع والقبول.

■ هل يمكننا الفصل بين الفكر الغربي التنويري والسلوك الغربي الاستعماري؟ يصر بعض المثقفين على "التميز بين إشعاعات المنهج الليبرالي التنويرية، والسياسة الليبرالية المتمثلة بالوجه الإمبريالي لاستعمار دول العالم الثالث"[121]، وإذا كان هذا الرأي مردوداً عليه بالوقائع التاريخية كما سيأتي، فإن الأعجب منه أن يتعلق أصحابه بالتجربة الماركسية التي ورثت المنهج

(121) نجدي، 2005، ص417.

الليبرالي دون السياسة الإمبريالية و"مثلت أفضل وأقسى نقد للغرب الاستعماري"[122]، دون الالتفات إلى أن التجربة الماركسية دخلت في طورين أيدت في أولاهما السياسة الاستعمارية بصفتها عامل تحديث للمجتمعات المستعمَرة وذلك على ألسنة المؤسسيْن كارل ماركس وفردريك إنجلز اللذين مدحا الاستعمار البريطاني، وأنصار كومونة باريس (1871) الذين أيدوا سياسة الاستعمار الفرنسي في الجزائر، والأممية الثانية التي ناصرت الإمبرياليات في الحرب الكبرى الأولى (1914-1918)، ثم دخل الطور الثاني الذي قاده البلاشفة في روسيا مؤسسين تجربة تفوقت على تجاربنا في البناء ولكن ثمنها الدموي كان باهظاً جداً مما أدى إلى سقوطها لصالح السياسة الليبرالية الاستعمارية التي خرج السوفييت عليها ثم تعايشوا معها ثم سقطوا بسببها، فلم تعد بذلك تجربتهم بديلاً حقيقياً لها.

ويرد الدكتور عبد الوهاب المسيري على المقولة السابقة عن فصل المنهج الليبرالي التنويري عن السياسة الليبرالية الاستعمارية بالقول إنه "لا يمكن دراسة تاريخ الديمقراطية في الغرب وتاريخ المجتمع المدني دون دراسة المشروع الإمبريالي، فديمقراطية إنجلترا تستند إلى حقيقة أن هذا البلد حقق الأمن الاجتماعي في الداخل، عن طريق تصدير كل مشكلاته إلى الشرق، وما الصهيونية سوى تصدير المسألة اليهودية إلى الوطن العربي"، مستدلاً على ذلك بإحصائيتين تبين أولاهما أن ما نهبته إنجلترا من الهند يفوق كل ما أنتجته في ثورتها الصناعية، فضلاً عن المنهوبات من بقية المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس، وتبين الإحصائية الثانية أن القفزة الهائلة التي حققتها الرأسمالية الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر استندت إلى محصول القطن الرخيص الذي كان ينتجه العبيد الأفارقة الذين سُرقوا من بلادهم وسيقوا للعمل تحت أقسى أنواع الظروف ودون حد الكفاف، ويستنتج قائلا "إن الإمبريالية ليست غزوة استعمارية ولا مجرد انحراف عن مسار الغرب، وإنما هي من صميم هذه الحضارة"[123]، ويؤكد ذلك أيضاً قول المؤرخين إن العمالة الإفريقية والأرض

(122) نفس المرجع، ص217-218.
(123) المسيري، 2005، ص446-448.

الهندية كانت موارد حيوية للجمهورية الأمريكية[124]، وإن أعظم مساهمة في إشاعة الديمقراطية الاقتصادية والفردية كان توزيع الأراضي ذات الأسعار الرخيصة على المستوطنين، وإن تطبيق هذه السياسة الحرة على مساحات الأرض الشاسعة والخصبة الواقعة خلف الجبال، أدى خلال قرن من الزمن إلى المساواة والديمقراطية الاقتصادية[125].

أما عن الذين يريدون سلوك السبيل الغربي بحلوه ومره، فلم يعد أمامهم بلاد يستعمرونها ويستغلونها في وجود الغرب القوي الذي يحرس مصالحه ويبعد عنها أي متطفل سواه في كل أنحاء العالم، وهذا الاستغلال هو الذي منح المجتمعات الغربية فرصة الأمان الاجتماعي الذي بني عليه بقية الطقم الحضاري الترفي من حرية وديمقراطية ولهذا ساد التيار الإمبريالي داخل هذه البلاد حيث أمّن لها رغد العيش وهو ما كانت بقية التيارات المثالية والإنسانية المعادية للاستعمار تعجز عن تحقيقه ولهذا ظلت أصواتاً في البرية تزين حديقة "التعددية" و"حرية الرأي" و"قبول الآخر" داخل تلك الحضارة ولكن دون أثر عملي لاسيما أثناء احتدام المواجهات مع الضحايا، ثم يُرجع إلى تراثها بعد فوات الأوان للاستفادة منه (أليست حضارة المنفعة؟!) في إثبات حماية التعددية والحرية داخل تلك المجتمعات حتى في أحلك لحظات الأزمات(!)

■ هل تصلح رموز الولايات المتحدة لنا؟: بناء على ما سبق فإننا لا نجد في الشخصيات التي بنت الولايات المتحدة ما يصلح لأن يكون أمثلة يقتدي بها الضحايا، لاسيما أهل الشرق العربي الإسلامي، فهؤلاء الرموز إن كانوا قد أنجزوا تقدماً لأمتهم فهم غير صالحين لضحاياها، وليس هذا بسبب جرائم الماضي التي ارتكبت ضد السكان الأصليين، رغم فداحتها، ولا بسبب الجرائم التي ارتكبت ضد بلادنا لاسيما ضد الولايات العثمانية في شمال إفريقيا، ولا بسبب الميول الصهيونية لعدد من زعماء أمريكا الأوائل، وكلها كبائر يحلو لأنصار التغريب وحزب التبرير أن يحصروها في دائرة زمنية محددة لن يلبث التقدم أن يمحوها، ولكن استمرار العدوان إلى اليوم بعد قرون طويلة لم تغيره

(124) Calloway، 1995، ص300.

(125) لاسي، ص141.

يؤكد أن القضية ليست عداوة محلية تجاوزها الزمن، ولا مجرد انحراف سياسي ارتكبه حاكم أهوج، ولا فكراً عتيقاً ما لبث التطور الفكري أن محا أثره، بل القضية جزء من نظرة الحضارة الغربية الثابتة إلى الآخر والتي تدعمها المصالح المادية والاختلافات الحضارية التي تعجز المثاليات عن التأثير العملي فيها.

وفي هذا السياق يعزو الدكتور حسن الضيقة سقوط عالمية التجربة السياسية الغربية إلى "سقوط الأساس العقائدي والفلسفي للتجربة الغربية المعاصرة" ... "التي لم تعمل على إعادة إنتاج العالم غير الأوروبي على صورتها ومثالها، بل حولته إلى مادة أولية عمياء تخدم مؤسسات الأنوار الأوروبية مستخدمة في ذلك كل ما توفر لديها من أدوات قهر مادي ومعنوي"(126)، ومازالت هذه الازدواجية قائمة إلى يومنا هذا، ولهذا مازال "المجتمع الدولي" و"القانون الدولي" لا يمثلان في الحقيقة إلا أمم الغرب فتقع حقوقنا ضحية لحصرية تمثيلهما للدائرة الغربية وحدها وحرصهما على حقوق النخبة الغربية وحدها، ويتمكن المستوطن الصهيوني المنتمي للعالم الغربي من فرض انتهاكاته علينا مسلحاً بعجز المجتمع والقانون الدوليين بل بتأييدهما كما كان المستوطن الأوروبي يفرض انتهاكاته على الهندي مسلحاً بعجز بل بتأييد السياسة والقانون اللذين لا يمثلان الهندي ولا يشملانه بالرعاية، ولهذا أيضا مازال مشاة البحرية الأمريكية يتغنون بعدوانهم على طرابلس الغرب الذي وقع قبل أكثر من مائتي سنة ويؤرخ بأنه"الحرب الأمريكية الأولى على الإرهاب"(127) التي قادها أبو الاستقلال الأمريكي الرئيس توماس جيفرسون، ومازالت الأحلام والنزعات الصهيونية التي عبر عنها عدد كبير من الرموز الأمريكية كبنيامين فرانكلين والرؤساء توماس جيفرسون وجون آدامز وأندرو جاكسون وأبراهام لنكولن تكون زاوية مهمة من السياسة الأمريكية منذ عهد الرئيس "المثالي" وودرو ويلسون الذي استثنى شعوبنا من جنة تقرير المصير وصادق على وعد بلفور وعبّد الطريق لمن أتى بعده من البراغماتيين الذين لا يتحلون بملائكيته، وهذا ليس حكماً يتجاوز طبيعتهم البشرية وكونهم أبناء أزمنتهم كما يصور المبهورون بهم، بل هو وضع لكل منا في مكانه كما كان بالأمس ومازال إلى اليوم وسيظل إلى غد.

---

(126) الضيقة، 1994، ص100 و151.

(127) Wheelan، 2003.

الخلاصة

عملية استيعاب الآخر داخل الحضارة الغربية ليست متوقفة على قدرة الغرب على الدمج رغم إمكاناته الواسعة، بل هي محكومة بعاملين مهمين يكملان بعضهما البعض: المصالح المادية والاختلافات الحضارية، ولهذا نرى أن بلداً كبيراً وواسعاً ومرحباً بهجرة أعداد كبيرة إليه سنوياً مازال إلى اليوم يضيق بسكانه الأصليين رغم قلة عددهم وزوال خطرهم، وما سرى عليهم يسرى على غيرهم من الأمم التي تتعارض مصالح الغرب مع مصالحها وتصر على هويتها الحضارية المختلفة عن الهوية الغربية، كما أن الحصرية الغربية غير مرتبطة بموقف الآخرين منها سواء كانوا مؤيدين أم معارضين لأنها تمثل دائرتها الخاصة وغير المستعدة لدمج الآخرين في جنتها ومن هنا نبعت ازدواجية مواقفها من أتباعها والآخرين، وهذه الصورة ما زالت حية منذ زمن طويل لم يؤثر فيها تطور فكري أو تقدم معنوي لا صلة له بالمصالح المادية، ومازالت الحصرية مع النبذ والإضرار واضحة في سلوك الغرب المستمر إلى اليوم حين ينظر إلينا كمزبلة خارج إطار عالمه الأسطوري إذ يكب نفاياته السامة في العالم الثالث فيكون قد استفاد من استخدامها لنفسه وحمّل الآخرين عبء وأضرار المخلفات منها والتي لا يقبلها في قصره الرخامي، كما لم يشركهم في فوائدها، وذلك كما كب فيما سبق نفاياته البشرية في فلسطين بعدما أصبح اليهود عبئاً على الحضارة الغربية فقذف بهم إلينا ليحملنا شرورهم ويستفيد من كيانهم، الممارسة واحدة مازالت إلى اليوم.

الفصل الخامس والعشرون

دور الإرادة الشعبية في دول الغرب في العدوان على الشعوب الأخرى

بعد قيام أحد المستوطنين في مستعمرة فرجينيا بعملية قتل وحشية ضد امرأتين من الهنود، تباهى بجريمته، رغم الحكم عليه، قائلاً: "إن قتل الوثنيين أينما وجِدوا عمل يستحق التقدير والمكافأة"، فعلق وليام جونسون مراقب الشئون الهندية البريطاني في أمريكا مفجوعاً من هذا الكلام بقوله: "يبدو أن هذا هو رأي عامة الناس هنا" (1766)[1].

مقدمة توضيحية

في دراسة منشورة (في ذكرى وعد بلفور: موقع الديمقراطية في السياسات الخارجية الغربية) فصلت بإسهاب كيف أن الدول الغربية التي تطبق الديمقراطية في داخلها وتدعو لها في الخارج أهملت تطبيقها على الشعوب التي قامت هي بالعدوان عليها، وسردت أمثلة على ذلك وعلى عدم إدخال رغبات هذه الشعوب في عملية تقرير مصيرها، وفيما سبق (أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل 1 و2، وفلسطين الهندية الحمراء / 1)، فصلت دور الديمقراطية الغربية في العدوان على بعض الشعوب الأصلية وكيف أن هذا العدوان صدر بقرارات ديمقراطية، وفي زمن الديمقراطية السياسية الأمريكية التي تتزعم الديمقراطيات الغربية اليوم وتقود نشر الديمقراطية في العالم ولو بطرق غير ديمقراطية (!) فإنه من المناسب

---

(1) Banner.، 2005، ص98.

بحث دور الشعوب الغربية في دعم عمليات الهجوم على العالم غير الأوروبي وإن كان ذلك واضحا من طبيعة النظام الديمقراطي الذي تمثل فيه الحكومة إرادة الأغلبية، إلا أنه من المفيد الاطلاع أيضاً على دور هذه الإرادة في دعم العدوان لا سيما في وجود آراء تتخذ من التنوع داخل المجتمعات الغربية وسيلة قد تؤدي في النهاية إلى تمييع مواجهة العدوان المستمر الملموس بحجة وجود آراء إنسانية ترفض هذا العدوان داخل هذه المجتمعات رغم أننا لا نلمس أثراً عملياً لهذا الرفض.

فلاسفة ومفكرو النهضة والتنوير يمهدون للعدوان

اتضحت ملامح النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر، وقد أدت فيما بعد إلى ظهور العالم الغربي بشكله الحالي، ولكن الجوانب الإصلاحية والعقلية والعلمية والإنسانية التي طبعت العصر الحديث بطابعها كان لها آثار سلبية جداً على الإنسان غير الأوروبي، ولم يكن ذلك بطريق الخطأ الجانبي أو غير المقصود، فقد أسس مفكرو النهضة لهذه السلبيات عمداً وعن سبق الإصرار:

1 - المدينة الفاضلة لتوماس مور مدينة استعمارية:

اشتهر السير والقديس والفيلسوف الإنجليزي توماس مور (1477-1535) بأنه أحد رواد الحياة المثالية والمدينة الفاضلة بعد تأليفه روايته الشهيرة يوتوبيا (1516) التي تحدث فيها عن مكان خيالي في القارة الأمريكية يعيش فيه شعب بطريقة تخلو من جميع العيوب التي كانت أوروبا المسيحية تعيشها في ذلك الزمن[2]، وكان المقصود من الرواية إظهار المثل العليا للحياة الإنسانية ومنها التسامح والمشاركة والعلم، وقد أصبحت هذه الرواية رمزاً لكل من يسعى إلى الحياة الفاضلة المثالية.

ولكن احتوت هذه الجنة على صفة لن تلبث بعد ذلك أن تصبح من صفات المجتمعات الأوروبية الاستعمارية وهي التوسع المستمر، "إذا زاد عدد السكان في الجزيرة كلها على الحد المعين، فإنهم يختارون عدداً من المواطنين من كل

---

(2) Encyclopedia Britannica، 1987، ج8، ص314.

مدينة ويقيمون لهم مستعمرة تخضع لقوانينهم على جزء من أرض القارة المجاورة لهم، في مكان تكثر فيه لدى السكان الأصليين الأرض غير المأهولة وغير المزروعة"، وهذا هو بالضبط التبرير الذي حمل البيض في أمريكا على سلب أراضي الهنود مع التوسع كثيراً في تفسير "غير المأهولة وغير المزروعة" حتى لم يبق للهندي ما يقف عليه (!)، وتتابع الرواية المثالية: " وإن أراد السكان الأصليون أن يسكنوا معهم سمحوا لهم بالانضمام إليهم، وعندما يتم هذا الاتحاد، يندمج الفريقان معاً،... أما إذا رفض هؤلاء السكان طاعة قوانين اليوتوبيين، فإنهم يطردونهم من الأرض التي اختاروها لأنفسهم، فإذا قاوموا، شنوا عليهم الحرب، فهم يعدون أن أعدل مبرر للحرب هو أن يتمسك قوم بقطعة من الأرض لا يستغلونها بل يتركونها بوراً"[3]، ولن يكون من الصعب بعد ذلك على من يتبنى هذه الآراء أن يهمل واجباته فيها، كالاندماج مع السكان الأصليين، وينتقي ما يناسب حقوقه منها، كالاستيلاء على الأرض وطرد أصحابها بحجة عدم استعمالهم إياها، وهي الخطوة التي سيقوم بها فكرياً الفيلسوف جون لوك فيما بعد في مقالته الثانية عن الحكومة (1689)، وحجة عدم استعمال الأرض هذه هي نفس الحجة التي بررت ما حصل في أمريكا وبعد ذلك في فلسطين حيث طُرد الأهالي ولم يُسمح لهم بالعودة حتى الذين قبلوا منهم "بالعيش بسلام مع جيرانهم" كما نص على ذلك قرار الأمم المتحدة رقم 194.

2 - السير والتر رالي (1552-1618):

وقد وُصف بأنه مساهم رئيس في التطورات التي شهدها المجتمع الإنجليزي بداية من عهد الملكة إليزابيث الأولى والتي وصلت أوجها بالديمقراطية السياسية والليبرالية الاقتصادية والتسامح الديني وانتصار العلم الحديث، ولكنه إلى جانب كل ذلك كان مؤسساً لفكرة الاستعمار بصفتها حلاً لمشاكل إنجلترا وعطاء لجميع أبنائها "من العاطلين عن العمل إلى البروتستانت، ومن تجار المدن إلى الأبناء الأصغر للعائلات الكبرى"، وهو الذي مول الرحلات الأولى لأمريكا، وشارك في إخضاع وقتل الإيرلنديين، ودعى إلى

(3) مور، 1987، ص158.

ضرورة إزاحة التحدي الإسباني للهيمنة الإنجليزية، وهو ما تحقق بهزيمة الأرمادا (1588)، كما أنه رعى أول عملية استيطان إنجليزي في العالم الجديد (1584)[4]، ورغم فشل محاولاته الاستيطانية الأولى، فقد "قادت جهوده المثابرة عملية الاستيطان الإنجليزي الدائم في العالم الجديد"[5].

3 - جون لوك يمارس الاستشراق الاستئصالي لتبرير عملية غزو أمريكا:

قدمت أفكار الفيلسوف والاقتصادي والكاتب السياسي الإنجليزي الشهير جون لوك (1632-1704) إلهاماً للثورة في كل من إنجلترا (1688) والولايات المتحدة (1776)، ولهذا عُد من رواد عملية التغيير الاجتماعي في العصر الحديث[6]، وقد قدم لوك أفكاراً اقتصادية شهيرة فيما يتعلق بحق الإنسان في الملكية الفردية الناتج عن عمله في الموارد الطبيعية وحقه في استخلاص ما يبذل جهده فيه من هذه الموارد ولا سيما الأرض منها، وعد ذلك بديهية وأحد مقتضيات القانون الطبيعي الذي يسلم بكون الإنسان مالكاً قواه التي تعمل، ولكنه لم يقف عند هذا الحد، وعند التطبيق العملي لأفكاره الاقتصادية قام بالخطوة اللازمة لتجاوز حقوق السكان الأصليين كما وُصفت في "يوتوبيا" وذلك بممارسة ما أسميه الاستئصال (وهو الاستشراق معمماً على جميع السكان الأصليين في العالم) على الهندي الأحمر بالتعامي عن حقيقة ماثلة للعيان آنذاك وهي عمل الهنود في الزراعة، وإنكار قيامهم بجهود في تطوير الأرض التي يعيشون عليها مما جعل أراضيهم أرضاً "قاحلة" و"يباباً" ومن حق المستوطن أن ينتزعها لنفسه بالعمل[7]، وذلك رغم أن هذا المستوطن تعلّم كثيراً من أساليب الزراعة في العالم الجديد من الهندي نفسه[8]، ومع ذلك فقد قام هذا المستوطن بخطوة أخرى في العدوان متقدمة عما أقرته فلسفة لوك المتقدمة أصلاً على فلسفة

---

(4) Robert A. Williams، 1992، ص174-177.

(5) New Standard Encyclopedia، 1999، ج14، ص79-R.

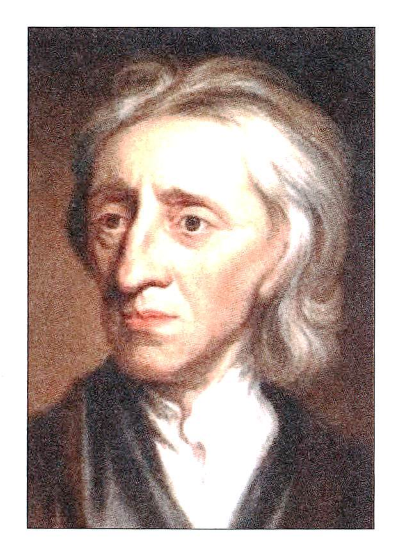
(6) برينتون 1984، ص395 (من الهوامش بقلم المترجم).

(7) Robert A. Williams، 1992، ص246-249.

Banner-، 2005، ص46-47.

(8) Pearce، 1988، ص66.

توماس مور، وهذا من طبيعة تطبيق النظريات عندما تقتضي المصالح، وذلك عندما لم يكتف المستوطن بالاستيلاء على ما يكفي قوته من الأرض التي وصفت بالقاحلة بل نشأت مصالح كبرى من الاستيلاء على أراض واسعة استناداً إلى الرشوة والفساد[9]، وهو ما أدى في النهاية إلى إبادة السكان الأصليين بعد تضييق مصادر الرزق عليهم وعدم الإبقاء على الحد الأدنى الذي يقتاتون به وذلك على عكس ما ادعت النظريات الفلسفية المبررة للعدوان والتي لم تستح فيما بعد من ممارسة استشراق فاضح بالادعاء أن فلسطين أرضاً بلا شعب.



جون لوك

الإرادة الشعبية الأمريكية واحتلال القارة

يلاحظ قارئ التاريخ الأمريكي أنه مثل كل الكيانات الاستيطانية الاستعمارية الأوروبية كانت مصلحة قاعدته الشعبية تدفع باتجاه الاستيلاء على أراضي وممتلكات وموارد السكان الأصليين بطريقة كان على حكومات هذه الكيانات أن تتدخل كثيراً لضبطها ليس من باب الإنسانية والحرص على مصالح الهنود بل من باب السياسة وتقدير المنافع والأضرار وبخاصة أنه كثيراً ما ثبت عملياً أن اتباع الطرق الدبلوماسية في الحصول على أرض الهندي أرخص من

(9) Robert A. Williams، 1992، ص249.

استعمال الوسائل العسكرية[10] التي وصلت نفقات بعضها إلى مليون دولار لقتل الهندي الواحد، ولكن المشكلة في المقياس النفعي أنه لم يكن يمنع اللجوء إلى أية وسيلة حتى لو لم تكن أخلاقية لتحقيق الهدف وهو الحصول على أرض الهنود والذي هو بدوره غير خاضع للضوابط الأخلاقية.

ولأن موضوع هذه الدراسة هو عدوان الديمقراطية الغربية فإنني لن أتطرق بتوسع إلى موقف أوروبا من فتح أمريكا قبل حلول العصر الديمقراطي، إلا أنه من المفيد الإشارة إلى أن الكتلة البيوريتانية الإنجليزية في عصر تميز بغلبة المشاعر الدينية حملت عداء للسكان الأصليين منذ بداية الاستيطان وعدت انقراضهم بالأوبئة في بعض المناطق التي بدأ الاستيطان الأبيض فيها نعمة إلهية لإخلاء الأرض لشعب الله المختار كما دخل المستوطنون كجبهة موحدة في حروب طاحنة مع القبائل الهندية في الصراع على الأرض والموارد وكانوا يسقطون رؤاهم التوراتية على هذه القبائل فهي كالفلسطينيين القدماء أعداء يهوه والمستوطنون كبني إسرائيل أحباء الرب، وهذه الرؤى والعداوات استمرت من العصر البيوريتاني في القرن السابع عشر إلى عصر العقل (الكلاسيكي الجديد) في القرن الثامن عشر ثم العصر الرومانسي في القرن التاسع عشر وما بعده من تطورات، وكل ما حدث هو علمنة للمفاهيم الدينية دون تغير في جوهر المعتقدات القائمة على المصالح في اغتصاب الأرض ونهب الموارد وإبادة السكان.

لقد كان التغير الذي شهدته السياسة الإنجليزية في القرن السابع عشر، من الاستبداد إلى الديمقراطية والليبرالية والتسامح وانتصار العلم الحديث منذراً بالتحول أيضا نحو الاستعمار الذي أصبح هو الحل لمشاكل إنجلترا الداخلية كزيادة السكان والبحث عن الموارد الطبيعية للصناعات الوليدة وعن الأسواق لتصريف المنتجات الصناعية مما سيؤدي إلى استقلال البلاد اقتصادياً وسيستفيد الوثنيون أيضاً من هذه الحملة التي ستجلب لهم أنوار الكتاب المقدس[11] (!)

---

(10) Banner، 2005، ص39 و42.

(11) Robert A. Williams، 1992، ص175-176.

وقد أجمع المؤرخون على حقيقة استمدت من إعلان الاستقلال الأمريكي نفسه وهي أن القرار الذي اتخذه الملك البريطاني جورج الثالث بوقف المد الاستيطاني داخل أراضي الهنود (1763) كان أحد الحوافز الرئيسة للمستعمرات الأمريكية على إعلان الثورة والاستقلال عن العرش البريطاني استناداً إلى أفكار الفيلسوف جون لوك آنف الذكر الذي عمل في الإدارة الاستعمارية الإنجليزية والذي اعترف الرئيس توماس جيفرسون كاتب إعلان الاستقلال بدينه لأفكاره التي وصفها بأنها تعبير عن العقلية الأمريكية[12]، كما وُصف لوك بأنه "الأب الفلسفي للتنوير السياسي الأمريكي وللعقيدة الأمريكية"[13]، ووُصف الأمريكيون بأنهم جميعاً يمثلون نظرية جون لوك[14]، وكون القرار البريطاني بكبح الاستيطان هو من أسباب الثورة فهذا أمر يلخص حقيقة الهجوم الذي شنته الديمقراطية على السكان الأصليين في الوقت الذي وصمت فيه بالاستبداد محاولة كبح العدوان على أراضي الغير، ولهذا لم يكن من العجيب أن تكون الثورة الأمريكية كارثة مدمرة على القبائل الهندية.

وفي العصر الجمهوري الأمريكي أصبحت الحكومة ممثلة للإرادة الشعبية بعد إزاحة الحكم البريطاني الذي لم يعط المستوطنين حق انتخاب ممثلين في البرلمان - ولهذا رفعوا شعار الثورة: لا ضرائب بلا تمثيل- كان السياسي الأمريكي مسئولاً أمام جمهور يؤلف أصحاب المصلحة في الاستيلاء على أراضي الهنود نسبة كبيرة منه، سواء من المستوطنين أو التجار الذين يدين الهنود لهم بمبالغ ضخمة من الأموال أو المضاربين في الأراضي[15]، في الوقت الذي افتقد فيه الهندي القدرة على التأثير في هذه الحكومة إلا بواسطة القوة والمقاومة المسلحة، وبعدما كان يمكن للهنود اللجوء إلى حماية العرش البريطاني من تعديات المستوطنين إلى حد ما، أصبحوا مكشوفين أمام أصحاب المصلحة المباشرة في تجريدهم من أملاكهم وهم الذين بيدهم السلطة في الجمهورية الناشئة.

---

(12) نفس المرجع، ص246.

(13) ليفن ، 2008، ص238.

(14) Pearce، 1988، ص68.

(15) Banner, p. 139، 2005، ص139.

الشعب الأمريكي يقترع لاضطهاد السكان الأصليين

مثلت رئاسة الرئيس الأمريكي السابع أندرو جاكسون (1829-1837) مرحلة جديدة في الديمقراطية الأمريكية ومتقدمة في تمثيل الشعب عن مرحلة الثورة التي اتسمت بنخبويتها والأرستقراطية التي سيطرت على الجمهورية أثناءها، فقد تقدمت الديمقراطية الجاكسونية على الموجة الثورية التي اجتاحت أوروبا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فهُزمت نخبة الأرستقراطية واندحرت " هذه الجماعات أمام الديمقراطية السياسية غير المحدودة التي حملتها إلى السلطة أصوات المرابطين على الحدود وصغار الفلاحين والفقراء في المناطق الحضرية، وكان ذلك ابتداعاً مدهشاً "[16]، وأصبح الرئيس جاكسون رمزاً للتقاليد الشعبية القومية التي مثلت أبناء الغرب والجنوب الأمريكيين في مقابل نخبة الشمال الشرقي، وكان من مبادئ هذه التقاليد "الدعوة للوطنية البيضاء، معاداة النخبة، معاداة المفكرين، وكراهية الشمال الشرقي" بالإضافة إلى "العداء الشرس للأعراق الأخرى"[17].

اكتسب جاكسون شعبيته من كونه مقاتلاً شرساً ضد السكان الأصليين، ومع وصوله إلى منصب الرئاسة كانت قضية الهنود المتبقين داخل المناطق الشرقية من الولايات المتحدة تطرح نفسها بقوة على المجتمع الأمريكي الرافض بقاءهم بين السكان البيض رغم التقدم الحضاري الكبير الذي أحرزته القبائل الهندية في الجنوب الأمريكي إلى درجة جعلت حتى أعداءها يقرون بكونها قبائل "متمدنة"، كما كان سكان التخوم يتطلعون إلى رئاسة جاكسون لتقديم الدعم لهم ضد الهنود في الغرب، ولم تخسر حملته الانتخابية ولاية واحدة من الولايات المواجهة للسكان الأصليين[18].

تبنى جاكسون نقل الهنود من الشرق إلى غرب المسيسبي وهو إجراء اقترحه مؤسس الجمهورية جورج واشنطن في البداية ونظّره الرئيس الثالث توماس

(16) هوبزباوم، 2007، ص223.

(17) ليفن، 2008، ص242-243.

(18) Bennett، 2006، ص241.

جيفرسون كاتب إعلان الاستقلال وبدأ تطبيقه الرئيس الخامس جيمس مونرو ثم اكتسب زخمه زمن جاكسون وخليفته مارتن فان بورين إلا أن جاكسون حمل عبأه الأكبر[19]، فهو الذي أقر القانون الخاص بالنقل (1830) وتابع هذه السياسة بلا رحمة ضد القبائل الخمس المتمدنة، فعزف على وتر فساد الزعامات الهندية وآثارها الضارة على الهنود (كورقة الاستبداد والديكتاتورية في زمننا !) رغم أنه لم يكن مهتماً بنشر الديمقراطية بينهم ولا راغباً بمعاملتهم كأمم مستقلة كما يعترف مؤرخ يميني معاصر[20]، لا سيما مع موجات الهجرة إلى أمريكا والتي زادت الحاجة إلى أراض جديدة، وبعد اكتشاف الذهب في أراضي بعض هذه القبائل وقيام الأمريكيين بتخريب مزارع الهنود (المتهمين بعدم ممارسة الزراعة !) وسرقة مواشيهم، ولهذا حلا لجاكسون أن يجعل من سياسة النقل الحل الإنساني الوحيد "لإنقاذ" الهنود (!)، حتى وصلت أوج قسوتها بالرحلة التي نُقل فيها ستة عشر ألفاً من قبيلة شيروكي بالقوة المسلحة على يد سبعة آلاف جندي أمريكي بعد حصار الهنود في معسكرات اعتقال، من جورجيا إلى أوكلاهوما في الغرب (800 ميل) وقد مات ربعهم على الأقل في الطريق من البرد والجوع والمرض ولم يكن يُسمح لهم بدفن الموتى مما جعلهم يطلقون على هذه الرحلة اسم درب الدموع، فمرحى لهذا "الإنقاذ" الذي أصبح وصمة عار في التاريخ الأمريكي.

لقد أيد ملايين الأمريكيين سياسة نقل الهنود، واضطر معارضوها من السياسيين إلى التعرض للنبذ والعزل، وكما يعرض الوزير الأمريكي المحافظ وليام بينيت الأمر بتسلسل منطقي فيقول: "المهاجرون والمواطنون (الأمريكيون) يصوّتون، الهنود لا يصوّتون، الديمقراطية الجاكسونية كانت قد أعلنت أن الشعب سيحكم، والشعب الأمريكي، مع استثناءات قليلة، لم يساند سياسة نقل الهنود وحسب بل طالب بها... وإن جاكسون يصوّر دائما كرجل غابة شبه أمّي، هكذا يراه أعداؤه، ويستدلون بسياسته تجاه الهنود بصفتها مثلاً للجهل والتعصب، ولكن جاكسون حصل على دعم ملايين الأمريكيين الذين وافقوا على هذه السياسة، فالهنود لم يكونوا يعدّون سوى إرهابيين" حتى في نظر الرئيس

(19) نفس المرجع، ص243.

(20) نفس المرجع، ص241-242.

جيفرسون المتنور، ويضيف قائلاً إنه تحت حكم جاكسون مارس الأمريكيون الاقتراع أكثر من جميع الأمم على الأرض مما جذب رجلاً فرنسياً كأليكسيس دي توكفيل لتحليل ظاهرة الديمقراطية في أمريكا، وقد حطم جاكسون البنك الثاني في الولايات المتحدة ورحّل الهنود غرباً مما منحه تأييداً شعبياً كاسحاً في أيامه ولكنه استحق نقداً شديداً من قبل المؤرخين منذ ذلك الحين[21].

ويحلل المؤرخ أناتول ليفن هذه السياسة القومية الجاكسونية معيداً إياها إلى أصول جاكسون الإيرلندية الاسكتلندية البروتستانتية التي أبادت الإيرلنديين الكاثوليك في ألستر بشمال إيرلندا وجلبت إلى أمريكا إرثها العدائي وأساليبها الحربية الخالية من الرحمة، ويشير إلى صدور التقاليد الجاكسونية من مناطق التخوم والمواجهة مع السكان الأصليين حيث استوطن الإيرلنديون الاسكتلنديون وقد ظل تأثيرها قوياً إلى يومنا هذا إذ جعلت اليمين الأمريكي يتعاطف مع الكيان الصهيوني بعدما تخلى عن معاداة اليهود التقليدية في تراثه وصار يتماهى بشدة مع هذا الكيان[22].

الديمقراطية الغربية تتبنى العنصرية لتتلاءم مع الإمبريالية

لاحظ المؤرخون المفارقة في السياسات القومية آنفة الذكر التي يُفترض تناقضها مع الشعارات الأولية للتنوير الأوروبي، فوجد المؤرخ الأمريكي كرين برينتون أن الشعارات القومية "التي تمتدح فريقاً قومياً وتسمو به إلى مرتبة السادة، وتهبط بالآخرين إلى مستوى العبيد، أو التي استهدفت تعمير الأرض بفريق واحد تراه الشعب المختار، وتعمد بالتالي إلى استئصال الاخرين، فهذه كلها شعارات تتعارض مع المثل العليا للقرن الثامن عشر"[23]، ويعترف بالمعضلة التي تكونت من واقع تعايش هذه الأفكار مع أفكار التنوير: "والحقيقة أن العلاقة بين أفكار النزعة القومية وبين المثل العليا للتنوير هي من الموضوعات الشائكة جداً التي يصعب تحليلها، ذلك أن فكر التنوير أكد أن كل الناس

---

(21) نفس المرجع، ص243-244.
(22) ليفن، 2008، ص241-242.
(23) برينتون، 1984، ص229.

سواسية، وأن كل الفوارق المتعلقة باللون وما شابه ذلك هي فوارق سطحية لا أثر لها على قدرة الإنسان على استيعاب الثقافة والحياة الطيبة، ومن ثم كان هذا الفكر فكراً عالمياً "كوزموبوليتانياً" في نظرته، وسقط القرن التاسع عشر في مصيدة العقائد القومية وخان أسلافه مفكري التنوير، وسمح بنمو النزعة القومية الانقسامية والتي لا نزال نعاني منها"[24].

ولكن شيوع ما يصفه برينتون بخيانة التنوير تجعل من وصفه معضلة لا سيما عند الضحايا الذين لم يروا من هذا التنوير سوى خيانته، فما يوصف عادة بالانحراف عن المسار الصحيح لا يكون عاماً وشاملاً ذلك الشمول الذي انطوت عليه "الخيانة" القومية في الغرب ضد التنوير، والتي أدت إلى كوارث كبرى كإبادة سكان ثلاث قارات (الأمريكتين وأستراليا) واستعباد قارة رابعة (إفريقيا) واستعمار قارة خامسة (آسيا) وما رافق كل ذلك من حروب كبرى وصغرى جعلت من العالم جحيماً لا يمكن أن يكون القائمون عليه مجرد منحرفين عن مثل أعلى سام إلا أن يكون هذا "الانحراف" كامناً في صلب التنوير نفسه كما شرح ذلك بتفصيل مفكر كبير هو الدكتور عبد الوهاب المسيري رحمه الله عندما قال إن الإبادة كامنة في الحضارة الغربية الحديثة التي نظرت إلى الكون نظرة مادية أصبحت هي النموذج التفسيري الحاكم منذ منتصف القرن التاسع عشر، فانتقل الإنسان في هذه الرؤية من مركز الكون وصاحب المرجعية المستقلة عن الطبيعة المادية، كما قضى الفكر الإنساني في بداية النهضة والتنوير، إلى جزء من هذه الطبيعة يسري عليه ما يسري عليها من قوانين منفصلة عن الغائية الإنسانية فأصبحت مجالات النشاط البشري كالاقتصاد والسياسة والعلم والفلسفة منفصلة عن المعيار الأخلاقي المجاوز للمادة كالعدل والمساواة وخاضعة لقوانين المادة التي جعلت منه مرجعية نفسه وقانون ذاته بعد استبعاد المنظومة الأخلاقية المتجاوزة، وأصبح من حقه استخدام العالم كما يحلو له وتحويله إلى وسيلة لخدمة مصالحه، وفي هذا الإطار ظهرت النفعية الداروينية والداروينية الاجتماعية[25].

---

(24) نفس المرجع، ص223-224.

(25) المسيري ، 2003، ص196-198.

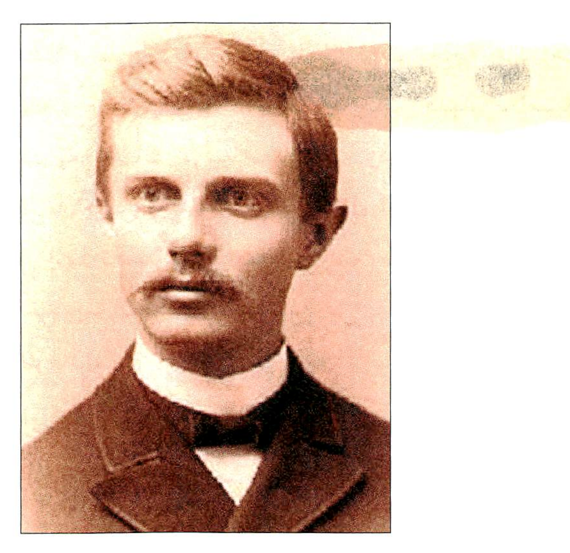
وعلى كل حال فقد أوضح المؤرخ الأمريكي والتر مكدوجال منشأ هذا "الانحراف" في السياسة الأمريكية تجاه السكان الأصليين في عهد جاكسون فقال: "وفي الحق أن التمييز العنصري كان شرطاً ضرورياً للتوفيق بين التوسع والحرية، وكان لا بد أن يُفهم أن ليس للهنود حقوق المواطنة، وإلا كيف يمكن أخذ أراضيهم، وأبعد من ذلك، أن معظم الأمريكيين اعتقدوا أن دونية الهنود لم تكن بناء من صنعهم، ولكن حقيقة واقعية واضحة"[26]، وبهذا يتضح أن العامل النفعي، هو الذي دفع التنوير الحر والديمقراطي للتلاؤم مع العنصرية ومن ثم التوسع لتمهيد الطريق أمام الاستيلاء على ممتلكات السكان الأصليين ومواردهم، ويصرح المؤرخ نفسه أن العنصرية لا تصلح لتفسير مجمل التاريخ الأمريكي الذي واجه البيض الذين عرقلوا التوسع الأمريكي كالأوروبيين والكونفدراليين الجنوبيين كما واجه الأعراق الأخرى[27]، ومن ثم كان تبني العنصرية ضد الهنود خاضعاً لحسابات المنفعة المتأتية منها، وهو ما يجعل الجريمة مركبة وينطبق على عذر التوسعي الذي يبرر فعله بالعنصرية مقولة: عذر أقبح من ذنب، فكون المرء يستخدم لصالحه ما لا يعتقده صلاحاً ليس مما يستوجب الإطراء.

ولكن، أليست المنفعة هي صلب الحضارة الغربية الحديثة؟ ومن ثم يصبح ما يندرج تحت عنوانها مطلوباً وشرعياً؟ وبذلك تذوب المعضلة وتصبح كل جرائم النزعة القومية في الغرب أكبر من مجرد "انحرافات" جانبية أو "خيانات" للمسار الحضاري القويم، وهو ما يؤدي للعجب من دعوة بعض المفكرين عدم تلخيص عصر التنوير في هذه الأخطاء التي يقرون بكونها "أكثر أخطائه سلبية" وأن هذه الأخطاء "غطت بسرعة على جوانبه الأخرى"[28]، وهي بالمناسبة جوانب لم ينل منها غير الأوروبيين إلا الفتات، فكيف عليهم الاحتفاء بما كانوا مجرد هامش فيه؟؟

وقد أشار مؤرخ التخوم الأمريكي الشهير فردريك جاكسون تيرنر في بحثه المعروف "أهمية التخوم في التاريخ الأمريكي" (1893) إلى أن التوسع هو

(26) مكدوجال، 2001، ص133.
(27) نفس المرجع، ص134.
(28) بيسيس، 2002، ص49.

أساس الديمقراطية الأمريكية، وأكد في بحث تال هو "مشكلة الغرب" (1896) أن تمدد الحدود الأمريكية نحو الغرب كان العامل الرئيس في تطور ونمو الاقتصاد والمجتمع الأمريكيين، وهو ما أكده مؤرخون آخرون شرحوا أهمية الأرض التي تم الاستيلاء عليها من الهنود في توفير الأساس المادي لإشاعة الديمقراطية الاقتصادية والفردية والازدهار في المجتمع الأمريكي، وقد تنبأ تيرنر كذلك باستمرار التوسع الأمريكي بعد نهاية الحدود الهندية وأن الولايات المتحدة ستتطلع إلى ما وراء القارة[29]، وهو ما حدث بالفعل.



مؤرخ التخوم الأمريكية فردريك
جاكسون تيرنر (1861-1932)

أين كان التنوع الفكري في المجتمع الديمقراطي الأمريكي؟ وهل كان الجميع فيه متفقين على سحق السكان الأصليين؟

يلاحظ المؤرخون أن المواقف الإنسانية في المجتمع الأمريكي كانت منبوذة في بدايات الاستعمار الاستيطاني منذ القرن السابع عشر وكان أصحابها

(29) Drinnon، 1997، ص460-461.

يواجهون الطرد والعزل والسجن من السلطات الدينية المتشددة، وأن ذلك الأمر تغير ولكن بعد فوات الأوان، فسكان الساحل الشرقي أصبح من السهل عليهم بعد أن تم القضاء على الهنود في تلك المنطقة وزوال خطرهم أن يقوم فيها من يطالب بمعاملة السكان الأصليين معاملة عادلة ولهذا تعرض هؤلاء الإنسانيون لسخرية سكان الغرب من صحوة الضمير المتأخرة التي تنكر على غيرها ما قبلته لنفسها وهم منهمكون في صراع مع الهنود مشابه للصراع الذي كان قبل ذلك في منطقة الساحل الشرقي، ومع ذلك فإنه من المثير ملاحظة أنه حتى هذه الإنسانية كانت مهتمة "بإنقاذ" الهندي ولكن على طريقتها الخاصة سواء بتفضيل تحطيم منجزاته في أرضه والاستيلاء عليها ونفيه بعيداً إلى الغرب بحجة عزله عن الآثار الضارة لوجوده وسط المجتمع الأبيض، ثم باختراع حجة جديدة للاستيلاء على ما تبقى من أرضه لما لم يعد هناك غرب أبعد لنفيه وذلك بجعله يتبنى مجمل النموذج الحضاري للرجل الأبيض والذي يتضمن تنازل الهندي عن جميع أراضي قبيلته وقبوله بحصة قيل إنها تكفي أسرته فقط، وهو ما ساعد، بالصدفة طبعا وبنية صافية (!)، على تجريد السكان الأصليين من بقية أراضيهم ورميهم في بحور الفقر والبؤس والحرمان.

وبالطبع وجِدت دائماً آراء متعددة ومختلفة ومتناقضة، ووجِد دائماً من يؤيد حق الهندي ويناصره، ولكن ما هي قوة حضوره أو أثر آرائه على مسيرة المجتمع العامة؟ وماذا جنى الهندي ممن ناصروه وماذا جنينا في الزمن المعاصر ممن يناصرون قضايانا داخل المجتمعات الغربية والمجتمع الصهيوني؟ وهل عاد حق مهما صغر نتيجة تأييد هذه القوى الضعيفة في مواجهة سيل المصالح الكبرى المضادة؟ وإلى متى على المظلوم أن ينتظر قبل يتغير المجتمع الظالم ويعيد إليه حقوقه طوعاً؟ وما هي السوابق التاريخية التي تثبت جدوى هذا الانتظار؟ وهل يمكن تحقيق هذا التغير بغير المقاومة المسلحة؟ ولو كان ذلك ممكناً، فكم قرناً يلزم لإحداث هذا التغير السلمي حتى نصل إلى زمن المدينة الفاضلة المختلفة حتى عن مُثل الغرب كيوتوبيا التي سبق ذكرها؟

وقد جسدت رواية "رامونا" (1884) معضلة المظلوم أمام دعوى وجود من ينصره داخل مجتمع الظالمين فجاء في حوار عن الأمريكيين بين بطلة الرواية

وزوجها الهندي ما يصلح للرد على من يتعلق في زمننا بأوهام النصرة من اليسار والليبرالية داخل المجتمعات الغربية:

- أوه يا ماجيللا... إنهم كلاب!

وكان أليساندرو قلما يتحدث بمثل هذه الحرارة. ولكن ما حدث لقومه أخيراً أشعل في عروقه نيران الاحتقار والحقد التي ما كانت لتنطفئ يوماً. ومن ثم كان من المستحيل عليه أن يثق بأمريكي بعد ذلك. وكانت هذه الكلمة بمفردها ترمز إلى الخداع والقسوة، وقالت رامونا:

- لا أعتقد أنهم جميعا بمثل هذا السوء يا أليساندرو. لا بد أن بينهم رجالاً شرفاء. ألا ترى هذا.

فصاح أليساندرو بحدة:

- أين هم إذن؟ أين هؤلاء الشرفاء، إن بين قومي رجالاً أشراراً حقاً، ولكن العار يجللهم دائما وكان أبي (الزعيم) يعاقبهم. بل أهل القرية جميعا كانوا يعاقبونهم. فإذا كان بين الأمريكيين رجال شرفاء لا يخدعون ولا يقتلون، فلماذا لم يطاردوا هؤلاء اللصوص ويعاقبونهم. ثم كيف يضعون القوانين التي تمكنهم من الاحتيال على غيرهم؟ إنه القانون الأمريكي الذي اغتصب (قريتنا) تيميكيولا وأعطاها لهؤلاء الناس. إن القانون في جانب هؤلاء اللصوص. لا يا ماجيللا؟ إنه شعب سارق. هذا هو اسمه الحقيقي... شعب يسرق ويقتل من أجل الذهب (واليوم من أجل النفط !). أليس هذا الاسم جديراً بهذا الشعب الذي يبلغ من الكثرة ما تبلغه الرمال في قاع البحر؟"[30].

والغريب أن هذه الرواية الشهيرة التي قصدت مؤلفتها لفت الأنظار إلى المظالم التي وقعت على السكان الأصليين والدعوة إلى إنصافهم كما تحرر العبيد بالدعاية التي نشرتها رواية كوخ العم توم، كانت سبباً في مزيد من الشقاء للهنود وذلك بإثارة الطمع في الأراضي الهندية الساحرة في كاليفورنيا وحفز الاستيطان فيها على حساب أصحابها، ثم بإثارة مشاريع التمدين التي سهلت سلب أراضي

(30) جاكسون، 1964، ص442-443.

الهنود تحت عناوين براقة جداً جعلت من هذا القرار (1887) بالنسبة لسكان أمريكا الأصليين معادلاً للميثاق العظيم، أو وثيقة الماجنا كارتا (1215)، وإعلان الاستقلال الأمريكي (1776)، وتحرير العبيد (1863)، كلها معاً[31]، وهو ما سيتكشف زيفه الفاضح بمرور السنين وسيتبين الأثر الواضح للمصالح المادية في إصدار هذا القانون الذي لم يكن ليصدر على هذه الشاكلة لو لم تكن هناك مصالح كبرى مستفيدة منه واتخذت من تمدين الهندي -بغرس مفهوم الملكية الخاصة لديه-شعاراً يسكت وخز الضمير ويزاوج بين المبدأ والمصلحة، وهذا التفاوت الكبير بين أثر "رامونا" وأثر "كوخ العم توم" يثير تساؤلات جادة عما يقال عن مشاعر أخلاقية كانت وراء السياسات الأمريكية الخاصة بتحرير الرقيق لا سيما في وجود دلائل قوية عن وجود مصالح استفادت من هذا القرار ولم تعبأ بالعبد نفسه كما هو مفصل في فصل (أمريكا مدينة على تل أم صنم على جبل/ 1).

ومرة أخرى لم تعدل الإنسانية الأمريكية موقفها وتنادي بالمحافظة على الهندي إلا بعد زواله عملياً من الوجود بحلول القرن العشرين، وحتى بعد هزيمة المقاومة الهندية المسلحة وانعدام الخطر على الرجل الأبيض، مما سمح، بعد فوات الأوان، بانبثاق الوعي بهول الجريمة المرتكبة ضد السكان الأصليين في الماضي، حتى بعد ذلك يلاحظ المؤرخ الفرنسي مارك فيرو أن انبثاق هذا الوعي، لم يفض إلى تغير سياسة واشنطن المعاصرة نحو محميات السكان الأصليين[32]، وهي سياسة فصلتها في فصل (الحوار الحضاري في التاريخ الأمريكي).

الإرادة الشعبية الفرنسية والعدوان على الشعوب

ولو طبقنا التسلسل السابق على فرنسا سنجد أن الاستعمار الفرنسي بدأ منذ القرن السادس عشر قبل عصر الديمقراطية، ولكن الأنظمة الديمقراطية التي تعاقبت على حكم فرنسا بعد الثورة (1789) أكملت ما بدأته الملكية المستبدة

(31) Utley، 2002، ص215.

(32) فرّو، 2007، ص20.

ووجدت من مفكري الديمقراطية والإنسانية والرومانسية والاشتراكية أيضاً من يساند هذا التوجه ويدعمه مثل فكتور هوغو (مؤلف "البؤساء"!) وأليكسيس دي توكفيل (رغم معارضته الرق واضطهاد الهنود في أمريكا) ولامارتين وسان سيمون وأتباعه وفورييه[33]، ورغم أن احتلال الجزائر تم في عهد الملكية (1830) فقد "ظل الفرنسيون يقبضون على الجزائر بعد سقوط حكم آل بوربون مدة طويلة"[34]، ورغم وقوف الرأي العام الفرنسي ضد مشروعات استعمارية جديدة بعدما تكبدت فرنسا خسائر جسيمة من احتلال الجزائر، فقد تمكنت الجمهورية الثالثة من اختلاق حجة واهية جديدة تناظر حجة المروحة التي احتلت الجزائر بموجبها وقامت باحتلال تونس (1881)[35]، وبعد سنة 1890 تغير الرأي العام ومال إلى التوسع[36]، وأصبح دافعاً بقوة للاستيلاء على سوريا بعد الحرب الكبرى الأولى، لاهثاً خلف أمجاد غودفري بويون وفرسانه الفرنجة الصليبيين قبل ثمانية قرون[37]، وبعد الحرب الكبرى الثانية حين تغيرت موازين القوى وبرزت أقطاب جديدة لتحل محل الامبراطوريات القديمة ظل الرأي العام الفرنسي متمسكاً بأساطيره الاستعمارية "معارضاً للاعتراف بالاستقلالات التي تلوح في الأفق، ويتعلل بالأمل في توطيد دعائم الاتحاد الفرنسي الجديد" مستنداً إلى المصالح الاقتصادية والمالية ومعارضاً حلول نفوذ الأمريكيين والإنجليز محل فرنسا وخائفاً من الإسلام ومن رد فعل المستوطنين في المستعمرات[38]، ولما قامت القوات الجوية الفرنسية بالقرصنة التي أدت إلى القبض على قادة الثورة الجزائرية أثناء رحلتهم على متن طائرة مغربية سنة 1956 ومن ثم إرسالهم إلى السجن في فرنسا "احتفلت الجماهير الفرنسية بالقبض على قيادات جبهة التحرير الوطني وكأن هذا الحدث يعني نهاية الحرب

(33) نفس المرجع، ص506 و645.
- عنية، 2010.
(34) روجان، 2011، ص147.
(35) نفس المرجع، ص157.
(36) فاضل، 2007، ج4، ص136.
(37) زين، 1977، ص107 و111 و128 و137 و229.
(38) فرّو، 2007، ص544.

الجزائرية"[39]، ولم يتيسر الاستقلال لهذه المستعمرات إلا بعد ضربات موجعة من الثوار فيها في ظل مناخ دولي جديد تميز بصراع الأقطاب وحلول الاستعمار الجديد محل الاستعمار القديم مما أعطى هامشاً واسعاً لتحرك ضحايا الامبراطوريات القديمة، ومع ذلك ظلت الديمقراطيات الاستعمارية القديمة ترتكب الجرائم الوحشية وتبيد مئات الآلاف (سقط في مجزرة 8 مايو/ أيار/ ماي 1945 وحدها 45 ألف شهيد على الأقل في الجزائر رغم أن الحدث بدأ احتفالاً بانتصار الحلفاء على النازية) وهي متمسكة حتى الرمق الأخير بأوهام السيطرة فدفعت الشعوب أثماناً باهظة لرفع هذا النير عنها ولم تكن فاتورة المليون ونصف المليون شهيد في الجزائر إلا واحدة من هذه الفواتير، ولم يدخر القمع الاستعماري وسيلة همجية أو "حديثة" في تعذيب وإرهاب مقاومة الشعوب إلا واستخدمها، من الضرب والركل والتعليق والإغراق والنفخ بالماء والاغتصاب مروراً باستخدام الزجاج إلى استخدام الكهرباء[40]، ولقد كانت هذه المقاومة الشعبية في أجواء الصراع الدولي هي التي أثمرت عملية التخلص من الاستعمار وجعلت كلفته باهظة خلافاً للأوضاع السابقة التي قبضت فيها السلطات الاستعمارية بيد من حديد على مستعمراتها ولم يكن لديها أي التزام تجاه ضحاياها، وليس دقيقاً القول إن عجز المستعمرين عن تطوير مستعمراتهم هو الذي قادهم إلى التخلي عنها كما يدعي بذلك بعض المؤرخين[41] الذين يعترفون مع ذلك بأن "الاستعمار يموت، ولكنه لا يستسلم"[42]، ذلك أن هؤلاء المستعمرين لم يضعوا في حساباتهم يوماً تطوير حالة رعاياهم أكثر مما يلزم لمصالح الدولة المستعمِرة، ولم يكونوا يشعرون بأي التزام تجاههم ما دامت السيطرة المطلقة بأيدي السلطات الإمبريالية، وما استجد على الساحة وجعل من هذا التقصير عيباً قاتلاً ظهور أقطاب دولية جديدة ومنافسة وقيام حركات التحرر مما جعل ثغرات السياسات الاستعمارية نقاطاً حساسة للهجوم عليها.

---

(39) روجان، 2011، ص417.

(40) فرّو، 2007، ص564-570.

(41) نفس المرجع، ص566.

(42) نفس المرجع، ص378.

ومن الطريف في مجال الاستعمار أن نجد بين معارضيه الفرنسيين الجنرال بوجو الذي اشتهر بقسوته الشديدة في قمع المقاومة الجزائرية بزعامة الأمير عبد القادر (1840-1847)[43]، ولم تكن معارضته نابعة من المشاعر الإنسانية بل من حسابات المنفعة الفرنسية فلما وُضع في الميدان حفر لنفسه شهرة بصفته من أسوأ من تعامل مع الشعب الجزائري، فقد اتبع "سياسة الأرض المحروقة في المناطق الداخلية الجزائرية بهدف إضعاف الدعم الشعبي للمقاومة التي يقودها عبد القادر؛ فأحرق القرى، وأفزع الماشية، ودفعها للهرب، وأتلف المحاصيل، واقتلع البساتين، وأجهز على الرجال والنساء والأطفال، وأمر ضباطه بأن يقتلوا الجميع، ولا يأسروا أحداً. وإذا حاول أحد رجال عبد القادر الاستسلام يكون مصيره الموت"[44]، ومرادي من ذكر هذا المثال هو عدم التعويل على قوى المعارضة الداخلية في المجتمعات الغربية حيث لا يمكن أن تصل درجة التعاطف معنا إلى الحرب بالنيابة عنا وإحداث تغيرات جذرية لصالحنا وهذا ما تثبته المدرسة النفعية التي وقفت ضد الاستعمار كما سيأتي.

الإمبريالية البريطانية بين دعم الإرادة الشعبية ومعارضة المدرسة النفعية

يلاحظ دارس التاريخ البريطاني ظاهرتين متعارضتين وهما معارضة المدرسة الليبرالية النفعية للظاهرة التوسعية من منطلق حسابات الربح والخسارة في مقابل الدعم الشعبي للتوسع الاستعماري، وقد يبدو من الغريب أن يتزعم منظّر الرأسمالية آدم سميث مناوأة الظاهرة الاستعمارية في كتابه الشهير ثروة الأمم (1776) وأن يقوم رائد المدرسة النفعية جيرمي بنتام بالقول إنه ليس من مصلحة بريطانيا أن تحتفظ بتوابع أجنبية وأن عليها تحرير المستعمرات الموجودة من التبعية وذلك لمقتضيات المصلحة العامة (1789)، ويسير على هذا المنوال جيمس ميل (1824) وجون ستيوارت ميل (1862)، ولكن العجب يزول بمعرفة السبب فقد كانت هذه المعارضة للاستعمار تستند إلى الحسابات الاقتصادية التي تؤكد في نظرهم أن تفكيكه مفيد اقتصادياً[45].

(43) نفس المرجع، ص19 و644 و680.

(44) روجان، 2011، ص151.

(45) فرّو، 2007، ص638-644.

ومادام الأمر خاضعاً لحسابات المصالح المادية المتفق على كونها مرجعية السلوك وميزان الأعمال فمن الطبيعي أن يشخص آخرون المصلحة في غير هذا التوجه، والإنسان يتصرف وفق إدراكه للمصالح لا وفقاً للمصلحة المجردة كما يقول المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري رحمه الله، ولهذا وجدنا أن التوسع الاستعماري يحظى بشعبية جارفة في بريطانيا في عصره الذهبي، وفي هذا المجال يقول المؤرخ إريك هوبزباوم إن مجمل السياسات الديمقراطية أثرت تأثيراً متميزاً في ظهور الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر، وذلك باستخدام الاستعمار في التخفيف من مشاعر السخط الداخلية في البلدان الاستعمارية بالتحسينات الاقتصادية والاجتماعية القائمة على المنافع المتأتية من البلاد المستعمَرة، وهذا هو ما قصده الساسة بغض النظر عن المنافع الحقيقية والتي شكك بها الكثيرون، كما نجحت مشاعر العظمة القومية القائمة على الهيمنة على الآخرين في إشغال الناخبين عن المطالبة بالإصلاحات الداخلية المكلفة، وبهذا منحت الديمقراطية السلطة الحاكمة إقراراً بالهيمنة البريطانية على مختلف بقاع العالم وغدت هذه الهيمنة لحمة أيديولوجية مطابقة لمقتضى الحال[46]، ويقول أيضاً إن الإمبريالية استقطبت ولاء الجماهير دون الحاجة إلى القيام بإصلاحات اقتصادية تنقص من أرباح الفئات المتنفذة في المجتمع وأنها لم تقم بهذا الإصلاح الاجتماعي فقط بل كان الاستعمار يحظى في حد ذاته بالدعم الشعبي[47]، ولم يكن الأمر مقتصراً على الاهتمام بالمصالح الاقتصادية والاستراتيجية بل امتد إلى الهوية وأنتج طرقاً جديدة في التفكير، وقد اكتسب الحماس للاستعمار دعماً من الأفكار العنصرية التي راجت في نهاية القرن التاسع عشر واكتسبت وجهاً علمياً وتحدثت عن التفوق العرقي وأمجاد حروب الإخضاع والنفقات الزهيدة للتوسع البريطاني، وقد تخللت مفردات هذه الثقافة الاستعمارية مظاهر الحياة الاجتماعية في بريطانيا كالتعليم والأدب والفن والحركة الشبابية[48]، وعن رواج أفكار التفوق والهيمنة يقول هوبزباوم إنها كانت ذات

---

(46) هوبزباوم، 2011، ص144-146.

(47) نفس المرجع، ص209.

(48) Aldrich، 2007، ص146.

جاذبية حقيقية أفادت السياسات الاستعمارية[49].

رد الاعتبار للاستعمار

بعد رواج الفكرة الاستعمارية بين الجماهير الغربية كما سبق، حدث تحول بعد الحرب الكبرى الثانية في الربع الثالث من القرن العشرين أدى إلى التسليم بحقوق الشعوب الأخرى لبرهة من الزمن ما لبث الأمر بعدها أن انقلب مرة أخرى لصالح التاريخ الاستعماري الذي استمد الآن رونقه من فشل العالم الثالث في تقديم نموذج ناجح بعد تحرره، وانبعثت أفكار الثناء على الاستعمار مرة أخرى واتخذت شكل الاعتقاد بأن ما هو جيد لأوروبا فهو جيد لجميع البشر وأن الاستعمار لم يقصّر في عمله الإنساني الذي قدم التطور للشعوب الأخرى وأنه مغامرة جميلة شابها بعض الأخطاء المؤسفة والمتقطعة كما أن الاستعمار ليس مسئولاً عن التخلف في العالم الثالث وأنه لم يفد الاقتصاد المستعمِر، وأن "الحساب الختامي للاستعمار إيجابي في مجمله وأن القوى الغربية أدت مهمتها الحضارية"، وأن تحرر الشعوب المستعبدة نتج عن تفضّل من الحكومات الاستعمارية وليس نتيجة جهود الثوار وأن نهضة الغرب لا تدين لغيرها بشيء وأنها صنعت نفسها بنفسها وأن الغرب "لا يمكن أن يكون إلا صاحب المبادرات التاريخية، إنه يظل وحده صانع التاريخ، يدفعه إلى ذلك إنسانيته وتقديسه المتصوف للتقدم، وهو يتسم على الدوام، بالإيجابية"، وحتى المصالح لها دورها في هذا الخطاب النرجسي فهي "تؤدي أحياناً دورها في ديناميكية التوسع، وفي ذلك كله أعظم الفوائد لهذا العالم"، وانقلبت المفاهيم في هذا الخطاب فأصبح على سلالة العبيد الأفارقة في أمريكا تقديم الشكر والإقرار بجميل الذين أخرجوهم من إفريقيا، وأن القسوة التي صاحبت الاستعمار لم تخرج عن نطاق القسوة البشرية التي عرفها تاريخ الآخرين، ونسي أصحاب هذا التبرير أن الحضارة الغربية قدمت نفسها بصورة فريدة ومتفوقة على الجميع[50].

وليس هذا هو مكان الرد على خطاب التقديس الذاتي هذا لأن موضوعنا

---

(49) هوبزباوم، 2011، ص147.

(50) بيسيس، 2003، ص100-142.

هو رصد دور الإرادة الشعبية في الغرب في دعم الاستعمار الذي مهما حرقوا البخور أمام وثنه فلن يصبح إلهاً للمضطهَدين وكون المظلوم قد تعثر في مسيرته النهضوية لا يعطي للظالم تبريراً لظلمه لأن فعل الراشد، كما يحلو للغرب أن يصور نفسه، لا يُستمد من فعل القاصر، ولو كان الأب الناضج يبرر أخطاءه أمام أبنائه بأخطائهم لاختل ناموس التربية البشرية.

إن الفائدة التي نستفيدها من خطاب عبادة الذات الغربي هو ضرورة أن نعيد نحن النظر في تعاملنا مع تاريخنا لا سيما الحديث منه (منذ القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين) والذي أوسعناه لوماً وذماً، وإذا كان هناك من يبجل الجرائم الكبرى في الغرب، فأولى بنا أن نتمهل في تشريح أنفسنا ووصم تاريخنا بمختلف العيوب والتهم رغم كوننا في منزلة الضحايا في آخر الفترة محل الدراسة والعار فيها يلحق الظالم لا المظلوم، وأن نكف عن لوم الذات بسبب ظاهرة طبيعية لازمت جميع أحقاب التاريخ وهي وجود القوي والضعيف في زمن واحد، فهل كان على الكهل أن يحتفظ بشبابه رغماً عن قوانين الطبيعة بعدما عمّر أكثر من الجميع؟ أم يوقف نمو غيره بنفس المنطق المجافي للطبيعة؟ وإذا كان قد بذل جهده في مقاومة عصابة من الأشداء الأقوياء الأصغر سناً منه فما هي حيلته أمام القوانين الطبيعية وقد سجل في العراك نقاطاً عجز عن الإتيان بمثلها أبناؤه الشباب المتفرقين المشتتين المنقسمين على أنفسهم؟

الخلاصة والاستنتاج

استند عدوان الديمقراطيات الغربية على الشعوب الأخرى إلى تبريرات فلسفية وإرادات شعبية دعمت عمليات الإبادة والاضطهاد والاحتلال التي وقعت على الشعوب غير الأوروبية، ولكي تتلاءم هذه الديمقراطية مع كل ما سبق لجأت إلى تبني مبادئ يُفترض أنها تناقض العناوين الكبرى للتنوير، مثل العنصرية في الحالة الأمريكية والأساطير الدينية في الحالة الصهيونية الإسرائيلية التي تصر على تصنيف الناس وفق هوياتهم الدينية للحفاظ على حصرية ديمقراطيتها وعدم شمولها للآخرين الذين يراد استبعادهم، وذلك رغم أن الغالبية العظمى من الجمهور الصهيوني لم تعد تؤمن بالدين نفسه الذي يتخذ منه ذريعة للظلم والاستبعاد، فثبت تاريخياً أن الديمقراطية الغربية غير متعارضة مع العنصرية

والظلم والعدوان وهو ما أشار إليه الدكتور عبد الوهاب المسيري حين قال إن "من أهم القضايا التي تواجه الديمقراطية في التطبيق مشكلة المرجعية النهائية"[51]، وبيّن أنه عندما يكون عدد الأصابع المرفوعة هو الذي يقرر القيم فحينئذ تنتج الديمقراطية المنفصلة عن القيمة كما حدث بالفعل في التاريخ الغربي المادي الدارويني، وهي ديمقراطية وضّح تهافتها من مثال بسيط هو هل يستطيع متفرجون في بلد مضيف على مباراة في كرة القدم مع فريق ضيف أن يقرروا بالاقتراع بالأغلبية فوز فريقهم على ضيفه الذي لا يملك حضوراً في البلد المضيف؟

ومن الطريف أن رفض الممارسات الاستعمارية صدر أحياناً عن المدرسة النفعية التي فتحت باباً للاستغلال لا يمكن إغلاقه لأن وضع المنفعة ميزاناً للصواب والخطأ قد يقود إلى القبول بممارسات ظالمة وفقاً لمردودها المادي بعيداً عن التوجيهات الأخلاقية التي نادى بها مؤسسو المدرسة نفسها وهو ما حدث بالفعل في معظم التاريخ الغربي فلم يُسمع صوت الأخلاق حتى من باب المنفعة فضلاً عن باب الإنسانية في التعامل مع الخارج حينما ترجح المصالح في جهات أخرى.

---

(51) المسيري، 2006، ص217.



الفصل السادس والعشرون

من دروس نكبة فلسطين:
حرية الشرق في مفهوم الغرب

تحرير البلاد من أهلها والأملاك من أصحابها

كان شعار الحرية أو التحرير هو التبرير الذي قدمه الغرب دائماً كلما أراد العدوان على الشرق منذ الحملة الفرنسية على مصر، فمن تحرير المصريين من استبداد المماليك إلى تحرير سوريا من نير محمد علي باشا إلى تحرير المنطقة من تجارة الرقيق والقضاء على القرصنة في خليج البصرة وساحل شمال إفريقيا إلى تحرير العرب من استبداد الأتراك إلى تحريرهم من استبداد حكامهم الذين لا يروقون للغرب إلى تحرير الكويت، ويدلنا تاريخ الفكر الصهيوني عن معنى هذا التحرير الذي كان الغرب يقصد جلبه للشرق وأنه ليس سوى تحرير البلاد من أهلها ليكون الغربيون أحراراً في استغلالها استغلالاً يختلف حسب اختلاف المصالح سواء بسلب الأرض أو نهب الثروات أو استغلال المواقع، وأن التحرير الحديث لا يختلف عما فعله الفرنجة الصليبيون الذين "حرروا القبر المقدس" ليستولوا بهذا الشعار على بلادنا، وتقدم الصهيونية حالة نموذجية للاستغلال الذي مارسه الغرب في عموم بلادنا بأشكال متباينة تحت ذريعة التحرير، يقول الدكتور بشارة خضر في كتابه أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم: "عادت فكرة الحرب الصليبية من جديد في بعض الحلقات الأدبية والسياسية مع توطيد الوجود الأوروبي في الشرق بعد حرب القرم (1853-1856)، إما مباشرة لحساب المسيحيين أو بصورة غير مباشرة لحساب اليهود"، ومن أمثلة ذلك رواية دانيال دوروندا (1876) لجورج إليوت والتي يكرس فيها

البطل حياته لإعادة تكوين المركز القومي اليهودي، وهي رواية معروفة في الأوساط الأدبية، وفي نفس السنة نشر إدوارد هور كتاباً عنوانه "روما، تركيا والقدس"، "أطلق فيه العنان لكرهه للمسلمين، مؤكدا أن دمار المسلمين هو أمل اليهود، وأن فلسطين ستتحرر من النير العثماني وستناط بمالكيها الشرعيين، المتحدرين من إبراهيم"، وكتب جيمس نيل الذي عاش في فلسطين في سبعينيات القرن التاسع عشر في الموضوع نفسه[1].

وعلى الجانب الأمريكي من المحيط الأطلسي كانت نسبة كبيرة من أمريكيي القرن التاسع عشر تؤمن بأن قيام دولة يهودية في فلسطين شرط لازم لعودة المسيح وحلول العصر الألفي السعيد، وأن القضاء على الدولة العثمانية شرط لعودة اليهود إلى فلسطين، ومن ثم فإن القضاء على كيان المسلمين شرط "لتنوير العالم وتحريره"، وقد دعت الشاعرة اليهودية إيما لازاروس التي كتبت الشعر المدون على تمثال الحرية إلى "عودة" اليهود إلى فلسطين (1881)، وكانت "من أشد مؤيدي الاستعمار التنويري، وكانت تتطلع إلى اليوم المنتظر الذي تغزو فيه أوروبا الشرق الأوسط، فتزيح بذلك عن الولايات المتحدة عبء تحرير الأرض المقدسة"، وشاطرها إيمانها في نفس الفترة القس الإنجيلي دي ويت تالماج الذي زار فلسطين سنة 1889 "وبداخله كراهية للعنة الأمم، هذا العجوز قديم الأزل، أي الإمبراطورية العثمانية، وكان يكن أيضاً كراهية للإسلام الذي ندد به بصفته غير أخلاقي بالنسبة للحضارة الغربية" كما يقول المؤرخ الصهيوني الأمريكي مايكل أورين[2]،ويضيف قائلاً إن تالماج "كان مهتماً بصورة أساسية بالتحرر" وإن"مفهومه للدولة اليهودية كان شبيهاً بمفهوم إيما لازاروس" ولكنه اختلف معها فيمن سيقوم بمهمة "التحرير"، "ففي حين افترضت الشاعرة أن أوروبا ستخلص فلسطين من العثمانيين، آمن القس بأن أمريكا يجب أن تقود العالم في استخلاص الأرض المقدسة من براثن الإسلام"[3]، وبهذا يكون مفهوم تحرير فلسطين لدى الغرب يعني تخليصها من العرب الفلسطينيين في الوقت الذي

---

(1) خضر، 2003، ص107.

(2) أورين، 2008، ص273-274.

(3) نفس المرجع، ص275.

يعني تحريرها لدينا أن نخلصها من الصهاينة، وهذا التناقض الذي ينطبق على حرية فلسطين ينطبق أيضاً على حرية بقية أقطار الشرق العربي الإسلامي بمشرقه ومغربه حيث يجب أن تسود الرؤى والمصالح الغربية المختلفة والمتفاوتة، فكيف يمكن أن يتفق الطرفان العربي والغربي على مفهوم هدف الحرية؟

"الحقوق" الاستعمارية لا تقتصر على فلسطين

وليس من الغريب أن يتحدث الغربيون عن الشرق بصفته ملكاً من أملاكهم كما لاحظ ذلك حليفهم الملك فيصل الأول ابن الحسين وهو يصارع للحصول على استقلال سوريا التي اتفق الحلفاء فيما بينهم على كونها من نصيب فرنسا في اتفاقية سايكس بيكو"التي عالجت شئون البلاد كأنها ملك خاص أو سلعة من السلع" كما قال فيصل-عندما كان مايزال أميراً-في ندائه للمجلس الأعلى لمؤتمر الصلح في باريس سنة1919[4]، ويخطئ من يظن أن نظرية "الحقوق" الغربية في بلاد الشرق تقتصر على أطماع الصهيونية في فلسطين، إذ عندما غزت فرنسا بلاد الشام بعد الحرب الكبرى الأولى (1914-1918) كانت تستند إلى "حقوقها" التاريخية في هذا البلد فضلاً عن مصالحها التجارية والاستعمارية، وكانت تحاجج بريطانيا المترددة بين وعودها المتناقضة لكل من العرب واليهود والفرنسيين بالمطالبة بهذه الحقوق التي تعود جذورها إلى حروب الفرنجة الصليبية[5]، والتي لا تقتصر على ما شاع في الفترة الاستعمارية من استخدام شعار "الرسالة الحضارية" الفرنسي وشعار "عبء الرجل الأبيض" البريطاني اللذين يؤهلان المتحضر ويعطيانه حقاً في إخضاع من هم أقل حضارة منه للأخذ بأيديهم نظرياً نحو المدنية والحياة العصرية، وعملياً لأخذ ما في أيديهم كما صرح بذلك شعار "القدر الجلي" الأمريكي في نفس الفترة بلا مواربة :

---

(4) زين، 1977، ص138.

(5) نفس المرجع، ص229، هامش رقم1.

"القدر الجلي" جعل الإبادة شرطاً للحرية واستبق أحداث القرن العشرين في الشرق بتمثيلها بدقة في القرن التاسع عشر في الغرب

"إن الثروات القابعة منذ دهور طويلة تحت القمم المكللة بالثلج لجبالنا، قد وضعتها العناية الإلهية لمكافأة الأرواح الجريئة التي يتجلى قدرها في تكوين طليعة الحضارة، على الهنود أن يتنحوا أو أن تقهرهم موجة الهجرة المتقدمة والمتزايدة باستمرار، إن مصير السكان الأصليين مكتوب بأحرف شديدة الوضوح، إن الحاكم الغامض الذي حكم بسقوط روما حكم أيضاً بالفناء على رجال أمريكا الحمر"[6]، ورغم هذه اللغة الإبادية فإن موسوعة الغرب الأمريكي تشير إلى أن أكثر مؤيدي "المصير الجلي" حماساً واحتقاراً لحقوق الآخرين -من منظور الأجيال اللاحقة- "اعتقدوا أنهم كانوا يتصرفون بشكل مثالي وأن ما كان مفيداً للأمريكيين كان مفيداً للجنس البشري عموماً"[7]، ومازالت نفس التبريرات القديمة حية إلى هذا اليوم عند قطاع أمريكي عريض يرى في "عصر النور والحرية والديمقراطية" أن إبادة السكان الأصليين في أمريكا عمل "مبرر" نال العالم منه "ثقافة الحرية التي أعطت الكرامة والسيادة للإنسانية"، ويذهب التطرف المتغطرس مدى بعيداً حينما يرى أحد الكتاب المشهورين -هو كريستوفر هيتشنز الذي احتفى به يوما المفكر الراحل إدوارد سعيد وشاركه التأليف في نقد الصهيونية (كتاب لوم الضحايا) قبل أن ينقلب من اليسار إلى اليمين ويحتفي به المحافظون الجدد- أن "من لا يحتفل بإبادة سكان أمريكا الأصليين إنسان يكره إنسانيته، إنه مخبل، جاهل، بليد، أما الذين ينظرون إلى الإبادة نظرة نقدية فهم رجعيون متخلفون لأن التاريخ لا يصنع إلا بمثل هذه الفظاعات، ولهذا فإن التذمر من ذلك لا معنى له لأنه كالتذمر من تحول في المناخ... ثم إن هذه الإبادة تستأهل التمجيد والافتخار لأنها كانت سبباً في تحسين الوضع الإنساني"[8]، وهي صورة دالة عن مدى "التقدم" الذي حصل في الفكر الأمريكي منذ زمن الإبادة نهديها لمثقفينا المولعين بتقليد سادتهم الغربيين والذين يذرفون الدموع

(6) براون ، 1982، ص145-146.

(7) Lamar، 1998، ص676: Manifest Destiny.

(8) العكش، 2012، ص147-148.

على أطلال المحرقة النازية ويقبلون بتميز الدم اليهودي عن دماء بقية البشر أملاً بالحصول على التعاطف الغربي مع المأساة الفلسطينية أو بمجرد الرضا الغربي ويبالغون في استجداء الغرب بالحفر في أحافير التاريخ العربي والإسلامي لوصمه وإدانته إثباتاً لإنسانيتهم المزعومة، كما أنها صورة نموذجية لطريقة انقلاب المفاهيم في مراكز القوة المادية حيث تتحول الجريمة إلى فضيلة، وهي دليل جديد في موضوعنا وهو طريقة تحول مفهوم الحرية إلى عملية استعباد تحث عليها المصالح المادية.

ومفهوم القدر الجلي الذي تطور منذ سنة 1840 عن مفاهيم التوسع الامبراطورية السابقة في التاريخ كان "نسخة أكبر وأكثر تطرفاً من ادعاء البيوريتان (المتطهرين) بأن الرب منحهم حقاً في أرض الميعاد الجديدة (أمريكا)"، وكما طبقه الأمريكيون على بلاد الهنود الحمر ليستولوا عليها، ساق المبشرون نسخة معدلة منه ليطبقوها في نفس الفترة على الشرق العثماني مستهدفين جذب الأرواح والأذهان قبل أن تتطور مصالحهم المادية، مستهزئين بالإسلام بصفته "ديناً رجعياً مضللاً"، ورافضين "كل صور المسيحية الشرقية بصفتها متخلفة وعفا عليها الزمن"، عاملين على "إعادة" اليهود إلى فلسطين "عودة لم تكن لتفيد اليهود وحدهم، بل الإنسانية جمعاء"، وقد عينت الحكومة الأمريكية وكلاء قنصليين في ست مدن فلسطينية "مما جعله أكبر تمثيل لبلد غربي في المنطقة" وقد استخدم المبشرون في بلادنا نفس أساليب غطرسة القوة المستخدمة مع الهنود الحمر في أمريكا، وكانت دوافع الإرساليات الأمريكية في الشرق متطابقة مع دوافع عموم الأمريكيين الذين عدوا أنفسهم منفذي القدر الجلي وحملة ثمار عصر النهضة والثورة الصناعية وحاملي لواء الديمقراطية [9] الذين اندفعوا إلى بلادنا بعدما تلاشت التخوم الهندية في أمريكا تحفزهم الدوافع التي كانوا يخترقون أرض الهنود بها في السابق[10]، تماماً كما يحدث اليوم عندما تغير قدرنا الجلي بتطور المصالح الأمريكية في بلادنا التي لم يكن المبشرون الأوائل الطيبون فيها سوى طليعة الاستعمار القادم في إثرهم .

---

(9) أورين، 2008، ص133- 157 فصل: "المصير الحتمي (أو القدر الجلي) للشرق الأوسط".

(10) نفس المرجع، ص231.

بعذر أو دون عذر، بلادنا من حقوق الغرب

وبالعودة إلى فرنسا فإنه رغم بُعد الشقة بينها وبين سوريا لم يكن هناك بعد الحرب الكبرى الأولى ما يمنع من اختلاق ارتباطات تاريخية واهية تذكرنا بارتباطات الصهاينة التي لم يكن الدافع إلى تحقيقها غير المصالح الاستعمارية تماماً كما في الحالة الفرنسية وفي حالة "الحقوق" التاريخية الإيطالية في ليبيا والتي تعود إلى أيام الإمبراطورية الرومانية، ولكن في أماكن أخرى كالجزائر مثلاً لم يمنع افتقاد هذه الأبعاد التاريخية، والتي سيجري اختلاقها في زمن قادم بروية من أحافير الوندال، من اختلاق حجج فورية عند اللزوم وإن كانت أوهى من بيت العنكبوت كضربة من مروحة الداي حسين باشا (1827) والتي ألحقت إهانة لا تغتفر بالشرف الفرنسي[11]، فرد الفرنسيون على ضربة الريش هذه بحرب صليبية ضروس ضمت الجزائر إلى البر الفرنسي أكثر من 130 عاماً، وقد ضمت فرنسا الجزائر الأرض دون الجزائر الشعب الذي لم ينله من الضم سوى المعاناة التي حصدت مليوناً ونصف المليون شهيد وظل مستثنى من الدخول في الجنة التي صنعها المستعمِرون لأنفسهم على أرضه ليتمتع بها الأوروبي وحده، حتى لو لم يكن فرنسياً[12]، دون صاحب الأرض، في مثال صارخ للرغبة في تحرير الأرض من سكانها لصالح الأغراب عنها وهو ما لم تستطع محاولات الترقيع الإنسانية التخفيف من غلوائه حتى ولو بضم أعداد رمزية من الجزائريين إلى المواطنة الفرنسية مقابل تأبيد الاحتلال الفرنسي كما جاء في قانون بلوم فيوليت زمن حكم الجبهة الشعبية اليساري (1936-1937)[13].

---

(11) العسلي، 1986، ص56.

(12) يشير المؤرخ الاقتصادي شارل عيساوي إلى أنه في سنة 1912 كان خُمس المستوطنين الأوروبيين في الجزائر من الفرنسيين في الوقت الذي كان فيه أربعة أخماسهم من إسبانيا وإيطاليا ومالطا وبقية السواحل الأوروبية المتوسطية، وهو ما يذكرنا بتساهل الكيان الصهيوني في توثيق الهوية اليهودية للمستوطنين الأغراب الذين يجلبهم من خارج فلسطين، أو لتهويد شعوب بعيدة في سبيل ملء فراغه السكاني وحل مشكلته الاستيطانية.

- Issawi، 2010، ص82.

(13) روجان ، 2011، ص307.

لحظات الاعتراف وكشف الحساب

وكانت هذه هي نفس السياسة الاستئثارية المغلفة بدعاوى الحرية التي تعامل بها الحلفاء معنا لحظة انتصارهم في الحرب الكبرى الأولى التي خاضوها في الميدان الشرقي بزعمهم بهدف وحيد هو "التحرير التام والنهائي للشعوب التي طال ظلم الأتراك لها، وإقامة حكومات قومية وإدارات قومية تستمد سلطتها من الإرادة المستقلة والاختيار الحر يعبر عنه السكان الأصليون" كما جاء في تصريح بريطاني-فرنسي مشترك في 7/ 11/ 1918[14]، ورغم الوعد الصريح بالاعتراف بالحكومات القومية "بمجرد تأليفها" فإن الفرنسيين والبريطانيين لم يفوا بوعدهم وساروا خلف مصالحهم الأنانية، وبهذه المفارقة أقر مستشار الرئيس الأمريكي ويلسون في سنة 1919 بعد رفض الأوروبيين تطبيق حق تقرير المصير-الذي نادى به رئيسه-على بلادنا، فقال: "بالرغم من الدعاية بشأن تحرير الأعراق المضطهَدة، فإن البريطانيين والفرنسيين يعملون فقط من أجل مصالحهم في الشرق الأدنى"[15]، وهي نبرة لا نسمعها إلا قليلاً وذلك إذا اختلف اللصوص فيما بينهم أو إذا تحدثوا إلى أنفسهم في لحظات الاعتراف النموذجية أو إذا وصلت بهم الثقة بالنفس إلى درجة لا يخشون فيها التحدي، وقد اعترف وزير الخارجية البريطاني السابق اللورد كيرزون بذلك أثناء توزيع الغنائم بين الحلفاء تحت عنوان الانتداب الذي يُفترض أنه لصالح تحرير الشعوب الضعيفة والذي جعل سعادتها وتقدمها "وديعة مقدسة في يد العالم المتمدن" كما جاء في المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم[16]، فقال هذا الوزير موضحاً أن بلاده تدخل المنافسة الاستعمارية دفاعاً عن مصالحها وليس مصالح الضعفاء (1919): "علينا أن نلعب لعبة حق تقرير المصير بأي ثمن، لأننا نعرف في قرارة أنفسنا أننا سنستفيد من ذلك أكثر من أي طرف آخر" فعقب عليه المستشار العسكري للرئيس ويلسون بسخرية لاذعة فضحت الأثرة البريطانية وإن كان ذلك لأنها تنافس السياسة الأمريكية: "أينما كان الانتداب يغطي آبار نفط ومناجم ذهب فإن

---

(14) الخولي، 1973، ج1 ص286.

(15) أورين، 2008، ص371.

(16) فاضل، 2007، ج5 ص53.

بريطانيا العظمى ستحصل عليه، وسنطلب من الولايات المتحدة أن تقوم بالانتداب على كل أكوام الحجارة وتلال الرمال المتبقية"[17].

"الحقوق" الاستعمارية مازالت سارية إلى اليوم

وهذا الأمر ليس من مخلفات الماضي الاستعماري، فمازالت الإمبريالية الغربية بعد نهاية الحقبة الاستعمارية وتغير طرق الهيمنة تعد ثروات الشرق الطبيعية حقاً طبيعياً لها وجد بطريق الخطأ الجيولوجي تحت باطن الأرض الشرقية ولا بد من تصحيح ذلك[18]، ولم يتورع كبار مسئوليهم مثل كارتر وكيسنجر عن الإشارة إلى "خطأ الرب"في ذلك، ولهذا لا يتحرج ساسة الغرب من الحديث عن نفط العرب بصفته "نفطنا" أي نفط الغربيين كما صرح بذلك الرئيس الأمريكي السابق ريتشارد نيكسون أثناء أزمة الخليج التي اندلعت سنة 1990[19]، وقد تصرف الغرب آنذاك وفقاً لهذا المفهوم وكان هياجه مُركزاً على ألا يستحوذ العراق على احتياطي نفطي ضخم واتخذ ساسته من تحرير الكويت ستاراً وهمياً لنواياهم، ولهذا لم يكن من الغريب أن يؤدي "تحرير الكويت" إلى تدمير العراق تدميراً شاملاً لأن الحرية التي كان يمكن تحقيقها بطرق عديدة أخرى-كمبادرة الأمير سلطان مثلاً- لم تكن الهدف بقدر تحقيق الأطماع التي كان الدمار العراقي هو سبيلها الوحيد، وهذا الجشع هو ما تدل عليه أفعال الغربيين دائما إذ توضع سياسات تتجاهل الحقوق الجمعية لبلادنا بل تتجاهل وجودنا وتدعي وجود "الفراغ" في المنطقة منذ مغادرة الجيوش البريطانية[20] وهو فراغ على الولايات المتحدة أن تملأه في تكرار لفكرة الأرض بلا شعب التي لا تعترف بوجود بشري يملأ العين الغربية سوى الوجود الغربي، ولا ينحصر تطبيقها على فلسطين وحدها، ولذلك تشن الحروب علينا للاستيلاء على أراضينا "الفارغة" لإقامة كيان غربي غاصب فيها أو لضمان تدفق ثرواتنا الطبيعية التي

---

(17) أورين، 2008، ص372.

(18) زلوم، 2005، ص81-82.

(19) بجك، 2006، ص179.

(20) ميشان، 2010، ص27-29.

وجدت في هذا "الفراغ" ويحتاج إليها ويسير بها الاقتصاد الغربي، وتحت عنوان التحرير تتحقق المصالح الغربية ولو احتاج الأمر إلى تدمير أوطان نائية وسحق شعوب آمنة بدعوى تحريرها ولكن المراقب الحصيف لا تخطئ عينه أن من تحرر هي البلاد من أهلها والأملاك من أصحابها حتى يتبدل الأمر بالمقاومة بفعل سنة التدافع.

الاستنتاج: سهولة قلب مفهوم التحرير إلى حقيقة الاستعباد

ارتباط الحرية بالاستعباد أو حتى اعتمادها عليه ليس أمراً مستهجناً في حضارة الغرب ولا هو أمر قليل الحدوث فيها أيضاً، فالأمريكي مثلاً اكتشف أن عمل الإفريقي كأرض الهندي كان مورداً حيوياً للأمة الأمريكية الوليدة، ولهذا قام أصحاب المصالح بالتأكيد على أن وعود أرباب الثورة الأمريكية بجنة الحرية والمساواة لم تكن تتصف بالمساواة، وأنها لا تشمل جميع البشر[21]، وذلك لأنها كانت مؤسسة على اضطهاد الآخرين، فالأمريكي لم يكن حراً في اضطهاد الهندي والإفريقي وحسب، بل كان الاستيلاء على أرض الهنود وما تطلبه من إبادة ونهب شرطاً أساسياً لإقامة صرح مجتمع الديمقراطية والمساواة[22]، بين البيض طبعاً، ولهذا شرعوا في سلب حرية السكان الأصليين فور حصولهم هم على حريتهم من بريطانيا بعد الثورة الأمريكية[23]، وكذلك أسست بقية الأمم الغربية ديمقراطياتها على استغلال الآخرين وتصدير المشاكل إليهم، كما كان الاستيلاء على جهد الأفارقة، وما تطلبه ذلك من عنف واستعباد، شرطاً رئيساً لبناء مجتمع المزارعين البيض الأحرار[24]، وأصبح سكان الجنوب الأمريكي مع الوقت "يرون في تمسكهم بنظام الرق تعبيراً عن حقهم في الحرية" ولا مانع أيضاً من ادعاء أفضلية هذا النظام للعبيد أنفسهم[25]، أليس ما هو خير للأمريكي هو خير للعالم أجمع[26]، كما سيتكرر ذلك في التاريخ الذي أتى فيما بعد؟

---

(21) Calloway، 1995، ص300.

(22) لاسي، ص141.

(23) Calloway، 1995، ص300.

(24) Morgan، 2005، الغلاف الأمامي الداخلي (Front flap).

(25) النيرب، 1997، ص223.

(26) Lamar، 1998، ص676؛ - Nicholas، 2000، ص196.

لقد كان الأمريكي انتقائياً في تعامله مع حرية الآخرين وإنسانيتهم بما يفيد مصالحه الذاتية وحدها، وأوضح مثل على ذلك الطريقة التي تعامل بها مع إنسانية العبيد في مساومات دستور الثورة الأمريكية : فالعبيد يحسبون من البشر عندما يكون ذلك في مصلحة قوة الجنوب التمثيلية في المؤسسة الحاكمة ولا يحسبون بشراً عندما تكون إنسانيتهم ضد مصالحه لو أُعطوا هذا الصوت ليعبروا عن أنفسهم، فولايات الجنوب "تريد تعداد الرقيق ضمن سكانها، ليس تمثيلهم بل تعدادهم فقط، بحيث أن العبد يساوي الأبيض، حتى تزيد نسبة تمثيلها في مجلس النواب"[27]، ولهذا تصادر وزن العبيد البشري لصالحها فقط دون مصالحهم وتدخل في جدال مع نظيراتها الشمالية التي ترفض بدورها هذه المعادلة ولكن حرصاً على نفوذها الذاتي أيضا وليس على حرية العبيد أو إنسانيتهم وتصل المساومة بين الآباء المؤسسين لحرية العالم إلى عد الإفريقي ثلاثة أخماس إنسان دون صوت (!)

الخلاصة

كما كان الإفريقي بشراً عندما يريد الأبيض ذلك وليس بشراً عندما يرفض السيد ذلك، وتصادر حريته وإنسانيته لصالح سيده دون نفسه، نظر الغرب وما يزال إلى حرية الشرق وإنسانية أهله من زاوية نظرياته المتعلقة بالحقوق الغربية في هذه المنطقة والتي تسمو على حقوق أهل البلاد في بلادهم، وهذه الأفضلية تؤكدها نظريات الحقوق التاريخية والرسالة الحضارية وعبء الرجل الأبيض والقدر الجلي التي يسند بعضها بعضاً ويملأ بعضها فراغ البعض الآخر ومازال مفعولها يسيّر السياسة رغم زوال عصر الاستعمار إذ يرى أصحاب التفوق الحضاري أن الهيمنة على الغير ونهبه -مع ادعاء تحريره وتحضيره-من حقوق هذا التفوق الذي تدعمه القوة المسلحة التي لا حرج عليها فيما تفعله كما يشهد بذلك التاريخ المظلم للاستعمار وحتى لو عادت بنا في بعض الأمثلة المعاصرة إلى عهد الاحتلال العسكري الذي تحول-بألاعيب الحواة المبتدئين من تلاميذ مدرسة المارينز-إلى تحرير لبلادنا، ولكن حقائقه المرة أوضح من أن تخطئها

---

(27) النيرب، 1997، ص115.

العين أو تخطئ فهم المقصود بهذا التحرير، ولهذا فإن علينا أن نعي جيداً أن تحرير بلادنا-من وجهة النظر الغربية- لا ينفصل عن "الحقوق" الغربية في هذه البلاد وفي ثرواتها ومواقعها الهامة وفي الهيمنة عليها، لصالح القاصرين من أبنائها طبعا (!) وإذا كان اضطهاد الأفارقة في الولايات المتحدة قد فقد شيئاً من دوافعه النفعية فإن المصالح في بلادنا مازالت قائمة ومازالت تدفع باتجاه ادعاء تفوق الحقوق.

الفصل السابع والعشرون

بلى، الكيان الصهيوني هو الديمقراطية الوحيدة في المشرق العربي

يؤكد الغربيون أن الكيان الصهيوني هو الديمقراطية الوحيدة في وسط المشرق العربي، فنغضب من هذا التصنيف ونستنكر كون الصهاينة ديمقراطيين ونأتي بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على ذلك بسرد جرائمهم منذ اليوم الذي ولدتهم فيه أمهم بريطانيا، ومنا من يسترسل في اللعبة بتقديم شهادات حسن السلوك وإبراز الإنجازات الديمقراطية الواضحة للعرب في هذا البلد أو ذاك، وكل هذه الإجراءات قائمة على أساس أننا نفهم الديمقراطية أكثر من أصحابها الغربيين ونتصورها في نفس الوقت بصورة مثالية لا تشوبها شائبة، فالجيد ديمقراطي والشرير غير ديمقراطي.

أعتقد أن الدخول في هذه الدوامة العبثية من محاولة إقناع الغربيين بما لا يريدون الاقتناع به غير مجد ولن يوصلنا إلى أية نتيجة، فسادة الديمقراطية هم أعرف بها منا، ولماذا نستنكر ديمقراطية الكيان الصهيوني مع أن الديمقراطيات الكبرى قامت على جرائم أكبر من جرائمه، فالنظام الديمقراطي الغربي تأسس على إبادة ثلاث قارات (الأمريكتين وأستراليا) واستعباد قارة رابعة (إفريقيا) واستعمار الخامسة (آسيا) مع استعمار بقية القارات، وشاركت في هذا المهرجان الديمقراطي جميع الديمقراطيات العريقة التي أسست إمبراطوريات استعمارية كانت أكبر من أحجامها الصغيرة بأضعاف مضاعفة وبنت سلمها الاجتماعي على قاعدة مادية من الوفرة التي هيأها استغلال الآخرين: بداية من البرتغال وإسبانيا مروراً بالسويد وهولندا وبريطانيا حيث الماجنا كارتا والتاريخ الاستعماري الأكبر في التاريخ وفرنسا حيث الأنوار والعقل وإيطاليا حيث فجر النهضة، وألمانيا،

حتى بلجيكا الصغيرة، وصولاً إلى الولايات المتحدة صاحبة إعلان الاستقلال ووثيقة الحقوق وموطن الآباء المؤسسين الذين شرعوا ونفذوا تهجير واضطهاد وإبادة ملايين السكان الأصليين واستعباد ملايين أخرى من الأفارقة بحجج كان استغلال النصوص الدينية في صلبها، ولن نجد جريمة واحدة من جرائم الصهاينة سواء القتل أو التهجير أو العنصرية أو الاستعباد أو الاستغلال أو الاحتلال أو الإفساد أو التهميش أو استغلال الدين إلا سبق أن ارتكبتها الديمقراطيات الأكبر والأعرق على نطاق أوسع ضد أكثر من 85% من العالم هي مساحة الإمبراطوريات الاستعمارية سنة 1914[1] وأسست على تلك الجرائم عظمتها وقوتها، ولا ننسى أن جميع الديمقراطيات العريقة هي التي أسست الكيان الصهيوني بعدما كان حلماً جميلاً في أذهان رعاة الديمقراطية والأنوار والعقل والإنسانية والإصلاح الديني والعلم منذ مارتن لوثر وجون لوك وإسحق نيوتن وتوماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين[2] وجون آدامز[3] وأبراهام لنكولن[4] ورائد السياسة المثالية وودرو ويلسون الذي دعم وعد بلفور ولاءمه مع مناداته بحق تقرير مصير الشعوب المستضعفة، ثم دعمت تلك الديمقراطيات جميعها كيان الصهاينة وظاهرته على أعدائه وأجمعت على وصفه بالديمقراطية، ومع ذلك لم تكن تلك الجرائم لتنفي الصفة الديمقراطية عن كل تلك الدول العريقة التي اتخذت قراراتها الإجرامية بطرق ديمقراطية، ولم يجرؤ أحد يوماً ما على التشكيك في ديمقراطيتها ومن ثم فهي لا ترى في الجرائم الصهيونية ما ينفي عن "إسرائيل" الصفة الديمقراطية، بل كان دعم تلك الدول للصهيونية نتيجة التزامها بالرأي الشعبي العام في دواخلها، فلماذا نعجب أن يكون الكيان الصهيوني، بجرائمه المصغرة، كياناً ديمقراطياً؟ وهو الذي يرجع إلى قاعدته الشعبية في كل شاردة وواردة من جرائمه؟ وهو أيضاً الحاصل على ختم المواصفات الديمقراطية القياسية من أرباب الديمقراطية في العالم؟ ولا يقدح في ذلك الآراء الرافضة لبعض الحالمين والمثاليين.

---

(1) ماجدوف، 1981، ص44.

(2) حمدان، 2000، ص26 و62 و109.

(3) الحسن، 1990، ص40.

(4) أورين، 2008، ص225.

لقد كان العالم الديمقراطي الغربي قد أسس انسجامه الداخلي على الموارد التي وفرها استغلال الآخرين والذي هيأ المجال لتحقيق المساواة بين البيض، مثلما وفر نهب الأراضي الهندية في الولايات المتحدة موارد تحقيق المساواة والديمقراطية الاقتصادية بين البيض المزارعين في "إمبراطورية الحرية" حيث كان امتلاك الأرض هو منبع الحرية في نظر المستوطنين[5]، وكانت وفرة الأرض بدورها هي الدافع لاستخدام جهد العبيد لحرثها[6]، وقد وفر استعباد الأفارقة الحرية والثروة الرأسمالية للبيض أيضاً[7]، وقامت نهضة الاقتصاد البريطاني على مزايا الهند المالية[8] وتدمير الصناعات الهندية في آسيا[9] حيث كان ما نهبته بريطانيا من الهند يفوق ما أنتجته في ثورتها الصناعية[10]، واستفاد الاقتصاد البريطاني كذلك من فرض الأفيون على الصين وشنت الديمقراطيات البريطانية والفرنسية والأمريكية حربين كبيرتين عليها لإجبارها على تعاطي المخدرات[11]، فلماذا نستنكر أن تقوم الديمقراطية الصهيونية على استغلال شعب فلسطين وأرضه وموارده بعد تهجيره وقتل أبنائه؟ ومازال العالم الديمقراطي الغربي الذي يعيش فيه 20% فقط من سكان العالم يستهلك 80% من موارد الأرض[12]، فلماذا نعجب من وصف الكيان الصهيوني بالديمقراطية وهو القائم على النخبوية واحتكار المزايا في فلسطين لليهود وحدهم دون أصحابها

---

(5) لاسي، ص141.

- Foner، 2005، ص48.

(6) Foner، 2005، ص49.

(7) Reynolds، 2009، ص26.

- المسيري، 2005، ص446-447.

(8) ماجدوف، 1981، ص19.

(9) شومسكي، 1999، ص27.

(10) المسيري، 2005، ص446.

(11) جارودي، 2004، الغلاف الخلفي الداخلي.

- ماجدوف، 1981، ص57-59.

(12) غارودي، 1998، ص67، نقلاً عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية.وأيضاً:

- نخلة، 2004، ص19، نقلاً عن نفس المرجع:

United Nations Development Program (UNDP), Human Development Report, – New York: Oxford University Press, 1992.

الشرعيين؟ لماذا نعجب بعد ذلك أن تكون ممارسات الإبادة والتهجير والاستغلال والإقصاء والاستعمار والاحتلال والإفساد واستغلال الدين التي يمارسها الصهاينة من سمات الديمقراطية مع أنها هي الأسس التي بنى عليها العالم الديمقراطي ازدهاره وتقدمه؟؟ وأين جرائم الكيان الصهيوني التي تخفت أمام جرائم الكيان الديمقراطي الأبرز في عالمنا وهو الولايات المتحدة التي يحلو لكل هائم بالغرب الاستشهاد بتقاليدها الديمقراطية العريقة ولا يمر ختم الديمقراطية على ممارسة إلا لو كانت مطابقة لما يحدث في أمريكا؟ لقد ارتكب الصهاينة جرائمهم وتدخلاتهم العسكرية في منطقة شرق المتوسط التي تضم دولاً بعدد أصابع اليدين من العراق إلى تونس ومعظم هذه الجرائم والتدخلات برضا الولايات المتحدة التي عمت جرائمها العالم كله، والصهيونية مجرد جريمة من جرائمها العديدة، وقد أُحصيت تدخلاتها العسكرية الدولية التي لا تشمل حروبها مع السكان الأصليين وذلك قبل احتلال العراق فبلغت أكثر من 130 تدخلاً عسكرياً مع تبعاته من القتل والدمار والاحتلال[13]، فأين ما فعله الصهاينة من جرائم أمريكا المليونية العملاقة في أمريكا اللاتينية وشرق آسيا لاسيما فيتنام ثم العراق قصفاً وحصاراً واحتلالاً وأفغانستان وقبل ذلك الإبادات المليونية الجماعية في القارة الأمريكية؟ وهل شككت هذه الجرائم أحداً في ديمقراطية أمريكا؟

لا يا سادتي الكرام، إن هذه الديمقراطية الغربية والصهيونية الإسرائيلية اللتين يمارسهما سادة الديمقراطية في الغرب هما الديمقراطية الحقيقية ومن العبث أن نعلمها لأساتذتها الأعلم بها منا، والكيان الصهيوني كيان ديمقراطي بجدارة كما وصفوه، بل هو نموذج مصغر مما عليه الديمقراطيات الكبرى التي فاقته إجراماً، ولهذا فإن الديمقراطيين لا يرون ما يخدش الديمقراطية في الممارسات الصهيونية التي لا يجدون فيها خروجاً أو شذوذاً عما مارسوه هم ومازالوا يمارسونه، ومن الخير لنا أن تكون ديمقراطية وحيدة في بلادنا وألا يكون معها كيان ديمقراطي مثلها يصنع بنا ما صنعه الصهاينة، وليس لنا أن نضفي مسحة مثالية على مبادئ وفق تخيلنا لها لا وفق حقيقتها التي تطبقها بلاد المنشأ

---

(13) ديفيز، 2005، ص184-208.

وفق نظريات واضعيها، وقد لا يعجبنا ذلك أو يصدمنا أو يشوش خرائطنا الإدراكية التي اعتادت على المديح والتبجيل، ولكن هذا لا يعني أن الحلول الغربية هي الحل لأنه لا حل غيرها، وعلى المصرين على التمسك بالحل الغربي الإجابة عن سؤال طالما سألوه لغيرهم : إذا كانت كل الجرائم السابقة مجرد خطأ في التطبيق، وإذا لم يكن كل ما نجم عن تلك التطبيقات من جرائم، عيباً متأصلاً في الفكرة ذاتها، وهي منزهة عن أخطاء التطبيق البشري، فمن سيضمن لنا أن التطبيق القادم سيكون هو الخالي من عيوب البشر؟ وهل من الممكن أن تتفوق أوهام التلميذ على حقائق الأستاذ؟

وليس في هذا تبرير لسيول أخطائنا وجرائم استبدادياتنا، ولكن ليس من شروط الخروج من أخطائنا أن نقبل بخطايا الآخرين، وليس من شروط القضاء على الاستبداد القبول بالاحتلال أو النهب أو الإبادة، وإن هذا القبول هو أداة تكريس استبداد أعتى كما رأينا في تاريخ بلادنا في القرن الأخير، كما أن تقرير شعوبنا لمصائرها ومشاركتها في حكم أنفسها لا يستلزم الوقوف على أبواب الآخرين للتسول مما صنعوه من فكر لازدهارهم الخاص لأن ذلك كان دائماً على حسابنا وحساب غيرنا ولن يكون لنا مكان فيه، وفي اللحظة التي سيُسمح لنا بالدخول ضمن دائرته سيكون شيئاً آخر مختلفاً تماماً عن الذي بهرنا في البداية، وإذا كنا في الشرق مخطئين ومتخلفين لزمن طويل فهذا لا يبرر أخطاء "الراشدين" في الغرب، والخلاصة هي أن علينا البحث عن حلول مشاكلنا في مكان آخر غير ديمقراطية الغرب التي لم تنقذنا يوماً من استبداد لتدخلنا في جنتها بل ما أخرجتنا من استبداد محلي صغير إلا لتوقعنا في استبداد عالمي كبير وما زالت تحتل بلادنا وترتكب الجرائم فيها وترعى مرتكبيها إلى اليوم.

مآل استخدام الغرب ضد الغرب: قصتنا مع "المثالية" الويلسونية نموذجاً

إن محاولتنا التمسك بشعارات الغرب وإفحامه بها ليست جديدة، ورغم أنها استمرت طويلاً فقد كانت نتائجها دائماً وبالاً علينا، لأن الغربيين ببساطة يعرفون كيف يستخدمون مبادئهم التي نبعت من واقعهم لخدمة مصالحهم ومن البساطة بمكان أن يلائموا أنفسهم مع ما ابتدعوه بانسجام أكثر مما يحاول الآخرون فرضه عليهم.

ولعل أبرز الأمثلة على تعلقنا بشعارات الغرب هو محاولة بلادنا استخدام مثاليات الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (1913-1921) بعد الحرب الكبرى الأولى لنيل الاستقلال والحرية التي وعدنا الحلفاء بها للحصول على مساعدة العرب ضد الأتراك في الحرب، ولما انتصروا تنكروا للعرب وفرضوا هيمنتهم عليهم مما دفع العرب إلى التوسل بمساعدة الولايات المتحدة ومبادئ رئيسها ويلسون.

أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا في إبريل/ نيسان/ أفريل سنة 1917 أثناء الحرب الكبرى الأولى، وكان الرئيس ويلسون قد أكد في أكثر من مناسبة على مبادئ الرئيس الأمريكي المؤسس توماس جيفرسون عن خيارات الشعوب وحقها في حكومات تستمد سلطاتها من المحكومين[14]، ثم أتبع ذلك بالقول إن بلاده لا تقاتل من أجل مكاسب توسعية، بل دفاعاً عن الحقوق، ولمحاربة الأنظمة المستبدة، ولجعل العالم آمناً للديمقراطية، وفي يناير/ كانون الثاني/ جانفي 1918 أعلن أمام الكونجرس مشروعه للسلام الذي يتضمن أربع عشرة نقطة تضمنت رفض المعاهدات السرية، ودعت إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها ومنها الشعوب غير التركية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية[15].

ولما عقد مؤتمر باريس للسلام سنة 1919 حضره ويلسون وهو يحمل آراءه التي تحتقر كل أشكال الاستعمار الأوروبي ونفوره الخاص من الأتراك[16]، وكان مصمماً على معارضة أي استيلاء جماعي على الشرق العثماني، وعلى المحافظة على مصالح أمريكا الاقتصادية والثقافية فيه دون تحمل مسئوليات سياسية أو عسكرية[17].

وقد رفض بقية الحلفاء ذلك ولم يقبلوا بتطبيق حق تقرير المصير على تلك المنطقة[18]، رغم أنهم أقروا مبادئه علانية[19]، وتوصلوا إلى تسوية شكلية بين

(14) سليمان، 1996، ص44.
(15) فاضل، 2007، ج5، ص29-31.
(16) أورين، 2008، ص368.
(17) نفس المرجع، ص371.
(18) نفس المرجع، ص371.
(19) الخولي، 1973، ج1، ص221.

الإمبريالية و"مثالية" ويلسون وذلك بتطبيق نظام الانتداب[20] الذي لم يختلف عن الاستعمار إلا بالاسم وكان هدفه المعلن هو الوصول بالشعوب إلى القدرة على حكم أنفسها عن طريق الوصاية عليها وجعل سعادتها وتقدمها وديعة مقدسة في يد العالم المتمدن[21].

الحقيقة الأمريكية التي غابت عنا زمن ويلسون

لم تكن حقيقة الولايات المتحدة بادية للعيان آنذاك، فكلماتها المعسولة كانت تصدر من أوروبا أيضاً التي أعلن ساستها أكثر من مرة أنهم لا يقاتلون لأجل مصالح مادية بل لتحرير الشعوب المضطهدة وهذه هي غايتهم الوحيدة[22]، ومع ذلك كان البريطانيون والفرنسيون يعملون لأجل مصالحهم فقط[23]، ولم تكن بلادنا بحاجة لسبر أغوار التاريخ الأمريكي كله بما تضمنه من إبادة واضطهاد وعنف واستعمار واحتلال وتهجير وتجويع ضد السكان الأصليين من الهنود الحمر، فكل ذلك قد جرى بعيداً عن أعين العالم وفي طي الكتمان، ولم نكن بحاجة إلى فتح التاريخ الاستعماري الإجرامي للرئيس ويلسون نفسه وماذا فعلت جيوشه المعتدية في الدومينيكان وجزيرة هاييتي[24] فربما كان ذلك بعيداً عن أنظارنا أيضاً، كما لم نكن بحاجة للتعمق في تحليل أسباب دخول الولايات المتحدة الحرب الكبرى وكيف كانت المستفيد الوحيد منها من بين كل الفرقاء الذين حصدوا الدمار[25].

ولكننا لو تابعنا الدور الذي قامت به الولايات المتحدة والرئيس ويلسون

---

(20) كارابل، 2010، ص310.
(21) فاضل، 2007، ج5، ص53.
(22) نفس المرجع، ج5، ص47.
- الخولي، 1973، ج1، ص286.
(23) أورين، 2008، ص371-372.
- كارابل ن 2010، ص311.
(24) شومسكي، 1999، ص323-339.
- تشومسكي، 1998، ص14.
(25) نعنعي، 1983، ص166 و181-182 و187-188.

شخصياً في إصدار ودعم وعد بلفور، لعلمنا أن "المثالية" على الأقل ليست شاملة، إن لم نصفها بأسوأ من ذلك، وأنه ليس لنا مكان فيها، وأنها ربما خدمت فئات ومصالح أخرى، ولكننا لم نكن من بين هؤلاء ولا مصالحنا مرشحة للإفادة كمصالح غيرنا.

دور ويلسون في وعد بلفور

وخلافاً لمبادئ ويلسون الرافضة للمعاهدات السرية والمطالبة بحق تقرير المصير للشعوب المضطهدة شارك الرئيس في صياغة وعد بلفور[26]، ودعم صدوره الذي استهدفت منه بريطانيا جر الولايات المتحدة إلى الحرب باسترضاء الصهاينة الأمريكيين ليقنعوا بدورهم أمريكا بذلك، وبهذا يكون ويلسون قد قام بخطوة تساعد الصهاينة على إقناع نفسه بدعم الحلفاء ضد ألمانيا (!)، ثم عمل على إخفاء النتائج التي توصلت إليها لجنة كينغ-كرين (1919) التي أرسلها إلى سوريا بنفسه وتوصلت إلى أن إنشاء الوطن القومي اليهودي هو انتهاك صارخ لحقوق الأهالي الأصليين وأن البرنامج الصهيوني لا يتفق مع مبدأ تقرير المصير، وهي نتيجة توصل إليها أيضاً وأعلم الرئيس بها وزير خارجيته ومستشاره القانوني، وذلك رغم أن رئيسي اللجنة كانا من مؤيدي الصهيونية قبل التوصل للنتائج، وقد أبلغ ويلسون اللجنة أن قضيتي فلسطين والعراق "مغلقتان" ولا مجال لتغيير موقف الحلفاء منهما، ولم تؤد نتائج اللجنة بما فيها المطالبة العربية بالانتداب الأمريكي على الشرق إلى تغيير المواقف الأمريكية السلبية، ثم وافق ويلسون على نشر تقريرها بعد انتهاء رئاسته ليرضي ضميره (!)[27]

لقد واجه التحالف الوثيق بين بريطانيا والصهيونية الرئيس ويسلون بمعضلة رئيسة وهي كيف يعارض الاستعمار ويوافق على الوطن اليهودي في نفس الوقت؟، فساعدت خلفيته الدينية البروتستانتية على حفزه لتأييد الصهيونية رغم كونه من حملة الآراء المعادية لليهود[28] (معاداة السامية)، وقد ثبت تاريخياً أن

---

(26) الخولي، 2007، ج1، ص200 و213.

(27) سليمان، 1996، ص62-72؛ - أورين، 2008، ص380.

(28) أورين، 2008، ص353.

معاداة اليهود كانت الحليف الأقوى للصهيونية دائماً، وشهد حاييم وايزمان أن اتصالات ويلسون كانت "أحد أهم العوامل في قرار الحكومة البريطانية إعلان تصريحها بشأن الصهيونية"[29] ونتيجة لذلك رقص 100 ألف يهودي في مدينة أوديسا الروسية خارج القنصلية الأمريكية شكراً وعرفاناً بالجميل[30] وهي نفس المدينة التي شهدت عام 1882 رد السلطات العثمانية برفض هجرة اليهود المتجمهرين فيها إلى فلسطين[31]، وقد قامت أعداد أخرى من اليهود بنفس مظاهر الفرح أمام البعثات الأمريكية في مصر واليونان والصين وأستراليا، ورغم أن القانون الأمريكي يحرم على الجيوش الأجنبية التجنيد على الأراضي الأمريكية، لم يعترض ويلسون على التجنيد الذي مارسه فلاديمير جابوتنسكي في أمريكا، وهو الذي سيصبح الإرهابي المعروف بعد ذلك على أرض فلسطين[32].

تعلق العرب بمثاليات ويلسون والغرب

ورغم كل ذلك واصل العرب تعلقهم بمبادئ ويلسون لما اكتشفوا غدر الحلفاء بهم وأنهم لا ينوون منح الاستقلال للعرب سواء بدولة واحدة أم بعدة دول مجزأة، وبعدما تفاعل العرب بالفرح والسرور المفرطين عقب تصريحات بريطانية استهلاكية عن الالتزام بحقوقهم واستقلالهم ونفي أية أطماع استعمارية لبريطانيا أو فرنسا في بلادهم كتصريح لجنة السبعة يونيو/حزيران/ جوان 1918 وتصريح اللنبي نوفمبر/ تشرين الثاني[33] تغيرت أغاني عرسهم إلى الحداد بعدما كشفت بريطانيا عن وجهها الحقيقي، ولم تنفع كل التنازلات التي قدمها العرب لبريطانيا في عدن وفلسطين بعد تنازلاتهم الكبيرة عن مصر وشمال إفريقيا في دفعها للموافقة على مطالبهم ولا أيضاً لجوء الأمير فيصل إلى استرضاء الصهيونية

(29) نفس المرجع، ص353.

(30) نفس المرجع، ص354.

(31) الخولي، 1973، ج1، ص11 (من مقدمة الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي).

(32) أورين، 2008، ص354.

- سليمان، 1996، ص56.

(33) الخولي، 1973، ج1، ص280-281 و612.

للاستقواء بها ضد المطامع الفرنسية في سوريا بتوقيع اتفاقه مع زعيمها حاييم وايزمان على الموافقة على الهجرة الصهيونية إلى فلسطين (1919)، وقال الأمير فيصل بن الحسين مستجدياً في مؤتمر باريس في يناير/ كانون الثاني/ جانفي 1919: "جئت ممثلاً والدي (الشريف حسين) الذي قاد الثورة العربية ضد الأتراك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا... معترفاً باستقلالها وبسيادتها بضمان من عصبة الأمم... وإني أستند في مطلبي هذا إلى المبادئ التي صرح بها الرئيس الأمريكي، ويلسون... وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية"[34]، وفي السابع من فبراير/ شباط/ فيفري أرسل الدكتور هورد بلس مدير الجامعة الأمريكية في بيروت رسالة شخصية إلى ويلسون جاء فيها: "الآن وقد جئت من سوريا، وبعد أن قابلت عدداً من السوريين في مصر، فإني أستميح لنفسي أن أخبركم عن مدى اعتقاد السوريين وثقتهم بالنقطة الثانية عشرة من نقاطكم الأربع عشرة، وعن تمسكهم بالتصريح الأنكلو-فرنسي الذي صدر في شهر تشرين الثاني 1918"[35] والذي نفى فيه الحلفاء أية أطماع استعمارية وتعهدوا بإقامة حكومات تستمد سلطاتها من الشعوب[36]، ثم طالب العربُ بالانتداب الأمريكي على بلادهم لو لم يتسن منحهم الاستقلال عندما استطلعت لجنة كنغ-كرين آراءهم في موضوع المستقبل[37].

نتيجة التعلق بأهداب المثاليات الغربية

فكانت النتيجة من منحنا أمريكا تلك الثقة الكبيرة والسلطة المجانية على أنفسنا أن استعملت هي هذا التوكيل في التخلي عنا وأحالت هذه السلطة لغيرها وتنازلت للأوروبيين عن "حقها" فينا ووافق الرئيس ويلسون "على التنازل عن

(34) زين، 1977، ص102.
(35) نفس المرجع، ص230.
(36) الخولي، 1973، ج1، ص286.
(37) أنطونيوس، 1978، ص611.

الكثير من مواقفه المبدئية... (و) على إعطاء بعض الدول مكاسب يمكن وصفها بأنها توسعية أو استعمارية"[38]، ومن ذلك الانتداب البريطاني والفرنسي على سوريا الكبرى كما سبق ذكره، وفي الشأن الفلسطيني قامت أمريكا بإضفاء الشرعية على الانتداب البريطاني بالصمت عن مقررات مؤتمر سان ريمو (1920)، ولما فرض الحلفاء معاهدة سيفر الاستسلامية على تركيا (1920) "نفذت المادة 95 من المعاهدة طلباً سابقاً تقدم به ويلسون من الدول المتحالفة تحت ضغط من (قاضي المحكمة الأمريكية العليا وصديقه الصهيوني) برانديس... ويقضي ذلك الطلب بأن يوضع موضع التنفيذ المخطط الصهيوني الخاص بالاستيطان في فلسطين كما ورد في وعد بلفور"، ولما قُدمت مسودة صك الانتداب لمجلس عصبة الأمم كانت الصهيونية الأمريكية هي التي صاغتها وتمت الموافقة عليها سنة 1923 [39].

أسطورة ويلسون وحقيقته

وفي الحقيقة لا يمكننا وضع الرئيس ويلسون بموضع المثالي المقهور الذي غُلب على أمره وعاد يائساً من جشع البشرية التي لم تتبع تعاليمه النبوية، وقد كانت مرجعيته في مبدأ تقرير المصير والممثلة في الرئيس توماس جيفرسون[40] رسول الحرية وكاتب إعلان الاستقلال الأمريكي هي مرجعيته أيضاً في التوسع واضطهاد الآخرين، ولم يكن ويلسون خارجاً عن تقاليد جيفرسون الذي ضاعف مساحة الولايات المتحدة بصفقة واحدة (لويزيانا 1803) وأسس للتهجير الجماعي للسكان الأصليين بعيداً عن مواطنهم في تناقض واضح مع حق تقرير المصير، وهو ليس ملاكاً كما يظنه البعض، والتوسعية الأمريكية لم تصطدم بأفكاره كما يُظن[41] بل دعمتها ممارساته، وأهل بيته كويلسون أدرى به، وعن ويلسون بين الأسطورة والحقيقة يقول الدكتور هشام أحمد بعد ذكر بعض السوابق

---

(38) نعنعي، 1983، ص192.
(39) سليمان، 1996، ص73-74.
(40) نفس المرجع، ص44.
(41) نفس المرجع، ص48.

التوسعية في التاريخ الأمريكي قبل رئاسته: " يستطيع المرء إذاً أن يستنتج مما ذكر آنفاً أن دوافع الولايات المتحدة وراء الإعلان عن مبدأ تقرير المصير بصفته المبدأ الذي يحكم العلاقات الدولية لم تكن دوافع خالصة تماماً، كان ويلسون ينوي تطبيق المبدأ فقط على الشعوب التي تقطن في أقطار كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها تتنازع معها: إن تقرير المصير لا ينطبق إلا على أوروبا الوسطى، والمبدأ لم يوضع موضع التطبيق في حالة الشعوب الرازحة تحت الاستعمار البريطاني والفرنسي، وهذا بموافقة الولايات المتحدة، وحتى ويلسون نفسه أقر بوجود محاباة في طريقة تطبيق تقرير المصير، كما أنه أنكر أن تكون للمبدأ صفة التطبيق العام، ويبدو أن ويلسون كان راضياً ما دام التطبيق من شأنه أن يخدم المصالح الاستعمارية، وحين حرمت أقطار معينة من ذلك المبدأ لم يعبر ويلسون عن الامتعاض" ثم استشهد بكلماته التي لا تختلف عن كلمات الأوروبيين في وجوب الوصاية على الشعوب غير الراشدة وبيّن أن الهدف من فكرة تقرير المصير هو القضاء على سيطرة الإمبراطوريات المعادية للحلفاء في الحرب الكبرى والمزايدة على أفكار البلاشفة الذين نادوا بحق تقرير المصير للشعوب الأخرى، ثم أكد أن الانتقائية التي سار عليها ويلسون في تطبيق أفكاره أصبحت أساساً للسياسة الأمريكية فيما بعد، وعندما ساهم في كتابة ميثاق عصبة الأمم لم يرد أي ذكر لحق تقرير المصير، ولم تعترض الولايات المتحدة بعد توقيع معاهدة فرساي على استيلاء الحلفاء على أراضي أعدائهم[42].

ثم تحدث عن دور ويلسون في حجب تقرير لجنة كنغ-كرين التي أرسلها بنفسه إلى سوريا لاستطلاع آراء الجمهور فلما خرجت بنتائج غير مرغوبة، أخفاها "فلو كان التقرير قد نشر فوراً لكان أثبت ازدواجية ويلسون، لأنه من جهة ادعى أن الدافع الذي حداه على دخول الحرب العالمية الأولى هو التزامه "أن يحفظ العالم آمناً من أجل الديمقراطية" على أساس حق الشعوب في تقرير المصير القومي، ولأنه من جهة أخرى أيد من دون انقطاع تنفيذ الهدف الصهيوني، ومفاده أنه "ستوضع في فلسطين أسس دولة يهودية" "[43].

(42) نفس المرجع، ص48-51.
(43) نفس المرجع، ص71.

وبناء على ذلك فإن ويلسون "ربط رسمياً بين الصهيونية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة"[44]، فماذا تبقى لنا من مثالياتهم؟؟

مآلات الويلسونية المتوحشة زمن بوش الابن وهامشية الحالمين

في عهد الرئيس الأمريكي بيل كلنتون قام مجموعة من المفكرين الأمريكيين المحافظين بتأسيس مشروع القرن الأمريكي الجديد الذي يتضمن تصدير الديمقراطية للشرق الأوسط ولو على فوهات المدافع[45]، واستعمال القوة العسكرية للسيطرة على العالم وزيادة الإنفاق العسكري كثيراً ودعم اليمين الصهيوني دعماً مطلقاً، واستدعى البيان ميراث وودرو ويلسون الذي تعهد أن يجعل العالم مهيئاً للديمقراطية ووافقه الكونجرس على ذلك بإعلان الحرب سنة 1917، وقد وقع على هذا البيان آنذاك عدة رجال تسلموا مناصب حساسة فيما بعد في إدارة جورج بوش الابن، ومنهم نائب الرئيس ريتشارد تشيني ورئيس مجلس سياسة الدفاع وعضوه ريتشارد بيرل ونائب وزير الدفاع بول ولفوويتز والسكرتير المساعد للدولة جون بولتون وسكرتير مساعد الدفاع دوجلاس فايث، وقد تبنت إدارة بوش هذه الأفكار بعد هجمات سبتمبر 2001 وتم احتلال أفغانستان والعراق ودعم الصهاينة في سحق انتفاضة الأقصى، ويعلق زكاري لوكمان على سياسات المحافظين بالقول "أما كون الغالبية العظمى من المجتمع الدولي، بما فيه الكثير جداً من الأمريكيين، رفضوا بشدة استعمال القوة العسكرية لتحقيق هذه الرؤية فأمر لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لأنصارها"[46].

وعن جورج بوش يقول مايكل أورين إنه كان أكثر انجذاباً نحو الكنائس الإنجيلية أكثر الكنائس شعبية ونفوذاً سياسياً وقد جعله ذلك الوريث الروحي والجسدي لعائلة الأستاذ الجامعي جورج بوش، الذي دعا في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى تكوين دولة يهودية، كما هو وريث لرجال الدين الاستعماريين الذين حذروا من مخاطر الإسلام العدواني، ولم يكن الوصف الذي أطلقه بوش

---

(44) أورين، 2008، ص356.

(45) ليتل، 2009، ص526.

(46) لوكمان، 2007، ص390-391.

على الصراع ضد الإرهاب الإسلامي وهو "حملة صليبية لتخليص العالم من الأشرار" وصفاً غير متعمد، بل كان مقصوداً، وإلى جانب الحماس الديني كان الرئيس يملك الحماس العلماني للمحافظين الجدد الذين كان كثير منهم من الليبراليين ونفروا من نبذ اليسار لإسرائيل وتهاونه مع جرائم الشيوعية، وكانوا يدعون إلى تطهير الشرق الأوسط بالديمقراطية "وكان هذا المزيج بين المهام المقدسة والمدنية في ذهن بوش قد وضعه بإحكام على مسار ويلسون، ولكن الإيمان نفسه الذي منع ويلسون من الدخول في علاقات عدائية في الشرق الأوسط (رغم تأييده وعد بلفور !) حفز بوش على اتخاذ قرار الحرب"[47].

ويجادل أناتول ليفن في هذه النسبة من موقع أكاديمي لا تأثير له، وحجته أن ويلسون كان يؤمن بحماسة في دور المؤسسات الدولية، وهو ما يجعل كلينتون هو ويلسون عصرنا وليس بوش[48] (وهو كارثة أخرى علينا)، ولكنه يعود إلى إيراد رأي ويلسون في أن "لأمريكا الامتياز المطلق في تحقيق قدرها وإنقاذ العالم" لكونها الأمة المختارة والقادرة على القيادة العالمية، وهو ما يشبه رأي بوش المتضمن في الثقافة الأمريكية عموماً والتي لا تقتصر على اليمين وحده[49]، ويحفر في "مآثر" ويلسون ليراه من أرباب التمييز العنصري الجنوبي الذي عرّض مُثله الليبرالية للخطر[50].

وأثناء الخلاف على التعاطي مع الأزمة العراقية قبل الاحتلال الأمريكي اعتقد الأوروبيون أن نظرية الحرب الاستباقية التي أصبحت مكوناً رئيساً في استراتيجية الأمن القومي الأمريكي والتي كانت امتداداً للفكر السياسي الأمريكي المحافظ منذ عهد الرئيس رونالد ريغان مروراً بعهد جورج بوش الأب، كانت ذات "منحى ويلسوني"، ويرون أن الأمريكيين عازمون على تكريس تطلعات ويلسون "ولكن بالقوة العسكرية التي تعد من أفضل السبل للدفاع عن النفس باستخدام القوة الهجومية، والإطاحة بالأنظمة الاستبدادية، وبشكل انفرادي

(47) أورين، 2008، ص567-568.
(48) ليفن، 2008، ص39.
(49) نفس المرجع، ص90-91.
(50) نفس المرجع، ص111.

مرتبط بمرتكزات القوة الأمريكية وحجمها، ومن دون الاكتراث بالشرعية الدولية"[51].

وكل ما سبق لا يمنع من وجود من يرى في ميراث ويلسون مخرجاً لتقليص خطر النزاعات والقتل والكوارث في القرن الحادي والعشرين ببرنامج مغرق في المثالية الداعية إلى التعددية الدولية في المداخلات الأمريكية والمصالحة مع الأقطاب المنافسة وإعادة بناء الأمم المتحدة للحؤول دون الاقتتال وإزالة الأسلحة النووية وتحديد جرائم الحرب لردعها ومعاقبة مرتكبيها[52]، وغير ذلك مما لم ينجح صاحب المرجعية نفسها في تطبيقه ودخل في انتهاكات واضحة لما كان يدعو إليه.

وعلى كل حال ومهما كان الفائز بميراث ويلسون "المثالي" في هذا الصراع بين الاتجاهات، فهل أمكننا منع التوجهات الأمريكية العدوانية من الإفادة من هذا الميراث وتجهيز الجيوش ضدنا كما فعل ويلسون نفسه ضد الثورة البلشفية مثلاً؟ وماذا بقي لنا نحن وما هو نصيبنا من مثاليته بعدما كان تطبيق صاحب الميراث نفسه لأفكاره في عالمنا هو المشاركة في إصدار وعد بلفور وإقرار الانتداب البريطاني ليقوم بهذه المهمة؟

الاستنتاج:

لم نتمكن نحن ولا من سبقنا من المزايدة على مثالية أفكار الآخرين عندما تقررها مصالحهم وعلينا الكف عن تكرار خطأ الأمير فيصل بن الحسين الذي ظن أن المستعمرين سيقدمون مصالحنا على مصالحهم التزاماً بمثالياتهم، التي تبهرنا دون سبب عملي.

بعد قيام الثورة الأمريكية ضد التاج البريطاني وانتصارها (1775-1783) انتقلت مفرداتها الفكرية إلى الهنود الحمر الذين كانوا يدافعون عن وجودهم ضد المد الاستيطاني الذي حفزه انتصار الثورة التي كانت كارثة على السكان

(51) الجاسور، 2007، ص295.

(52) بلايت، 2003.

الأصليين، وأصبحت حرية الرجل الأبيض تعني زوال حرية الهندي، واستقلال الرجل الأبيض يعني زوال استقلال الهندي، ورغم ذلك حاول السكان الأصليون استعارة الأدوات الحقوقية من الأمريكي للدفاع عن قضيتهم، فاستعاروا مفاهيم الحرية، والاستقلال، والحقوق الطبيعية، وطبقوها على أنفسهم في مواجهة العدوان الأمريكي كما طبقها الأمريكيون على أنفسهم في مواجهة الحكم البريطاني[53]، ولكن الأمريكي لم يقبل بتطبيق مفاهيمه على غيره، ولم يقبل لمن هم تحت حكمه ما يقبله لنفسه، ولم يفسح لهم مجالاً في جمهورية الحرية الأمريكية حديثة الولادة على مبادئ العقل والإنسانية، وكان ينتقي تطبيق هذه المبادئ وفقاً لمصالحه، فالحرية لا تنطبق على العبيد والسكان الأصليين زمن الثورة الأمريكية ثم انطبقت على العبيد وحدهم زمن الحرب الأهلية ليس رفقاً بهم بل لسحب البساط من تحت القوى الاجتماعية التي تستند إلى جهدهم وتنافس الشمال الصناعي المهيمن والذي يستثنى السكان الأصليين من قيمة الحرية نفسها فتشن عليهم حملة الاضطهاد والإبادة وسط مهرجان التحرير، ومن الطريف أن أهل فلسطين حاولوا القيام بنفس هذه المهمة التي لم تقتصر عليهم وشملت كل مستعمرات الرجل الأبيض والتي حاولت أن تطبق مفاهيمه عن الحرية والديمقراطية والمساواة والإنسانية على أنفسها ولكن دون جدوى، وكما فشل الهنود من قبل فشل أهل فلسطين رغم كل النجاحات على الورق في الإثباتات والدراسات والتدقيقات القانونية والحقوقية والعلمية التي جعلتنا نفوز بالقرارات الدولية ويفوز الصهاينة بالأرض، فانطبق علينا مثل الأعرابي الذي أوسع اللصوص شتماً ولكنهم فازوا بالإبل !

ورغم احتقار الرئيس الأمريكي "المثالي" ويلسون للاستعمار الأوروبي ونفوره من الأتراك، فقد مال إلى المساومة مع الأوروبيين الأقوياء فجاءت النتيجة على حساب الأتراك وعلى حساب الشعوب غير التركية أيضاً والتي زعم تأييدها والعمل على استقلالها، وكل ذلك لحساب من زعم احتقار ممارساتهم الاستعمارية، كما أنه تطوع للتنازل عن مبادئه لصالح الصهيونية مما يؤكد أن منشأ الخلل لم يكن في قوة الأوروبيين فقط بل أيضاً في أُلفة الرئيس مع محيطه

---

(53) Foner، 2005، ص219-220.

المعادي لأمانينا ومصالحنا التي وثقت بمثاليته وتمسكت بها فتخلى هو عنها وفضّل المساومة بنا مع حلفائه الغربيين، إذن لسنا بحاجة لتعديل أفكار الغربيين بعد موت أصحابها لأن هؤلاء أنفسهم أفصحوا عن التطبيقات السلبية لشعاراتهم البراقة، وإذا كانت هذه التحيزات ناتجة عن الطبيعة البشرية التي لا يمكنها أن تطبق المبادئ بعدالة مطلقة[54]، فإننا يمكننا أن نعرف فقط أنه لا مكان لنا في مهرجان الشعارات الغربية، ولهذا ليس لنا أن نحاول إفحام الغربيين بحقيقة مبادئهم التي تمثل مصالحهم ومن ثم لا يمكن أن تعمل ضد هيمنتهم علينا، ومنها ديمقراطيتهم التي يصرون على أنها تشمل الكيان الصهيوني الذي هو بجرائمه ليس سوى نموذج مصغر من الكيانات الديمقراطية الكبرى، التي قد تكون مفيدة وصالحة لأصحابها بما توفره لهم من رفاهية وازدهار ووفرة، ولكن بالتأكيد ليست صالحة لنا لأن كل ما صنعته من إيجابيات تم على حساب الآخرين ومن ضمنهم نحن، وليس من مستلزمات خروجنا من أخطائنا الإقرار بصلاحية خطايا غيرنا، وفي جميع الأحوال فإن هذه التجربة المسرفة غير قابلة للتكرار أو التعميم لعدم توفر الموارد الكافية لذلك على الأرض.

(54) لويس، 1986، ص10.



الفصل الثامن والعشرون

العِبر من التاريخ الاستعماري في ليبيريا لقضايانا المعاصرة

ملخص

تقدم لنا قراءة تاريخ الاستعمار في جمهورية ليبيريا الواقعة في غرب إفريقيا عبراً مهمة لمجموعة من قضايانا المعاصرة وهي:

1 - **تغير الممارسات الاستعمارية لا ينفي جوهر الاستغلال**: ذلك أن شعار الحرية قد يكون غطاء لممارسات استعمارية بشعة تنتقل من شكل اضطهاد قديم إلى شكل جديد تحت ذرائع انسانية تصور عملية الانتقال من الاسترقاق إلى الاستعمار بأنه تطور أخلاقي مشهود.

2 - **زيف الذرائع الاستعمارية ولو كانت تحت اسم "العودة إلى أرض الآباء"**: فمهما كانت الصلة التاريخية للمستعمِرين بالأرض التي يغزونها باسم "العودة" إليها، فإن الراية الاستعمارية التي ينضوون تحتها تخرجهم من كونهم مجرد "عائدين" وتجعلهم كأي صنف من الغزاة المحتلين، وتحوّل الضحية إلى جلاد مجرم، وتخلق من المشاكل الدموية مع السكان الأصليين الذين استمر وجودهم منذ الأزل على هذه الأرض ما يبرر لهم مقاومة هؤلاء الغزاة مقاومة ستوقع في النهاية من الخسائر ما يمحو أثر النتائج السعيدة التي تذرع الاستعمار بها ابتداء لتبرير مشروع "العودة".

3 - **الاستعمار لا يفيد إلا نفسه مستخدماً عملاءه ليمتص دماء ضحاياه**: ذلك أن "التقدم" الذي تقدمه "التنمية" الاستعمارية يؤدي إلى خدمة أهداف

المستعمِرين الذين قاموا بإنشاء البنية التحتية في المستعمرات، دون تحقيق أهداف الأهالي الأصليين، وقد يحول الاستعمار بلداً شديد الغنى بثروات ضخمة إلى أفقر بلد في العالم مع التبجح "بإنجازات" كبرى ولكن يعوزها الصلة بحياة الأهالي البائسين، مستخدماً في ذلك الاستغلال طبقة من المستفيدين من هذه العملية التي تقطع طريق التطور الذاتي في حياة الشعوب.

مشروع "عودة" إلى إفريقيا لحل مشكلة العبيد المحررين يسبق مشروع "العودة" إلى فلسطين لحل المشكلة اليهودية في أوروبا

من القضايا التي واجهتها الثورة الأمريكية التي طرحت فكرة التحرر من الاستبداد، قضية الرق ومساوئه التي فرضت نفسها على الآباء المؤسسين ومنهم توماس جيفرسون الذي كتب مسودة إعلان الاستقلال وألصق فيها تهمة التجارة بالبشر بالملك البريطاني وحده، مع أنه برر استعمال الرقيق بكونه من متطلبات البقاء لسكان أمريكا وهو ما يتقدم على مبادئ العدالة، وكان جيفرسون يعتقد أن مآل العبودية إلى الزوال ولكن ذلك لن يؤدي إلى السلام وسيظل العنف الناتج عن تبعات الاسترقاق على السادة والعبيد والفروق الطبيعية في رأيه بين البيض والسود يلقي بظلاله على المجتمع الأمريكي، وحل هذه المشكلة التي تتعلق بفائض سكاني فقد وظيفته في هذا المجتمع وأصبح عبئاً عليه، يتمثل في رأيه في الفصل بين الشعبين و"عودة" هذا العنصر البشري الفائض إلى موطنه الأصلي بمساعدة سادته السابقين واستعماره في بلد خاص يصبح ملكاً له ويضمن فيه سلامة العبيد وسعادتهم ويمنحهم الحماية والرعاية ويمكن لأولئك السادة السابقين أن ينشئوا تحالفاً مع هذا الكيان الجديد، وكما كان صاحب فكرة هذا المشروع ضد اضطهاد العبيد في أمريكا فقد كان ضد العبيد أنفسهم وساقه حرصه على الهوية إلى اقتراح ترحيلهم مرة أخرى إلى إفريقيا بعدما تم ترحيلهم من إفريقيا أول مرة، وكذلك كان الوزير البريطاني آرثر جيمس بلفور صاحب الوعد المشئوم معادياً لوجود اليهود في بريطانيا فسن أثناء رئاسته للوزراء (1902-1905) قانون الغرباء الذي يقيد هجرتهم إليها في نفس الوقت الذي كان فيه متعاطفاً مع فكرة ترحيلهم إلى فلسطين ومنسجماً مع الأحلام الصهيونية إلى حد التبني كما هي صفة معظم الصهاينة غير اليهود الذين يكرهون اليهود ولهذا يتعاطفون مع الهدف الصهيوني وهو التخلص منهم في أوروبا وترحيلهم إلى فلسطين.

ويلاحظ تشابه المسألة الإفريقية في أمريكا مع المسألة اليهودية في أوروبا، ففي الحالتين كان هناك فائض سكاني فقد عمله وأصبح عبئاً على مجتمع يرفض استيعابه، فكان الحل هو تصدير المشكلة إلى الخارج تحت ستار "العودة" بإنشاء كيان استعماري استيطاني يرعاه السادة السابقون، لهذا العنصر المرفوض ويتحالفون مع كيانه الجديد الذي سيصبح أداة في يد المصالح الجديدة لأولئك السادة في مكانه الجديد، وكما كان أعداء اليهود هم أنصار الحل الصهيوني الذي طالب بترحيل اليهود من أوروبا إلى فلسطين، فكذلك كان أنصار ترحيل العبيد المحررين هم أنفسهم أعداء بقائهم في أمريكا وكارهي عنصرهم الإفريقي، وكما ظلت الأفكار الصهيونية في عالم الأماني زمناً طويلاً فقد ظلت فكرة ترحيل العبيد السابقين حبيسة الفكر الجيفرسوني منذ نهاية الثورة الأمريكية لمدة أربعين عاماً بعد ذلك وظل يدافع عنها إلى يوم وفاته في ذكرى إعلان الاستقلال سنة 1826، وكان سابقاً زمنه في اختراع هذا الحل على غرار السابقين في اختراع الحل الصهيوني.

وقد نتج عن هذا الحل الترحيلي في إفريقيا والذي أدى إلى قيام دولة ليبيريا من المشاكل بل الكوارث الدموية بين السكان الأصليين والوافدين الجدد ما يوازي النكبات التي حلت بالشعب الفلسطيني نتيجة الحل الصهيوني، رغم كون "العائدين" في الحالة الإفريقية ممن لا شك في أصولهم الإفريقية وهو ما يؤكد أن صلات النسب البعيد بالأرض ليست هي معيار الحقوق وأن عودة أي منفي بعد زمن طويل تحت راية أجنبية هدفها الطرد والإبادة والاستيطان سيواجهها أصحاب البلاد بنفس المقاومة التي يواجهون بها أي أجنبي محتل، خلافاً للترحيب باللاجئ طالب الأمان الذي يطلب المساعدة حتى لو كان غريباً، وأن اتخاذ الاستعمار أدوات تحت ذريعة العودة يختلف جذرياً عن العودة نفسها لأن العائد الحقيقي يحترم أصحاب الدار الذين ثبتوا في الأرض في الوقت الذي كان هو قد غادر فيه، وحتى لو كان مجرد لاجئ أجنبي وليس عائداً فإن الأبواب تكون أكثر تفتحاً له من محاولة اقتحامها قسراً بالقوة، وقد استقبلت بلادنا كثيراً من اللاجئين من الشرق والغرب (الأرمن والشركس والشيشان والبشناق) واستوعبتهم في نسيجها إلا أن الموجة الصهيونية لم تكن محاولة لجوء وإيجاد مأوى بل غزو استعماري استيطاني يستهدف الإبادة والإحلال لأجل قيام كيان

مرتبط بالخارج الغربي ومن هنا كان رفض السكان الأصليين له ولم يكن رفضهم إفساح مجال لمجموعة هاربين من الاضطهاد كما يصور الصهاينة أنفسهم، وكذلك كانت ليبيريا كياناً مرتبطاً بالراية الأمريكية استبعد السكان الأصليين واضطهدهم ولذلك رفضوه وحاربوه بغض النظر عن أصول المستعمِرين الإفريقية، ورغم محاولاتنا المستمرة لنفي ارتباط الصهاينة بفلسطين عن طريق الحفر في التاريخ لإثبات أصولهم الخزرية وعدم صلتهم بفلسطين وبني إسرائيل القدماء، لم يتعب سكان ليبيريا الأصليون أنفسهم في نفي الأصول الإفريقية للعبيد المحررين القادمين من أمريكا والذين ترفض فطرة الإنسان البسيط عدوانهم، وقاوموا استعمارهم على كل حال رغم كونهم أفارقة، والخلاصة أن حجة العودة مرفوضة عندما يستخدمها كيان استعماري يعمل على استبعاد الأهالي، سواء كانت الأصول صحيحة كالحالة الإفريقية أو مشبوهة كالحالة الصهيونية أم مختلقة كالجذور الأوروبية التي حاول جيفرسون اختراعها في أمريكا الشمالية، وهذا الحل يؤدي دائماً إلى مشاكل متتالية بحجة إيجاد مأوى مع أن المأوى لا يتطلب الطرد والإبادة.

نشأة ليبيريا وتاريخها

عندما بدأ الرق بالاضمحلال، ارتفعت الأصوات في الغرب الأوروبي الأمريكي لإعادة الرقيق المحررين إلى موطن أسلافهم في إفريقيا لعدة دوافع متباينة، فبينما أراد البعض التخلص من العنصر الملون لأنهم لا يريدون التعايش معه، رأى البعض الآخر أن وجود عبيد تم تحريرهم على مقربة ممن ظلوا في أغلال الرق يؤلف خطراً على الاستقرار، كما رأى غيرهم أن العبيد السابقين سيكونون أكثر حرية وازدهاراً في موطن آبائهم، وأن إبعاد الأفارقة عن أمريكا سيجعل عتقهم مقبولاً، وهو اعتراف بعنصرية المجتمع الأمريكي آنذاك والذي لا يقبل ملوناً حراً بين جنباته، ولم يغب دافع التنافس الاستعماري عن هذا المشهد فقد رأت السياسة إمكان استخدام هذا العنصر المنبوذ في حماية المصالح السياسية الغربية في منطقة غرب إفريقيا وبهذا يتم تحقيق هدفين بحركة واحدة هما التخلص من هذا العنصر واستخدامه في نفس الوقت بعيداً، وهذا ما حصل في المشروع الصهيوني في فلسطين تماماً، إذ تخلصت أوروبا من اليهود

واستخدمتهم في نفس الوقت لحماية مصالحها بصفتهم "طليعة الحضارة" في الشرق البربري المعادي.

لقد كان القضاء على العبودية وتجارة الرقيق هو ذريعة الاستعمار الأوروبي للتكالب على إفريقيا، ويمكننا أن نضع إنشاء ليبيريا وسيراليون ضمن هذا البند، فبحجة تحرير الرقيق أقيم هذان الكيانان الاستعماريان لاستيعاب العبيد المحررين، وفي موضوعنا عن ليبيريا نتج عن شعارات الحرية هذه استعمار قامت به الأقلية الأمريكية واضطهدت به السكان الأصليين في ليبيريا، وإن الممارسات البشعة التي قام بها الاستعمار الأوروبي عموماً في إفريقيا بدعوى محاربة الرق تؤكد أن تطور أشكال الاستغلال لا تعني أي تطور أخلاقي عند المستغِلين.

تقول المراجع إنه في أواخر القرن الثامن عشر، ومع نمو حركة المطالبة بتحرير العبيد، ظهرت في الولايات المتحدة فكرة عودة الأفارقة إلى بلاد أجدادهم التي انتزعوا منها قسراً، لاسيما إفريقيا الغربية، وبذلك يصبح العبيد المحررون أسياد مصيرهم، وقد قامت أمريكا باستخدام هذه الفكرة لوقف محاولات التغلغل البريطانية والفرنسية في تلك البلاد التي كانت حتى ذلك الوقت غير منظمة في إطار حقوقي ومؤسسي.

وقد تأسست جمعية الاستعمار الأمريكية سنة 1816 برئاسة باشرود واشنطن شقيق الرئيس جورج واشنطن لتشجيع عودة العبيد المحررين إلى إفريقيا، وتم اختيار مرفأ لإنزالهم أصبح فيما بعد العاصمة مونروفيا نسبة إلى الرئيس الأمريكي المؤيد للفكرة جيمس مونرو، وصار من مهمة الجمعية الحصول على موافقة السكان الأصليين لإعطاء أراض لأنسبائهم الوافدين، وأصبحت الجزيرة التي نزل أوائل "العائدين" عليها هي مكان ولادة ليبيريا، أي أرض الحرية، وأطلق على تلك الجزيرة اسم جزيرة العناية الإلهية وأصبحت مزاراً رسمياً منذ سنة 1963.

فشلت في البداية مهمة المبعوثين الأمريكيين الرسميين إلى جانب مبعوثي جمعية الاستعمار في تأسيس مستوطنات إلا بعد الاتفاق مع الزعماء المحليين على منح أرض للمشروع، ومع تزايد الوافدين الجدد واجهوا من صعوبات التأقلم كالمناخ وعداوة السكان الأصليين الذين أدركوا فيما بعد حقيقة هذا

المشروع الذي سيقوم بإخضاعهم سياسياً واقتصادياً فقاوموه وتمكن "العائدون" من فرض وجودهم بالقوة بمساعدة المدافع النارية التي تسلحوا بها ضد السكان الأكثر عدداً منهم "وقد ألقت الانتفاضات التي تعاقبت، والقمع الذي كانت تواجه به بثقلها على تاريخ ليبيريا الحديث" كما تقول موسوعة السياسة، وبسبب الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين، لم تتحدد حدود ليبيريا إلا بنشوب المشاكل معهم.

في البداية حكم الأمريكيون البيض ليبيريا التي كانت محصورة في مدينة مونروفيا، ويعد جيهودي آشمون هو المؤسس الحقيقي للمستعمرة التي حكمها فيما بعد توماس بوكانان شقيق الرئيس الأمريكي الخامس عشر جيمس بوكانان، ونشأت فيها عدة مستوطنات على التتابع حمل بعضها أسماء أمريكية واضحة مثل ماريلاند وجرينفيل، وظلت تتحرر ببطء من السيطرة الأمريكية المباشرة، إلى أن أعلنت جمعية الاستعمار الأمريكية التي أشرفت على إنشاء ليبيريا أن على المستعمرة ألا تظل معتمدة على الجمعية، فأعلن الحاكم الأمريكي استقلالها وحصل الليبيريون على موافقة السلطات الأمريكية وتشجيعها لتحويل البلد إلى دولة حرة ومستقلة سنة 1847، وأصبحت جمهورية مستقلة وتم انتخاب أول رئيس من الوافدين بعد 25 عاماً من حكم البيض، واتخذت الدولة الجديدة علماً كعلم الولايات المتحدة ودستوراً شديد الشبه بالدستور الأمريكي، بالإضافة إلى رموز وشعارات ذات معنى للقادمين من أمريكا، وقد استمر تدخل جمعية الاستعمار في السياسة الليبيرية بعد الاستقلال، ولم يكن عدد الوافدين آنذاك (أقل من 3 آلاف) بكاف لاستمرارية المشروع الاستيطاني، وحاول الرئيس الليبيري الجديد الحصول على اعتراف دولي، فسافر إلى الولايات المتحدة في السنة التالية لانتخابه (1848) ولكن الأمريكيين في ذلك الوقت لم يقبلوا بوجود مبعوث دبلوماسي غير أبيض ولم يعترفوا بالدولة الجديدة إلا في سنة 1862 بعد اندلاع الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، وحاولت كل من بريطانيا وفرنسا انتهاز الفرصة بالاعتراف بليبيريا بعد العزوف الأمريكي وأرسلتا بواخر حربية إلى سواحلها في محاولة لربطها بهما عسكرياً و"مساعدتها على حماية نفسها" وفقاً لموسوعة السياسة، ولا ننسى أن مناطق النفوذ البريطاني والفرنسي كانت محاذية لليبيريا.

وكان السكان الأصليون في عمق البلاد يجهلون وصول الوافدين الجدد، وعندما قامت الدولة لم تكن إجراءاتها تعنيهم بشيء، وفي الفترة الواقعة بين تأسيس المستعمرة ونهاية الحرب الأهلية الأمريكية هاجر معظم الوافدين إلى ليبيريا، وكانت أهم المشاكل التي واجهت رؤساء ليبيريا الأوائل مشكلة التوتر بين الوافدين من أمريكا والسكان الأصليين، والمشاكل مع القبائل المحلية في عمق البلاد حيث كانت الدولة تحاول مد سيطرتها، وقد اندلعت حالات عصيان عديدة استمرت إلى سنة 1930، وظل السكان الأصليون مستبعدين من المواطنة الليبيرية إلى سنة 1904 حين بدأ الرئيس آرثر باركلي سياسة التعاون مع القبائل الأصلية، كما ألقت مشكلة الحدود مع الدول المجاورة التي تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا بظلالها على أحوال ليبيريا وظلت مستمرة إلى ما بعد الحرب الكبرى الثانية، وكانت سلطة الدولة محصورة لمدة طويلة في المنطقة الساحلية التي تمتد عشرين ميلاً فقط إلى الداخل وظل الانقسام الاقتصادي بين الساحل والريف الداخلي شديداً.

لم يكن الاستعمار الاستيطاني براقاً لأفارقة الولايات المتحدة الذين أصروا على هويتهم الأمريكية وكانوا ضد فكرة "العودة إلى أرض الآباء"، ورأوا أن هذه "العودة" ترسخ فكرة الرق وتدعمها، وذلك كما عارض كثير من اليهود نشأة الصهيونية المنادية "بعودة" اليهود إلى فلسطين وعدوها مثيرة لمعاداة اليهود واستقرارهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، ورغم الاهتمام الذي حظيت به فكرة الاستعمار الاستيطاني فقد تخلى عنها كثير من أنصار إلغاء الرق لما فيها من عدوانية ضد الملونين (في إفريقيا أم في أمريكا؟) وقال بعضهم إن جمعية الاستعمار بديل خبيث للعبودية، وإلى سنة 1865 كان عدد المستوطنين في ليبيريا خمسة آلاف فقط، ومن ضمن الأربعة ملايين عبد تم تحريرهم في الحرب الأهلية الأمريكية، لم يهاجر إلى ليبيريا سوى عدد قليل رجع بعضهم إلى أمريكا فيما بعد، وكان الذي جدد الاهتمام بفكرة الهجرة هو سوء الأحوال التي عاشها العبيد المحررون بعد الحرب الأهلية، وكانت عنصرية الشمال تجبرهم على البقاء في الجنوب ومنهم من فضلوا أن يقطنوا في الغرب للحفاظ على حريتهم رغم سوء الأحوال هناك، ومنهم من فضل العودة إلى الجنوب، وقد انقسموا في ذلك الزمن بين المطالبة بولاية زنجية خاصة في نبراسكا أو كانساس ومعارضة ذلك،

وقد حظيت فكرة الولاية باهتمام واسع بين العبيد المحررين الذين استلهموا مثال خروج بني إسرائيل من مصر هرباً من اضطهاد فرعون، كما كانت نفس الفكرة السياسية عند السكان الهنود في نفس الفترة، ولكن عارضها قادة مشهورون من السود كفريدريك دوغلاس لأنها ستلغي حقوقهم خارج الولاية المقترحة، وهي معارضة شبيهة بالمعارضة اليهودية ضد الصهيونية، واستلهم بعضهم فكرة إعلان الاستقلال الأمريكي وطالبوا بالانضمام إلى مقاييس البيض لأنفسهم وهي كلها مطالب لم تتحقق إلى اليوم سواء لذوي الأصول الإفريقية أم للسكان الأصليين في أمريكا.

وعلى الجانب الآخر ايد قادة قوميون من ذوي الأصول الإفريقية في امريكا حل الهجرة والفصل بين الأجناس مثل المصلح مارتن ديلاني (1812-1885) الذي أيد الهجرة إلى ليبيريا لتحل مشكلة التمييز العنصري وعقد مؤتمراً في أمريكا في سنوات 1854 و1856 و1858 لهذه الغاية كما عقد معاهدات مع زعماء أفارقة في حوض النيجر لإغراء ذوي الأصول الإفريقية في أمريكا بالهجرة والاستقرار في إفريقيا، ومثل المصلح القومي ماركوس جارفي (1887-1940) والذي كان معجباً بقوة وتنظيم الأمم الغربية ولكنه قال إنها تركت الجماهير العالمية مستاءة وساخطة، وفي سبيل تنمية حضارة جديدة تزاوج بين التقدم العلمي وإشاعة الحرية لا بد من إيجاد أمم سوداء مستقلة وهذا لا يتم إلا باستعمار إفريقيا دون التخلي عن الكفاح داخل أمريكا من أجل العدالة ولكن دون اللهاث للحصول على قبول البيض كما تفعل البورجوازية السوداء، وقد ووجهت جهوده التي أثمرت أكبر جمعية للأمريكيين الأفارقة في التاريخ الأمريكي (جمعية تقدم الزنوج العالمية) بمعارضة امتدادها إلى إفريقيا من جانب أوروبا وقادة في إفريقيا.

الفرق بين المشروعين الاستيطانيين في ليبيريا وفلسطين أن الأول لم يحظ بالتأييد الحكومي الواسع رغم الاهتمام الذي أثارته الفكرة، فقد دفعت الحكومة لجمعية الاستعمار الأمريكية 100 ألف دولار عند تأسيسها بالإضافة إلى تبرعات فردية، وهي مبالغ لم تكن كافية لدعم مشروع ضخم كهذا وذلك رغم التأييد الذي حصلت عليه فكرة الاستعمار الاستيطاني عند شخصيات سياسية بارزة كالرئيسين جيمس ماديسون وجيمس مونرو والسياسي البارز هنري كلاي، وقد

أعاد الاضطهاد الأبيض بعد الحرب الأهلية الأمريكية الاهتمام بفكرة "العودة" التي ظلت متداولة إلى عشرينيات القرن العشرين.

ولا يغيب عن الأذهان في هذه المناسبة أن فكرة ترحيل العبيد المحررين إلى ليبيريا تزامنت مع فكرة ترحيل الهنود الحمر من شرق الولايات المتحدة إلى الغرب، وكان ذلك في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر أيضاً، مما يدل على اتجاه تصدير المشاكل في الحضارة الغربية على حساب الآخرين، وهو ما مارسه الغربيون بتوسع في القرن التاسع عشر بهجرة عشرات الملايين من فائضهم السكاني إلى الخارج، كما تدل فكرة الترحيل على الجوهر العنصري الذي تتسم به هذه الحضارة التي لا تتحمل المخالفة والاختلاف ولا تقبل باستيعاب الآخرين في جنتها، ولكن ترحيل السكان الأصليين كان أكثر إلحاحاً في ذلك الزمن بسبب الطمع الشديد بالاستيلاء على أراضيهم في الوقت الذي لم يكن للعبيد المحررين ثروات يُطمع بها لو رحلوا، ومن هنا كانت الولايات المتحدة على استعداد للإنفاق على ترحيل قبيلة هندية واحدة خمسة ملايين دولار، وهو أكثر مما رصدته لترحيل جميع القبائل، وأكثر بالطبع مما أنفق على مشروع ليبيريا في نفس الوقت.

وقد ألف الوافدون من أمريكا لى ليبيريا في سنة 1869 حزباً سياسياً اسمه حزب المحافظين الحقيقي The True Whig Party الذي كان يمثل السود في مواجهة المهجنين من الوافدين، ولم يكن يثق بأوروبا ولكنه انتهج سياسة اقتصادية ابتدأت بالاقتراض من بريطانيا (1871 و1907) كما تنازل لمستعمرات بريطانيا وفرنسا عن أراض ضخمة، وكانت معظم التجارة الليبيرية مع أوروبا لاسيما بريطانيا وألمانيا وهولندا، ثم تحولت ليبيريا إلى النفوذ الاقتصادي الأمريكي بداية من سنة 1926 بالاقتراض من الولايات المتحدة في الوقت الذي كانت الامتيازات الضخمة تمنح لشركاتها خلافاً لبقية الدول الإفريقية بعد استقلالها، إلى أن وضعت البلاد تحت الرقابة المالية الأمريكية، وتمكن هذا الحزب من احتكار السلطة بين 1870-1980 دون انقطاع، وقد انحازت ليبيريا في الحربين الكبريين إلى جانب الحلفاء بعدما قررت في المرتين التزام الحياد، ومن مظاهر التغلغل الأمريكي الدور الهام الذي قامت به الجمعيات الماسونية التي دخلت مع الأمريكيين الليبيريين من الولايات المتحدة، وكان من لوازم منصب الرئاسة الليبيرية كون الرئيس ماسونياً بدرجة عليا.

كانت القومية الليبيرية مقصورة على سلالة الليبيريين الأمريكيين التي تخشى من قبائل المناطق الداخلية من السكان الأصليين أكثر من خشيتها من التهديدات الخارجية، وكانت هذه القومية مبنية على أساطير الاستيطان التي تستبعد الأهالي الأصليين كما استبعدت أساطير الاستيطان الأمريكي (الآباء الحجاج والآباء المؤسسون والثورة وإعلان الاستقلال والدستور والتوسع القاري والمصير الجلي وتحرير الرقيق... إلخ) الهنود الحمر من الدخول في العالم الذي صنعته، ولهذا كان عالم المستوطنين الليبيريين مليء بفتات الحداثة الذي سمحت لهم به الولايات المتحدة وبقية المستغِلين دون السكان الأصليين، وكان الليبيريون الأمريكيون الذين نبذتهم الولايات المتحدة في أراضيها قد تحولوا في إفريقيا إلى عنصريين يعاملون السكان الأصليين باحتقار ومهانة ويشعرونهم بتفوقهم عليهم في نفس الوقت الذي يخفضون فيه جناح الذل لمضطهديهم السابقين من الأمريكيين ولو تطاول الأمريكيون على منصب رئيس الجمهورية نفسه، وقد وصل الإذلال للسكان الأصليين إلى درجة التعاون مع أمريكا وإسبانيا في سبيل توفير أيد عاملة سواء عن طريق السخرة بواسطة تعاون زعماء القبائل أم عن طريق عمليات الصيد التي لا تختلف عن غارات تجار الرقيق لإرسال المختطفين إلى جزيرة فرناندوبو الإسبانية في خليج غانا، وكان ذلك الاضطهاد يذكرنا بطريقة تحول الصهاينة الذي اضطُهِدوا في أوروبا إلى عنصريين اضطهدوا العرب بدورهم.

وفي العهد الطويل للرئيس وليام توبمان الذي ترأس بلاده ست دورات ودخل السابعة قبل وفاته (1944-1971) عمل على إلغاء التوتر بين الليبيريين الأمريكيين والسكان الأصليين من بداية عهده وباشر رأب الصدع وإلغاء الفوارق بين الساحل والداخل منذ سنة 1964، ومنح القبائل درجة من الحكم الذاتي، كما انتهج سياسة لرفع مكانة بلاده سياسياً كالمشاركة في تأسيس الأمم المتحدة (1945)، وأدت الضغوط الأمريكية عليه لتصويت ليبيريا إلى جانب مشروع تقسيم فلسطين بعد معارضتها إياه (1947)، وشاركت في مؤتمر عدم الانحياز في باندونغ (1955)، وأصبحت عضواً في مجلس الأمن سنة 1960 (دليل الرضا الأمريكي)، وساهمت في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية (1963)، وأصبحت عضواً في مجلس الوصاية في نفس العام، وقد أدى ذلك لرفع درجة شعبيته رغم تسلطه وفساده ومحاباته لمجموعته العرقية ولابنه إذ جعل منه رئيساً للوزراء عند

استحداث المنصب 1964، كما أنه على الجانب الاقتصادي انتهج سياسة الباب المفتوح التي قدمت ثروات ليبيريا للاستثمارات الأجنبية في المطاط والحديد وكانت سياسة مناسبة جداً لحاجات أمريكا التي استفادت كثيراً منها لأن الشركة الأمريكية التي هيمنت على محصول المطاط الرئيس (فايرستون) كانت لا تبيعه إلا للدولة التي تتبعها هي وهي أمريكا الحريصة جداً على الاستحواذ على المطاط الذي غطت ليبيريا منه ربع احتياجات الحلفاء في الحرب الكبرى الثانية، كما أن رئيس الجمهورية كان لا يخالف آراء مستشاره المالي الأمريكي، وهي سياسة تشبه سياسة معاصره رئيس الوزراء في سيراليون السير ملتون مارجاي الذي أكد أن سياسة بلاده هي الباب المفتوح مع عدم قبول أي تدخل أجنبي في الشئون الداخلية (وماذا يبتغي التدخل الأجنبي غير النهب من الباب المفتوح له؟)، ووُصِف حكم توبمان بالفساد المالي المحابي لليبيريين الأمريكيين، وكانت ليبيريا قد أصبحت الموضع الاستراتيجي الأمريكي الحساس في غرب إفريقيا وارتبطت باتفاقية دفاع ومساعدة عسكرية مع الولايات المتحدة سنة 1942 ودخلت الحرب الكبرى الثانية إلى جانبها بعد سنتين، وحصلت من هذه الارتباطات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية على بناء بنية تحتية على شكل مواصلات برية وبحرية وجوية كانت فوائدها الرئيسة تعود على الأجانب الذين أنشئوها وذلك بنقل الخامات إلى الخارج دون مساعدة التنمية خارج هذا الإطار فظلت البلاد زراعية ومن أفقر بلاد العالم رغم ثرواتها الضخمة، أما المساعدات المالية الأمريكية فكان نصفها تقريباً ينفق على الفنيين الأمريكيين، وفي زمن الرئيس توبمان وصف الصحفي الأمريكي سميث همبستون وضع ليبيريا بأنه أسوأ حكم في العالم وأن الفساد والرشوة والمحسوبية متفشية في أعلى المستويات فيه ومع ذلك فإن هذا الرئيس هو أفضل رجل لليبيريا وللغرب معاً (!)

نقلت الولايات المتحدة ميناء مونروفيا الحر إلى حكومة ليبيريا باتفاق وقع في سنة 1964، وتستفيد كثير من شركات الملاحة البحرية من يسر الشروط التي تفرضها ليبيريا على تسجيل السفن مما جعلها تفضل رفع العلم الليبيري حتى أصبح الأسطول الليبيري يساوي 30% من ناقلات النفط في العالم أجمع في ستينيات القرن العشرين ولكن هذا لم ينعكس على شكل فوائد للسكان المحليين الذين ظلوا يشتكون من ضعف البنية التحتية وغلاء المواصلات.

وبعد وفاة الرئيس توبمان خلفه الرئيس وليام تولبرت (1971-1980) الذي واجه معارضة ضد هيمنة الليبيريين الأمريكيين التي لم يوافق على زحزحة أوضاعها، ووصِف حكمه بالفساد والتسلط كسلفه، كما واجه عدم تقبله من جانب طبقته القيادية، وفي سنة 1980 قام أعضاء من مجموعة الليبيريين الأصليين بقيادة صامويل دو بانقلاب ضده أثار موجة من العنف ضد الليبيريين الأمريكيين وانتهى بذلك عهد هيمنتهم الذي استمر منذ الاستقلال سنة 1847، وحاول الانقلاب وضع حد للخلافات بين المجموعتين بتعيين وزير للعدل من الأمريكيين، كما انفتحت سلطات الانقلاب على الاتحاد السوفييتي وليبيا ولكنها ما لبثت أن تراجعت وانتهجت سياسة موالية للغرب كالنظام السابق، وذلك في ظل اعتراف أمريكي بها وزيادة في المساعدات العسكرية وأعادت العلاقات مع الكيان الصهيوني في سنة 1983 وتبع ذلك تعزيز للعلاقات معه لاسيما في المجالات الأمنية والعسكرية، ودخل الانقلاب في دوامة التصفية الذاتية وسمح للعديد من أقطاب النظام السابق بالعودة وتسلم مناصب سياسية هامة وتخلى عن سياسة عدم الانحياز التي كانت الولايات المتحدة تتلاءم معها في السابق وانحاز كلياً إلى السياسة الأمريكية، وفي سنة 1989 قام انقلاب ضد دو مما أشعل حرباً أهلية استمرت إلى سنة 1996 وقتل فيها 200 ألف وتشرد مليون ليبيري في الدول المجاورة، وفي النهاية انتخب على إثرها رئيس جديد هو تشارلز تايلور الذي استمر في الحكم ثلاث سنوات قبل أن يعلن ثوار التمرد عليه (1999) مما أدى إلى حرب أهلية أخرى استمرت إلى سنة 2003 حين استقال تايلور من الحكم وأجريت انتخابات (2005) فازت فيها إلين جونسون سيرليف التي تنتمي إلى الأقلية الأمريكية ويشير كل ما يتعلق بها إلى توجهها: تعليمها الأمريكي في هارفارد وسيرة وظائفها في البنك الدولي والبنوك الأمريكية وفوزها بجائزة نوبل ومناصبها الرسمية في نظام الأقلية الذي حكم ليبيريا قبل انقلاب 1980 وانتماؤها الديني البروتستانتي المنهجي وسياستها التي عبر عنها دخولها في حوار الشراكة الأمريكية-الليبيرية لضمان التعاون الدبلوماسي والاقتصادي بين البلدين على مستوى رفيع (15/ 1/ 2013)، وقيامها بدخول الانتخابات ثانية (2011) مع سبق إعلانها أنها لن تتولى إلا فترة رئاسية واحدة.

خلاصة التاريخ الليبيري

ليبيريا دولة تقع في غرب إفريقيا أنشأتها الولايات المتحدة سنة 1820 لترحل إليها العبيد المحررين الذين لم تشأ أن تستوعبهم في أراضيها بسبب دوافع تتراوح بين الرغبة في "عودتهم" إلى وطنهم إفريقيا وعدم الرغبة في التعايش مع الملونين والاختلاط بهم على أرض واحدة، وكثيراً ما كان العبيد المختَطَفون من غرب إفريقيا لا يصلون إلى الولايات المتحدة وتقوم سفن الحراسة "بإعادتهم" إلى ليبيريا بدلاً من مواطنهم الأصلية، المهم أن الدولة التي نشأت على أراضي ليبيريا كانت تابعة للنفوذ الأمريكي في مواجهة النفوذ البريطاني في سيراليون المجاورة (غرباً) والتي أنشأها الإنجليز بنفس الطريقة ولنفس الهدف، والنفوذ الفرنسي في ساحل العاج (شرقاً)، وقد أعلنت استقلالها سنة 1847، ويتضح الأثر الأمريكي في علم ليبيريا المشابه لعلم الولايات المتحدة ومن اسمها المشتق من كلمة ليبرتي أي الحرية ومن اسم عاصمتها مونروفيا الذي أطلق عليها تيمناً بالرئيس الأمريكي جيمس مونرو المؤيد لمشروع استيطان العبيد المحررين، ومن مؤسسات الحكم فيها والتي أنشئت على غرار المؤسسات الأمريكية، ومن انتشار العمارة الأمريكية والانضمام إلى الماسونية فيها، ومن سياستها الموالية للولايات المتحدة والتي اتضحت من دخولها الحربين الكبريين إلى جانب الحلفاء ضد ألمانيا، ومن تصويتها ضمن مجموعة المستعمرات الأمريكية لصالح قرار تقسيم فلسطين (1947) بعدما اتصل صاحب شركة فايرستون بالرئيس الليبيري بعد معارضته فكرة التقسيم وأخبره أن مناوأة القرار ستؤلف خطراً على استيراد أمريكا المطاط من بلاده، ويتضح الأثر الأمريكي كذلك من علاقات ليبيريا المميزة بالكيان الصهيوني خلافاً لبقية الدول الإفريقية، ومن التغلغل الأمريكي فيها وسيطرته على المالية الليبيرية بعد حصولها على القروض الأمريكية.

وبعد إنشائها حكمها الأفارقة الأمريكيون واحتكروا القطاعات السياسية والاقتصادية واستبعدوا السكان الأصليين من المواطنة إلى سنة 1904 وظلوا مهيمنين على البلاد إلى سنة 1980 رغم كونهم أقلية لا تتجاوز 5% من مجموع السكان، وهناك مصادر تقلص الرقم إلى 3% فقط، ورغم أن هناك من يرى أن ليبيريا لم تعان من الاستعمار، وذلك لأن الجيوش الغربية لم تحتلها كبقية محيطها الإفريقي، فإن الأقلية الأمريكية التي حكمتها كانت استعماراً في حد

ذاتها إذ حصدت في المناطق الساحلية معظم الفوائد الاقتصادية، وكان ذلك صورة من صور اتخاذ تحرير الرقيق ذريعة لممارسة أشكال جديدة وبشعة من الاستغلال الاستعماري، ولكن كل ذلك لم يعجب السكان الأصليين رغم الرابطة الإفريقية بين الطرفين واندلعت المقاومة منذ بداية الاستيطان وسالت كثير من الدماء إلى أن استولى السكان الأصليون على الحكم سنة 1980 ثم دخلت البلاد في حربين أهليتين طاحنتين 1989-1996 و1999-2003 نتج عنهما 250 ألف قتيل، ومليون لاجئ مشرد، وهي أرقام ضخمة نظراً لعدد سكان ليبيريا البالغ آنذاك 2,6 مليون نسمة تقريباً (1993).

وتزخر ليبيريا بالثروات ولكنها بلد فقير فقراً مركباً، بل تتميز وهي وسيراليون التي تشبهها كثيراً في الظروف عمن حولهما في درجة الفقر، وثرواتها ومرافقها تحت سيطرة الأجانب أولاً، ثم تحت سيطرة سوء التوزيع بين الساحل حيث يعيش سلالة العبيد الأمريكيين المحررين ويحصلون على الجزء الأكبر من الثروة الوطنية، والداخل حيث السكان الأصليين، ولولا الهيمنة الأجنبية على ثروة ليبيريا باسم الباب المفتوح والتجارة الحرة لكان شعبها غنياً جداً، ومن المفارقات الواضحة لبناء البنية التحتية الذي شهدته ليبيريا مستعمرة العبيد أن أمريكا ارتبطت معها باتفاقية دفاع ومساعدة عسكرية لتكون قاعدة لنفوذها في المنطقة وبنت لها مطار العاصمة مونروفيا الذي وُصف في زمنه بكونه أحدث موانئ غرب إفريقيا ومن أعظم ما صنعته يد الإنسان في العالم كما يقول الأستاذ محمد اسماعيل محمد في مؤلفه عن ليبيريا، ولأن ليبيريا تمتلك أكبر مزارع المطاط في العالم ومن أضخم خامات الحديد بالإضافة إلى الأخشاب والذهب والألماس كذلك فقد تهافتت الدول والشركات الكبرى عليها وحصلت على امتيازات بمليارات الدولارات، وكانت ليبيريا هي الدولة الإفريقية الوحيدة التي تقبل التنازل عن مساحات واسعة من الأرض لمدة طويلة بإيجار رمزي، وكانت ثرواتها هي السر الذي بنيت لأجله البنية التحتية فيها لخدمة الحصول عليها، فبُنيت لها شبكة من طرق المواصلات والموانئ لتوصيل هذه الخامات إلى الخارج، كما ولدت الكهرباء اللازمة لمشاريع المطاط والحديد، وقد تربعت ليبيريا على عرش تسجيل أكبر أسطول بحري في العالم لمدة طويلة وأصبحت الآن في المرتبة الثانية بعد بنما ليُسر شروط تسجيل السفن فيها وعدم فرض

الضرائب وانخفاض شروط السلامة التي تشترطها مما يغري الشركات الكبرى برفع العلم الليبيري، وتحصل ليبيريا على أعلى نسبة من الاستثمارات الأجنبية في العالم، ولكن في مقابل كل ذلك، وفي مقابل كونها في زمن من أسرع الاقتصاديات نمواً في العالم وكانت لبرهة تلي اليابان مباشرة (!) نجد على أرض الواقع أن ليبيريا من أفقر الدول في العالم ومتوسط دخل الفرد فيها هو ثالث أدنى دخل في العالم ويعيش ما يقارب 85% من السكان تحت خط الفقر الدولي، وديونها ضخمة جداً تصل أضعاف الناتج المحلي الإجمالي وتمتلك عجزاً في الحساب الجاري وصل قريباً من 60% سنة 2008، وعانت من أسرع عمليات الهبوط الاقتصادي في التاريخ في أثناء حروبها الأهلية التي نتجت عن تركيبتها السكانية غير المتجانسة بفعل التدخل الأمريكي بتوطين العبيد المحررين فيها والتي أدت إلى خسائر جسيمة، ومن ضمن عقبات الاقتصاد الليبيري الافتقار إلى البنية التحتية والتي تخضع فيها للمصالح الخاصة ويؤدي ذلك إلى ارتفاع نفقات النقل رغم شبكة المواصلات آنفة الذكر، كما تعيش في عزلة عن محيطها وتفتقر إلى الصلات التجارية بمن حولها وترتبط في المقابل تجارياً بالولايات المتحدة والعالم الغربي وذيوله العربية والآسيوية، وتؤلف الدولرة، أو إحلال الدولار مكان العملة الوطنية، واحدة من عقبات التطور الاقتصادي في ليبيريا، ورغم إفادتها من المرافق التي بناها الأمريكيون لإحكام الاستغلال والتبعية فإن البلاد كان من الممكن أن تفيد أكثر كثيراً لو ظلت ثرواتها بأيدي أبنائها، وهذه هي الفكرة التي أحب التأكيد عليها دائماً وهي قطع الغرب طرق التطور الحضاري على غيره من الشعوب.

مراجع المقال:

1 - موسوعة ويكيبيديا العربية: ليبيريا (15/ 8/ 2014).

2 - الدكتور عبد الوهاب الكيالي (تحرير)، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999، ص568-581.

3 - محمد اسماعيل محمد، سيراليون وليبيريا، سلسلة الألف كتاب (449)، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963.

4 - محمد شعبان صوان، معضلة التنمية الاستعمارية: نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار، دار الروافد الثقافية-ناشرون، بيروت، ودار ابن النديم، الجزائر، 2015.

5 - The New Encyclopedia Britannica, 15th Edition, 1987, Vol. 29, pp. 883-887.
6 - New Standard Encyclopedia, Ferguson Publishing Company, Chicago, 1999, Vol. 10, pp. L-187-189.
7 - John A. Garraty and Jerome L. Sternstein, Encyclopedia of American Biography, Harper Collins Publishers, New York, 1996, pp. 278-279, 427-428.
8 - Robert A. Rosenbaum, The Penguin Encyclopedia of American History, Viking, New York, 2003, p. 80.
9 - Eric Foner, Reconstruction: America's Unfinished Revolution: 1863-1877, History Book Club, New York, 2005, p. 598.
10 - James Oliver Horton and Lois E. Horton, Slavery and the Making of America, Oxford University Press, 2004, pp. 95-97, 225.
11 - Peter S. Onuf, Jefferson's Empire: The Language of American Nationhood, University Press of Virginia, London, 2000, pp. 147-188.
12 - Francis Paul Prucha, The Great Father: The United States Government and the American Indians, University of Nebraska Press, Lincoln, 1995, p. 219.
13 - Simon Schama, Rough Crossing: Britain, The Slaves and the American Revolution, Harper Collins Publishers, New York, 2006, pp. 410-411.

الفصل التاسع والعشرون

متى سنكتشف أمريكا؟

المقصود من هذا السؤال هو متى ستصبح حقيقة الولايات المتحدة من مسلماتنا كما أصبحت قارات العالم الجديد من المسلمات بعد كولمبس؟ فقد أثارني كما أثار كثيرين غيري رؤية بعض الثوار في ليبيا في بداية ثورتهم يرفعون أعلاماً أطلسية وبخاصة أعلام الولايات المتحدة، وكنت على ثقة من أن الإدارات الأمريكية لن تخيب ظنون أعدائها وستحمل من يؤيدها على معاداتها بأسرع مما نتخيل، كما حصل عندما أحرق الفلسطينيون في ديسمبر/ كانون الأول 1998 أعلاماً أمريكية كانوا قد رفعوها قبل أسبوع تحية للرئيس كلينتون الذي جاء غزة يحتفي بإلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني ثم ما لبث أن أصدر أمراً بقصف العراق مما أدى إلى كشف الغمة عن عيون من رحبوا به فحولوا العرس إلى مأتم، وكما أحرق الكويتيون علم أمريكا أثناء العدوان على غزة سنة 2009 عشية ذكرى حرب 1991، وكما أصبح الثوار الأفغان الذين أسمتهم الولايات المتحدة المقاتلين من أجل الحرية أعدى أعدائها وأكثرهم إرهاباً لها، وكما داس العراقيون علمها وهتفوا لخروجها وهي تمن عليهم بتخليصهم من الاستبداد، لأنهم لمسوا حقيقتها وأدركوا أهدافها، ولكل هذا لم آخذ المشهد الليبي على محمل الجد كثيراً وعلمت أن السياسة الأمريكية كفيلة برد هؤلاء الشباب إلى وعيهم أكثر من أي توجيه يمكن ألا يفيد في ساعة السكرة والشعور بنشوة الإنتصار، وهذا ما حدث فيما بعد بالفعل في أكثر من موقع وحدث ليبي.

ولكني أتساءل: إلى متى علينا أن نكرر التجارب نفسها لعدم استفادتنا من نتائجها؟ إلى متى يعيد التاريخ نفسه لعدم استيعابنا درسه؟ فقد تكرر هذا المشهد أكثر من مرة أثناء القرن العشرين وحده، وكنا دائماً ندفع أثماناً باهظة نتيجة

اختياراتنا التي بنيناها على العاطفة والجهل أكثر مما بنيت على السياسة والعلم.

ففي بداية القرن العشرين واجهنا الخيار بين الخلفاء والحلفاء، أي بين البقاء مع الدولة العثمانية أو الانضمام إلى المعسكر الغربي في الحرب الكبرى الأولى 1914-1918،وقد انقسم العرب قسمين موزعين بين الخيارين، وكان من الممكن أن نعذر أصحاب الخيار الغربي آنذاك لو لم تكن حقائق سياساته وأطماعه جلية واضحة تشهد بها مستعمرات فرنسا وبريطانيا في مصر والسودان والجزائر وتونس وعدن والخليج، وربما عذرنا بسطاء الأعراب الذين ساروا خلف لورنس بأوامر زعماء قبائلهم، ولكن ما عذر المثقفين بل علماء الدين الذين مهدوا السبيل لتقسيم بلادهم واحتلالها وقد كانت الأطماع واضحة كالشمس والعاقل من اتعظ بغيره؟ وفي هذا يقول الأمير شكيب أرسلان الذي وقف في المعسكر العثماني: "لم يمنعنا من الاشتراك في الثورة العربية (سنة 1916) سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهباً مقسماً بين إنجلترة وفرنسة، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود، وهذا التكهن كان مجزوماً به، حتى أني كنت أقول قبل الحرب (كلمة الإمام علي عليه السلام): لو ارتفع الغطاء ما ازددت يقيناً، ثم انتهت الحرب، وانتصر الحلفاء، وارتفع الغطاء، فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول"[1].

ومن المحاولات الجريئة آنذاك لكشف حقائق المستعمرين الكتاب الذي نشره السيد محمد حبيب العبيدي الموصلي سنة 1916 بعنوان جنايات الإنكليز على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة[2]، واحتوى أفكاراً متقدمة قياساً بزمنه، فمن إحصاءات عن مستعمرات بريطانيا في ارجاء الأرض، إلى فضح أكاذيب الاستعمار وأنه قائم على الاستغلال دون التبادل المتكافيء للمنافع، إلى إحصاءات عن عدد الضحايا الذين تسبب بهم الجشع البريطاني، ويلاحظ أن المؤلف لم يقصر الحديث عن الظلم البريطاني للمسلمين بل شمل العالم كله بحديثه كما لم يقم بتحريض الناس على الإنجليز بصفتهم كفاراً بل بصفتهم مستعمرين ظالمين يتناقضون حتى مع المظلوم غير المسلم، ومما يجدر ذكره أن

(1) الشرباصي، 1978، ص89.
(2) الموصلي، 2003.

الشيخ الموصلي كان من المعارضين للسياسات العثمانية التي يراها خاطئة ولكن الظلم العثماني لم يدفعه لبيع وطنه للاستعمار الغربي.

المشكلة فيما حصل بعد الحرب أن الرئيس الأمريكي ويلسون رفع شعارات براقة عن الديمقراطية وحق الشعوب في تقرير المصير ورفض الاتفاقيات الاستعمارية السرية وأوفد لجاناً لاستطلاع آراء أهالي البلاد العثمانية عن مستقبلها فكان طلب أهل الشام، الذين خدعتهم هذه السياسة والشعارات الأمريكية، هو الاستقلال وإن لم يكن فالوصاية الأمريكية عليهم لإيصالهم إلى درجة الاعتماد على النفس، وطرحت آراء مشابهة في تركيا أيضاً، وكان اختيار السوريين الولايات المتحدة "لأنهم يعرفون سيرتها ومقاصدها السامية التي لا تشوبها شائبة والثقة التي كانت في أمريكا والروح الطيبة التي ظهرت من المعاهد الأمريكية التهذيبية في سورية... مما أثبت لهم أن أمريكا ليس لها مطامح جغرافية ولا استعمارية وأنها لا تلبث أن تنجلي من تلقاء نفسها حالما يثبت بناء الحكومة السورية. ويتخذون كوبا والفيليبين مثلين على روحها الديمقراطية النبيلة وما لها من الموارد الغزيرة وهكذا يتضح من النظر في رغائب الشعب السوري أن الوصاية يجب أن يعهد بها إلى أميركا"[3] كما جاء في تقرير لجنة كنغ- كرين التي أرسلها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون لاستطلاع آراء سكان الشام بعد الحرب الكبرى الأولى.

ويتساءل المرء بتعجب: هل كان أهل سوريا الكبرى يعرفون سيرة الولايات المتحدة ومقاصدها فعلاً؟ وهل كانوا يودون بالفعل تكرار ما حدث فعلا في كوبا والفلبين؟ وهل كانوا يعلمون جيداً تفاصيل الأحداث هناك ومنها الثورة الوطنية التي اندلعت بعد الغزو الأمريكي للفلبين سنة 1898 وقتل فيها ما يقارب ربع مليون فلبيني[4]؟

وهل اطلعوا على ما فعله الأمريكان هناك من قتل وتعذيب وتجويع هذا غير الحرب الأمريكية التي أعقبت ذلك على مسلمي الفلبين 1902-1913؟ وهي

---

(3) أنطونيوس، 1978، ص611.

(4) Reynolds، 2009، ص241.

على كل حال كانت حوادث ما تزال مفتوحة على الاحتمالات ولكن ما هو أظهر منها كان مصير الهنود الحمر السكان الأصليين في الولايات المتحدة ذاتها ولم يكن فيه ما يدل على روح طيبة أومقاصد سامية أو غير ذلك مما جاء في تقرير اللجنة ولا ينطبق على الواقع لأن السياسة الأمريكية لا تنحصر في معاهد تربوية وتهذيبية والتي ثبتت أهدافها السياسية البعيدة عن التربية والتهذيب، وهو ما ظهر فعلاً بعد ذلك من السياسة الأمريكية التي كان رئيسها ينادي بالمباديء البراقة ثم مالبث أن وافق على تقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا وكذلك على وعد بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي مما ينقض ما دعا إليه بنفسه فيما سبق.

وليس من العجيب أن يكون التبرير على النحو الذي عرضه نائب الرئيس ويلسون، جورج لويس بير الذي قال: "مع أن الرئيس يبدو مستعداً للنزال والنضال من أجل سلام عادل، فإن العدل المطلق بالنسبة لأية قضية محددة أمر غير قابل للتحقيق. إن موقفه صلب إزاء المباديء العامة لكنه مرن عند التطبيق "[(5)]، وهكذا راحت بلادنا ضحية الجهل العربي والطمع الأوروبي الشديد والمرونة الأمريكية العالية.

لقد اكتشف بعض متنورينا كالشيخ محمد حبيب الموصلي آنف الذكر تفاصيل مهمة عن الغرب وسياساته تجاه العالم وتجاهنا، ومن هؤلاء أيضا الشيخ العلامة محمد بيرم الخامس 1840-1889 صاحب الرؤية الإصلاحية الشاملة والذي لم ينل حظه من الاهتمام، وقد حلل منذ وقت مبكر حقيقة السياسات الغربية وأبان الفرق بين السياسة الداخلية للدول الغربية ومعاملتها الخارجية لبقية الأمم، فلا "مقايسة بين سيرتهم في داخليتهم وسيرتهم في الخارج، سيما الجهات التي لهم فيها مآرب، فربما ارتكبوا في ذلك ما لا يمكن تصور مثله في داخليتهم" أما الجهات التي لا مآرب لهم فيها فيقول عنها: "تراهم هناك يسيرون نحو سيرتهم في داخليتهم"[(6)]، ولم يغب عنه مصير الهنود الحمر في أمريكا الذين كانت حروبهم قد شارفت على النهاية نتيجة الظلم والطرد والإبادة التي أجراها الأوروبيون فيهم وذلك في وقت غاب هذا الموضوع عنا لصعوبة

---

(5) لويس، 1986، ص10.

(6) الصولي، 2003، ص389.

الاتصالات وبُعد المسافات وكان من الممكن أن نستفيد منه كثيرا في تقرير مصائرنا، كما أشار الشيخ محمد بيرم إلى جهود الغرب في عرقلة محاولات العثمانيين النهضوية وتركيزه المستمر على ضعفها وأزماتها المالية والأمنية تمهيداً للزحف والاحتلال[7]، ولم يجرمنه عداء الغرب على عدم العدل فاعترف بوجود جوانب صالحة في حياة الغربيين مما جعل كاتب سيرته يلخص موقفه من الغرب بعبارة الاعتبار دون الانبهار[8].

لم تسر هذه الأفكار في حياتنا العامة كما يجب، ولم نعتبر من الخيانة الغربية والأمريكية التي تلقيناها بعد الحرب الكبرى الأولى بل من النكبة الفلسطينية التي حلت سنة 1948 وكانت الولايات المتحدة محركاً رئيساً فيها، فلما خرجت من عزلتها وتبنت القضاء على الامبراطوريات الاستعمارية القديمة لنشر نفوذها الذاتي بدلاً منها خدع بها بعض نخبنا كما يروي الزعيم الراحل جمال عبد الناصر: "القدوة التي أسترشد بها... ليست هتلر ولا ستالين، إنها جورج واشنطن... نريد أن نكون مستقلين كما أراد ذلك أميركيو القرن الثامن عشر... لما وصلت إلى الحكم كنت ميالاً إلى الأميركيين... كنت أظن أن طريقة الحياة الأميركية هي أفضل ما يمكن أن يكون... وبكل سذاجة كنت مقتنعاً بأن الأميركيين هم أعداء الاستعمار"[9]، وفي تلك الفترة رأت الولايات المتحدة أن "الموقف الاستعماري القديم تجاه السكان المحليين سيقودهم إلى أيدي الشيوعيين "[10]كما قال وزير خارجيتها دالاس، ولهذا أيدت أمريكا حركات الاستقلال في الشرق وأدى هذا إلى "شعور بالمرارة" في بريطانيا وفرنسا، واشتكى مسئول بريطاني من كون الأمريكيين يرون شخصية جورج واشنطن "في كل حركة منشقة أو ثورية"[11]، وأعلن دالاس مساندة مصر في مطالبتها الانسحاب البريطاني الكامل من أراضيها ثم عارضت بلاده بشدة العدوان الثلاثي سنة 1956 لتكتشف القيادة المصرية في جولة جديدة الحقيقة المرة ذاتها التي

---

(7) نفس المرجع، ص401.

(8) نفس المرجع، ص379.

(9) بنوميشان، 2002، ص23-25.

(10) أورين، 2008، ص500.

(11) نفس المرجع، ص499.

غفلنا عنها فيما سبق وأن "هناك ما يحث الولايات المتحدة على أن تستولي على مكان بريطانيا وفرنسا المفلستين العاجزتين، وعلى فرض نفوذها على الشرق الأوسط"[12]، وأن "الغرب لا يريد أن تتحرر مصر من الوصاية بل يريد أن تظل ضعيفة وتحت رحمته"كما قال الرئيس عبد الناصر[13]، ولهذا انتهت القصة التي بدأت بالإعجاب إلى ضرب الاستعمار هذه التجربة في نكسة 1967.

تكررت دورة الانبهار واليقظة بعد ذلك كثيراً كما مر، في أفغانستان والخليج والعراق وفلسطين، نرفع العلم الأمريكي في يوم لنحرقه في اليوم الذي يليه، وكان هذا دائما يحدث بأثمان باهظة ندفعها، فهل آن أن يتحول وعينا بالولايات المتحدة إلى حقيقة تشبه حقيقة وجودها؟

(12) نفس المرجع، ص504.

(13) بنوميشان، ص27.

المراجع

المراجع العربية

1 - الدكتور أحمد الشرباصي. (1978). **شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام**. بيروت: دار الجيل.

2 - أحمد الشقيري. (2006). **الأعمال الكاملة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

3 - د. أحمد عبد القادر المهندس. (شعبان/يونيو، 1981). الهنود الحمر. **الفيصل** (50)، الصفحات 91-103.

4 - أحمد يوسف أحمد وممدوح حمزة (تحرير). (2003). **صناعة الكراهية في العلاقات العربية- الأمريكية**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

5 - إدوارد سعيد. (1986). **القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

6 - إدوراد سعيد. (1984). **الاستشراق: المعرفة-السلطة-الإنشاء**. (كمال أبو ديب، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

7 - إريك هوبزباوم. (2011). **عصر الإمبراطورية (1875-1914)**. (فايز الصياغ، ترجمة) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

8 - إريك هوبزباوم. (2007). **عصر الثورة: أوروبا (1789-1848)**. (د. فايز الصياغ، ترجمة) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

9 - إريك وولف. (2004). **أوروبا ومن لا تاريخ لهم**. (فاضل جتكر، ترجمة) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

10 - **الأطلس المدرسي للمرحلتين الابتدائية والمتوسطة**. (2008). الكويت: مؤسسة فهد المرزوق الصحفية للطباعة والنشر.

11 - أليكسيس دي توكفيل. (1962). **الديمقراطية في أمريكا**. (أمين مرسي قنديل، ترجمة) القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

12 - أناتول ليفن. (2008). **أمريكا بين الحق والباطل: تشريح القومية الأمريكية**. (د. ناصرة السعدون، ترجمة) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

13 - إيرك شينك مايرز. **ولاياتنا الخمسون**. (أحمد عزت طه، ترجمة)

14 - باسيل يوسف بجك. (2006). **العراق وتطبيقات الأمم المتحدة للقانون الدولي (1990-2005)**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

15 - المطران برتولومي دي لاس كازاس. (1991). **المسيحية والسيف: وثائق إبادة هنود**

القارة الأميركية على أيدي المسيحيين الإسبان، رواية شاهد عيان. (سميرة عزمي الزين، ترجمة) المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
16 - بريان تيرنر. (1981). **ماركس ونهاية الاستشراق.** (يزيد صايغ، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
17 - بسام العسلي. (1986). **المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي (1830-1838).** بيروت: دار النفائس.
18 - بسام العسلي. (1980). **جورج واشنطن 1732-1799.** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
19 - الدكتور بشارة خضر. (2003). **أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
20 - بنوميشان. (2002). **ذكريات سياسية 1957-1958.** بيروت: الدار العربية للموسوعات.
21 - بيتر مانسفيلد. (2011). **تاريخ الشرق الأوسط.** (أدهم وهيب مطر، ترجمة) دمشق: النايا للدراسات والنشر والتوزيع.
22 - بيري أندرسون. (1983). **دولة الشرق الاستبدادية.** (بديع عمر نظمي، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
23 - ت. أ. لورنس. (1979). **أعمدة الحكمة السبعة.** بيروت: دار الآفاق الجديدة.
24 - تزفيتان تودوروف. (1992). **فتح أمريكا: مسألة الآخر.** (بشير السباعي، ترجمة) القاهرة: سينا للنشر.
25 - توماس جيفرسون. (2011). **الديمقراطية الثورية: كيف بنيت أميركا-جمهورية الحرية.** (منيرة سليمان ووليد الحمامصي، ترجمة) بيروت-لندن: دار الساقي.
26 - توماس مور. (1987). **يوتوبيا.** (د. أنجيل بطرس سمعان، ترجمة) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
27 - تيودور هرتزل. (1997). **دولة اليهود: محاولة لإيجاد حل حديث للمسألة اليهودية.** (مؤسسة الأبحاث العربية، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
28 - ثروت عكاشة. (2003). **مصر في عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر).** القاهرة: دار الشروق.
29 - جاك بنوا ميشان. (2010). **الملك سعود: الشرق في زمن التحولات.** (نهلة بيضون، ترجمة) بيروت ولندن: دار الساقي.
30 - جورج أنطونيوس. (1978). **يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية.** (الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، ترجمة) بيروت: دار العلم للملايين.
31 - د. جورج قرم. (2011). **تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب.** (د. رلى ذبيان، ترجمة) بيروت: دار الفارابي.
32 - الدكتور جورج قرم. (1990). **أوروبا والمشرق العربي: من البلقنة إلى اللبننة (تاريخ حداثة غير منجزة).** بيروت: دار الطليعة.
33 - جورج مارسدن. (2001). **الدين والثقافة الأمريكية.** (صادق إبراهيم عودة، ترجمة) بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع.
34 - جورجي كنعان. (1978). **أمجاد إسرائيل في أرض فلسطين.** بيروت: دار الطليعة.
35 - جورجي كنعان. (1977). **وثيقة الصهيونية في العهد القديم.**

36 - جون ستيل جوردون. (2008). **إمبراطورية الثروة: التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية (الجزء الأول) سلسلة عالم المعرفة عدد 357.** (محمد مجد الدين باكير، ترجمة) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
37 - جيرار بن سوسان وجورج لابيكا (تحرير). (2003). **معجم الماركسية النقدي.** صفاقس وبيروت: دار محمد علي للنشر ودار الفارابي.
38 - جيرار لكلرك. (1990). **الأنثروبولوجيا والاستعمار.** (د. جورج كتورة، ترجمة) بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
39 - حبيب قهوجي. (1978). **استيراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة.** دمشق: مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية.
40 - د. حسن الضيقة. (1994). **الآخر في منظور الفكر الغربي الحديث.** بيروت: دار الفكر اللبناني.
41 - حمدان حمدان. (2000). **على أعتاب الألفية الثالثة: الجذور المذهبية لحضانة الغرب وأمريكا لإسرائيل.** بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.
42 - خليل إينالجيك ودونالد كواترت (تحرير). (2007). **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية.** (د. عبد اللطيف الحارس، ترجمة) بيروت: دار المدار الإسلامي.
43 - خليل نخلة. (2004). **أسطورة التنمية في فلسطين.** (ألبرت أغازريان، ترجمة) القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية.
44 - دان لاسي. **مولد أمة.** (لجنة من الأساتذة الجامعيين، ترجمة) بيروت: دار الآفاق الجديدة.
45 - دايان رافيتش (تحرير). (1998). **مختارات من الفكر الأمريكي: كلمات حركت أمة بأسرها.** (نمير عباس مظفر وصادق إبراهيم عودة، ترجمة) عمّان: دار الفارس للنشر والتوزيع.
46 - الدكتور رشاد عبد الله الشامي. (1988). **الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي.** القاهرة: دار المستقبل العربي.
47 - دكتور حسان حلاق. (1999). **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية 1897-1909.** بيروت: دار النهضة العربية.
48 - دكتور حسن صبري الخولي. (1973). **سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين.** القاهرة: دار المعارف بمصر.
49 - دكتور رأفت غنيمي الشيخ. (1979). **أمريكا والعلاقات الدولية.** القاهرة: عالم الكتب.
50 - دكتور عبد المجيد نعنعي. (1983). **تاريخ الولايات المتحدة الأميركية الحديث.** بيروت: دار النهضة العربية.
51 - دوجلاس ليتل. (2009). **الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ 1945.** (طلعت الشايب، ترجمة) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
52 - دي براون. (1982). **تاريخ الهنود الحمر.** (توفيق الأسدي، ترجمة) اللاذقية: دار الحوار.
53 - رالف كيتشام. **ثورة الفكر الأمريكي 1750-1820.** (ثابت رزق الله، ترجمة) القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
54 - رجاء جارودي. (1986). **فلسطين أرض الرسالات الإلهية.** (دكتور عبد الصبور شاهين، ترجمة) القاهرة: دار التراث.

55 - رضا هلال. (2001). **المسيح اليهودي ونهاية العالم: المسيحية السياسية والأصولية في أمريكا**. القاهرة: مكتبة الشروق.
56 - روبرت م. كروندن. (1995). **موجز تاريخ الثقافة الأمريكية**. (مازن حماد، ترجمة) عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.
57 - روبرت مكنامارا وجيمس بلايت. (2003). **شبح ويلسون**. (د. هشام الدجاني، ترجمة) الرياض: مكتبة العبيكان.
58 - روجيه جارودي. (2004). **الإرهاب الغربي (الجزء الثاني)**. (عبد المسيح فلى، ترجمة) القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
59 - روجيه جارودي. (2000). **محاكمة الصهيونية الإسرائيلية**. القاهرة: دار الشروق.
60 - روجيه غارودي. (1998). **كيف نصنع المستقبل**. بيروت: دار عطية للنشر.
61 - رونالد سترومبرج. (1994). **تاريخ الفكر الأوروبي الحديث 1601-1977**. (أحمد الشيباني، ترجمة) القاهرة: دار القارئ العربي.
62 - ريجينا الشريف. (1985). **الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ الغربي- سلسلة عالم المعرفة عدد 96**. (أحمد عبد الله عبد العزيز، ترجمة) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
63 - زاكري كارابل. (2010). **أهل الكتاب: التاريخ المنسي لعلاقة الإسلام بالغرب**. (د. أحمد إيبش، ترجمة) بيروت: دار الكتاب العربي.
64 - زكاري لوكمان. (2007). **تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط**. (شريف يونس، ترجمة) القاهرة: دار الشروق.
65 - زين نور الدين زين. (1977). **الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان**. بيروت: دار النهار للنشر.
66 - زين نور الدين زين. (1986). **نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية**. بيروت: دار النهار للنشر.
67 - سحر الهنيدي. (2003). **التأسيس البريطاني للوطن القومي اليهودي: فترة هربرت صامويل 1920-1925**. (عبد الفتاح صبحي، ترجمة) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
68 - سلطان ناجي. (1976). **التاريخ العسكري لليمن 1839-1967**. الكويت: دار السياسة.
69 - شاخت وبوزورث. (1978). **تراث الإسلام (القسم الأول)**. (الدكتور محمد زهير السمهوري، ترجمة) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
70 - الدكتور شاكر مصطفى (تحرير). (1975). **أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي (ندوة)**. الكويت: جمعية الخريجين وجامعة الكويت.
71 - شعبان عبد الله محمد. (2004). **الأبعاد الفلسفية للسطوة الأمريكية**. الاسكندرية: المكتبة المصرية.
72 - شمعون بيريس. (1994). **الشرق الأوسط الجديد**. (محمد حلمي عبد الحافظ، ترجمة) عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.
73 - صوفي بيسيس. (2002). **الغرب والآخرون: قصة هيمنة**. (نبيل سعد، ترجمة) القاهرة: دار العالم الثالث.
74 - ضياء الدين ساردار. (2012). **الاستشراق: صورة الشرق في الآداب والمعارف الغربية**. (فخري صالح، ترجمة) أبو ظبي: كلمة.

75 - ضياء الدين سردار وميريل وين ديفيز. (2006). **الحلم الأمريكي كابوس العالم**. (فاضل جتكر، ترجمة) الرياض: مكتبة العبيكان.
76 - ضياء الدين سردار وميريل وين ديفيز. (2005). **لماذا يكره العالم أمريكا**. (معين الإمام، ترجمة) الرياض: مكتبة العبيكان.
77 - طارق متري. (2005). **مدينة على جبل؟ عن الدين والسياسة في أميركا**. بيروت: دار النهار.
78 - السلطان عبد الحميد الثاني. (1979). **مذكراتي السياسية 1891-1908**. بيروت: مؤسسة الرسالة.
79 - عبد الحي يحيى زلوم. (2005). **حروب البترول الصليبية والقرن الأمريكي الجديد**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
80 - د. عبد الرحمن بدوي. (1427 (2006)). **موسوعة الفلسفة**. قم: ذوي القربى.
81 - الدكتور عبد العزيز محمد عوض. (1983). **بحوث في تاريخ العرب الحديث (1514-1914)**. عمّان: مكتبة المحتسب.
82 - د. عبد الله إبراهيم. (2003). **المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
83 - الملك عبد الله بن الحسين. (1973). **حقبة من تاريخ الأردن: الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين**. بيروت: الدار المتحدة للنشر.
84 - الدكتور عبد الوهاب الكيالي (تحرير). (1999). **موسوعة السياسة**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
85 - عبد الوهاب المسيري. (2005). **رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمار**. القاهرة: دار الشروق.
86 - عبد الوهاب المسيري. (1999). **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**. القاهرة: دار الشروق.
87 - د. عبد الوهاب المسيري. (1996). **أسرار العقل الصهيوني**. القاهرة: دار الحسام.
88 - د. عبد الوهاب المسيري (تحرير). (1997). **إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**. فرجينيا.
89 - د. عبد الوهاب المسيري. (1997). **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ**. القاهرة: دار الشروق.
90 - د. عبد الوهاب المسيري. (1979). **الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
91 - د. عبد الوهاب المسيري. (2006). **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.
92 - د. عبد الوهاب المسيري. (2003). **في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية**. القاهرة: دار الشروق.
93 - الدكتور عبد الوهاب المسيري. (2003). **الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان**. دمشق وبيروت: دار الفكر ودار الفكر المعاصر.
94 - الدكتور عبد الوهاب المسيري. (29 12، 2004). **الماركسية والتمركز حول الذات الغربية**. تم الاسترداد من الجزيرة نت.

95 - الدكتور عبد الوهاب المسيري. (2010). **حوارات (2): العلمانية والحداثة والعولمة.** (سوزان حرفي، تحرير) دمشق: دار الفكر.

96 - الدكتور عبد الوهاب المسيري. (2002). **من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية (أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني).** دمشق: دار الفكر.

97 - **الصهيونية حركة عنصرية: أبحاث ندوة طرابلس حول الصهيونية والعنصرية 24-28 تموز (يوليو) 1976.** (1979). (عدنان كيالي، ترجمة) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

98 - عزيز حيدر. (1997). **الفلسطينيون في إسرائيل في ظل اتفاقية أوسلو.** بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

99 - عطية الويشي. (2007). **الصراع في الفكر الغربي.** القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

100 -عفاف عنيبة. (2010). **الرؤية الاستعمارية لألكسيس دي توكفيل.** تاريخ الاسترداد 30 6، 2013، من مركز الوفاق الإنمائي: http://wefaqdev.net/index.php?page=studysub_page=view_one&ar_no=155&wr_no=187&ty=1

101 -على الصولي. (2003). **الدين والدولة والمجتمع في مواقف وآثار محمد بيرم الخامس.** دمشق: دار الطليعة الجديدة.

102 -غسان كنفاني. (2006). **عائد إلى حيفا.** بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

103 -فردريك معتوق. (2009). **مرتكزات السيطرة الغربية: مقاربة سوسيو-معرفية.** القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

104 -فريدريك دوغلاس. (1986). **مذكرات عبد أميركي.** (إبراهيم عبد المجيد، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

105 -فلاديمير لوتسكي. (2007). **تاريخ الأقطار العربية الحديث.** بيروت: دار الفارابي.

106 -الدكتور فؤاد زكريا. (1958). **الإنسان والحضارة في العصر الصناعي.** مصر: مركز كتب الشرق الأوسط.

107 -الدكتور فؤاد زكريا. (1991). **العرب والنموذج الأميركي.** القاهرة: مكتبة مصر.

108 -فؤاد شعبان. (2003). **من أجل صهيون: التراث اليهودي-المسيحي في الثقافة الأمريكية.** دمشق: دار الفكر.

109 -فوستر وفوك (تحرير). **ثلاثة قرون من الأدب.** (جبرا إبراهيم جبرا (إشراف)، ترجمة) بيروت: دار مكتبة الحياة.

110 -كارلهاينتس دشنر. (2003). **المولوخ: إله الشر (تاريخ الولايات المتحدة).** (محمد جديد، ترجمة) دمشق: دار قدمس للنشر والتوزيع.

111 -كريستوفر هيتشينز وإدوارد سعيد. (1991). **إلقاء اللوم على الضحايا: الدراسات الزائفة والقضية الفلسطينية.** القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات.

112 -كرين برينتون. (1984). **تشكيل العقل الحديث-سلسلة عالم المعرفة عدد 82.** (شوقي جلال، ترجمة) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

113 -كلود جوليان. (1989). **الحلم والتاريخ.** دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

114 -كليفورد لونجلي. (2003). **الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا.** (دكتور قاسم عبده قاسم، ترجمة) القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

115 -كميل منصور. (1996). **الولايات المتحدة وإسرائيل: العروة الأوثق**. (نصير مروة، ترجمة) بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
116 -لورنس أوليفانت. (2004). **أرض جلعاد: رحلات في لبنان وسورية والأردن وفلسطين (1880)**. (الدكتور أحمد عويدي العبادي، ترجمة) عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
117 -ليني برينر. (1985). **الصهيونية في زمن الديكتاتورية: التاريخ الموثق لعلاقات الصهيونية بالفاشية والنازية**. (د. محجوب عمر، ترجمة) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
118 -ماجد عرسان الكيلاني. (1972). **التحدي الصهيوني في مناهج التعليم العربي في إسرائيل**. بيروت: مكتبة الأقصى.
119 -مارتن برنال. (1997). **أثينة السوداء: الجذور الأفرو آسيوية للحضارة الكلاسيكية (الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق 1785-1985)**. (مجموعة من الأساتذة، ترجمة) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
120 -مارك فرّو (تحرير). (2007). **الاستعمار: الكتاب الأسود (1600-2000)**. بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع.
121 -مازن حماد. (1983). **المذبحة: صبرا وشاتيلا وحصار بيروت يونيو - سبتمبر 1982**. الكويت: طاهر الفرخ.
122 -ماكس فيبر. **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**. (محمد علي مقلد، ترجمة) بيروت: مركز الإنماء القومي.
123 -ماكس ليرنر. (1967). **أمريكا كحضارة**. (راشد البراوي، ترجمة)
124 -ماي ماكنير. (1970). **الهدسون: نهر له تاريخ**. (مصطفى عبد الهادي، ترجمة) القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.
125 -مايكل أورين. (2008). **القوة والإيمان والخيال: أمريكا في الشرق الأوسط منذ عام 1776 حتى اليوم**. (آسر حطيبة، ترجمة) أبو ظبي والقاهرة: كلمة وكلمات عربية للترجمة والنشر.
126 -مجموعة باحثين. (2001). **الإمبراطورية الأمريكية**. القاهرة: مكتبة الشروق.
127 -محمد اسماعيل محمد. (1963). **سيراليون وليبيريا (سلسلة الألف كتاب 449)**. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.
128 -السيد محمد حبيب العبيدي الموصلي. (2003). **جنايات الإنكليز على البشر عامة وعلى المسلمين خاصة**. إربد: دار الكتاب الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع.
129 -محمد شعبان صوان. (2015). **معضلة التنمية الاستعمارية: نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار**. بيروت والجزائر: دار الروافد الثقافية-ناشرون ودار ابن النديم.
130 -محمد شعبان صوان. (2013). **السلطان والمنزل: الحياة الاقتصادية في آخر أيام الخلافة العثمانية ومقاومتها لتمدد الرأسمالية الغربية**. بيروت والجزائر: دار الروافد الثقافية-ناشرون وابن النديم للنشر والتوزيع.
131 -د. محمد النيرب. (1997). **المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية: الجزء الأول حتى 1877**. القاهرة: دار الثقافة الجديدة.
132 -مركز دراسات الوحدة العربية. (2007). **الحرب على العراق: يوميات-وثائق-تقارير (1990-2005)**. بيروت.

133 -منير العكش. (2009). **أميركا والإبادات الثقافية: لعنة كنعان الإنكليزية.** بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

134 -منير العكش. (2002). **أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر.** بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

135 -منير العكش. (2012). **أميركا والإبادات الجنسية: 400 سنة من الحروب على الفقراء والمستضعفين في الأرض.** بيروت: رياض الريس للكتب والنشر.

136 -موريس كروزيه (تحرير). (2006). **تاريخ الحضارات العام.** (يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، ترجمة) بيروت: عويدات للنشر والطباعة.

137 - الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني: الدراسات. (1990). بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية.

138 -مي محمد الخليفة. (1998). **سبز آباد ورجال الدولة البهية: قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربي.** بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

139 -ميخائيل سليمان (تحرير). (1996). **فلسطين والسياسة الأمريكية من ويلسون إلى كلينتون.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

140 -ميلفن آي أوروفسكي. (1998). **قراءات أساسية في الديمقراطية الأمريكية.** (د. شحادة فارع، ترجمة) عمّان: دار البشير.

141 -الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور. (2007). **تأثير الخلافات الأمريكية-الأوروبية على قضايا الأمة العربية: حقبة ما بعد الحرب الباردة.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

142 -نبيل مطر. (2012). **الأتراك والإنكليز والمغاربة في عصر الاستكشاف.** (د. محمد عصفور، ترجمة) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

143 -د. نديم نجدي. (2005). **أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر.** بيروت: دار الفارابي.

144 -نعوم تشومسكي. (1997). **تواريخ الانشقاق.** (ديفيد بارساميان، تحرير، ومحمد نجار، ترجمة) عمّان: الأهلية للنشر والتوزيع.

145 -نعوم تشومسكي. (1998). **قوى وآفاق: تأملات في الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي.** (ياسين الحاج صالح، ترجمة) دمشق: دار الحصاد.

146 -نعوم تشومسكي. (1998). **ماذا يريد العم سام؟!!** (عادل المعلم، ترجمة) القاهرة: دار الشروق.

147 -نعوم شومسكي. (1999). **سنة 501: الغزو مستمر.** (مي النبهان، ترجمة) دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.

148 -نور الدين مصالحه. (1992). **طرد الفلسطينيين: مفهوم "الترانسفير" في الفكر والتخطيط الصهيونيين 1882-1948.** بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

149 -هاري ماجدوف. (1981). **الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم.** بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

150 -هيلين هنت جاكسون. (1964). **رامونا.** (حسين القباني، ترجمة) القاهرة: دار النهضة العربية.

151 -والتر أ. مكدوجال. (2001). **أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا في مواجهة العالم منذ 1776.** (رضا هلال، ترجمة) القاهرة: دار الشروق.

152 -وكالة الإعلام الأمريكية. **موجز التاريخ الأمريكي**.
153 -ول ديورانت. (1971). **قصة الحضارة** (المجلد 24). (الدكتور عبد الحميد يونس، ترجمة) القاهرة: الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.
154 -وليام روجر لويس. (يناير، 1986). موقف أمريكا المناهض للاستعمار وتفكيك الإمبراطورية البريطانية. **مجلة الثقافة العالمية** (26)، الصفحات 7-44.
155 -وليد الخالدي. (2002). **الصهيونية في مئة عام: من البكاء على الأطلال إلى الهيمنة على المشرق العربي (1897-1997)**. بيروت: دار النهار للنشر.
156 -وليد الخالدي. (1998). **خمسون عاماً على تقسيم فلسطين**. بيروت: دار النهار.
157 -وليد الخالدي. (2009). **فلسطين وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية والنادي الثقافي العربي.
158 -وليد الخالدي. (1998). **كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شهدائها**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
159 -د. وهيب أبي فاضل. (2007). **موسوعة عالم التاريخ والحضارة**. نوبليس.
160 -يوجين روجان. (2011). **العرب من الفتوحات العثمانية إلى الحاضر**. (محمد إبراهيم الجندي، ترجمة) القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر.
161 -الدكتور يوسف الحسن. (1990). **البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي-الصهيوني (دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية)**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

الكتب الأجنبية

162- Alan Gallay. (2002). *The Indian Slave Trade: The Rise of the English Empire in the American South 1670-1717*. New Haven & London: Yale University Press.
163- Alvin M. Josephy, Jr. (1989). *Now That the Buffalo's Gone*. Norman: University of Oklahoma Press.
164- Angie Debo. (1983). *A History of the Indians of the United States*. Norman: University of Oklahoma Press.
165- Anthony F. C. Wallace. (1999). *Jefferson and the Indians: The Tragic Fate of the First Americans*. Cambridge ،Massachusetts: The Beknap Press of Harvard University Press.
166- Armstrong Starkey. (1998). *European and Native American Warfare, 1675-1815* . Norman : University of Oklahoma Press.
167- Arnold Marquis. (1987). *A Guide to America's Indians: Ceremonials, Reservations and Museums*. Norman: University of Oklahoma Press.
168- Asher Kaufman. (2004). *Reviving Phoenicia: The Search for Identity in Lebanon*. London and New York :I. B. Tauris.
169- Benjamin Capps. (1981). *The Indian*. Alexandria ،Virginia: Time-Life Books.
170- Benjamin Capps. (1982). *The Great Chiefs*. Alexandria ،Virginia: The Tim-Life Books.
171- Benny Morris. (2001). *Righteous Victims: A History of the Zionist-Arab Conflict, 1881-2001*. New York: Vintage Books.
172- Bernard Lewis. (2004). *From Babel to Dragomans: Interpreting the Middle East*. Oxford University Press.
173- Bill Yenne. (1986). *The Encyclopedia Of North American Indian Tribes: A Comprehensive Study of Tribes from Abitibi to the Zuni*. London: Bison Books.
174- Bruce E. Johansen and Donald A. Grinde. (1998). *The Encyclopedia of Native American Biography*. New York: Da Capo Press.
175- Bruce Grant. (2000). *Concise Encyclopedia of the American Indian*. New York: Wings Books.

176- Carl Waldman. (2000). *Atlas of The North American Indian*. New York: Checkmark Books.
177- Carl Waldman. (2006). *Encyclopedia of Native American Tribes*. New York: Facts On File, Inc.
178- Charles Issawi. (2010). *An Economic History of the Middle East and North Africa*. London : Routledge.
179- Clarck Wissler. (1989). *Indians of the United States*. New York: Anchor Books.
180- Clark Wissler. (1966). *Indians of the United States*. New York: Doubleday and Company.
181- Clifford E. Trafzer (Ed). (2009). *American Indians American Presidents: A History*. New York: Smithsonian.
182- Colin G. Calloway. (1995). *The American Revolution in Indian Country: Crisis and Diversity in Native American Communities*. Cambridge: Cambridge University Press.
183- Colin G. Calloway. (2006). *The Scratch of a Pen: 1763 and the Transformation of North America*. Oxford: Oxford University Press.
184- David A. Nicholas. (2000). *Lincoln and the Indians: Civil war Policy* & Politics. Chicago: University of Illinois Press.
185- David E. Stannard. (1992). *American Holocaust: The Conquest of the New World*. Oxford & New York: Oxford University Press.
186- David J. Wishart. (1994). *An Unspeakable Sadness: The Dispossession of the Nebraska Indians* . Lincoln : University of Nebraska Press.
187- David La Vere. 2000).(. *Contrary Neighbors: Southern Plains and Removed Indians in Indian Territory*. Norman: University of Oklahoma Press.
188- David Murdoch. (1995). *North American Indian*. London & New York & Stuttgart: Dorling Kindersley.
189- David Nevin. (1981). *The Soldiers*. Alexandria ، Virginia: The Time-Life Books.
190- David Reynolds. (2009). *America, Empire of Liberty: A New History of the United States*. New York: Basic Books.
191- David Svaldi. (1989). *Sand Creek and the Rhetoric of Extermination: A Case Study in Indian-White Relation*. London: University Press of America.
192- David Wallace Adams. (1997). *Education for Extinction: American Indians and the Boarding School Experienc*. Lawrence: University Press of Kansas.
193- Donald J. Berthrong. (1992). *The Cheyenne and Arapaho Ordeal: Reservation and Agency Life in the Indian Territory, 1875-1907*. Norman: University of Oklahoma Press.
194- Donald L. Fixico. (1998). *The Invasion of Indian Country in the Twentieth Century: American Capitalism and Tribal Natural Resorces*. Lincoln: University of Nebraska Press.
195- Dore Gold. (2003). *How Saudi Arabia Supports the New Global Terrorism*. Washington: Regnery Publishing, Inc.
196- Edger I. Stewart. (1987). *Custer's Luck*. Norman: University of Oklahoma Press.
197- Edmond S. Morgan. (2005). *American Slavery, American Freedom*. New York: History Book Club.
198- Edward Lazarus. (1999). *Black Hills White Justice: The Sioux Nation versus the United States, 1775 to the Presesnt*. Lincoln: University of Nebraska Press.
199- Ehud R. Toledano. (1998). *Slavery and Abolition in the Ottoman Middle East*. Seattle: University of Washington Press.
200- Elizabeth I. Hanson. (1991). *Thoreau's Indian of the Mind*. Lewiston ، New York: The Edwin Mellen Press.
201- Encyclopedia Britannica. 15^{th} Edition. (1987). Chicago.
202- Eric B. Schultz and Michael J. Tougias. (1999). *King Philip's War: The History and Legacy of America's Forgotten Conflict*. Woodstock ، Vermont: The Countryman Press.
203- Eric Foner. (2005). *Give Me Liberty: An American History* (Vol. 1). New York: W. W. Norton & Company.
204- Eric Foner. (2005). *Reconstruction: America's Unfinished Revolution: 1863-1877*. New York : History Book Club.
205- Fiona Macdonald. (1993). *Native Peoples of North America*. London: Collins Educational.
206- Francis Jennings. (2000). *The Creation of America: Through Revolution to Empire*. Cambridge: Cambridge University Press.

207- Francis Jennings. (1976). *The Invasion of America: Indians, Colonialism, and the Cant of Conquest*. New York: W. W. Norton & Company, Inc.
208- Francis Paul Prucha. (1995). *The Great Father: The United States Goverrnment and the American Indians*. Lincoln: University of Nebraska Press.
209- Frank Waters. (1998). *Brave Are My People: Indian Heroes Not Foregotten*. Athens ،Ohio: Swallow Press/ Ohio University Press.
210- Frederick E. Hoxie (Ed). (1996). *Encyclopedia of North American Indians*. Boston: Houghton Mifflin Company.
211- Frederick W. Nolan. (1975). *The Pilgrim Fathers*. London: Macdonald and Company.
212- Gary Clayton Anderson. (2005). *The Conquest of Texas: Ethnic Cleansing in the Promised Land 1820-1875*. Norman: University of Oklahoma Prees.
213- General George Crook. (1986). *General George Crook: His Autobiography*. Norman: University of Oklahoma Press.
214- Geoffrey C. Ward. (1996). *The West: An Illustrated History*. Boston :Little Brown and Company.
215- George E. Hyde. (1993). *A Sioux Chronicle*. Norman: University of Oklahoma Press.
216- Grant Foreman. (1972). *Indian Removal*. Norman: University of Oklahoma Press.
217- Grant Foreman. (1934). *The Five Civilized Tribes: Cherokee. Chickasaw. Choctaw. Creek. Seminole*. Norman: University of Oklahoma Press.
218- Helen C. Rountree. (1996). *Pocahontas's People: The Powhatan Indians of Virginia Through Four Centuries*. Norman: University of Oklahoma Press.
219- Howard R. Lamar (Ed). (1998). *The New Encyclopedia of the American West*. New Haven: Yale University Press.
220- Howard R. Lamar (Ed). (1977). *The Reader's Encyclopedia of the American West*. New York: Thomas Y. Crowell Company.
221- Jack Utter. (2001). *American Indians: Answers to Today's Questions*. Norman: University of Oklahoma Press.
222- James Oliver Horton and Lois E. Horton. (2004). *Slavery and the Making of America*. Oxford University Press.
223- Jay H. Buckley. (2008). *William Clark: Indian Diplomat*. Norman: University of Oklahoma Press.
224- Jeffrey Ostler. (2010). *The Lakotas and the Black Hills*. New York: Viking.
225- Jennifer and Martin Tucker. (1996). *The American West*. Cheltenham ،England: Stanley Thornes.
226- John A. Garraty and Jerome L. Sternstein (Ed). (1995). *Encyclopedia of American Biography*. New York: Harper Collins Publishers.
227- John D. McDermott. (1998). *A Guide to the Indian Wars of the West*. Lincoln: University of Nebraska Press.
228- John Ehle. (1988). *Trail of Tears: The Rise and Fall of the Cherokee Nation*. New York: Anchor Books.
229- John Rose. (2004). *The Myths of Zionism*. London :Pluto Press.
230- Jon Kukla. (2007). *Mr. Jefferson's Women*. New York :Alfred A. Knopf.
231- Jon Manchip White. (1979). *Everyday Life of the North American Indians*. New York :Dorset Press.
232- Joseph Wheelan. (2003). *Jefferson's War: American First War on Terror 1801-1805*. New York: Carroll & Graf Publishers.
233- Joy Hakim. (2003). *A History of U S*. New York: Oxford University Press.
*234- Kingfisher History Encyclopedia.*ˇ¿¿¿. London :Kingfisher Publications Plc.
235- Laurence M. Hauptman and James D. Wherry (Ed). (1993). *The Pequots in Southern New England: The Fall and Rise of an American Indian Nation*. Norman: University of Oklahoma Press.
236- Leslie Tillett. (1976). *Wind on the Buffalo Grass: The Indians' Own Account of the Battle at the Little Big Horn River*، & the Death of their Life on the Plains. New York: Thomas Y. Crowell Company.
237- Margaret Meserve. (2008). *Empires of Islam in Renaissance Historical Thought*. Cambridge ،Massachusetts: Harvard University Press.
238- Mari Sandoz. (1964). *Cheyenne Autumn*. New York :Avon Books.

239- Mark Diedrich. (1998). *Sitting Bull: The Collected Speeches*. Rochester، Minnesota: Coyote Books.
240- Michael B. Oren. (2007). *Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East 1776 to the Present*. New York and London: W. W. Norton & Company.
241- Michael G. Johnson. (2007). *Encyclopedia of Native Tribes of North America*. Buffalo ،New York: Firefly Books.
242- Michael Paul Rogin. (1975). *Fathers* & Children: Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian. New York :Alfred A. Knopf.
243- Morris Jastrow. (2010). *The War and the Bagdad Railway: The Story of Asia Minor and it(s) Delation (Relation) to the Present Conflict*. Charleston ،South Carolina: Biblio Life.
244- New Standard Encyclopedia.¿¿¿. Chicago: Ferguson Publishing Company.
245- Norman N. Lewis. (2009). *Nomads and settlers in Syria and Jordan, 1800-1980*. Cambridge University Press.
246- Ogden Tanner. (1976). *The Canadians*. Alexandria ،Virginia: The Time-Life Books.
247- Paul Kelton. (2007). *Epidemics* & Enslavement: Biological Catastrophe in the Native Southeast 1492-1715. Lincoln: University of Nebraska Press.
248- Paula Mitchell Marks. (1998). *In A Barren Land: American Indian Dispossession and Survival*. New York: William Morrow and Copany, Inc.
249- Pekka Hamalainen. (2008). *Comanche Empire*. New Haven and London: Yale University Press.
250- Peter S. Onuf. (2000). *Jefferson's Empire: The Language of American Nationhood*. Charllottesville: University Press of Virginia.
251- Ralph K. Andrist. (1993). *The Long Death: The Last Days of the Plains Indian*. Norman: University of Oklahoma Press.
252- Raymond William Stedman. (1982). *Shadows of the Indian: Stereotypes in American Culture*. Norman: University of Oklahoma Press.
253- Reginald Horsman. (1992). *Expansion and American Indian Policy, 1783-1812*. Norman: University of Oklahoma Press.
254- Rennard Strickland. (1981). *The Indians of Oklahoma*. Norman: University of Oklahoma Press.
255- Richard Carlisle (Ed). (1978). *The Illustrated Encyclopedia of Mankind*. New York: Marshall Cavendish Corp.
256- Richard Drinnon. (1997). *Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating* & Empire-Building. Norman: University of Oklahoma Press.
257- Richard Slotkin. (2000). *Regeneration through Violence: the Mythology of the American Frontier 1600-1860*. Norman: University of Oklahoma Press.
258- Richard Slotkin. (1998). *The Fatal Environment: The Myth of the Frontier in the Age of Industrialization, 1800-1890*. Norman: University of Oklahoma Press.
259- Robert A. Rosenbaum. (2003). *The Penguin Encyclopedia of American History*. New York: Penguin Reference.
260- Robert A. Williams, Jr. (1990–1992). *The American Indian in the Western Legal Thought: The Discourses of Conquest*. Oxford: Oxford University Press.
261- Robert Aldrich (Ed). (2007). *The Age of Empires*. London: Thames & Hudson.
262- Robert F. Heizer. (1993). *The Destruction of California Indians*. Lincoln: University of Nebraska Press.
263- Robert M. Owens. (2007). *Mr. Jefferson's Hammer*. Norman: University of Oklahoma Press.
264- Robert M. Utely. (2002). *The Indian Frontier of the American West 1846-1890*. Albuquerque: University of New Mexico Press.
265- Robert M. Utley. (2002). *The Indian Frontier of the American West, 1846-1890*. Albuquerque: University of New Mexico press.
266- Roy Harvey Pearce. (1988). *Savagism and Civilization: A Study of the Indian and the American Mind*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press.
267- Russell Thornton. (1990). *American Indian Holocaust and Survival: A Population History Since 1492*. Norman: University of Oklahoma Press.
268- Samuel Willard Crompton (Ed). (1999). *Illustrated Atlas of Native American History*. Edison ،New Jersey: Chartwell Books, Inc.

269- Simon Schama. (2006). *Rough Crossing: Britain, The Slaves and the American Revolution*. New York: Harper Collins Publishers.
270- Stan Hoig. (1990). *The Peace Chiefs of the Cheyennes*. Norman: University of Oklahoma Press.
271- Stuart Banner. (2005). *How the Indians Lost Their Land: Law and Power on the Frontier*. Cambridge ،Massaachusetts: The Belknap Press of Harvard University Press.
272- Sydney E. Ahlstrom. (1972). *A Religious History of the American People*. New Haven: Yale University Press.
273- T.C. McLuhan. (1986). *Touch the Earth: A Self-Portrait of Indian Existence*. London: Abacus.
274- The Editors of Time-Life Books. (1992). *The European Challenge*. Alexandria، Virginia.
275- The New York Public Library. (1997). *American History Desk Reference*. New York: Macmillan.
276- Thom Hatch. 2004).(. *Black Kettle: The Cheyenne Chief Who Sought Peace but Found War*. Hoboken ،New Jersey: John Wiley & Sons, Inc.
277- Thomas B. Allen (Ed). (1988). *We Americans: A Volume in the Story of Man Liberty*. Washington: The National Geographic Society.
278- Thomas J. Sugrue. (2008). *Sweet Land of Liberty: The Forgotten Struggle for Civil Rights in the North*. New York: Random House.
279- Tony Boddington (Ed). (1977). *The American West 1840-95*. Edinburgh ،Britain: Holmes McDougall Ltd.
280- Vine Deloria, JR (Ed). (1985). *American Indian Policy in the Twentieth Century*. Norman: University of Oklahoma Press .
281- Vine Deloria, Jr. (1988). *Custer Died for Your Sins: An Indian Manifisto*. Norman: University of Oklahoma Press.
282- Vine Deloria, JR. (1992). *God Is Red: A Native View of Religion*. Golden،
283- Virginia Luling. (1984). *Indians of the North American Plains*. London: Macdonald Educational.
284- W. Ben Hunt. (1973). *Indian Crafts and Lore*. London: Hamlyn.
285- Ward Churchill. (2004). *Kill the Indian Save the Man: The Genocidal* Impact of American Indian Residential Schools. San Francisco: City Light Publishers.
286- Wilbur R. Jacobs. (1985). *Dispossessing the American Indian: Indians and Whites on the Colonial Frontier*. Norman: University of Oklahoma Press.

287- Wilcomb E. Washburn (Ed). (1988). *History of Indian-White Relation*. Washington: Smithsonian Institution.
288- Wiley Sword. (1993). *President Washington's Indian War: The Struggle for the Old Northwest, 1790-1795*. Norman: University of Oklahoma Press.
289- William Brandon. (1985). *Indians*. New York: American Heritage.
290- William Bright. (2007). *Native American Placenames of the United States*. Norman: University of Oklahoma Press.
291- William J. Bennett. (2006). *America: The Last Best Hope* (Vol. 1). Nashville، Tennessee: Thomas Nelson.
292- William W. Savage, Jr (Ed). (1977). *Indian Life: Transforming an American Myth*. Norman: University of Oklahoma Press.

مواقع الإنترنت

http://puttingzone.com/indians.html
http://www.nrcprograms.org/site/PageServer?pagename=naa_livingconditions
- http://www.cbn.com/cbnnews/337439.aspx
http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
http://www.guardian.co.uk/world/2012/apr/22/un-investigate-us-native-americans
- http://www.franz-marc-gymnasium.de/mobil/englisch/englisch11/seiten/na_nativea.htm
- http://planetearthandhumanity.blogspot.com/2012/05/who-is-1-in-gambling.html
- http://en.wikibooks.org/wiki/American_Indians_Today/Current_problems
http://albayan.co.uk/article.aspx?id=3863

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84_%-D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%A9
http://www.palestineremembered.com/Articles/ArabicMaps/Story2527.html
http://fanack.com/typo3temp/pics/refugees_jordan_fedayin_1970_keystone_hh_02854178_01_1ca73e940f.jpg
https://elysebruce.wordpress.com/tag/colonel-john-m-chivington/
http://indiancountrytodaymedianetwork.com/2013/09/03/native-history-how-one-lame-cow-sparked-events-leading-plains-wars-151133
http://www.nps.gov/sand/parknews/a-tale-of-two-treaties.htm
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%82%D8%A7%D9%84%D8%A8:%-D8%AE%D8%B1%D9%8A%D8%B7%-D8%A9_%D9%84%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A7%-D8%AA_%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%-D8%A9_%D8%A8%D8%A3%D8%B3%D9%85%D8%A7%D8%A1_%-D8%A7%D9%84%D9%88%D9%84%D8%A7%D9%8A%D8%A
http://lochgarry.files.wordpress.com/2011/11/indian-cultures-map.jpg
http://aventalearning.com/content168staging/2008AmHistA/unit1/html/section_6_page_15.html
http://wiki.answers.com/Q/Why_are_the_Pilgrims_called_Pilgrims#slide4
http://en.wikipedia.org/wiki/Bison_hunting
http://en.wikipedia.org/wiki/Black_Hawk_(Sauk_leader)
http://en.wikipedia.org/wiki/Black_Hills_Land_Claim
http://historydilemmas.weebly.com/struggle-over-western-lands.html
http://www.tngenweb.org/tnletters/usa-west.htm
http://en.wikipedia.org/wiki/File:KingPhilip_1827_BenjaminChurch_SamuelDrake04264001.jpg
http://en.wikipedia.org/wiki/File:LouisianaPurchase.png
http://missasmith.wikispaces.com/French+and+Indian+War
http://en.wikipedia.org/wiki/Manhattan
http://dougdawg.blogspot.com/2010/10/maps-and-history-of-oklahoma-county.html
http://www.ancientworlds.net/aw/Places/District/459390
http://www.ohiohistorycentral.org/w/Northwest_Territory?rec=772&nm=Northwest-Territory
http://mavery.edublogs.org/october-newsletter/
http://en.wikipedia.org/wiki/Peter_Minuit
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%8A%D8%B1%-D9%8A%D8%A7
http://en.wikipedia.org/wiki/Philip_Sheridan
http://www.factmonster.com/spot/lewisandclark.html
http://www.britannica.com/blogs/2011/03/lewis-clark-expedition-picture-day/
https://www.youtube.com/watch?v=nvHCacbtg9E
http://en.wikipedia.org/wiki/Thomas_Jefferson_and_Indian_removal
http://www.youtube.com/watch?v=_RrJYp3lypY
http://en.wikipedia.org/wiki/United_States_territorial_acquisitions

http://kids.britannica.com/elementary/art-174092/Roger-Williams
http://warfarehistorian.blogspot.com/2012/08/this-day-in-history-metacomets.html
http://en.wikipedia.org/wiki/Treaty_of_Guadalupe_Hidalgo
http://2012books.lardbucket.org/books/united-states-history-volume-2/s06-04-imperialism-at-home-and-abroad.html
http://users.humboldt.edu/ogayle/hist110/unit3/indians.html http://en.wikipedia.org/wiki/File:United_States_1812-06-1812-12.png http://www.iangoddard.com/roger.htm http://homes.chass.utoronto.ca/~reak/hist/naclaim.htm
http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/8344449.stm
http://en.db-city.com/United-States–Indiana–Tippecanoe–Battle-Ground
http://www.studyblue.com/notes/note/n/29-indian-removal/deck/4930588